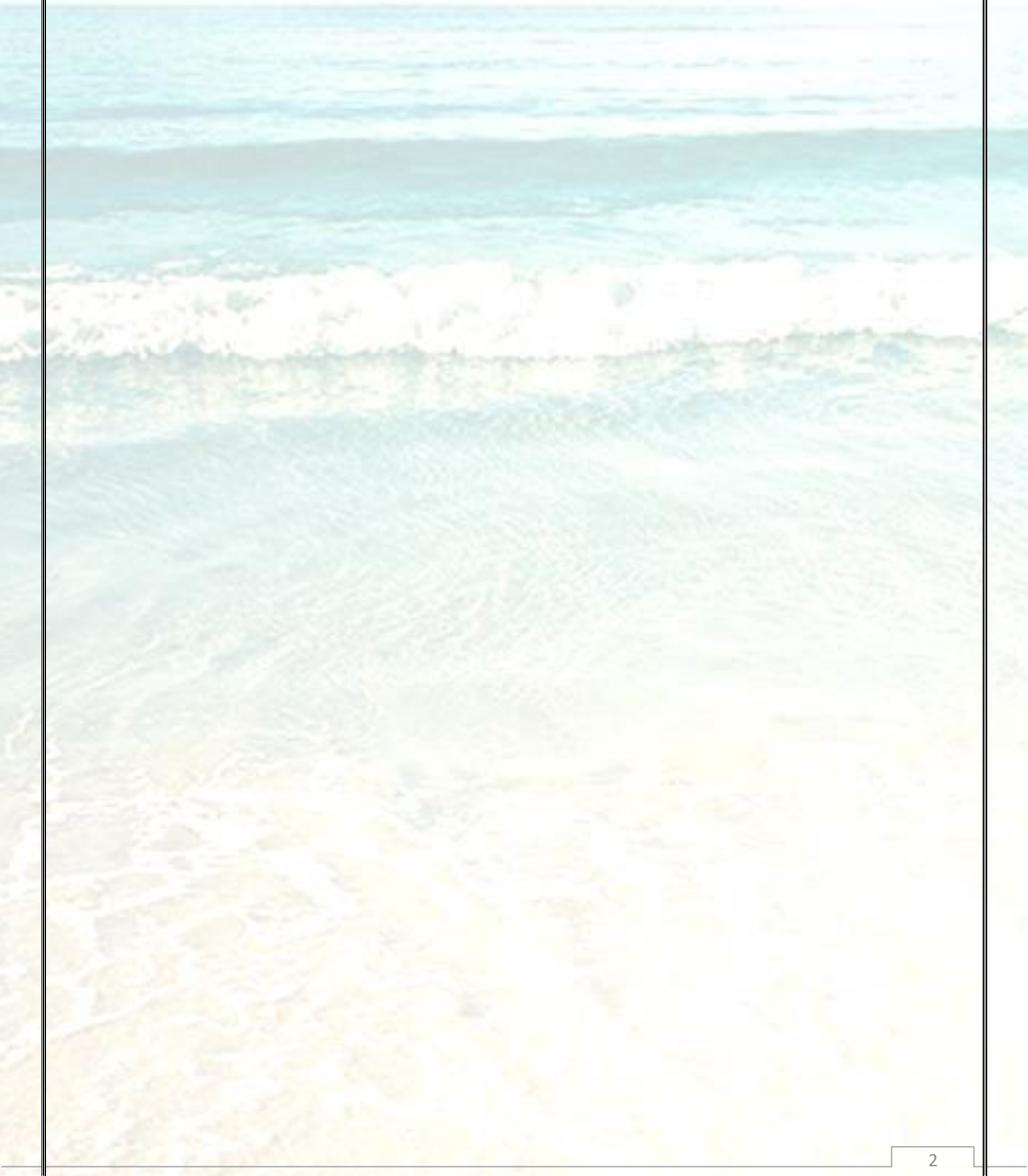


منال محمد سالم

﴿ الطَّاوُوسُ الأُيُضُ ﴾





رواية

"الطاووس الأبيض"

الجزء الأول

منال محمد سالم

جميع حقوق النشر محفوظة

لموقع

<https://www.facebook.com/LoveStories.by.Man/alSalem>

قصص وروايات بقلم منال سالم



نوع العمل: رواية

اسم العمل: الطاووس الأبيض الجزء الأول

اسم المؤلف: منال محمد سالم

الطبعة الأولى (إلكترونية) 2020

الناشر: موقع قصص وروايات بقلمي منال سالم

التدقيق اللغوي: منال محمد سالم

تصميم الغلاف: منال محمد سالم

التصميم الداخلي: منال محمد سالم

جميع حقوق النشر الإلكترونية محفوظة لموقع قصص وروايات بقلمي منال سالم

[/https://www.facebook.com/LoveStories.by.ManalSalem](https://www.facebook.com/LoveStories.by.ManalSalem)



-الإهداء-

إلى كل قارئ اسـ تـمـر وقت فراغه في متابعة الرواية والاسـ تـمـتـع بالأجواء البسيطة في الأحياء والأزقة المصرية.

منال سالم

-كلمة البداية-

(أحداث تلك الرواية مأخوذة من مواقف أغلبها حدث بالفعل، لكن تختلف البيئات، والأزمان، وحتى الشخصيات.. كقارئ ربما لن تشعر بالغرابة إن صادفك موقف شعرت فيه أنك عايشة تجربة مماثلة، فكل شيء جائز خلال متابعتك لفصول العمل، ما عليك إلا أن تطلق العنان لخيالك، وتستمتع بالتجربة وتتفاعل مع الأبطال.. هنا أنت لست بقارئ فقط، وإنما جزء من الأحداث.)

-المقدمة-

بلغت ألسنة اللهب عنان السماء في أقل من لحظاتٍ بعد اندلاع النيران في محل بيع الطلاء الكائن بالمنطقة المأهولة بالسكان المحليين من ذوي الطبقة المتوسطة والفقيرة، تعالت الصرخات المفزوعة واختلطت مع الأصوات التحفيزية لإيقاظ ما يمكن إيقاظه قبل أن يتفاقم الوضع أكثر من ذلك وتطال النيران المستعرة المباني المجاورة ويحدث ما لا يُحمد عقباه. حملت الصغيرة ذات الجديلتين السوداوتين بعينين متسعيتين في رعبٍ في اللافتة المتأكلة والتي أوشكت على السقوط، حاولت تحذير ذلك الصبي الذي جاهد لإطفاء النيران من جهته مستخدمًا دلوا معدنيًا مملوءًا بالماء، لكن صوتها الضعيف لم يصل إليه وسط الجلبة الصاخبة التي تصم الأذان. انقبض قلبها في هلع أشد حينما وقع جزء خشبي منها على كتفه فطرح أرضًا، هرولت بشجاعة متهورّة تناقض سنوات عمرها الصغيرة نحوه لتهب لنجدته بعد أن سكن جسده كليًا، جثت على ركبتيها تهزه بعنفٍ.. لا استجابة على الإطلاق! تلفتت حولها باحثة عن مساعدتها، الكل مشغولٌ بإخماد الحريق الهائل، نهضت مستندة على كفيها لتقف عند قدميه، انحنى عليه بجسدها الهزيل لتمسك به من عقبيه، حاولت جره بعيدًا عن النيران لكنها لم تستطع، فقد كان وزنه ثقيلًا بالنسبة لها. لهثت وتعرقت وتسارعت أنفاسها، ومع ذلك لم تياس، استمرت في المحاولة مستنزفة كل قواها، بدأت في السعال المتألم بعد أن ازدادت كثافة سحب الدخان الذي عبأ المكان وملاه. توقفت عن سحبه لتضع يدها على أنفها مانعة نفسها من استنشاق المزيد من الأدخنة الخائقة، جابت بنظراتها المرتاعة المكان الذي تحول لكتلة من الضباب وهي معتقدة أنها النهاية، لا مخرج.. لا نجاة، تهاوت جاثية على ركبتيها وقلبها يكاد ينخلع من عنف دقاته، وضعت يديها المرتعشتين حول عنقها المتيبس تتحسسسه في عجزٍ، وكأنها تستجدي بذلك آخر نفيس لها في الحياة.

الفصل الأول

رفع ثقل جسده عن الأرضية الباردة للمرة الثلاثين مستخدماً مرفقيه دون أدنى شكوى، وكأنه لا يزن إلا مثقال ريشة، صفق السجناء في انبهارٍ وهم يحمسوه على فعل المزيد، وبالرغم من العرق الغزير الذي ينهمر من خلايا جسده إلا أن أصواتهم التحفيزية حثته على الاستجابة لمطلبهم وزاد العدد حتى بلغ الخمسين رفعة، ثم نهض واقفاً على قدميه يمسح العرق العالق بأصابعه وخاصة حول خاتم خطبته، تلفت حوله والتصفيفات المصحوبة بالصافرات والتهليلات تشجعه، تعلقت العين المتباهية بإنجازه بوجهه ذي البشرة القمحية والخبي خلف ذقنه التي استطلت، بدا غير متأثر بتفاخرهم به، مرر يده على رأسه الحليق يمسحها، كانت نظراته التي تنبعث من حدقتيه البنيتين تعبر عن قوة واستبسال لا حدود لهما، حتى بنيتة الجسمانية ذات لياقة عالية. لكزه أحدهم في جانب ذراعه يمدحه:

-عاش يا وحش!

ارتسم على جانب شفتي "تميم" بسمة متهمكة، مسح بظهر كفه عرقه المتصبب على جبينه وعينيه، ثم أردف قائلاً بصوته الأجلش:

-خلي الكلاب اللي هنا تعرف من ريس المخروبة دي.

قال وهو يزيد في مدحه:

-هو في حد يقدر يقول غير كده يا كبيرنا؟

ثم ناوله منشفة نظيفة ليمسح بها عرقه قبل أن يتجه لأحد الأسرة التي تنتصف عنبر الحبس، جلس "تميم" على الفراش القديم منكساً رأسه المشحون قليلاً، ما زال شأن عائلته يشغل باله، ها قد تبقى القليل ليعود إليهم بعد سنواته الخمس التي قضاهها هنا في ذلك المكان الكئيب المستنزف للأعمار. ضاقت نظراته بجدة وزميله في محبسه يسأله:

-بتفكر في إيه يا معلم؟

رفع عينيه المتحدثين نحوه ليسأله بخشونة مانعاً إياه من اقتحام خصوصيته:

هنطفح إيه النهاردة؟

تنحنا قائلاً بصوت مهتر:

أوامرك يا كبير، أنا هاروح أشوف جاه إيه من الزيارة وأوضبه لجنايبك.

تحرك مبتعداً عنه ليتركه جالساً بمفرده، فلم يجرؤ أي أحد سواه من السجناء على محادثته دون السماح له أولاً بذلك، كانت له هيبة طاغية ومرعبة وسط عتاة الإجرام، كما اكتسب منذ الليلة الأولى التي قضاها هنا شعبية عظيمة، وذلك لنجاحه في التغلب على واحدٍ من أشد السجناء شراسةً ممن حاولوا التحرش به وإذلاله وكسر كبريائه، قضى عليه وأهانته بشكلٍ مذل ليحتل بعدها مكانته وينال ذلك الشرف العظيم، لم تكن لتضيع سنوات عمره هباءً لولا ما فعله للعائلة، تلك التي تأتي على رأس أولوياته وإن كلفته حياته، لن يتغاضى للحظة عن الدفاع عن أفرادها حتى لو كان مصيره التهلكة. أغلق "تميم" دفتر الماضي بما فيه من أحداث رافضاً الخوض في المزيد من تفاصيله التي تزيد ضيقاً وألمًا، استلقى على الفراش يثني ركبته أمام صدره، ثم فرغ فقرات عنقه بتحريكه للجانبين، انخفضت عيناه نحو خاتم الخطبة الذي يزين إصبعه، أداره بجرعة ثابتة لعدة مرات وهو يفكر في أمرها، تلك التي انتظرت له لما يقرب من سبعة أعوام متسائلاً في نفسه إن كان لا يزال يكن لها نفس المشاعر أم باتت واجباً عليه أدائه إكراماً لإخلاصها معه. تهيدة ثقيلة خرجت من فمه ليرفع رأسه بعدها للأعلى محققاً في سقفة العنبر الكئيبة بغير هدفٍ محدد.

.....

دارت عيناه الخبيرتان بطول الشارع المعتم نسبياً فاحصاً بدقة كل زاوية فيه ليتأكد من عدم مراقبة أحدهم له، كان قد درس المنطقة جيداً وحدد هدفه التالي بعد مراقبة متأنية لوقت معقول في ذلك الحي السكني المعروف عنه ببراء قاطنيه، انتقى البقعة المناسبة للوقوف بها والاختباء إن لزم الأمر دون أن يثير الريبة بين قاطنيتها ليظن من يتطلع إليه أنه عامل النظافة المجد في عمله. انتهى "حمص" من تدخين الجزء المتبقي من سيجارته رديئة الصنع ليلقي ببقايا عقبها أسفل قدمه، دعسها بجذائه القديم مومئاً برأسه لأحدهم يستقل دراجة بخارية على الجهة المقابلة، ثم استدار للخلف متجهاً نحو السور الحجري حيث النقطة التي اختارها ليتسلقه منها، وبخفة واحترافية تتماشى مع جسده النحيف استطاع أن يصعد عليه، حبس أنفاسه ثم وثب للداخل جاثماً على إحدى ركبتيه وكفيه

على الأرضية العشبية للحديقة الخلفية لتلك الفيلا الخالية من سكانها. تلفت حوله في توترٍ وقلق، كان المكان هادئًا إلا من نباح الكلب المزجج، هنا اعتلى ثغره ابتسامة مأكرة، فقد جاء خصيصًا إليه، وسرقته تلك المرة تعتبر من النوع الباهظ، حتمًا من سيشتريه سيدفع لأجله مبلغًا محترمًا من المال، فنوعه معروف للجميع. اقترب منه "حمص" غير مكترثٍ بالمرّة بالأنياب الحادة الظاهرة بين فكيه ولا باللعب المقزز الذي يتناثر من جوفه هامسًا له بلهجة ساخرة:

-تعلالي يا غالي.

ما منع الكلب من الهجوم عليه وربما اقتراسه كونه موثوقًا بسلسلة حديدية قوية، تشجع "حمص" للتعامل معه كما اعتاد أن يفعل مع ذوي الأنياب، رفع ذراعه أمام وجهه وكأنه يجتمى به من تهديده الصريح بالعض، ثم دنا بخطواتٍ حذرة حتى أصبحت المسافة خطيرة للغاية، عند تلك اللحظة وثب الكلب قاصدًا قضم ذراعه، منحه صائده فرصة لينهش في لحم ذراعه المحمي نسبيًا بقطع القماش، وما إن تعلق به حتى لف ذراعه الآخر حوله ليحكم قبضته عليه، رفعه للأعلى بعد أن حل وطاق سلسلته ليصبح أسير قبضته، ومثلما جاء خلصة فر هاربًا بنفس الطريقة وأيضًا في سرعة وخفة مستعينًا برفيقه "شيكاجو" الذي ولج للحديقة ليمسك بالكلب معه، وضع القناع الواقعي على فمه لينعه من النباح، ثم قام بتقييده وقبل أن يلحظها أحد. وضعه الاثنان على الدراجة البخارية ثم انطلقا بها في شارع جانبي غير ذاك الذي جاء منه، وكلاهما يمني نفسه بمبلغ لا بأس به.

.....

بدت كمن يناع بألم في نومه فأنحشرت أنفاسها، وكأن الهواء قد بات ثقيلًا على صدرها فضعف من إحساسها بالاختناق، أين خافت خرج من جوفها ليوقظ النائمة إلى جوارها، تأملتها بنظراتٍ قلقة خائفة بعد أن أزاحت الغطاء عنها، فتلك الحالة دومًا تتكرر معها دون تفسيرٍ مفهوم، وبرفقٍ حذر وضعت يدها على كتفها لتهزها منه لتنتشلها من ذلك الكابوس المطبق على الروح، مالت عليها تهمس باسمها:

- "فيروزة"، اصحي! إتي بتحلي، ما فيش حاجة.

انتفضت مذعورة من نومها وصدرها ينهج بقوة، لهت محاولة التقاط أنفاسها لتعيد انتظامها بعد أن تمكن ذلك الحلم المزجج منها مجدداً، كانت تعيشه بكل جوارحها، حتى بات مؤلماً لأقصى الحدود، التفتت إلى جانبها للتأمل وجه أختها القلق، لم تجرؤ على التفوه بكلمة، حملت فيها بعينين غائمتين وكأنها تحاول التأكد من عودتها لأرض الواقع. ضغطت "همسة" على شفيتها تسألها:

-نفس الحلم إياه؟

أومات شقيقتها بالإيجاب، مسحت توأمتها على وجتها براحة يدها محاولة تطمئنتها وهي تقول:
-معلش يا حبيبتي، الحمد لله إنه عدى على خير.

استدارت "فيروزة" للجانب الآخر لتمد يدها نحو الكومود حيث كوب الماء المسنود عليه، تناولته وارتشفت ما فيه دفعة واحدة حتى تروي ظمأها، التفتت ناظرة إليها لتقول معذرة بسعالٍ طفيف:
-أنا أسفة، قلقتك.

ربتت على ظهرها قبل أن تميل عليها لتحتضنها في محبة أخوية صافية لتضيف بعدها:
-متقوليش كده، ده إنتي روجي.

ابتسمت لها "فيروزة" في امتنانٍ وعادت لتستلقي بظهرها على الفراش محاولة نسيان تفاصيل ذلك الكابوس المؤرق لمضجعها. تساءلت بعينين تحدقان في السقفية:
هي الساعة كام دلوقت؟

أجابتها "همسة" بثأوب وهي تتقلب على جانبها:
لسه النهار مطلعش.

ردت متصنعة الابتسام:

-كويس، فرصة ننام شوية.

كانت تخدع نفسها بتصديق ذلك، فالنوم أبعد ما يكون عن جفنيها وقد ظلت تفاصيل حلمها المزجج حاضرة في ذهنها، أجبرت عقلها على عدم التفكير فيه حتى تستعيد من جديد حالة الاسترخاء التي

كانت عليها، مالت برأسها على الوسادة ناحية أختها لتجدها قد غفت بالفعل، ظهرت بوادر ابتسامة متهمكة على جانب شفيتها قبل أن تلفظ تهيدة طويلة مليئة بالهموم مستسلمة للأرق الذي أصابها كالعادة.

لا تعرف كيف غفت تحديداً لكنها استيقظت على صوت أمها المرتفع الذي نبه كل حواسها، نظرت لها بنصف عين ووجهها متقلص بدرجة كبيرة، شعرت ببرودة تضرب أطرافها حينما أزاحت عنها الغطاء فجأة ليتلاشى ذلك الدفء المغربي، حاول التقاط طرف الغطاء قائلة بتذمر:

ليه كده بس يا ماما؟ أنا ملحقتش أنا!!

ردت "آمنة" بلهجة الأم الجادة غير المتفاوضة:

-ده احنا داخلين على الضهر وورانا حاجات كتير لازم تتعمل قبل ما خالكم "خليل" يرجع من السفر.

عبست ملامح "فيروزة" وعلقت عليها باستياء:

-هو لازم يعني كل مرة نعمل التشريفة دي؟

رمقتها بنظرة حادة وهي ترد عليها:

عيب كده يا "فيروزة"! هو أنا ريبتك على كده؟

قالت بنبرة متمرة:

-يعني يصح يا ماما يطلع عينك من صباحية ربنا عشان تطبخي لمراته وفي الآخر بدل ما تقولك شكراً نسمع منها كلمتين بايخين مالهومش أي 30 لازمة؟!!

وبالرغم من كونها محقة في طريقة استغلال أخيها وزوجته لها بشكلٍ سافر إلا أنها ردت بحسم:
أنا بأعمل لوجه الله.

انزعجت "فيروزة" من ردها المحبط فاعترضت بنبرة شبه محتدة:

-بس مش كده!

حاولت والدتها أن تغلق باب المناقشة غير المجدية في ذلك الموضوع فصاحت بها:
- بصي- أنا ماليش في الكلام بتاعك ده، قومي يالا امسحي السلم وروقي المدخل وانشري الغسيل،
وأختك هتوضب الأوض وتكمل معايا بقية الأكل، مافيش وقت نضيعه.

ضربت الأرض بقدمها بعصبية كتعبير عن سخطها وهي تتم بتهم:

-دي أخرتها، أشتغل مساحة سلام!

حذرتها أمها بلهجة أقرب للشدة وهي تشير بعينها:

-عدي نهارك يا "فيروزة".

نفخت متسائلة في نفاذ صبر:

-ماشى يا ماما، ممكن أغسل وشي الأول ولا هاطلع كده بلبس البيت وبغماصي؟!

قالت لها بصوت أقرب للين وقد ارتخت نظراتها قليلاً:

-روحي غيري هدومك وافطري وبعد كده اعلمي اللي قولتلك عليه

همست ساخرة في امتعاض:

-الحمد لله، ألحق أعمل حاجة لنفسى!

تابعها والدتها بنظراتٍ مهممة وهي تتجه إلى خارج الغرفة لتقول بعدها محدثة نفسها:

-ربنا يهديكي يا "فيروزة"، أخدة كل طباع أبوكى العصبية.

ردت عليها "همسة":

-الله يرحمه، بس أنا شبيك صح؟

عادت الابتسامة لتتشكل على وجه المرهق قبل أن تعلق عليها بجنو مملوس في صوتها ونظراتها:

-إنتي نسخة منى يا حبيبتي.

عفويًا احتضنت "همسة" والدتها لتنعم بحضنها الدافئ، أسندت رأسها على كتفها وأغمضت عينيها تقول لها:

-ربنا يخليكي لينا يا ماما.

ربت والدتها برفقٍ على ظهرها بعد أن ضمتهما إليها، ثم أبعدها عنها لتبدأ الاثنان بحمايس يناقض "فيروزة" في إعادة ترتيب أغطية الفراش سويًا قبل أن يتشاركا أداء مهام المنزل التي تنتظرهما.

.....

وقفت مستندة بمرفقيها على حافة سور المنزل المكون من طابقين، تأملت أمواج البحر الغاضبة بنظراتٍ ضجرة، ففصل الشتاء على الأبواب، موجة أشد قوة تحطمت على الصخور لتتناثر مياهها المالحة بطول الكورنيش، ارتجف بدنها وشعرت بقشعريرة باردة تسري في أوصالها، هي دومًا تخشى الاقتراب منه، ومع ذلك تجبر نفسها على التطلع إليه لتحذر نفسها من قسوته إن فكرت يومًا أن تطأه، ذكرياتها معه تحمل الألم والحزن، ورؤيته في تلك الحالة الهائجة يوجب من إحساسها بالضيق المتترج بالخوف، امتد البحر على مرمى بصرها؛ وكأن لا نهاية له، فنزلها يعتبر معتزل نسبيًا عن باقي المنازل والبنائات بالمنطقة، أو كما تصفه منبوذ عن البقية، لكنه ما ورثته هي وشقيقتها ووالدتها عن أبيها الراحل، تمسكت أمها به ورفضت بيعه رغم المغريات المادية نظرًا لموقعه القريب من الشاطئ، ومساحته المتسعة التي تمنح من به خصوصية لا مثيل لها إن حاوطه بسورٍ مرتفع. لمسة حنون شعرت بها على جانب كتفها الأيسر - فأخرجتها من تحديقها فيه، التفتت للجانب لتجد "همسة" تبتسم لها في رقة، وعلى الرغم من كون الاثنان تتشاركان في كل شيءٍ تقريبًا إلا أن صفاتها مختلفة؛ ف"فيروزة" حادة الطباع، متقلبة المزاج أحيانًا، مثابرة، عنيدة، لا تقبل الهزيمة مطلقًا. أما "همسة" فتمتاز بالرقة، بالطباع اللينة، بالقناعة، والرضا، بالإضافة لنقطة ضعفها أو ما يمكن تسميته مجازًا بعيها الخطير؛ الخوف من المواجهة مع الآخرين. تساءلت الأخيرة في اهتمام وهي تضم ياقتي بلوزتها معًا:

-مش بردانة يا "فيرو"؟

تطلعت "فيروزة" أمامها قائلة بعدم أكثر:

-لا، مش أوي.

اقشعر بدن "همسة" من النسبات الباردة التي ضربت بوجنتيها، ثم قالت وهي تحاول تضم الشال الذي ترتديه حول كتفيها لتستعيد إحساسها بالدفء:

-الجو ساقعة، الشتا شكله السنادي هيبندي بدري.

قالت "فيروزة" في فتور:

-وايه الجديد؟ ما احنا متعودين على كده.

ردت بصوتٍ شبه مرتعش تأثراً بإحساسها بالبرودة:

-أنا بأحبه أوي.

نظرت لها من طرف عينها قبل أن تعلق:

-أنا لا!

رددت باستغراب:

-إنتي غير الكل، الناس بتحب الشتا والجو ده.

أغمضت عينها للحظة لتتجنب الذكريات المؤلمة التي تحاول اقتحام عقلها فتنغص عليها نهارها، ثم زفرت بقوة لتتساءل بعدها:

-مقولتليش رأيك في موضوع عربية الأكل

أجابت بترددٍ محسوس في صوتها:

هي فكرة مش بطالة، بس ماما هاتقولها إيه؟

صمتت "فيروزة" للحظة قبل أن تعقب عليها:

-سببها عليا، أنا هاعرف أقنعها.

حذرتها "همسة" بجديّة واهتزازة بؤبؤاها واضحة لشقيقتها:

-أنا مش عاوزة أكذب عليها!

حاولت الأخيرة الابتسام لئتمنحها شعور الثقة وهي تقول مؤكدة:

-أنا هاتصرف معاها، اطمني.

عادت "همسة" لتتساءل بتوترٍ لم تخفه:

-بس تفتكري خالك هيوافق؟

احتقن وجه أختها نسيباً حينما رددت على مسامعها تلك الجملة التي تشير إلى التدخل السافر لخالها

الوحيد في شؤون حياتها، قالت باحتجاجٍ ناعم:

-وخالنا ماله أصلاً؟ دي حاجة تخصصنا احنا.

علت لها:

-ما إنتي عارفاه مش هايعددي الموضوع كده بالساهل.

رفعت "فيروزة" حاجبها تشير لها:

-ما احنا مش هاتقوله.

شعب وجهها نسيباً من جراتها المتهورة وردت متسائلة:

حطب افرضي عرف؟ أكيد مش هايسكت وهايعملها حكاية ومشكلة كان.

نفخت هاتفه في ضيق انعكس على قسماها وكذلك نظراتها:

-أنا مش عارفة هو غاوي يتدخل ليه في حياتنا؟ ده حتى ما يبساعدش بلميم!

بالرغم من موافقتها إياها في الرأي إلا أنها دافعت عنه قليلاً فقالت:

-بس هو خالنا حتى لو مش عاجبنا تصرفاته!

اغتاظت "فيروزة" من اتخاذها لصفه فاسترسلت موضحة لها بجدّة طفيفه عليها تفيق للواقع المحيط

بها وتدرّك حقيقة الأمور:

- "همسة" إتني شايفة مصاريفنا بقت عاملة إزاي؟ تفتكري مع الحياة الغالية اللي احنا عايشين فيها الكام ملطوش اللي بيديهم لأمك من نصيبها في الأرض هيكفوا؟ ده يدوبك بالعافية احنا مقضينها، طب افرضي حد فكر يتقدم ويخطب واحدة فينا، ساعتها ماما هاتجهزنا منين؟ ولا تكونيش مفكرة إنه هيطلع من جيبه ويدينا، ده "حمدية" ترفعه حواجبها وتقلبها عليه وعلينا.

رمشت أختها بعينها في قلبي حائر، لذا سألتها:

-والعمل؟

أجابها عن ثقة تامة غير مبالية بتبعات قرارها:

-همشي- في المشروع بتاعنا، إتني عليكي الطبخ وأنا عليا التسويق والبيع، واحنا لا أول ولا آخر ناس عملوا كده.

شعرت "همسة" بالخوف يضرب عقلها، كانت تخشى- من ردة فعل الجميع إن عرفوا بما تنتوي أختها فعله بحثًا عن لقمة العيش بعد أن تعذر على إحداها العثور على وظيفة مناسبة براتبٍ معقول، لعقت شفيتها بطرف لسانها قبل أن تغمغم بأنفاس عبرت عن ارتعادها:

-ربنا يستر!

.....

تهيدة بطيئة مليئة بالهموم خرجت من صدرها وهي تمسح بأصابعها على زجاج الصورة الفوتوغرافية التي تضم أعلى ما في حياتها المليئة بالوحدة والشقاء؛ ابنتها. هي تذكر تلك اللقطة جيدًا، حينما احتفلت الاثنتان بتخرجهما؛ فـ "فيروزة" خريجة كلية التجارة، و"همسة" الاقتصاد المنزلي. تطايرت خصلات شعرهما الأسود بفعل الهواء وشكلت خلفية مثالية لألوان ثيابهما المبهجة، لامست وجهيهما الضاحكين يابهما راقعة الاثنتين بنظراتٍ حزينة ومتحسرة، فابنتها اقتربت من منتصف العشرينات ولم يتقدم أحدهم لخطبة أيًا منهما بالرغم من اللحمة الجمالية البسيطة التي تمتلكها لترداد قساوة الحياة معها وتحرمها من حق التمتع بالزواج والخطبة، ألا يكفي حرمانها من الأب الحنون الذي يغدق عليها بحبته وأمانه؟ ألا يكفي اعتزالها للزواج من بعد وفاته غدراً في رحلة الصيد المشؤومة لتعكف على تربية الصغيرتين بمفردها دون معيل حقيقي؟ دمعات متسللة ملأت طرفيها ألمًا على حالها

البائس. كفاكتهم "آمنة" سريعًا قبل أن تلمحها إحداها مصادفة، حاولت إلهاء عقلها عن التفكير في شأنها بأداء ما تبقى لها من أعمال المنزل، هتفت صائحة بصوت مضطرب حينما سمعت النقر على زجاج الشراع:

-أيوه يا اللي بتخبط، جاية أهوو.

ضبطت عقدة مندبل رأسها وهي تسرع الخطأ نحو باب المنزل، فتحتة راسمة على شفيتها ابتسامة بسيطة وهي ترحب بشقيقتها الذي عاد لتوه قائلة له:

حمدلله على السلامة يا أخويا، نورت بيتك

قال لها بوجه جاد ونبرة رسمية:

-إزيك يا "آمنة"؟ أنا قولت أعدي عليكي أنوك الأمانة بتاعتك وشوية الحاجات دي قبل ما أطلع شقتي

تأملت ما أحضره لها من شنط بلاستيكية تحوي بعض الخضر والفاكهة، تناولته من يديه مرددة في امتنان:

-تعيش ياخويا، دايمًا فآكرني.

دس "خليل" يده في جيب قميصه، ثم أخرج منه مغلفًا صغيرًا مطويًا، مد يده به نحوها قائلاً بنفس اللهجة الروتينية المملة:

فلوسك أهى معاكى، كده مش ناقصك حاجة؟

أخذت المغلف منه وأطبقت عليه بأناملها تشكره:

-الحمد لله، دايمًا عامر يا رب

نفخ قائلاً في تعب بعد أن أنهى مهمته المعتادة:

-أنا هاطلع أريح من المشوار الطويل ده

أيدته الرأي:

-وماله يا "خليل"، حقا ترتاح، وأنا شوية وهابعتك بالبنات بالأكل، ما أكيد "حمدية" تعبانة
ومش هاتقدر تطبخ
قال لها بامتعايض:

-العيال قرفوها طول الطريق وطلعوا عينها
حاولت التهوين عليه فقالت:

-الله يقويها عليهم، اطلعها بدل ما تقلق عليك

هز رأسه بإيماء صغيرة ليودعها بعدها ويصعد على الدرج متجهاً للطابق العلوي حيث يوجد
مسكنه، تابعته "آمنة" بنظراتٍ مهممة حتى اختفى عن عينها فأغلقت الباب وانحنت تحمل ما
أحضره لتضعه في مكانه بالمطبخ قبل أن يفسد.

.....

بشموخ وهامة منتصبة وقف ذاك الرجل الذي قارب عمره على منتصف الخمسينات وسط عماله
أمام دكانه الشهير الخاص ببيع الخضروات والفاكهة يدير الأعمال بخبرته العريضة في ذلك المجال،
تركزت أنظار "بدير" مع الشاحنة الكبيرة المرابطة عند ناصية الزقاق الضيق والتي تعبئ بصناديق
الفاكهة والخضار المنتقاة بعناية فائقة والمعدة خصيصاً لطهارة السفن السياحية حيث رحلاتهم التي
تمتد للأشهر وتستلزم وجود كميات كبيرة من الطعام، كان يراقب أداء رجاله ويتفحص الصناديق
واحدًا تلو الآخر ليضمن تقديم جودة عالية لزبائنه، استدار برأسه للجانب حينما سمع محامي العائلة
يناديه، ترك ما في يده واتجه إليه، التقط المحامي أنفاسه قائلاً في حاسٍ وتفاؤل:
-البشارة جت يا حاج "بدير".

برقت عيناه بلمعانٍ غريب وقد فطن إلى ما يرمي إليه، خفق قلبه واعتلى وجهه المجدد ابتسامة
ملئية بالأمل قبل أن يعده:

لو طلع كلامك صحيح يا سي الأستاذ لأحلي بؤك على الآخر.

رد مؤكداً وهو يضبط رابطة عنقه غير المهندمة بيده:

-وأنا مش بأجيب غير الأخبار الجدا يا حاج.

عبث "بدير" بلحيته البيضاء قائلاً في حبورٍ وبهجة:

-ياه، أخيراً "تميم" هيطلع من السجن، ده أنا كنت خايف أموت قبل ما أشوفه.

قال له محاميه:

-العمر الطويل ليك يا حاج، مافيش حاجة بعيدة عن ربنا

رد عليه بتنهيذة طويلة:

-الحمد لله

ثم ما لبث صوته تحول للحاس من جديد وهو يكمل:

-أما ألحق أبشر أبويا الحاج "سلطان" بالأخبار دي.

تساءل المحامي في اهتمام:

-صحته عاملة إيه دلوقت؟

رد مستخدماً يده في الإشارة:

-أهوو.. يوم كده، ويوم كده!

أوما برأسه معقبًا:

-ربنا يباركلنا في عمره، سليملي عليه يا حاج

قال مجاملًا:

-يوصل، عن إذنك يا أستاذ.

تحرك بعدها "بدير" في اتجاه عماله يأمرهم بمتابعة إكمال تعبئة باقي الشاحنة بالصناديق ريثما يصعد

إلى منزله ليطمئن على والده ويبشره بما عرفه من أخبار رائعة.

.....

سعالٌ مؤذي لحنجرته أصابه لأكثر من دقيقة وهو يحاول استعادة انضباط أنفاسه بعد أن اختنق صدره بالدخان الكثيف لنارجيلته المتقدة، ربت "نوح" الجالس على ميمنته على ظهره بقوة حتى يهدئ، ثم سأله بصوتٍ ثقيل وهو يسحب نفسًا من خاصته:

-إنت كويس؟ مكانش كام نفس خدته ورا بعض!

تطلع إليه "هيثم" بعينيه الحمراء من تأثير الدخان عليه ليجيبه بخنق:

-أنا تمام يا عمنا، دي حاجة بس وقفت في زوري.

ورغم عدم اقتناع الأخير برده إلا أنه ادعى تصديقه ليتجنب بوادر مشادة كلامية معه ربما تنتهي بعراكٍ حامٍ تتحطم فيه المقاعد الخشبية ويتكبد صاحب المقهى خسائر فادحة لكون الأول معروفًا برعونته وأفعاله الطائشة. تجرع "هيثم" ما تبقى في كوب الشاي الخاص به ليدس يده في جيب بنطاله باحثًا عن النقود، لم يجد ما يكفي، فالتفت لصديقه الملازم له يطلب منه بسماحة:

-باقولك إيه، الحساب عندك المرادي.

اعترض بتذمر:

-هو كل مرة كده؟

رد بنبرة متممة:

-معيش فلوس، بكرة أردلك اللي دفعته الطاق عشرة!

حك "نوح" طرف ذقنه معلقًا في تهكم:

-أهوو كلام بنسمعه منك، وما فيش حاجة بتحصل.

استثارت حميته فاحتج بصوتٍ شبه غاضب:

-هو أنا من امتي بأكل فلوس على حد؟

أشاح بوجهه بعيدًا عنه بعد أن رمقه بنظرة مزدرية ليرد بنبرة مزجت بين التهكم والإدانة:

-بقي جوز خالتك يبقى الحاج "بدير سلطان" على سن ورمح وحالك يبقى كده!

قطب جبينه متسائلاً:

قصدك إيه؟

نفس بطيء مليء بالدخان ارتفع عاليًا من جوفه ليقول موضحًا في مكر:

-تشوفلك مصلحة معاه يطلعك منها قرشين.

لم يكن حديثه الغامض مفهومًا، ولم تكن حالته المزاجية تسمح له بالمكوث وسؤاله باستفاضة أكبر ليعي غرضه، هب "هيثم" واقفًا ورمقه بنظرة جافة قائلاً له بسخافة منهيًا معه جلسته المضيفة للوقت:

-بأقولك إيه، أنا دماغي مش رايقة السعادي، نتكلم بعدين

لوح له بخرطوم نارجيلته وهو يرد:

-أه وماله .. وأهوو الحساب يجمع

كز "هيثم" على أسنانه في غيظٍ من طريقته التي تستفزه، بصعوبة واضحة على تعابيره حاول كبح جموحه الذي يهدد بالانفجار ليشتبك مع رفيقه، نظرة أخرى مليئة بالحقد تسلطت على "نوح" الذي بدا وكأنه يتجاهله ليستدير متجهًا إلى سيارة النصف نقل المملوكة إليه، استقر خلف عجلة القيادة وأدار المحرك، ثم قام بتشغيل إحدى تلك الأغنيات الشعبية الصاخبة التي ينوح فيها المطرب على ماضيه وحاضره وبدأ في الدندنة معها، تحرك مبتعدًا عن المقهى ليتسكع بلا هدفٍ في الشوارع كنوعٍ من تفرغ شحنته المكبوتة حتى تحط دمائه المحتقنة ويستعيد ثباته الانفعالي

!!!

.....

الفصل الثاني

أمسكت بالصينية الدائرية المغطاة جيدًا بعد أن قامت برص الأطباق المليئة بالطعام فيها بشكلٍ مرتب لتقدمها لخالها وزوجته وأبنائه، وبجذرٍ بالغ رفعت يدها للأعلى بعد أن ألصقت حافتها بصدرها لتتمكن من قرع الجرس، تراجعت "همسة" خطوة للخلف راسمة على وجهها البشوش ابتسامة لطيفة وهي تتمنى في نفسها ألا تتشاجر مع تلك المتغترسة الفضة، رمشت بعينها حينما فتحت لها "حمدية" الباب، حاولت عدم التحديق في قميصها المنزلي الأحمر ذي فتحة الصدر العريضة والتي تبرز مفاتها المتهدلة بشكلٍ فج ومقزز، غضت بصرها وبادرت مرحبةً تهذيبٍ وتواضع:

حمدلله على السلامة يا مرات خالي، نورتوا بيتكم، المكان مكانش ليه حس من غيركم الأيام اللي فاتت...

استطاعت تلك المرأة ذات الملامح الخبيثة والنظرات غير المريحة أن تلاحظ إبعادها لعينها عنها، ظنت أن في ذلك إساءة لها، لذا تغنجت بجسدها المليء بكتل الشحم ورفعت ذراعها لتستند به على حافة الباب، منحتها نظرة دونية تعبر عن تأفها منها وهي تكمل بسمتها الرقيقة:

-ماما جهزت الأكل من بدري عشان آ....

عبثت "حمدية" بذيل شعرها الذي يلتف حوله أنشودة عريضة من اللون الأحمر بشكلٍ صبياني لا يتماشى مع عمرها المتجاوز لمنتصف الأربعينات، ثم رفعت حاجبها الرفيع للأعلى في حركة تعبر عن سخطها، لم تمنحها الفرصة للثرثرة أكثر من ذلك فقاطعتها بسماجة:

-ابلي لسانك شوية!

تخرجت من ردها غير المقبول واكتست تعبيراتها بالحنجل، تحركت زوجة خالها نحوها لتمنعها من الولوج للداخل مشيرة لها بعينها القاسيتين لتتراجع خطوتين للخلف كتعبير عن رفضها لوجودها، تسمرت قدما "همسة" في مكانها وبقيت متصلبة الجسد محاولة التغلب على الدمعات الخجلة التي تتسلل إلى مقلتها، فتلك تعد إهانة كبيرة من قبلها وهي لم تفعل ما يسيء، بل على العكس كانت أكثر ذوقًا عنها. أزاحت "حمدية" الغطاء لتتنظر إلى ما أحضرته، عبرت تعبيراتها الواجحة، وحركة شفيتها الممتعضة، بالإضافة إلى نظراتها المستاءة عن عدم رضاها، ثم زادت الطين بلة بسؤالها الوخ:

ده بس اللي أمك طبخته؟

ارتبكت "همسة" وهي تجيبها:

أيوه..

علقت عليها بأسلوب فظ يبعث على النفس الضيق وهي تلقي بالغطاء على الأرضية:

يا ريتها ما عملت، إيه القرف ده؟ هو احنا بنشحت منكم؟ ده "خليل" طفحان الدم عشان يجيبلكم حاجتكم!

تغللها شعور متعاضم بالإحباط فور أن سمعت ما تفوهت به، خاصة أنها كانت شاهدة على المجهود المبذول من قبل والدتها لتعد أذ أنواع الطعام وأكثرها شهية، لذا دافعت عنها بغريزية صادقة:

يا مرات خالي ماما عملتلك كل اللي بتحببيه، وواقفة على رجلها من صباحية ربنا عشان متأخرش عليكم، تبقى دي آخرتها؟

مطت شفيتها في ازدراء محقر غير مبالية بدفاعها البائس، رمقتها بنظرة جافية ثم تناولت الصينية وقالت لها بتهكم فح:

يا ما جاب الغراب لأمه!

شهقة خافتة مستنكرة انطلقت من بين شفتي "همسة"، احتقنت عيناها بدرجة كبيرة وامتلأتا بالعبرات، شعرت وكأنهما ينفثان نيراناً حامية، كزت على أسنانها مانعة نفسها من التفوه بأي حماقة حتى لا تنسب في إحداث مشكلة بين خالها ووالدتها، فالمقيبة زوجة خالتها ربما ستدعي الأكاذيب لتفسد ما بين الأم وابنتها وتوغر صدرها نحوها بأسلوبها الملتوي في قلب الحقائق، أفاقت من التفكير في عواقب ردها على انتفاضة جسدها المباغثة حينما سمعت صوت الصفقة العنيفة لباب المنزل لتشير إلى وقاحتها اللا متناهية وانعدام الذوق لديها، انحنى لتلتقط الغطاء الصغير ثم استقامت واقفة واستدارت للخلف لتمسك بالداريزين حتى تهبط للطابق الأول، تجمدت مصدومة حينما تفاجأت بوجود أختها التي حتمًا تابعت ما دار بينهما من حوار، رأت على تعابيرها حمم الغضب متأججة، اعتلت "فيروزة" درجات السلم لتقف في واجهتها تسألها بنبرة مغتاضة:

عجبك اللي عملته معاكى وإهانتها لينا؟

وضعت "همسة" يدها على ذراعها واستخدمت قوتها لتجذبها للأسفل وهي ترجوها:

عشان خاطري يا "فيرو"، خلينا نتكلم تحت.

لوحث الأخيرة بيدها صائحة بغضبٍ وعروقها تنتفض من شدة حنقها:

فكرت أنا خايفة منها العقربة أم أربعة وأربعين دي؟ خليها تطلع وأنا أعرفها مقامها!

توسلتها أختها برجاءٍ أشد وهي تسعى لسحبها معها نحو الأسفل:

-بلاش مشاكل الله يكرمك، بتقلب في الآخر بغم عندنا.

استشاطت "فيروزه" غيظًا من أسلوبها الهروني والسلمي الذي تتخذه مع واحدة بغيضة كتلك،

كزت على أسنانها تلومها بجدّة:

-ما هي طول ما شيفاكى كده هتطيح فينا زي ما هي عايزة، ومحدش هيقدر يوقفها.

نكست رأسها خزيًا لكونها متخاذلة بالفعل في تلك النوعية من المواقف وعاجزة عن الإتيان بحقها،

بينما أكملت "فيروزه" هجومها قائلة:

-لأ وبتقولولي بلاش إنتي تطلعي، طبعا ما هو لو كانت بتقول الكلام ده ليا كنت سمعتها ما تكره

وعرفتها مقامها

لم تستطع "همسة" منع دماغها من الانسياب، فبكت أمام أختها التي تضاعف شعورها بالسوء،

مالت عليها تسألها بصوتها المحموم:

-إنتي خايفة منها ليه؟

أجابتها بصوتها الباكي مبررة موقفها:

-مش خايفة، بس أنا مش بأحب المشاكل، غصب عني، دي طبيعتي، وأنا مش هاتغير.

حذرتها أختها بلهجة شديدة وقد قست عيناها:

جُبنك ده هيقوعك في مشاكل يا "همسة"، خليكي فأكرة ده كويس!

كففت عبراتها بظهر كفها لترد عليها بصوتها الحزين:

-أنا راضية بجالي كده، يالا بينا

اضطرت "فيروزة" أن تكتم غضبها المندلح بداخلها حتى لا تزيد من إحساسها بالضيق بجديتها الحاد، هبطت الدرجات بخطواتٍ شبه متعجلة لتقف عند أعتاب منزلها، التفتت تقول لأختها:

-بلاش تعيطي قصاد ماما عشان متسألِكِش وهتضطري ساعتها تجاوي

هزت رأسها استجابة لنصيحتها الثمينة ومسحت ما علق في أهدابها بأناملها، سألتها في اهتمام:

-كده كويس

ابتسمت لها "فيروزة" وهي تجيبها:

-أيوه..

سحبت "همسة" نفسًا عميقًا أخرجته ببطءٍ من صدرها، ثم نجحت في وضع تلك الابتسامة الزائفة على ثغرها قبل أن تقول كذبًا بنبرة عالية:

طنط "حمدية" بتشكرك يا ماما على تعبك

تهدت "آمنة" قائلة بارتياح:

-الحمد لله إن الأكل عجبهم..

ثم أخذت نفسًا ولفظته لتضيف بتعبٍ ملموس عليها:

-هاخش أوضتي أنام شوية، لأحسن مش قادرة من عضمي، الأكل عنديم يا بنات.

قالت "همسة" في امتنان:

-تسلمي يا ماما، ارتاحي إنتي

كتفت "فيروزة" ساعديها وهي تتأمل المشهد المحبط بكافة المقاييس، الكل يدعي رضائه بالوضع وهي وحدها من تقاوم استغلال الآخرين واستغفالهم، لم تتقبل تلك التمثيلية السخيفة وانسحبت لتزوي في غرفتها وقد فقدت شهيتها لتناول أي شيء.

.....

بكل حيوية ونشاط وخفقات قلب غير هادئة لفت تلك الشابة التي تجاوز عمرها منتصف العشرينات بقليل حجابها المزركش حول رأسها، أخفت خصلة متمردة تأبى الانصياع مع مثيلاتها. قامت "خلود" بقرص خديها بإصبعها لتلهب بشرتها قليلاً فيظن من يتطلع إليها أن وجنتها يكسوها حمرة طبيعية مغرية، لم تبلغ في وضع مساحيق التجميل أو حتى أحمر الشفاه، اكتفت بمسحة خفيفة من (زبدة الكاكاو) ذات اللون الكرمي لترطب شفيتها. لم تنتبه تلك الشابة ذات العينين العسليتين إلى والدتها "بثينة" التي استندت بكفها على باب الغرفة تتأملها في صمت وضيق، فمن هم في مثل عمرها حظين بزواج وعدة أبناء، أما خاصتها فرفضت الارتباط بغيره رغم سنواته الضائعة في الحبس، بقيت وافية على عهدتها معه.

تذكرت "بثينة" تلك اللحظة المميزة التي نضج فيها جسد ابنتها وأعلن عن بزوغ فجر أنوثته، حينها اقترن اسمها بزواج المستقبل وابن أختها "تميم"، توقفت عن إكمال تعليمها بحصولها على شهادة التعليم الثانوي بعد رسوبها لعامين متعاقبين، وهيات نفسها للزواج منه بعد خطوبة استمرت لبضعة أشهر، لكن تلك المشاجرة الدامية في سوق الجملة أفسدت كل شيء وأطاحت بمخططاتها الوردية، حيث زج به في السجن وحكم عليه بالحبس لمدة عشر- سنوات، وقضى- منهم سبعا. آنذاك رفضت "خلود" التخلي عنه لتقترب من العنوسة بإصرارها عليه. لم ينتقص حبها له ولو بمقدار ضئيل، بل على العكس حاولت إسعاده بشتى الطرق حينما تذهب لزيارته مع العائلة بالرغم من تدمره وانزعاجه من قدومها لذلك المكان غير الملائم، واليوم فرحتها لا توصف لذهابها معهم لاستقباله بعد السماح بخروجه ضمن المجموعة المفرج عنهم بعبء مشروط قبل انتهاء مدتهم كاملة، التفتت لتجد أمها مسلطة لبصرها عليها، سألتها في لهفة:

-ها كده شكلي حلو؟

أجابتها بتنهيدة شبه مطولة مبدية اعتراضها:

-أيوه يا "خلود"، بس مكانش ليه لازمة إنك تروحي معاهم، جايز أبوه يضايق ولا.....

قاطعتها بعبوس منزعج:

-أنا خطيبة ابنه يا ماما، وكلها كام يوم بعد ما "تميم" يشم نفسه وأبقى مراته، يعني لا أنا غريبة ولا مش من العيلة

أشارت لها والدتها بعينها تؤكد عليها:

-عمومًا لو حد ضايقك ماتسكتيش، إتي بنت "بثينة"، وألف مين يتمناكي، ولولا بس أنا شيفاكي متعلقة بيه كنت فركشت الجوازة دي من يوم ما اتحبس

ردت عليها باحتجاج منفعل:

-يا ماما أنا بأحبه، روعي فيه، ماتخيلتش نفسي مع حد ثاني غيره.

قالت من بين شفيتها في لحظة تهكمية:

-يا ريت يكون زيك، والسجن مغروش.

علقت عن ثقة كبيرة:

-أنا عارفة "تميم" كويس، قلبه ميال ناحيتي وبيحبني!

وقبل أن تنفص عليها نهارها بالمزيد من الاعتراضات عادت "خلود" لتبتسم وهي تقول لوالدتها:

-أنا هالحق أروح لجوز خالتي عشان متأخرش عليهم، سلام يا قمر.

رمقتها "بثينة" بنظرة غير راضية من عينها، لم تسع لإخفاء ضيقها عنها، فـ "تميم" بالنسبة لها قد أفسد على ابنتها الكثير من الفرص الرائعة يتمسكها غير المستساغ به.

.....

اشترأت بعنقها وشبت على قدميها لتنظر بتركيز إلى السيارات القادمة من أول الطريق عليها تلمح خاصتها، فعلى حسب الميعاد المتفق عليه فإن اليوم هو تاريخ تسلمها لعربة الطعام القابلة للجر، تلك التي ستكون نقطة البداية لانطلاق مشروعها لجني الأموال عن طريق بيع المأكولات البسيطة الجاهزة كالسندوتشات وسلطة الفواكه بأسعارٍ شبه رمزية. استطاعت بعد عناءٍ أن تتدبر النقود اللازمة لشراؤها بعد اشتراكها مع شقيقتها في جمعية شهرية مع بعض رفاق الكلية ممن ما زالوا على

صلة بهما. استغلت "فيروزة" فرصة ذهاب والدتها لشراء الخضراوات من السوق القريب -كعادتها في ذلك اليوم من كل أسبوع- ليكون يوم استلامها، وما ساعد على زيادة شعورها بالاطمئنان والارتياح سفر خالها مع زوجته وأبنائه في مأمورية عمل تخص الأول، انتظرت على أحر من الجمر وصول سيارة النقل. تطلعت كل بضعة ثوانٍ لشاشة هاتفها في لزمة متوترة منها لربما يردها الاتصال من مسئول الشحن. كانت أختها تقف إلى جوارها تثرثر بلا توقف، ومع هذا لم تنتبه لها، كان كامل اهتمامها منصباً على الطريق. صاحت "همسة" عالياً بعد أن ضجرت من تجاهلها غير المكترث بها:

يا "فيروزة" إتي مش سمعاني؟

التفتت نحوها وهي تنفخ في ضيقي، ثم ردت بإيجاز:

أيوه سمعاني، خير؟

سألتها في قلقٍ وهي تعيد إزاحة خصلات شعرها المتناثرة بفعل الهواء خلف أذنيها:

-دلوقتي ماما هتقول إيه لما تشوف العربية هنا؟ وخالك أكيد هيقلب الدنيا!

ردت بلهجة جافة:

-أنا هاقنعها متقلقيش، وخالك فكك منه، طالما ماما راضية يبقى خلاص.

اقشعر بدننا من البرودة المنتشرة في الأجواء، فشبتك ذراعيها وضمتها إلى صدرها عليها تدفء نفسها، ارتجفت نبرتها قليلاً حينما أضافت بنفس التوجس السائد عليها:

-مش مطمئة يا "فيرو"، حاسة إننا هنفتح على نفسنا فاتوحة إحنا مش أدها.

رمقتها "فيروزة" بنظرة جامدة من طرف عينها دون أن ترد، لم يؤثر بها خوفها ولا نصائحها المبالغ فيها بالتراجع عن ذلك المشروع الذي فكرت فيه عشرات المرات واضعة الخطط اللازمة لدراسته قبل تنفيذه على أرض الواقع، لن تتراجع عنه الآن بعد أن أوشكت على تحقيقه. لمحت إحدى سيارات النقل الصغيرة وهي تنعطف نحو منزلها فهتفت بجمايس لاكرة شقيقتها في جانبها:

-شكل العربية جت.

التفتت "همسة" تنظر في اتجاه السيارة وعيناها متسعان على الأخير، فعرية الطعام التي تحملها كانت نوعًا ما كبيرة الحجم ولافتة للأنظار بالرغم من لون الطلاء الأسود الطاغى عليها، لوحت "فيروزة" بيدها لسائق السيارة ليتوقف أمام الرصيف المقابل لمدخل المنزل، وترجل منها رجلان ليحلا وثاق العربة المربوطة بالأحبال الغليظة، أنزلاها بجذير على الرصيف، شكرتها "فيروزة" على تعبها ومنحتها المبلغ المتفق عليه لنقلها وتحميلها، انتظرت حتى انصرفا لتدور حول العربة تتفحصها بتلهف واهتمام مضاعفين، رفعت عينيها لتنظر إلى "همسة" متسائلة:

-ها إيه رأيك فيها؟

أجابتها بإعجابٍ بادٍ على تعبيراتها وعينيها:

-شكلها تحفة.

تلمست "فيروزة" كل جزء في العربة وقلبا يخفق في سعادة، ها هي تخطو بثباتٍ نحو تحقيق حلمها بإثبات الذات، شردت لوهلة تتخيل إقبال الناس عليها لشراء الطعام الشهى ومدحهم لمذاقه ونجاحهم في جني الأرباح الكثيرة لتنتقل بعدها لخطوة أخرى هامة وهي امتلاك محل خاص بها كنوع من التوسع في الأعمال، وجدت نفسها تبتسم تلقائياً مع تعمق أحلامها المثمرة، انتشلتها "همسة" من تحليتها الوردية في سماء الأحلام بسؤالها:

-هنحطها فين؟

حكّت طرف ذقنها بيدها قبل أن تجيبها مقترحة:

-إيه رأيك لو سيناها مؤقتًا ورا البيت.

-ماشي.

بدت فكرة جيدة لوضعها به حتى ترتب كتاتها أوضاعها، لذا قامت الاثنان بدفع العربة ذات العجلات الأربع للأمام وقاما بإدخالها لباحة المنزل الخلفية، حيث تحتفظ العائلة بمعظم الكراكيب القديمة والأدوات غير المستخدمة. نفضت "فيروزة" يديها والتفتت قائلة لأختها بلهجة شبه أمرة:

مش عاوزين نضيع وقت، هاتي حته قديمة نلمعها بيها، وأنا هاروح أجهز الحلل والأطباق اللي هنعطها جواها

هزت "همسة" رأسها بالإيجاب وأسرعت ركضًا للمنزل لتنفذ ما أمرتها به، وقفت الأولى تتأمل حلمها الذي بات وشيكا من التحقيق بجאים واستعداد كبير، هي ستبدأ بإمكانات ضئيلة، لكنها واثقة أن أعمالها ستتسع بمرور الوقت، وأثناء سعيها الدؤوب ستخوض معاركًا جمّة مع الأقربين أولاً قبل الغرباء لتثبت كفاءتها في إدارة مشروعها الصغير.

.....

يا لهوي! إيه اللي أنا شيفاه ده؟!

رددت "آمنة" تلك الكلمات المصدومة وهي تلطم على صدرها في قوة حينما أطلعتها "فيروزة" على ما تنتوي فعله وأبصرت بعينها تلك العربة لتؤكد لها على عدم تراجعها عن إتمامه، اثابتها حالة من الخوف والانزعاج لجرأتها، وبالرغم من المبررات المنطقية التي حاولت إقناعها بها ومن التسهيلات التي ستقوم بها لتضمن تحقيق النجاح إلا أنها أبت الإصغاء إليها وأصررت على رفضها دون نقاش، انسحبت من باحة المنزل الخلفية مستديرة بجسدها، لحقت بها ابنتها لتعترض طريقها فأجبرتها على التوقف، التقطت أنفاسها وهي ترجوها:

طب هي مش عجباكي ليه؟

ردت مستنكرة بلهجة يشوبها الانفعال:

هو في حد عاقل يوافق على الجنان اللي بتقوليه ده؟ بقى على آخر الزمن عاوزة تقفي تبيعي في الشارع يا "فيروزة"، لأ وبتجري أختك معاكي، أل هي ناقصة فضايح وقلة قيمة!

زوت ما بين حاجبها مرددة في تساؤل متعجب:

-وايه المانع يا ماما؟

احتدت نظراتها نحوها تلومها:

-المانع؟؟ إنتي مش شايفة نفسك غلطانة؟

ردت ببرودٍ مدافعة عما تريد:

غلطانة في إيه طيب؟ أنا عاملة مشروع زي أي حد ما بيعمل، فكرته بسيطة، هانطبخ ونبيع الأكل للناس ونكسب منه، وبعدين هنقف هنا على الكورنيش جنب البيت بكام متر، يعني حضرتك يا ماما تقدري تشوفينا من الشباك أو حتى تقفي معانا.

هزت رأسها محتجة وهي تعقب عليها:

برضوه مش موافقة، وخالك لما هيعرف هيهدلنا، وأنا مش ناقصاه!!

هنا خرجت "فيروزة" عن حالة الهدوء الزائفة لتقول بتشنج:

-إنتو ليه محسسي إني بأتاجر في المخدرات؟ زمايلي كلهم بيعملوا مشاريع زي كده، ونجحوا وأثبتوا نفسهم ومحدث قالمهم لأ، اشمعني أنا؟

أجابتها ببساطة:

-لأنك بنت.

تشنج جسدها أكثر من ردها الذي بدا من وجهة نظرها مستفزًا، وقبل أن تختنق شرايينها بدمائها الفائرة لطفت والدتها من الأمر عليها تتخلى عن فكرتها المتهورة فاستعطفتها:

يا ماما، عشان خاطري، افهميني، أنا زهقت من أعدة البيت وعاوزة أعمل حاجة مفيدة، وأنا درست الموضوع كويس، وبعدين هنقدر نحوش فلوس عشان لما نتجوز.

ردت عليها أمها تحذرهما في عصبية:

-أنا مقصرتش معاكو في حاجة! بلاش تجروا رجلينا للمشاكل.

قالت بإصرار:

-مافيش مشاكل إن شاء الله

برضوه راكبة دماغك؟

لجأت لإقناعها أكثر بهدوءٍ ومنطقية موضحة لها:

- احنا عارفين ده كويس، بس الحياة غالية، والمصاريف كل مدى بتزيد، ومعاش بابا الله يرحمه مش مكفي مع الريح اللي بيطلعك من أرضك، افرضي حصل حاجة وحشة لا قدر الله، هانجيب فلوس منين؟ وخالنا يدوب مكفي بيته وعياله، ولا نسيتي يا ماما اللي حصل أيام موضوع البيت؟! ضغطت "آمنة" على شفيتها في ضيقٍ ممتعض، فما تنفوه به حقيقة مفروغ منها وإن أنكرتها، هي لا تملك من الأموال ما قد يغطي أي ضائقة مالية طارئة قد تحدث، وأخيها ليس بالخيار الأفضل لتقديم المساعدة، سرحت تفكر في لجونها له قبل بضعة سنوات، تذكرت مساومته لها في شراء حصة بالمنزل الذي تركه لها زوجها بعد أن تعذر عليها سداد الأقساط الأخيرة لوفاته المفاجئة مقابل تسديده لهم، وبالرغم من التعويض المادي الذي تلقته إلا أنه لم يكن كافيًا لدفع باقي المستحقات. أدركت "فيروزة" من سكوت والدتها أنها ربما تعيد التفكير في الأمر، ظنت أن الفرصة مناسبة للضغط عليها وتلين رأسها المتيبس حتى تحظى بموافقتها، تلمس ذراعها بيدها تتوسلها:

صدقيني يا ماما، مافيش منها أي ضرر، ولو حصل منها مشكلة أنا بنفسني هالغيبها.

زمت أمها شفيتها متسائلة في قلقٍ بائن على تعبيرات وجهها المرهقة:

طب وخالك؟

تشكلت ابتسامة لطيفة على محياها وهي تقول بنبرة ذات مغزى:

- البركة فيكي إنتي يا حبيبتي.

رددت الأخيرة في استسلامٍ وقد رضخت تقريبًا للأمر الواقع أمام عناد ابنتها:

- أنا مش عارفة إنتي ناوية تعملي فيا إيه؟!!

احتضنتها "فيروزة" في عاطفةٍ ومحبة بعد أن فطنت لموافقتها الضمنية، شدت من ضمها لها لتفرق في أحضانها الآمنة قائلة لها:

- كل خير يا ماما.

أغمضت عينيها لتستمتع بانتصارها الذي ظفرت به بعد صعوبة، تبقى لها أن تثبت لوالدتها أنها كانت جديرة بثقتها.

تجمدت الأعين المشتاقة على البوابة الحديدية السميقة، خاصة عيناها اللاتين تتوهجان في حب، سيطرت بصعوبة على مشاعرها المتحمسة لرؤيته، فلو كانت بمفردها لأخذته في أحضانها وارتوت من حبه الذي حرمت منه، كم حلمت بتلك اللحظة التي سينال فيها حرите لتكتمل بوجوده سعادتها! همهمات خافتة متداخلة صدرت من أفواههم وقد فتح الباب الصغير الجانبي ليخرج منه الغائب المنتظر، فرحة عامرة سيطرت عليهم وتحركوا مقبلين عليه. رفع "تميم" عينيه للأعلى ليجد والده، وجده، وزوج أخته، بالإضافة إلى "خلود" ينتظرونه بالخارج أمام سيارتين تخص العائلة، على الفور تحرك أباه نحوه فاتحاً ذراعيه له، ارتقى ابنه في أحضانه يضمه بشوق وحب، ردد "بدير" مرحباً بقلدة كبده الغالي:

-حمدلله على السلامة يا ابني.

رد عليه "تميم" بصوته الأجلش وهو يتراجع للخلف دون أن تترك قبضتاه ذراعيه:

-الله يسلمك يا حاج.

حرره ليذهب إلى جده الذي اتكأ على عكازه ليكون حاضرًا في تلك اللحظة الهامة حينما يلتقيه، انحنى عليه يقبل كفه المجدد يشكره في امتنان واضح:

-جاي بنفسك يا جدي؟

ربت "سلطان" على كتفه قائلاً له:

-معندناش أعلى منك يا "تميم".

استقام في وقفته مقبلاً أعلى رأسه في تهذيب، ثم أضاف ببسمة صغيرة:

-الله يديمك فوق راسنا يا كبير العيلة.

ربتة أخرى تلقاها كتفه منه، ثم استدار ليصافح "محرز" الذي صاح يحياه:

-كفارة يا ابن ولاد الأصول، غيبتك طولت عليا والله.

رد مجاملًا:

تُشكر يا "محرز"، كله بيعدي، وأديني رجعتلكم.

علق مبتسمًا بتكلف:

تنور مكانك يا "تميم"، والله لا يعودها الأيام الغابرة دي ثاني، أكيد إنت عقلت وعرفت إن مافيش حاجة تستاهل.

بدا وجهه جادًا للغاية بعد كلماته الحمقاء، رمقه "تميم" بنظرة نارية وهو يرد عن قصدٍ وبخشونةٍ بائعة: لا تستاهل يا "محرز" وخصوصًا مع الأشكال الضالة وولاد الحرام، أنا فدا الحاج وجدي وأي حد يمس شعرة من عيلتي!

شعر زوج أخته بجفافٍ عنيف يصيب حلقة، اهتزت ابتسامته واضطربت حركة عيناه وهو يرد في حرجٍ كمحاولةٍ بائسةٍ في إصلاح ما أفسده لسانه:

أكيد طبقًا، كله إلا عيلة الحاج "سلطان".

تحولت عينا "تميم" عنه لتتجه إلى تلك الجميلة التي احتضنت باقة ورد صغيرة بين ذراعيها، رأى في ملامحها بهجة وإشراقه يحسده عليها الرجال، مدت "خلود" يدها بها نحوه وهي تقول بأشتياقٍ محسوس في صوتها وظاهر في تعبيراتها ولهفة نظراتها:

حمدلله على سلامتكم، أنا مش مصدقة إن الأيام عدت، الحمدلله إنك رجعتلنا وبقيت في وسطنا. لم يبادلها نفس النظرات المتلهفة، بل نظر إلى باقة الورد بازدراءٍ، ولم تتحرك يده لأخذه مما أخرجها بشدة، سحبت "خلود" يدها للخلف وقد تسلل إليها إحساسًا مزعجًا بالارتباك الممزوج بالضيق من أسلوب معاملته غير الحميمي معها، شعرت بالإحباط والصدمة حينما سألتها بجفاءٍ وجمود:

جيتي ليه؟

وخزة مؤلمة عصفت بصدرها من قسوة كلماته المثبطة لأي فرحة تبرز في قلبها، كادت أن تبكي وبدأت العبرات في التجمع في مقلتيها تأثرًا بما انتابها من حزنٍ مبالغت، خرج صوتها إلى حد ما مهتزًا وهي تجيبه:

ده أنا مستنية اليوم ده من زمان.

رد بنفس النبرة الجافية:

-كنتي أعدتي في بيتك أحسن، مش كتر مشاوير والسلام.

باتت قاب قوسين أو أدنى من البكاء علئنا لقسوته غير المفهومة معها، زاد انقباض قلبها كما لو كان قد غرز به سكينًا تلمًا، اغرورقت عينها بالعبرات الكثيفة، واشتعل وجهها بجمرة حرجة. استياءً محبط تغلغل في كيانها مع إشاحته لوجهه بعيدًا عنها وكأنها نكرة مشاعرها لا تعنيه في شيء، تابعته بعينين منكسرتين وهو يلتهى بالحديث مع عائلته لتشعر بكونها ضيفًا غير مرحب به بينهم، تهدل ذراعاها وارتمت أصابعها عن باقة الورد لتسقط على الرصيف، تركتها وسارت بخطواتٍ بطيئة نسبيًا تتبع زوج خالتها حتى وصلت للسيارة، لم تتفوه بكلمة واحدة مبتلعة مرارة الحزن في حلقتها، حتى عينيها بقيتا بعيدتين عن وجهه الذي كانت تحترق شوقًا لتأمله، جلست بالمقعد الخلفي مركزة أنظارها على الطريق والشكوك تساورها بشأن استمرار حبه لها !!

.....

الفصل الثالث

استندت بوجهها على كفها وهي تتطلع بشروءٍ حزين إلى حركة الجيران بمنطقتها الشعبية من خلال نافذتها، وعلى الرغم من الصخب المزيج المنتشر - في وقت الظهيرة إلا أنها كانت معزولة عنه بانخراطها في همومها، تركت لدمعائها المختنقة العنان لتنسب على وجنتها، كان صدرها مختنقاً على الأخير، ما زال طيف لقاءها معه بعد تلك الغيبة يؤلمها، قدم لها الخيال هاجساً مخيفاً بأنها باتت مفروضة عليه، وحبها له من طرف واحد، بالرغم من كونها لا تعرف سواه، ولم تعشق غيره، لكنه كان منذ الوهلة الأولى بعد ذلك البعد القاسي غامضاً معها .. نادى عليها والدتها عدة مرات فلم تنتبه لها مما حث الأخيرة على الاقتراب منها وهزها بضيق، اعتدلت "خلود" في وقتها المنحنية قليلاً لتتنظر إلى والدتها باستغرابٍ، مسحت ما علق في أهدائها من عباراتٍ لتسألها:

- في إيه يا ماما؟

أجابتها بوجهٍ مكفهر وصوت يعكس ضيقها:

- بنادي عليكى واتي ولا سمعاني!

ردت بزفيرٍ بطيء:

- معلش .. محدتش بالي.

دققت "بثينة" النظر في وجه ابنتها الذابل، لم تكن بالساذجة لتفهم وجود خطب ما، سألتها بجديّة تم عن قوة وحاجباها معقودان:

- "خلود"، بقالك يومين مش زي تلمي، في حد ضايقتك؟ قوليلي وأنا أتصرف.

ظهر ترددتها وهي تجيبها باقتضاب:

- لأ .. ما فيش.

سألتها مباشرة وكامل نظراتها مثبتة عليها:

- "تميم" عمك حاجة؟

للحظة توترت من سؤالها الملبك لحواسها، أجابت دون أن تنظر في عينيها حتى لا تلاحظ كذبتها:
-لأ.

كانت غير مقتنعة بردها، ومع ذلك قالت لها:

طب جهزي نفسك عشان تروحي من بدري لخالتيك تساعدني في عزومة العشا بتاعة النهاردة.
عبثت "خلود" بأصابع يدها في ارتباك، فكيف ستخبرها أنها غير راغبة في الذهاب إلى هناك
وجرح كبريائها أكثر من ذلك بتلقي المزيد من قساوة "تميم"، ما زالت مستاءة منه، ولم يخف
حزنها، ضغطت على شفيتها تعتذر بصوتٍ مهتز وعيناها تتحركان في توتر:

-أنا أصلي.. مش.. رايحة

علقت مصدومة مما نطقت به:

-نعم؟ بتقولي إيه؟

تعلمت مدعية كذبا:

-جسمي واجعني و.. مش هاقدر أقف كثير، خايفة أدوخ وأتعب.. خليني أروح مرة ثانية.

زمت والبتها شفيتها في عدم اقتناع وهي تعقب عليها:

-غريبة! مع إنك كنتي بتزني عليا عشان تروحي.

غامت عيناها وهي ترد:

-مكوتنش أعرف إني هاتعب

استدارت "بثينة" برأسها للخلف حينما سمعت صوت الجرس، عادت لتتنظر إلى ابنتها وهي تهم
بالتحرك:

-أنا هاروح أشوف مين بيخبط.

أومات برأسها بهزة بسيطة والتفتت تتطلع من نافذتها للزحام المتواجد بالأسفل، سحبت "خلود" أنفاسًا عميقة تخفف بها تلك الغصة المؤلمة الموجودة بصدرها، أتاها صوت والدتها من خلفها وهي تقول لها بابتسامة مأكرة وعيناها تبرقان بوميض غريب:

- في ضيف جايلك برا يا حلوة.

أدارت رأسها ببطء نحوها لتسألها:

ضيف؟ مين ده؟

هزت "بثينة" كتفيها في دلال مصطنع قبل أن تجيبها بابتسامتها اللثيمة:

- "تميم" يا عين أمك!

خفق قلب "خلود" بقوة لمجرد سماعها اسمه، في لحظة واحدة تلاشت جميع أحزانها ومُحيت كل همومها، أشرفت ملاحظها وتوهجت نظراتها بوهج الحب. اضطربت أنفاسها حينما رددت:

- "ت..تيم!"

قالت في خبث:

- أه ياختي "تميم".

تملكتها حالة من الارتباك والحيرة، دارت حول نفسها غير مصدقة أنه قد جاء إليها، وقفت أمام المرآة لتضبط هيئتها سريعًا وتمسح ما تبقى من دمعاتها، قرصت خديها بأناملها وهي تتساءل في تلهف مضاعف:

- شكلي مضبوط يا ماما؟

علقت عليها ساخرة:

عجائب! اللي يشوفك من شوية مايشوفكيش دلوقتي!

نثرت "خلود" عطرها على بلوزتها الخضراء، وهندمت ياقتها ثم أرخت طرفي حجابها الأبيض وراء ظهرها، سحبت شهيقًا عميقًا تهدئ به دقائق قلبها المتسارعة، وقفت قبالة والدتها ترجوها:

- ادعيلي ياماما.

قالت لها بوجه عابس غير راضٍ عن تصرفاتها:

- بادعيلك، بس إنتي اركزي كده

وكانها لم تصغ لها حيث خرجت من غرفتها مهرولة نحو الصلاة، لمحتة جالسًا عند الزاوية يحرق صدره بسجائره، رمشت بعينها غير مصدقة أنه جاء لرؤيتها، أحست بالسعادة تغمرها من جديد فتذيب الأوجاع التي أثقلت قلبها، لكنها أرادت معاتبته على خشونته معها، لذا تباطأت عن عمدٍ في خطواتها وهي تقترب منه. أطفأ "تميم" سيجارته وقد لمحها مقبلة نحوه، نهض لمصاحفتها فرفضت مد يدها نحوه وكتفت ساعديها أمام صدرها لترد له ما فعله معها حينما قدمت له باقة الورد، رمقها بنظرة حادة أريكتها، ثم سألها لها:

- دي حمدلله على السلامة بتاعتك؟

على الفور تخلت عن قناع الجمود الزائف الذي ارتدته لتعتذر منه في ندم وقد تهدل كتفاها وارتخى ذراعاها:

- حقك عليا يا "تميم"، أنا مقصدش.

ثم لعقت شفتيها بطرف لسانها قبل أن تضيف بمرارة:

- بس إنت وجعتني باللي عملته معايا قصاد أهلك!

رد عليها دون مراوغة:

- عشان الورد؟

أدمعت عينها وقد تجسد المشهد في مخيلتها، رأى "تميم" عبارتها تتجمع فشعر بوخزة تؤلم حلقه، لم يجذب أبدًا تلك النوعية من الرومانسيات العلية، هو غيرها لا يستطيع التعبير عن مشاعره أمام الآخرين، يحتاج لنوع من الخصوصية لييوح بمكنونات قلبه، أخرج زفيرًا عميقًا من جوفه ثم جلس على الأريكة ليقول لها:

- بصي يا بنت الناس، خليني أكون واضح معاكى..

قضم باقي حديثه ريثما تجلس، ثم استأنف قائلاً بنفس اللهجة الجادة:
-الأيام السوداء اللي أنا عيشتها في السجن غيرتني كثير، طول اليوم مع مجرمين وأشكال بنت،
فمش بالساهل تلاقيني "تميم" بتاع زمان، أنا محتاج وقت عشان أعرف أتعامل مع الناس عادي،
وخصوصاً خطيبتي، تصرفاتي شوية ممكن متعجبكيش، بس اديني وقتي!
امتدت يداها نحوه لتمسك بكفيه، مسحت عليهما برفقي وقد حدقت في عينيه بنظرات هائلة، خرج
صوتها محملاً بتنهيدات العشق وهي تقول:
حبيبي، خد كل الوقت اللي إنت عاوزه، أنا مش مستعجلة، بس ماتقساش عليا، أنا بأحبك،
وبأموت في التراب اللي يتمشي عليه.
تنحج بصوت خافت قبل أن يسحب كفيه من بين أناملها الناعمة، استقام في جلسته مردداً:
أنا جاي بنفسي أأخذك للعزومة
هللت غير مصدقة وهالة سحرية من الحب تحاوط وجهها:
سجد يا "تميم"؟
رد بغلظة طفيفة:
أكيد مش بأهزر يعني! قومي جهزي نفسك، مش عاوز أتأخر.
نهضت واقفة وهي ترد في انصياع كامل:
على طول يا حبيبي..
همت بالتحرك لكنها التفتت برأسها نحوه لتضيف في رقة وقد ضج وجهها بتورده دافئ:
تعرف أنا كنت لسه بأقول لماما إني لازم أروح لخالتي من بدري عشان أساعدها، وهي و"هيثم"
يروحووا براحتهم، برضوه هي محتاجة حد يقف معاها.

تقوست شفتاه عن ابتسامه صغيرة ممتنة وهو يدس بينها سيجارة أخرى يوشك على إشعالها، رمقته "خلود" بنظرات أكثر عشقاً قبل أن توليه ظهرها لتسرع في خطواتها عائدة إلى غرفتها حتى تكمل ارتداء ثيابها. استوقفتها والدتها متسائلة بتهمك:

-التعب راح خلاص؟

انفج ثغرها عن بسمة متسعة مليئة بالفرحة، مالت نحو والدتها تحتضنها وتقبلها من وجنتها وهي تهتف في ابتهاج:

-أنا بأحبك أوي يا ماما.

علقت عليها بنبرة ساخرة:

-خلي الحب لناسه ياختي!

.....

لا تعرف كيف وافقت ببساطة على جنونها المسبب للفت الأنظار وجلست على مقعد بلاستيكي إلى جوار عربة الطعام الجاهز لتراقب بقلبي غريزي ما تفعله ابتهاجها مع الزبائن. في البداية كان الوضع هادئاً بالرغم من اختيار الأختين ليوم الخميس لافتتاح مشروعها حيث بداية العطلة الأسبوعية وخروج المواطنين للاستمتاع بالأجواء الشتوية، انزعجت قليلاً من شرائط الأنوار الجاذبة للأنظار التي حاوطت مقدمة العربة لتجذب الأعين نحوها، أشاحت ببصرها عن إضاءتها لتضم شالها الصوفي على عنقها حتى تستعيد إحساس الدفء المفقود في ذلك المكان الفسيح.. أعدت "همسة" السندوتشات الخفيفة وأضافت لها نكهات مميزة لتعطيها مذاقاً مختلفاً وأيضاً حريقاً إن طلب أحدهم طعمًا لاذعًا وحارًا، في حين تولت "فيروزة" تلقي الطلبات وتغليف الطعام فور الانتهاء منه. نهضت "آمنة" من مكانها لتذهب إلى ابنتها بعد أن ضجرت من المكوث مطولاً بمفردها دون أن تقوم بشيء مفيد، ناهيك عن تيار الهواء البارد الذي أرهق جسدها. وقفت تتطلع إلى الاثنتين الواقفتين خلف نافذة موجودة في العربة، كلتاها ترتدي كزة سوداء ثقيلة مطبوع عليها نقوشات شتوية، ويرفعان شعرهما للأعلى ويلفان حوله مندبلاً للرأس من اللون الأسود يزينه ورودًا ملونة حتى لا

تتساقط أيا من خصلاته في الطعام أثناء إعداده، تأملتها بابتسامه لطيفة سرعان ما تلاشت لتسألها بنفاذ صبر:

- هو احنا هنفضل أعدين كده لحد امتي؟

ردت عليها "فيروزه" بملامح جادة:

- لسه بدري يا ماما، الناس بتسهر للصبح.

قالت والدتها بتذمر وهي تسحب شالها على كتفيها المرتعشين:

- بس أنا البرد نخر في عضمي وتعبني.

اقتربت عليها "همسة" بلطف وهي تبتسم لها:

- تقدري يا ماما تطلعي تريحني، كتر خيرك واقفة معانا من بدري، واحنا كان شوية هننقل ونرجع البيت.

اعترضت عليها بشدة:

- وأسيبكم لوحكم في الطل؟

صححت لها "فيروزه" عبارتها مستخدمة يدها وعينيها في الإشارة:

طل إليه بس، ده الدنيا زحمة أهي.

انكشيت "آمنة" على نفسها من التيارات الهوائية الباردة التي تضرب وجهها، وقالت في ضيق:

- أنا مش مرتاحة.

استندت "فيروزه" بكفيها على حافة النافذة لتمكن من الانحناء نحوها، ثم ردت عليها بهدوء عليها تخفف من وطأة خوفها الزائد:

- يا ماما متخافيش، أدكي موجودة معانا من بدري وما فيش حاجة حصلت، الناس رايحة جاية وكل حاجة تمام التام.

حركت رأسها للجانب قبل أن ترد عليها:

قلبي متوغوش، وبعدين كل فين وفين لما حد يبجي ناحيتكم

بررت لها عزوف الزباين عن القدوم قائلة بمنطقية:

- ما هما لسه ميعرفوناش، بكرة لما الكل يدوق أكلنا هنبقى مش ملاحقين على الطلبات ولا الزباين.

-أما نشوف

قالتها وهي تجر ساقها نحو مقعدها الموضوع بجوار العربة، في حين تساءلت "همسة" في اهتمام وهي تحاول أن تطل برأسها من النافذة لتنظر إليها أكثر:

-هاتعملي إيه يا ماما؟

أقلت بثقل جسدها المنهك على المقعد لتجيبها بعدها:

-هاقعد في مكاني، ما أنا مش هاسيكم لوحدم.

سألتها مبتسمة:

طيب أعملك سندوتش؟

ردت بوجه متقلص ونظراتٍ متممة:

-لا مش عاوزة.. ربنا يسهل وتفضوا المولد ده خلينا نرجع بيتنا.

كظمت "فيروزة" غيظها من أسلوبها المنفر والمثبط للعزائم لتقول بصوتٍ خفيض وهي تكز على أسنانها:

-شايقة الإحباط؟

همست لها أختها وهي تسحب السكين من موضعه:

-أحمدي ربنا إنها وافقت أصلاً، مش أحسن ما كانت حطتلنا العقدة في المنشار ولا عرفنا نعمل حاجة.

قالت بتكشيرة جانبية على شفيتها:

على رأيك، الحكاية مش ناقصة عكوسات!

أمرتها "همسة" بجدية وهي ترص قطع اللحم في المقلاة المليئة بالزيت المتأرجح على النيران:

قطعي يالا الطماطم والخس، عشان لو حد جه طلب أو درر ما يقفش كثير.

رفعت "فيروزة" يديها للأعلى مرددة بنبرة عالية:

-ارزقنا من عندك يا رب!

.....

شمر عن ساعديه وقام بثني كمي جلبابه ليتحرر ذراعه ويستطيع مدها بأريحية أثناء تناوله للطعام

خلال المأدبة التي دعا إليها أفراد عائلته احتفاءً بخروج حفيده الغالي من محبسه. شطر "سلطان"

الدجاجة المطهية أمامه إلى نصفين؛ وضع إحداها في صحنه واستطال ذراعه ليصل إلى حفيده

الجالس على ميمنته بجوار ابنه، أسندها في طبقه قائلاً له بصيغة أمرة:

-عاوزك تخلص الأكل ده كله.

رد عليه "تميم" مازحاً:

-أوامرك يا جدي، هنسفها لك

بادله جده ابتسامة راضية قبل أن تتحول أنظاره نحو "ونيسة" التي أمسكت بالمعلقة الكبيرة

لتسكب بها الحساء الذي تُجيد إعداده بوصفة خاصة بها في طبقه وهي تقول:

-دوق يا بابا الحاج وقولي رأيك.

مد معلقته به وسحب القليل منه ليرتشفه ثم أردف في استحسان:

تسلم إيدك.

انتفضت عروقها تباهاً برأيه الذي يضاعف من فخرها بمهاراتها في الطهي، وشرعت توزع على باقي

الجالسين مستعينة بابنة أختها لتساعدتها في تقديم الطعام لضيوفها، خاصة وأن ابنتها "هاجر" تعاني

من آلام الحمل المعتادة في تلك الأشهر المتقدمة منه. استهلت "بثينة" حديثها مادحة عن عمدٍ لتوجه الأنظار نحو ابنتها:

- طول عمرك ست بيت شاطرة يا "ونيسة"، و"خلود" طالعة زيك، مخدتش حاجة مني.
ردت شقيقتها مجاملة:

- تسلمي ياختي، بس بنتك أشطر مني.

قالت لها بابتسامة متسعة بعد ضحكة مفتعلة:

- والله دي أخدة أصول الصنعة كلها منك.

وقفت "خلود" بجوار خطيبها تقدم له الطعام، شكرها بنظراته دون أن ينبس بكلمة، وفهمت هي إشارات غير المنطوقة واحمرت وجنتاها خجلاً. هتفت "بثينة" فجأة عالياً وصوت المعالق يضرب في الصحون:

- ما تاكل يا "تميم"، ده إنت هفتان يا حبيبي، هما مكانوش بيأكلوك في السجن؟

بدت جملتها فظة إلى حد ما وأثارت حفيظة ابنتها التي اتسعت عيناها في لومٍ من أسلوبها غير المقبول لطرح مثل تلك الكلمات الصادمة، خشيت من توتر الأجواء لكن فاجأها "تميم" بالرد بسخافةٍ قاصداً إحراجها وربما مضايقتها:

- كنت بأكل يا خالتي بدل الطقة عشرة، بس أكل أي لا يُعلى عليه!

أكتسى وجهها بعبوسٍ ملحوظٍ، بينما ضحكت "ونيسة" بنبرة فرحة وهي تقول:

- حبيبي يا ابني، دايمًا كده ناصف أمك.

ثم غمزت له بمكرٍ لتتحول الأنظار من جديد نحو خطيبته المرتبكة:

- بس النهاردة "خلود" اللي عاملة كل حاجة بإيدها، صح يا "هاجر"؟

أيدتها ابنتها "هاجر" في الرأي فقالت بلوؤم:

طبعًا، وكله على يدي.

ردت عليها "بثينة" متسائلة بابتسامتها العريضة:

إنتي صحتك عاملة إيه دلوقت؟

أشارت "هاجر" إلى بطنها المنتفخ وأجابت بتنهيدة متعبة:

-الحمد لله، مطع عيني، بس كله يهون عشانه.

قالت لها مجاملة:

طبعا، ده الحفيد المنتظر، ربنا يتملك على خير، ها الضاكتور قالك النوع إيه؟

همت تجيبها:

هو قالنا ...

لم يرغب "محرز" -زوج "هاجر" وأحد أهم معاوئي "بدير"- في اقتحام تلك المرأة الفضولية لشئونه الخاصة، لذا بجزم قاطع حديث النساء ليردد بطريقة اللزجة وبقايا الطعام الممضوغ يتناثر من فمه:

-كل اللي يجيبه ربنا خير، خلونا نشوف الشغل والتوريدات اللي ورانا، جايلنا كام طلبية و....

ظنت "بثينة" أن الفرصة مواتية لتتحم ما تريده مستغلة جملة "محرز" الأخيرة فهتفت متدخلة في الحديث بفضافة ونظراتها بالكامل تركزت على وجه "بدير" لكونه المسئول عن إدارة الأعمال:

-مناسبة الشغل يا حاج "بدير"، ما تاخد "هيثم" معاك، أهوو يقف معاكو ويقضيلكم مصالحكم.

رد عليها "بدير" بطريقة سمجة تليق بأسلوبها:

-جربته قبل كده وما نفعش!

احتج "هيثم" على اتهامه بالتقصير فدافع عن نفسه قائلاً وقد توقف عن بلع لقيات الطعام:

-لا يا جوز خالتي، أنا بأفهم في الشغل.

نظر له بنظرة نفاذة تشير إلى خبرته وسطوته قبل أن يكتسي صوته بطابع رسمي وهو يرد:

-شغلنا مش عاوز فهلوة ولا لوي دراع، دي مصالح ناس بألوفات، وسمعتنا قبل كل ده فوق أي اعتبار.

علق الطعام في حلق "هيثم" فسعل بشدة، ناولت "بثينة" كوب الماء لابنها وربتت على ظهره حتى يلفظ ما سد مجرى الهواء، التفتت لتعاب زوج أختها:

-وأنا ابني قصر في حاجة؟

أجابه ببساطة وهو يلوك الطعام:

-ابنك معندوش مخ.

اشتعل وجهها بحمرة غاضبة من إهائته غير المقبولة لابنها فصاحت تدافع عنه باستماتة:

-نعم، أنا ابني مخه يوزن بلد باللي فيها، إنتو بس اللي مش مقدرين قيمته ولا مدينه حقه هنا.

تدخل "سلطان" قائلاً بلهجة الأمر الناهي:

-خلاص يا "بثينة"، قفلوا على السيرة دي، مش وقته الكلام ده، نبقي نشوف موضوع ابنك بعدين

ردت على مريض وعيناها تشعان شرراً مغتاظاً:

-ماشي يا حاج "سلطان".

رن هاتف "تميم" فأخرجه من جيب بنطاله الجينز الخلفي لينظر إلى شاشته، فمنذ أن علم رفاقه بعودته وهاتفه لم يتوقف، نهض دافعاً مقعده للخلف وهو يستأذن بلباقة احتراماً لضيوفه:

-لا مؤاخذة، هرد على التليفون وأرجعلكم

قالت له "ونيسة" بابتسامة عريضة وبكلمات موحية:

-بسرعة يا ابني، لأحسن الشورية اللي عملاها بنت خالتك تبرد.. طعمها مايبقاش حلو إلا وهي سخنة موهوجة.

تلقائيًا تحركت حدقتاه نحو وجه "خلود" المتشرب بجمرته الخجلة، بدت أكثر توترًا من نظرات المحققين بها، رمقها "تميم" بنظرة غير مفهومة التقطتها خلسة، ثم عاد ليحديق في والدته قائلاً باقتضاب:

لن شاء الله..

انسحب من مائدة الطعام ليتحدث مع المتصل وصوته المرح كان نوعًا ما مسموعًا وهو يقول:

حبيبي يا "ناجي"، أهوو بنتعلم منك الأدب والأخلاق!

لم يدرك أن عينا "خلود" ما زالت تتبعه أينما ذهب وقلبا يدق بسرعة فائقة، وبالرغم من تخرجها من الأسلوب غير المستساغ في التحدث عنها بسبب أو بدونه إلا أنها كانت سعيدة بكونها محط اهتمامه. لاحقًا عاد "تميم" إلى الطاولة ووقف مستندًا بذراعه على مقعده ليعتذر بجدية:

-معلش يا جماعة، أنا مضطر استأذن وأنزل أشوف أصحابي، كلهم متجمعين ومستنيني على القهوة.

سقطت كلماته على رأس "خلود" كالصدمة، وهي التي كانت تمني نفسها بسهرة لطيفة تتمتع فيها بالتطلع إلى وجهه وتغرق في نظراته الساهمة، وربما يتجرأ ويداعب مشاعرها بتغزله فيها، تبخرت أحلامها كليًا وامتعضت ملامحها كتعبير عن ضيقها، في حين رد عليه "بدير" بصوت هادئ:

-وماله اخرج يا "تميم"، بس بلاش مشاكل.

قال ممازحًا بابتسامة ساخرة:

-اطمن يا حاج، أنا مبطل شقاوة بقالي يومين.

ودّع الجالسین ملوحًا بيده.. حانت منه التفاتة سريعة نحو "خلود" رمقها بنظرة ذات مغزى ابتسمت لها وأسبلت عينيها نحوه قبل أن تثبت نظراتها على صحن طعامها محاولة تهدئة قلبها الراقص طربًا لاهتمامه بها وإن كان صغيرًا ومتواريًا.

.....

أوشك زيت القلية المستخدم في طهي قطع (الهامبورجر) على النفاذ بعد أن تكاثرت الطلبات الخاصة بتجهيز السندوتشات، حاولت "همسة" التعامل مع ما هو متاح حتى يتسنى لها توفير

بعض الوقت للذهاب إلى المنزل لإحضار واحدة جديدة والعودة إلى عربة الطعام. أوكلت مهمة مراقبة تحمير وجهه لـ "فيروزة"، لكن خشيت الأخيرة من إفساد مجهود أختها المبذول لقلة خبرتها فقالت حاسمة رأيتها:

-أنا اللي هاروح أجيب الزيت، وخليكي إنتي تابعي الأكل
ردت عليها رافضة:

-يا "فيرو" أنا مش هتأخر، والموضوع بسيط مش مستاهل، إنتي بس
قاطعتها بعناد:

-خلاص يا "همسة"، أنا عارفة مكان الحاجة، وبالمرّة هاجيب لماما شال ثقيل بدل اللي لبساه
عشان البرد.

ابتسمت تشكرها:

-تسلميلي، خدي بالك من نفسك.

ردت ساخرة:

-هو أنا ههاجر، ده البيت آخر الشارع!

ثم انتزعت مريبتها عن خصرها لتتركها على الجانب وتهبط عن العربة، سألتها "آمنة" مستفهمة:

-رايحة فين يا "فيروزة"؟

أجابتها على الفور:

-هاجيب زيت من البيت وراجعة على طول.

أمرتها بنبرتها الجادة:

-متأخرينش.

-حاضر.

قالتها وهي تسير على عجلة بخطواتٍ أقرب للركض لتعبر النصف الأول من الطريق، وقفت عند المنتصف على الرصيف الفاصل بين الجهتين تنتظر تباطؤ حركة السيارات حتى تتمكن من العبور. كان الهواء عاصف نسيبًا فضرب وجنتيها وتسبب في بعثرة خصلات شعرها بشكلٍ شبه فوضوي على وجهها مما اضطرها لإعادة ما تناثر منه أسفل منديل رأسها دون أن تكتث أنها حررت مشبك الشعر الفضي المصمم على هيئة زهرة الأوركيد والذي كان ممسكًا به. فركت "فيروزة" كفي يدها معًا عل الدفء يتسرب إلى أطرافها التي ارتعشت كليًا، لم تتخيل أن يكون الطقس باردًا بسبب حرارة الموقد بداخل العربة فبدا الجو بها على النقيض من الحقيقي.

في تلك الأثناء، كان "تميم" في خضم اتصالٍ هاتفي مع رفيقه، كامل حواسه مركزة مع حوارهِ الشيق فيما عدا بصره المنتبه للحركة المرورية، قال لرفيقه "ناجي" عاليًا بصوته الأجلش:
-هاشوف فين القهوة دي وأجيلك عندها.

مر بجوار "فيروزة" ولم ينتبه لها لكونها شخص عابر بالنسبة له متابعًا حديثه ببسمة جانبية شبه متهمكة وعيناه تجوبان بفضولٍ على عربة الطعام الوحيدة المرابطة بجوار الكورنيش:
-ده الدنيا اتغيرت خالص، وشايف حاجات غريبة هنا.

لفتت أنظاره فتوقف عن السير ليتأملها بنظراتٍ أكثر تدقيقًا وتفحصًا. هدأت سرعة السيارات نوعًا ما فهولت "فيروزة" عدوًا للناحية الأخرى مقاومة قدر استطاعتها تيار الهواء الشديد، لم تشعر بمنديلها الذي حرره الهواء وطار في اتجاه الريح ليصطدم بذاك الشخص الغريب عنها، أحس "تميم" بألم طفيف يضرب مؤخرة عنقه وكأن أحدهم قذفه بطوبة صغيرة، تحسس به يده وهو يلتفت برأسه للخلف باحثًا عن ارتكب تلك الفعل الحقاء التي حتمًا لن يمررها مرور الكرام، لم يجد أحدهم في الجوار، لكن أصابعه التقطت المنديل والمشبك. حملق فيهما باستغرابٍ حائر متسائلًا مع نفسه:

-بتوع مين دول؟!

.....

الفصل الرابع

مسحة رقيقة بأناملها على تلك الصورة الصغيرة الوحيدة التي تمتلكها له قبل أن ترفعها إلى شفيتها لتطبع قبلة مطولة عليها، كانت تشفق إليه حد الجنون بالرغم من وجوده معها، جفائه وخشونته غير المنقوصين معها كان أكثر ما يزعجها منه، تهيدة أخرى خافتة انبعثت من بين شفيتها ونظراتها الساهمة حملت في وجهه الجاد.. تذكرت "خلود" حينما ألحت على "تميم" ليعطيها صورته، كان ذلك قبيل إعلان خطبتها، وافق بصعوبة على طلبها، وأهداها واحدة له وهو في عمر صغير، فرحت آنذاك بهديته الغالية واعتبرتها أثمن من أغلى مجوهرات العالم، خباتها سريعًا في محفظة يدها قبل أن يراها أحدهم ويستغل الفرصة في إحراجها بالسخرية من حبها المقيم به. لمسة حذرة على جانب ذراعها كانت كفيلا تجعل جسدها ينتفض، التفتت كالمسوعة لجانبها لتجد خالتها تحديقها بنظرات ذكية، مالت عليها لتهمس لها بنبرة ذات مغزى:

-ربنا يكملكم على خير يا حبيبتي، إنتي صبرتي كثير، وعن قريب هانسمع الأخبار الحلوة.

قفز قلبها بين ضلوعها فرحًا، أشرفت ملامحها وهي تسألها بتلهف مفضوح:

-بجد يا خالتي؟

ردت عليها "ونيسة" مؤكدة بثبات:

-أيوه، أنا هفاتح جوز خالتك عشان نتم الجوازة، كفاية كده عليكم.

عفويًا احتضنتها "خلود" وهي تكاد تبكي من فرط سعادتها، شكرتها بأنفاس مبهورة:

-ربنا ما يحرمني منك يا خالتي، دايما واقفة في صفي.

ربتت الأخيرة على ظهرها لتأمرها بلطافة:

طب يالا يا عين خالتك عشان نجهز القهوة والشاي لجدك وباقي العيلة.

هزت رأسها في إذعانٍ راضٍ واستدارت متجهة نحو أحد أدراج المطبخ العلوية لتفتحها وتخرج

الفناجين وترصها بشكلٍ منمق في الصينية ريثما تكمل خالتها إعداد القهوة وغلي الماء.

.....

نظرة حائرة متشككة ارتكزت على منديل الرأس والمشبك المعلق به، للحظة شرد عن مكالمة رفيقه وتركزت كامل حواسه مع ما في يده، ارتفعت عيناه لتحديقان في الطريق من جديد، لا شيء يدعو للاستجابة، أنفاس متباعدون يسرون على عجل في العتمة المسيطرة على المكان بسبب خفوت الإضاءة وقلة أعمدة الإنارة، نظر أمامه ليجد البعض ما بين جالس على الكورنيش وواقف على مطلع الرصيف ينتظر سيارة أجرة شاغرة ليستقلها.. الحياة تسير بشكلٍ طبيعي ومتلائم مع طبيعة الأجواء الباردة. أطبق "تميم" كفه عليهما وهو يفكر في إلقائهما في أقرب سلة للقمامة للتخلص منهما، وبالفعل دنا من واحدة بلاستيكية معلقة على عمود الإنارة المظلم، رفع يده للأعلى ليصل إلى فتحتها العلوية، لكن أعاقه صوت "ناجي" المتسائل باستغراب:

إنت روحت فين يا باشا؟

أجابته باقتضابٍ بعد نحنة خفيفة وقد تهدل ذراعه:

معاك...

عفويًا دسهما في جيب بنطاله الخلفي ريثما يفكر بهدوء فيما سيفعله بهما بعد أن أثرت حفيظته، همّ باجتياز الطريق وعيناه تبصران عربة الطعام المضيئة بالأنوار البراقة، توقف على مقربة منها يفحصها بعيني المحقق المشكك والباحث عن أجوبة تفصيلية لأسئلته الدائرة في عقله، اقتضب جبينه وانزوى ما بين حاجبيه بقوة وقد لمح فتاة تُخدم على الزبائن المرابطين أمام العربة وابتسامتها الجمالة ظاهرة على محياها، أردف "تميم" متسائلًا باهتمام فضولي ينم على كونه لن يدع الأمر هكذا يمر ببساطة:

هو مين في الحتة بتاعتنا شغال على عربية؟

سأله "ناجي" مستفهمًا، فقد بدا حديثه غامضًا مبهمًا:

عربية إيه؟

أجابته دون أن يرمش:

عربية أكل..

عاد ليسأله حتى تتضح الصورة له:

-تقصد عربية فول؟

رد ناقيًا:

-لأ، سندوتشات وحاجات ثانية.

-طب مكانها فين؟

أجاب بجدية:

على الكورنيش قرب البحر.

تنحى "ناجي" بخفوت قبل أن يعقب عليه:

-مش عارف بصراحة، بقالي كام يوم مامشتش من الناحية دي.. بس بيتهيا لي مافيش حاجة هناك.

رد مؤكدًا بما لا يدع مجالاً للشك:

-بأقولك أنا واقف قصادها وفيها باين بنت شغالة عليها.

ردد "ناجي" متعجبًا:

-بنت؟ غريبة أوي!

حك الأخير جبهته مضيئًا بنبرة تميل للانضباط:

-نكمل كلامنا في الحكاية دي لما أشوفك الأول، قولي إنت فين بالضبط؟

حاول رفيقه أن يوصف له الطريق المختصر - المؤدي للمقهى حديث الطراز الذي يجلس به بعد أن تغيرت معالم المنطقة كثيرًا واختلفت عما اعتاد عليها قبل أن يُسجن. ظل باله مشغولاً بما رآه على طريق الكورنيش وتغاضى مؤقتًا عنه حتى يستعلم عن الأمر برمته.. لكن الأكيد أن السكوت عليه أمرٌ مستبعدٌ.

سار "تميم" بضعة خطوات نحو وجهته، لكن لشيء داخلي لا يعلم سببه قرر فجأة الالتفاف والعودة إلى العربة، تخلى عن صدره واقترب من النافذة التي تطل منها تلك الشابة الجميلة، رمقها بنظرة مطولة محاولاً تفحصها بها.. توقف عن التحديق بها حينما باغتته متسائلة بشكلٍ روتيني بحت:

-إيه طلبات حضرتك؟

بدا وكأنه قد أتى من كوكب أخرى وهو يرمقها بتلك النظرات الغريبة، تقلصت تعابير وجهه واشتد اقتضاب جبينه، حرك رأسه للجانبين في حيرة باحثاً عن قائمة الطعام أو المشروبات، فهو لا يعرف ماهية ما يقدم بالعربة، سكونٌ حائر ساد في الأجواء قاطعته "همسة" بلطافةٍ لبقة وكأنها أدركت سبب تردده:

-في عندنا سندوتشات برجر حلوة، وكان آ...

رفع يده ليسكتها بقوله الفظ:

-مش عاوز.. شكراً

تراجعت "همسة" برأسها للخلف في اندهاشٍ مصدوم من رده المستفز، اريد وجهها من الضيق والغضب. لم تكن تجيد التصرف في تلك المواقف المخرجة، خُيل إليها أنه لو كانت "فيروزة" حاضرة لما كانت مررت الأمر على خير وللقنت أمثاله من الوقيين درساً يليق به، تجاوزت مضطرة عن وقاحته لتلتفت إلى عملها الذي يحتاج كامل تركيزها الآن.

.....

بسرعةٍ وهمة أنجزت ما هو مطلوب منها في أقل وقت ممكن؛ حيث أحضرت زجاجتي زيت حتى لا تضطر للعودة إن نفذت الأولى، كما عبثت بدولاب والدتها لتأتي لها بالشال الصوفي الثقيل لتضعه على جسدها فلا تشكو من برودة الطقس، وقبل أن تغلق "فيروزة" باب المنزل خلفها، ألقت نظرة خاطفة على هيئتها، دهشة عجيبة اكتست ملامحها وقد أدركت فقدانها لمنديل رأسها، عفويًا تحسست بيدها الأخرى التي لا تحمل شيئاً خصلاتها النافرة، انزعجت قائلة لنفسها:

-أكيد طار وأنا محدتش بالي.

رقت بيدها ما تبعثر من شعرها عليه يثبت في مكانه، كنت "فيروزة" مدركة لضيق الوقت، وبالتالي تجاوزت عن ضيقها لتخرج من المنزل لتلحق بالزبائن المنتظرين عند العربة. اتجهت للسلم وأمسكت بالدرابزين لتهدأ درجاته.. توقفت قدماها عند منتصفه وقد أبصرت خالها وزوجته المستنزة يلجان من المدخل، انتابها ريكة مفاجأة، تطلع لها الأول في استغرابٍ مندهش، ثم سألتها بشكلٍ آلي كأنه يحقق معها:

-رايحة فين السعادي يا "فيروزة"؟

توترت ملاحظها بشكلٍ ملحوظ وخرج صوتها متردداً وهي تجيبه:

-كنت.. آ.. بأجيب حاجة ل.. ماما و...

تأملتها "حمدية" بنظرات جابت عليها من رأسها لأخص قدميها، ثم تدخلت في الحوار متسائلة في استنكار وعلامات النفور ظاهرة على خلعها:

-في نص الليل؟

ثم انخفضت نظراتها نحو زجاجتي الزيت اللاتين تحملها لتسألها والريبة تعترها:

-والزيت ده بيعمل معاك إيه؟

انتبه "خليل" لحديث زوجته ونظر إلى حيث قالت، وسألها مستفهماً:

-صحيح، بتعملي إيه بدول؟

رفعت "فيروزة" يدها قليلاً لتحقق في حيرة بالغة فيما معها، أحست بجفافٍ كبيرٍ يجتاح حلقها، ازدردت ريقها ولعقت شفيتها قبل أن تجيبه بارتباكٍ يدعو للشك:

-أصل الحكاية... يعني آ... كنت هوديهم..

لوح "حمدية" بيدها مضيئة بنبرة ذات مغزى:

-شكلها بتدور على كدبة تلبفنا بيها!

عبارتها الأخيرة أشعلت حنق زوجها فتساءل بلهجته الصارمة:

-انظقي يا "فيروزة"، لآتي بتعملي إيه من ورايا؟

ترددت في البوح بحقيقة ما فعله، خشيت إفساده للأمر قبل أن تتمتع بنجاحه، لذا أجابته بشجاعة تفتقد لها:

-ولا حاجة يا خالي.

رمقتها "حمدية" بنظرة مزدرية قبل أن تتهمها بالباطل:

-تلاقيها مصدقت إنك مش موجود فخارجة تدور على حل شعرها..

هنا تجهمت تعابير ابنة أخته وكشرت عن أنيابها لتهاجمها بشراسة حتى تدافع عن نفسها:

-أنا محترمة غصب عن عين الكل، وينقطع لسان أي حد يقول غير كده

احتقنت نظرات زوجة خالها فصاحت تعنفها:

-قصدك إني بأتبلى عليك؟

ردت غير مبالية:

-والله إآتي أدري!

التفتت "حمدية" نحو زوجها تهتف فيه بغضبٍ استعر بداخلها:

-شايف بنت أختك المؤدبة بتقولي إيه؟ بدل ما تشوف الصايعة دي خارجة فين في أنصاف الليالي

جاية تعلمني الأدب؟!!!!

حفزت حميته الرجولية بكلماتها المستفزة والمثيرة للأعصاب، اندفع "خليل نحوها ليقبض على

ذراعها، أمسك بها بقسوة آلمتها بضغطة الشديد عليها، ثم هزها بعنف وهو يسألها بزجرة بائنة في

صوته:

-انظقي يا بنت ال.....! رايحة فين السعادي؟

احتقنت عينها تأمراً بإهائته غير المقبولة ولعناته المسيئة، ومع ذلك ضبطت انفعالها قبل أن تهتاج

لترد بقوة:

-رايحة أشوف شغلي وأكل عيشي

انزوى ما بين حاجبيه مرددًا في اندهايش أكبر:

-شغلك؟

ردت باستبسالي يعبر عن شخصيتها غير الضعيفة:

-أيوه، أنا فتحت عربية أكل وبأشغل دلوقتي يا خالي، ورايحة أشوف الزباين اللي مستنين طلباتهم.

لطمة على الصدر مصحوبة باستنكارٍ قالتها "حمدية":

-يا دي النصيبة اللي كانت على البال ولا على الخاطر!

هزها "خليل" بعصبيةٍ لاستفزازها له صارخًا بها:

-إنتي اتجننتي؟ من ورايا؟ ومن غير ما تقويلي؟

ردت مدافعة باستماتةٍ عن حلمها:

-أنا معملتش حاجة غلط ولا حرام، وماما عارفة بده وموافقة كمان.

زمت "حمدية" شفيتها لتعلق بتهمٍ محتر ونظراتها الساخطة مثبتة عليها:

-بلا خيبة! هي أمك دي بتفهم!

استنشطت "فيروزة" غضبًا من إساءتها غير المقبولة عن والدتها، رفعت رأسها نحوها لتقول بنبرة مشحونة بالحقد:

-ماتغلطيش فيها، أمي على راس الكل بما فيهم إنتي!

شهقة مغلولة انفلتت من بين شفيتها، كرت على أسنانها في ضيق متعاضمٍ من جراتها معها، ثم وضعت يدها أعلى خاصرتها لتقول بجدّة:

-شايف البت بتغلط فيا إزاي؟ هاتسكتلها؟ أنا مش هستني أما أسمع شيتي بودني، أنا طالعة، واصطفل إنت معاها، بت ناقصة رباية!

وقبل أن تبادر "فيروزة" بالرد أخرسها تحذير "خليل" الصارم وعينان تطقان شرراً:

-اسكتي خالص، ولا حرف واحد زيادة!!

كظمت غضبها في نفسها مضطرة، ثم عادت لتحدق في وجه خالها وهو يتابع بوعيد:

-هنتحاسب على ده بعدين، بس الأول وريني أمك فين.

تنفست بعمق لتضيف بعدها بعناد استغفه:

-ماشي، بس أنا مش هابطل شغلي!

لكزها بخشونة في كتفها وهو يوبخها:

-أما إنتي بجحة صحيح؟ ليكي عين تتكلمي؟ انجري قدامي.

هبطت ما تبقى من درجات وهي بالكاد تسيطر على ضيقها النامي بداخلها، لكنها عقدت العزم

على ألا تتخلى عن حلمها مهما حدث.

.....

انتهت من توزيع فناجين القهوة وأكواب الشاي المصحوبة بقطع (البسبوسة) الشهية لتجلس بجوار

والدتها ونظراتها القلقة تدور على أوجه الحاضرين منتظرة بترقب الشروع في الحديث عن موضوع

زواجها من "تميم"، كم تلهفت لتلك اللحظة التي يجتمع فيها أفراد العائلتين من أجلها! حلمت بها مراراً

وتكراراً، وتخيلت حبيبها يلقي كلمات البداية الداعية لإتمام الزيجة، تلقائياً تشبع وجه "خلود" بحمرة

ساخنة فور تلميح "بثينة" الصريح بكل ثقة:

-مش كفاية تأخير بقى يا حاج "بدير"؟ الحمد لله "تميم" رجع بالسلامة، واحنا عروستنا جاهزة

قال لها بتعايره الجافة:

-أنا معنديش أي مشكلة، اتفقوا مع "تميم" وحددوا الميعاد المناسب.

دق قلب "خلود" في اضطرابٍ فرح، أخيراً ستجتمع به في منزلٍ مستقل لتتعم بجياةٍ وردية تحاوطها طيور الحب، تحاشت النظر في أعين المحققين بها، وركزت حاسة سمعها مع والدتها وهي تقول بنية عازمة:

-خير، واحنا هنبدأ نجهز فرش الشقة من دلوقتي.

رد عليها "بدير" بهدوئه الجاد:

-على بركة الله

أطلقت "ونيسة" زغرودة عالية ممللة، ثم بررت ما فعلته وهي تضحك في ابتهاج عظيم:

-ماينفعش الأخبار الحلوة دي تتقال على السكيتي.

ضحكت "هاجر" بسعادة وهي تؤيدها:

-معاي حق يا ماما، كله إلا "تميم" و"خلود"، دول الغاليين.

نجلت "خلود" من مدحها اللبق لها وعجزت عن الرد بصوت مسموع، لكنها كانت ممتنة لدعمها الكامل لها. تنحنح الحاج "سلطان" عالياً ليزيح تلك الحشرة المغلفة لأحبال صوته قبل أن يضيف حاسماً:

-تقووط العرسان عندي، عفش كامل من مجاميعه هايكون عندهم في بحر أسبوع.

لم يجادل "بدير" والده في قراره، فحينما يبوح بشيء تكون واجبة النفاذ، لذا ابتسم له وشكره بهذيبٍ يحمل التقدير:

-تعيش وتجيّب يا أبا.

على الجانب الآخر، مالت "ونيسة" على ابن أختها لتهمس له بعينين تلمعان بوميض غريب:

-بأقولك إيه يا "هيثم"، تعالى معايا عاوزاك في كلمتين.

أوما برأسه في خفة وهو يرد:

-حاضر يا خالتي.

استند بمرفقيه على مسندي الأريكة لينهض، ثم تبعها ليسير خلفها في الزدهة الطويلة - ذات الإضاءة البرتقالية الخافتة - والتي تنتهي بغرفة متسعة، تردد في الدخول لغرفة نوم زوج خالته، فهو من النوع المتشدد الذي يعتبر الأماكن الداخلية في منزله محرابًا لا يجوز وطئه، لكنها شجعته على الدخول. جاب "هيثم" بنظرات فضولية أثاث الغرفة العتيق، ابتسامه تهكمية اعتلت ثغره، فبالرغم من المكاسب المادية التي تحصل عليها العائلة من تجارتهم الراجحة إلا أنهم لم يفكروا في تبديل أثاث المنزل الذي خطا الزمن آثاره عليه، أو حتى ينتقلوا من تلك المنطقة السكنية المليئة بالسكان محدودي الدخل، وكان قوتهم وغرورهم مستمدين من بقائهم فيها، توقفت حدقتاه عن الحركة عند تلك الشُفونيرة القديمة المكونة من أربعة أدراج، فتحت خالته الدرج الأول لتخرج منه شيء ما، اشرب بعنقه للأعلى لينظر بفضولٍ إلى ما تفعل، سال لعابه وقد لمح ما يزيد عن أربعة رزم من النقود المعقودة بشريط بنكي مرصوفة فيه، على الفور أدار رأسه للجانب الآخر قبل أن تلتقطه مدعيًا التهاة بالتحديق أسفل قدميه، اقتربت منه "ونيسة" وأمسكت بكف يده ثم دست في راحته النقود المطوية وهي تقول له:

- خذ يا حبيبي القرشين دول مشي بيهم حالك.

اعترض بكرامة زائفة:

- كتر خيرك يا خالتي، بس مستورة والمحمد لله.

أصرت عليه ببسمتها البشوش:

- يا واد ماتتكشفش، ده إنت معزتك عندي زي "تميم" بالظبط.

هز رأسه في استسلام مصطنع ولسانه يلهج بالشكر:

- ربنا يخليكي ليا يا "خالتي"

ثم ربتت على ظهره تشد من أزره وهي تضيف:

- ومترعلش من عمك "بدير"، إنت عارفه شديد حتى معايا

خرجت تهيدة بطيئة من صدره كتعبير عن عدم رضائه عن قساوته معه، ثم قال متملًا:

-والله يا خالتي إتي الوحيدة اللي نصفاني هنا.

مسحت بنعومة على ذقنه النابتة وابتسامتها اللطيفة لا تزال مرسومة على وجهها،

تقلصت يدها فجأة وقد أتاها صوت "بدير" من خلفها متسائلاً في عصبية:

-الواد بيعمل إيه هنا؟

ابتلعت ريقها وأجابته بوجه متوتر:

-كنت بأخذ بخاطره، مافيهاش حاجة يا حاج.

تحرج "هيثم" وانزعج من نظرات "بدير" الحاققة نحوه، رمقه بنظرات قائمة غريبة وهو يرد ببرود:

-لا مؤاخذة يا جوز خالتي، بس خالتي كانت عاوزاني، وأنا مبأخرلهاش طلب!

امتعض متأفف غطي ملامحه قبل أن يتمم "بدير" من بين شفثيه بخفوت:

عيل سمج ورزل..

انتظره حتى خرج من الغرفة ليلتفت نحو زوجته يحذرهما مستخدماً سبابته في الإشارة ونظراته في التأكيد:

-اسمعي يا ولية، ثاني مرة ملاقيش الواد هنا في أوضة نومي.

هزت رأسها في انصياح:

حاضر

نفخ "بدير" في ضيق أكبر وهو ينتزع جلبابه الفضفاض من عليه ليتابع بنفس النبرة المزعوجة:

هي نقصاه على آخر اليوم!!!

.....

انقضت السهرة على خير وعاد الجميع إلى منازلهم ليستريحوا بعد عناء يوم شاق، انتهت "هاجر" من غسل جسدها بالماء الدافئ وارتدت قميصها الأحمر الواسع ذي الحمالات الرفيعة، بدت بطنها بارزة

بشكلٍ ملفت، تحسستها برفقٍ وكأنها تدلل جنينها بذلك، ثم خرجت من الحمام منتزعة المنشفة التي تلف بها شعرها المصفف حتى لا يبتل. ألقت نظرة سريعة على زوجها المستلقي على الفراش، أولته ظهرها وجلست على مقعد المرأة لتضع القليل من مساحيق التجميل على وجهها المنتفخ بفعل تأثير الحمل، توقفت عما تفعل لتدير رأسها في اتجاهه حينما قال بازدراء:

-من ساعة ما أخوكي رجع وأبوكي معاملته ليا اتغيرت.

دافعت عن أبيها قائلة بلهجة أظهرت ضيقها:

-الكلام ده مش مضبوط يا "محرز"، طول عمرك دراعه اليمين و...

قاطعها ملوحًا بذراعه في حركة مستنكرة:

-كان زمان، دلوقتي جه اللي سحب البساط من تحت رجلي!

تعقدت ملامحها وهي تسأله مستوضحة:

-تقصد إيه؟

أجابها بوجهٍ مقلوب:

-أنا يطلع عيني ليل نهار، وأطفح الدم مع الرجالة في السوق، والمحروس أخوكي يجي على الجاهز يقش كل حاجة.

ردت مهاجمة سوء ظنه:

-هو كان سايب أبويا بمزاجه؟ ما إنت عارف اللي حصل!

علق بتكشيرة جانبية ونظراته الحاقدة ترتكز على نقطة في الفراغ:

-واهوو رجع ياختي.

تركت "هاجر" المشط من يدها لتحذره بلهجة آل "سلطان" الصارمة:

-بأقولك إيه، أبويا حر في ماله، يعمل ما بداله، إن شاء الله يولع فيه، محدش ليه عنده حاجة،

ماشي؟ وكفاية اللي بيعمله معانا..

أشاح بوجهه للناحية الأخرى ليرد عليها بزفيرٍ مستاءٍ:
- ماشي يا بنت أبوكي، أما نشوف هترسى على إيه معاكم!

.....

لف تلك الحقيبة النسائية السوداء المصنوعة من الجلد - والمقلدة لماركة عالمية شهيرة - بين كفيه بعد أن أخرج محتوياتها لينظر إن كانت تحوي مبلغًا ثمينًا أو قطعة من الذهب يبيعها وينفق مالها على مزاجه الخاص. رفع "حمص" عينيه ليتطلع إلى شريكه "شيكاجو" الذي كان يتحدث في الهاتف مع أحدهم، راقبه وهو ينفث دخان سيجارته من فمه قبل أن يرد:
- أوامرك يا كبير، اعتبره حصل.

كلمات وداع مقتضبة ردها بعد ذلك لينهي معه المكالمة، ثم اتجه نحو "حمص" الذي هم بسؤاله:
- مين كان يتكلم؟

أجابه وهو يلقي بجسده على الوسائد الأرضية:

- ده الرئيس "ناجي" كان عاوزنا نتقابل عشان مصلحة كده

قذف "حمص" الحقيبة الخاوية عند قدميه بعد أن مزقها ليرد بتأفف:

- كويس، بدل ما الحال مأشفر معانا على الآخر، أهوو نطلعنا بسبوية حلوة نمشي بيها حالنا.

تساءل "شيكاجو" باهتمام ونظراته مثبتة على محفظة جلدية، وبعض مساحيق التجميل الرخيصة، وعلبة مناديل ورقية:

- إنت إيه اللي معاك ده؟

أجابه بشفاه ملتوية:

- شنطة سرقتها من ولية ماشية في الشارع، بس طلعت شهبها فقر، مافيهاش ولا مليم.

أشعل الأخير سيجارة أخرى ملفوفة يدويًا، سحب منها نفسًا عميقًا كتمه في صدره لثوانٍ حتى ظهر احتقان بشرته، لفظ الدخان دفعة واحدة قبل أن يسعل بخشونة، رفع يده المرتعشة قليلًا نحو رفيقه يدعوهُ:

طب خد عفر.

تناولها منه وهو يرد مبتسمًا ابتسامة صفراء أظهرت اتساخ أسنانه:

-من يد ما نعدهما.

.....

خلال بضعة دقائق كانت العربة مدفوعة بيديها ويدي أختها نحو مدخل المنزل، اعتصر- الحزن قلبها لإفساد خالها نهاية يومها بصراخه في الزبائن وإبعادهم بعد رد المال المدفوع لهم، بكت "فيروزة" بجرقةٍ طوال سيرها حتى وصلت للباحة الخلفية، كانت تشعر بالهزيمة والضعف، وذلك الشعور كان مرفوضًا بالنسبة لها، غطت العربة بملاءة قديمة وهي تكفكف بظهر يدها دمعتها الساخنة على بشرتها الباردة، صعدت إلى والدتها التي كانت تتلقى جزائها بالتوبيخ القاسي، فالأخيرة قد أضعفتها الحاجة إلى مُعيلٍ ذكرٍ تُلقى إليه بهمومها، وتستند عليه في وهنها. احترقت أحشائها من تعنيفه الحاد لتلك المسكينة التي لا تملك من حيل الدنيا شيئًا، وأختها "همسة" تبكي في صمتٍ عاجز كعادتها المستسلمة، كورت قبضة يدها وضغطت على أصابعها بقوةٍ حتى ابيضت مفاصلها، احمرت عينها غضبًا وهو يلومها بصياحها الهادر:

-بقي إنتي يا "آمنة" توافقي على جنان بنتك ده؟! لا وتساعدنيها كمان؟

بكت أخته تستعطفه:

-والله ما عملوا حاجة غلطت، دول يبسلوا وقتهم، وأنا أعدة على أيديهم.

علقت "حمديّة" ببسمة ساخرة لم تبذل أي مجهود في إخفائها:

-ما هو باين التسالي والشباب حوالين البنات أد كده!

ردت عليها "آمنة" تحذرهما:

-بناقي أشرف من الشرف يا "حمدية"، خدي بالك من اللي بيقله لسانك!

وضعت الأخيرة إصبعيها على طرف ذقنها تقول لها باستعلاءً:

-ما هو واضح، وبالأمارة مستغليين غياب خالم عشان يعملوا ما بداهم!

لم تستطع "فيروزة" التحكم في أعصابها المستثارة، خاصة مع وجود تلك المقيتة التي تتلذذ بإشعال المواقف المتأزمة والرقص على أطلالها المحترقة، فقالت لها بتشنج:

-بلاش تحشري نفسك، مش لازم تولعيها.

زجرتها "حمدية" تعاتبها بقساوة شديدة:

قصدك إيه يا مفعوصة إنتي؟ هو اللي يقول كلمة الحق يبقى غلطان؟ بكرة كل من هب ودب
يجيب في سيرتنا ومش هيبقلنا عين نرد!

صرخت بها بوجهها المحتقن:

يا شيخة بطلي تولعي فيها، ارحمينا بقى.

حدجتها "حمدية" بنظرة مميتة قبل أن تلتفت نحو زوجها تعنفه لتخاذله في الثأر لكرامتها:

-شايف المحروسة بتكلم معايا ازاي؟ مش عملالي أي اعتبار، لأ وأنا مش عاوزة أجيبها تحت
رجلي واقطم رقبتها.

ردت عليها "فيروزة" تتحداها:

-ولا تقدري عملي حاجة أصلاً.

أمسكت بها "همسة" من ذراعها وهمست لها بخوف:

-بلاش تشتبكي معاها عشان خاطري.

صاحت "حمدية" عاليًا لتستفز زوجها وتخرجه عن هدوئه الذي يغيظها:

-شايف بتقول إيه؟ دي ناقص تمد إيدها عليا

لم يكن منه بعد كلماتها المحفزة لحقن النفوس ووغر الصدور إلا التحرك نحو ابنة أخته، حيث هجم "خليل" على "فيروزة" قاصدًا الاعتداء عليها بالضرب، ما منعه من الاقتراب منها جسد "آمنة" الذي حال بينه وبينها مما منحها فرصة لتتأذى بنفسها عن بطشه الأعمى. رفع خالها صوته يصرخ بها: - ما تتعدلي في كلامك مع مرات خالك، محدش عاجبك فينا ولا إيه؟ ولا الظاهر عيارك فلت!!

ردت "فيروزة" بصوتها المختنق رافضة الرضوخ أمام صرامته:

- أنا مجتثش ناحيتها، بس هي اللي بتدخل في اللي مالهاش فيه.

وضعت "حمدية" يدها أعلى منتصف خاصرتها ترمق "آمنة" وابنتها بنظرات احتقارية مغلولة، هزت جسدها في حركة مستنكرة، ثم قالت:

- ده اللي ربنا قدرك عليه يا سبعي؟ ده بدل ما تديها جوز أقلام يفوقوها!

حملت فيها "آمنة" بنظرة حادة، وأعقبها رجاءٌ يحمل التهديد:

- اهدي على نفسك شوية يا "حمدية"، الموضوع مش مستاهل

بادلتها بنظرات كارهة لثلاثين ثم ردت عليها:

- أنا أحسن حاجة أعملها أطلع بيتي بدل ما تتفقع مرارتي، بس أديني بأحذرك يا "خليل"، لو البنات دول ماجبوهاش لبر مش هانشوف طيب!!

نظرة وضيعة منحتها للفتاتين ووالدتهما، وانحنت تسحب شالها الموضوع على حافة الأريكة لتسير في اتجاه باب المنزل تاركة من فيه يشتعل غضبًا. استدار "خليل" موجهاً لومه المهدد نحو "آمنة":

- قسماً بالله لو المسخرة دي اتكررت تاني محدش فيكو هایشوف طيب...

ثم تحولت أنظاره نحو "فيروزة" مكملًا كلامه:

- سمعاني إنتي بالذات!؟

ردت عليه ابنة أخته مُعاندة إياه:

- وأنا مش هافضل أعدة في البيت يا خالي، هاشغل العريية.

أغاظه عنادها فما كان منه إلا أن هوى بكف يده القاسي على وجهها ليضعها وهو يقول لها:

إنتي يا بت مالكيش كبير؟ إيه كلامي مش مالي عينك؟!!!

شهقت "آمنة" تعاتبه في صدمة:

- "خليل!"

في حين احتضنت "همسة" أختها وهي بالكاد تسيطر على دموعها الغزيرة:

- "فيرو!"

وضعت "فيروزة" يدها على وجتها المتألّمة، قاومت بشراسة تلك الرغبة العارمة التي تحثها على البكاء كدًا، وردت بكرامة شائخة، وهامة منتصبة:

إنت على عيني وراسي يا خالي حتى لو ضربتني مليون قلم!

بذلت مجهودًا مضاعفًا لتخفي أوجاعها، وأضافت بنفس الثبات العجيب:

- بس أنا ماتعلمتش عشان أبقي أعدة في البيت مستتنية صاحب النصيب، ولا اللي يحن عليا عشان يتجوزني ومابقاش عانس.. أنا ليالي كيان، وعندني طموح هاحققه.

رد ساخرًا بنبرة ناقمة:

طموح إيه ده اللي هيتحقق في الشارع؟

قالت بإصرارٍ متجاوزة إحساسها بالألم والقهر:

- مش عيب إني أبدأ كده، بكرة شغلي هيكبر والكل هيعرفني.

صاح بها بصوته الجهوري المتزمت:

إنتي عاوزانا نتفضح؟

ثم قبض على كومة من شعرها يجذبها منه بعنفٍ ليقسو عليها أكثر فترتدع وتتخلى عن عنادها

البائس، صرخت "فيروزة" عاليًا بهرارة:

آه، سيب شعري يا خالي، كفاية بقي!

حاولت "آمنة" تخلص ابنتها من برائنه قبل أن يصم جام غضبه المشحون على فلذة كبدها، توسلته بعينين دامعتين:

يا "خليل" اسمع البت للآخر.

رد عليها بخشونة وقد أرخى أصابعه عن ابنتها:

طبعًا ما إنتي موالسة معاها على المسخرة دي، ما هو لو كان ليها أب يرببها مكانش ده حصل

تبين على وجهها علامات الحنق من جملته الأخيرة، فردت عليه بقوة لم يعهد لها فيها:

المرحوم عرف يربي بناته كويس، وأنا مش هاقبل بأي حد يقول عنهم غير كده

شعر "خليل" بالحرج لمحاولتها ذبذبة هيمنتها على الفتاتين، انتصب في وقفته يُخبرها بحسب:

هي بقت كده؟ طيب يا "آمنة"، يا أنا يا بنتك، اختاري.. ودلوقتي!!

وضعها عن عمد في خيارٍ عسير؛ إما أن تخذل ابنتها وتدعمه، وإما أن تخسر مساندته لها ويتخاصم

معاها. التفتت تنظر إلى صغيرتها بعينين حائرتين، رأت فيها الأمل والرجاء، ثم عادت لتحقق في

وجه أخيها المتجهم، كانت القساوة متجسدة على كل ذرة فيه. عفويًا امتدت ذراعاها لتحتضن

ابنتها، ضمتهما إليها وشعرت بذراعيها تلتفان حول جسدها ثم قالت له:

أنا ماليش إلا هما بعد ربنا.

صدمة غير متوقعة هبطت على رأسه فأصابته بالحنق والغل، رمقها بنظرات نارية ثم أشار لها

بأصبعه يندرها:

إنتي اللي اختارتي يا "آمنة"!

نكست رأسها حتى لا ترى نظراته المشبعة باللوم، يكفيها أن تشعر بسعادة ابنتها ليتخللها

إحساس الرضا، انتفض جسدها مع صفقه العنيف لباب المنزل، شددت من ضمها لابنتها وهي

تقول لهما بنحيب:

أنا ماليش إلا إتم، مش مستعدة أخسرکم !!

.....



الفصل الخامس

تلفت حوله في حلقت دائرية باحثًا عنها، كانت هنا قبل قليل، وهو لم يرغب كثيرًا .. فقط ما يقرب من نصف الساعة، أيعقل أن تختفي هكذا فجأة وكأنها لم تكن موجودة مطلقًا؟ ما زالت الحياة سائدة بالمكان، بل ربما زادت قليلاً بالرغم من الغيوم المتجمعة، إذا أين اختفت؟ حك شعر رأسه الذي استتال قليلاً بيده وأزاح زخات المطر الخفيفة المتساقطة عليه .. اقترب أكثر ليدقق النظر فيما تبقى من آثارها، لا شيء أبدًا يدل على احتلال تلك البقعة في الكورنيش، وكأنها قد خلت من سواها، سدد نظره متفحصًا للعربات المصطفة على مسافات متباعدة، كلها تعمل تقريبًا والشباب متجمهر أسفل مظلاتها الجلدية ليحتمي من المطر المتساقط. استنشق "تميم" الهواء البارد عله يرطب على صدره الحانق دون سببٍ معلوم، نفخ مجددًا بضيقٍ غير مفهوم وهو يردد لنفسه:
أنا متأكد إنها كانت هنا!

تطلع إليه "ناجي" باستغرابٍ، ثم قال مُلطفًا:

-جائز يكون حد من برا منطقتنا يجرب رزقه هنا.

رد عليه بنفس النبرة المدهوشة وقد ازداد انهمار المطر:

-بس دي كانت بنت اللي واقفة.

أزاح "ناجي" بكف يده المياها التي احتلت وجهه، ثم سأله مستوضحًا:

-بنت؟ ومين نعرفه هنا هيسمح لبنته تقف وسط الشارع تبيع نص الليل؟ ..

ثم تلفت حوله وهو يكمل بنبرة ذات مغزى:

-لأ وكان أغلب الموجودين شباب!!

عبث بذقنه النابتة قبل أن يرد في حيرة:

-ما هو دي اللي مستغربه.

علق عليه "ناجي" مقتنعًا:

-أُكيد حد مش من عندنا.

لاذ "تميم" بالصمت وحلق في الفراغ أمامه يفكر ملياً في تلك العربة المريبة التي ظهرت من العدم واختفت بعدها لتثير فضوله وريبته، ربما لم تكن لتلفت انتباهه لو لم يرَ بنفسه الشابة التي تعمل بها في تحدٍ صارخ للأعراف والتقاليد المتبعة هنا، وضع رفيقه يده على كتفه لينتبه له، ابتسم مضيقاً:
-عموماً ماتشغلش بالك، هما تلاقيمهم مشيوا عشان الجو وبكرة هيرجعوا.

تهيدة متعبة خرجت من جوفه قبل أن يستطرد:

-أما نشوف..

لكن ما لبث أن اكتست نبرته بالجدية الآمرة وهو يكمل:

-بس عاوزك تجبلي أراهم، وتعرفلي تبع مين.

رد محرّكاً رأسه بالإيجاب:

-تمام يا كبير.

ربتة خفيفة من "تميم" على ظهر رفيقه حثته على التحرك في الاتجاه المقابل لعبور الطريق، وبقي البال مشغولاً بتلك الأمور الغريبة التي حدثت معه وإن كانت مصادفة وبسيطة، لكنها استحوذت على تفكيره بشكلٍ يدعو للريبة، ناهيك عن انشغاله بما يخص أعمال الأسرة الهامة.

.....

دس المفتاح في القفل الخاص به ليفتح باب المنزل بعد أن انقضت سهرته مع رفيقه، لم يكن بحالة مزاجية رائقة تمكنه من قضاء المزيد من الوقت مع أصدقائه القدامى .. لم يتوقع "تميم" أن يجد والدته في انتظاره، كانت متكأة على مرفقها وبالكاد مستيقظة، اقترب منها حتى أصبح بجوارها، انحنى نحوها يقبلها أعلى رأسها في حنو، ثم هزها برفقٍ قبل أن يناديها هامساً:

-يامه!

انقضت في خفة على إثر صوته الخافت رافعة عينيها إليه، سألته بصوتٍ ثقيل ناعس:

إنت رجعت من بدري يا "تميم"؟

هز رأسه بالإيجاب وهو يرد متسائلاً:

أيوه يا أمي، إنتي إيه اللي مسهرك في البرد ده؟

أجابته بغريزة أمومية صافية وعيناها تعبران عن حبها الفطري له:

مستنياك يا ضنايا، قولت تكون عايز حاجة كده ولا كده.

أحنى رأسه على جبينها يقبله في امتنانٍ شاكراً، ثم ضمها إليه وقال:

حبيبتي يا أمي، ربنا يباركلي في عمرك، قومي ارتاحي إنتي

ربتت على كتفه في رفقٍ متابعة باهتمام:

-يعني مش عاوز حاجة أعملها لك؟

رد ناعياً:

-لأ، أنا تمام، يدوب أخش أناام.

ابتسمت قائلة له في ودٍ:

-ماشى يا غالي، تصبح على خير.

مسح برفقٍ على كف يدها الذي رفعه إلى فمه ليقبله، وتطلع إليها مردداً:

-وانتي من أهله..

سارت "ونيسة" بضعة خطوات في اتجاه الردهة قبل أن تدير رأسها ناحيته تسأله:

إنت كلمت "خلود"؟

أجابها بوجهٍ فاتر التعبيرات:

-لأ لسه .. أفوق كده وأكلمها

ردت مبتسمة:

-ماشي يا حبيبي، عموماً أبوك اتفق مع جدك على جوازك قريب، مالهش لازمة تطولوا أكثر من كده

علق بدبلوماسية لم تفهمها:

-اللي عايزه ربنا هايكون

لوحث له بيدها واستدارت مكملة سيرها نحو غرفة نومها، في حين تلتكأ "تميم" في خطواته حتى تأكد من ولوجها وإغلاق الباب خلفها لتنقلب ملامح وجهه بامتعاض مُحبط، لم يكن مستعداً بعد لخطوة الزواج الجادة، هو ما زال يتعافي من آثار حبسه والذي انعكس بشكلٍ سيء على طباعه وأكسبه صفات الجمود والقسوة، عزز ذلك الشعور لديه إحساسه المحايد نحو "خلود"، لم يكن بالعاشق المتيّم بها، القرابة فقط ما حثت عليه موقفه من الزواج منها .. أخرج زفيراً مطولاً من صدره واتجه إلى غرفته، أغلق الباب بهدوءٍ بعد أن ضغط على زر الإنارة، ثم استلقى على الفراش دون أن يبدل ثيابه، شعر بشيء مزعج في جيبه الخلفي يعوقه عن التمدد بأريحية، فرغ جسده ليعتدل في نومه ثم أخرج منه المنديل والمشبك .. كان قد نسيهما تماماً في خضم ما رآه، تلك المرة تطلع إليهما بتفحصٍ مدقق، ابتسامة متهمكة لاحت على زاوية فمه، أسندهما على الكومود الملاصق لفراشه، وتباطؤً وكسل نهض من مكانه ليتجه إلى دولاب ملابسه، أخرج من ضلفته اليسرى منامة من تلك المجموعة التي رتبها له والدته بعناية، وبهمة منخفضة وتثاؤبٍ متواصل انتزع ثيابه وألقاها بإهمالٍ على الأرضية ليرتدي منامته المريحة ويعود إلى فراشه، تمدد عليه وسرعان ما انخرط في نوم عميق أفسده اتصالٌ مزعج من "خلود"، بنبرة ثقيلة أجاب عليها متسائلاً بفضاظة:

-خير في حاجة؟

ورغم أسلوبه الجافي معها إلا أنها قالت بركة:

-وحشتني..

رد عليها يلوها بجمودٍ ودون أن يحاول إزاحة آثار النوم عن صوته:

-وده وقت تتصلي فيه بردك يا "خلود"؟

أجابته ببساطة أظهرت عشقها له:

- ما هو إنت اتأخرت كثير برا، وأنا كان نفسي أشوفك قبل ما أمشي..

نفخ قائلاً بضيق:

-وأنا هاروح منك فين؟ احنا هنشوف بعض كل يوم

ساد للحظة الصمت بينهما قبل أن تسأله بتردد بنبرة تستطيع أن تتبين اهتزازها:

- "تميم" إنت لسه بتحبني؟

رد متسائلاً بغموض ضاعف من حيرتها:

-تفتكري إيه؟

أجابته بخوف محسوس:

-أنا خايفة تكون اتغيرت و...

قاطعها بنفاذ صبر فلم يملك الطاقة الكافية لتحمل المزيد منها:

-أنا فهمتك على وضعي، وإنتي براحتك بقي.

استطاع "تميم" أن يسمع صوت نهبة خافتة حاولت إخفائها، اعتدل في نومته وتمتم مستغفراً

بصوت خفيض ليعتذر منها بهدوء:

-معلش يا حبيبتى أنا تعبنا ومش قادر أتكلم دلوقتي، حقك عليا.

وكانه بكلماته المعتذرة تلك قد نجح في تبديد كل أحزانها فعادت الحيوية إلى صوتها وهي ترد بحماس:

-حبيبتى.. الله! وحشاني الكلمة دي منك، دي كفاية عليا

رد ضاعظاً على شفثيه وكأنه مجبرٌ على الحديث معه:

-ماشى يا "خلود"، خدي بالك من نفسك.

قالت في سعادة:

-حاضر يا قلبي، تصبح على هنا

ودعها باقتضابٍ ودون أي إطالة:

-وانتي من أهل الخير، باي.

ثم قام بإغلاق هاتفه نهائياً حتى لا ترعجه هي أو غيرها خلال ساعات نومه القليلة.

.....

هداها تفكيرها البسيط غير المدنس بالنوايا الخبيثة بإعداد صينية فطار شهية بكل ما لذ وطاب لتكون بادرة صلح طيبة بينها وبين أخيها، هي اتخذت جانب ابنتها، لكنها غير راضية عن خسارة دعمه .. تأكدت "آمنة" من رص الأطباق وملأها بما يجبذه، ثم صعدت متهادية على الدرج حتى لا تفسد الشكل الجمالي لترتيب الطعام، وبحذرٍ مبالغ فيه رفعت يدها بعد أن ألصقت الصينية بصدرها لتتمكن من قرع الجرس، انتظرت بابتسامة بشوشة فتح الباب لها، استقبلتها "حمدية" بعبوس مستنكر، رمقتها بنظرة احتقارية جابتها من رأسها لأخصص قدميها، تجاوزت "آمنة" عن نظراتها الوخجة لتستهل حديثها بـوِد:

صباح الخير عليك يا مرات أخويا.

زمت شفتيها مغممة بصوتٍ خفيض لكنه وصل لمسامعها:

-يادي القرف اللي على الصبح!

ثم منحها نظرة دونية متعالية قبل أن تشيح بوجهها عنها وكأنها نكرة لتصبح عالياً:

-تعالى كلم يا "خليل".

خرج الأخير من الحمام ويده منشفته يجفف بها وجهه متسائلاً:

-في إيه؟

لم تجبه بل تغنجت بجسدها المتهدل لتظهر عدم ترحيبها بضيفتها ثم اقتربت من زوجها ولكزت كتفه تحذره:

-أختك يا سبع الرجالة.. اوعى تضحك عليك بمُحنها!

كانت كلماتها تحمل تلميحًا بالإهانة، وعفويًا تتطلع إلى "آمنة" باندهاش متعجب، لكن ما لبث أن تحولت كامل تعابيره للتجهم، وقف قبالتها يسألها بجمودٍ ونظراتٍ قاسية:

-خير؟ عاوزة إيه يا "آمنة"؟

أجابته بوديةً وصفاء وهي تضع الصينية على طاولة السفرة:

-أنا عملتلك يا خويا كل الأكل اللي إنت بتجبه.

نظر لها شزرًا قبل أن يقول بوقاحة:

-مش عاوز منك حاجة.

ابتلعت غصة مريرة في حلقها متغاضية عن جفائه معها، تهدت ترجموه:

-يا "خليل" متخليش الشيطان يدخل بيننا، احنا إخوات وسند لبعض

أولاها ظهره قائلاً لها بحسب:

-إنتي اللي اختارتي.

بررت له موقفها بنبرة أقرب للتوسل:

-ما هو غضب عني برضوه، أنا مقدرش أكسر بخاطر بناقي، هما مالهومش غيري!

التفت نحوها يسألها في حدة:

-لكن يجيبولنا العار عادي؟!!

ردت يتمهلٍ عليها تمتص انفعاله الظاهر على محياه

-إن شاء الله ما فيش حاجة وحشة هتحصل، وبعدين لو إنت في ضهرهم هـ.....

قاطعها قبل أن تكمل جملتها رافعًا يده أمام وجهها:

-ماليش دعوة بجد، أنا علاقتي اتقطعت بكل اللي يخصكم، اصرفوا بعيد عني

بدت وكأن الدمعات تتجمع في طرفيها لتغرقهما، انخلع قلبها وهي تستعطفه:

-بس آ...

استدار بعيدًا عنها ليقول بجمودٍ قاسٍ أشعرها بالمدلة:

-شرفتي يا "آمنة"، وخدي أكلك معاك.

-بقي كده يا خويا؟

وكانها تُحدث الفراغ، لم يأخذه بها شفقة أو أدنى عاطفة، اختفى بالداخل غير عابئٍ بمشاعرها ورجاواتها المسيتمة .. أطرقت رأسها في حزنٍ آسفٍ وحملت الصينية من مكانها لتخرج من المنزل مفطورة القلب.

.....

لم تدخر وسعها في إظهار بأن عودته تعني الكثير لها من خلال الاهتمام بكافة التفاصيل المتعلقة به، دقت على باب غرفته بهدوءٍ حتى لا توقظه إن كان لا يزال نائمًا، أطلت "ونيسة" برأسها من الباب فلم تجد ابنها على الفراش، دفعته بيدها لتزداد فرجته ودارت بعينها في أرجاء الغرفة، كانت خالية منه، اعتقدت بوجوده في الحمام، ولجت للداخل وتلقائيًا انحنت على الفراش لترتبه .. ابتسمت لكون ابنها ما زال محتفظًا بعادته في الاستيقاظ باكرا وإن تأخر في عودته للمنزل مساءً. التقطت عينها دون قصدٍ منديل الرأس النسائي المسنود على الكومود، مدت يدها لتمسك به فرأت المشبك المثبت به، انعقد حاجباها في استغرابٍ سائلةٍ نفسها:

-بتوع مين دول؟

سرعان ما تلاشى اندهاشها مع ظنها أنه يخص "خلود"، ربما أهدته إياه خلصة ليحتفظ بشيءٍ يخصها فتحرك المياه الراكدة في علاقتهما .. ابتسامة عبثية لاحت على ثغرها وهي تعيد وضعه في مكانه، اعتدلت في وقتها مكلمة حديث نفسها:

-ربنا يقرب ما بينكم.

التفتت لتجد "تميم" واقفًا عند أعتاب الغرفة، منح والدته نظرة مليئة بالحب وهو يلقي عليها التحية ليمرح بعدها معها قائلًا:

-إيه الدلع ده كله، بنفسك بتروقيلي الفرش.

قالت له في عتابٍ رقيق:

-هو أنا عندي أغلى منك؟ الظاهر السجن نساك كنت بأعلم إيه عشانك!

احتضنها وأحست بذراعيه تطوقان جسدها المسن، قبل أعلى رأسها يشكرها:

-ولا لحظة نسيت يامه، ده مكانش في حاجة بتهون عليا بعدك عني يا ست الكل

ربتت على كتفه بحبٍ مضاعف، ثم رددت بابتسامتها الودودة:

-حبيبي يا ابني، ربنا ما يجرمني منك أبدًا، الحمد لله إن ربنا مد في عمري وشوفتك قصادي تاني..

وما لبثت أن تحولت نبرتها للجدية وهي تنذره:

-بس بالله عليك بلاش أمور اللبس دي تاني! أنا مش ناقصة يا ابني، العمر معدتش فيه باقية.

رد بإجابة محايدة:

-كله على الله.

سألته في اهتمام:

-أعملك تظفر؟

رد نافيًا بهدوء:

-لأ، ده أنا يدوب أنزل الحق الحاج في الدكان، ورانا طلبية بجر لازم تخلص قبل الظهر.

دعت له بصدق:

-ربنا يعينك يا ابني ويفتحها في وشك من وسع

لف "تميم" وشاحًا رفيعًا من الصوف حول عنقه حتى لا يلفحه الهواء الشمالي البارد الآتي من

البحر، مشط شعره بمشطه ليتركه بعدها على التسريحة، ثم هذب ذقنه بيده ملقيًا نظرة أخيرة على

هيئته، التفت متجهًا نحو باب غرفته لكن استوقفه طلب والدته القائل:

-ماتنساش تاخذ "خلود" تفسحها، بنت خالتك صبرت كثير، حاسسها إنك رجعت، وأجبر بخاطرها بكلمتين.

استدار برأسه نصف استدارة وقد بدا الوجوم واضحًا على ملامحه، سألها في ضيقٍ معتقدًا أنها ربما قد تكون استفاضت في الحديث مع خالتها:

هي اشتكتك يامه ولا حاجة؟

نفت كليًا وبجدية تامة:

قسماً بالله ما حصل، بس أنا ست وأفهم في دماغ البنات، وهي صعبانة عليا، لا لحقت تفرح بيك ولا تنهى بخطوبتها.

زفيرٌ بطيءٌ خرج من جوفه قبل أن يتصنع الابتسام وهو يعدها:

-حاضر، هاخلص اللي ورايا وأرتب معاها خروجة.

رفعت كفيها للسماء تدعو له:

-ربنا يراضيك زي ما بتراضيني كده على طول.

قال في إيجاز:

يا رب، سلامو عليكم.

أسرع في خطاه خارجًا من الغرفة وكلمات والدته تلحق به قائلة له:

-وعليكم السلام يا "تميم"، ربنا يبعد عنك شر الطريق

.....

ملأها الحماس لتنزل باكراً إلى الأسفل وتحديدًا باحة المنزل الخلفية بعد تناول الإفطار حتى تتفقد عريتها، كانت على عكس طبيعتها كلها حيوية وإقبال على الحياة، صدمة مروعة أصابت أطرافها بالشلل مؤقتًا فتجمدت في مكانها وقد رأت التخريب المتعمد الذي أصاب حلمها، تدلى فكها السفلي في ذهولٍ وارتعاب، أحست بقلبيها ينخلع في صدرها من قوة المفاجأة المحطمة لآمالها ..

رمشت "فيروزة" بعينها وهي بالكاد لا تصدق مدى الضرر الذي لحق بالعربة، تساءلت مع نفسها في استنكار تام:

إزاي ده حصل؟

أجبرت ساقها على التحرك في اتجاهها، تلمست بيدٍ مرتعشة النافذة التي انتزعت بشراسةٍ وتركت ملاقة على الأرضية، وارتفع ذراعها ليمسك بالمظلة الجلدية التي تمزقت إربًا، ناهيك عن تلطix جسم العربة بالزيت وألوان بشعة ليفسد مظهرها الخارجي، وبالتالي ستحتاج لطلاء جديد لإعادتها لهيئتها الأولى .. في أقل من ثوانٍ كانت عينها تسبحان في أبحر من العبرات الحارقة، حلمها انتهى قبل أن يبدأ، أصيب ذهنها بالتشوش فلم تستطع في البداية أن تفكر بعقلانية، انهارت جاثية على ركبتيها تبكي في ألم، حانت منها التفاتة تلقائية للأعلى لتجده محققًا بها من النافذة في تشفٍ صارخ، أكدت تعابيره المرسوم عليها ابتسامة انتصار عريضة ونظراته المزهوة أنه من يقف وراء ذلك، رددت بذهولٍ محاولة استيعاب أنه الفاعل:

خالي؟

اتسعت ضحكة "خليل" اللئيمة وهو يستعيد المشهد في عقله منذ البداية، انتظر صلاة الفجر وهبط من منزله متجهًا للباحة الخلفية وهو يضرر سوءًا نحو ابنتي أخته، لن يتركها يحققان مآربها، سينتقم منها بقسوة ليعرفا جيدًا مع من يتعاملان، وخاصة بعد شحن زوجته له وإوغار صدره نحوها، أمسك بعقلة قديمة لينتزع النافذة المعدنية من مفصلاتها، ثم قام بشق جلد المظلة بطرفها الحاد وخلعه من مكانه ليلقيه أرضًا، تمكن من الصعود إلى بدن العربة، وبدخلها عاث فيها الفساد، خرب كل شيء تقريبًا فباتت لا تصلح للاستخدام، ترجل منها ومسح العرق الساحن الذي غطي جسده بالكامل بالرغم من برودة الطقس، أحس بنيرانه المشتعلة تهدئ بعد أن حاز على انتقامه .. عاد "خليل" لأرض الواقع مبتسمًا بشكلٍ استفز "فيروزة" على الأخير، جفت دموعها ونهضت واقفة على قدميها تصيح به:

ليه كده يا خالي؟

أجابها برودٍ ونظراته الشامتة تنعكس عليه:

مشكلة وحلتها!

صرخت به بحرقة شديدة:

-حرام عليك! ضيقت تعبي كله، أنا عملتك إيه؟

قال غير مبالي قاصداً أن يصل إليها مغزى ما فعل:

-محدث بيتعلم ببلاش، ففوقي لنفسك يا بنت "أبو المكارم"!

أتت "همسة" على صوت شقيقتها الصارخ والمنفعل لتتفاجئ هي الأخرى بالكارثة التي حلت بالعربة، وضعت يدها على فمها كرد فعل طبيعي كاتمة شهقة مصدومة تقاثل للخروج من جوفها وتعبير عن حسرتها، التفتت ناظرة إلى أختها التي تحترق حية من فرط انفعالها، وقفت إلى جوارها وحاوطتها من كتفها، نظرت إليها بعينين حزينتين فرأتها محدقة بالأعلى، ارتفعت رأسها لتتطلع إلى من تتركز عيناها عليه، سددت "همسة" نظرة لائمة لخالها الذي كان يرقص محتفلاً بانتصاره الرخيص، أو صد الأخير النافذة في وجهي كليهما ليزداد حنق "فيروزة" ويندلع غضبها أكثر، أخفضت رأسها تصيح في وجه أختها:

-شايقة خالك المفترى عمل فينا إيه؟

توسلتها بصوت يعبر عن قرب بكائها:

-اهدي طيب يا "فيرو"

توعدت "فيروزة" خالها بعدائية جمة:

-أنا مش هاسكتله، والله ما هاسيب حقي.

رجتها "همسة" من جديد:

-عشان خاطري اهدي الأول، هيجراك حاجة من العصبية.

ردت عليها بحرقة:

-ربنا يقهره زي ما قهرني..

أضفت عليها مؤكدة:

-ماما لازم تعرف باللي عمله

-ده أنا هافضحه، مش هاعديها على خير، هو ده اللي خايف على مصلحتنا؟ بدل ما ياخدنا تحت جناحه ويتفاهم معنا بالعقل؟

ثم كزت على أسنانها مضيضة بجنقٍ أشد:

-أكيد الحيزونة مراته ورا اللي حصل

أيدتها في رأسها قائلة:

-ماستبعديش ده

ضاقت نظراتها بعزيمة أكبر وهي تعد أختها بما لا يدع مجالاً للشك أو التراجع:

فكره إنه بكده هيمعني أعمل اللي في دماغى؟ يبقى غلطان، أنا مش هاستسلم!

عادت لتحملق بالأعلى من جديد وصدرها الناهج يضج بغضبٍ أشد قوة، لن ينجح في تثبيط همتها أو تدمير أحلامها، ستقف له الند بالند إلى أن يرضخ بالأمر الواقع.

.....

تأقت بعباءة جديدة سوداء اللون تنتهي أكمامها بشرائط مرصعة بالترتر قامت بتضييقها من عند الخصر- ليظهر تناسق جسدها وامتلائه بشكلٍ مغرٍ، أما فتحة صدرها فنقوش عليها رسمة لقرص الشمس وأشعتها المتشعبة لتبدو لافتة للأنظار، تأبطت ذراعه في تفاخر وزهو، وكأنها ملكة الدنيا بأسرها بسيرها معه وسط العامة خلال ساعات الليل الأولى، تهادت في مشيتها بثقة ودلال مستشعرة باكمال أنوثتها في حضرته، كم ادعت تعثرها لأكثر من مرة لتشعر بقوة قبضته حينما يمسك بها! كذلك كانت تثرثر بلا توقف، تحكي له عن توافه الأمور لتشعره بأهمية مشاطرته لها في كل ما يخصها، أما هو فقد اكتفى بهز رأسه من آن لآخر ليوحى لها بأنه متابع جيد للغوها الذي لم يلتقط منه إلا جملاً معدودة .. تهتد "خلود" مرددة في بهجة محسوسة:

-أنا خلاص هاجيب مفرش العرايس بتاع أوضة نومنا، وأبقى بكده قفلت كل حاجتي.

قال باقتضابٍ وبوجهٍ خالٍ من التعبيرات:

-كويس.

-إنت لو ناقصك حاجة قول لخالتي عشان تجهيها لك، مش عايزين نضيع وقت

-ربنا يسهل

-بأفكر كمان لما العفش يجي أعمل الستائر لونين

نظر لها بفتورٍ وقد بدا نوعًا ما منزعًا من تلك التفاصيل المملة عن تأسيس منزل الزوجية، سألته "خلود" من جديد وعيناها تدوران في الطريق المتسع:

-هانروح فين يا "تميم"؟

للحظة انتبه لسؤالها الأخير بعد أن كان شاردًا عنها نسيبًا، حتى سيره معها كان بلا وجهةٍ محددة .. احتدت نظراته في الطريق وهو يفكر مليًا في المكان الذي سيصطحبها فيه ليقتضي سهرته الروتينية معها، جال بخاطره فجأة أن يتجه لمنطقة الكورنيش، ولما لا فهي فرصة مناسبة للتأكد من وجود العربية، استدار برأسه نحوها يقول ببسمة بدت متكلفة:

-هانقعد على الكورنيش شوية.

استغربت من اقتراحه ورددت متسائلة:

-في السقعة دي؟

أجابها بحماسٍ عجيب:

-ده أحسن وقت يا "خلود" ..

نظرت له باسترابةٍ فأوضح لها:

-قصدي يعني هوا البحر مع أعدتنا سوا.

ورغم حالة التعجب المسيطرة عليها إلا أنها لم تعترض على فكرته، ظنت أنه يريد التودد إليها بشكلٍ حميمي ويحتاج لحجة زائفة لفعل ذلك والاقتراب منها مستغلًا برودة الجو، هكذا انطلقت في ذهنها

الهاجس الوردية وتدفت لتغزي عروقها. عضت على شفتها السفلى في استحياءٍ مستنكرة جموح
خواطرها، وأطرت رأسها لتنظر إلى موضع قدميها وهي تكمل فسحتها الترويجية معه. دارت عينا
"تميم" على مدى البصر - في الكورنيش بحثًا عن تلك العربية، لم تكن موجودة مما أصابه إحباطٍ
عجيب، جاهد بصعوبة ليبدو طبيعيًا في تصرفاته مع خطيبته التي لو كانت منتبهة جيدًا له للاحظت
التغير الذي طرأ عليه وتملك منه، استنشق بعمق الهواء الجليدي الذي اقتحم رثيه فأنعشها،
أشار بعينه إلى بقعة ما شبه خالية قائلاً:

- تعالي تقعد هناك.

- ماشي

قالتها وهي ترفع طرف عباؤها الملامس للطريق قليلاً حتى تتمكن من صعود الرصيف والاتجاه إلى
المنطقة الحجرية المخصصة لجلوس الأفراد، وقبل أن تجلس أخرجت من حقيبتها منديلًا ورقيًا
مسحت به مكانها، ثم أعطت "تميم" واحدًا ليفعل مثلها، جلست معتقدة أنه سيحاول الالتصاق
بها ليشعرها بحرارة جسده المضطرم فيه نيران الحب والغرام، لكنه ترك مسافة تتخطى السينتيمترات
كفاصل بينهما مما أزعجها للغاية، سألتها بصوته الأجش وقد نهض فجأة ليشعل سيجارته:

- عازرة تأكلي إيه؟

- أجابته في تردد وهي تهز كتفها:

- مش عارفة

- أو ما بعينه نحو عربية قريبة منها نسبيًا قائلاً لها:

- هاجيبك شاورمة..

- تطلعت إليه وقد أكل جملته متسائلاً:

- مش إنتي لسه بتحبها؟

- ردت بقلب يدق في عنفٍ لكلماته التي أشعلت أكثر جذوة الحب المتقدة بداخلها:

- أيوه

-تمام..

بخفة وسرعة تحرك "تميم" نحو العربة التي تبعد عدة أمتار ليقف أمام نافذتها، أملى على العامل الواقف بها طلبه ومنحه بقشيشًا إضافيًا ليعده له السندوتشات سريعًا، التفت نحو "خلود" ليراقبها عن كثب ليتأكد من عدم تعرضها للمضايقة من قبل أحدهم، ولكن لكونه ذائع الصيت ومعروف لدى أغلب سكان المنطقة فلم يجرؤ أي شخص على الاقتراب منها، بل على العكس كان الترحيب الجلي به واضمحًا طوال سيره .. أخذ "تميم" السندوتشات ذات الرائحة الشهية والمحفزة للمعدة من البائع وعاد بها إلى خطيبته، ناولها خاصتها وجلس إلى جوارها يقضم قطعة كبيرة وراء الأخرى، سكوت هادئ ساد بينهما لبعض الوقت، حاولت "خلود" استدراجه للحديث معها حينما طال صمته فقالت:

فكرت في الميعاد اللي هنتجوز فيه؟

صدمها وجعل الطعام يعلق بجلتها فأصبح كالزقوم الحارق في جوفها حينما أجاب دون تفكير وكأنه ييوح بما يدور في مكونات نفسه:

لأ !!

.....

الفصل السادس

غصة جارحة مؤلمة آلت حلقها وجعلت لقمة الطعام تشق طريقها شقاً كما يجرف المحراث الزراعي الأرض الجافة الجرداء إلى أن ابتلعها بعد كلمته المقتضبة التي حطمت سور الأحلام الوردية وهدمته على رأسها لتشعر بمدى قساوة واقعها المحيط .. كان الهواء قارصاً، لكنه لا يقارن ببرودته المميته للقلوب في تعامله الجاف معها، سبحت عينا "خلود" سريعاً في أبحر من العبرات الدافئة، تركتها تنساب في قهرٍ وبؤس، فقدت قدرتها على منعها أو الصمود أمامه، بدا صدرها وكأنه ينهج من اجتهادها لكتم ألمها، عجزت عن تجاوز الأمر وتخطيه، فلملمت أشياءها، ودست ما تبقى من السندوتش في حقيبة يدها، كانت عازمة على تصعيد الخلاف غير المقصود لمداها، فإن كان لا يريدنا فلن تذلل نفسها من أجله، لينفصلا في هدوء، وتجتز وحدها مرارة الانتظار .. هبت ناهضة من مكانها قائلة له ببقايا كرامةٍ وبصوتٍ مجروح:

-أنا عاوزة أمشي!

تطلع إليها "تميم" في ندم، كان غيبياً بدرجة كبيرة لينطق برعونة بذلك الرد الفظ الذي أفسد الليلة وأنهاها فجأة لتكون عبارتها التي تعكس ألمها مؤثرة على سمعه ووجدانه، أي حماقةٍ دفعته للتصرف هكذا معها دون تفكيرٍ مسبق! وهو المشهود عنه ببراعته في إدارة أعمال التجارة وإنهاء الصفقات الكبيرة بمعسول الكلام .. تحرك ليقف قبالتها حتى يعترض طريقها بعد أن بدأت بالسير بعيداً عنه، نظر لها بعينين غائمتين وهو يعتذر منها:

-أنا أسف يا "خلود"، مقصدش المعنى اللي في دماغك!

رفعت وجهها الباكي إليه لتشعره بالمزيد من الندم، ثم قالت بإصرارٍ وصوتها المتقطع يعبر عن حالها:

-تقصدش ولا مقصدش إنت حر! خيلنا نروح...

ما لبث أن تحولت نبرتها للرجاء الشديد:

-لو سمحت، أنا عاوزة أرجع البيت، كفاية كده!

أدرك أنه دفعها لتعيش حزناً جديداً بسبب طريقته الجافة في التعامل معها بالرغم من سعيه لإثبات اهتمامه بها، لكن محاولته كانت فاشلة بشكلٍ ذريع .. لم يكن منه إلا أن سايرها وتحرك معها بخطواتٍ

تميل للركض حتى يجتازا الطريق، سعى لاجتذاب أطراف الحديث مبتسماً، فلم يجد منها إلا سكوناً ضاعف من إحساسه بالضيق، فالتزم الصمت أيضاً عليه بذلك يفكر بعمق في طريقة لاسترضائها.

بضعة دقائق وكان الاثنان يقتربان من البناية التي تسكن بها "خلود" والصمت سائد بينهما، لم تودعه وأسرعت هاربة منه متجهة ناحية المدخل، وضعت يدها على الدرازين وبدأت تصعد الدرجات الأولية، أردت أن تختلي بنفسها لتتخبط في تعاستها البائسة بمفردها، شهقة خافتة خرجت من بين شفيتها وقد جذبتها قبضة رجولية بقوة فأعادتها مجبرة للخلف، التفتت كالمسوعة للجانب وقد استندت بظهرها على الحائط لتجد معشوقها قريباً منها حد إتلاف الأعصاب، كانت الإضاءة خافتة، فبعثت نوعاً من التوتر اللطيف، اهتز صوتها وهي تتوسله:

-سييني يا "تميم".

رنت في أذنيه نبرتها الجريحة فاعتذر منها بأسفٍ أكبر وقد امتدت يده لترفع وجهها إلى عينيه:

-حقك عليا، أنا فعلاً كنت غبي في كلامي.

قالت له بصعوبةٍ ظهرت في نبرتها وهي تنظر له عن قربٍ خطير، لكنها أرادت أن تريح ذلك الثقل الجاثم على قلبها وتترك له حرية الاختيار:

لو إنت معنتش بتحبني.. فبلاش تربط نفسك بيا ..

رفع "تميم" يده عنها ليستند على الحائط فأصبحت شبه محاصرة من ذراعه، تهدجت أنفاسها اللاهثة أكثر، وتوقعت منه عصبية شديدة لكنه قال بعتابٍ رقيقٍ مبدداً شكوكها التي ساورتها بالفعل:

-يا ستي أنا بأحبك، فبلاش تقولي كلام يزعلني.

انخرطت في بكاءٍ مريرٍ امتزج مع شهقاتها، تمت لو تدفس رأسها في صدره فتسمع خفقات قلبه ليشعر بصدق حبها العميق له، نظر لها في ضيقٍ وهو يغمغم متسائلاً:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، بتعيطي ليه دلوقتي يا بنت الناس؟

أجابته بنهنة وهي تحاول استعادة هدوئها بعد أن سيطرة عليها نوبة المشاعر المتأثرة:

صعبان عليا نفسي.

تعقدت تعابيره متابعًا رجائه حتى تغفر له زلة لسانه وهو يتراجع عنها خطوة للخلف:

يا ستي أنا غلطان ومحقوقك، كلاي دبش ومبعرفش أعر، ها مبسوطه؟

حملت فيه من جديد مكفكفة دماغها بظهر كفها، وشردت متأملة نظراته التي تهواها حينما تكون مرتكزة عليها فقط، ومع ذلك لا تزال تشعر بالرهبة والقلق، لذا عبرت بصراحة عن مخاوفها التي تنتابها منذ لحظة لقائه بها:

أنا مش حابة أحس إني مفروضة عليك، أنا أقل حاجة منك بترضيني، وبرضوه أقل كلمة بتجرحني، متخلنيش في يوم أحس إني عبء عليك.

نفخ مطولاً كتعبير عن ضيقه من لومها المبرر، كيف يقنعها أنه لم يكن ينعم بحياة الرخاء في محبس عنف الرائحة مع عتاة الإجرام؟ يقضي نهاره الطويل بصحبة لا تدعو للخير، أما ليله فكان ثقيلاً مليئاً بالأوجاع والحنين.. حاول أن يرد عليها بتمهل عقلاي عليها تزيج أفكارها السوداء عن مخيلتها فتفكر بصفاءً وحكمة:

يا "خلود" ما أنا مفهمك على الوضع، لسه بمقاليش كثير طالع من المخروب السجن، وطبيعي تلاقيني مدب معاكي، إتي وشطارتك بقي تنسيني الغم ده كله.

سألته بقلب مرتعش من تأثير كلماته الأخيرة التي لامست كيائها وداعبت مشاعرها المرهفة:

-يعني إنت لسه بتحبني وعاوز تتجوزني؟

أجابها بابتسامة صغيرة وهو يومي:

أيوه يا ستي، وهتنيل على عيني أتجوزك.

عبست تعاتبه من جديد:

شوف بتكلم إزاي؟!!!!

ضرب "تميم" كفاً بالآخر في استنكارٍ مزعوج من تصيدها الدائم لأخطائه وإن كان يتحدث عفويًا، لوح لها بيده وقد تراجع هابطًا على الدرج خطوتين:

- لا إله إلا الله! اطلعي فوق عند أمك الله يرضى عليك!

ساد بينهما جواً من المرح اللطيف الذي أذاب ما كان في القلب من أحزانٍ وأعاد البسمة والضحكة الصافية للوجدان، لم ينتبه كلاهما ذاك الذي يتابعها خلسة من الدور العلوي .. كان "هيثم" في طريقه للخروج لقضاء سهرة متأخرة كعادته يعود منها قبيل الفجر بقليل، لمخما وهما يتبادلان عتاب المحبين، فوسوس له شيطان رأسه بفكرة جهنمية مدهشة لكنها في نفس الوقت هشة إن لم يوظفها بالطريقة التي توتي بنتائجها الوهمية، تحفز وشحن حواسه مستدعيًا انفعالات هائجة وهمية تعبر عن رفضه الناقم لاختلاء أخته مع ابن خالته في تلك البقعة المعتمة على السلم، هدر صائحًا بصوتٍ أجش وخشن:

-بتعمل إيه عندك يا "تميم"، ومع أختي يا ابن الأصول؟!!!!

لطمت "خلود" على خديها كردة فعلٍ طبيعية لظنه السوء بها، ارتعدت وتلبك بدنها وهي تهتف شاهقة:

يا نصيبتى!

زوى "تميم" ما بين حاجبيه في دهشة مستنكرة متلفظًا باسمه بسخرية مقصودة:

- "هيثم"!

هبط الأخير الدرجات ركضًا وأوداجه منتفخة جدًا، وقف قبالة ابن خالته يرمقها بنظرات شريرة، ثم سأله بكلمات موحية تحمل إهانة جمة:

حد قالك عني إني مركب قرون؟ ولا رافع الإريال؟!

أريد وجه "تميم" بالغضب من أسلوبه المرفوض شكلاً وموضوعًا لإتهامه بالتجاوز في علاقته العفيفة بـ "خلود"، استشاط حنقًا وهو ينهره بلهجته الخشنة:

-تكلّم عدل يا "هيثم"، ما فيش حاجة من اللي في دماغك دي، احنا أنصف من تفكيرك الوسخ ده!!!

تجاهله عن عمدٍ موجّهًا حديثه المسيء إلى أخته وذراعه ترتفع عاليًا في الهواء مهددة بصنعها:
ليكي حساب معايا يا بنت ال !!

وقبل أن تحط على وجهها كانت قبضة "تميم" ممسكة به من معصمه، شده ناحيته في شراسةٍ وعيناه تطلقان شررًا، ثم استطردت يندره بقساوة عدوانية:
قسّمًا عظمًا لو إيدك اتمدت عليها لأقطعهاك!

ثم أشار لـ "خلود" بعينه لتهرب صاعدة للأعلى قبل أن يتناول عليها أخيها باليد وتثور ثأثرته دون داعٍ، احتقن وجه "هيثم" بشدة، وبدا وكأن ما رسمه من خطة مأكرة قد ضاع هباءً، والأسوأ من ذلك أنه استصغره أمام شقيقته فرما تتمرد عليه .. انتزع يده من قبضته ونظر له شررًا يصيح فيه:

-إنت هتعرفني ألم أهل بيتي إزاي؟

عاجله بنظرة مستهجنة كادت تجمده في مكانه، ثم رد عليه بصوته القوي الذي ينم عن شخصية مليئة بالبأس:
هي مغلطتش...

وما لبث أن تحولت نبرته للتحذير الشديد حينما أكلم:

-وبلاش أحسنك تعمل نمرّة عليا، عشان الكلام ده مايكولش معايا.

كز "هيثم" على أسنانه في غيظٍ وقال:

-إنت بـ ...

أطبق "تميم" على فكه بغتةً ضاغظًا بكل قوته عليه حتى كاد أن يحطمه ليجبره على ابتلاع تهديداته الفارغة متابعًا إنذاره شديد اللهجة:

- "تميم سلطان" مش عيل كورك يتاكل على قفاه، فخذ بالك مني!

تلبك من أسلوبه العدائي ونظراته المليئة بالشر— فبدا كما لو كان قد تراجع عن موقفه الرجولي المصطنع، فضحته نظراته المهترئة وإيماءاته المذعورة. أرخى "تميم" يده عنه ليقف مزهواً بنفسه، منتصباً بشموخٍ يُحسد عليه، تنحنح "هيثم" متسائلاً بجدةٍ أخف:

أنا .. خايف على أختي، إيه مش من حقي؟

قال له بجزمٍ دون أن يرتد له جفن:

-وأختك على عيني وراسي ومنتصاة، وكلها كام يوم وهتبقى مراتي!

رد عليه بوجهٍ متجهمٍ للغاية عله بذلك يظهر حرصه الزائف على سمعتها:

-ماشى .. بس لحد ما تبقى في بيتك هي رجلها مش هتخطي الشارع ولا هتخرج معاك، مفهوم؟!

أطلق "تميم" ضحكة عالية مستهزأة بكلماته تلك مما استفز ابن خالته، هداً قليلاً وربت على كتفه يسخر منه:

-لأجش يا "هيثم"! شنبك على راجل بصحيح!

احتفتت نظراته من أسلوبه التهكمي المتحقر فصاح يسأله بانفعال:

-إنت بتتريق عليا؟

ابتسامة جانبية مقتضبة على زاوية فم "تميم" لاحت بشكل استئثار أعصابه، أولاه ظهره قائلاً له بما يحمل في مضمونه الازدراء لشخصه التافه:

-سلامي لأمك!

تكورت قبضة "هيثم" من غيظه المحتدم وضرب بها على الحائط كطريقة سريعة للتنفيس عن غضبه المحموم، تهدجت أنفاسه وهو يتوعده بقلبٍ يضمير الشر:

-ماشى يا "تميم"، بكرة "هيثم" اللي مش عاجبك ده يوريك مقامك ويرجع البرش تاني!

.....

يومًا بأكله قضته بأكية معتكفة في غرفتها رافضة تناول الطعام أو حتى الجلوس مع أسرته، لم يكن من السهل عليها أن ترى حلمها مُحطم، عادت المشاهد المستفزة لوجه خالها بقوة إلى مخيلتها فزادت من حالتها سوءًا، بكت بقلبٍ مفطور مرة أخرى، فكرت في إعادة إصلاح العربية وتجهيزها من جديد، لكن سيكلفها ذلك مبلغًا من المال، وهي لا تملكه من الأساس .. بالكاد استطاعت أن تدخر ما أعانها على شراء العربية، وتدبرت الباقي من تلك الجمعية التي اشتركت فيها مع رفاقها.

وجدت "فيروزة" نفسها واقعة في ضائقة مالية؛ فمن ناحية عليها سداد الاشتراك الشهري للجميع، ومن ناحية أخرى تحتاج لتشغيل العربية .. تجدد إحساسها بالقهر العاجز وازداد احتراقها خاصة مع سطوع طيف ابتسامة خالها المقيمة في عقلها، لم تسمع إلى دقات الباب ودفنت رأسها في الوسادة ضاربة يدها في عصبية عليها، استطاعت أن تلمح توأمتها من بين رؤيتها الضبابية وهي تطل عليها، تقلبت على جانبها لتتجنب نظرات الشفقة منها، وإن كانت شريكها فهي لم تكن متعلقة مثلها بذلك الحلم الضائع.

حاولت "همسة" مواساتها فجلست إلى جوارها على الفراش تربت على ذراعها برفقٍ، ثم قالت لها بما يبعث على النفس الملتاعة القليل من التفاؤل:
إن شاء الله كل حاجة هترجع زي الأول وأحسن.

كانت فاقدة لرغبتها في تقبل مثل تلك النوعية من المواساة، أدارت رأسها قليلاً نحوها وقالت لها بصوتها المتشنج بنبرة عبرت عن يأسها الشديد:

إزاي؟ ما فيش حاجة بترجع يا "همسة"، كل حاجة ضاعت!

كانت متفهمة لانفعالها والإحباط المسيطر عليها، حاولت أن تبدو متأسكة أمامها، فادعت زيفًا:
-متقوليش كده، مشكلة وهتعدي.

-فوقي من الوهم ده!

قالتها "فيروزة" بنبرة أقرب للصراخ وهي تعتدل في رقبتها قبل أن تبدأ من جديد بفواصلٍ من العويل والنواح الممتزج بالندب، أشفقت عليها "همسة" وضمتهما إلى صدرها لتبكي على كتفها دون أن تطلب منها ذلك، تأثرت أيضًا بحالها الملوكوم وشاركتها حزنها بقلبٍ مفطورٍ .. على أعتاب الغرفة

تطلعت إليهما "آمنة" بحرقه واضحة في نظراتها لها، تضح وجمها وتقلصت تعابيرها بما يعبر عن حنقها الراض لما فعله أخيها، أيجق له تدمير أحلامها لمجرد نزعة رجولية فارغة؟ فإن كان لا يقبل أن يمس أبناؤه بسوء فهي مثله، أم أنه مباح له فعل ما يريد دون مراجعة أو اعتراض؟ لن تسمح له بفعل ذلك بهما، لن تقف مكتوفة الأيدي تشاهد تدمير ابنتها دون أن تتخذ موقفًا مغايرًا له ينصفهما، هكذا قررت في قرارة نفسها، وبكل ثباتٍ اقتربت منها تقول بصوتٍ اكتسب إيقاعًا مختلفًا لا ينم أبدًا عن الانهزام أو الكسرة:

- ما تعيطيش يا "فيروزة"، لا عاش ولا كان اللي يقهر بناتي وأنا لسه حية وعلى وش الأرض!

نظرت الاثنان إلى أمهما في حيرة، بينما تابعت "آمنة" مرددة بنفس النبرة العازمة:

- بكرة الصبح مشكلتك هتتحل..

تساءلت "فيروزة" في تلهفٍ وكأنها تبحث عن طوقٍ للنجاة:

- إزاي يا ماما؟

وضعت والديها يدها على الأساور الذهبية التي تزين معصمها، انتزعت بقليلٍ من الجهد تلك التي تشبه الثعبان من رسغها لترفعها نصب عينيها وهي تضيف:

- بكرة هنروح محل الصاغة نبيعها، وبفلوسها يا بنات هترجعوا عربيتكم زي ما كانت وأحسن.

انفجرت شفتا "فيروزة" عن تعبيرٍ مذهول، ثم ازدردت ريقها ولعقت شفتيها متسائلة في عدم تصديق:

- هتبيعها يا ماما!؟

أجابتها بكلمة واحدة ناهية لأي نقاش:

- أيوه.

تساءلت "همسة" في استغرابٍ حائر:

-بس يا ماما دول دهبك اللي طلعتي بيه، وإنتي سيياهم عشان لا قدر الله لو حصل حاجة، هتفرطي فيهم كده بسهولة؟

ثبتت عينيها عليها وأجابتها مبتسمة في حنو:

-مافيش حاجة تغلى على بناقي، إنتو عندي أغلى من أي دهب!

انفضت "فيروزة" ناهضة من على الفراش لتركض نحو والدتها، ارتمت في أحضانها تضمها بقوة، حاوطتها "آمنة" بذراعها ومسحت برفق على رأسها، ثم تابعت حديثها الدافئ فقالت لها:

-مش عاوزة أشوفك مكسورة تاني

ردت عليها بصوت متقطع وقد امتزجت عبراتها بامتنانها لها:

-ربنا يخليكي ليا يا ماما.

انضمت إليهما "همسة" وقد فاض الدمع من عينيها تأثراً بذلك المشهد العاطفي الملامس للقلوب، ثم جلست "آمنة" على الفراش أولاً، وعلى جانبيها استقرت الفتاتان يتحدثن في مرح وتفاؤل عن مخططات المستقبل الناجحة.. لكن عاد الخوف يتسلل إلى "همسة" فتساءلت وكأنها تفكر بصوت مسموع:

طب افرضي خالنا بوظ العربية تاني، هنتصرف ساعتها إزاي؟

التفتت والدتها نحوها وأجابتها على مهل وبثقة واضحة تحمل الغموض في نبرتها:

-ماتشيلوش هم، أنا فكرت في حل للحكاية دي..

سألتها "فيروزة" بتلهف أكبر وقد تلاشى الكدر من ملامحها تدريجياً:

حل إيه ده؟

تابعت موضحة بعد أن أخرجت تهيدة بطيئة من صدرها:

-عارفين أوضة البدروم المقفولة اللي جمب السلم؟

رددت الاثنان معاً:

-أيوه.

أكملت توضيحها بإتسامة مشرقة:

-أحنا بقي هننصفها ونوضيها ونخليها زي الفل عشان نعملها مخزن تحطوا العربية فيه، ده غير الأدوات والحاجة اللي بتستخدموها، وهنقلها بالمفتاح وقفل نخطه على الباب من برا، وبكده خالكم مش هاقدر يقرب منها.

كانت فكرة عظيمة أشعلت الحماس في نفس كليهما، عفويًا احتضنت كليهما "آمنة" وهما تتهلان على وجهها بالقبلات الممتنة، أحس ثلاثهن بديب السعادة يطرق بابهن من جديد ليعلن عن بدء مرحلة استقلالية مليئة بالإنجازات .. ربما لن تخلو من بعض الصعوبات والمشاكل، لكن معًا سيتخطونها.

.....

اهتزت ساقه بعصبية واضحة والدخان الكثيف يخرج من جوفه ليشكل غمامة خائفة أعلى رأسه، ومع ذلك لم يكن راضيًا، ألقى بخرطوم نارجيلته على طاولة القهوة المعدنية الرفيعة لتصدر جلبة مزعجة، تبعها مغمغمة بسبة نابية .. تلفت "هيثم" حوله باحثًا عن يفرغ فيه غضبه المكبوت، لم يكن أمامه سوى عامل المقهى البائس لينال النصيب الأكبر من توبيخه اللاذع بالرغم من كونه لم يخطئ في شيء، بل على العكس كان ملييًا لكافة أوامر زبونه الدائم، وتلك الليلة كان متقلب المزاج بشكلٍ لا يحتمل، تطلع إليه "نوح" في تعجبٍ وقد بدا إلى جواره باردًا كلوح الثلج، تنحنح بصوتٍ متحشرح ثم سأله مستفسرًا:

-مالك؟ مزاجك متعكر ليه؟

أجابه بمشرجة واضحة في أحبال صوته جراء سعاله المتصل:

-هاب البرك جايلي تعميرة أي كلام، مش عارف أظبط دماغي.

بدا غير مقتنع بإجابته فغمز له كتعبيرٍ عن رفضه تصديق تلك الحجة الفارغة، واستطرد متسائلًا في مكرٍ:

-لأ التعميرة زي الفل، إنت اللي مش طبيعي من أول ما أعدنا على القهوة، هو أنا مش حافظك، في حاجة حصلت؟

قال مقتضبًا وعبوسًا مريبًا يغطي وجهه:

-مافيش.

عمق من نظراته المستريبة وهو يلح عليه بإصرارٍ مآر مستدرجًا إياه في الحديث:

-شكلك يقول غير كده، إيه الحاج "بدير سلطان" سمعك كلمتين مالهومش لازمة زي تملي؟ ما هو إنت ميقلبش البونديرة معاك غير هو!

هتف محتجًا بوجهٍ أريد غضبًا:

-ولا يقدر يبخ معايا، ده أنا أقفله هو وابنه اللي عامل فيها دكر!

غمزة أخرى لثيمة صدرت من عينه اليمنى معلقًا عليه:

-"تميم"، شكلك ملبخ معاه!

صاح فيه بعصيةٍ مرئية للعيان:

-بأقولك إيه قفل على سيرة العكننة دي، أنا مش ناقص حرقه دم.

تدارك الأمر وسحب ناعمًا معه حتى يمتص ثورته المتأججة، فقال ملطفاً:

يا سيدي بكرة تحلو معاك وتعرف تعلم عليهم بطريقتك.

لاذ "هيثم" بالصمت، بينما استمر "نوح" في وسوسته مضيئًا بنبرة أقرب لفحيح الأفعى:

-ما هو اللي زي دول يجوز فيهم أي حاجة، وخصوصًا فلوسهم اللي زي الرز دي، وكل مدى عمالة بتزيد..

نبح بأسلوبه الملتوي في الحديث في استسقاء المعلومات منه، فنطق بغموض وعيناه تبرقان بوهج متحمسين:

-أنا في دماغني فوكيرة (فكرة) إنما إيه، لو ضبطت هتروق على الآخر!

سأله في فضولٍ وتلك النظرة المتشككة تعلو تعابيره:

-قولي اللي بيدور في دماغك.

رد بابتسامة تهكمية مقتضبة على جانب شفثيه:

-بعدين، أنا بس سايبها تخمر شويتين تلاتة

صفق "نوح" بيديه ليستدعي عامل المقهى وهو يضيف بانتشاءٍ مريب:

-وأنا دايس معاك في أي مصلحة!

ابتسم له "هيثم" دون أن يضيف المزيد، لكن خياله جسد له مشاهدًا مُركبة لخبطته التي ستصير قابلة للتنفيذ على أرض الواقع عما قريب.

.....

سارت والفرحة تملأ صدرها في الطريق مع والدتها لتتجه ككتاهما نحو امتداد منطقتيها الشعبية القريبة من منزلها المنعزل عن حوله، حيث تتزاحم البيوت وتتلاصق جدرانها، بالإضافة إلى الحركة اليومية الروتينية في الشوارع والطرق الضيقة .. جلبة صاخبة سيطرت على الأجواء في ساعة الظهيرة، خاصة أن الطقس كان إلى حد ما يميل للاعتدال مما شجع الناس على الخروج. حانت من "فيروزة" نظرة عابرة على الوجوه الكادحة المنهمكة إما في البيع أو الشراء أمام المحال التجارية المجاورة لبعضها البعض، كم لوحات والدتها معتذرة بيدها تارة ولسانها تارة أخرى لأكثر من بائع يعرض عليها الدخول لآخذ نظرة سريعة على معروضاته وربما تشتري منه! انتبهت لها وهي تقول بصوتٍ أقرب للهاث من المجهود المبذول لتسير على عجلةٍ حتى تستثمر الوقت ولا تضيعه هباءً:

محل الصاغة آخر الشارع ده، إن شاء يكون فاتح دلوقتي.

ردت بهدوءٍ ونظراتها تجول حولها:

إن شاء الله، ويا رب الفلوس تكفي!

قالت لها:

-هتكفي بإذن الله، ولو نقص حاجة ربك هيدبرها.
تأبطت في ذراع والدتها لتميل عليها تهمسها في امتنان:

-ربنا ما يجرمني منك أبداً

أكتفت "آمنة" بالابتسام لابنتها وتابعت السير نحو وجهتها المحددة، لكن استوقفها شخصاً مهيب
الطلة تبدو من هيئته الوقار والاحترام. تحولت عينا "فيروزة" ناحيته حيث حركته المتهادية التي
تم عن ثقة غريبة، كان وجهه مألوقاً رغم عدم تذكرها له، وجدت نفسها تطالع والدتها حينما بادرت
مرحبة به بوذ وألفة:

-إزيك يا حاج "بدير"؟

في البداية نظر لها بعينين ضيقتين وكأنه يعصر ذهنه ليتذكر هويتها، ما لبث أن ارتخت تعابيره ليقول
بابتسامة وقورة:

-يا أهلاً بيكي يا حاجة، فينك؟ مش بنشوفك خالص نواحيننا؟!!

أجابته متعللةً بنفس النبرة الودودة:

-مشاغل الحياة يا حاج، والحاج "سلطان" عامل إيه؟

أوما برأسه يجيبها في رضا:

-نحمد ربنا .. في أحسن حال

-يدوم يا رب

قالت له معتذرة وقد أطرق رأسها خجلاً منه:

-حمدلله على سلامة ابنك ولو إنها متأخرة، كان المفروض أروح أبارك للحاجة "ونيسة" لما عرفت
بالأخبار الحلوة دي من حبايبنا في السوق، بس ملحوءة إن شاءالله!

حرك عكازه بيده القابضة على رأسه وهو يقول مجاملاً:

-كثر خيرك، اعتبري المباركة وصلت

أضافت في حرج خجل:

-كلك ذوق يا حاج، ربنا ما يضركم فيه أبدًا ويفرحكم بيه عن قريب.
هز رأسه قائلاً:

-يا رب .. واحنا قريب هنجوزه، وأكيد هنتشرف بيكي إتني والبنات
ردت على الفور دون أن تمنح نفسها فرصة للتفكير:

-طبعا يا حاج "بدير"، هانكون أول الموجودين إن شاء الله.
اتسعت ابتسامته يُجاملها:

-تسلمي يا حاجة، دعواتك بقي.

قالت في تضرع:

-والله بأدعيه وبأدعي لبناتي ربنا يجبر بخاطرهم ويراضيهم.

أطبقت "فيروزة" على شفيتها مكتفية بمتابعة حوارهما دون أن تعلق بكلمة واحدة وإن كانت مجاملة
لتتخذ موقف المشاهد الصامت، انتظرت حتى استأذنت والدتها وهمت بالانصراف لتتحرك على
خطوتها البطيئة وعيناها تركزان على لافتات المحال تبحث بينهم عن ضالتها المنشودة.

.....

في تلك الأثناء، كانت إحدى الشاحنات الضخمة تسد الزقاق الجانبي المؤدي لمحل الصاغة بشكلٍ
عرضي مما جعل الطريق ضيقًا للغاية ويتعذر السير فيه، كذلك وضعت عشرات الأقفاص المليئة
بالخضراوات والفاكهة الطازجة في تلك المساحة المحدودة فأجبر السائرون على المشي- بحذر لتفادي
الاصطدام بهم .. بينما انقسم العاملون ما بين واقفاً أعلاها وأسفلها ينقلون الأقفاص الثقيلة فيما بينهم
عن طريق إلقائها عاليًا بطريقة يدوية تم عن خبرة محاربية واحترافية ليلتقطها الآخر بنفس البراعة
والقدرة. ومن بين المتواجدين بالأعلى كان يقف "تميم" ليشرّف بنفسه على سير العمل بدقة وإتقان
حتى ينتهي تجهيز الشحنة المطلوبة وتسليمها في أقرب وقت، صفق بيده محفزًا رجاله بصوته
الجمهوري:

-شهلوا يا رجالة، عاوزين نرص العدايات دي كلها.

رد عليه أحدهم بلهائث:

-قربنا نقفل النقلة الثانية يا معلم، ربعاية وكله هيكون خلصان

قال بتحميس ظاهر على محياه:

-قول يا رب!

جالت عيناه عفويًا على السائرتين في مطلع الزقاق بحكم وقفته العالية، لاحظ انشغال الشابة المجاورة لوالدها بالتطلع على ما حولها على عكس الأخيرة المنتبهة جيدًا لخطواتها، حُيِّل إليه أنها لو لم تحتط لربما فزعت من إلقاء القفص أعلى رأسها وتعثرت في مشيتها وانكفأت على الوحل المترام بسبب سقوط الأمطار وتلطخت ثيابها، لذا بكل مروءة جلجل صوته يجرها:

-خدي بالك يا أبلة وإنتي ماشية.

تحركت رأس "فيروزة" ونظراتها نحو مصدر الصوت الرجولي الأجهش، تقلصت تعابيرها وضاعت عينها مع رؤيتها لذلك الشاب ذو الملامح الجادة، تيقنت أنه يخاطبها من عينيه المثبتة عليها، قرأت فيهما صرامة ممتزجة بالقوة، عاد ليشير لها برأسه لتتجه عينها تلقائيًا -وكأنها واقعة تحت تأثير تعويذة سحرية- نحو الأقباص الطائرة، اشتدت قسامتها توترًا وتحفزت حواسها بالكامل وقد فطنت لمقصده، سارت على حذر تام، ثم تطلعت إليه مجددًا وابتسامة صغير متكلفة تلوح على شفيتها مع نظرة أخيرة عابرة لتتجاوزه بصحبة والدها وتختفي بداخل المحل وصوته المشجع لرجاله يتردد صداه بين

جدران البيوت !!

.....

الفصل السابع

بوجه متورد، ونظراتٍ نجلة مرتبكة تطلعت إلى ما تحويه ضلفته الخاصة من ثياب جديدة مرصوفة على الرف السفلي تم فرزها مسبقاً لنقلها دون عناء، تلمستها برفقٍ ناعم وكأنها أشياء ثمينة هشة وقابلة للكسر. لذا تحتاج لعناية من نوعٍ خاص .. لجأت "ونيسة" لطلب مساعدتها فقط لتمنحها الفرصة لخلق المزيد من الذكريات السعيدة واللحظات المميزة جزاءً لصبرها الطويل وانتظارها غير المشروط ليحصل على حريره من خلال قيامها شخصياً بتوضيب ما يحتاج إليه "تميم" استعداداً لنقله لاحقاً لمنزل الزوجية الكائن بعد بنائيتين من هنا، لم تصدق "خلود" نفسها وهي تقف في غرفته تتأمل متعلقته الخاصة، صارت الآن تتحرك فيها بحرية أكبر بعد أن كانت تختلس الدقائق وتختلق الحجج لتدخلها، لفتة خاطفة حلت منها في اتجاه خالتها والتي كانت منحنية قليلاً على الفراش وهي تطوي الثياب بشكلٍ منظم في حقيبة السفر الجلدية الكبيرة (ذات اللون البني الداكن) والموضوعة على الفراش، عادت لتحقق في ضلفته بنظراتٍ ساهمة والهة إلى أن أخرجتها "ونيسة" من حالة التأمل لتقول مسترسلة بسجيتها:

-عارفة يا بت يا "خلود"...

ردت الأخيرة متسائلة في اهتمام:

-أيوه يا خالتي.

تابعت بابتسامة عريضة وقد تركزت عيناها على ابنة أختها:

-من يوم ما اتولدت وشيلتك بين إيديا وإنتي في اللفة، وأنا ندرها في نفسي .. أجوزك لابني لما يكبر!

تضرج وجهها وتوهجت بحمرته النجلة، أحست بالسخونة تنبعث من وجنتيها، بالحرص الشديد ينتابها، في حين ازدادت ابتسامتها "ونيسة" اتساعاً بعد تلك الضحكة العفوية المرححة التي أطلقتها لتكمل بنفس الود المتحمس:

-عمري ما شوفت واحدة ثانية غيرك تنفع مرات ابني، هو ما يلقش عليه إلا إنتي، بتحببيه، وهتصوني العشرة، ودايمًا معاه على المرة قبل الحلوة.

لم تعرف بماذا تعلق عليها، نطقت بارتباكٍ يشوبه الحياء:

-الله يخليكي يا خالتي.

اقتربت منها "ونيسة" لتقول بعبثية وهي تغمز له بطرف عينها:

-بس عجبتيني لما إديتي "تميم" التوكة بتاعك!

تطلعت إليها بعينين زائغتين، فجأة اكتسى- تعبيراتها حيرة عجيبة وكأن صاعقة ضربت برأسها، حاولت أن تتماسك قبل أن تسألها بصوتها المندهش:

-توكة؟!!!!

لم تلاحظ خالتها التغيير الذي غطا ملامحها فاستفاضت تنصحها:

-أنا عاوزاكي تتلحلي معاه يا "خلود"، الراجل يجب الست اللي تشاغله وتملى دماغه، خليه دايمًا يفكر فيكي.

وكانها ثمادث الفراغ، شردت تفكر فيما قالته، هي لم تمنح "تميم" أي هدية مميزة، وما تبوح به خالتها يوحى بشدة أنه حدث قريبًا، إذا عن أي شيء تتحدث؟ هل تعرف إلى إحداهن مؤخرًا ويخفي عنها تلك الحقيقة كي لا يصدما؟ تخلل عقلها سؤالاً بعينه لم تكن لتسمح لنفسها أبدًا بتصديقه، لكن شيطان رأسها قوى ذلك الهاجس بداخلها، أيخونها "تميم"؟ انقباضة مؤلمة اعتصرت قلبها وكادت تقبض على روحها، حاولت أن تخفي ضيقها الظاهر على قسامتها لترسم ابتسامة ثقيلة متكلفة وهي تطلب منها بنبرة جاهدت لتجعلها ثابتة حتى لا ترتاب في أمرها:

-هو.. "تميم" حاطط التوكة.. دي فين؟

هناك!

أجابتها وهي تتجه نحو الكومود لتفتح الدرج العلوي وتخرج منها منديل الرأس والمشبك، فقد وضعتها به بعد أن تركها "تميم" عليه، في تلك اللحظة اشتعلت عينا "خلود" بشكلٍ حائق وقد تجمدت نظراتها عليهما، أحست بالدماء الشائرة تتدفق بقوة في عروقها لتندفع بلا توقف نحو عقلها فأصاها بصداع غريب، لمن إذاً تلك الأشياء الأنثوية؟ ولماذا يحتفظ بها في درجه الخاص؟ بدأت

نيران الغيرة تنهش فيها .. تأملتها "ونيسة" لوهلة معتقدة أنها انزعجت لكشف ذلك، حاولت أن تهون الأمر عليها فقالت بلطافة لتبرر موقفها قبل أن تسيء فهمه:

-وعي تزعلي مني يا حبيبتي، أنا مش النوع ده من المحاوت اللي بتفتش ورا ولادها!
جفاف مرير كالعقم اجتاح جوفها، قاومت باستماتة تلك الغصة التي أصابت صوتها، بدت متهدجة الأنفاس وهي ترد:

-لا يا خالتي، ما فيش أي حاجة.

مسحت "ونيسة" بكف يدها على وجتها الملتببة دون أن ينتقص من ابتسامتها الصافية شيء، ثم أضافت بتنهيدة أشارت لتعبها:

-طيب يا قلب خالتك، أنا هاروح أشأر على الأكل اللي على النار ورجعالك، إتي عارفة ما فيش حاجة في البيت مش بتخلص.

غيم القهر على وجدانها فلم تعد تملك من القدرة ما يجعلها تظل راسخة هكذا، قالت فجأة بوجه تحول للوح جليدي ونظرات عكست مزيجاً من الغضب المكتوم والحسرة المؤلمة:
-أنا لازم أمشي.

تقطب جبينها متسائلة بدهشة:

-الله، ده احنا متفقين تقضي النهار كله معايا! وأمك عارفة بده، يعني هنقعد براحتنا.

تعللت بإرهاق مفاجئ ونبرتها قد تحولت للقتامة:

-معلش يا خالتي، حاسة إني دايفة شوية، ده غير أنني وعدت أمي متأخرش، وهاجيلك تاني.

رضخت "ونيسة" أمام إصرارها فهتفت مستسلمة:

-ماشي يا حبيبتي، إني بردك مهدود حيلك في الفرش والذي منه، خدي بالك من نفسك

حاولت أن تبتمس فظهرت ابتسامتها مبتورة منقوصة يشوبها عيباً مريباً للشك حينما ردت باقتضاب طيب، مع السلامة.

بيد مرتعشة سحب حقيبة يدها وهي تكاد تسيطر على اتزانها، انتاب الفضول "ونيسة" وهي تتبعها نحو الخارج، ظلت دهشتها مرسومة على محياها، فقد اندفعت ابنة أختها كالطلقة وكأنها وضعت مكوكًا في قدميها لتخرج من المنزل، صفقت "خلود" الباب خلفها بعصبية ملحوظة، فقدت السيطرة على أعصابها بعد اكتشافها لما أسمته خيانة لعهد الحب الوفي، انسابت دمعتها بجرقة، شعرت بوخزات ألم الحب تفتك بقلبها، غلت الدماء في عروقها وزاد اضطراب أنفاسها، كانت كمن خرج من معركة قتالية مهزومًا هزيمة نكراء، رددت مع نفسها بنق يتعاضم أضعافًا مضاعفة كلما هبطت درجة من درجات السلم:

-بتخوني يا "تميم"! طب ليه؟ وبعد الحب ده كله!؟!

طاردتها الهواجس وسيطرت على ما تبقى مما تملكه من تفكير منطقي .. جُرحت أنوثتها، وطعن حبا في مقتل بغدره الخائن لعهد الوفاء بينهما، قررت "خلود" أن تهاتفه لتهي الأمر بينهما، فإن كان لا يريد حبا فليذهب للجحيم، لكنها لن تحيا كظلٍ مُمشمش في حياته تفتت على ما يمنحه لها من اهتمام حذر، ارتجفت يدها وهي تضغط على الأزرار باحثة عن اسمه، بدت الرؤية صعبة بسبب دمعتها الفائضة، كانت خيانتها لها مدمرة لكل أحلامها، استندت على الحائط حتى لا تسقط، فقدمها عجزًا عن حملها، اهتز صوتها بألم معنوي ميمت وهي تستطرد منادية باسمه:

- "تميم"

بدا صوه جافًا جادًا مكتسبًا طابعه الرسمي وهو يرد:

-خير يا "خلود"؟

ارتفعت شهقتها التي استماتت لتكبحها فخرجت من بين شفيتها وهي تلومه بقلبٍ مفطور:

ليه خنتني؟ ليه؟

لم يظهر التأثر على صوته، لكنه سألها بما يشبه الضيق:

-ليه الكلام الغريب ده يا "خلود"؟ هو إنتي طبيعية

ردت بجرقةٍ وعبراتها تزداد انهمازًا:

-إنت وجعتني أوي يا "تميم"، أنا محبتش حد إلا إنت، كنت قولي إنك مش عاوزني..

أأها صوتة المزعوج مرددًا:

-أنا مش فاهم حاجة!!

تابعت كالمغبية وصوتها بات واهنًا موجدًا:

-أنا عرفت الحقيقة، بس كرامتي فوق أي اعتبار.

صرخ بها في نفاذ صبر:

-إنتي مجنونة يا بت؟

تمالكت نفسها لترد ببقايا كبرياء محطم:

-المرادي أنا اللي مش عاوزاك!

استطاعت أن تسمع صراخه يرن بقوة في أذنها:

-يا "خلود" استني آ....

لكنها أغلقت الخط لتتبي المكالمة وقد ذبحها ذلك الإحساس الفتاك بالصدر،

انفجرت بأكية بمرارة وحسرة، تهاوت جائية على ركبتيها عند بداية السلم، حركت جسدها للجانبين وهي تنوح بشدة ليظن من يتطلع إليها أنها فُجعت في أحدٍ عزيزٍ للغاية.

.....

حمولة جديدة كان عليه تجهيزها قبل حلول المساء وفقًا للعقد المبرم مع تلك السفينة السياحية، ولكن لانشغال أغلب العاملين في تعبئة وحص الأقفاص الخاصة بسفينة أخرى اضطر "تميم" للاستعانة برفيقه "ناجي" ومن هم على صلة به للذهاب إلى سوق الجملة الشهير لإحضار المطلوب. تلك المكالمة العجيبة التي تلقاها من خطيبته أزجته قليلاً وانعكست على تعايره المشدودة، لم يفهم سبب توترها المفاجئ ورغبتها في إنهاء الزيجة دون تفسير مقنع، ثم تساءل في نفسه عن اتهامها له بالخيانة، عن أي خيانة تتحدث؟ هو لم يكن على صلة بأنتى غيرها، إذا فكيف يخونها؟ حيرة في غير

وقتها سيطرت على عقله مما جعله يرجئ التفكير مؤقتًا في الأمر ريثما ينهي أعماله التي تنتظره ..
ترجل من الشاحنة وسار مهمومًا ونظراته إلى حد ما غائمة، لاحظ "ناجي" تبدل ملامحه للعبوس
فتلکأ عن السير ليسأله:

-في إيه يا "تميم"؟

رد باقتضابٍ وهو ينظر له:

-ما فيش.

فطن لكونه لا يجذب الحديث عن أمر يخصه فأشار بيده يدعوه:

طب بينا عشان نلحق نجمع البضاعة

أوما برأسه وخطا نحو البوابة المتسعة، كان السوق مزدحمًا مليئًا بالتجارٍ من كل حدبٍ وصوب،
الشاحنات من كافة الأحجام تدخل وتخرج معبأة بما تشتهيهِ الأنف، الكل يبتاع ويزايد ليحصل على
الأفضل، ومهمته هنا تقتضي شراء الأجود من الخضراوات والفاكهة بسعر جيد لضمان تحقيق الربح
في الأخير. سار بشموخٍ وعظمة بين المزاحمين في المكان، يلوح بيده تارة، ويلقي التحية مبتسمًا
تارة أخرى، لكن ذلك الصوت الكئيب الساخر المنادي عاليًا استوقفه فجأة:

محدث قالي إنك خرجت من السجن

استدار "تميم" بجسده للخلف ليجد كائنًا لزجًا يطالعه بنظراته الحقودة، ما زال يحتفظ بملامحه
السمجة وجسده المتهدل المتراخي في بعض أجزائه والذي يبرزه جلبابه المتسخ قليلًا، عرفه على
الفور؛ إنه "سراج" أحد أهم تجار سوق الجملة حاليًا، وتحديدًا من أحدث به عاهة مستديمة وكاد
ينحره لتجراه قديمًا على والده ونعته بألفاظ قدرة نائية مست شرف العائلة، حينها تناسى إنسانيته
وأوشك على سفك دمائه لولا مشيئة القدر وتدخل الجميع لمنعه من مذبحه خطيرة، آنذاك أُلقي
القبض عليه، ولم ينكر التهم الموجهة إليه وصدر الحكم ضده بالحبس، اعتبر "تميم" ما حدث وسامًا
على صدره يدعو للتفاخر والزهو، وبات الكل يخشى اندلاع غضبه .. وبالرغم من مرور السنوات
إلا أن غضبه يتجدد ويصل لذروته كلما تذكر جريرته، وها هو اليوم يقف أمامه يستفزه ليخرج

الوحش الكامن بداخله، تكورت قبضة يده كنوع من كظم الغضب -مؤقتًا- خاصة حينما تابع "سراج" وصلته المتهمكة:

-ده أنا فكرتك هتعضن هناك.

بكل هيبة وقوة رد عليه وعيناه تتوهجان بشكل مخيف:

-طلعلك نأبك على شونة، ولسه زي ما أنا، وبعدين السجن للرجالة!

غمز له ساخرًا بنبرة تعمد أن تكون مسموعة للجميع:

-وللسوان كان، ولا إيه؟

انتصب "تميم" في وقفته فبدأ أكثر مهايًا ورهبة، هدر يحذره بنبرة لا تبشر بأي خير:

-شكلك نسيت اللي حصلك زمان، كنت زي الدييحة، مرمي تحت رجلي، وجزمتي فوق رقبتك، وكل اللي هنا شهدوا على جُرتك!

امتلاً وجه "سراج" بتعاير حائقة، وتحول وجهه للقتامة عندما تابع غريمه إهائته القاسية له:

-ها قولي، لو عاوزني أمسح بيك أسفلت السوق من تاني، فأنا جاهز!

دس الأول يده في جيب جلبابه البيج ليخرج منه مديّة يحتفظ بها دومًا لاستخدامها في قطع الثمار، أشهرها في وجهه وبدلها بين قبضتيه كنوع من الاستعراض، ثم صاح يهدده علنًا:

-وانت الصادق مطوتي جاهزة تسيب تذكّار للمدام تشوفه ليلة دخلتها...

إنها تلك اللحظة التي لا يعود فيها للعقل أي وجود، كلمات كالقنابل الموقوتة أشعلت فتيل هياجه الجامح، اربد وجهه وأطلق الشرر من عينيه، لم يرتدع "سراج" وتجراً متابعًا بما لا يمكن السكوت عليه دون عقاب مهلك:

-ألا بصحيح نويت تتجوز ولا عملوا عليك حفلة في السجن وخلوك تترهبن!!!

تهدج صدره بشكل مخيف وقد بات محملاً بمشاعر غاضبة، ناقمة، عدائية، ساخطة، جلجل صوت "تميم" متوعداً بلهجة مرعبة:

آه يا ابن ال، المرادي هاجيب أجلك!!

رد غير مبالٍ وابتسامة مستفزة تعلو ثغره، ويده تلوح بالمطواة عاليًا:

-وريني يا ابن "ونيسة"!

اندفع نحوه صارخًا به:

-أي أشرف من إن اسمها يجي على لسان واحد "....." زيك!

كانت حركته المفاجئة ناحيته -بكامل غضبه- قد أذهلته، لكمة تعرف الطريق جيدًا إلى فك "سراج" أطاحت به وقذفت بعاملته التي تلتف حول رأسه بعيدًا، ترنح من شدتها وحاول التماسك، ثم ما لبث أن وجه واحدة مماثلة لها في القوة تلقاها "تميم" أسفل عينه اليسرى، لكن الأخير تغاضى عن ألمه ليشرع في الهجوم عليه، نزع الدماء فورًا من جرح عميق أحدثته المطواة في صدره، استشاط غضبًا واندفع كالثور الهائج مسددًا لكمة أخرى أشد قوة وأعظم شراسة في عنق "سراج" فأشعرته بأن أنفاسه قد قطعت مما جعله يفقد زمام الأمور في لحظة فنحت الأسبقية للأول .. فرد "تميم" ذراعه ليكمل اعتدائه على كتلة اللحم الكائنة أمامه، طرحه أرضًا مستخدمًا كل قوته، ثم جثا فوقه يكيل له اللكمات يمينًا ويسارًا على وجهه الذي بات كالعجين .. أقام رجال "سراج" الدنيا ولم يقعدوها اندفعوا للتشاجر مع "تميم" وأتباعه، وتحولت ساحة السوق في ثوانٍ معدودة لساحة حرب مميتة، الكل يتراشق بالألفاظ وما تطلاله الأيدي من أسلحة بيضاء، وسلاسل حديدية .. الأقفاص تطايرت في الهواء بشكلٍ مرعب واستخدمت في الضرب على الأجساد والإطاحة بالرؤوس، حالة من الفوضى الصاخبة عمت المكان واختلطت مع الصيحات المجلجلة.

نزع "سراج" الدماء من بين أسنانه، كذلك تحطمت سنتين من فكه السفلي جراء العنف المفرط لـ "تميم"، أوشك الأخير على إزهاق روحه لولا تدخل كبار التجار للفصل بينهما، أبعده من فوقه وأحدهم يرجوه بشدة:

-اهدوا يا رجالة، ما يصحش كده!

اخشوشن صوته المحتقن وتشنجد وهو يرد حاسمًا أمره:

-الكلب ده مالوش دية عندي، هاي موت النهاردة!

تعلق الحاج "لظفي" أحد أهم كبار تجار السوق -من يمتازون بالسمعة والصيت والكلمة المسموعة عند الآخرين- بكتفه ليضمن بقاءه في مكانه، ثبت وجهه عليه ونظر في عينيه يتوسط عنده بنبرة أقرب للرجاء:

-هو غلط في حقك، وكلنا شاهدين، بس إنت اهدى، واللي عاوزه هيتعمل!
زجره قائلاً بإصرارٍ مخيف:

-أنا مش هاسكت، رجالي هيدبحوه، وكل اللي من طرفه هيتصفي النهاردة!
استند "سراج" على مرفقه ليعتدل في رقدته، حاول أحدهم مساعدته على النهوض لكن ثقل جسده الكبير لم يسعفه في شيء، ومع ذلك رد متحدياً دون خوفٍ أو ارتعاب:
-ده لو فضلت عايش يا ابن "ونيسة"!

على الفور استدار نحوه "لظفي" يحذره بصوته الأجش المرتفع قبل أن تتفاقم الأمور مجدداً ويحدث ما لا يُحمد عقباه:

-أتم يا "سراج"، من امتي بنجيب سيرة الحريم؟ ولا إنت قلبت مرة وبقيت بتغلط زهم؟ قولي عشان أبقى عارف لما أتعامل معاك بعد كده!

إهانة غير مقبولة، بل سبّة على الجبين، تلقاها من معلمه ذو الشأن الرفيع، تطايرت شرارات الحنق المختلطة بالحقد من عينيه ولم يجرؤ على التفوه ليدراً إهاتته، نكس رأسه في ضيقٍ وإن ظل غضبه مستعزاً، التفت "لظفي" لينظر إلى "تميم" موجّها حديثه بشكلٍ عام:

-الكلام ده ماينفعش، كبارات السوق هيتلموا النهاردة ونشوف حل لده، مش هانستني أما تحصل جناية قتل هنا!

كان كلامه نافذاً لا يجوز مناقشته، سحب نفساً سريعاً لفظه وهو يكمل بصرامة:

-ارجع يا "تميم" عند الحاج "بدير"، وطلباتك هتوصل لحد عندك
عانده بوجهه المتجهم رافضاً الإصغاء له:

-مش ماشي من هنا!

ضاقت عينا "لظفي" وهو يعنفه بجدري:

-هو أنا ماليش كلمة عندك ولا إيه؟

تنحنح قائلاً بتدمر:

-إنت على عيني وراسي، بس ...

قاطعته منيياً الأمر:

-خلاص بيتي تسمع الكلام، اتوكل على الله وبضاعتك هتوصلك!

نظرة نارية تركزت من "تميم" على وجه "سراج" وهو يرد بنبرته التي اكتسبت قوة:

-ماشي كلامك!

شكره بامتنانٍ عظيم:

-أهوو ده كلام الرجالة!

استبد الغيظ — "سراج" الذي لم ينل نفس القدر من الاحترام والتبجيل وكأنه نكرة بالرغم من مكانته المرتفعة بين باقي التجار، اضطر أن يكظمه حتى تحين اللحظة المناسبة، حينئذ سيدعسه تحت قدميه ويظفر بانتقامه الدامي منه.

.....

ندبٌ وعتابٌ لا بأس به ناله منها بعد أن رأت بأَم عينيها ما أصاب وجهه من كدمات وجرحٍ قطعي في يده، حاول إخبارها بأن ما حدث له أمر معتاد نتيجة بعد الشجارات المفتعلة في تلك الأسواق المزدهمة بأربابها، تركها تعاتبه حتى أفرغت ما في جعبتها، ثم دخل إلى الحمام ليغتسل ويبدل ثيابه، فلديه زياوة طارئة لخطيبته ليفهم منها ما الذي حدث بعد أن تجاهلت طوال النهار رسائله واتصالاته المتكررة بها .. وقف "تميم" أمام المرأة يمشط شعره، لم يستغرب بقاء والدته بالغرفة، فدوماً حينما

يتسبب في المشاكل تجلس على طرف فراشه تلومه، وتوبخه، وتحذره من عواقب طيشه. التقت عيناه بانعكاس وجهها في المرآة راقبته عندما سألته كأنها تحقق معه:

-هاتروح فين تاني يا "تميم"؟ ناوي تضارب مع اللي ما يتسمى؟

لف الشال حول عنقه ثم استدار ناحيتها ليجيب بهدوء ضاعف من ربيتها:
-لا يامه، مش ناوي أتخاق النهاردة..

قطبت جبينها متسائلة بتوجس ونظراتها القلقة مرتكزة على ملامحه الباردة:
-أومال رايح فين؟

أخرج زفيرًا بطيئًا قبل أن يجيبها على مضض:

لبنت أختك، قالبة عليا من الصبح وأنا مش عارف ليه!
رددت عفويًا وقد بدت مندهشة:

- "خلود"!

-أيوه

سألته مستوضحة:

-مالها؟ ما هي كانت زي الفل من الصبح..

رد بنفس النبرة الممتعضة:

-معرفش، اسألها، ده لو ردت عليك أصلاً!

لظمت على صدرها بشكل عفوي قبل أن تلومه:

-اوعى تكون زعلتها؟ أنا عارفك لما مخك يقفل و...

قاطعها مدافعًا عن نفسه:

هو أنا لحقت أصلاً أكلمها؟! ده أنا في هم كبير من طلعة النهار

زمت شفيتها بطريقة مستنكرة، وشردت تستعيد مشاهد ما دار ظهيرة اليوم في المنزل، أخرجها
"تميم" من سرحانها السريع بسؤالها:

قولي لي هي مكانش باين عليها حاجة؟

نفت قائلة:

-لا يا ابني، كانت تمام.

عاد ليسألها بالحاح أكبر عليها تعتصر ذهنها وتتذكر تفصيلا ما ربما تكون قد غابت عنها:

-يعني مشيت من هنا مبسوفة؟ ماشتكتش من حاجة؟ أو مال القلبة السوداء دي جت منين؟!

تطلعت إليه متسائلة:

هي قالتك إيه؟

أجابها باستنكار كبير وتعبيرات ناقمة:

-مفكرة إني عارف عليها واحدة!

شهقت "ونيسة" بصوت مرتفع قبل أن تؤيده:

-وده كلام يتصدق بردك؟

قال في تهكم:

قولي لها، الواحد أصله مش فاضي للهري ده، وهي عاملة حوارات

-كبدي يا ضنايا

ران الصمت بينهما لعدة لحظات انشغل فيها "تميم" بارتداء حذائه، لاح في باله سؤال بعينه فنطق

به:

-طب هي "هاجر" جت النهاردة وهزرت معاها بكلام بايخ ولا حاجة؟

أجابته والدته مؤكدة:

-لا مجاتش، بس أختك بتحبها أكثر من روحها ..

أطبق على شفثيه مانعاً سبة تعبر عن استياءه من الخروج من جوفه، ولكن تبدلت تعابيره فجأة
للاندهاش الحائر حينما رددت أمه عفويًا:

-لا يكونش ده حصل بسبب التوكة؟!

تعابير واجمة غطت كامل وجهه وهو يسألها:

-توكة إيه؟

أشارت بيدها وهي تجاوبه:

-اللي كانت في درج الكومودينو..

على الفور تحرك في اتجاه الكومود وفتح الدرج العلوي ليجد منديل الرأس والمشبك به، أخرجها
منه ورفعها نصب عينيه للحظة قبل أن يتركها من أصابعه ليسقطا بالداخل، التفت ناحيتها
متسائلاً بانزعاج كبير:

-هو إنتي قولتلها إيه بالضبط؟

قصت عليه ما دار بالتفصيل لتضح الصورة كاملة في ذهنه، وضع يده أعلى رأسه في حركة
مستاءة من تصرف والدته الأحمق الذي فتح عليه باباً من المشاكل بدون داعٍ، زجر قائلاً في
غضب:

-دول مش بتوعها يامه، ليها حق تفكر إني بأخونها!

سألته في فضول:

-أومال بتوع مين طيب؟

هتف بعصبية اتضحت في صوته وحركته بداخل الغرفة:

-أنا لاقيتهم في الشارع وأنا ماشي، يا ريتني كنت رميتهم بدل وجع القلب ده!

شعرت "ونيسة" بالذنب وسوء تصرفها بالإيحاء لـ "خلود" بأنها تشجعها على التودد من ابنها لتخلق نوع من الألفة بين الشئاني المقبل على الزواج بعد بضعة أيام، ومع ذلك أَلقت باللوم عليه، فقالت:

-وأنا هاعرف منين يا ابني؟ ما إنت مابتقولش حاجة!

استمر على عتابه لها قائلاً:

-حتى لو كده، برضوه مكانش ليه لازمة البؤين بتوعك دول!

تهدت معقبة بقلة حيلة:

-أهوو اللي حصل بقى.

سألها وكأن عقله قد توقف عن إيجاد الحلول المنطقية:

-وهنحلها إزاي دي؟ يعني كنت ناقص خوته!

اقتрحت على استحياء:

-حاول كده تضحك عليها بكلمتين، جايز ربنا يهديها وتعدي الحكاية على خير.

كان غير مقتنع بما تفوهت به، وقال موجزًا كتعبيرٍ عن عدم رضائه:

-ربنا يسهل.

همّ بالخروج من الغرفة لكن استبقته والدته بالصياح عاليًا وكأن عقلها قد أضاء بفكرة ما:

-استنى يا "تميم"...

استدار ناحيتها فتابعت:

-إنت تقولها إنهم بتوع "هاجر"، وكانت نسيهم عندنا، فإنت خدتهم منها وعتتهم معاك لحد ما

تشوفها

بدا حلاً جيداً، لكن شكوكه جعلته يتساءل:

-وده هايخيل عليها؟

رد مبتسمة ابتسامة عريضة لتشير إلى استعدادها لضوابط الأمور:
-ملكش دعوة، أنا هاكد على "هاجر" تقول نفس الكلام، وإن شاء الله تصدق، وأمك مش هينة
بردك

بادلها ابتسامة صغيرة على محياه أضاف بعدها:
-خلاص هاجرب..

نظرت لها بعينين متفائلتين ثم هتفت متضرعة:
-ربنا يهدي سر كم يا ابني
-يارب

تبعته في سيره إلى الخارج وهي تكمل على سبجيتها الفطرية:
-وربنا احنا اتحسدنا، ده شيطان ودخل بينكم..

غمغم "تمم" ساخرًا في نفسه وهو يمسك بمقبض باب المنزل ليديره:
-هو أنا لحقت أعمل حاجة عشان الشيطان يدخل، ولا هو بيتلكك!

.....

فتح الورقة المطوية التي تشربت الكثير من الزيت والبخار المنبعث من الطعام الساخن، ثم فردها على الطاولة القصيرة المستديرة لتظهر وجبة شهية من (الكباب والكفتة)، هبط "حمص" من على مصطبته القديمة ليجلس على الأرضية فور أن اقتحمت الرائحة الزكية أنفه، وبيده المتسخة اختطف قطعة كبيرة دسها في فمه، وتلذذ بمذاقها الذي اشتهاه للغاية، ظهرت علامات الاستمتاع واضحة على تعابيره، نظر له "شيكاجو" بتأملٍ ثم سحب قطعة يلكوها في فمه، تملكه نفس الإحساس الرائع بتناول أحد أشهر الوجبات وأغلاها على المعدمين من أمثالهم .. تناثرت البقايا من جوف "حمص" وهو يستطرد:

-بس تصدق الشغل مع المعلم "تمم" حاجة تانية

رد عليه "شيكاجو" يؤيده في كلامه:

- ده حاجة أكر نغنة، مصلحتين ثلاثة معاه وهنبطل سرقة!

رمقه بنظرة نارية رافضة قبل أن يوبخه بجدة:

-نبطل، إنت عبيط، حد يقول للرزق لأ؟!!

سأله بضم ممتلى على آخره:

ليه في حاجة جديدة؟

أجابه بعد أن تجرع رشفة كبيرة من مشروبه المسكر الذي أحضره:

-وقعتك على حنة ألماني إنما إيه، هتريحنا بتاع شهرين ثلاثة.

تساءل في اهتمام:

-دي فين دي؟

تجشأ موضحًا:

عند الفلل القديمة، مدير أمن سابق، على المعاش دلوقتي وعایش لوحده.

توقف "شيكاجو" عن ابتلاع الطعام ليحدق فيه مصدومًا، ثم صاح محتجًا:

-إنت جاي تودينا عش الدباير؟!!!!

قال غير مكترث وقد بدا متحمسًا لتلك السرقة:

يا عم ده راجل مكحك، مش هيستحمل زقة مننا، وبعدين أغلب الوقت مش موجود في فيلته.

حذره بلهجة جادة ربما يتراجع عن فكرته المتهورة تلك:

-بلاش منها.

أصر على رأيه قائلًا:

صدقني هنسترزق، وزبونها جاهز هيدفع على طول.

وضع قطعة أخرى من اللحم الشهوي في جوفه، ابتلعها ورد عليه بعبوس:

-مش مرتاح

ظهرت على تعابير "حمص" علامات الارتياح، استرخى في جلسته وأمسك بزجاجة مشروبه يرفعها نحو فمه، ثم قال عن ثقة تامة وقد عكست نظراته قتامة مريبة:

يا عم حط في بطنك بطيخة صيفي، هتعدني زي اللي قبلهم!

.....
تسلم إيدكم يا بنات، رجعت زي الأول وأحسن.

قالتها "آمنة" بابتسامة بشوشة على تعبيراتها الهادئة وهي تتأمل بعينين مشرقيتين العربة بعد تجديدها بالأموال التي حصلت عليها جراء بيع أسورتها الذهبية، لم يذهب مالها سدى، هكذا رددت في نفسها! كنت ابتناها قد توليتنا نقل العربة إلى تلك الغرفة بعد تنظيفها لتصبح مكانًا آمنًا للاحتفاظ بها دون الخوف من تكرار تخريبها، التفتت "همسة" ناحية والدتها لتأخذ منها صينية السندوتشات التي أعدتها لها، بينما احتضنتها "فيروزة" وشدت من ضمها لها وهي تشكرها معترفة بجميلها الكبير:

-الحمد لله يا ماما، كله بفضل ربنا ومساعدتك لينا، لولاكي كان زمانا حاطين إيدنا على خدنا

ردت بجنون:

-ربنا يفرحكم دايماً..

ثم أشارت بعينها للأعلى مكلمة جملتها:

-هاطلع أنا فوق ولو عوزتم حاجة نادوا عليا.

هزت "همسة" رأسها ترد عليها:

-ماشي يا ماما

تابعتها الاثنتان بعينيهما إلى أن صعدت على الدرج واختفت بالأعلى، ثم تحركت "همسة" نحو أحد الصناديق الخشبية الموضوعة جانب الحائط لتسند الصينية عليها، حملت في العربة قائلة:

-تعرفني كده شكلها بقى أحلى

تهدت "فيروزة" قائلة في سعادة ممتزجة بالارتياح:

-الحمد لله، أنا كنت هاموت بحسرتي لو المشروع ده باظ.

-ربنا كريم، والتوسيعات اللي اتعملت من جواها بقت أحسن

-مضبوط، هنعرف نقف براحتنا، وكمنا عندنا مخزن نعين فيه حاجتنا

-صح كلامك

لفتة عادية برأسها نحو جانب العربة جعلتها تلمح "حمدية" وهي تتلصص عليهما من الخارج من خلال انعكاس صورتها في المعدن، انقبض قلبها وشعرت بإحساس مزعج يتخللها، لذا مالت "همسة" نحو أختها تقول لها بصوت يكاد يكون مسموعًا:

-الحقي مرات خالك بتبص علينا!

امتقع وجه "فيروزة" وتغيرت نظراتها للضييق، كزت على أسنانها هامسة في توعده صريح ينم عن بغضها لها:

-بجد، ليها نصيب تنهزأ!!

اقتربت من الباب مدعية حديثها مع أختها، فقالت بنبرة عالية متعمدة أن تصل إليها:

-الجو جايب هوا بارد، بارد أوي، مش كده يا "همسة"؟

في البداية لم يتفقه ذهن "همسة" إلى ما تفعله، وبالتالي لم تستطع مجاراتها فتساءلت بقليل من الحيرة:

فين ده؟

أجابتها بنبرة موحية ونظرات ذات مغزى:

-من برا، مش حاسة ولا إيه؟

انتهت "حمدية" المرابطة بالخارج لكونها المعنية بذلك الحديث غير المباشر، استترقت السمع وتحفرت للرد لكنها منعت نفسها قبل أن تتهور حتى لا تكشف أمرها، في حين وضعت "فيروزة" إصبعها على أنفها لتسدده مكملة استخفافها بها بشكلٍ مهين:

-لأ ومليان ريجة زفرة، يا ساتر، هانتخق من الريجة المعفنة دي، في إيه كده برا، فسيخ ولا تنضيف سمك؟!

كادت "حمدية" أن تخرج عن طور سكونها المضطر لترد عليها، بدت كمن تتصاعد ينفث دخانًا من أذنيه حينما تابعت "فيروزة" تمثيليتها المتهمكة عليها:

-أحسن حاجة أعملها أقفل الباب، خلي القذارة تفضل بعيد عننا!

وبكل قوة صفقت الباب في وجه "حمدية" التي انتفض جسدها تلقائيًا من الصوت المرتفع، استشاطت غضبًا من إهانتها القاسية لها، احمر وجهها غيظًا واشتعلت نظراتها في حنق، ثم تمتت من بين أسنانها المضغوطة بنبرة مغلولة:

-يا بنت ال.....! بقى أنا تلاحى عليا بالكلام؟

كورت قبضة يدها وضربت بها على الدرايزين، ثم ما لبثت أن أمسكت بخصلة من شعرها لفتها حول إصبعها متوعدة "فيروزة" بحقدٍ مضاعف عكس قدرًا محدودًا من نواياها الخبيثة:

ماشي يا بنت "آمنة"، وحياة مقاصيبي دول لهفرجك !!

.....

الفصل الثامن

كوعاءٍ موضوعٍ على موقدٍ مشتعلٍ ويجوي مياهٍ تغلي حتى تقطعت اندفعت صاعدة إلى منزلها وكلماتها الحاققة تخرج من بين شفيتها، احتقنت نظراتها أكثر، واربذ وجهها بعلامات الغضب المحموم، وقفت "حمدية" أمام باب منزلها تفتش عن مفتاحها في محفظة يدها، تصاعد غضبها أكثر مع تذكر إهانة تلك المستفزة لها، همست قائلة وهي تكز على أسنانها

-والله لأولعها حريقة، وهانشوف مين هايضحك في الآخر يا بنات "آمنة"!

جال ببالها أن تشوه الحقائق وتخلق الأكاذيب، برقت عينها بوهجٍ شيطانيٍ لئيم، تحولت في لحظة لأفعى مأكرةٍ تحيك المؤامرات لتوغر الصدور وتزرع الفتن، حاولت أن تستعيد أي ذكريات حزينة في رأسها لتساعدها على استدعاء عبراتها، ثم بدأت في النواح وهي تدس المفتاح في قفله، انفتح الباب فرفعت صوتها المنتحب قائلة بنبرة أقرب للتحسر:

-بقي دي آخرتها، أه ياني يامه، مكنش العشم!

رفع "خليل" أنظاره عن الأوراق المفرودة على الطاولة أمامه والتي بدا منهمكاً في دراستها ليتطلع إليها باستغرابٍ، ضاقت نظراته متسائلاً بفتورٍ محسوس:

-مالك يا "حمدية"؟

ألقت بجسدها على الأريكة ثم أحنّت رأسها على صدرها لتخبئ وجهها خلف يدها، وواصلت نحيبها بنبرة كانت إلى حد ما مفتعلة، ضجرت زوجها من مماطلتها فصاح بها بنفاذ صبرٍ:

يا ولية في إيه؟

ادعت مسحها لدموع التماسيح الزائفة، وقالت له بندمٍ أثار حفيظته:

-شايف يا أخويا بنات أختك عملوا فيا إيه؟ كله بسبب طيبي وحنية قلبي!

مل من ثرثرتها الزائدة عن الحد والتفافها حول أساس المشكلة، لذا هدر بها بتدمرٍ:

-ما تنطقي عملوا إيه الطواعين دول؟

جاوبت ما طرحه بمزيد من الغموض المستفز له:

-أنا واللي زي الهبة نزلت أخذ بخاطرهم وأقولهم يطلعوا يصالحوك والمياه ترجع لمجارها
نفخ في استياء من طريقته الملتوية في الإشارة للأمر، حاول السيطرة على أعصابه ليسألها من
جديد:

-أنا مش فاهم حاجة، وضحي كلامك.

تنحنت قائلة بنبرة متقطعة متوسلة إياه:

-هاقولك يا "خليل"، بس بالله عليك ما تعملهم حاجة، هي غلطي من الأول.

-ماشي

تركزت عيناه عليها وهي تسرد أذويتها المقنعة بما يجعلها في موضع المجني عليها وليس المتطفلة
الخبثية، حيث ادعت كذباً أنها ذهبت للحديث مع ابنتي أخته لإعادة روابط الود بينهما وبين خالها،
لكن عاملت الاثنان إياها بأسلوب فظٍ ووقح وتتطاولتا عليها بكلماتٍ مهينة مما أخرجها للغاية،
استشاطت نظراته حقناً مما سمعه، ببساطةٍ شديدة نجحت في استفزازه واستثارة أعصابه المتوترة ..
ضرب يده بعصبية على الطاولة لتهتز بما عليها صائحاً وقد هب واقفاً:

-أما بنات قليلة الأدب بصحيح متربوش ولا عرفوا تربية، عاوزين قطع رقبتهم..

أخفت عينها الماكرتين وهي تكمل:

-ما هو لو كانوا بيعملوك حساب، كانوا احترموك وقدرنا نزلة مراتك ليهم

حقاً كانت ماهرة في انتقاء الأسوأ من التعبيرات لتنشر - الحقد والكراهية بين النفوس، تقدم نحوها
"خليل" ليربت على كتفها وكأنه يهدئها، بدا صوته متهدجاً منفجلاً وهو يقول لها:

-معلش يا "حمدية"، حقك عليا..

أغاظتها تلك الكلمات التي أوحى لها بسلبيتها تجاه الموقف، تضاعف إحساسها بالضيق منه، خشيت أن يخذلها ويقف كالمشاهد تاركاً إيها تحترق بغيرتها وحقدتها، لهذا عمدت إلى زيادة الطين بلة بالاسترسال قائلة:

-كله من أختك، لو كانت وقتلهم ومنعتهم من المسخرة دي كانوا اتملوا، بس نقول إيه؟ هي اللي مشجعاهم على الفجر ده، آل وعملاي متمسكة وغلبانة، ياما تحت السواهي دواهي!!
عكست نظراته نحوها كراهية بائنة بعد أن تلفظت بتلك الجمل المليئة بالبغضاء، وجهه المشبع بغضبه ازداد تقلصاً، حلق فيها قائلاً:

-اصبري عليا بس أخلص مراجعة الجرد السنوي للمخازن وحسابات الموظفين وأوقلهم...
التقط أنفاسه ليضيف بقسوة متوعدة:

-وساعتها هاجبيهم تحت رجلكي يعتذرولك!

زمت شفيتها لتقول في عدم اقتناع ونظرة ساخطة تظهر على تعبيراتها بوضوح جلي:
-أما أشوف ...

.....

نفخ الهواء الذي استنشقه دفعة واحدة حينما وقف أمام أعتاب المنزل ليستعد نفسياً لتلك المواجهة مع "خلود"، خطيبته التي تعشقه بكل جوارحها، تمنى أن تكون والدته قد عالجت الموقف الذي لا ناقة له فيه أو جمل سوى أنه وجد تلك الأشياء واحتفظ بها دون أن يعرف صاحبها .. رفع "تميم" يده للأعلى ليقرع الجرس، تنفس بعمق ورسم تلك البسمة الثقيلة الباردة على محياه ليبدو لطيفاً حينما يفتح الباب، تأهبت حواسه وقد أطلت خالته منه ترمقه بنظرة عبرت عن امتعاضها، لاحظ تجمد نظراتها على الكدمة التي تزين وجهه، بدت كما لو كانت سعيدة لذلك، وبتكشيرة ظاهرة على جانب شفيتها سألته:

إلزيك يا ابن أختي؟

رد مرحباً بها:

-الحمد لله، أخبارك إيه يا خالتي؟

تهيدة بطيئة خرجت من جوفها قبل أن تقول:

-نحمده على كل حال..

سألها في لباقةٍ بعد أن لاحظ أنها تسد الطريق عليه لتمنعه من الدخول للمنزل بشكلٍ غير مباشر:

-مش هاتقوليلي اتفضل؟

تنحت ببطءٍ للجانب لير بجوارها ووجهها ما زال محتفظًا بتعايره المزعوجة، التفت برأسه نحوها يسألها:

- "خلود" صاحبة؟

أجابت في سخط:

-وهي من امتي بتنام الميعاد ده؟!!

تصنع "تميم" الابتسام كبديلٍ عن الرد عليها، اتجه تلقائيًا للصالون حيث اعتاد الجلوس به حينما يلتقي بها، تبعته وكأنها ظله ثم جلست في مواجهته مسلطة عينها عليه وهي تسأله مباشرة:

قولي بقي، إنت ورا لوية بوزها؟

انزعج منها، ومع ذلك رد عليها متسائلًا بما يشبه المراوغة حتى لا يُشبع فضولها:

هي قالتلك كده؟

هزت رأسها بالنفي وهي تجاوبه:

-لا .. بس أنا خمنت.

استقام في جلسته واشتد كتفاه معقبًا عليها:

طالما مقاتلش ييقى متصدقيش كل حاجة تشوفيا يا خالتي!

اختلج وجهها من جملته تلك فخرته بلهجةٍ شديدة:

-شوف يا ابن "بدير"...

ظهر الضيق عليه لماداته هكذا، بذل مجهودًا مضاعفًا ليبدو ثابت الملامح أمامها حتى لا يمنحها فرصة الاستمتاع بإزعاجه، في حين تابعت "بثينة" تهديدها الضمني بلهجة صريحة:

-اللي هيقرب من ولادي ولا يفكر يأذيم هاقرقشه بسناني وأكل لحمه ني، واللي بس يمس شعرة منهم هيلاقيني واقفة في وشه، كفاية أوي خسارتي في أبوم زمان بسببكم!

ظل كعادته رابط الجأش قبالتها حينما تشرع في الحديث عن الماضي وإلقاء التهم على الآخرين متغافلة عن قصدٍ عن حقائق الأمور، ثم رد عليها بروودٍ وكامل عيناه مثبتة عليها:

-بلاش نفتح لبعض الدفاتر القديمة!

نهضت من أمامه تقول:

-أديني بأعرفك، زعل "خلود" مش هاسكت عليه!

رمقها بنظرة جافة وهو يؤكد لها:

-اطمني .. أنا مش من النوع ده، بس شكلك نسييتي مين ابن الحاج "بدير"!

تطلعت إليه بعينين حادتين، ما زال قادرًا على الاحتفاظ بكرامته دون مساس، بدا وكأنه قد سيطر على الموقف واستعاد قدرته على التحكم بمجريات الأمور مع كلماته الأخيرة تلك، أكنست خلجاتها بقليلٍ من الضيق وهو يضيف بوقاحة:

-ومعلش ناديهالي، أصلي مش فاضي!

انصرفت منه أمامه لتستدعي ابنتها التي كانت مشغولة بإجراء مكالمة هاتفية مع ابنة خالتها، لوحت "خلود" بيدها لأبها كتعبير عن فهمها لإشارتها، تغيرت كليًا عن الصباح، كانت أكثر ارتياحًا وهدوءًا، حتى بكائها غير المفهوم قد تلاشى وكأن شيئًا لم يحدث .. وبيدها المتحررة ضبطت حجاب رأسها، وشدت فستانها على جسدها ليبدو مفروودًا، ثم دنت من "تميم" راسمة ابتسامة رقيقة على محياها وهي تنهي اتصالها بمرح لطيف:

-ماشني يا "هاجر"، هنتكلم تاني، سلام يا حبيبتني.

كانت على وشك الترحيب بخطيبتها الذي هب واقفاً ليسألها بخشونة:

-ممكن أفهم في إيه؟

أطرقت رأسها معتذرة كطفلة صغيرة أخطأ. التصرف:

-أنا أسفة.

رد متسائلاً بوجه جاد للغاية في تعبيراته:

-ده على إيه بالضبط؟

رفعت عينها لتتطلع إلى في ندم آسف، لكن ما لبث أن تحولت نظراتها للخوف وتعايرها للقلق

حينما رأت ما حل بوجهه، جزع قلبها وهتفت تسأله في لوعة وتلهف:

-إنت مال وشك، حصلك إيه..

ضغط على شفثيه رافضاً الإجابة عليها، انخفضت عيناها لتنظر إلى كفه الملفوف بشاشٍ طبي،

وضعت يدها على فمها تكتم شهقتها المذعورة، نظرت له مرددة بارتعاب:

-الله وإيدك كمان؟ طمني عليك يا حبيبي إنت كويس؟

-أيوه

-طب ده من إيه؟!!

تجاهل الإجابة عن أسئلتها ليرد بضيق:

-مش موضوعنا، احكي لي اللي حصل

أدركت "خلود" تفاهم المشكلة التي تسببت فيها دون داعٍ من خشونته معها، أطرقت رأسها من

جديد في حرج، واستطرقت بركة ظاهرة في نبرتها:

-ده.. كان سوء تفاهم.. وخلص اتحل..

شعر "تميم" بالارتياح يتخلله بعد أن فطن لنجاح خطة والدته في خداعها، لم يجذب استخدام تلك الطريقة معها، فهي مناقضة لطبيعته، لكنها كانت الأمل لتلافي تطور المشكلة، ومع ذلك حافظ على رسمية ملامحه متسائلاً ل يبدو أكثر إقناعاً:

-قصدك على توكة "هاجر"؟

أومات برأسها إيجاباً بدلاً من الرد عليه، ثم أضافت:

-أنا افتكرت إنها ...

لم يجذب "تميم" التطرق أكثر في تلك المسألة السخيفة وإعطائها أكبر من حجمها، لذا قال بحسم ومنهياً الخلاف بينهما:

- "خلود"، أنا يوم ما أحب أعمل حاجة هاعملها في النور، مش أنا اللي أوعد واحدة بالجواز، وأمشي مع واحدة تانية!

ظهر الندم في عينيها جلياً خاصة حينما استفاض موضحاً:

-ولو مكوتنش عاوزك يا بنت الحلال مكوتنش كملت معاكي حتى لو مين أجبرني على ده، بس إتني برضوه مش قادرة تفهميني..

كلمات كالسياط هبطت عليها فأوجعتها بشدة، أحست بغصة مريرة تؤلم حلقها وهي تبرر له تصرفها:
-قدر موقفي يا "تميم" ..

غص صدرها بالبكاء مستعيدة ذلك المشهد في رأسها، أعادت وصفه قائلة:

-أنا.. لاقيت خالتي بتحكى عن حاجات واحدة تانية، وكأنها مني، وأنا معرفش عنها حاجة، تفتكر إيه اللي هايحي في بالي؟

رد عليها يسألها بما يشبه العتاب:

-طالما مش واثقة فيا، يبقى إزاي هنتجوز يا بنت الناس؟

اختنق نبرتها أكثر وتحولت للبكاء، كما تجمعت العبرات في عينيها بكثافة وشكلت سحابة ضبابية حينما همست بما يشبه الاستجداء:

- "تميم" أنا بأحبك! مقدرش أتصور إنك بتفكر في غيري، أو حتى أقدر أعيش من غيرك ..

أوجعته صراحتها الصادقة، هي تعشقه حتى النخاع، متمية به بجنون، لا ترى في حياتها سواه، ولا يوجد حدًا لعواطفها الجياشة نحوه، بينما مشاعره ناحيتها عادية لن تصل مطلقًا للهيام، لكن القليل من الاهتمام يرضيها، حدق فيها بشروءٍ حائر، فماذا إن استحالَت الحياة بينهما بعد الزواج؟ استغلت صمته لتضغط عليه ورجته بنبرتها المستعطفة وعينيها الدامعة:

-حقك عليا، عشان خاطري سامحني، أنا عرفت غلطي.

ظلت تعابيره جامدة وهو يتطلع إليها، ثم استطرد ينصحها:

-عمومًا ابقِي حكيم عقلك يا "خلود" قبل ما تحكي عليا، ده لو عاوزة عيشتنا تمشي سوا!

ازدردت ريقها وهزت رأسها بإيماءات متكررة مؤكدة له:

-حاضر، مش هايجصل ثاني

أكنفى بحركة بسيطة من رأسه وقال بعدها بجديّة:

-أنا ماشي

انفضت من رجليه المفاجئ فهتفت مصدومة:

-إيه ده؟ مش هاتقعد معايا شوية؟

حرك رأسه نافيًا، اعترضت طريقه قائلة بإصرارٍ حينما همّ بالرحيل:

طب استنى أعملك حاجة سخنة تشربها

زفير مرهق خرج من جوفه قبل أن يعتذر:

-مرة ثانية يا "خلود"، تعبان من الصبح، وإنتي شايفة شكلي عامل إزاي، ده غير إن لسه عندي

شغل أد كده عاوز أخلصه.

قالت في رقة وقد استعادت حيويتها:

-ربنا يقويك يا حبيبي، لسه زعلان مني؟

تقوست شفثاه لتظهر ابتسامه صغيرة وهو يرد:

-لأ

تضرح وجهها بجمرة باهته وقد تدللت لتقول له في نعومة:

-هتوحشني لحد ما أشوفك تاني، خد بالك من نفسك.

اكتسب صوته إيقاعًا هادئًا وهو يرد:

-إن شاء الله، عاوزة حاجة مني؟

-لأ يا حبيبي

قالتها بنعومة أكبر قبل أن تصحبه نحو باب المنزل، لوحت بيدها تودعه، وانتظرت للحظات حتى

هبط الدرجات، أغلقت الباب بهدوء، ثم استدارت بجسدها وعلى وجهها ابتسامه بشوشة، سريعًا

ما اختفت وحل الانزعاج كبديل عنها وقد بدأت والدتها في تعنيفها، فقالت لها:

-أنا مش عارفة إنتي مدلوقة عليه كده ليه؟

ردت بعبوس:

عشان بأحبه

نظرت لها شزرًا وهي تكمل:

-يا بت اجدي كده واتقلي عليه بدل ما يبيع ويشترى فيكي،!

اتخذت الصمت سبيلًا أمام كلامها الذي لا تعتد به حينما يخص حبيب قلبها، سارت في اتجاه غرفتها

ووالدتها تتبعها مكلمة تحذيراتها الجادة:

-اللي زي "تميم" ده نمرو، مش هايقدر اللي بتعمله عشانه، بكرة يتفرعن عليكي

التفتت ترد بعناد:

-برضوه هاجبه، القلب وما يريد يامه، وأنا مش عاوزة إلا هو!

علقت عليها في استنكار:

-بكرة يوريكي النجوم في عز الضهر.

-مش ها يحصل

-خلاص اسمعي كلامي وإنتي تكسبي

عضت على شفها السفلى وتطلعت إلى والدتها بنظرات ساهمة، ثم عقبته عليها:

-أنا عاوزة أسمع كلامه هو ويس

حدجتها "بثينة" بنظرة نارية حادة مستاءة من سداجتها، ثم وبختها بانفعالٍ ظهر في صوتها وتعبيراتها:

-خاوية زي اللي خلفتك، بكرة تجيلي تعيطي، وساعتها هتعر في إن الله هحق!

أقلت حديثها وراء ظهرها واكتفت بالسعادة التي احتلت روحها بعد تصالحها مع "تميم"، لم يتبقى سوى القليل لتكون في عصمته، بضعة أيام وتصبح حرمة المصون، لكنها لم تكن تعلم أن بداية معاناتها الحقيقية ستبدأ بمجرد أن يصيرا زوجين.

.....

لاحقًا، وبعد بضعة أيام .. سدد نظرة عميقة متأملة لهيئته التي بدت غير مألوفة بالنسبة له في انعكاس وجهه بالمرآة بعد أن ارتدى بدلة عرسه، عدل من وضعية البايون الذي يمزج بين اللونين الأبيض والأسود ليصبح في المنتصف، شعر بالغرابة والتوتر، وبالرغم من كونه على دراية بميعاد زواجه إلا أن حدوثه فعليًا كان مدعاة للقلق، لا يعرف كيف مرت الأيام سريعًا ليصل لليلة المنشودة، علل ذلك بكونه مشغولًا للأغلب الوقت فالتهمى عن التفكير في تبعات الزواج.. زفرة طويلة بطيئة خرجت من صدره مستديرًا نحو المصنف ليكمل باقي عمله، ظهر "تميم" وسيما نوعًا ما بعد نجاح الأخير في العناية به وإظهاره بشكلٍ يليق بتلك الليلة المميزة؛ فخلق ذقنه النابتة، ورطب بشرته المتيبسة ببعض الكريمات المرطبة فأكسبها اللين، كذلك هذب خصلات شعره المتناثرة بأحد

مستحضرات العناية بالشعر ليظل ثابتًا لأطول فترة ممكنة.. تساءل الأخير بابتسامة عملية قاصدًا مدح زبونه السخي:

-تمام كده يا ريس؟

هز "تميم" رأسه في استحسان، وأجابه:

-زي الفل.

نثر المصفف مادة لامعة على طرفي ياقة بدلته السوداء كنوع من منحة لمسة إضافية مختلفة ل يبدو أكثر أناقة عن ذي قبل مع إفراطه في استخدام العطر الخاص ليزم أنف عروسه برائحته الطيبة، أشار له "تميم" بيده ليتوقف فامتثل له، ثم دس يده في جيب بنطاله القماشي وأخرج منه حفنة من النقود وطواها في راحته، مد بها كفه نحوه يشكره:

-تعبتك معايا.

رد المصفف مهلاً بعد أن لمح المبلغ الكبير الذي أعطاه له:

-يا باشا ده إنت تؤمر.

ثم أفسح له المجال ليمر ويخرج من صالون الحلاقة حيث ينتظره "محرز" بجوار سيارة العائلة السوداء ذات الطراز القديم نسيًا -بالرغم من كونها ماركة مرسيدس- والتي تستخدم في تنقلات أفراد الأسرة، ألقى عليه نظرة إعجاب يمتدحه بها وهو يصبح عاليًا:

-مبروك يا عريس.

اقترب منه "تميم" ليصافحه وعينيه تجوب على شرائط الزينة البيضاء التي تغطي جانبًا لا بأس به من زجاج السيارة الأمامي، لكن "محرز" جذبته من كفه نحوه ليحتضنه وربت على ظهره بخشونة، ثم مازحه بسخافة عكست تلميحًا خارجيًا:

-عاوزينك ترفع راسنا النهاردة، ولا تحب أقولك تعمل إيه؟

رمقه "تميم" بنظرة قائمة لا تقبل الهزل في مثل تلك الأمور الخاصة جدًا، وإن كانت على سبيل الدعابة والمزاح، لذا أخرجته قائلاً:

- ما يخصكش.

تجاوز "محرز" عن رده الجاف ليقول بابتسامته اللزجة:

- طول عمرك جامد يا "تميم"

رد عليه بانزعاج:

- أنت هتؤر عليا ولا إيه؟

افتعل الضحك معلقًا عليه:

- على رأيك، ما يحسد المال إلا أصحابه، وانت مال وحسب ونسب وهيبة و...

قاطعته منهيًا الحوار:

- ارحمني، أنا مش ناقص

قال ببرودٍ سمج:

- ماشي يا عريس، كلنا كنا زيك كده، وكله بيعدي في الآخر

حاول "تميم" أن يتمالك أعصابه حتى لا تنفلت، اتجه إلى السيارة ليجلس كعادته في الأمام لكن

استوقفه "محرز" صائحًا:

- عندك يا عريس، ده أنا اللي هاوصلك بنفسي

أشار بيده معترضًا:

- البيت هنا، مش حكاية هي!

حاول احتلال المقعد الأمامي ليقول بضحكة مصطنعة:

- والله ما يحصل، ده أنا نادرها.

غمغم "تميم" مع نفسه مرددًا في تأفف ممتعض وهو يطالعه بنظراته المزعوجة:

- ربنا يخلصني من الشبكة السوداء دي على خير، هو أنا كنت ناقصه.

تصفيقات مصحوبة بالزغاريد العالية والضحكات المرتفعة الخليعة تخللت تلك الجلسة النسائية البحتة في غرفة نوم العروس بمنزل عائلتها كتعبير عن فرحة قريباتها وصديقاتها بتزويجها، بضعة نصائح هامسة عن أسرار السعادة الزوجية تناقلتها الألسن لتشجع تلك الفتاة الخجول على التعامل بجرأة ممزوجة بالحب والدلال مع زوجها حتى تضمن بقائه أسيراً لرحيق عشقها، تلون وجهها بألوان الحياء وأشاحت بصرها بعيداً في خجل أكبر مع كل تلميح ذو دلالة، عجزت عن الرد أمام جراتهن الوقحة، وطلبت منهن التوقف، لكنهن أبين الإصغاء واستمتعن فيما يفعلن .. وضعت خبيرة التجميل ذائعة الصيت اللمسة الأخيرة على وجهها بعد أن أصرت الأخيرة على تجميلها في المنزل، أتقنت الأولى تضخيم شفتي العروس بأحمر الشفاه لتبدو جذابة ولافتة، كذلك استخدمت فرشاتها لتضيف القليل من الحمرة على وجنتيها فتخفي ذلك الشحوب والإرهاق فتظهر فاتنة، خاطفة للقلوب.

اشتعلت الأجواء حماساً مع قيام أحدهن بالرقص والتمايل بميوعة واحترافية وكأنها ولدت هكذا، صفت المتواجديات لها بحماس لتزيد في رقصها، ثم جذبت أخرى لتشاركها تلك الوصلة المرحية، انتهت "خلود" وسط ذلك الصخب الدائر لأصوات أبواق السيارات، قفز قلبها بين ضلوعها رهبة وسعادة، استدارت تبحث بعينها عن والدتها بين الجالسات، ثم أشارت لها بنظراتها لتأتي إليها، مالت "بثينة" ناحيتها فاشرأت ابنتها بعنقها تسألها في تلهف وصدورها يعلو ويهبط بشكل ملحوظ

-هو "تميم" جه يا ماما؟

أجابتها مبتسمة:

-واقف تحت يا حبيبي.

وضعت "خلود" يدها على صدرها النابض بقوة تتحسسها، أحست بريكة عظيمة تجتاح كيانها، برقت عينها وتصلب جسدها حيناً أردفت أمها تسألها:

ها أشاوره يطلع؟

ردت على الفور:

أيوه...

لكن ما لبث أن سيطر عليها التردد الخائف فتراجعت قائلة:
-ولا أقولك استني.

نظرت لها "بثينة" في استغراب، في حين أقلت "خلود" نظرة مدققة على هيئتها المختلفة في ثوب العروس تتأمل كل تفصيلة فيها، بدءًا بوجهها ومساحيق التجميل التي تغطيه، ومرورًا على حجابها الأبيض الذي يزين رأسها، وانتهاءً بثوبها البراق المرصع بالقطع الكبيرة اللامعة عند صدره فقط لينسدل على جسدها بانتفاخ ملحوظ بسبب طبقات القماش المترامية فوق بعضها البعض، شعرت بالرضا عن حالها، ومع ذلك سألت والدتها لتمنحها ثقة أكبر:

-ها كده شكلي حلو؟

طمأنتها والدتها بتفاخر وزهو:

-زي البدر في تمامه.

عادت لتتساءل بارتباك وقد زاغت أنظارها:

-تفتكري ها عجبه ولا...؟

وضعت "بثينة" قبضتها على كتفي ابنتها، شددت من ضغطها عليها وهي تقول لها بجدية بعد أن اكتسب وجهها تلك اللمحة الصارمة:

-خليكي واثقة في نفسك، إنتي زي القمر، هو كان يطول يتجوز واحدة زيك أصلاً؟

أطرقت رأسها وهي تصغي لباقي حديث والدتها الجاف:

-ده إنتي ضيعتي مستقبلك عشانه! يعني المفروض يحمد ربنا..

حملت "خلود" بنظرة مستنكرة مندهشة وقد باحت والدتها علناً وعن قصد:

-وفي الآخر هيتقال تجوزت واحد سوابق وخرىچ اللومان! فخليني ساكتة أحسن!

عاجلتها ابنتها قائلة باستهجان حتى لا تتماهى معها:

-بلاش يا ماما تنكدي عليا في اليوم ده!

ردت بوجه امتلاء بالوجوم:

إنتي اللي بتخليني أتكلم، وأنا مش ناقصة أصلاً.

قالت لها معذرة:

أنا غلطانة، حقك عليا، ممكن يامه مافتحش السيرة دي تاني

أومات برأسها مرددة على مضض:

طيب

تضرعت "خلود" في نفسها وقد بدأت الهواجس تطاردها بعد ذلك الانزعاج الرافض الذي لامسته في حديث والدتها:

يا رب عدي اليوم على خير، أنا مش مصدقة فعلاً إني هاتجوزه!

.....

انتفضت، وتوترت، وارتعشت كل أطرافها مع سماعها لصوته الذي تعشقه يصدح خرج غرفتها، تجمدت في مكانها مستشعرة تلك الرجفة اللذيذة الفرحة التي أصابت حواسها، حاولت أن تضبط إيقاع قلبها السريع لكنها فشلت، فكل ذرة فيها تتمناه وتريده بالأمس قبل اليوم، خلت الضوضاء المحيطة بها إلا من نبرته المميزة، أسرتهما فبدت كالمسحورة وهي تحت تأثيرها القوي، جذبتها والدتها من ذراعها برفق لتحثها على الخروج من غرفتها وهي تصيح عاليًا:

حلي على عريسك يا عروسة، ماتسمعوننا زغرودة يا حبايب!

انطلقت الزغاريد من الخلف وقد خطت "خلود" في الردهة لتتقدم نحو الصالة حيث يتواجد "تميم"، نظرة خاطفة اقتنصتها نحو وجهه لتجده محققًا بها بنظرات مطولة، سؤسعاً أخفضت عينيها ولم تجرؤ على النظر إليه مجددًا من فرط خجلها المختلط بحماسها؛ إنها ليلة زفافها الحالمة. توقفت عن السير حينما أصبحت قبالتها، رفعت عينيها لتطالعه بنظراتها الهائمة الناعسة، بادلتها نظرات لطيفة تعكس إعجابها بها، تنحنح في خفوت قبل أن يهينها:

مبروك.

ردت بنجلٍ كبيرٍ وهي تتحاشى النظر إليه:
-الله يبارك فيك.

وقف إلى جوارها حتى تتأبط ذراعه، شعر برجفتها وهي تستند عليه، ابتسم في هدوءٍ ولاذ بالصمت مكتفياً بالإيماء برأسه وهو يتلقى التهنئات من حوله. توترت "خلود" من سكوته فاعتقدت في وجود خطب ما ربما لم يعجبه يخلص ثوبها أو زينتها، لذا استدرجته في الحديث تسأله قبل أن يتجها لخارج المنزل:

-مقولتيلش الفستان عجبك؟

رد باقتضابٍ وقد كان وجهه غير مقروء التعبيرات:
-أه حلو.

تلك التعابير الغامضة أزعجتها، فعبرت عما تشعر به قائلة:

-حسك مش مبسوط يا "تميم"

التفت ناحيتها يجيبها:

-مين قال كده؟

-مش باين عليك!

قال وهو يصطنع الابتسام ليخفي عدم ارتياحه:

-أنا بس ما بأعرفش اتكلم قصاد حد.

بدت غير راضية عن رده الأخير فأوجزت معه وقالت:

طيب.

حاول ألا يفسد الأجواء بينهما فبادر يمدحها:

-بس إنتي طالعة حلوة أوي، متوقعتش كده!

وكانه أعاد لها بهجة الحياة وسرورها فأشرقت تعبيراتها لتستفيض موضحة له:
حبيبي، تعرف أنا مردتش أخلي الكوافيرة تحطلي حاجات أوفر، يعني كل اللي إنت شايفة طبيعي
هز رأسه في استحسان وهو يعقب عليها:
-كده كويس

همست له بسمتها الناعمة:

-أنا حاسة إني بأحلم، ياه .. أخيراً اليوم ده جه ..
-الحمد لله.

-حد دلوقتي مش مصدقة!

نظر لها متأملاً فرحتها الجليلة عليها، بينما تابعت معبرة بتلقائية عن مشاعرها الجياشة:
-تعرف، أنا قلبي بيدق جامد، حاسة إني في حلم جميل مش عاوزة أفوق منه أبداً!
حذرها بلطافة وابتسامة بسيطة تزين شفاهه، ولكن اكتسب وجهه تعبيراً جاداً:
-لا اهدي شوية، الليلة لسه في أولها.

أسبلت عينيها نحوه وأردفت قائلة بتنهيدة عميقة غير عابئة بمن حولها:
-أنا بأحبك أوي يا "تميم".

ضاقت نظراته قائلاً بجدية:

-ماينفعش الكلام ده كده قصاد الناس يا "خلود"...

قاطعته بشغف بائن في مقلتيها:

-مش فارق معايا أي حد، إنت وبس اللي تهمني!

هز رأسه بطريقة آلية مجاملاً:

حبيبتى، ربنا يخليكي ليا.

-ومايجرمنيش منك يا عمري كله.

شدد "تميم" من ضمه لذراعها ليسحبها بتؤدة نحو (بسطة) السلم حتى لا تتعثر في ثوبها الثقيل، كفت "خلود" عن حديثها الهامس معه رغمًا عنها إلى أن تختلي به، حينها فقط ستستفيض في إظهار مشاعرها المدفونة، ومع ذلك نطقت نظراتها بما عجز اللسان عن البوح به. توقفت كلاهما عند أعتاب باب المنزل تمهيدًا لصعود قائد الزفة الشعبية التي أنت قبل قليل، بدأ بتحية العروسين والمباركة لهما كتمهيد متبع قبل أن يبدأ فقراته الغنائية، دس "تميم" يده في جيب بنطال بدلتته وأعطاه نفحة إضافية من النقود ليتحمس الرجل كثيرًا، استدار بجسده للخلف ليشير بذراعه لأفراد فرقته بيده فصاح صوت المزمار عاليًا وجلجل بقوة وهز جدران المنزل .. انتفضت أجساد الحاضرون في طرب على دق الطبول المختلفة في أحجامها، وبدأوا في التصفيق بحرارة، كما انطلقت الزغاريد من حول العروسين فضاعفت من تحفيز المتواجدين للمشاركة، وما هي إلا لحظات واندمجوا جميعًا مع ذلك الإيقاع الراقص المصحوب بأصوات المزامير العالية لتلك الزفة الشعبية التي احتلت المدخل والطوابق الأولى للاحتفال بالعروسين على الطريقة التقليدية السائدة من خلال ترديد الأغاني الشهيرة الخاصة بالأفراح لتزداد الأجواء بهجةً وحماسة !!

.....

الفصل التاسع

تأثقت ككتاهما بثيابٍ أنيقة شبة رسمية مع احتفاظها بالذوق الشبابي لكنها ليست كأثواب الأفراح، فهناك عمل ينتظرهما عند الكورنيش، حيث تتواجد عربة الطعام والتي وضعت هناك قبل وقت سابق، وبمجرد إنهاء تلك الزيارة غير الضرورية ستتوجهان إليها، ذهابهما فقط جاء بناءً على رغبة والدتهما. وقفت "همسة" أمام توأمتها تعقد لها أنشودة بلوزتها النبيذية اللون والمصنوعة من قماش الستان التي ارتدتها أسفل الجاكيت الثقيل، تأكدت من إحكامها حتى لا تنحل عقدها، في حين تدمرت "فيروزة" من ذهابها لذلك العرس قائلة:

-مش فاهمة لازمتها إيه نروح؟ عندنا شغل والنهاردة الويك إند، ده غير إن في حاجات كتير لازم تتعمل.

تهدت مبررة ذهاب ثلاثهن:

-ما إنتي عارفة ماما محكمة رأيها، بتقولك جيرانها وعشرة زمان و...

توقفت للحظة عن متابعة جملتها لتقلد نبرتها، ثم استطردت قائلة محاكية إياها في حركة جسدها وإشارات حاجبها:

-لازمًا وحمًا نعمل الواجب، إنتو عاوزين الناس تأكل وشي؟

ضحكة صغيرة ارتسمت على شفتي "فيروزة" من طرفة أختها.. التفتت الاثنتان نحو والدتهما حينما صاحت من الخارج:

-أنا جهزت خلاص يا بنات، إنتو خلصتوا؟

-أيوه يا ماما

قالتها "همسة" أولاً وهي تتحرك إلى الخارج بعد أن نفضت شعرها خلف ظهرها لينسدل عليه كنوع من تغيير مظهرها، في حين عقصته "فيروزة" كعكة وزينته بمنديل رأس قرمزي اللون غير ذاك الذي فقدته لكنه يحمل ذات النقوش مما منحها رونقًا آخاذًا، تبعتهما في هدوء.. أدارت "آمنة" رأسها نحو ابنتيها تسألها:

- قتلوا الشبابيك كويس؟ ومحبس الغاز فصلتوه و....

قاطعتها "همسة" مؤكدة:

- عملنا كل حاجة يا ماما، متقلقيش

ردت مبتسمة:

- خير .. يالا بينا، توكلنا عليك يا رب

جلست "فيروزة" على المقعد المجاور لباب المنزل لترتدي حذاءها ذو الرقبة العالية، رفعت رأسها نحو

والدتها تسألها في فضولٍ وعيناها مرتكزتان عليها:

- هو خالي جاي؟

أجابت "آمنة" بوجه به مسحة ضيق:

- معرفش، ومسالتوش

عقت عليها بنظرات متممة:

- يا رب ما يجي، مش ناقصين عكنة..

وما لبث أن انخفض صوتها وهي تكمل:

- وخصوصًا الحراية مراته!

ردت عليها "همسة" تؤيدها:

- معاكي في ده!

حدجتها "آمنة" بنظرات محذرة وهي تعاتبها:

- عيب يا بنات، ما يصحش تتكلموا عنها وحش، مهما كان دي بردك مرات خالكم

انزعجت "فيروزة" من طبيعتها العفوية نحوها، فنعتتها قائلة بنبرة غاضبة:

- دي كتلة شر ماشية على الأرض!

ردت غير مبالية:

هي حرة، واحنا مالناش دعوة بيها، ربنا وحده قادر يهديها.
أطبقت على شفيتها غيظًا وحاولت ألا تنفعل حتى لا تعكر الأجواء بسبب تلك المرأة الحقود،
انتظرت حتى خرجت والدتها من البيت ومالت على أختها تهمس لها:
-أمك دي سهل أي حد يأكل بعقلها حلاوة، مصدقة إن الحرابية دي ملاك! دي شيطان اقسم
بالله.

ردت "همسة" بصوت خفيض:

-أنا مصدقاي، بس هنعمل إيه، خلينا بعيد عنها أحسن.
-وتفكرتي هي هتسينا في حالنا؟ ماتبقاش العقربة "حمدية"!
توقفت ككتاهما عن الهمس حينما صاحت والدتها متسائلة:
-بترغوا في إيه يا بنات؟ هنتأخر.

ردت عليها "همسة" بارتباكٍ طفيف:

-ولا حاجة يا ماما، احنا نازلين وراكي أهوو.

تأكدت "فيروزة" من غلق باب المنزل بالمتاح وخطت نحو الدرج ونظراتها تتجول على الطابق
العلوي، حدسها ينبئها أن تلك الأفعى تحيك أمرًا في الخفاء، فكما عاهدتها هي ليست من أولئك
الذين يتنازلون بسهولة عن الانتقام، ولكونها قد فازت عليها بالجولة الأولى في معركتها معها، لذا لن
تتوانى "حمدية" عن الرد وبقسوة، تنهدت محدثة نفسها بنبرة عازمة:

-هتلاقيني وقفالك بالمرصاد!

.....

اقتطع جزء من الشارع الرئيسي- ليقيم فيه العرس الكبير، وتولى أحد محال (الفراشة) تجهيز المكان
ليصلح لتلك المناسبة في مثل ذلك الطقس البارد، حيث وُضعت السجاجيد بالطرقات ورُصت

فوقها المقاعد الخشبية وبعض الطاومات الدائرية، وأقيم عند المقدمة مسرحًا صغيرًا لتجلس عليه الفرقة الموسيقية التي ستشددوا بالأغاني الطربية والشعبية، كما تم تجهيز (كوشة) لافتة للأنظار مُزدانة بالإشارات البراقة عند أقصى يمين المسرح، ولم يغفل منظمو الحفل عن الاستعانة بمختصين في خدمة الضيوف وتوزيع الطعام والمشروبات عليهم.

ومع حلول المساء بدأ المدعوون في الحضور واتخاذ مقاعدهم في الصفوف الأولى إلى أن امتلأ المكان تقريبًا، والموسيقى الصاخبة تشدو حولهم .. بعد برهة ارتفعت أصوات الزغاريد والتهليلات الذكورية كإعلان عن اعتلاء العروسين للكوشة واستقرارهما به، وبجركة مجاملة لوح "تميم" بيده لضيوفه يشكرهم على حضورهم، بينما وزعت "خلود" ابتسامات سعيدة مشرقة على من تعرفهم، لا تصدق أنها اليوم ترتدي ثوب عرسها وستتزين إلى فارس أحلامها الوحيد، بدأت الفقرات الغنائية، والكل يتسابق في إظهار فرحته، بدا وكأن كل شيء يسير على ما يرام إلى أن ظهر "محرز" ومعه ضيف غير مرحب به، هنا تبدلت ملامح "تميم" للوجوم، كان كمن أُجبر على ابتلاع شيئًا يمقته بشدة، تقدم الأول نحوه وابتسامته اللزجة تعلو محياه مهلاً وكأنه أحرز انتصارًا لا مثيل له:

-إيه رأيك في المفاجأة دي؟

رمقه بنظرة عبرت عن انزعاجه -بالإضافة لرفضه- لتصرفه غير المقبول تحت أي ظرف، كانت قسامات وجهه تنطق عنه، بذل الكثير من الجهد ليسيّط على انفعالاته وهدوئه بالرغم من عروقه المشدودة ونظراته القاتلة، خاصة وأن "سراج" الذي أتى بصحبة "محرز" كان يبدو متحفزًا، مستعدًا لافتعال أي مشاجرة، أخرجته من تحديقه الناري به صوت الحاج "لظفي" القائل:

-السلامو عليكم يا حاج "بدير".

تحولت نظراته نحو والده الذي جاء ليرحب بالضيوف، بادله التحية وهو يصافحه بجرارة:

-وعليكم السلام، إزيك يا حاج "لظفي"؟

أجابه بسمه هادئة:

-في نعمة والمحمد لله.

رد مجاملًا بوذ زائد:

-شرفتنا النهاردة، المكان نور.

قال له بنبرة عميقة:

-بأصحابه يا حاج.

تقدم "محرز" خطوتين للأمام وهو يتصنع الضحك ليقف في المنتصف بينهما، ثم أضاف بعدها، وكأنه يفرض نفسه على المتواجدين:

-أنا قولت ماينفعش في الليلة الحلوة دي النفوس تكون شايلة من بعض، وإلا إيه معلم "سراج"؟

تنحج الأخير معقبًا بخشونة وبوجه مقلوب:

-مضبوط.

احتدت نظرات "تميم" بشدة، كانت كراهيته لـ "سراج" قد بلغت متنهاها، لكن الظرف لا يسمح لإتخاذ أي قرارٍ طارئٍ.. مد الحاج "لطفي" يده لمصافحة العريس الذي نهض لاستقباله يهنئه:

-مبروك يا "تميم"، بالرفاء والبنين إن شاء الله.

حاول أن يضبط إيقاع نبرته وهو يريد مبادلاً إياه المصافحة، لكن نظراته اتجهت ناحية غريمه:

-الله يبارك فيك يا حاج.

استطرد الحاج "لطفي" ممهّداً بأسلوبه الجاد الذي يمزج بين الوقار والاحترام:

-أحنا كلنا أخوات، ومش عاوزين المشاكل ترجع تفرق بيننا، مصالحنا كلنا واحدة، ولا إيه؟

رد عليه "تميم" بضيقٍ بائنٍ وعيناه لا تحيدان عن "سراج":

-كلامك على عيني وراسي، بس ...

تدخل "محرز" في الحوار مقاطعاً بسماجة ثقيلة:

-خلاص بقي يا "تميم"، ده الرجالة جاين لحد عندك، هاتكسفهم ولا إيه؟

رمقه بنظرة ضيقة تعبر عن رفضه القاطع لفرض الأمور عليه هكذا، علق والده ليقول بدبلوماسية
محنكة راجعة لسنوات خبرته الطويلة حتى ينهي ذلك النزاع:

جيتكم فوق دماغنا، وأكيد كلنا بنسعى للخير، بس لا ده وقته ولا ده مكانه، وبعدين مايصحش
الحاج "سلطان" يبقى موجود ومحدث يسلم عليه، ولا إيه؟
هتف "محرز" قائلاً وصحكته السمجة تلازمه:

- ده أبونا كلنا قبل ما يكون كبير السوق كله، بينا يا رجالة تاخدوا واجبكم هناك.

تطلع إليه "تميم" بنظرات مطولة مغتظة، فقد استفزته طريقته المهترئة لإظهار أنه صاحب القول
الأخير، إنه ينتمي لذلك النوع من البشر - الذي يحاول تسلق الآخرين ليظهر وجوده، تحامل على
نفسه كي يتغاضى عن الأمر ويتجاوزته، احتراماً فقط لرجاء والده الذي ظهر من خلال نظراته
وإيماءات وجهه فاعتبرها إشارة ضمنية لإنهاء الجدل، ولولا ذلك لفعل ما يستوجب لإيقاف كل
شخص عند حده، خاصة السمج "محرز".

.....

مررت "فيروزة" عينيها على المكان باحثة بتعني ودقة عن مقاعد شاغرة لتجلس عليها مع أختها
ووالدتها بعد أن ازدحم المكان بمئات البشر -، وقعت نظراتها على تلك المقاعد الموجودة بالزاوية
المنزوية والتي تبدو إلى حد ما مترامية الأطراف عن الصخب الدائر، اعتقدت أنها بقعة جيدة
للجلوس فيها لتكون ثلاثتهن بُعاد عن الزحام والأعين الفضولية المتلصصة، أشارت لهما لتتبعاهما،
وبتأنٍ وتؤدة اجتزن أجساد البشر - المتمايلة ليصلن إلى وجهتهن، وقبل أن تجلس "آمنة" انحنى على
ابنتيها تخبرهما:

- هاروح أسلم على الحاجة "ونيسة" والجماعة قدام ورجعواكم!

هزت "همسة" رأسها ترد عليها:

- خدي راحتك يا ماما.

ابتعدت عنها لتتجه صوب الطاولات الأمامية حتى تلقي التحية على أهل العريس، في حين حركت "فيروزة" جسدها نحو أختها لتبدو قريبة منها وهي تتحدث إليها .. كانت الرؤية محجوبة عنها لينظرا إلى العروسين بسبب تكتل الأجساد أمامهما، تساءلت بفضولٍ وهي ترى مظاهر الثراء والبذخ من خلال الإعلان عن أسماء مانحي (النقوط) عبر الميكروفون:

-الصرف باين يا أختي

ردت عليها "همسة" مبتسمة:

-كلها مجاملات، الفرحة النهاردة عندي، بكرة عندك، والفلوس رايحة جاية بينهم.

تحسي إنها تجارة مش جوازة!

-أكيد

-بس يا ترى النوع ده من الجوازات بيستمر؟!

-الله أعلم

خف الزحام قليلاً فأصبحت الرؤية متاحة، اشرأبت "فيروزة" بعنقها لتتطلع إلى وجه العريس، تعقد حاجباها بشكلٍ ملحوظ، لم تكن ملاحظه بالغريبة عليها، خُيل إليها أنها رأته من قبل، لكنها لا تذكر أين ومتى، تابعت قائلة ونظراتها مرتكزة على وجهه:

-حاسة إن العريس وشه مش غريب عليا، زي ما يكون شوفته قبل كده أو اتكلمت معاه!

ما لبثت أن تحولت عينها نحو العروس لتضيف:

-والعروسة كمان، برضوه مش غريبة.

لم تكن زاوية الرؤية واضحة من جهة "همسة"، فقالت غير مبالية وهي تحيد بنظراتها عنها لتتطلع إلى عموم المدعوين:

طبعي يكونوا معروفين، ما إحنا كلنا عايشين في منطقة واحدة وبنقابل مع أغلب الناس كل يوم حتى لو مش بنتكلم.

عادت "فيروزة" لتسألها بابتسامة سطحية فاترة:

-بس إيه رأيك في الفستان؟

أجابت بتلقائية:

-حلو وبسيط، وحتى الميك آب بتاعها رقيق وهادي.

وافقتها الرأي قائلة:

-على رأيك.. أول مرة نلاقي عروسة مش حاطة طن بوهية على وشها

علقت ساخرة:

-تتحسد والله، لازم تبخر نفسها.

-أنا هاعمل كده في فرحي، مش هاحط ميك آب أوفر.

-وأنا زيك يا "فيروزة".

استمرت كلماتها في ثرثرتها عما يحدث في الفرح، خاصة بعد أن أشعل أحد المطربين الشعبيين الحفل بأغانيه الصاخبة فهلل عليها الحاضرون ورددوا بسعادة ما يحفظونه من كلماتٍ عن ظهر قلب

..

.....

هب "حمص" واقفاً من مكانه، ثم صعد على المسرح ممسكاً بعصاه الخشبية ليرقص باحترافية مُزيّداً من حماس المتواجدين كنوع من مجاملة سيده الجديد الذي كان قريباً معه مؤخراً، شاركه رفيقه "شيكاجو" التمايل بالطريقة الذكورية المستعرضة في رقص المهرجانات ليعلو التصفيق أكثر، نجح كلاهما في لفت الأنظار بالصياح العالي:

-مبرووووك يا كبيرنا، عقبال البكاري يا ريس

نالا نظرات الرضا من "تميم" الذي أشار بعينه لأحد أتباعه ليهتم بهما بعد أن ينهيا حركاتهما الراقصة فابتهجا على الأخير.. في تلك الأثناء كان "هيثم" يجلس بهدوء لا يتفق مع شخصيته الهوجاء يميل

بين الحين والآخر بجسده نحو رفيقه "نوح" الجالس في المقعد الخشبي الملاصق له، لم يتواقفا عن الحديث الهامس وكان هناك خطب ما، حتى أنه لم يشارك في أي فقرة تضم الشباب المتحمس، بدت ملامحه جادة للغاية، ونظراته قلقة مُرتابة، حتى صوته كان أقرب للفحيح حينما همس يحث صديقه:

-عازك تراقبلي الجو كويس وتفتح عينيك

أوما "نوح" برأسه معلقًا عليه ودخان سيجارته المشتعلة يتطاير في الهواء:

-ماشي هاقفلك ناضورجي ...

ثم غمز له بطرف عينه يؤكد عليه بنبرة ذات مغزى حتى لا يغفل عنه لاحقًا:

-بس ماتنسائيش لما الدنيا تزهره معاك.

رد عليه بامتعاض:

-ماتقلقش، المهم تركز

عينيا

مرر "هيثم" نظراته على الأوجه لمرّة أخيرة، وخاصة على زوج خالته المشغول مع ضيوفه، قبل أن يتسلل خلسة منسحبًا من الحفل للقيام بما خطط له؛ فالفرصة مواتية للإقدام على السرقة دون أن تحوم الشكوك حوله اعتقادًا منه أنه يفعل ذلك ليأخذ حقه المسلوب والذي ضاع بمقتل والده في ذاك الحادث المشؤوم، حيث تُرك يتيمًا يعاني من مرارة البؤس، وألم الحرمان، والعوزة والشقاء.

.....

تصعب عرقًا غزيرًا باردًا وهو يدور بتوترٍ حول البناية ليضمن عدم اكتشاف أمره حينما يصعد للأعلى لينفذ سرقة، رفع عينيه للأعلى يجوب ببطءٍ على الشرفات، كانت أغلب النوافذ مغلقة، والإضاءة معتمّة، مما بعث القليل من الطمأنينة على نفسه المتوترة، سحب نفسًا عميقًا يثبط به الأدرينالين المتدفق بقوة في عروقه، كان كل شيء هادئًا ومشجعًا للقيام بالأمر، اتجه "هيثم" إلى مدخل البناية وهو يتلفت حوله، صعد الدرجات عدوًا لكنه تجمد في مكانه حينما سمع تلك

الخرفشات الخافتة، أحس بالدماء تهرب من عروقه، انزوى في بقعة معتمة ملصقًا جسده بالحائط، حبس أنفاسه مترقبًا وقد ظن أن أحدهم سيراه، عاد السكون ليغلف المكان فهذأت دقاته المتلاحقة كقرع الطبول، وبجذرٍ شديد تقدم خطوة للأمام رافعًا رأسه للأعلى، أحس بالهدوء يتسرب إلى صدره الناهج مع استمرار السكون، انخفضت عيناه تدور على نوافذ المنور الجانبية، نظر مليًا بتمعنٍ مسلطًا نظراته على شرفات المطبخ الصغيرة قليلة الاستخدام التي تطل على ذلك المنور تحديدًا، فتلك الموجودة بالطابق الأول ستسهل عليه المسألة كثيرًا لكونها الأقرب لوجهته، حيث ستساعده على الصعود للأعلى، ومن ثمّ الولوج للشقة من خلال دفع باب الشرفة بقليلٍ من الجهد فيصبح فعليًا بالداخل.

سار كل شيءٍ بسلاسة وفق خطته الجهنمية وكما رسم في عقله الشيطاني، تحرك بخفة ودقة على حافة الشرفة الخاصة بالطابق الأول، ثم شحذ كامل قواه ليدفع جسده للأعلى ممسكًا — (منشر-) الغسيل، تمايل جسده في الهواء ووجد صعوبة في الاحتفاظ بتوازنه، كادت أصابعه تنزلق لولا تلك الدفعة الأخيرة التي استنزف معها ما تبقى من قوته فمكنته من الصعود .. أصبح "هيثم" بداخل الشرفة الضيقة، كانت مزدحمة بالكرايب القديمة وأدوات الطهي غير المستخدمة، وضع يديه أمام عينيه ليحصل على قليلٍ من الظلمة حتى تتمكن نظراته من اختراق المكان بالتطلع عبر الزجاج المغبر بالأتربة وبواقٍ زيت الطهي، شعر بالانتشاء لكون المكان ساكنًا، تحرك في اتجاه الباب الجانبي، وبدفعة قوية نسبيًا من كتفه تمكن من فتح الباب الصدئ في مفاصله واقتحم المنزل.

رغبة عارمة بالسعادة المنتشية سيطرت على أوصاله، حلمه بالثراء السريع على وشك التحقق، خطا "هيثم" على أطراف أصابعه نحو الردهة، كان يحفظ المكان جيدًا، وبالتالي لم يشعر بالتخبط وهو يتجول في أرجاء المنزل الخالي من قاطنيه .. انتفض فزعًا واتسعت عيناه في ذعر حينما رن هاتفه فجأة، شعر بأن قلبه على وشك التوقف من فرط الارتعاد، التقط أنفاسه اللاهثة، ثم نظر إلى المتصل وسباب ناوي يتردد بين شفثيه، وضع الهاتف على أذنه بعد أن ضغط على زر الإيجاب هامسًا بنبرة تحولت للحنق:

-في إيه؟ في حاجة جدت؟

أجابه رفيقه ببرود:

-لأ!!

صاح به بغضبٍ رغم همسه:

-أومال بتتصل ليه دلوقت؟

رد عليه "نوح":

-بأطمئن عليك.

كز "هيثم" على أسنانه يوبخه:

-مش أنا قايلك ما تكلمينش إلا لو حاجة حصلت؟ هو إنت ما بتفهمش؟!

حذره الأخير:

-بلاش الغلط يا عمنا!

برر حنقه بعد أن تنفس بعمق ليكبح غضبه:

-ما هو مش وقته بصراحة.

استطاع أن يسمع زفيره قبل أن يعقب عليه:

-ماشى يا سيدنا، على العموم كله فى التمام..

قال موجزًا معه المكالمة:

طيب.. كويس، وخليك مركز.. سلام

ثم ردد بوجهه الممتنع وقد أنهى اتصاله معه:

هو أنا كنت ناقصك!

سحب شهيقًا عميقًا يهدئ به صدره المضطرب، لحظاتٍ واستعداد ثباته، ثم واصل سيره متجهًا إلى غرفة زوج خالته، فتحها ووطأ بقدميه داخلها مستخدمًا إضاءة هاتفه المحمول.. كانت عيناه تعرفان إلى أين تنظر تحديداً، ابتسامة زهو وانتصار تشكلت على ثغره وقد بات قاب قوسين أو أدنى من

الظفر بسرقتة، على الفور تحرك في اتجاه (الشوفيرة) ينظر لها بعينين تبران بقوة، مد يده ليفتح الدرج لكنه كان موصداً، غمغم بسبةً بذيئةً محدثاً نفسه بحسم:

-والعمل إيه دلوقتي؟ ما هو أنا مش هامشي من هنا إلا والفلوس معايا!

تلقت برأسه يبحث بالإضاءة الضعيفة للهاتف عما يمكن أن يستخدمه في فتح الدرج، سلط هاتفه على أرجاء الغرفة وهو يفكر في عجالة وبتوتر، فالثواني تشكل فارقاً كبيراً معه، لمح المقص الموضوع على التسريجة فاعتقد أنها وسيلة مناسبة، لذا التقطه واستدار عائداً إلى الشوفيرة، حاول بنصل المقص الحاد تحريك القفل، ونجح بعد عناءٍ عضلي في إزاحته من مكانه في ذلك، لهث هامساً بصدر ينهج:

-أخيراً..

قام "هيثم" بفتح الدرج، اتسعت نظراته في جوار عظيم وقد أبصر - رزم النقود المرصوفة بعناية بداخله، هلل رغم همسه:

-يا دين النبي، كل دي فلوس!

توهجت عيناه على الأخير واكتست بلمعانها الجهني، وعلى الفور -ودون تراجع أو ندم- سرق كل ما يحويه الدرج، ثم دسهم في جيوب سترته ومسح بكمه البصبات من على قفل الدرج والمقص، فإن فكر زوج خالته في اللجوء للشرطة لا يجد أفرادها من التحقيق الجنائي ما قد يدينه. ومثلما تسلل خلسة انسحب بخفة من المكان ومن حيث جاء مُعيداً كل شيء لطبيعته، لكن تلك المرة جيوبه ممتلئة بما ليس له.

.....

ضجرت "فيروزة" من إضاعة وقتها دون أدنى فائدة تعود عليها لمجرد الالتزام بما أسمته والدتها (واجب الجيرة) والجلوس للنهاية، أي حتى انتهاء مظاهر الاحتفال وانطفاء الأضواء، بل والبدء في جمع المقاعد، أرادت أن تنهض وتعود إلى عملها لتستفيد بالحركة الرائجة للأهالي في منطقة الكورنيش وما حولها من محال قبل أن يسرقهم الوقت ويقل الزحام، أرجأت مفاتحتها في الأمر لبضعة دقائق حتى تنتهي من حديثها مع إحدى المدعوات بالرغم من التوتر البادي على ملامحها، إلى أن لمحت

"حمدية" وخالها وأطفالها قادمون من على بعدٍ، هنا زادت تعابيرها انزعاجًا وظهرت تكشيرة صريحة عليها، رأت البغض جليًا في نظرات الأولى نحوها، حقدًا يكاد يكون مرئيًا للعيان، حتى وجهها عكس مقتها، بادلتها نظرات كارهة لها عاقدة العزم في نفسها أنها لن تجلس في مكان يجمعها بها، حتى لو فيه إزهاق روحها، هكذا حدثت نفسها، لذا أحنت رأسها نحو والدتها تقول لها بنبرة عازمة وهي تلملم أشياءها:

-بنتيألي كفاية كده، عاوزين نشوف اللي ورانا يا ماما.

زوت "آمنة" حاجبها محتجة في اندهاش متعجب:

-ده لسه بدري، الحاجة "ونيسة" قالتلي في عشا و....

قاطعتها بإصرارٍ متذمرٍ وقد تقلص وجهها:

-هو احنا ناقصين أكل يا ماما؟

طالعتها أمها باستغرابٍ، حاولت "فيروزة" أن تبدو هادئة فتصنعت الابتسام لتضيف ساخرة حتى لا تثير الريبة فيها:

-دي آخر حاجة تفكر فيها ولا إيه رأيك يا "همسة"؟

بدت "آمنة" غير راضية عن تصرفها فعاجلتها قائلة:

-بس يا "فيروزة" الناس هتزعل مني، وأنا محبش حد يشيل مني أو....

قاطعتها في تهكم:

صدقيني وجودنا مش هيفرق معاهم، هما ملبوخين بالبشر اللي مالي الفرح.

عفويًا أدارت والدتها عينيها في المكان وقد ظهر التردد عليها، في حين همت "همسة" بالنهوض وأيدت أختها في رغبتها قائلة بابتسامتها الرقيقة عليها تقتنع بالأسباب:

-خلاص يا ماما، برضوه عشان مانضيعيش وقتنا، والحاجة اللي معمولة ماتبوظش، وكمان ماتأخرش.

أضفت "فيروزة" مُمَازحة لتبدو مرحة معها:

-ودي ساعة رزق كمان!

علقت عليها والدتها بجدية:

-بقيتي بتتكلمي زي بتوع السوق!!

قالت لها مبتسمة وكأن ما تفعله وسام يزين صدرها:

-ما احنا بقينا منهم، والشغل مش عيب.

تحركت "آمنة" ببطءٍ وقد استسلمت أمام إلحاح ابنتها، لكنها اشترطت عليها بتهيئة مرهقة:

-أمري لله، بس هانروح نسلم على الجماعة قدام!

استاءت من ذلك الاهتمام الزائد بجيرانها الذين لا تعرف عنهم شيئاً، ضغطت على شفيتها متسائلة بتذمر:

-هو لازم يعني؟

ردت عليها بحسبٍ ونظراتها الجادة تملأ وجهها:

-اللي يعمل حاجة بيكملها للآخر، وبعدين ماضمنش الحاجة "ونيسة" ولا جوزها الحاج "بدير" يسألوا عليا، مش هاسيبهم يشغلوا بالهم بيا.

فقدت كل محاولاتها للتملص من تلك المجاملة المبالغ فيها والتي تعدها أقرب للنفاق عن أداء الواجب، حاولت "فيروزة" أن تبدو هادئة لتقلل من أمارات الاعتراض البائنة على خلجاتها، تلمست مندبيل رأسها بلزمة لا إرادية لتتأكد من وجوده في مكانه، ففخت أولاً، ثم تهدل كتفها في يأس لتقول لها بعدها في ضيقٍ عبر عن كون الفكرة غير مستساعة بالنسبة لها:

حاضر، اللي يريحك !!!

.....

الفصل العاشر

بخطوات عادية اخترقن الصفوف بين المدعويين ليصلن إلى مقدمة المسرح حيث يتواجد أهل العروسين ممن يتلقون التهنئة من المحبين لهم، بالطبع تقدمت الأم في خطواتها لتسبق ابنتها وكأنها تلمي نداء الوطن، وبكل ودٍ ومحبة صافية احتضنت "آمنة" جارتها القديمة "ونيسة" تُهنئها بابتسامتها الودودة قائلة لها:

-مبروك يا حاجة "ونيسة"، ربنا يتم بخير.

سألته الأخيرة بتلقائية وقد انعقد حاجباها بقوة ليظهر جدتها:

-هو إنتي ماشية ولا إيه؟

أجابته دون أن تفتر ابتسامتها:

-يدوب يا حاجة..

ردت معترضة في لباقة ووجهها ما زال محتفظاً بضيقه:

-ما لسه بدري يا "آمنة"، ده الليلة في أولها، وفي مغنيين جاينين وطبل وزمر.

رمشت بعينها معللة سبب انصرافها:

-ربنا يكثر من أفراحكم وأيامكم الحلوة، بس إنتي عارفة أنا ماليش في السهر.

قالت مبتسمة لها وكأنها تشاركها في المزاح:

-والله كلنا زيك.

أضافت "آمنة" بحماس:

-بس اليوم كان عسل، وربنا يجعل ليلتهم خير، ويرزقهم بالذرية الصالحة.

هزت رأسها ترد مجاملة:

-أمين يا رب ، وعقبال ما تفرحي ببناتك.

يا رب إن شاء الله الله، هاروح أسلم على الحاجة "بشينة" والعريس وعروسته القمرية
-كلك ذوقك يا غالية.

تسلمي يا رب

قالت كلماتها الأخيرة وهي تهم بالصعود على درجات المسرح لتتجه إلى الكوشة لتؤدي واجبها
كاملاً.. بينما في تلك الأثناء، كانت أنظار كلاً من "فيروزة" و"همسة" مرتكزة على وجه العريس
تحديدًا.. بدا مألوفًا لهما.. ملامحه لم تكن بالغريبة عليهما.. كلتاهما تعرفتا إليه بشكلٍ أو بآخر. مالت
"همسة" على أختها تقول لها بصوتٍ خفيضٍ ومتعمدة أن تضع يدها أمام شفيتها حتى لا يُقرأ كلامها:
-"فيروزة"! أنا عاوزة أقولك على حاجة مهمة!!!

ضاقت عينها وهي ترد عليها مستشعرة وجود توارد خواطر بينهما:
قولي.. في إيه؟

همست بصوتٍ يشويه الريكة مستعيدة ذكرى صدامه الحاد معها عند عربة الطعام:
-العريس ده أنا عارفاه!

علقت عليها بنبرة تميل إلى التهمك:

طب وإيه الجديد؟ ما أنا بأشبه عليه!

هزت رأسها بالنفي مكملة توضيحها المتوتر:

-الحكاية مش كده، أصل.. في حاجة حصلت من فترة تخصه..

بدا حديثها غامضًا ومثيرًا للشكوك، ثبتت "فيروزة" نظراتها عليها تسألها:

إيه اللي حصل؟

وكان "تميم" قد قرأ أفكارها التي تتخبط في رأسها فارتعدت فرائص "همسة" من نظراته التي
أمسكت بها تحمق به خلسة في ريبة محسوسة، شعرت بجفافٍ عجيبٍ يجتاح جوفها، أشاحت
بعينها القلقتين بعيدًا عنه وردت بارتباكٍ أكبر:

-بعدين .. بعدين هاقولك عشان ..آ... ماما جاية علينا!

كانت "فيروزة" غير مقتنة بحجتها الضعيفة، تجاوزت عن الأمر مؤقتًا وجابت بنظرات هائمة على أفراد الفرقة الغنائية الذين أشعلوا المسرح حماسةً بأغانهم الشعبية الصاخبة.

.....

انتهى "تميم" من مصافحة الضيفة التي تمت له حياة أسرية سعيدة وهانئة مع زوجته الجميلة لينظر بتمعن لتلك الشابتين اللاتين تتطلعان إليه بغرابة، في البداية لم يعرهما الاهتمام إلى أن لاحظ نظرات التفحص المصحوبة بالهمس من الفتاة الأولى، حينها جالت عيناه على وجهها تدرسان تفاصيله المألوفة، استغرقه الأمر بضعة لحظات لتنشط ذاكرته، عرفها على الفور؛ إنها فتاة العربية التي تبيع الطعام على الكورنيش للمارة .. تأهب في جلسته وتحفزت نظراته نحوها، بدا وجودها مستفزًا بالنسبة له، يحمل تحديًا جريئًا لا يمكنه القبول به، ولكن الظرف غير مناسب بالمرّة لاتخاذ اللازم وفق مفاهيمه الخاصة .. لاحظ ارتباكها والاضطراب الذي كسا ملامحها، إخفائها لوجهها عنه أكد له أنها أيضًا عرفته، حرك رأسه بتلقائية في اتجاه الفتاة الملاصقة لها، لفت أنظاره منديل الرأس الذي ترتديه، تجمدت حدقتاه عليه، كان مُطابقًا لذلك الذي بجوزته فيما عدا اللون، ردد لنفسه مذهولاً:

-مش معقول الشبه ده، استحالة!

شعر "تميم" بخفقة قوية تضرب صدره، برجفة أصابت حواسه، نظرة خاطفة نحو عروسه التي تبتسم في سعادة أشعرته بالتوتر، عاد ليحدق به وقد انخفضت عيناه لتتأمل وجه صاحبتة لكنها أدارته قبل أن يبصره جيدًا، وقبل أن يسـتمر في فحصه الفضولي المدقق انتشلته "خلود" من سرحانه متسائلة:

-بتفكر في إيه يا حبيبي؟

في البداية تطلع إليها بوجوم، ثم بثبات انفعالي واضح أجابها وابتسامة باهتة انعكست على شفثيه:

-ولا حاجة يا "خلود"، المهم إتي مبسوطه؟ في حاجة نقصاكي؟

ردت بتنهيدة عبرت عن عشقها له وقلبا يقفز بين ضلوعها في سعادة غامرة:

-كله تمام يا حبيبي، أنا والله ما مصدقة إننا بقينا لبعض.

أكتفى بالابتسام لها فتابت بغنج رقيق وقد أسبلت عينها:

-ربنا يقدرني وأسعدك يا "تميم"، وأنا أوعدك إني هاعيشك في الجنة

أوما برأسه في استحسان ومد يده ليربت على كفها المسنود في حجرها بخفة قبل أن يسحبها إليه، ثم رفع عينيه من جديد نحو الزاوية حيث تقف الشابتان لكنه لم يجدهما، انزعجت تعابيره ونفخ في ضيق، فقد أراد التحقق مما رآه وأثار فيه الفضول والاهتمام بشكل غير متوقع، حاول أن يلهي عقله عن التفكير في تلك المسألة المحيرة محدثاً نفسه:

-ده بيتباع في محلات كثير، جازي تكون صدفة!

ابتسم لنفسه في سخرية وقد بدت الفكرة مقنعة، ربما لأنها تريحه من إحساسه بتأنيب الضمير.

.....

-ها؟ كله تمام يا عمنا؟!!

تساءل "نوح" باهتمام مبالغ فيه بعد أن عاد "هيثم" للفرح وهو يتصبب عرقاً غزيراً لا يليق بالأجواء الشتوية الباردة، حدجه الأخير بنظرة نارية تحمل مزيجاً من اللوم والحنق، تلفت حوله بطريقة تدعو للاسترابة قبل أن يسحبه من ذراعه ليسير به نحو الجانب وهو يوبخه:

-إيه يابا؟ إنت ناوي تفضحني؟

رد صديقه معاتباً بوجه متقلص:

-فضيحة إيه بس يا جدع..

ثم غمز له وتلك الابتسامة اللزجة تتجسد على شفثيه مكملاً عبارته:

-شكل العملية مشيت معاك آخر حلاوة، زي السكينة في الجاتوه

كز "هيثم" على أسنانه قائلاً له في غيظ:

-أكفي على الخبر ماجور، الحكاية مش ناقصة أر.

تصنع العبوس معقبا عليه:

-هو أنا ها حسدك بردك؟ ده أنا سترك وغطاك!!

زجره قائلاً بعصبية بائنة حتى في نظراته:

-يا عم ابلع ريقك! أنا مش ناقصك!

وفجأة انتفض فزعاً حينما سمع زوج خالته يسأله مباشرة من خلفه، وكأنه كشف أمره:

-كنت فين يا "هيثم"؟

التفت كالمسوع نحوه يطالعه بعينين جاحظتين مليئة بنظرات الرعب والخوف، تقدم "بدير" نحوه حتى بات في مواجهته، تأمله في دقة متسائلاً:

-مش باين في الفرحة ليه؟

ارتجف قلب "هيثم"، وشحب لون بشرته، كما زادت ريبته وتلبكه، وبدت علامات الارتعاد مقروءة على قسامته، خرج صوته مهزوزاً متلعثماً حينما أجابه:

-ده .. أنا .. كنت واقف .. هنا .. قصدي ورا .. مع ناس صحاي و....

رفع الحاج "بدير" سبابته محذراً دون أن يمهله الفرصة لإكمال كذبه المخلوق:

-مش عايز لبش هنا يا ابن "بثينة"!!!

مجرد نعته باسم والدته أنساه خوفه من اكتشاف مسألة السرقة، بل وكاد أن يصيبه بالجنون، احتقنت نظراته وإرید وجهه بغضبٍ شديد، ثم تحفز في وقفته وانتصب كتنفاه قائلاً بخشونةٍ ومتمعداً استخدام نفس طريقته المستخفة:

-ما تنادينش تاني باسم أمي يا جوز خالتي!

ثم ما لبث أن قست نظراته أكثر وهو يتابع:

-أنا ابن أبويا الحاج "غريب"، اللي ضعى بنفسه فداكم.

قال "بدير" ساخراً منه ونظرات الازدراء واضحة عليه:

هي أمك لسه بتملى راسك بالكلام الفارغ ده؟!!

هاجت الدماء في عروقه واستثارت من تحقيره الصريح، فانفجر صائحًا بتشنج وعروقه تنتفض بقوة:

-أنا أمي مش كدابة، ولا اللي حصل لأبويا كلام فارغ، إنتو بس اللي بتتعمدوا تنسوا عشان متحسوش بالذنب، بس حق أبويا أنا عارف إزاي وامتى هاجيبه!

حدجه "بدير" بنظرة خالية من التعاطف وهو يرد عليه في تحدٍ يمين عن قوة وسلطة:

-حقم خدتوه زمان، واللي حصل كان برضا أبوك، فبلاش تهري في المنهي!

وقبل أن تزداد الأمور سوءًا تدخل "نوح" بجسده ليفصل بينهما، وأبعد رفيقه الغاضب عن زوج خالته مستخدمًا قوته الجسدية كما كان يرجوه بشدة:

-خلاص يا "هيثم"، ده لا وقته ولا مكانه، احنا في فرح أختك يا جدع

رد عليه بعصبية وهو يقاوم إمساكه له:

-سييني يا عم، ماتزوءنيش!

رجاه أكثر وقد نجح في إزاحته من أمام زوج خالته قبل أن يتصرف معه بأسلوب لن يعجبه على الإطلاق:

-بالله عليك تلم الدور، ده الحاج "بدير" كبير العيلة، وفي مقام أبوك..

صاح عاليًا مقاطعًا إياه وقاصدًا أن يصل إليه صوته:

-أنا أبويا مات، ما فيش حد يملى مكانه

رد في توترٍ قلق:

-طيب.. طيب ... بينا من هنا!

دفعه "هيثم" بقسوة في صدره ليتحرر من قبضتيه واستدار خارجًا من المكان وهو يغمغم بكلمات جمعت بين السباب واللعن، في حين تابعه "بدير" بنظراته النارية المستنكرة فساد أخلاقه، وانعدام

تربيته، تغاضى مرغماً عن تصرفه الأهوج حتى لا يفسد أجواء الحفل بالرغم من تعكر مزاجه وتكدرها .. همّ بالتحرك عائداً للمدعوين وهو يهز رأسه في ضيقٍ وانزعاج جاهد لإخفائه، لكن لحسن قوي أصاب داخله قرر فجأة أن يتبعه ...

في ذلك التوقيت، كانت "آمنة" تسير على تمهلٍ وهي تحكي عن ذكريات طفولتها مع جيرانها خلال تلك النوعية من الأعراس الشعبية التي قد تمتد لأيامٍ متصلة تبعاً لثراء العائلة ومدى شهرتها، أنصتت ابنتها إليها في مللٍ لتكرار نفس الحديث للمرة المائة مما باتا يحفظاه عن ظهر قلب، تبادلت "فيروزة" مع أختها نظراتٍ مفهومة، ثم أدارت رأسها نحو والدتها مدعية السعال لتقاطعها قائلة:

حلو الكلام ده كله يا ماما، نركز في شغلنا بقى!

رمقتها "آمنة" بنظرة حادة، وقالت لها:

إنتي بايخة! يعني أقولك زمان كنا بنعمل هيصة و....

وقبل أن تكمل جملتها للنهاية خرج من جوفها شهقة مفزوعة وقد اندفع جسدها بالكامل ككتلة ثقيلة للأمام لتتكفى على ركبتيها في ألمٍ موجه، استندت "آمنة" على كفيها كي لا ترتطم رأسها بالأرض الصلبة، تهديج صدرها ولهتت وهي بالكاد تحاول استيعاب ما حدث لها في لمح البصر.

بالطبع كان الأمر مفسراً حينما رأت ذلك الشاب الأرعن يتحرك بخطواتٍ عصبية غير عابئ بمن يصطدم، صاحت فيه "فيروزة" وقد رأت وقاحة ما فعله مع والدتها وهي تنحني لتساعدها على الوقوف مع "همسة":

إنت غبي يا جدع إنت؟ مش شايف اللي قدامك يا أعمى!

استوقفته جملتها المهينة فالتفت "هيثم" نحوها يرمقها بعينين تطلقان شرراً، عاد إليها يزار بها في انفعالٍ شديد:

إنتي اتهبلتي يا بت إنتي؟

خشيت "آمنة" من إقام ابنتها في أمر لا يحمد عقباه فتوسلتها:

-خلاص يا بنتي.. محصلش حاجة.

ردت بوجه مكفهر الملامح:

-لأ .. حصل!

تركت "فيروزة" والنتها لتتقف في مواجهة ذلك الفظ الوح الذي لم يظهر الندم على خطئه، تحولت ملامحها للشراسة ونظراتها للعدائية، وردت عليه بقوة وجراءة منقطعة النظير غير مبالية بهيئته المهدة:

-احترم نفسك! إنت غلطان وبجح، لأ وبتكلم كمان؟!!

صاح يهددها ملوحًا بذراعه:

-ما تخليش أمد إيدي عليكي!

استشاطت عيناها من عدائته الفجة، ومع هذا ردت بشجاعةٍ دون أن تهابه:

طب جرب كده وأنا هاعرفك مقامك وأوديك في داهية..

قال لها بوقاحةٍ أجفلتها:

-داهية تاخذك إنتي واللي معاكي!

لم تستطع كظم غضبها بل ناطحته الند فقالت:

-اهوو إنت، ما أنا لو بأتكلم مع راجل بيعرف في الأصول مكانش غلط من الأول.

صاح بها بوجهٍ قاسٍ وقد أصبح على وشك إفراغ شحنة غضبه بها:

-أنا راجل غضب عن عين اللي خلفوكي.

كاد أن يتفاهم الوضع ويتعقد كثيرا لولا أن تدخل الحاج "بدير" الذي تابع المشهد في نهايته فهدر يعنفه محذرا بلهجةٍ شديدة:

- "هيثم"، ليم الدور هنا! سامعني؟

ثم تقدم نحو "آمنة" التي تمزقت عباءتها من عند ركبتيها جراء سقطتها العنيفة معتذراً لها:
-حقك عليا أنا، امسحها فيا يا حاجة.

وقبل أن تنطق والدتها بكلمة هتفت "فيروزة" محتجة:
-لأ معلش يا حاج، كلامك فوق راسنا ...

ثم أشارت بعينيها -في احتقارٍ صريح- نحو "هيثم" متابعة كلامها:

-بس احنا مش هنقبل بقلة الأدب دي وطولة اللسان، الحيوان ده هو اللي غلطان مش إنت يا حاج، وهو اللي لازم يتأسف لأمي.

أوشك "هيثم" على نعتها بلفظة نائية -وخادشة للحياء- جراء عبارتها الأخيرة، لكن تلك النظرة الصارمة من عيني زوج خالته كانت كفيلاً بإخراسه، كتم غضبه المستعر مجبراً، وبدا صوت أنفاسه الهادرة مسموعاً .. تحرك "بدير" في اتجاه "فيروزة" والذي حال بجسده بينها وبين ذاك اللفظ ليقول:
-خلاص يا بنتي، حقك عندي.

هنا صاحت "آمنة" بنبرة عبرت عن خوفها وهي تجاهد للسير بصورة طبيعية محاولة إخفاء ألم ركبتيها:

-مافيش بعد قولك كلام يا حاج، وأنا .. مسامحة في حقي.

.....

كان كمن يُشارك في سباقٍ للعدو، يسير بخطواتٍ سريعة غير مكترثٍ لزوجته التي تبذل مجهوداً أكبر منه لتلحق به، رفع معصمه نحو عينيه لينظر إلى ساعة يده الثمينة -من وجهة نظره- حيث اشتراها من إحدى المزادات التي حضرها مصادفة، ومن وقتها كان يتباهي باقتنائه لشيء باهظ الثمن، لاحظ تأخر الوقت فامتعضت قسامته والتفت على يساره يُجَادِث زوجته بما يشبه الأوامر:
-مدي يا "حمدية" شوية، احنا كده اتأخرنا.

نظرت له شزرًا وردت في تأفف وكأنها تضع حبة حبهان بين ضرسيهما:

-هو يعني كان بمزاجي؟ مش عقبال ما أكلت العيال، وخلصنا مذاكرة، ونيتهم.

علق عليها بما يشير إلى بخله:

-ما كنا خدناهم معانا، وأهي كانت اتحسبت عليهم خروجة واستفدنا من الأكل والشرب الزيادة

قالت غير مبالية بعد أن زمت شفيتها:

-لأ يا خويا، أنا مش ناقصة نهيان قلب وبس وهس!

رمقتها "خليل" بنظرة مستاءة قبل أن يتطلع أمامه متابعا مشيه المتعجل وقد غفل عن التجمع

القريب منه، والذي بالطبع كان محط أنظار واهتمام "حمدية"، انعقد حاجباها بشكلٍ ملفت،

ورددت عاليا لتجذب انتباه زوجها:

-إيه ده .. مش دي المعدولة بنت أختك؟

تلقائيا تحولت أنظاره نحو زوجته متسائلا

-مين؟ وفين؟

أشارت له بعينها فرك رأسه في الاتجاه المعاكس ليجد "فيروزة" تتحدث إلى أحدهم وتعبيراتها

مشدودة على الأخير، استطاع كذلك أن يرى "آمنة" وابنتها الأخرى تقفان على مقربة من ذلك

الرجل المهيب .. تساءلت "حمدية" في فضولٍ غريزي بها:

هي المحروسة بتتخاف ولا إيه؟

أجابها في حيرة وتعابيره تجهمت نسييا:

-مش عارف.

زمت شفيتها في اعتراض قبل أن تضيف بأسلوبها التهكمي:

-داهية لا تكون عملت نصيبة زي عوايدها؟!

حينما اقترب "خليل" منهم استطاع أن يلمح وجه ذلك الرجل، ردد عفويا وتلك الخفقة القلقة

تضرب صدره:

ده الحاج "بدير" واقف كمان، سترك يا رب!
هنا أسرع "حمدية" في خطواتها لتقول ببحب بائن في نبرتها وأيضاً نظراتها:
تعالى أما نشوف في إيه.

.....

كان وجهه انعكاساً لقلبي حقيقي في البداية وهو يقترب من شقيقته وابنتها، مرر نظراته عليهن قبل أن تتوقف حدقاته عند الحاج "بدير"، تطلع إليه في توتر، خاف من أن يكون الصدام مع صاحب الهبة والوقار، وقف قبالة مهزوز القامة يسأله في حيرة ويكاد يشعر بتلاحق دقات قلبه:

-سلامو عليكم يا حاج "بدير"، خير في حاجة حصلت؟

التفتت نحوه الأخير مدققاً النظر فيه، عرفته بالطبع، وابتسم له يجيبه:

-وعليكم السلام يا "خليل"، ما فيش حاجة مهمة، ده مجرد سوء تفاهم.

وبالرغم من توقعها لرؤية خالها إلا أن قدومه للاستفسار عن سبب ما حدث كان غير متوقع بالنسبة لها، ومع ذلك اعترضت "فيروزة" كالعادة على تفسير الموقف والاستهانة بإيذاء والدتها فصاحت بنبرتها الحاققة:

-لأ مش كده خالص..

ثم سلطت عينيها المشتعلتين على طيف "هيثم" الذي انصرف قبل لحظات تهيئه من جديد، فنارها لم تبرد بعد:

-ما هو الحيوان قريه وقع أمي على الأرض وبهدلها زي ما إنت شايف.

بدا الوجوم المختلط بالتردد ظاهرًا على تعابير خالها، لم يجذب أبدًا ان يكون طرفًا في أي جدالٍ أو مناقشة مع الحاج "بدير" وأقربائه، فالنتيجة ستكون محسومة من البداية لصالحهم، تنحج متسائلًا في رهبة وهو يخشى النظر إليه:

-قصدك مين؟

هنا أجابه "بدير" موضحًا ومبادرًا في لفتة طيبة منه:

- "هيثم" ابن أخت الحاجة يا "خليل"، وأنا قولت لها حق أمها على راسي، فما فيش داعي نكبر الحكاية!

حلق فيه في شرود غير مصدق لما تلفظ به، للحظة طرأ في باله أن يستغل تلك الفرصة الجهنمية في الاستفادة من ذلك الرجل السخي والحصول على مصلحة ما يجني من ورائها أي أموال أو منفعة تعود عليه بالنقود، وفي سرعة خاطفة اتجه نحو أخته يضمها من كتفها في حنو زائف، ادعى تفحصه لساقها وهو يسألها:

إنتي كويسة ياختي؟

تقوس فم "حمدية" في تأفف وهي ترى ما يفعله مغممة مع نفسها:

هو الرجل اتبهل ولا ايه؟

تابع "خليل" اهتمامه بأخته متسائلًا:

حاسة يايه؟ في حاجة بتوجعك؟ قوليلي، ومتخافيش من حاجة

ردت "آمنة" بنبرة مهتزة وهي تحاول استيعاب خوفه عليها:

- يعني .. شوية!

تقلص وجه "حمدية" في امتعاض من تصرفه، فكيف له أن يتصالح معها هكذا بعد أن تعقد العلاقة

بينها؟ رددت مع نفسها وهي تنفخ بصوت مسموع:

دي إيه الحنية اللي هبطت عليك فجأة دي!!!

إشارة خفية من حاجب "خليل" لزوجته استطاعت أن تلمحها جعلها تعيد التفكير مليًا، فقد تفقه

ذهن "حمدية" الداهية إلى تلك الحركة اللثيمة الصادرة من زوجها، فمن المستحيل أن يعفو عن أخته

بعد المشادة التي دارت بينهما هكذا بسهولة، ولكونها قادرة على تفسير تصرفاته دون مجهود يذكر

فأدركت أنه يحاول تصيد هذه الفرصة، ولهذا ودون استئذان أو توجيه، خطت نحو "آمنة" تسألها

أيضًا في خوف مفتعل وحسرة آسفة بعد أن انحنى قليلًا نحوها لتنفض التراب العالق بعباءتها:

-مالك يا حبيبتي؟ هو إنتي كنتي ناقصة وقعة، ده كفاية هدة الحيل اللي إنتي فيها ليل نهار!
تدلى الفك السفلي لـ "همسة" في اندهاش متعجب، حتماً ليست تلك زوجة خالها المتسلطة التي
ترعجن دومًا بكلامها الودع وأسلوبها الفظ! كانت صافية النية لتفطن للحيلة التي تُحك على والدتها،
بينما على النقيض فهمت "فيروزة" التمثيلية الساذجة التي يحاول الاثنان تأديتها، لكنها كانت هزلية،
مفتعلة، خالية من العاطفة والمحبة الصادقة.. استشاطت نظراتها حينما اصطحب خالها الحاج
"بدير" ليتحدث معه بعيدًا عن أسماعها، بدا كما لو كان يخطط لشيء ما، نظرت له باسترابة وهي
تحاول ضبط انفعالها حتى لا تنفلت وتتصرف بعصبية فتخسر ما لا تملكه بعد.

وبكل تملقٍ وابتساماتٍ زائفةٍ بادر "خليل" مقترحًا، وكأنه يصنع جميلًا مع صاحب الشأن:
-اعتبر الموضوع منهي يا حاج "بدير"، العيال ياما بتغلط، ولازمهم قرصة ودن صغيرة، ما احنا كنا
زمن...
ثم أطلق ضحكة سخيفة مفتعلة قبل أن يقطعها ليكمل بجبث:

-وأنا تحت أمرك لو احتجت أي حاجة.. إنت عارفي أنا بأحب أخدم الحبايب الغاليين اللي زيك
برموش عينيا، وبدون مقابل، ده احنا بينا عشرة وجيرة.

رد عليه بهدوءٍ وقد كان وجهه غير مقروء التعبيرات بالنسبة له:

-ربنا يعمل اللي فيه الخير، ما أنا بردك شايلك لوقت عوزة

سأله "خليل" في إلحاح:

-طب مش عايز مني حاجة؟

رد نافيًا وشفته تقوستا قليلًا لتظهر ابتسامته صغيرة:

-لا.. تسلم

مد يده لمصافحته قائلاً:

-يدوم المعروف يا حاج، هاروح أسلم على عريسنا نواراة الحتة، وربنا اللي عالم ده غلاوته من
غلاوة عيالي

انتهى من مصافحته وربت على كتفه يشكره على كلماته المجاملة:

-الله يباركك ..

تأكد "خليل" في قرارة نفسه أنه نجح في خلق فرصة له من العدم معه، وأنبئه حدسه أن ما يصبو
إليه سيتحقق خلال أيام .. ما عليه إلا الصبر والانتظار ...

.....

ليه يا ماما خلطيني أسكت؟

دمدمت "فيروزة" بتلك العبارة التي عكست نغمها على رضوخ والدتها وتنازلها عن حقها ارضاء
لأخيها، وكأنها قد تحولت للتابع المطيع لسيدته، وكل هذا فقط من أجل استعادة ودّه مرة أخرى،
نفخت "آمنة" في استياء من تزمّت ابنتها، وقالت لها بجدة طفيفة مبررة أسبابها وهي تسير بتعرج
خفيف:

-خلاص بقى يا "فيروزة"، أنا مصدقت خالك رجع يتكلم معانا!

ردت باستنكارٍ وقد ارتفعت نبرتها قليلاً:

-وهو عملنا حاجة؟ بالعكس ده طلع بمصلحة على قفانا!

ضغطت على شفيتها قائلة:

-عفا الله عما سلف.

احتجت عليها ابنتها هاتفة:

-بلاش الطيبة دي الله يكرمك يا ماما، هي اللي مضيفة حقتك..

نظرت لها أمها من طرف عينها قبل أن تشيح برأسها لتقول لها:

-أنا كده ومش هاتغير، مابعرفش أشيل من حد، والد عمه ما يبقى مياه!

كزت على أسنانها مبدية اعتراضها على ذلك الأسلوب المستسلم المسامح لأخطاء الآخرين:
يا ماما ...

قاطعتها "همسة" بلطف حتى لا تضغط على والدتها وتزيد من إرهاقها بتشددها:
-كفاية يا "فيروزة"، ماتتعبيش ماما.

التفتت نحوها قائلة في اعتراض ووجهها يكسوه تعابير قاسية:

-دلوقتي كلامي الي بقى بيوقف في الزور؟

هنا أضافت والدتها في نفاذ صبر بعد أن ضجرت من عنادها معها:

-هو إنتي لازم تعكني علينا؟

ردت بجدة واقفال:

-الله، كمان أنا اللي بقيت سبب النكد؟

تأبطت "همسة" ذراع أختها وأجبرتها على السير بتباطؤ ترجوها:

-اهدي يا "فيرو"، لو سمحتي..

نفضت ذراعها عنها تقول:

-أنا هاروح العربية

استدارت والدتها مرددة في حسم:

-بلاش منها الليلا دي، ماسمعتيش مرات خالك وهي بتقول هتعدني علينا

عضت "همسة" على شفتها السفلى متذكرة عبارتها الأخيرة قبل أن ينفذ التجمع، تساءلت في

حيرة وقلق ونظراتها مركزة مع وجه أختها المتجهم:

-أه صح .. طب هنعمل إيه؟

ردت "فيروزة" بعصبية وقد فقدت آخر ذرات صبرها:

-والله احنا اللي بنجيب لهم لنفسنا، بقى "حمدية" دي يتعملها حساب؟
توقفت "آمنة" عن السير لتستدير كليًا ناحيتها، ثم تطلعت إلى ابنتها تقول في عتابٍ محسوس:
-نفسى في مرة تسمعي كلامي من غير ما تضايقيني..
كانت كراهيتها لتلك المرأة قد وصلت لمنتهاها، ومع ذلك سحبت نفسًا عميقًا تحاول به ضبط أعصابها
المستثارة، تصنعت الابتسام لتبدو لطيفة وهي ترد على والدتها:
-حاضر يا ماما...

لكن ما لبث أن تحولت ملامحها للجدية وهي تكمل بصوتٍ أقرب للتحذير:
-بس افتكري إن العقربة دي هتعمل حريقة في بيتنا قريب.
علقت عليها والدتها في يأس:
-برضوه يا "فيروزة"! ما فيش منك أمل!!

كانت ابنتها صعبة المراس، غير قابلة للتفاوض، ولا تقبل بالحلول الوسطى. نفذت قدرتها على
الجدال معها، لذا تركتها واتجهت لمدخل البناية مستندة على الجدران لتخفف من إحساس الألم
الذي أصاب ركبتيها لتختفي بالداخل، في حين تلكأت "فيروزة" في خطواتها لتبدو قريبة من أختها
التي بدت نوعًا ما شاردة، سألتها مباشرة، وكأنها قد تذكرت الأمر للتو:
-صحيح كنتي عاوزة تقوليلى إيه عن العريس!!!?
.....

الفصل الحادي عشر (الجزء الأول)

رمشت بعينها في بطءٍ وهي تتطلع إلى أختها التي باغتها بسؤالها ذلك وقد اعتقدت أنها تناسته في خضم تلك المشادة الأخيرة، عقدت المفاجأة لسانها، أحست بجفاف شديد في حلقها، بخوفٍ ممتزج بالتوتر يتسلل تحت جلدها، بالعرق البارد يصيب أنحاء متفرقة من جسدها .. كانت حيرتها جلية على قسماتها؛ فإن تفوهت بما حدث مسبقًا لربما دفعت "فيروزة" للعودة إلى العرس والتشاجر من جديد معه، وهذا ما ترفضه قطعياً، لأنه سيزج بها في مشاكل جمة لن تُحل بسهولة .. وإن أخفت الأمر عنها لربما غضبت منها إن شاءت الأقدار وتكرر الصدام معه أثناء عملها بالعربة، أصاب "همسة" الوجوم الشديد، حتى أن ملامحها بهتت ونظراتها زاغت .. طال صمتها مما زاد من غريزة الفضول لدى أختها، استغرقت بلا وعي في أفكارها المتخبطة حتى انتهت على صوت "فيروزة" حينما ألحت عليها تسألها:

-إيه يا بنتي؟ لآتي نسييتي كنتي عاوزة تقولي إيه عنه؟

لعتت "همسة" شفيتها تجيبها في تلعم:

-لآ.. ولا حاجة، كنت .. آآآ.....

جفاف أكبر أصاب جوفها مما زاد من طعم المرارة به، ازدردت ريقها الهارب وتابعت كذبًا:

-كنت مفكراه شبه .. ممثل كده، وحتى كنت .. هسألك لو تعرفيه.

ثم حملت في "فيروزة" تراقب بأعصابٍ مشدودة ردة فعلها، ورغم سداجة إجابتها إلا أنها كانت كافية لتمنحها فرصة للتفكير مليًا في حجة أكثر إقناعًا إن استمرت في التحقيق معها وحاصرتها بأسئلتها، تنفست "همسة" الصعداء حينما ردت عليها بما يشبه التهم:

-والله لآتي فايقة ورايقة، ممثل إيه بس!

خرجت ضحكة متكلفة من جوفها وكأنها تضحك على كلماتها فقط لتخفي الاضطراب الذي اعتلاها، تحركت "فيروزة" للداخل دون أن تتفوه بكلمة أخرى وقد بدأت زخات المطر في الهطول، أحست "همسة" بالارتياح لانصرافها، وتمتت مع نفسها في تضرع:

-الحمد لله يا رب، عدت على خير.

تركت للمطر مهمة تبريد تلك السخونة التي انتشرت في بشرتها بفعل الأدرينالين والانتفعال،
أغمضت عينيها ورفعت رأسها للأعلى مستمتعة بذلك الإحساس المنعش، ثم تنفست بعمق حتى
تتأكد من انتظام دقات قلبها، رفعت "همسة" يدها لتمسح المطر العالق بأهدابها، واشرايت بعنقها
لتنظر إلى ما تفعله "فيروزة" بجوار السلم، فوجدتها تفتح الحجرة المخصصة لتخزين العربة لتجمع
صناديق الطعام الصغيرة، تبعها في صمت لتساعدتها وهي تردد كلمات أغنية علفت في ذهنها مما
جعل الأخيرة تضحك على صوتها المريع وهي تنظر لها من طرف عينيها، ثم بدأت في مشاركتها
الغناء بصوت لا يقل عنها نشاطًا.

.....

تراصت السيارات أمام البناية المشابهة لأغلب عمارات المنطقة في ارتفاعها الذي لا يتجاوز الأربع
طوابق -والمملوكة لعائلة "سلطان" - لتصيح بعدها أصوات الأبواق كإعلان صريح عن وصول
العروسين لمسكن الزوجية، وبالرغم من كون ذلك قد أحدث صخبًا وجلبة عالية إلا أنه لم يشكو
أحدهم من هذا، فما زالت تلك هي الطريقة التقليدية المتبعة في الأفراح .. ترجل "تميم" أولاً من
السيارة واستدار بجسده للخلف لينظر إلى والده الذي ترجل من سيارة أخرى، تحرك الأول في
اتجاهه وامتدت ذراعه لتحتضنه وتشكره على مساندته طوال الساعات الماضية، ثم أطل برأسه
من زجاج النافذة ليمسك بكف جده، رفعه إلى فمه وقبله احترامًا وتبجيلًا. اعتدل في وقفته ليجد
والدته تربت على جانب ذراعه ووجهها البشوش يلمع بعبرات الفرح، مسحت بأناملها دمعاتها
المنسابة وهي تدعو له:

-ربنا يرزقك يا ابني بالسعادة وراحة البال.. إنت تعبت واتظلمت كثير، وعروستك طيبة
وتستاهلك

أحني رأسه على جبينها يقبله في امتنانٍ يشكرها:

-ربنا يخليكي ليا يامه، أنا من غير دعواتك ولا حاجة

نظرت له بحبٍ، وقالت:

حبيبي يا ابني

ثم ابتسمت له قبل أن تستأنف جملتها:

-ويعدين يا ضنايا البت "خلود" طلعالى، وتربية إيدي، يعني هتريحك في كل حاجة
رد مماًزحاً:

-يا ريت يامه تبقى شبيك، بس إنتي بردك مافيش زيك يا ست الكل.

علقت عليه بنبرة ذات مغزى وهي تشير بحاجبيها:

-روح لعروستك بقى، مايصحش تسيدها كده مستنياك..

التفت برأسه عفويًا في الاتجاه الذي أشارت إليه فوجد "خلود" قد ترجلت من السيارة، وتبادل الحديث مع والدتها التي حتمًا كانت تُملي عليها الوصايا العشر- لتفرض سيطرتها على المنزل، هكذا خمن في نفسه، خاصة وأنها كانت ملتصقة بها بطريقة غير طبيعية وزائدة عن الحد منذ بداية العرس وحتى نهايته، تقدم نحوها متنحنًا في خشونة، ثم هتف عاليًا لتنتبه "بثينة" له:

-ها يا حماتي، خلصتي مع مراي ولا لسه قدامك شوية؟

نظرت له خالته في استهجانٍ قبل أن تجيبه بشفاه مقلوبة وبما يشبه التهم:

-أديني واقفة معاها لحد ما تخلص إنت، ولا عاوزني أسيدها لواحد لحد ما سيادتك تفضى؟

حدجها بنظرة حادة عكست ضيقه، واستطرد يجرجها بكلماته القوية:

-ما هو أنا واقف مع أهلي اللي هما برضوه أهلها، مش برده احنا بينا دم واحد؟ ولا الظاهر إنك
بقيتي بتنسي كثير الأيام دي يا .. حماتي!

استشاطت غيظًا منه فصاحت تهاجمه في قسوة:

-أنا خالتك قبل ما أكون حماتك، يعني في مقام أمك!!!

رد مبتسمًا بغطرسة ليشعل غيظها أكثر:

-أنا ماليش إلا أم واحدة!

أطبقت "بثينة" على شفيتها في حنق واضح للحظات، ثم هتفت تحذره بنبرة أقرب للتهديد:

حبيب أحسنك تاخذ بالك من "خلود"، وإياك تزعلها! هتلاقيني في ضهرها ووقفالك!

ظهر عرق نابض في جبينه بسبب ضيقه من أسلوبها غير المستساغ في التوجيه، استنشق الهواء البارد ليثبط به دماؤه التي زاد احتقانها، وزفره دفعة واحدة ليضيف بعدها ضاغظًا على كلمات جملته الأولى:

-اطمني يا .. حماي، أنا عارف إزاي أعامل أهل بيتي، مش مستني حد ينصحنى، و...

ثم سلط أنظاره على أبويه متابعًا في تفاخرٍ وغرور:

-وكفاية إني تربية الحاج "بدير"، ومن قبله جدي "سلطان"، ده غير أخلاق أمي اللي مغروسة فيا، فمتقلقيش...

وما لبث أن تحولت لهجته للقوة ونظراته للصرامة عندما تابع بنبرة خفيضة نسيبًا وقد مال نحوها برأسه:

-إنتي بس ريحي نفسك والدنيا هتمشي!

زمت "بثينة" شفيتها في امتعاض مستنكر وهي ترمقه بنظرة نارية مغتظة، ثم تقدم "تميم" خطوة للأمام ليتجاوزها ويقف قبالة عروسه التي تضرج وجهها بحمرة نضرة، ثني ذراعها وهو يبتسم لها، فمدت "خلود" يدها لتتأبطه وقد أسبلت عينيها بنجل، التفتت للجانب برأسها قليلاً لتلوح بيدها الأخرى لعائلتها تودعهم، ثم تطلعت أمامها وأكملت سيرها بحذرٍ رافعة طرف ثوب عرسها وكذلك واضحة طرحتها الطويلة على مرفقها حتى لا تتسخ بفعل الأرض المبتلة بزخات المطر، اتجهت مع زوجها نحو مدخل العمارة الذي تم طلائه حديثًا باللونين الأبيض والرمادي الفاتح ليخفي التشققات الناتجة عن الرطوبة المستمرة والظاهرة على الجدران. دق قلبها في حماسٍ وخوف، كما تواترت مشاعرها في تلك اللحظات المصيرية، واضطرب وجدانها مع اقتراب تحقيق حلمها الوحيد.

تراقصت أحلامها الوردية بتمضية ليالي رومانسية ناعمة ودافئة في مخيلتها وهي تزف إليه بعد صبرٍ طويل وعزيمة قوية، لم تنس "خلود" لحظات اليأس التي كادت أن تمتلك منها وتفقدتها الأمل،

ولكن في تلك الليلة تلاشت مخاوفها وتبددت أحزانها، وباتت تنتظر بشغفٍ تذوق رحيق الحب مع معشوق قلبها وفارس أحلامها الوحيد.

أخرجها "تميم" من سرحانها المشوق بأن يجمعها سقف واحد حينما استوقفتها عند بداية الدرج ليحملها بغتةً بين ذراعيه، خفق قلبها بقوة، وتلبكت من حركته التي هزت كيائها وحفرت مشاعر الحب بداخلها، أخفضت عينيها في استحياءٍ، لكن تأثير أحاسيس الحب عليها بدا ملموسًا، واضحًا، ولا حاجة به إلى برهان، واصل تسلق الدرجات بها في خفةٍ وكأنها لا تزن شيئًا حتى وصل إلى الطابق الثاني حيث تتواجد شقتها، أنزلها لتقف على قدميها، ثم دس يده في جيب سترته ليخرج المفتاح منه، دسه في مكان القفل وفتح الباب بدفعة خفيفة لينفتح على مصراعيه، عاد ليحملها من جديد ليزيد من مشاعر الشوق والرغبة بداخلها، وتلك المرة تجرأت على تطويق عنقه بذراعيها، واختلست النظرات نحو وجهه الذي كان قريبًا منها للغاية، كانت تشعر بحرارة أنفاسه اللاهثة، بالإيماءات الحذرة المتشكلة على جانبي شفثيه، انفصلت عن محيطها الواقعي لتبقى أسيرة تلك الهالة الساحرة التي تحاوطه.

وعلى عكسها كان "تميم" مشغولاً بالانتباه إلى خطواته بداخل الشقة التي كانت كبيرة في مساحتها، وبالتالي لم تكن هناك أي صعوبة في شراء الأثاث كبير الحجم أو حتى رصه، بل تبقت زوايا خالية تحتاج للمزيد من اللمسات الأثوية الملتها، نظرة سريعة في اليهو تبعثها أخرى نحو الردهة، ثم تقدم بها في اتجاه غرفة النوم، هناك أنزلها على قدميها بكل رقة ورمقها بابتسامة دافئة قبل أن يستهل حديثه مُباركًا:

نورتي بيتك يا عروسة.

أسبلت عينيها في خجل رقيق، وعضت على شفثها السفلى وهي ترى نظراته المتأملة له، أولته ظهرها لتتنظر إلى الفراش الذي تم ترتيبه بشكل منمق ليليق بليلة كنتك، جابت عيناها ثياب كليهما الموضوعات بانتظام على طرفي الفراش، استدارت لتتطلع إلى زوجها وهي تقول بأنفاسٍ شبه متهدجة من فرط فرحتها:

-أنا مش مصدقة نفسي لحد دلوقتي! أنا وإنّ في بيت واحد..

رد مبتسماً وقد دس يديه في جيبي بنطاله:

-لأ صدقي.

اقتربت بغنجٍ متدلل خطوة منه حتى أصبحت المسافة بينهما ضئيلة للغاية، حركت كتفها بإغراء وعدوبة، ثم رفرت بعينها وهي تتمعن النظر فيه عن قرب، لاحت ابتسامة رقيقة مغرية على شفثيها الممتلئتين حينها همست بنعومة:

-أنا بأحبك أوي.

وكأي شخص طبيعي تتأثر مشاعره الأكثر صلابة بفعل المغريات اللذيذة الموججة للمشاعر الذكورية الحميمة أحنى "تميم" رأسه على زوجته بعد أن احتضن وجهها براحتيه ليختطف منها أول قبلة مطولة انحبست فيها الأنفاس واهتز معها الوجدان.

.....

استضافته بترحابٍ فرح للغاية بعد أن جاء إلى زيارتها تنفيذًا للوعد الذي قطعه علنًا أمام الحاج "بدير" قبيل انتهاء العرس، لم تبخل على شقيقها بشيء، تناست خصومتها معه فور أن وطأ أعتاب منزلها، وكان شيئًا لم يكن، في قرارة نفسها كانت تتلهف لإعادة روابط الود بينهما، أعدت له الأصناف الشهية من الحلويات وملأت الكؤوس والفناجين بالمشروبات الباردة والدافئة، حتى أنها ضيفت زوجته بلطفٍ زائد لتنسبها أي خلاف مما استفز ابنتها الجالستين بالداخل، وخاصة "فيروزة" التي كانت ناقمة على الاثنين لكونها مخادعين، تلصقت كليهما على الحوار الدائر في الصالة معلقتين بهمسات مزعوجة وساخطة، تردد أصداء صوت "خليل" الذي كان عاليًا عاليًا وهو يستطرد مبررًا:

بردك ياختي أنا خايف عليك، والي عملته ده كان عشان مصلحة البنات، ما أنا زي أبوهم.

ردت عليه "آمنة" بإيماءة موافقة من رأسها:

طبعًا يا "خليل".

في حين علقت "حمديّة" بجهايس مريب مستخدمة يدها في الإشارة:

-ومهما كان اللي حصل الدم عمره ما يبقى مياه، ولا إيه يا "أبو العيال"؟
أيدها الرأي قائلاً:

-مضبوط .. ومسيرنا كنا هنتصالح.

تحفرت "حمدية" في جلستها، ومالت نحو أخت زوجها تؤكد بقوة وكأنها صاحبة الفضل في فض
الخصام بينهما:

-أيوه، هو إنتو ليكو إلا بعض ياختي؟ ربنا يبعد عنكم الشيطان.

ابتسمت لها في امتنان، ثم أدارت رأسها في اتجاه شقيقها تشكره:

-ربنا يخليك ليا ياخويا، ومايجرمنيش منك أبدًا.

أضافت "حمدية" في خبثٍ وابتسامة سخيفة باردة متشكلة على شفيتها:

-وان كانوا البنات غلطوا فيا، فأنا مسامحة في حقي، دول زي إخواتي الصغيرين، مش هاقول عيالي
عشان أنا لسه صغيرة ..

ثم أطلقت ضحكة لزجة وكأنها قالت دعابة من المفترض أن يكركر عليها الجميع بهيسترية، لكن لم
يضحك أحدهما، فأطبقت على شفيتها لاوية ثغرها قليلاً. تهدد "خليل" معلقاً بعد أن تنحج:

طول عمر قلبك طيب يا "آمنة"، زي أمنا الله يرحمها، كانت بتحب الناس كلها وعمرها ما شالت
من حد.

لمعت عينها نوعاً ما تأثراً بذكرها العطرة، ورددت بخفوتٍ في تضرعٍ راج:

-الله يرحمها ويجعلها في الفردوس الأعلى.

تناول "خليل" رشفة أخرى من فنجان قهوته، ثم تركه على الطاولة البيضاء التي تنتصف الغرفة
ليهب واقفاً وهو يختم تلك الزيارة اللطيفة الودية:

لو عوزتي حاجة ياختي تعاليلي في أي وقت، بابي مفتوحك

نهضت واقفة تملق فيه بعينين مليئتين بالحنو والمحبة، ورددت عليه قائلة:

تعيشلي يا رب، ده إنت اللي باقي لي من الحبايب.

ريت على كتفها برفقي وهو يودعها بالمزيد من العبارات المستهلكة على الأذن، لكن لها مفعولها العجيب على النفس، شعر "خليل" بالانتشاء يغمره، وارتسمت ابتسامة انتصارٍ على محياه اللثيم، حيث أدت طريقته الجديدة لنتائج باهرة ونجح في استقطابها إلى جبهته لتغدو مرة أخرى طوع بنانه وتحت إمرته، حتى إن أمعن لاحقًا في الضغط عليها للموافقة على أحد الأمور لأظهرت استجابتها الفورية له ولم تقاوم رغباته الطامعة.

نوبة حب رائعة عاشتها خلال تلك اللحظات المحدودة انتقلت فيها لعالم مشبع بالمشاعر الدفينة التي تحتاج ليد الخبير لإظهارها على السطح، أرخى قبضتيه عن وجهها فتحررت من حصاره الحابس للأفاس، لكن بقيت آثار أصابعه على وجنتيها اللاتين تضرجتا بجمرة ساخنة، أخفض "تميم" ذراعه ليمسك بـ "خلود" من كفها، جذبها برفق نحو الفراش وأجلسها على طرفه، ثم جلس إلى جوارها، شهيق طويل سحبه إلى صدره ثم لفظه بتمهل، وكأنه بذلك يستحضر - ما سيقوله بعد ذلك. اكتسبت نبرته عمقًا عكس جدية ما قاله حينما استطرد:

-شوفي يا بنت خالتي، قبل ما نبدأ حياتنا سوا، عاوزين نتفق على كام حاجة عشان حياتنا تمشي - من غير مشاكل

هزت رأسها بالإيجاب وهي تنصت له باهتمام، فتابع:

-أنا طول عمري دوغري في كل حاجة، لا بأحب اللف ولا الدوران، ولا كلام الضحك على الدقون، كلمتي زي السيف مع أي حد، وحتى مع أهل بيتي، اللي إنتي بقيتي دلوقتي منهم تمام.

شدد عليه بلهجته الجادة ودون أن يرف له جفن ليبدو صارمًا نوعًا ما فيما يقوله:

-أي حاجة تحصل بينا هنا، حلوة أو وحشة، مشاكل أو اتفاقات، يا ريت تفضل بينا ما تطلعش برا!

أجابت دون تفكير:

حاضر يا حبيبي.

تابع في لهجة جمعت بين الصرامة والنصح:

-أنا عاوزك تكوني الأمان بالنسبالي، وزى ما أنا مش هاسمح لحاجة تضايقك، إنتي كمان بلاش تخلي حاجة تزعلني منك.

هتفت تعقب عليه دون تردد:

-أنا مش هاعمل غير اللي يسعدك وبس.

ابتسم لها بعدوبة، ثم أكمل بنبرة عقلانية حتى تتضح الصورة كاملة:

-وارد يحصل بيننا مشاكل، أتمنى ساعتها محدش يعرف بيها، وخصوصًا أي وأمك.

كان شاغله الأكبر خالته الثرثرة، التي لا تتوانى أبدًا عن خلق المشكلات من توافه الأمور وتعظيمها، وخاصة أنها تقف الند بالند له ولعائلته بسبب هاجسها الخاطيء، خشي- أن تنزعج "خلود" من طلبه، أو حتى تعارضه، لكنها خالفت توقعاته حينما أكدت عليه بصدرٍ رحب:

-حاضر، وعشان تبقى عارف أنا مش نقالة للكلام!

صحح لها جملته حتى لا تسيء فهمه:

-وأنا مقولتش كده، أنا بس مايجبش حد يتدخل في حياتي أو يفرض عليا رأيه، أو حتى أهرر تصرفاتي ليه.

هزت رأسها ترد:

-معاك حق، محدش كمان بيسيب حد في حاله يا حبيبي.

أوضح "تميم" أكثر وهو يومئ برأسه:

-بالظبط، والموضوع الصغير هايكبر ويبقى حكاية، واحنا في غنى عن ده كله

ابتسامة رقيقة احتلت صفحة وجهها الناعم وهي تقول له عن طيب خاطر وبمحنة لا حدود لها:

- خلاص يا حبيبي، كل اللي إنت عاوزه أنا هاعمله وأنا مغمضة عينيا.
وضع "تميم" إصبعيه على طرف ذقنها يداعبه في رقة قائلاً لها بنبرة عميقة عبرت عن شخصيته
الرجولية وشهامته الكبيرة:

- ربنا يخليكي يا حبيبتى، وليكي عليا أعاملك بما يرضي الله، لا هاقل أدبي، ولا هامد إيدي عليكي،
بس إنتي راعي ربنا فيا.

مالت برأسها للجانب لتستند بوجتها على راحة يده، ثم همست له بدلال:
- ده إنت أغلى ما في حياتي.

ابتسم لها مماًزحاً:

- أنا عاوزك كده على طول، رقيقة وهادية، بلاش تقفشي ولا أشوف جنان البنات
ردت بوجه مدعي العبوس:

- أنا مش مجنونة، أنا بأغير بس عليك

- ماشي يا ستي، وباللله عليكي ماتحاوليش تضايقي وأنا متعصب، سبيني أهدى وبعدين نتكلم
ردت وضحكة عابثة تتلاعب على شفقتها

- عندك حق في دي، لأحسن زعلك وحش أوي، وأنا مش أده.
قال مؤكداً:

- أيوه، ببتى غبي بجد!

انتهى "تميم" من فرض ما بدا أشبه بالتعليقات عليها قبل أن يهب واقفاً، تطلع إليها بنظرة مطولة
تجوب على زينتها الرقيقة وجمال جسدها المشقوق في ثوب الزفاف، أشاح بوجهه قائلاً بنحنحة
خفيفة:

- أنا هاغير هدومي برا وأسيبك هنا تلبسي براحتك.

شعرت "خلود" بتقلصات خفيفة تضرب معدتها بعد جملة تلك، لوهلة أصابها الوجوم كما لو كانت قد تلقت صدمتها الأولى، لم يكن ذلك مثل ما خططت له في مخيلتها، أليس من المفترض أن يتلهف عليها ويحترق شوقاً لضمها إلى أحضانه وتأملها بما خف وقل من الثياب؟ أفادت من دهشتها المؤقتة والمستنكرة حيناً بادر مبرراً بابتسامة صغيرة قاصداً أن يخفف من توترها الطبيعي في هذا الموقف الحرج وغير الاعتيادي:

-أنا عارف إن البنات بتتكسف في اليوم ده .. فعشان ماتتخرجيش مني وآ....

قاطعته بنبرة مختنقة نسيباً وقد امتدت يدها لتقبض على معصمه حتى يظل واقفاً في مكانه:

-أنا عاوزاك معايا.. ماتسبنيش!

بدا صوتها أقرب للرجاء عن أي شيء آخر، تطلع إليها في اندهاش بعد أن تركزت أنظاره في البداية على كفها الممسك به، ثم تنهد قائلاً لها بهدوء:

لو ده اللي إتني عاوزاه، فأنا معنديش مانع

علت رغبته في وجوده بعفوية، وكأنها بذلك تزيح ثقلاً كبيراً كان جاثماً على صدرها:

-إنت مش متخيل أنا استنيت اليوم ده أد إيه، أكثر من 7 سنين يا "تميم" بأحلم إني أكون جمبك ومعاك، عيشت تفاصيل كل لحظة فيها بخيالي، وبقيت بأصبر نفسي إنك في النهاية هاتكون ليا.

مست كلماتها المفعمة بمشاعرها الصادقة قلبه، فرفع راحته ووضعها على وجنتها ليشعر بنعومتها المغرية على جلده، داعبها بإبهامه، وطالعها بنظرة ممتنة مليئة بالود والألفة، ثم دنا منها بشفتيه ليطبق على خاصتها وقبلها من جديد بقبلة أشد عمقاً ضاعفت من لهيب الشوق والرغبة، استسلمت لما يبثه فيها من مشاعر محفزة لتعيش معه أحد أهم أحلام يقظتها، ولكن على أرض الواقع

!!

.....

الفصل الحادي عشر (الجزء الثاني)

أمسكت بفرشاة تنظيف الثياب الخشبية، ونفضت العالق من الأتربة والشوائب الصغيرة عن جلباب زوجها الذي ارتداه في تلك الليلة قبل أن تعلقه على الشماعة ليحصل على التهوية الجيدة ومن ثم تغسله حينما يتسنى لها الوقت لفعل ذلك لتعيده بعدها في مكانه بالدولاب. انخنت "وينسة" يتمهلٍ لتمسك بالحذاء وتضعه في مكانه قائلة بفرحة صادقة وابتسامة عريضة تغزو صفحة وجهها الضاحك:

-أما كانت ليلة يا حاج، مافيش بعد كده! حاجة تشرح القلب بصحيح!

هز "بدير" رأسه في استحسانٍ وهو يتمدد على الفراش ليريح جسده المنهك من عناء مجهود اليوم، ثنى ركبته اليمنى إلى صدره، وأراح ظهره للخلف، ثم قال لها:

-الحمدلله، المهم يكون الكل اتبسط ..

ردت بعبوسٍ زائفٍ وقد وضعت يدها أعلى منتصف خاصرتها:

-هو حد يقدر يتكلم بعد اللي عملته يا حاج!؟

ثم ما لبث أن ارتخت ملامحها حينما أضافت بتفاخرٍ:

-ده ليلة "تميم" هيتحكى عنها لشهور قدام

رد باقتضاب:

-ربنا كريم

لانت نبرتها أكثر وهي تضيف ونظراتها مرتفعة للسماء:

-الحمدلله إنك مديت في عمري يا رب عشان أشوف ابني وهو بيتزف لعروسته.

استطرد مضيقًا بابتسامةٍ صغيرة:

-ده أبويا كان فرحان بيه أوي، تحسي إن الدموية ردت في وشه لما شافه

قالت بنبرة مزهوة:

-لازمًا يفرح بيه، مش حفيده البكري، ربنا يديه الصحة

-يا رب

التفتت "ونيسة" نحو الشفونية لترص ما طوته من ثياب نظيفة عليها، استرعى انتباهها الدرج العلوي المفتوح قليلاً، ضاقت نظراتها نحوه متفحصة إياه دون أن تلمسه، ورددت متسائلة في اندهاش كبير، وكأنها تفكر بصوتٍ مسموع:

-هو إنت يا حاج نسيت الدرج ده مفتوح؟

استدار برأسه نحوها يسألها:

-أهو درج؟

امتدت يدها لتشير إليه قائلة بتلقائية مما شد انتباهه بالكامل:

-الدرج ده يا حاج.

اعتدل "بدير" في جلسته المسترخية وأخفض ساقه ليقول نافيًا:

-محصلش.. وريني كده.

ثم هب واقفًا على قدميه واقترب من الشفونية ليدقق النظر في الدرج بعد أن تنحت زوجته للجانب، اكتشف كسر- القفل الخاص به، وهرع يفتحه ليجد مفاجأة صادمة في انتظاره، حيث كان خاليًا من الأموال التي احتفظ بها بداخله، حلت أمارات الحنق على تعابيره المجهدة، وغطى الغضب الجم نظراته كليًا، التفت كالمسلوع نحوها يسألها بجدة:

-الفلوس اللي هنا راحت فين؟

على الفور هتفت "ونيسة" ترد لتدافع عن نفسها وتنفي تلك التهمة عنها:

-والله ما أعرف يا "بدير"! أنا مشوقتش حاجة، وإنت بنفسك اللي بترص فلوسك في الدرج.

صاح في عصبية شديدة وهو يعتصر- ذهنه محاولاً التفكير فيما حدث لتلك النقود أو حتى أين أنفقها:

-أومال راحوا فين؟

هزت كتفها تجيبه:

-معرفش

حك "بدير" رأسه في ضيق متعاضم، ولكن ما لبث أن تذكر شيئاً، الأموال الأخرى الموضوعة في الدرج السفلي، ذاك المبلغ الضخم الذي ما زال محتفظاً به ريثما يرسله للبنك، امتدت يده عفوياً لتسحب الدرج، لكنه وجده موصداً فأشعره ذلك بالارتياح، زفر قائلاً بصوتٍ خفيض خفف بنسبة قليلة من حنقه:

-الحمد لله

التفت عائداً للخلف ليمسك بمفاتيحه المسنودة على الكومود، وأسرع نحو الدرج وقام بفتحه، قليل من الارتياح تسرب إليه، ومع هذا هتف بصوته الأجهش الحائق:

-الحرامي ابن الـ مخدش باله من الدرج ده، كان فيه يجي فوق الـ 100 ألف جنية وأكثر محطوبين هنا.

شاركته التعليق:

-ألف حمد وشكر ليك يا رب

ثم غلف الخوف نبرتها وهي تُعاود سؤاله:

-بس مين هيتجراً ويسرقنا يا حاج؟

تطلع إليها في حيرة قبل أن يجيبها:

-مش عارف!

رددت "ونيسة" في دعرٍ وهي تتلفت حولها بنظرات مرتعدة:

-لأحسن يكون الحرامي لسه مستخبي هنا ولا هنا.

وكانها بعفويتها قد نهت زوجها إلى خطورة ذلك، تحرك على الفور إلى خارج الغرفة بعد أن جذب عكازه ليستخدمه في الدفاع عن نفسه وضرب السارق إن وجده، جاب "بدير" غرف المنزل يفتش في كل زاوية وركن وأي مكان يحتمل أن يختبئ به، لكن لا أثر له، العجيب في الأمر أنه لم يعرف بعد كيف اقتحم المنزل، وكيف قام بالسرقه مما ضاعف من فضوله وتساؤلاته، حاول كذلك خلال بحثه عنه ألا يزج والده الكهل الذي استغرق في نومه بعد مشقة اليوم إلى أن يحل الصباح فيطلعه على الأمر، ومع هذا تأكد من خلو غرفته منه.

ظلت أطراف "ونيسة" ترتجف بالرغم من بحث زوجها المتأني عن اللص، وبقي إحساس الخوف متغلغلاً في أعماقها، لحقت بـ "بدير" كظله ولازمته حتى توقف عن التفتيش، ابتلعت ريقها وقالت بصوت مهتر ينطق عن هلعها:

-أنا خايفة أوي يا حاج.. تفكر الـ.. الحرامي ممكن يرجع ثاني؟

علق في استهجانٍ شديد، ونظراته امتلأت بالغيظ:

-ده بيتقى غبي أوي، هو خلاص خد النهية وخلع!

سألته مستفهمة:

حطب هتبغ البوليس ولا هنتصل بـ "تميم" نعرفه؟

أجابها مستنكراً آخر جملتها:

-وده كلام يا "ونيسة"؟ نتصل بابنك ليلة فرحه نقوله إلحق اتسرقنا؟ انسي- الكلام ده خالص،

"تميم" مش هايعرف دلوقتي، مفهوم

طيب..

خليني أفكر هاعمل إيه.

عادت لتسأله في إلحاح:

-يعني هتكلم البوليس؟

رد نافيًا:

-لأ مش هاطلب أي حد!

اقتحت عليه بعفوية:

طب وجوز بنتك؟

ردد بوجه ممتعض:

- "محرز" ده لا يبخل ولا يبريط، هيعمل زيطة على الفاضي.

-أومال هتعمل إيه يا حاج؟

لسه مش عارف.

قالت "ونيسة" بصوتها المرتجف:

-أديلنا زمن من يوم ما سكنا في الحمة ما حد عمره هوب ناحيتنا ولا فكر يسرقنا

أيدها الرأي قائلًا:

-معاك حق.

-أول مرة تحصل الحكاية دي، الظاهر ولاد الحرام كانوا مراقبيننا.

-الله أعلم.

انكشت "ونيسة" على نفسها تقول له:

-بس أنا خايفة أوي يا حاج.

حاول طمأنتها فقال لها بهدوء بالرغم من الثورة المستعرة بداخله جراء ما حدث:

-ما تخافيش يا "ونيسة"، أنا هتصرف..

أومات برأسها عدة مراتٍ وتبعته أينما ذهب، ولم يعلق هو عليها، كان متفهمًا لخوفها الغريزي، إلا أنه كان عكسها يغلي من داخله، عاد ليفحص باب المنزل في دقةٍ عليه يجد آثار الاقتحام، لكن لا

شيء، انشغل تفكيره في اكتشاف طريقة دخول اللص للمنزل، امتلك "بدير" من الفراسة والخبرة الحياتية العريضة ما يجعله مؤهلاً لتحليل الأمور بشكلٍ منطقي، والوصول لنتائج واستنتاجات هامة. فرك طرف ذقنه في حركة ثابتة، وقال بصوتٍ خفيض:

-القل مش مكسور، والباب زي ما هو.

علقت في سذاجة:

-يكونش الحرامي معاه مفتاح البيت؟

قال مستنكراً محدودية تفكيرها:

ليه كنت مديله نسخة وأنا مش دريان؟

زمت شفتيها معقبة عليه:

-أهوو اللي جه في بالي!

فكر "بدير" بعمقٍ مشاركاً زوجته ما يدور في رأسه:

-الحرامي ده عارف هيسرق إيه بالضبط، ولو كان دور كويس، كان شاف الفلوس الثانية

-مضبوط

-أنا حاسس كده إن الموضوع ده مخرجش برا حد نعرفه.

سألته مستوضحة:

قصدك مين؟

نظر لها بغموضٍ وقد بدا وجهه صارم التعبيرات، التزم الصمت رافضاً البوح بما يراود عقله من هواجس وشكوك تدفعه للتفكير في شخصٍ بعينه.

.....

أخرجت تأويهة متأللة بعد أن نزعت حذاءها الجديد عن قدميها بمجرد جلوسها على الأريكة، شعرت بوخزات حادة في أصابع قدميها التي بدت متورمة قليلاً جراء ارتدائها له لفترة طويلة، انحنت للأمام

لتفركها في رفقٍ، ثم عادت بظهرها للخلف لتسترخي في جلستها. سمعت "بثينة" جلبهً تأتي من داخل غرفة ابنها فانصب جسدها، أجبرت نفسها على النهوض واتجهت إليه بخطواتٍ متأنية.. وقفت عند أعتاب الغرفة تتأمل ما يفعله على عجالة، انخفضت نظراتها نحو الفراش لتجده واضعاً لحقيبة سفره عليه، حملت فيه مجدداً فرأته يحشر- ثيابه دون ترتيب فيها، ولجت للداخل وهي تعرج قليلاً، ثم سألته مباشرة ونظراتها موزعة بينه وبين حقيبة السفر الصغيرة:

-إنت بتعمل إيه؟

نظر لها في فتورٍ وكأن سؤالها لا يعنيه، ألحت عليه مكررة تساؤلها المستفهم:

-يا واد قولي بتعمل إيه؟ ولا رايح فين السعادي؟

رد بنبرة ساخطة تم عن عزمه للأمر:

-بأوضب هدومي للسفر زي ما إنتي شايفة.

-يعني إنت مسافر؟

-أيوه، طالع أغير جو يومين كده مع أصحابي

هتفت مرددة في استغرابٍ مُبرر:

-في الجو ده يا "هيثم"؟ طب ليه؟

أجابها بزفيرٍ منزعٍ ووجهه مغطى بتعابير جامدة:

مخنوق.

رفعت حاجبها للأعلى متسائلة:

-في حد ضايقتك؟

أجابها بنظراته المتمرة وتعابير أقرب للترمت:

هو في غيره

لم تكن بحاجة لامتلاك ذكاء خارق لتفطن إلى الإجابة الصحيحة لسؤاله، حيث علقت عليه بنظراتها الحادة:

-جوز خالتك "بدير"، صح؟

تابع معللاً سفره المفاجئ مستغلاً تلك الحجة الزائفة ل يبدو جيداً في إقناعه لها:

-ما هو لازم يسمم بدني بكلمتين بايخين من بتوعه، حتى لو كان ده فرح أختي

وقفت "بثينة" قبالتة تقول له بتجهم:

-معلش يا حبيبي، ولا تحرق دمك، هو كده غاوي ينكد على الناس، اطلع سافر وغير جو،

وروق مزاجك، وأنا ليا لي كلام معاه و...

قاطعها في عصبية:

-يامه أنا مش عاوزك تتحشري في مشاكلي معاه كل مرة، بيمسكها لي ذلة ويعايرني بيكي

ردت بنبرة منفعلة:

-فشرت عينه، ده إنت راجل ابن راجل، هو نسي نفسه ولا إيه بتاع الجرجير ده؟!!!

قال "هيثم" في عدم أكثرث وهو يجر جر حقيبة سفره خلفه بعد أن أنزلها من على الفراش:

-أديني هسيبها له وهاغور من وشه، إياكش يرتاح

سارت خلفه محاولة تهدئته، فقالت:

-ولا تضايق نفسك، أنا هاعرف أجيبك حقا منه

لم يكلف نفسه عناء الرد عليها، تابع سيره المتعجل متجهاً نحو الصلاة، سألته باهتمام مدللة إياه:

-ناقصك فلوس يا نور عيني؟

للحظة تجمد في مكانه وكان ساعة أصابت جسده، التفت نحوها ينظر لها بعينين غائمتين متذكراً

سطوه على منزل خالته في ظلام الليل وحصوله على مبلغ لا بأس به، بدت تعابيره غريبة نسبياً

ووالدته تتأمله، تدارك شروده السريع ليقول بتلعثم وهو يهرب من نظرات والدته:

-... مستورة

أصرت عليه قائلة:

يا حبيبي ماتكسفش، هو إنت بتطلب من حد غريب، ده أنا أمك، وكل ما أملكك ليك يا "هيثم"
استدار ناحيتها متصنعا الابتسام، ثم شكرها وهو يحني رأسه نحو جبينها ليقبله:
تعيشيلي يامه.

أوصته "بثينة" بنظراتها التي تبدلت للجدية:

خد بالك من نفسك وكلمني كل شوية عشان أطمئن، ماتسبنيش قلقانة
طيب.

قالها وهو يدير مقبض الباب ليفتحه، اتجه للخارج في سرعة وهو يعد نفسه بسفرة ممتعة مع رفقاء
السوء ينفق فيها ما حصل عليه من غنيمته الثمينة على شهواته دفعة واحدة، وكأنه بذلك يفرغ غضبه
المكبوت في إضاعتها سدى مقنعا نفسه بأن ما سرقه ليس إلا جزءا ضئيلا من حقه المسلوب.

.....

رفعت رأسها لتستند على كتفه بعد أن ذاب الجليد بينهما وغابا في لحظات حميمية مميزة تأكد فيها من
عفتها، وشعرت فيها بتأثير أنوثتها عليه، استلقى "تميم" على الفراش وشبك ذراعيه خلف رأسه تاركا
إياه تداعب صدره بأناملها الرقيقة، أغمض عينيه ليغفو مما حمسها لتأمله عن كثب بعينين تشعان
بهجة، بدت أنفاسها دافئة وهي تلطم صدغه حينما همست له بنعومة:

-مش عاوزة أفوق من الحلم الجميل اللي أنا عايشة فيه معاك، نفسي- نفضل كده على طول، أنا في
حضنك، وانت معايا مابتفارقينش.

رد عليها بصوت يميل للنعاس، ودون أن يفتح جفنيه:

-بكرة تزهقي مني.

أكتسى وجهها بتعبير مزعوج، وقالت محتجة:

-استحالة يحصل ده، أنا ماليش إلا إنت ويس!

شعر بتلك القبلة الناعمة التي انطبعت على جانب وجهه ففتح عينيه ليجد "خلود" تكاد تلتصق به، وتتطلع إليه بنظرات هائمة مليئة بالعشق، بسمة عذبة ظهرت على شفثيه قبل أن يرفع رأسه نحوها ليطبق على خاصتها مبادلاً إياها قبلة ناعمة جعلت بشرتها تتضرج بحمرتها النضرة، تشاءب في تعبٍ وربت على كتفها، ثم أزاها ليتقلب على جانبه وهو يقول لها يارهاقي:

-تصبحي على خير يا "خلود"

أكفهرت قسامتها وردت متسائلة بتذمر:

-إنت هتنام دلوقت؟ مش هاتقعد مع بعض شوية؟

أجابه في ثقلٍ وقد انطبق جفناه على بعضهما البعض:

-معلش يا حبيبتي، أنا مش قادر خالص، جسمي كله مكسر، ومش شايف قدامي!

أحست "خلود" بقليل من الإهانة والتجاهل من خلال جملة تلك، فمن المفترض أن يقضي - ليلته الأولى معها حتى الصباح، انزعجت من عدم أكثرائه بما يجيش في صدرها من ضيقٍ، واعتدلت في رقدتها لتكتف ساعديها أمام صدرها، تعمدت أن تنفخ بصوتٍ مسموعٍ ليعبر عن استيائها، ثم رددت عالياً:

-يعني هاسهر لوحدي؟ بقى ده ينفع؟ ده أنا نفسي أحكي معاك ومائش خالص.

أدرك "تميم" أنها لن تتوقف عن التذمر والشكوى حتى ينهض، نفذ النعاس عن جفنيه متخلياً عن رغبته الشديدة في الحصول على قسطٍ وافرٍ من النوم، والتفت نحوها متسائلاً بخلجاتٍ عابسة:

-عاوزه تحكي في إيه يا "خلود"؟

شعرت بالزهو لنجاحها في اجتذابه إليها، تطلعت إليه بنظراتها الوالهة، ثم صممت لتفكر فيما تريد الحديث عنه، طراً ببالها سؤاله عن الندوب التي تحتل الجانب الأيمن من كتفه، بدت لها كأثار

حروق قديمة، لكنها لا تعرف سببها مما استرعى فضولها، استندت بطرف ذقنها على مرفقها المسنود على الوسادة متسائلة في نشوةٍ وابتسامتها الفاتنة:

- هو اللي في ضهرك ده جالك من إيه؟

وأشارت بعينها نحو جانب كتفه لتتحرك أنظاره عفويًا مع إيماءتها، ويا ليتها لم تتطرق إلى تلك الذكرى المؤلمة! فقد اشتدت تعابيره المسترخية قساوة واحتقنت نظراته، رمقها "تميم" بنظرة غريبة قائمة هادراً بها:

- ملكيش فيه!

انتفضت من صوته الأجش الذي جعلها تتخشب في مكانها وتحملق فيه في ذهول، تدلى فكها للأسفل وهو يتابع تحذيره القاسي:

- في حاجات مايجبش أحكي عنها ولا حتى أفكرها، منها حروق ضهري! يا ريت تفهمي ده!

ارتجفت شفاتها، وشعرت بالاختناق يضرب صدرها من حدته معها، حاولت أن تتماسك حتى لا تبكي أمامه، ثم هتفت مبررة سؤالها البريء:

-أنا.. مقصدش يا "تميم"، إنت عارف إن أي حاجة تخصك تهمني، و.. معرفش إن سؤالي ده بالذات.. ه.. هيايقك

رد بشراسةٍ وقد غامت عيناه:

-وأديكي عرفتي، يا ريت ماتكرريهاش

-بس .. كده آ...

قاطعها بحسم وبلهجة ذات طابع رسمي جليدي وهو يوليها ظهره:

-تصبحي على خير.

تطلعت له في قهرٍ وحسرة، دمعة حزينة فرت من طرف عينها تأمراً بموقفه الصارم معها، مسحها بيدٍ مرتعشة، واستدارت للجهة المعاكسة ملقبة برأسها على الوسادة، ضغطت على شفيتها لتمنع

شهقة باكية من الخروج من جوفها لتفضحها بعد أن أشعرها بالخذلان، لم تستطع السيطرة على الرجفة الخفيفة التي سيطرت على جسدها، نهضة تكاد تكون مسموعة انفلتت منها حينما أحست بذراعه تحاوطها من الأعلى، حاولت الابتعاد عنه لكنه رفض إفلاتها، أطبقت على جفنيها في قوة مقاومة تيار المشاعر الحزينة الذي غزاها، تردد صوته الهامس في أذنها معتذراً:

-حقك عليا يا "خلود".

عاتبته بنحيب:

ليه دائماً بتكسر بخاطري يا "تميم"؟ وأنا اللي بأحبك!

ندم الأخير لسوء تصرفه وقساوته غير المفهومة معها، فقال لها موضحاً أسبابه:

-والله ما قصدش، متزعلش مني، وبعدين ده أنا لسه مفهمك إن في حاجات بتضايقني، وإني عاوزك تصبري عليا لما أتعصب.

ردت في غير اقتناع:

-وسؤالي عمل كل العصبية دي؟

تنفس بعمق ليثبط انفعالاته كلياً، ثم لفظ الهواء في زفير بطيء قبل أن يجيها بهدوء يناقض عصبته قبل لحظات:

أكيد لأ.

تابعت متصنعة اللامبالاة:

-عموماً حصل خير

مرر "تميم" ذراعه الآخر أسفل جسدها لتصبح أسيرة ذراعيه، ثم سألها بصوتٍ رخيم:

لسه زعلانة مني؟

هزت كتفيها تجاوبه:

-عادي .. مش هاتفرق، ما أنا لسه غريبة عنك!

زادت كلماتها الأخيرة من إحساسه بالذنب، أراد "تميم" أن يعوضها عن ذلك، فشدد من ضمه لها لتشعر بحرارة جسده عليها، ارتجفت من لمساته التي تُجيد اللعب على أحاسيسها المرهفة، وتشعرها باحتلاله لوجدانها، لهيب أنفاسه الساخنة وترها أكثر، خاصة حيناً لامست جانب عنقها وهو يستأنف همسه المعتذر:

-حقك عليا.

ردت بصوتٍ لان بدرجة كبيرة وقد استجمعت نفسها:

-خلاص يا حبيبي.

وبكل ودٍ ولطف أدارها إليه ليجثم فوقها وتصبح أسيرة نظراته التي تفتتها، ابتسم لها بطريقة ساحرة أشعلت جذوة الحب في كيانها، مال عليها يقول بنبرة ذات مغزى، وتلك العبثية المغرية تتراقص في حدقتيه:

-سيني أصلحك على طريقي!

تورد وجهها بالكامل وقد فطنت إلى تلميحه المتواري بمنحها المزيد من اللحظات الشغوفة التي حتما ستمحو تعاستها.

.....

ليلة طويلة باردة انقضت عليه حتى سطع النهار وهو جالس في الصلاة بمفرده رابط الجأش يفكر ملياً وبعمقٍ فيما حدث، كان المكان غارقاً في الهدوء مما ساعده كثيراً ليصفو ذهنه وينشط ذاكرته، فقد تركته زوجته لتستسلم لسلطان النوم حيناً تتمكن منها التعب وغفت في غرفة ابنها بعد أن رفضت النوم في غرفة نومها كردة فعل طبيعية لتأثير الصدمة المرتعدة عليها. أطفأ "بدير" سيجارته العاشرة في منفضته التي امتلأت بأعقاب السجائر مُنشطاً ذاكرته بالأحداث التي يمكن أن تحفز ذلك اللص وتدفعه للتجراً واقتحام منزله في غفلة منه، وكأنه يعرف جيداً متى سيخلو البيت من ساكنيه لينفذ جريمته. كل الشواهد حامت حول شخص بعينه، ولا ينكر "بدير" أنه استعان هاتفياً بأحد أصدقائه القدامى ممن يعملون بالسلك الشرطي ويحتلون منصباً متقدماً فيه، أفادته تلميحاته الدقيقة، ونصائح الخبيرة مع محترفي الإجرام في إرشاده لضالته وتأكيد شكوكه التي اتجهت نحو

"هيثم" تحديداً .. نعم إنه أول من فكر فيه ليقوم بتلك الفعلة النكراء، خاصة وأنه الوحيد الذي تواجد مؤخرًا في غرفة نومه، وربما لمح الأموال مصادفة في الدرج العلوي، تبقى له فقط أن يتأكد من معلومة واحدة إيجابتها لدى زوجته، فإن أعطته المال حقًا دون علمه وعرف أين يتواجد، فسيتكتم الصورة في ذهنه. ضغط "بدير" على أصابعه في غيظٍ حتى ابيضت مفاصله، ثم ردد مع نفسه يتوعده بوجه لا يبشر بالخير:

-أه لو طلعت إنت! هاعلقك وأعرفك مين أنا يا ابن "بثينة"!

ازدهرت الأعمال خلال الأيام التالية بعد أن تذوق معظم رواد منطقة الكورنيش السندوتشات الشهية، أصبح لديها زبونها الخاص ممن يفضلون الأطعمة المختلفة وذات المذاق المميز، وبدأت تتكون علاقات ودية وطيبة مع الكثير من العائلات التي تصادقت مع الشابتين وأمهات، تلك السيدة الوقورة صاحبة الملامح الوديدة، والقلب الحنون التي تعامل الجميع برحابة صدر ولطف محبب للجميع. وبالرغم من امتعاض "خليل" ورفضه لذلك العمل غير المجدي -من وجهة نظره- إلا أنه اتخذ موقفًا سلميًّا وتابع بنفسه ما تقوم به الفتاتين، والحق يقال أنهما كانتا مثلاً يحتذى به للأخلاق والجدية، التزمت كلتاهما في التعامل مع الجنس الآخر، وانشغلنا فقط بتأدية المطلوب منها في سرعة ودقة..

إلى جواره، وعلى مقربة من العربة، جلست "حمدية" التي كانت أحشائها تحترق كمدًا من حيادية زوجها تتابع المشهد العبي بنظراتها الناقمة؛ تارة تحديق في "خليل" شريرًا، وتارة أخرى تحمق في الاثنتين بسخطٍ متعظم، نفخت متسائلة بنفاذ صبر وهي تهز ساقيها في عصبية:

-هو احنا هنفضل قاعدين الأعدة الهباب دي كده كثير؟

رد بفتورٍ دون أن يجيد بنظراته عن عربة الطعام:

-لو زهقتي روجي!

قالت بنبرة مستهجنة ووجهها متجه الملامح:

-وأقعد لوحدي بوزي في بوز العيال؟

زفر ببطءٍ قبل أن يعلق بإيجازٍ:

-هانت يا "حمدية".

تابعت الأخيرة شكواها فأكلت وهي تحكم لف شالها السميك المصنوع من الصوف حول كتفها
لتحصل على الدفء:

-ده البرد نخر في عضمي، معنتش قادرة من كتافي.

رد على مضيض:

-اصبري.

أضافت بحقدٍ وعيناها تبرقان في غيظٍ:

-لأ وبنات أختك معندهومش دم! إن مافي واحدة عزمت علينا بسندوتش ولا حنة فطيرة سخنة
تطري علينا، وهما مولعينا من بدري، آل يعني اللقمة دي هاتخسر معاهم!

زجرها مرددًا في تهكمٍ ساخر:

-بطلي طفاسة يا "حمدية"!

شقتها تعنفه مستخدمة يدها في الإشارة:

-طفاسة؟ لأ عندك! ده أنا جاية من بيت شبع يا "خليل"، أكل إيه اللي أبصله وعيني فيه؟!
حاسب على كلامك معايا!

رد بضحكة مستهزأة من إنكارها الزائف:

-ما هو باين.

زمت شفيتها في حركة متأففة وهي تدور بعينها على المارة مغمغة بعبارات ناقمة لم يفهم معظمها
"خليل" إلى أن ضجرت من انتظارها الممل، لذا قالت مرة أخرى وقد نفذ صبرها:

-مش ناوي تقوم معايا؟

أجابها معاتبًا:

-وأسيب أختي وبناتها لواحدهم في الشارع؟

ردت عليه بازدراءٍ ونظراتها الاحتقارية تجوب أوجه ثلاثهن:

-يعني هيجراهم إيه، ما الناس حواليم أد كده زي الرز، مش هياكلهم البعبع ياخويا!

أصر على بقائه مشددًا:

-بردك مايصحش، أنا هافضل معاهم.

أومات بحاجبها تسأله بنبرتها المتنمرة:

-ده إيه الحنية اللي نزلت على قلبك دي؟ من إمتي الحب ده كله يا "خليل"؟

جاوبها بضيقٍ وقد غلف تعابيره الانزعاج:

-يعني عاوزة الناس تأكل وشي بعد ما اتعرف إن بنات "آمنة" فاتحين عريية أكل وأنا مش واقف

جميهم؟!!!

لم تصدق بالطبع مبرراته الواهية التي يختلقها ليظهر اهتمامه الزائف بعائلته، فقالت ساخرة منه

بجدية أكبر:

-وهما لما يشوفوك أعدلهم كده هيشجعوك؟ ده مش بعيد يقولوا عليك طرطور، أو آ.... ولا بلاش

تسمع مني كلام يوجعك، لأحسن تزعل!

قال لها في نفاذ صبر:

-انزلي عن دماغني يا "حمدية"، أنا مش ناقصك.

تمتت ترد عليه وهي تزم شفقتها:

حجكم!

تابع "خليل" مضيئًا مشاركًا إياها ما يدور في عقله:

-أما أنا في مخي ترتيب حلو، لو مشي زي ما أنا عاوز هنطلعنا بمصلحة!

سألته بفضول وقد توهمت نظراتها:

-ترتيب إيه ده؟ ما تقولي عليه!

رمقها بنظرة مزعوجة قبل أن يقول على مضض:

-ما أنا خايف لتبرمي فيها وتفسد!

زجرته بعصبية وقد هبت واقفة على قدميها:

ليه؟ حد قالك إني بومة؟ خلاص يا إدلعي مش عاوزة أعرف!

أمسك بها من معصمها ليستوقفها، ثم جذبها منه ليجلسها في مكانها وهو يقول مرغماً:

-هاقولك وربنا يستر!

ادعت عدم أكثرائها، وأشاحت بوجهها للجانب لتظهر ضيقها، فأكل بجذرٍ عارضاً عليها فكرته الخبيثة:

-دلوقتي الحاج "بدير" عليه دين في رقبتة لينا، عشان اللي حصل من قريبه مع أختي، أنا عاوز

أستغل ده بقى وأخد منه قرشين كده ندفعهم عربون لدكان محندق حاطط عيني عليه بقالي فترة،

أل يعني بحجة إننا بنساعد البنات اليتامى بدل وقفنهم في الشارع

انتبهت له وسألته مستوضحة:

-أها، وبعدين؟

قال بإيجازٍ مليء بالغموض:

-ولا قبلين، هاجيب الدكان وأشغله لحسابي

رددت في قلبي:

طب وبنات أختك، هتعمل معاهم إيه؟

أجاب ببساطة وكأنه قد أعد الرد مسبقاً:

- هخليهم يبيعوا العربية دي وأخد فلوسها واحطها في الدكان وتوضييه.

طب ما جايز يشبطوا فيه وتخسر المصلحة كلها!!

- مش هياحصل، ما أنا هاعمل الورق كله باسمي وبيقوا يقابلوني لو طالوا مني حاجة

حذرته من جديد بلهجة مغلقة بالجدية:

- أنت ضامن الحكاية دي؟ بنت أختك "فيروزة" مش عبيطة، ولا سهل يضحك عليها

استطرد محترقاً قدراتها:

- دي جمعاعة على الفاضي، قطتها جمل، ومش هاتقدر تعمل حاجة.

كانت غير راضية عن استهائته بها، فعادت لتحذره:

- أنا بأنبيك بس، هي مش سهلة!

تقوست شفناه قليلاً وأظهرت ابتسامة مغترة عليهما حينما قال عن ثقة كاملة:

- متقلقيش، جوزين أقلام مني على وشها هيربوها!

نظرة مطولة منها إلى وجهه الخبيث، بدت كما لو كانت تدرسه، ثم تهتت قائلة:

- هانشوف.

.....

بابتسامة عملية بحتة وإيماءة رأس بسيطة مدت يدها بكيس ورقي مليء بالسندوتشات من نافذة

العربية نحو أحد الأشخاص المنتظرين ليحصل على طلبه، تلقت "فيروزة" النقود من شخص آخر

ودونت في ورقة صغيرة ما يريد، ثم استدارت نحو أختها تسألها بتلهف:

-أورد 36 خلص؟

أجابتها "همسة" بلهاتٍ وهي تدور حول نفسها لتنجز عملها في أسرع وقت:

-بأقفله أهوو.

أشارت الأولى بالورقة الصغيرة التي في يدها متابعة حديثها:

حبيب في أوردت ثاني مستعجل

هزت رأسها بالإيجاب وهي ترد عليها ويدها مشغولتان في تغليف السندوتشات بطريقة جذابة:

-ماشي.. هاعمله بعد ده على طول

-أوكي

تطلعت "فيروزة" من النافذة مجددًا لتراقب وتقرأ ردات الفعل على أوجه الزبائن الذين لم يغادروا المكان بعد، وآثروا تناول السندوتشات على الكورنيش بجوارهم، رأت علامات التلذذ والاستحسان واضحة على محياهم، شعرت بالانتشاء والرضا لنجاحها في إرضاء جمهورها من الذواقة، استمرت في تحريك عينيها على باقي المنطقة إلى أن توقفت عند البقعة التي يجلس فيها خالها، لم تصدق بقاءه حتى تلك الساعة، قالت في ذهول لأكزة أختها في جانب ذراعها لتنتبه لها:

-تصدقي يا "همسة" خالك لسه قاعد لدلوقتي!

رفعت الأخيرة عينيها لتنظر إلى الأمام باحثة عن مكانه وهي تقول:

-تهزري!!

تابعت "فيروزة" جملتها بتأفف مشمئز:

-لأ والعقربة مراته لازقة فيه!

ردت عليها أختها تمازحها:

-تلاقيها مش رحمانا من كتر أرها علينا

أيديتها الرأى فاستطردت:

-ايوه، ربنا يستر من عينيها، ومن شر حاسد إذا حسد!

-يا رب، الأوردت جاهز للتسليم يا "فيرو".

قالتها وهي تناولها آخر ما أعدته من طعام لتضعه في الكيس الورقي حتى يتسنى لها إعطائه لصاحبه، ولزمة معتادة منها مسحت كفيها في مريلة المطبخ التي تحاوط خصرها قبل أن تنظر مصادفة أمامها، وكأنها على موعد مع القدر، كانت أكثر إحساسًا بالتوتر والضياع، مجتذت عيناها في ارتعابٍ منه حينما أبصرته أمامها يطالعهما عن قصدٍ، جف حلقها وانتفضت عروقها خوفًا من قدومه المحمل حتمًا بالمشاكل، رددت مع نفسها في رجاءٍ كانت واثقة أنه لن يستجاب:

-شكل الليلة مش هاتعدي على خير، يا رب ما يجي هنا!

تراجعت تلقائيًا خطوة للخلف وقد بات بالفعل واقفًا أسفل نافذة العربة وكامل نظراته مركزة عليها أولاً قبل أن تتحول عيناها تلقائيًا وبشكلٍ آلي نحو "فيروزة" وقد هتف صائحًا بصوته الرجولي الأجش:

-سلامو عليكم !!

.....

الفصل الثاني عشر

بخطواتٍ متهادية بطيئة وحذرة اتجهت "هاجر" إلى الأريكة لتستلقي عليها وقد بدا بطنها المنتفخ متدليًا بشكلٍ لافتٍ للأنظار، وضعت صحن الفاكهة الذي قطعت ثماره إلى قطعٍ صغيرة في حجرها، وبدأت في تناوله واحدة تلو الأخرى، شعرت بعدم الراحة لجلوسها هكذا وساقها تتدلى، لذا ثنيت ساقها اليسرى ووضعتها أسفل منها، وتطلعت إلى والدتها بنظراتٍ عادية قبل أن تقول لها بلوم وفهما ممتلئ بالفاكهة التي تلوكلها:

-إنتي غلطانة في الحكاية دي يامه، كان لازم تبلغوا البوليس!

زمت "ونيسة" شفيتها قائلة في حيرة وضاربة بظهر كفها على الآخر:

-وأنا كنت هاعمل إيه وأبوكي مصمم على اللي في دماغه؟!

قالت وبقايا الطعام تتناثر من جوفها:

-كنتي تقوليلنا واحنا نتصرف.

بدت أمها كما لو لسعتها حية فانتفضت بجزعٍ تقول:

-إنتي عاوزاه يغضب عليا؟

ثم التقطت أنفاسها لتهدئ من حالتها المرتاعة لتضيف في ندم:

-بقي دي جزاتي إني حكيتلك؟

-لأ يامه، بس احنا خايفين عليك.

ردت بصوتٍ متهدج متذكرة إحساسها الشديد بالارتعاب لمعايشة تلك الذكرى من جديد، حتى

وإن كانت متجسدة في مخيلتها:

-متفكرينش يا "هاجر"، ده أنا حالي كانت حالة، ولسه وحياتك لحد دلوقتي!

تجشأ "محرز" بصوت مزعج بعد أن انتهى من تجرع زجاجة المشروب الغازي على دفعتين وهو

يستدير في اتجاه حماه ليعلق بسخافة، وكأن الأمر يعنيه حقًا:

يا حاجة كده احنا ادينا الحرامي ده فرصة يعلم علينا، والكلام لو اتنتور واتعرف في الحتة شكلنا مش هايبقى حلو.

أدارت رأسها في اتجاهه لترد عليه:

-عمك الحاج هيتصرف

استطرد متسائلاً وهو ينظف ما بين أسنانه بظافر إصبعه الصغير:

-و"تميم" يعرف على كده؟

اتسعت عيناها تحذره بلهجة جادة:

-بالله عليك ما تقوله يا "محرز"! احنا مش عاوزين نعكنك عليه وهو لسه عريس جديد بيشم نفسه مع مراته، مش هايبقى محطوط في مشاكل من أولها!

رد على مضيض:

-ما هو هيضابق لما يسمع من براء، ويحيي يعتب علينا!

قالت مؤكدة عليه في نبرة أقرب للرجاء حتى لا يتسبب في إحداث مشكلة دون داع:

-ما أنا قولتلك محدش يعرف، وانت ماتقولوش خالص، ولا كان في حاجة حصلت، ماشي يا ابني؟

بينما هتفت "هاجر" توصيه هي الأخرى ومدعمة لوالدتها في رغبتها:

-خلاص يا "محرز"، هما أدري بمصلحتهم.

هز رأسه بإيماءة مستسلمة يقول لها:

-ماشي يا حماي، اللي يريحك.

نظرت له "ونيسة" في امتنانٍ بالرغم من القلق الذي اعترأها بعد أن أطلعتها على ما حدث في المنزل من سرقة قبل بضعة أيام، دعت الله في نفسها ألا يتفوه أحدهما ولو مصادفة بشيء لـ "تميم" أو والده فتعرض هي للتوبيخ، أشاحت بعينها بعيداً عن وجه "محرز" لتنظر إلى ابنتها متسائلة في

اهتمام:

هنزل امتي نشترى حاجات النونو؟

أجابه بتنهيدة متعبة:

-يومين كده ولا حاجة يامه، أكون بس شدت حيلتي شوية.

حركت رأسها في تفهم، وابتسمت تدعو لها:

على خيرة الله، ربنا معاكى ويقويكي، ويرزقك بساعة سهلة من عنده.

.....

مسحت بمنديل ورقي اللوح الرخامي الممتد أمامها حتى تزيح أي بقايا لزجة عالقة به فور أن عبات السندوتشات في الكيس الورقي لتكتمل مهمتها في تجهيز الطلب وإعداده للاستلام قبل أن ترفع رأسها وتنظر إلى ذاك الشخص المرابط أسفل نافذة العربة، دقت "فيروزة" النظر في ملامحه المألوفة، عرفته دون عناء في التفكير، إنه العريس الذي دُعيت والدتها لحضور حفل زيجته منذ أيام، وابتساماً روتينية بحتة سألته:

-أيوه .. أوامر حضرتك، إيه طلباتك؟!

انتصب "تميم" في وقفته الرجولية المهيبة يجوب بنظراته شكل العربة من داخلها وخارجها وكأنه مفتش من الصحة يبحث عن النواقص والعيوب قبل أن يكتب تقريره النهائي، تأملته "همسة" في خوف مبرر، فسكوته ونظراته المريبة تؤكد لها وجود خطب ما، ناهيك عن معرفتها الجيدة بحمية أختها وتعصبها الزائد لما يخصها، تضرعت بتوسل للمولى أن يمر الأمر على خير، خاصة أن اللقاء السابق معه لم يبشر - بخير. أطاح "تميم" برجاواتها حينما هتف متسائلاً بوقاحة منقطعة النظير مستخدماً يده في الإشارة:

-إنتو بقى اللي مدورين الليلة دي كلها؟

وضعت "همسة" يدها على جوفها لتمنع شهقة مصدومة من الخروج عقب جملته الموحية تلك والتي حتماً ستشعل جذوة الشجار، كانت مرتعدة من ردة فعل أختها التي لن تقبل بتلميح صريح ومسيء كهذا، التفتت نحو "فيروزة" لتجدها قد جحظت بعينها في ذهولٍ مستنكر لتلاعبه بالألفاظ

والإشارة لكون الاثنتين تفعلان ما يشين، احدثت نظراتها نحوه ورمقه بنظرة عدائية شرسة قبل أن تصيح في وجهه بصوته مرتفع وغازب:

-ما تحترم نفسك يا جدع إنت! إيه الكلام ده؟ يعني إيه مدورينها؟

أجابه ببرود وقد قست نظراته هو الآخر:

-يعني زي ما فهمتي يا أبله!

استشاطت حنقا من اتهامه الباطل الذي يمس سمعتها دون وجه حق، فتشجج صوتها، ولوحت بذراعها وهي تهاجمه وقد انخست من النافذة نحوه:

-أخرس، قطع لسانك إنت واللي زيك، إنت جاي تفل أدبك علينا هنا؟

بدا فجأ للغاية وهو يتابع وكامل نظراته المزدرية تدور في المكان بشكل ينم عن نفوره:

-أومال تسمي اللمة اللي هنا دي؟ دي معجنة! حريم على رجالة، والسايب في السايب.

اشتعل وجهها واربد بغضبه المستعر، اعتقدت أنه واحداً من المتسكعين اللزجين الذين يظهرون وقاحتهم مع الناس لترتعد، ردت تحذره بحدية حتى توقفه عند حده، فلا يتمادى معها:

-لأ عندك، أنا مسمطلكش!

ثم اتجهت إلى باب العربة دافعة أختها للجانب لتتنحى عن طريقها، توسلت لها الأخيرة باستماتة والرعب يشع من عينيها المدعورتين:

-بلاش يا "فيروزة"، خليكي معايا، ده شكله بلطجي!

ردت حاسمة أمرها ودون أن تلتفت لها:

-مش سيباه برضوه!

هبطت عن العربة لتغدو في مواجهته، لم تكن بصاحبة القامة القصيرة لتخشاه، بدت أقرب طولاً إليه، تطلعت إليه في عدائية بائنة، وهتفت مدافعة عن نفسها بقوة وذراعها يلوح في الهواء:

-الكل واقف باحترامه هنا، محدش يجرو يعمل حاجة غلط، ولا حتى يقدر...

قست نظراتها أكثر نحوه حينما استأنفت جملتها قاصدة إهائته بشكلٍ فج يليق بتصرفه:

-بس في ناس تفكيرها قدر.. زيك كده .. مفكرة الكل مش مضبوطين!

نظر لها شزراً وقد احتقنت عروقه بدمائه الثائرة، حدجها بنظرة احتقارية جابتها من رأسها لأخص قدميها وهو يسألها بلهجة ذات مغزى:

-وانتي بقى اللي مضبوطة؟

صرخت فيه تهدده بسبابتها وعيناها تطقان شرراً:

-اخرس قطع لسانك، انسان مش محترم!

ثم ما لبث أن هددته بعدوانية يستحقها:

-اقسم بالله لو ما مشيت من هنا لأفرج عليك الناس وأمسح بكرامتك الكورنيش ده كله وألبسك مصيبة وقتي!

هتفت "همسة" لها من بعيد وقد تخلت عنها شجاعتهما:

-سبيه يا "فيروزة".

لم تستدر نحوها وظلت تحملق فيه بقوة لا تعرف من أين أتتها، لكنها تخرج دومًا في الوقت الصحيح حينما يتم استفزازها، وبالرغم من استبسالتها في الدفاع عن خاصتها إلا أنها كانت متوترة من ردة فعله المجهولة، وباتت هواجسها عن كونه أحد أولئك المتعاطين للمواد المخدرة كبيرة، فحينما يلعب المخدر برأس أحدهم يصبح في حالة جنونية وغير واعية، وبالتالي يفتعل المشاجرات مع الأبرياء من أجل مساومة حقيرة، أو فرض رسوم جباية لا حق لهم فيها ليحصل على الأموال التي يريدتها بطريقة سريعة وغير شريفة. تخلت بشجاعتهما وأخفت قلقها لتنظر له في تحدٍ وقوة، تقوست شفقا "تميم" قليلاً لتظهر بسمة تهكمية قبل أن يرد عليها عن ثقة مُربكة لها:

-هانشوف مين هايمشي، لأنك مش هاتفضلي هنا كثير.

لوحث بيدها في وجهه تصيح بنبرة مستهجنة:

-إنت مين أصلاً عشان تتكلم ولا تهددني؟
ثم أطلقت ضحكة ساخرة قبل أن تستهزأ به :

-أيوه صح، إنت عريس الغفلة!
هددها بسبابته وهو يكرز على أسنانه:

-لي نفسك معايا.

ردت غير مبالية:

-غلطان وبتبجح؟

لم تعباً بمظهره الغاضب وتعايره المحمومة ووقفت له الند بالند حتى لا يستضعفها، حانت منها نظرة سريعة خلف كتفه فرأت بعض الشباب مجتمع في الخلف، ربما إن تطور الأمر لرفعت نبرتها واستعانت بهم ليعدوه، أشعرتها تلك الفكرة بالارتياح قليلاً، في حين أحس "تميم" بالمزيد من الغيظ يتعمق فيه مع كلماتها التي تنتقص من قدره، وتبينه بشكلٍ قاسٍ، أمعن النظر فيها والحيرة تداعب عقله، وخاصة فيما هو متعلق بجزائها الأثوية التي تناقض كلياً طبيعة زوجته الساهمة المستكينة التي تكاد تفني عمرها لأجل الحصول على ابتسامة صغيرة منه. عاد من شروده السريع على صوتها المكمل وقد استبد بها حنقها:

-أنا ورقي كله قانوني، وماشية سليم! ولو مفكر بالشجيرة اللي إنت عاملها دي هخاف تبقى غلطان، أنا أد عشرة من عينتك! ويا ريت تبطل الهباب اللي بتشربه ده

ابتسم لها في استخفافٍ بعد آخر ما تلفظت به، يا للسخرية! هي تظنه متعاطياً لأحد السموم البيضاء، اندلع غضبها أكثر منه، ولم تعد تتحمل استهائته بها، لذا وجدت "فيروزة" نفسها تتلفت حولها باحثة عما يمكن أن تستخدمه لتضربه بها حتى تزيجه عن طريقها، توقفت أنظارها عندما وجدت دلوًا مليئًا بمياه غسل أدوات الطهي، على الفور تحركت ناحيته لتحمله، ثم قذفته دون تفكير في وجهه لتغرقه به وهي تطرده:

-تطراً من هنا، السكة اللي تودي.

تفاجأ "تميم" بفعلتها غير المتوقعة تلك، وانتفض كلياً مع إغراق ثيابه بالمياه المتسخة، هدر بها في هياج مبرر:

-إنتي اتجنني!!!

لظمت "همسة" على صدغيها في هلع، وقد تفاجأت هي الأخرى بتصرفها، ارتدت خطوة للخلف تقول في نفسها أن حرباً ضرورياً اندلعت بينهما، ولن يوقفها أحد.. صاحت "فيروزة" وابتساماً انتصار ممتزجة بالشماتة تتراقص على محياها ودون أن يبدو عليها أدنى بادرة ضعفٍ أو تراجع:
خلي المياه الوسخة تنضف الأشكال الضالة وتشيلها من هنا.

.....

صعد معه الدرجات في تمهلٍ متبادلاً معه حديثاً مقتضباً قبل أن يصل إلى الطابق الكائن به منزله، بدا ضيفه مشغولاً بدراسة المكان وفحص كل زاوية وركن بعناية فائقة، حتى أن هيئته كانت تعبر عن اشتغاله بوظيفة في جهاز حساس بالرغم من تقلده لبدلة عادية. دس "بدير" يده في جيبيه ليخرج مفتاحه منه، ثم وضعه في القفل الخاص به ليديره ويفتح الباب، ثم تنحنح عالياً بصوته المميز ليعلن عن وصوله قبل أن يبادر مرحباً بضيفه:
-تفضل يا باشا.

تأهبت حواس "ونيسة" مع سماعها لصوت زوجها، وعدلت من وضعية حجاب رأسها عليها، رسمت ابتساماً لبقة على شفثتها تقول في ودٍ وقد رأت اللواء "وفيق" يرق للداخل:

-يا مرحب بالضيف الغالي، أديلنا زمن ماشوفنكش يا باشا

قال مجاملاً:

-إزيك يا حاجة، إنتي عارفة ورايا أشغال كثير، والي زينا مالوش راحة.

دعت له بصدق:

-ربنا يقويك وينصرك على مين يعاديك يا سعادت الباشا

تساءل "بدير" في اهتمام وعيناه تمسحان المكان:

-أومال أبويا فين؟

جاوبته مسترسلة في ردها:

صلى العشا ونام، و"هاجر" وجوزها كانوا هنا من شوية ونزلوا.

أوما برأسه في تفهم:

طب تمام.

أضاف "وفيق" يطلب منها وهو يمسح على شاربه الكث ليندمه بلزمة التصقت به:

-معلش يا حاجة هنتعبك شوية، عاوزين فنجانين قهوة كده مضبوطين!

ردت على الفور:

-عينيا، دقيقة ويكونوا عندكم في الصالون، اتفضل ارتاح.

هز رأسه في تهذيب واستدار متجهاً إلى غرفة الصالون حيث قام زوجها بإضاءة أنوارها ليجلس فيها بصحبته، دقائق وعادت زوجته ومعها فنجانين من القهوة وضعتها على المائدة الرخامية المستديرة التي تنتصف الأرائك، ثم انصرفت في هدوء ليبدأ بعدها "وفيق" في تناول خاصته وهو يستأذن بهدوء يعكس جديته:

-عاوزك يا حاج "بدير" توريني أوضة النوم، محتاج أشوف الدرج اللي اتكسر وأعين المكان.

وافق دون نقاش مشيراً بيده:

-اتفضل، اعتبر البيت بيتك.

تناول رشفة أخرى من فنجان قهوته، واستند على مرفقيه لينهض من جلسته الاسترخائية ليسير عبر الردهة متجهاً إلى غرفة النوم، قام بفحص الشفونيرة بتأن وهو يسأل "بدير" بضعة أسئلة تحقيقية، وأجابه الأخير بكل ما يعرفه، وما إن فرغ منها حتى طلب الذهاب إلى المطبخ للنظر إليه، فكعادة أغلب اللصوص دوماً يقتحمون المنازل من نوافذ المطابخ أو الحمامات، لأن تلك الأماكن

مهملة إلى حد كبير من قبل سكان البيت، وتعد بمثابة نقطة الضعف التي يستغلها السارق للولوج للداخل. تساءل "وفيق" بلهجة اكتسبت طابعًا رسميًا وأنظاره مركزة على بقعة ما بالأسفل:

-في حد يستخدم البلكونة دي؟

أجابه نافيًا:

-لأ معتقدش

مط فمه يفكر في أمر ما، ثم عاد يسأله:

-مين غريب بيحي عندك يا "بدير"؟

استغرقه الأمر لحظة ليجيبه مستفهمًا:

-زي مين يعني؟

أجابه ببساطة:

-واحدة بتيجي تنضف مثلاً، عامل بتبعته بطلبات البيت، آ..

أجابه مستفهمًا في الرد

-لأ مافيش، أنا اللي بأجيب الحاجة بنفسي-، يا ابني "تميم" بيعته بالطلبات كل أسبوع، وحتى "أم علي" الست اللي بتيجي تساعد الحاجة "ونيسة" في تنضيف البيت كل فترة بتبقى الحاجة واقفة على إيدها لحد ما تخلص وتمشي.

هز رأسه معقبًا عليه:

-مفهوم.

سأله "بدير" ليطلع على ما يدور في رأسه من تفكير محلل للأحداث:

-رأيك ايه يا "وفيق" بيه؟

تنحى مجيبًا إياه بعقلانية:

-واضح أوي من المعاينة يا "بدير" إن الحرامي دخل من هنا...

ثم أشار بيده نحو الزاوية المهمشة ليسير الاثنان نحوها بجوار الشرفة، تقدم "وفيق" أولاً ليقوم بفتحها بعد أن أزاح ما يعيقه، اعتلى ثغره ابتسامة ساخرة حينما رأى بقايا آثار أقدام موجودة في الأنحاء وتحدد بوضوح كيف جاء وانصرف اللص، وذلك بسبب تراكم الأتربة التي تحولت لطين بفعل الأمطار الغزيرة، أو ما بعينه نحوها يقول:

-بيتهيا لي إنت شايف اللي أنا شايفه، رجليه باينة إزاي هنا وهنا، وده معناه إنه طلع من المنور ونط لفوق عشان يوصل للبلكونة دي، ومنها دخل للشقة

علق في غيظ:

-ابن الأبلسة

التفت نحوه متابعا تفسيراته الشرطية وقد بدا على وجهه علامات التفكير العميق:

هو أكيد عارف المنطقة كويس عشان يقدر ينط من هنا ويوصل لي عايزه بدون ما يعمل قلق، أو حتى حد يشك فيه لو شافه طبعا، ده غير إنه عارف كمان إن مافيش حد فيكم كان موجود السعادي في البيت.

-مضبوط.

-قولتلي إن الحاجة كانت إيديت قريبك اللي شاكك فيه فلوس؟

-أيوه، ده الوحيد اللي دخل الأوضة، وبعدها حصلت السرقة

-عارف إنت لو كنت بلغت عنه كان اتقبض عليه

رد على مضض وقد اربد وجهه بتعبيرات متأففة:

-مكانش ينفع، بس أنا عارف أريبه إزاي!

أوصاه "رفيق" بلهجة يشوبها الجدية:

-عموماً لازم تاخذ بالك عشان مايتكررش الموضوع ده ثاني معاك، وأمن المكان كويس

رد دون جدال وعيناه تجولان على وجهه:

هيحصل إن شاء الله!

.....

دقائق غاب فيها من أجل شراء المثلجات لزوجته اللحوح حتى تكف عن تدميرها المستمر؛ والذي أصاب رأسه بالصداع. اصطحب معها أخته كنوع من إظهار لطفه لها قبل أن يوصلها للمنزل ليعود ويجد ذاك المشهد المتأزم نصب عينيه، سقط كوب المثلجات عن يده وتبعثرت محتوياته على الرصيف ليهرع بعدها نحو "فيروزة" التي على ما يبدو تتشاجر مع أحدهم، تساءل "خليل" بصوته العالي الذي سعى ليكون خشناً متحشراً:

- في إيه بيحصل هنا؟

تسمرت قدماه وتصلب في مكانه مصدوماً وقد رأى وجه "تميم" الغاضب أمامه، كما تلاشى تفكيره لحظياً، ابتلع "خليل" ريقه الذي جف وارتجفت أوصاله وقد جاء صوته مهدداً بقوة:

هتتحاسبي على ده.

انخفضت نظرات "خليل" نحو ثيابه المبتلة، أدرك أن ابنة أخته قد ارتكبت كارثة خطيرة، وعبثت مع من لا يجب المزاح معهم، اقترب منه محاولاً استرضائه وهو يعتذر منه لاعتقاً شفثيه بصوته الذي كان يهتز توتراً منه:

- "تميم"، هو إنت؟ معلش يا ابن الكبير، حقك عليا أنا، ده اللي ما يعرفك يجهلك، وإنت سيد الناس.

اغتاظت "فيروزة" من وقوفه في صفه واعتذاره النادم منه دون أن يفهم حقيقة الأمر؛ وكأنها هي المخطئة، فهتفت تعاتبه بجدة مشيرة بإصبعها في احتقار لـ "تميم":

-إنت هتعمل لده قيمة يا خالي؟

برزت حدقتاه خوفاً من بشاعة هجومها الضاري عليه، رمقها بنظرة حاتقة يصرخ بها والخوف زاده توحشاً معها:

يا بت اسكتي وابلي لسانك! احنا هنروح في داهية كده!

قالت في احتقار أكبر، وتلك النظرة المستهزأة تعلق وجهها:

مع ده؟ ولا يقدر يعمل حاجة!

بقيت أنظارها النارية عليه وهي تتابع:

- أنا هوديه في داهية وهاعمله محضر عشان يتربى.

تمالك "تميم" أعصابه المحتقنة حتى لا ينفجر فيها ويحرق الأرض بمن عليها ليخمد ثورته، لم يستطع وصف مشاعره التي جمعت بين الكثير من التناقضات في نفس الآن بسبب تهورها الأرعن؛ خليطٌ عجيب من الدهول، والغضب، والمهانة، والانتقام. كتم غضبه قائلاً لها بما لا يدع مجالاً للشك أنه سينتقم وبقساوة:

- اللي عندك اعلميه!

تدخل "خليل" يرجوه:

- امسحها فيا أنا، دي بت غبية ما بتفهمش.

نظر له "تميم" بعينين غائمتين تندران بشربٍ مستطر، ولكن صوت "فيروزة" المرتفع أفسد محاولته البائسة لتحجيمه عندما رددت غير مكترثة بتبعات جريرتها:

- ماتعتذرلوش يا خالي؟ ده واحد بجح وشارب، جاي يقول شكل للبيع ويخايقنا ويقول هتتحاسبي وكلام فارغ مالوش معنى!

ثم وضعت يدها أعلى منتصف خصرها متابعة تحديها له:

حطب وريني هتعمل إيه يا سبع البورمبة! البلد فيها قانون يفرف يلم اللي زيك ويحطهم في السجن! بذل "تميم" مجهودًا خارقًا ليحجم من غضبه الذي خرج عن السيطرة وانعكست بوادره في نظراته القاتمة، زجرها قائلاً وقد همَّ بالانصراف:

- الأيام بينا، وهتشوفي!

تحرك بعدها مبتعدًا عن ساحة الكورنيش التي امتلأت بعشرات المتابعين ونظرات "خليل"
المدعورة تتبعه، التفت نحوها قابضًا على ذراعها يهزها منه بعنف وهو يصرخ عاليًا:

-إيه يا بت اللي عملتيه ده، احنا كده وقعنا في مشاكل مع عيلة "سلطان"!!

ردت غير مبالية وهي تنفض ذراعها لتتخلص من قبضته:

-يوريني، وأعلى ما في خيله يركبه!

ازدرد "خليل" لعابه بصعوبة وغمغم مع نفسه في ضعف واضح أزعج "فيروزة":

-استر يا اللي بتستر، كل حاجة كده ضاعت!

استطردت ترد عليه:

-متقلقش منه، أنا

هدر في عصبية:

-بس، اسكتي خالص، إتي مش عارفة النصيبة اللي وقعتينا فيها.

.....

-إيه اللي حصل هناك؟

تساءل "ناجي" في فضولٍ يأكله بعد أن رأى مقتطفات من المشاحنة التي دارت بين رفيقه وتلك الفتاة التي تعمل بالعربة دون أن تتضح الصورة لهن اتخذ موقفًا محايدًا حتى يعود إليه ويتقصى- عن الأسباب، في البداية تجاهله "تميم" ولم يرد عليه واستمر في سيره المتعصب ليبتعد عن المنطقة قبل أن يستفزه أحدهم بتعليق مازح يجبره على الفتك به، وهو بالكاد قاب قوسين أو أدنى من التصرف برعونة ورد الصاع صاعين لمن يتجرأ على العبث معه. ألح عليه "ناجي" حتى يشبع رغبته في معرفة التفاصيل، لكن ثمة غمامة مخيفة بدت ظاهرة في صوت رفيقه وهو ينهره مقتضبًا في حديثه:
قولتلك بعدين.

شعور مزعج راح يضرب كيانه فأصابه بالتخبط والانزعاج، لم يجد التفسير له، لكنه وضعه في حالة ذهنية غير تلك التي اعتاد عليها، ناهيك عن إحساسه المتقد بالغضب الأعمى. اقترح عليه صديقه بطيش حينما تأمل ما يجيش على وجهه من تعابير مخيفة:

لو عاوزني أربي البت اللي قلت أديها عليك دي، فأنا جاهز و.....

توقف "تميم" عن المشي- ليدير رأسه في اتجاهه، ثم قاطعه بصوته المائل للتشنج ونظراته الصارمة مثبتة عليه:

-وأنا من إمتي بأخذ حقي من الحریم يا "ناجي"؟!

رد عليه غير مبالي بما هو متبع في عُرفه الملتزم بالأصول:

-خلاص، سيبنني أنا أتعامل بطريقتي، وملكش دعوة.

حذره بجزم صريح وقد اشتدت نظراته قتامةً وشراسة:

-متدخلش يا "ناجي"! مفهوم؟

هز رأسه بغير اقتناع ليرضيه مؤقتًا، لكنه كان عازمًا في قرارة نفسه على الاقتصاص له، ومع هذا قال له ليربحه:

-ماشي يا صاحبي.

-سلام، هاكلمك ثاني

-مستنيك يا كبير.

كالبركان الثائر قطع "تميم" طريقه عدوًا ليتجه إلى منزل عائلته حتى يبذل ثيابه، فإن ذهب إلى زوجته وهو في تلك الحالة المريية حتمًا لن يسلم من تساؤلاتها التي ستجدد غضبه ويقوة، وربما يضطر لصبه فيها وتصبح هي ضحية إفراغ شحنته المكبوتة، لذا الأسلم لها وله أن يأخذ فاصلًا بعيدًا عنها حتى يستعيد زمام أمره

.....

الفصل الثالث عشر

ذهب إلى منزل أسرته ليبدل ثيابه بالقديم الموجود في دولابه حتى لا يعود إلى زوجته وهو بتلك الحالة الرثة فيشير فيها الشكوك والتساؤلات الكثيرة، وهو حاليًا في غنى عن تحقيقها المستفز الذي لن يجني منه سوى استثارة أعصابه من جديد وتذكيره بما يحاول تجاوزه. سحب "تميم" منشفة قطنية نظيفة مسح بها وجهه بعد أن غسله بالماء والصابون، ثم اتجه إلى غرفته لينزل ثيابه الخارجية، تبعته والدته تسأله بعد أن أعدت له مشروبًا دافئًا:

-حصلك ده من إيه يا ابني؟

أجابها في اقتضابٍ وتلك الملامح المتجهمة ما تزال مرسومة على وجهه:
-ولا حاجة يامه.

أسندت الصينية الصغيرة على طرف التسيريحة، وسارت في اتجاه الفراش لتجلس على طرفه، رفعت رأسها تتطلع إليه وهي تسألها بفضولها الأمومي القلق على أحوال فلذة كبدها:

-اتخاقت مع "خلود"؟

جاوبها بما يشبه التهم:

-يامه دي غلبانة ولا تقدر تهش دبانة!

صمت لحظة تفكر مليًا في حيرة، فابنها عاد متأخرًا في تلك الساعة وثيابه في حالة يرثى لها، وعلى وجهه تعبيرات غاضبة، لم يتشاجر مع زوجته، إذا الدافع شيء آخر تخشاه، وبكل عفوية ونزق هتفت ونظرات الخوف متشكلة في عينيها:

-بس! يبقى إنت اتخاقت تاني مع حد من بلطجية السوق! ده اللي حصل ومش عاوز تقولي

استدار نافيًا:

لأ-

ألت عليه بإصرارٍ ونظراتها بالكامل مرتكزة عليه:

-أومال إيه اللي بهدلك كده؟ قولي يا "تميم" وطمني!
-جلس إلى جوارها على طرف الفراش، انتصب بكتفيه وأجابها بابتسامة لطيفة:
-دي حاجة بسيطة يا أمي، ما تحطيش في دماغك.
-ردت بغير اقتناع وقد وضعت يدها على صدغه تتحسه:
-شكلك رجعت لشغل اللبش تاني والخناقات ومش عاوز تقولي.
-أكد لها بصدق:

-أبدًا والله.

سألته في عتاب:

-أومال ليه عاوزني تتعبنى معاك ومش مريح قلبي؟ شكل في نصيبة حصلت وإنك مخبي عليا! ده أنا أمك وقلبي عليك، مترعلنيش يا ضنايا!
-أدرك "تميم" أنها لن تكف عن ملاحظته بأسئلتها إلى أن يجاوبها بما يثلج صدره، تنفس ببطء ثم أوضح لها بسلاسة ودون أن يتعمق في التفاصيل:
-يا ستي والله أنا كنت مع "ناجي" صاحبي، سهرانين شوية، بس مشكلة كده بسيطة حصلت، وخلاص اتحلت وكله تمام
-تهدت "ونيسة" في ارتياح، ثم قالت له وهي تربت على فخذه:
-كلها بالستر معانا يا رب، ده أنا مصدقت إنك رجعت تاني لحضني وبقيت جمبي وسندي، مش هاستحمل حاجة تجراك.

-انحنى ابنها ليمسك بكف يدها المعبد، رفعه إلى فمه ليقبله، ونظر إليها يقول لها ببسمة صغيرة:
-اطمني يامه، ما فيش أي حاجة تخوف.

ثم نهض من جوارها ليمسك بالمشروب الدافئ ليرتشفه، تجرعه على مرتين، وتركه في مكانه بالصينية ملتفتًا نحو والدته، سألها في اهتمام:

قولي يا مه فين أبويا؟

أجابته بتلقائية:

جه أعد شوية مع اللواء "وفيق"، وبعد كده لفوا في البيت ونزلوا.

استغرب كثيرًا من حضور ذلك الضيف الذي لا يأتي دومًا إلا عند حدوث مشكلة خطيرة، مثل قضيته قديمًا، كذلك كانت كلماتها الأخيرة مُدعاة للتساؤل والحيرة، فماذا تعني بقولها أخذ جولة بأنحاء المنزل؟ دقق النظر فيها متسائلًا:

ليه؟

شهقة خافتة خرجت من جوفها بعد أن انتهت لما تفوهت به، حاولت الهروب من أنظار ابنها المسلطة عليها، وأدارت وجهها للجانب الآخر لتدمدم بتلعثم ملحوظ:

هه! م... ما فيش .. حاجة.

ساورته الريبة من طريقته المكشوفة لتخفي عنه الأمور، سألتها بجديّة وهو يدنو منها:

إنتي مخبية عليا حاجة يامه؟

لعت شفتها مدعية كذبًا وقد شحبت لون بشرتها:

-لا يا ابني.

تفحص وجهها المرتاب قائلاً لها بلهجتة التي غلفها الجديّة:

شكلك بيقول غير كده، في إيه؟

لم تستطع النجاة من حصاره، فقالت في استسلام وهي توصيه بتلهف خائف:

أصل.. يعني .. بس بالله عليك ما تجيب سيرة لأبوك ولا تقوله إني عرفتك، أنا مش عاوزاه
يضايك

علق بنفاذ صبر:

قولي يامه حصل إيه!

زاغت نظراتها قليلاً، حاولت أن تبدو جلدة، متماسكة، لكنها فشلت، فخوفها الغريزي ما زال موجوداً بها، لهذا أجابته بتردد وهي تزدري ريقها:

-يعني.. آ... من كام يوم كده واد ابن حرام .. سرقنا.

هتف في ذهول غير مصدق ما تلفظت به:

-نعم، اتسرقنوا؟!!

بررت له بصوتها المهتز:

-أيوه، بس أبوك مسكتش وتقريباً عرف هو مين، بس مش عاوز يقول و...

اربد وجهه بجنقٍ شديد لإخفاء الأمر عليه، شعر بدمائه تثور عما كانت قبل قليل لمجرد تخيل اقتحام أحدهم للمنزل، وربما اعتدائه على من فيه بالقتل أو ما شابه، ثارت ثائرتة، وقاطعها منفعلًا:

-وأنا كنت فين؟ وإزاي محدش قالي؟

نهضت من جلستها لتقف قبالتها، طالعته بعينها المتوترتين، وقالت له في يأس عل ثورته تجبو:

-بسيطة يا "تميم"، عدت على خير.

صرخ بها في هياجٍ مبررٍ له أسبابه:

-تتسرقوا وأنا ولا دريان وتقوليلي بسيطة يامه؟!؟!!

نظرت له في صمتٍ عاجز، فله كامل الحق في أن يغضب ويعاتبها، نكست "ونيسة" رأسها في حرجٍ منه، بينما استأنف "تميم" صياحه الغاضب يسألها في لومٍ شديد:

طب وكننوا مستنين أعرف من برا؟ للدرجادي أنا غريب عنكم؟

لامست جملته الأخيرة قلبها وبدت كالخنجر المسموم فوخزتها بقسوةٍ فيه، رفعت رأسها تنظر إليه في إنكارٍ، ثم دافعت عن موقفها قائلةً بنظراتٍ تحتبس الدموع:

-متقولش كده يا ضنايا، غريب إيه بس، متوجعنيش بكلامك ده، إنت بس كنت ملبوخ مع عروستك واحنا محبناش نقلقك ولا نزعلك في شهر العسل.

زاد وجهه احمرارًا من غضبه المتعاضم بداخله، واستطرد مرددًا بصوته المتعصب:

-محروق الجواز، إئتو أهم عندي.

ريبت على كنفه تتوسله:

-اهدى طيب.

نفخ في غيظ، ثم سألها مستوضحًا حتى لا يبقى غافلاً عما يحدث من وراء ظهره:

-وبلغتوا البوليس ولا عملتوا ايه؟

أجابته على حسب علمها:

-أبوك قال هيتصرف!

نظر لها بعينين مخيفتين، كان غضبه قد بلغ ذروته، تكالبت المصائب على رأسه فجعلته شبه فاقد للسيطرة على انفعالاته، اندفع في عصبية إلى خارج الغرفة، تبعته والدته لتلحق بخطواته المتعجلة وهي تسألها:

-إنت رايج فين دلوقت؟

أجابها دون أن يستدير نحوها:

-هانزل أشوف أبويا وافهم منه اللي حصل

أسكت به من ذراعه لتستوقفه وهي ترجوه:

-لا بلاش، ده موصيني مقولكش، وحتى أختك لما عرفت حلفتها ما تجبلكش سيرة

تطلع إليها في استنكار، كان ما باحت به قد أذهله، غامت نظراته يعاتبها بخشونة:

-يعني "هاجر" عرفت وأنا لأ.. وطبعًا النطع جوزها عارف بالحكاية، وأنا بقى اللي في الطراوة!

بدأت والدته في فاصلٍ من النواح، فقالت وهي تضرب على صدرها بكفيا:

-يعني دي غلطي إني عرفتك؟ أعمل إيه بس يا ربي!

انزع أكثر وساءت حالته المتشنجة من أسلوبها الباكي في استجدائه، ازدادت نبرته عصبية وهو يسألها:

-يامه يعني نسيب ابن الحرام ده يعلم علينا من غير ما نجيبه ونرييه؟! ردت تجيبه عله يتراجع عما ينتوي فعله:

-وأبوك راح فين؟ ما هو مش ساكت، وقالب الدنيا تقلص وجهه أكثر وهو يجاهد حتى يستعيد التحكم في انفعالاته الهائجة، أخرج زفيرًا بطيئًا من صدره قبل أن يسألها:

-والمبلغ اللي اتسرق كبير؟

هزت رأسها بالنفي وهي تجيبه:

-لا، ربنا ستر.. كانت حاجة بسيطة.

قال في استهجان:

-بسيطة ولا كتيرة، ابن ال..... لازم يتجابه من قفاه!

التف سائرًا بخطاه المائلة للعدو نحو باب المنزل، سألته والدته من خلفه في تلهف مرتعد:

-إنت رايج فين دلوقتي؟ إنت وعدتني متعرفش أبوك!

توقفت يده على مقبض الباب، أدار رأسه نحوها يقول:

-خلاص يامه

استعطفته بعينين تتلأأ فيهما العبرات:

-بالله عليك ما تعمل حاجة، الموضوع خلص يا "تميم".

بدا مترددًا في حسم قراره النهائي، استغلت "ونيسة" الأمر وضغطت عليه بطريقتها الناعمة التي تلين القلوب وتوسلته:

- ماشي يا ضنايا، ارجع بيتك ربنا يرضى عليك، أنا معنديش إلا إنت، ومش عاوزة أخسرك.
لم يجد "تميم" جدوى من الاستمرار في الحديث مع والدته التي وضعت في موقف لا يحق له الاعتراض فيه، تركته ينهي زيارته الخاطفة لها بعد أن وعداها بترك الأمر لوالده، لكن ثورته المستعرة بداخله لم تهدئ بعد.

.....

ذرع غرفة نومه جيئة وذهاباً ونظرات الغل والحلق تشع من عينيه؛ تارة يضرب كفه بالآخر، وتارة أخرى يسب بكلمات نابية، راقبته "حمديّة" ببرود ودون أن تتأثر بشيء، وكأن الأمر لا يعينها حقاً، أمسكت بمبرد الأظافر تلمهم بهدوء وهي جالسة على أريكتها الموضوعة في زاوية الغرفة، ثم تطلعت إليه وتلك النظرة الجليدية تغطي صفحة وجهها، تنهدت تنصحه بسماجة ضاعفت من عصبيته:

- بالراحة يا "خليل" ليطلقك عرق ولا تقع من طولك!

استشاط غيظاً من جمودها بعد أن سرد لها تفاصيل المشاجرة، فصب جام غضبه عليها يلومها:

- حبكت يعني أجيب أم الزيت الآيس كريم ده عشان تطفحيه!

زمت شفيتها في برود أكبر، بينما تابع استرساله الحائق قائلاً:

- ما أنا لو كنت موجود، مكانش ده كله حصل، وكنت اتصرفت قبل ما المصيبة تكبر.

شهقت ترد في استنكارٍ وقد أخذتها حميتها:

- هو إنت هتلبسهالي؟ ما المحروسة بنت أختك هي السبب، آل مش قادر على الحمار بيتشطر على البردعة.

كور "خليل" أصابع يده ضاغطاً عليهم في عصبية وقوة حتى ابيضت مفاصلهم، ثم تتم بنبرته المتحسرة:

- المصلحة كده طارت، وبقي ليهم عندنا حق!

أضافت "حمديّة" بعدائية صريحة لتزيد من تعاضم غضبه:

-المزغودة في قلبها دي مالهاش كبير، ما إنت لو كنت واقفتها وماسبتلهاش السايب في السايب من الأول وعرفتها إن الله حق مكاتش عملت كده.

نظر نحوها متسائلًا في حيرة:

طب أعمل إيه دلوقتي؟ "تميم" مش هيسكت، وده قرصته والقبر!

بثقلٍ وتكاسلٍ استندت على مرفقي الأريكة لتنهض من مكانها، أحست بتميلٍ طفيف أصاب ساقها، تحركت بجذير نحو التسريحة لتضع مبرد الأظافر في مكانه بالكوب المعدني الذي ترص فيه أدوات التجميل، تغنجت بجسدها ومسحت عليه بيديها في تباؤ، ثم سألت زوجها ونظراتها مثبتة على انعكاس صورته بالمرآة:

-أعملك العشا ولا هتنام خفيف؟

استبد به غضبه فزجرها قائلاً بصوته الحانق:

-وده وقت طفح؟ مش عاوز أتنيّل أكل، سبيني في البلوى اللي أنا فيها دي.

ردت بعدم أكثرات وهي تضع أحمر الشفاه على فمها:

-ياخويا، بكرة تطلع الهلولة دي على الفاضي

انهار "خليل" جالسًا على الفراش وواضعًا رأسه بين كفيه، هتف مع نفسه بأنفاسٍ متهدجة من فرط انفعالاته الزائدة:

-دماغي هتنفجر، مش قادر أفكر، ده غير المأمورية اللي عندي من صباحية ربنا

وضعت "حمدية" يدها أعلى منتصف خصرها وهي تستدير نحوه، هزت ساقها تسأله بوجهها الغائم ونظراتها المتسلطة:

-باقولك إيه إنت هتسافر وتسييني أنا وعيالك؟!

رفع وجهه إليها يجاوبها في بنبرة مستهجنة:

-هاعمل إيه يعني؟ هو بمزاج أهلي؟!

قالت حاسمة أمرها ودون أن تمنحه الفرصة للنقاش معها:

حطب خلاص، اعمل حسابك يا "خليل" أنا هاروح البلد اليومين اللي إنت مسافر فيهم اقعد مع أهلي، ولما تخلص تعالى خدنا من هناك، ما هو بصراحة مضمنش يحصل إيه وإنت مش موجود. تتطلع إليها باستياء قبل أن تتحول نظراته نحو نقطة ما بالفراخ ليقول في نفسه بأسف مختلط بالحسرة:

ليه كده يا بنت "آمنة"، بوظتي الدنيا كلها!

.....

ده إنتي ضربتي كرسي في الكلوب، أنا متوقعتش تعملي كده خالص!

رددت "همسة" تلك العبارة في إعجاب واضح على نظراتها وفي نبرتها وهي تسحب الغطاء على جسدها بعد أن ألقت بنفسها على الفراش لتستلقي عليه، نظرت لها "فيروزة" في زهو وغرور تستحقه بعد أن سمحت رجولة ذاك الغريب بجرأة وشجاعة تُحسد عليها، لاحت بسمه صغيرة متفطرسة على زاوية فمها وهي تقول لها:

-يعني كنت أسكتله بعد ما قل أدبه؟

ردت نافية:

-لا.

لكن ما لبث أن غلف صوتها القليل من القلق وهي تكمل:

-بس أنا خايفة عليك يا "فيرو".

علقت عليها بثقة وقوة تؤكد شجاعتها:

-الأشكال دي ماينفعش معاها إلا كده، وبعدين يا "هموس" الواد البلطجي ده سوابق ورد سجون.

سألتها في فضول بعد أن استرعت كلماتها الأخيرة اهتمامها:

-وانتي عرفتي منين؟

أجابتها ببساطة:

-افتكرت لما أمك قابلت أبوه من فترة واحنا في السوق، ملخص الحوار إنه كان لسه خارج من السجن، يعني اللي زيه هيخاف يرجع الحبس تاني!
ما زال ذلك الإحساس المزج بالقلق ينتابها كلما مر طيفه بمخيلتها، ابتلعت ريقها وحذرتها بتنهيذة متوترة:

-برضوه مش مطمئة، فحدي بالك.

قالت بلهجة يشوبها القوة وقد أراحت رأسها على الوسادة:

-سيبك منه، ولا يقدر يعملنا حاجة! كمان أنا أخو واحدة صاحبتني ظابط، يعني لو فكر يتعرضلنا هطيره.

سألتها "همسة" بفضولٍ حائر:

طب وخالك هيسيننا نكمل شغل بعد اللي حصل؟

زفرت "فيروزة" ببطءٍ قبل أن ترد:

-أنا قولتله مش هافتح العربية يومين كده لحد ما نشوف الجو.

تقلبت أختها على جانبها لتنظر لها عن قرب وهي تسألها:

-وانتي هتعملي كده فعلاً؟

ضحكت تجاوبها في استخفاف ساخر:

-لأ طبعًا، إتي عاوزانا نخسر زبونا

بدا على وجهها تعابير أكثر قلقًا عن ذي قبل، اعتدلت في نومتها متسائلة:

-أومال؟ هتتصرفي إزاي؟

أجابت في ارتياح وهي تشبك ذراعها خلف رأسها:

-ولا حاجة، خالك وسط برطمته وندب حظه قال إنه طالع مأمورية، وأنا فهمته بالمحسوس إني هسنتاه لما يرجع

-وصدقك؟

-معرفش، خالك ده جبان، قطه جمل، هيطلع يطلع وينزل على مافيش، يومين بس وهتلاقيه عادي.

-ربنا يعديها على خير

علقت عليها "فيروزة" في تفاؤل وهي تتقلب على جانبها لتوليها ظهرها:

إن شاء الله هتعددي، واللي جاي أحسن.

طراً ببال "همسة" شيء ما فهتفت تقوله بابتسامة عريضة مستعيدة المشهد الساخر في عقلها:

-صحيح شوفتي العقربة مرات خالك كانت هتموت واحنا شغالين، عينها كانت بتبظ على الآخر

تشاءبت أختها وهي ترد عليها:

-ربنا يكفيننا شر عينها

قالت لها "همسة"، وكان اقتراحها كان مطروحاً للتنفيذ:

-مش كنا إدينها أي سندوتش ولا حاجة

نظرت لها من طرف عينها في ضيق، ثم عقت بتأفّف:

-خسارة فيها اللقمة، دي واحدة ما بيطرش فيها المعروف

-بس

وقبل أن تكمل جملتها كانت والديتها تطل برأسها من باب الغرفة تسألها:

إنتو لسه ساهرين يا بنات؟

بادرت "همسة" بالرد وتلك الابتسامة الناعمة تزين وجهها:

-خلاص يا ماما هنام.

أومات برأسها في حركة تلقائية، وقالت:

-طيب يا حبايبي، تصبخوا على خير

استرخت "همسة" على الفراش ترد عليها:

-وانتي من أهله يا ماما

أغلقت "آمنة" الباب على كليهما بعد أن أطفأت الإضاءة، ساد الصمت للحظات قبل أن تقطعه

"فيروزة" بصوتها المائل للنعاس وهي مطبقة على جفنيها:

-باقولك إيه، تبات نار تصبح رماد، كله بيتنسى، فمتحطيش في بالك.

تهدت أختها في رجاءٍ وقلبي القلق يدعو:

يا ريت.

.....

لم يتجه مباشرةً إلى منزله، بل تجول في المناطق المجاورة بغير وجهة محددة حتى تمكن التعب من قدميه، تلفت حوله باحثًا عن مقهى ما زال يستقبل زبائنه، لكن أغلب المحال قد أغلقت أبوابها بسبب برودة الطقس الذي كان كالنسيمات على وجهه المشتعل، تطلع "تميم" إلى ساعة يده، كان الوقت قد تأخر بالفعل، لم يجد بداً من العودة إلى زوجته، تلكاً في خطواته، وأثناء صعوده الدرج معتقدًا أنها ربما تكون قد استغرقت في النوم. وما إن دس المفتاح في قفله وفتح الباب حتى وجدها في استقباله، نكس رأسه مرغمًا حتى لا يرى نظراتها المعاتبة، لكن صوتها المتلهف اخترق أذنيه وهي تسأله:

-إيه اللي أخرك يا حبيبي؟

كان "تميم" فاقداً للرغبة في مسامرة ما تُعائشه من أحلام يقظة وردية، لذا رد بفتورٍ وتعب:

عادي.

استنكرت "خلود" رده المقتضب معها، ومع ذلك اقتربت منه تمسح على ظهره برفق وحنو، أراحت رأسها على كتفه، وابتسمت له قائلة:

-ولا يهمك يا حبيبي، المهم إنك رجعتلي.

ثم انخفضت نظراتها لتتأمل ثيابه التي بدت مختلفة، سألته والدهشة تعترتها:

-إيه ده؟ هو إنت غيرت هدومك؟ في حاجة حصلت يا "تميم" وأنا معرفهاش.

أجاب بغموض أربكها:

-متقلقيش.

ثم حرر نفسه من ذراعها المحاوط لكتفه ليسير نحو غرفة النوم، مشت خلفه تسأله في ضيق وقد فاض بها الكيل من تجاهله لها:

-ماتسبنيش كده على ناري، قولي في إيه؟

نفخ أولاً بزفير مسموع قبل أن يجيبها مضطراً حتى تكف عن أسئلتها السمجة:

-مافيش، اتهدلت في حوار كده، وعديت على أي غير هدومي بدل ما أمشي— بمنظري ده في الشارع.

سألته كأنها تحقق معه:

-هو إنت اتخاقت تاني؟

أجاب بضيق:

-ولا خناقة ولا نبيلة، كبري دماغك

سبقته في خطواته حتى اعترضت طريقه، سلطت أنظارها عليه وهتفت بإصرارٍ عنيد:

-لأ مش هاكبر، أنا....

صاح بها في قوة وقد نفذت طاقته:

- "خلود"، كفاية، أنا مش ناقص خاوتة!

انتفضت من صوته المجلجل، حاولت أن تستخدم الرقة معه لتستنبط منه الحقيقة التي يخفيها عنه، اقتربت منه، ووضعت يدها على كتفه، تلمسته في رقة حتى لامست أناملها جانب عنقه، أسبلت نظراتها الساهرة نحوه تقول له:

أنا خايفة عليك يا "تميم"، لو حصلك حاجة هموت، وبعدين دلوقتي أنا مراتك، وليا لي حق عليك.

طالعها بنظرة غريبة ملتزماً بصمته المريب، وكأن الكلمات تأتي الانصياع له ومجاراتها في مشاعرها المهتمة به، أولها ظهره واستدار عائداً نحو صالة المنزل، اندهشت من تصرفاته التي تدعو للاسترابة، لحقت به تسأله:

إنت رايح فين دلوقتي؟

وجد نفسه يجيبها ودون أن يكلف نفسه عناء التطلع إليها:

طالع السطح، مخنوق وهاقعد شوية لوحدي فوق

هتفت من خلفه بما يشبه اللوم:

أنا مشوفتكش طول اليوم، وحتى الساعة اللي هاتقعد فيها سوا هتسبني لوحدي؟!!

أمسك بالمقبض يديره، ثم قال بنبرة عازمة:

معلش، سامحيني المرادي، أنا على أخري!

ثم حانت منه التفاتة سريعة من رأسه وهو يعدها:

-وهاعوضك بعدين.

لوت ثغرها قائلة بتجهم كبير وامتعاض يعبر عن عدم رضاها عما يفعله:

طيب براحتك.

أضاف بجمود:

-ولو عاوزة تنامي ف ...

قاطعته بما لا يدع مجالاً للنقاش:

-لأ هستناك، أنا مش جايلي نوم أصلاً.

هز رأسه في تفهم وهو يرد:

-ماشي.

خرج "تميم" من المنزل صافقاً الباب بقوة جعلت أطرافها تهتز لا إرادياً، وبنظرات غائمة ووجه مكفهر

حملت "خلود" في شروء، وذاك السؤال الحائر يتردد في عقلها:

يا ترى إيه اللي حصل وشقلب كيانك كده يا "تميم"؟!

ترأى له بوضوح ما يجب أن يفعله معه بعد أن اكتملت أجزاء الصورة الناقصة، خاصة وأن أحد

رجاله قد أبلغه بعودته من السفر. وقف "بدير" أمام باب المنزل ينقر برأس عكازه عليه في قوة،

استقام في وقفته التي تعبر عن هيئته وسطوته منتظراً مجيئها لفتحها له، وها قد صدق توقعه،

ووجد "بثينة" تقف عند أعتابه تتأمله بنظراتها الناقمة على الحياة ومن فيها، وبكل غلظة وخشونة

سألها:

-المحروس ابنك شرف؟

نظرت له شزراً قبل أن تجيبه:

-الناس بتقول سلامو عليكم الأول يا حاج "بدير"!

رفع عكازه أمامها ليشير به وليجبرها على التنحي للجانب حتى يمر، رمقها بنظرة غامضة وهو يرد

عليها:

-لا سلام ولا كلام، ابنك البغل رجع من السفر؟

اغتاظت من شتمه له، وقالت على مضض:

-أيوه، ونايم جوا يريح جتته من تعب السفر.

حدجها بنظرة أخرى عبرت عن ازدرائه لها، ثم اندفع نحو الردهة مما استفزها، سألته من خلفه وهي تسابقه في خطواته:

-إنت رايح فين يا حاج؟

قال باقتضاب:

-ها فوقه.

قطبت جبينها في اندهاش حائر، لم تدع الفضول يأكلها فسألته بتعبيراتها الحادة:

-هو في إيه؟

تلك النظرة الاحتقارية التي تعلق وجهه كانت تستحقها، لم يرح بالها وأجابها بنفس الغموض المثير للأعصاب:

-ابنك عارف.

استاءت من تلاعبه معها فصاحت به:

-هو إنت هتكلمني بالألغاز، أنا لازم أفهم في إيه؟ جيتك السعادي مش طبيعية، وراها حاجة!

جلجل صوته وهو يحذرها:

-خليكي برا الليلة دي أحسن يا "بثينة"

-ليلة! يبقى الموضوع فيه إن!!

تمت بتلك العبارة والشكوك ملأت صدرها، فحضور زوج أختها في ذلك التوقيت الشاذ يوحي بكارثة وشيكة، لحقت به تراقب ما يفعله، وجدته يلكز ابنها المسجى على الفراش في جانب جسده بقسوة مستخدمًا عكازه مما جعله ينتفض مذعورًا وغاضبًا في نفس الآن، خاصة وهو يمينه:

-اصحى يا حرامي

كان على وشك سب من تجراً وأيقظه من غفلته، لكنه تدارك نفسه بعد أن حلت عليه الدهشة واختلطت مع مخاوفه، همس بصوته المهتز الثقيل:

-هه.. جوز خالتي!!

نظر له "بدير" في احتقار، ثم أهانه بغيظٍ وهو يركز على أسنانه:

-نايملي ومدلل كرشك يا كلب، قوم واتعدلي كده

مسح "هيثم" لعابه المنساب من جانب فمه بظهر كفه، ثم فرك رأسه متسائلاً في توترٍ ورائحة أنفاسه الكريهة تكاد تصل إليه:

-في.. إيه يا جوز خالتي؟

تأفف منه وهو يتفحصه في دقةٍ ملاحظاً تلك الحمرة المريبة التي تحتل حدقتيه، مع فقدانه للاتزان، وجه عكازه نحوه ليلكزه بعنفٍ في صدره وهو يأمره بصوته الأجهش:

-اقف على حيلك وأنا بكلمك!

سألته "بثينة" والاستغراب يعتري كامل ملامحها:

-في إيه يا "بدير"؟ عاوز من ابني إيه

التفت نحوها ينظر لها في حنقٍ، ثم أدار رأسه نحو "هيثم" يطالعه في غموضٍ قبل أن تمتد يده لتهوي على صدغه بصفعة قاسية مؤلمة تردد صداها في أركان الغرفة وجعلته يتأوه من شدة تأثيرها. هتفت "بثينة" في جزعٍ:

-ابني

اخشوشنت نبرة "بدير" وتحولت للشراسة وهو يوجه اتهامه نحوه:

-بتسرق بيت خالتك يا حرامي!؟

فرك "هيثم" جانب وجهه الذي تخدل من عنف الصفعة، وأنكر فعلته قائلاً بصوته الحانق:

-أنا مسرقتكش!

هدر به زوج خالته بقوة:

-كذاب.

تدخلت "بشينة" تدافع عن ابنها باستماتة وقد وقفت بجسدها تحول بينهما:

-إنت جاي تبلى على ابني يا "بدير"؟ لأ وكمان بتضربه؟

أجابها بنفس الصوت الغاضب ونظراته المشمزة مسلطة على "هيثم":

-هو عارف عمل إيه!

تفاجأت "بشينة" كلياً وشهقت مصدومة حينما قال ابنها بغتة ومعتزفاً بجرمته:

-أيوه عملت كده وسرقتك..

لطمت على صدغها تقول في دهشة وقد شخصت أبصارها:

- "هيثم"! إنت عملت إيه؟

أجابها صائحاً ورذاذ لعابه يتناثر في الهواء:

-أنا خدت حقي منه

رد عليه "بدير" مستنكراً وقاحته:

-حقك؟ حق مين يا أبو حق؟

تابع "هيثم" هدره الناقم:

-حق أبويا اللي راح فداكم زمان!!!

للحظة توقف الزمن وعاد إلى الوراء، حيث تجلت المشاهد القديمة في ذهنه بوضوح مدهش، كان "غريب" والد ذلك الوح لا يزال على قيد الحياة ويشكو مرارة العيش وصعوبة توفير النفقات، آنذاك جاء إليه يتوسله أن يقرضه المال لينفقه في إقامة مشروع صغير سيجني منه الأرباح ويسدد ديونه المتراكمة، واقترح عليه أن يفتح محلاً لبيع الطلاء يكون مملوفاً له بعد سداد كامل قيمته، وفي المقابل يشاركه في الأرباح. وافق وقتها ومنحه كل الدعم المادي ليقف على قدميه، ولم يطالبه بسداد

الأقساط المستحقة إكرامًا لرجاء زوجته بالوقوف إلى جواره ودعمه، لكن أطماع "غريب" ورغبته في الثراء السريع جعلته يغش في تجارته، استبدل الجيد من مواد الطلاء بأخرى قليلة الجودة، وبالرغم من نصائح "بدير" المستمرة له -وتهديداته أحيانًا بإنهاء العمل وفض الشراكة- إلا أنه لم يرتدع أو يصغ إليه، وأصر على ما يفعله ضارًا بكل تهديداته عرض الحائط حتى حدثت الفاجعة والتهمت النيران كل شيء، وهلك هو معها، لتحل الخسارة على جميع الأطراف.. عاد "بدير" من سرحانه في تلك الذكرى غير السارة وقد توحشت نظراته وكذلك نبرته حينما هدر:

-أبوك موت نفسه بسبب غشه وطمعه، مش بسببنا، وبلاش تخلط الأمور ببعض.

رد عليه يلومه:

-عاوز تبرأ نفسك من دمه؟

هتف موضحًا بصوتٍ يشبه الرعد في قوته:

-أحنا عملنا اللي علينا زمان وساعدناه، وسبيناه يشتغل زي ما هو عاوز، بس أبوك كان غشاش، مصانئ النعمة، وكان ماشي ورا شيطانه لحد ما ضيع نفسه ...

ثم تحولت نظراته نحو "بثينة" وهو يتابع:

-وأمك عارفة بكده، متقدرش تنكر!

أنكرت الحقيقة فادعت كذبًا:

-إنتو اللي عاوزين تأكلوا حقنا، و...

أخرسها على الفور "بدير" رافضًا منحها الفرصة لتلفيق الأكاذيب بأسلوبها المبتدل في التلاعب بالأمور مستخدمًا عكازه في التلويح المهدد:

-حكم خدتوه تالت وملت! ولولا العشرة وصلة الدم لكنك رميتك ابنك يتعفن في السجن!

تطلعت إليه بعينين ناريتين عاجزة لوهلة عن الرد عليه وقد أوقظ ذكريات الماضي بكل ما فيها، دب الرعب في بدنها وجحظت عينها الحاتنتين حينما هدد ابنها وبركان غضبه يشور فيهما:

-وانت يا حرامي! هاعتبر الفلوس اللي إنت سرقتها من ورايا فدا عيالي، بس قسمًا بالله لو اتكرر ده تاني هخليك تحصل أبوك، وأدفنك بالحيا، سامعني!

نظرة أخيرة محملة بالكراهية والشر- رمقها لكليهما قبل أن يتركها وينصرف من الغرفة، التفتت "بثينة" نحو ابنها تعاتبه:

ليه كده يا "هيثم"؟ ليه خليته يبيع ويشترى فينا؟

وبوقاحةٍ وعدم احترامٍ دفع "هيثم" والدته من كنفها ليزيحها عن طريقه ليندفع نحو الخارج صارخًا بها وغضبه المستعر يتجمع في عينيه بسرعة البرق:

-ابعدني عني يامه!

لم تتمكن من استبقائه في المنزل بعد أن أطاحت عاصفة "بدير" بكل شيء، وقفت في مكانها تلتطم على صدغيها حتى التهبها وهي تنوح في حسرةٍ وسخط:

-منك لله يا "بدير"، هتخسرني الواد اللي حيلتي !!!

.....

الفصل الرابع عشر

لا يعرف كم دخن من السجائر لينفث بها عن حنقه المكبوت والمشتعل في رأسه، ناهيك عن الأحاسيس الجديدة التي أضطرت بداخله وزادت من تأجج غضبه غير المفهوم، لم يكن السبب فقط موضوع السرقة الذي أخفي عنه، بل إهانة تلك الفتاة الشائنة له. استثاره أنها لم تهابه، ولم ترتدع من سمعته التي ربما تجعل البعض يفكر مرتين قبل أن يقترب منه، كانت على النقيض من بني جنسها من النساء، أنثى قوية، شجاعة، لا تهتر بسهولة، وقادرة على الدفاع عن نفسها بشكلٍ يثير الإعجاب والفضول. أحس "تميم" بدبيب شيء ما يناوشه من بعيد، لكنه لم يفقه إليه بعد، ورغم ذلك ما زال حائثًا لعدم إفراغ غضبه.. كان وجهها المتشنج بنظراتها النارية لا يزال محتلاً لخيلته، وكأنها طيف حي يزداد سطوعًا مع استمرار تفكيره فيها، قاوم تلك الأحاسيس الغامضة التي استحوذت عليه مستعيدًا موقفها الأخير بإلقاء الماء العكر في وجهه أمام الحاضرين، استغله ليقضي على تلك اللمحة المحيرة التي تشوش ذهنه وتجعله غير قادر على اتخاذ موقفًا صارمًا.. نفخ في غلٍ، ردد مع نفسه في استنكارٍ مستهجن وكأنه يفكر بصوتٍ مسموع:

مش أنا اللي يتعمل فيا كده، مين دي أصلاً؟!

قذف بقدمه حجراً مھملاً كان موجوداً على مقربةٍ منه، ثم تقدم خطوة نحو السور المنخفض لسطح منزله، ورفع قدمه ليستند به عليه، تطلع بغير هدى في الفراغ المعتم أمامه بعينين تقدحان شرراً وقد أدرك أنه في حيرةٍ من أمره، فليس من شجيمه أن يقتص لحقه من النساء، وإن كانت مذنبه، فهذا يناقض ما نشأ عليه، فلو كانت رجلاً لأبرحه ضرباً ولجعله عبرة لمن في المنطقة، لكنها امرأة! عاد ليفكر ملياً وبعمقٍ فيما فعلته مختلفاً لها الأعذار، ربما لم تكن كما اعتقد وأساء الظن بها، وما تطاولت به عليه كان دفاعاً مشروعاً عن حقها في الحصول على لقمة العيش، لكن ليس من المعتاد أن تتمهن النساء بتلك الأعمال المثيرة للريبة، خاصة وأنها تمتد لساعات متأخرة من الليل، كذلك هو رأى بعينه تجمعات مختلفة لمجموعات من الشباب الضاحك المحتشد بجوار عربتها، ناهيك عن وجود بدائل أخرى من الأعمال النسائية مما لا تثير الشبهات، عاد تفكيره ليدينها وقد ظن أن ذلك ربما يكون ستاراً خفياً لاصطياد الرجال وارتكاب المحرمات تحت غطاء العوز والفقر، كور قبضة يده وضغط عليها بشدةٍ حتى ابيضت مفاصله، همس مع نفسه في ضيقٍ مزعج:

-أنا كده مكتنف، هاتصرف معاها إزاي؟

.....

في تلك الأثناء، ضجرت "خلود" من انتظارها غير المجدي بمفردها في المنزل تضرب أخماساً في أساديس تترقب عودة زوجها إليها، أحست بضرورة وجودها إلى جواره حتى وإن كان معترضاً، ومع تغلغل تلك الرغبة فيها فقدت آخر ذرات صبرها، لذا قررت الذهاب إليه متحملة تبعات تلك الخطوة، ربما تنجح بدلالها وغنجها الأنثوي في امتصاص عصبيته وتثبيطها، ومن ثم استدراجه ليوح لها بأسراره.. لفت الوشاح الصوفي حول كتفها، وأحكمت ربط حجاب رأسها ثم سحبت مفتاح المنزل ودسته في حافظتها الجلدية الصغيرة، أغلقت الباب خلفها واتجهت للدرج، كانت تعدو صعوداً بأنفاس متهدجة، وقفت عند مدخل السطح تتطلع إليه بعينها الساهمتين، خُيل إليها أنه هدأ قليلاً بعد مكوته لساعات بالأعلى، لكنها سمعته يهمهم بكلماتٍ غير مفهومة، دنت منه بهدوء تام عل أذناها تلتقط ما يقوله، باتت على بعد خطوتين منه، ولم تسرع إلا لأصوات أنفاسه الغاضبة وسبابٍ حانق يعلن به أحدهم، سألته بتلقائية:

-إنت بتكلم نفسك يا حبيبي؟

انتبه لوجودها فتقلص وجهها الحانق أكثر، رمقها بنظرة لا تبشر بخير وهو يسألها في عصبية:

-"خلود"؟ بتعملي إيه هنا؟

ضبطت نبرة صوتها حتى لا تظهر قلقها عليه قبل أن تجيبه:

-جيت اطمن عليك يا حبيبي...

ثم أراحت رأسها على كتفه، وتابعت مُبدية اهتمامها به:

-الجو مش برد عليك؟

أبعد رأسها عنه وكأنها حية تلدغه، ثم أمرها بخشونة:

-انزلي الشقة وماتطلعيش تاني!

تطلعت إليه في انزعاج واضح، لم تصغ إليه وسألته بوجهٍ اكتسب ملامحاً جادة:

-مالك يا "تميم"؟ إيه اللي مغريك؟

هدر بها بصوته المتشنج:

-يووو، هو إتي لازم تعصيني كل شوية؟

انفضت من صراخه بها وتراجعت لا إرادياً خطوة للخلف لتكون في مأمن من غضبته، ازدردت ريقها وهتفت بما يحمل العتاب:

- "تميم"، اهدى، في إيه لكل ده؟ أنا مراتك مش حد غريب!

لانت نبرتها قليلاً حينما أكلت موضحة:

-ويعدين أنا قلقت عليك وخوفت يجيلك برد فطلعت أشوفك، ما أجرمتش يعني؟

نظر لها بشكلٍ غامض، كانت محقة في أسباب قلقها. اختفت الجدية من صوت "خلود" ليحل الاختناق عليه وهي تلومه مستشعرة بقوة أنه لا يبادلها أي نوع من المشاعر المهتمة:

ليه دائماً بتحسسنني إنك مُجبر عليا؟ وإني حد غريب عنك؟

رد بجمود:

-أنا حابب أكون لوحدي، مش حكاية يا "خلود"!

-لا يا "تميم" حكاية ورواية كمان!

وجدت صعوبة في إكمال جملتها بصلافة، حتى كلماته لا تشفق عليها ولا تظهر أي نوع من التعاطف معها، وكأنها مخلوق من حجر لا يتأثر ببرودة مشاعره، انسابت دموعها ونكست رأسها في خذلان وهي تستطرد:

-أنا.. قولتلك من الأول.. لو مش عاوزني متكلمش!

كالخنجر الحاد طعنته جملتها في صدره وأشعرته بتأنيب الضمير، لماذا وحدها تتحمل جرائم انفعالاته وهي التي تكاد تموت شوقاً لكلمة ناعمة منه؟ استنشق الهواء البارد حتى يستعيد انضباط أعصابه، عليه أن يصلح ما أفسده، تهدد بقنوط، بدت حركة قدميه ثقيلة وهو يخطو ناحيتها ليعتذر منها:

-متزعليش.

تراجعت قبل أن يلمسها تصرخ فيه بمرارة ووجهها أُغرق بالكامل بدموعها الحارقة:

-مش كل مرة كده، أنا بيصعب عليا نفسي وأنا بأحاول بكل الطرق أرضيك وإنّت ...

انفجرت بأكية فعجزت عن مواصلة الحديث، إحساسه بالذنب وخز وجدانه أكثر، خطأ نحوها وامتدت ذراعه لتمسك بها من معصمها، وبحركة واحدة قوية جذبها إليه وخبأها في أحضانه، بكت "خلود" بشهقات متقطعة على صدره، في حين مسح برفقٍ على ظهرها وقبل أعلى جبينه متابعًا اعتذاره النادم:

-أسف يا "خلود"، معلى استحميلني شوية.

رفعت وجهها الباكي إليه، تطلعت إليه في ألم، ثم ردت عليه:

-أنا معنديش مانع أصبر العمر كله، بس معاملتك تتغير معايا، أنا ماستهلس ده منك

وجد صعوبة في الابتسام وهو يقول:

-حاضر يا حبيبتى، كل اللي إنتي عاوزاه هيتنفذ، بس متعيطش!

تنفست بعمق لتسيطر على نوبة بكائها، كذلك حاول "تميم" استرضائها بمنحها قبلة ناعمة على وجنتها، وداعب بإصبعه أنفها، نظرت له بحبٍ شغوف متناسية آلامها المعنوية، كفكفت بظهر كفها عبراتها وسألته:

-ها .. هتنزل معايا ولا آ...؟

أجابها دون تفكير:

-نازل يا ستي، مبسوطه

حركت كتفها في غنج، ثم عضت على شفتها السفلى وهي ترد:

-شوية.

حاوطها من ظهرها وضمها إليه وسار معها نحو باب السطح فأحست بالدفء يغلف جسدها، تهتت في ارتياح صامت، ونظرت له عن قرب وهي تهمس له ويدها تتلمس صدره النابض بقوة:
-ربنا يخليك ليا يا حبيبي.

ريت على جانب ذراعها دون أن ينبس بكلمةً آملاً في نفسه ألا يستبد به الغضب من جديد فلا ترى هي -أو غيرها- وجهه الخفي الذي يحاول كبحه.

.....

سهرة ذكورية متأخرة أقامها أعلى سطح منزله الذي يقطن فيه بمفرده، ولكن بصحبة أتباعه ليقوموا بخدمته وتلبية احتياجاته من إحضار المشروبات الكحولية، وتجهيز نارجيلته كلما انطفأ حجرها. التزم "ناجي" الصمت أغلب الوقت -وكانه يحيا في عالم خاص به- مكتفياً بإخراج سحب الدخان الكثيفة بعد أن تنتهي مهمتها في إحراق رثيته من جوفه وفتحتي أنفه، لم يكن رائق المزاج أو كعادته المعروفة في إلقاء النكات السمجة أو القبيحة ليلهب الأجواء. جثا "شيكاجو" على إحدى ركبتيه ليضع الفحم المتقد في مكانه بالنارجيلة متسائلاً في فضول وعيناه تجولان على وجهه:

-مالك يا ريسنا، في حاجة معكرة مزاجك؟

أجاب باقتضابٍ زاد من الفضول:

-يعني..

سأله مبتسماً، وكأنه يملك عصاً سحرية قادرة على فعل المستحيل:

طب إيه المطلوب ونعدل المزاج يا كبير؟

لوح له بخرطوم النارجيلة قبل أن يجيبه:

-مالوش لازمة!

ومن الخلف تساءل "حمص" في اهتمام:

-أومال الرئيس "تميم" فين؟ مش هيسهر معنا ولا إيه؟

رد عليه "شيكاجو" بما يشبه المزاح:

-شكل الجواز هيجي على دماغنا.

علق عليهما "ناجي" بزفير ثقيل، وكان شيء ما يجم على صدره:

-لأ مش كده، بس انسوه خالص اليومين دول!

ارتفع حاجب "حمص" للأعلى متسائلاً:

ليه بس؟

أجابته دون وعي بعد أن لعب الدخان غير البريء برأسه فأصبح غير قادر على التحكم فيما يتفوه به:

-أصل شوية بنات شوارع عكننوا عليه مزاجوا، ومش طابق حد.

توهم "شيكاجو" أنه يتحدث عن مشاجرة شديدة ربما تكون قد وقعت بين "تميم" وإحدى

الساقطات اللاتي يتخذن أماكن معينة في بعض المناطق من أجل الحصول على متعة غير شريفة في

مقابل حفنة من النقود، فقال عارضاً خدماته:

-لأ دول معروف تمامهم إيه، إدينا بس الإشارة!

عقب عليه في فتور وقد شعر بالثقل يجتاح رأسه:

-بعدين، غير لي الحجر لأحسن مش عاجبني!

تحول في لحظة إلى التابع المطيع وهو يرد مبتسماً بابتسامة سخيفة أظهرت اتساخ أسنانه:

-أوامرك يا كبير.

أجاد ما يفعله معه، واسترسل معه بمكرٍ عله يحصل على معلومات مفيدة ربما يوظفها لصالحه بعد أن

طراً بباله فكرة جهنمية، وما إن انتهى منه حتى تركه يستمتع بالتدخين ليعود إلى رفيقه الذي كان

يبتلع الطعام بشكلٍ مقزز، مال عليه يسأله بصوتٍ خفيض:

-إيه رأيك يا "حمص" لو خدنا بونط ووجبنا مع الرئيس "تميم"؟

رد متسائلاً والرداذ المختلط باللعب يتناثر من فمه:

-هنعمل إيه يعني؟

غمز له بطرف عينه، ثم لكزه وهو يرد بصوتٍ خفيض:

-فهملك بعدين، بس أشوف ريسنا!

نهض من رقدته حاملاً طبقاً مليئاً بالسوداني وبعض المكسرات ليضعه بجوار "ناجي"، تأكد من عدم حاجته إليه ليرجع إلى صديقه، تبادل معه حواراً هامساً أطلعه فيه على ما يدور في رأسه بعد أن تشكلت فكرته العبقريّة، حيث راودته فكرة السعي للانتقام لـ "تميم" والاقتصاص له بعد أن باح له "ناجي" في غير وعي منه عن حنق الأول مما صار معه ورغبته في إهانتها بعد أن عبثت بهيبته في مقابل نيل مبلغ مالي كبير يسد به كليهما عوزهما، ونجح بحنكته اللثيمة في أن يحصل على بعض المعلومات الأساسية عن تفاصيل المشاجرة مع الفتاة. رد عليه "حمص" بوجه تظهر عليه علامات التفكير:

-مالوش لازمة، بت إيه اللي هنتخايق عشانها؟ إنت شكلك لسعت!

رد عليه بعقلانية حتى يقنعه بالاشتراك معه في رسم تلك الخطة:

-ياض مايقاش مخك ضلم، هنطلعنا بقرشين كده منه، وهو فلوسه حلوة وكثيرة، خرينا نروق على نفسنا، والحكاية مش هتاخذ منا غلوة، احنا بس تفكر ونرتب هنعملها ازاي وامتى.

حك طرف ذقنه يفكر في العرض الشيطاني، ثم ما لبث أن سأله مستفهماً وقد راققت الفكرة له:

-وهنعرف البت دي منين؟

جاوبه في انتشاءٍ مغتر:

-بسيطة، صاحبك معلم ويعرف يجيب أرار أي حاجة!

هز رأسه في استحسانٍ متابعاً تعليقه عليه بما أكد له موافقته الصريحة على الاشتراك فيما يريد فعله، وتلك النظرة الغامضة الوضيعة تتوهج في حدقتيه:

على رأيك، وأهوو نستفيد بأي حاجة بدل ما الدنيا مأشفرة على الآخر معانا، دوس يا برنس وأنا معاك!

.....

لوح بيده لأحد عماله ليكمل تعبئة الأقفاص بالخضروات الموضوعة في الأجولة، ثم استدار سائرًا نحو المكتب الخشبي ليسحب المقعد الجانبي، حملة "تميم" في خفةٍ ويبد واحدة ووضعه على مقربة من والده الجالس بالخارج ومنهمك في تناول قهوته ومطالعة الصحيفة، كنهج يتبعه يوميًا. جلس بجواره ونظراته المعاتبة تغطي وجهه، تهد في ضيق، وتطلع إليه بترددٍ ليقول مستهلاً حديثه معه:

-ينفع كده يا حاج، أبقى أنا آخر من يعلم بالسرقة اللي حصلت؟

في البداية لاذ "بدير" بالصمت، وسدد له نظرة غريبة قبل أن يقول بامتعاضٍ ظاهرٍ على قسامته:

هي أمك برضوه انسحبت من لسانها وقالتلك؟

رد بهدوءٍ ادعاه:

-أنا اللي ضغطت عليها عشان تقولي، هي مالهاش ذنب يا با، بس كان المفروض تعرفوني وأنا هاتصرف!!

ترك "بدير" فنجان قهوته ليحتج بنبرة تميل للضيق، وقد تملك منه الانزعاج لانقلات لسان زوجته وإفشائها للسر:

-هو أنا مش مالي عينك؟!

لعق ابنه شفثيه وضبط صوته حتى يحافظ على هدوء نقاشهما حينما قال:

-لا يا با، مش القصد، بس بردك آ....

قاطعته والده بلهجته الصارمة منهيًا الحوار في ذلك الموضوع تحديدًا:

-خلاص يا "تميم"، موضوع وراح لحاله.

رفض ترك الأمر وسأله مستوضحًا بالحاح عنيد:

-يعني إنت عرفت اللي سرقنا؟

لوى ثغره يجيبه بتحفز:

-أيوه، وخذ جزاته خلاص!

لم يرغب "بدير" في نبش تفاصيل السرقة حتى لا يوغر بينه وبين زوجته ويفسد علاقتهم بسبب أخطاء الغير، خاصة أن الأمر يمس شقيقتها وأمها. وبخبرته الحياتية الطويلة عمد إلى تغيير النقاش فيه فأمر ابنه بما لا يقبل المجادلة:

-انساه، وخلينا نشوف الطلبات اللي ورانا، مش هانفضل نلُك كثير في حاجات مالهاش ثلاثين لازمة!!

كان مدرِّكاً لطبيعة والده في إنهاء النقاش حينما يحتدم، رد مستسلماً بالرغم من تدمره الظاهر عليه:
-حاضر يا با، اللي يربحك.

نهض من مقعده واستعد لإعادته إلى مكانه حينما سمع صاحب الصوت الرجولي المألوف يهتف:
-سلامو عليكم.

التفت "تميم" برأسه للجانب ليجد أحد أصدقائه الأعمام ممن جمعهم العمل في البداية بسبب الأبناء قبل أن يتحول الأمر بين الأبناء إلى ود وصداقة أعمق بالرغم من سنوات الحبس، ترك المقعد، واتجه إليه ليصافحه وهو يرحب به بجرارة شديدة:

-وعليكم السلام! منور الدكان والحطة كلها يا "منذر"!

(("منذر طه حرب" هو أحد الشخصيات الرئيسية في رواية <الدكان>، والتي سبق نشرها إلكترونياً عام 2018، في ذلك المشهد يحل ضيفاً على عائلة "سلطان"، حيث تربطها روابط الصداقة والعمل والتي تعود لجيل الأبناء .. كذلك كانت زوجة "منذر" الأولى خلال تلك الأحداث متوفية، ولم يكن قد التقى بعد بـ "أسيف"؛ معشوقته))

بادله "منذر" المصافحة والحضن الرجولي رابئاً على ظهره بقوة قبل أن يتعد عنه ليتابع باهتمام:

-منور بأصحابه، وحسك دائماً فيه، إزيك يا حاج "بدير"؟ عامل إيه؟
رد عليه الأخير بلطفٍ وتلك الابتسامة الهادئة مرسومة على شفثيه:
يا أهلاً وسهلاً بالغالي ابن الغالي، أنا الحمد لله في نعمة.

وقف "منذر" قبالتة مكملاً ترحيبه المهتم وهو يمسح على كتفه بودٍ كنوعٍ من التوقير له:

-والحاج "سلطان" أخباره إيه؟

-بخير والحمد لله.

تلفت حوله باحثاً عنه وهو يسأله:

-هو فين يا حاج؟ أنا مش شايفه.

أجابه "بدير":

-شوية وهينزل الدكان يقعد معانا.

ابتسم معلقاً عليه:

-ربنا يديه الصحة، ده بركتنا كلنا.

دنا "تميم" من صديقه، وضع المقعد الخشبي أمامه ليدعوه للجلوس عليه، ثم استطرد متسائلاً:

-إيه يا ابن العم، جاي في مصلحة ولا زيارة؟

تنحح "منذر" في خفوتٍ قبل أن يجيبه بنبرته القوية الرنانة:

-الاتنين، عندي شغل قريب منكم هنا، فقولت أعدي أسلم على الحبايب.

رد "بدير" في امتنانٍ وتقدير:

-الله يسلمك، ابن أصول وفيك الخير .. والحاج "طه" أخباره إيه؟ و"دياب"؟

تهد وهو يرد:

-كلنا تمام وفي فضل من ربنا.

مال "بدير" نحوه يسأله وقد استند بكفيه على رأس عكازه:

-ليه مش ناوي تتجوز زي أخوك؟

بدأت آثار المفاجأة السارة جلية على ملامحه، التفت في بهجة نحو رفيقه يهنئه بعد أن نهض من مكانه ليحتضنه مجددًا:

-مبرووك يا "تميم"، بالله ما أعرف، والله فرحتك أوي.

رد الأول مجاملًا:

-الله يبارك فيك يا صاحبي، مش ناوي تعملها إنت تاني؟

قال معترضًا على الفور وتلك النظرة المهمومة بائنة على تعابيره:

-لا يا سيدي، كفاية مرة، وأديك شايف لعنة الجواز عاملة فينا إيه!

علق عليه "بدير" بنبرته الرزينة:

-ربنا يصلح حال عباده، بكرة تقابل بنت الحلال اللي تستاهلك يا "منذر".

قال له بصوتٍ فيه مسحة من الأسى:

-أنا راضي بنصبي بعد المرحومة.

أصر عليه:

-الله يرحمها، بس دي سنة الحياة، الأمر مايسلمش من واحدة تاخذ بالها منك، تراعيك وتشوف

شئونك، وتجيّب عيال يشيلوا اسمك ويكونوا امتداد ليك.

ضغط "منذر" على شفثيه قليلاً، وقال:

-اللي فيه الخير يقدمه ربنا.

هتف "تميم" عاليًا ومستخدمًا يده في الإشارة:

-هاطلبك شاي ولا تحب أجيب قهوة، ولا أقولك، نجيب فطار أجدع من ده كله و...

قاطعته معتذراً في لباقة:

-لا الله يكرمك، أنا تمام التمام، أنا بس جيت أرمي السلام وماشي.

رد مدهوشاً وقد تبدلت تعابيره للضييق قليلاً:

-هو إنت لحقت يا "منذر"؟

تنحنح يقول له بابتسامة مهذبة:

-معلش يا صاحبي، ورايا مصالح كثير متعطلة، ويدوب الوقت يكفي، ده غير إن ورايا مشوار سفر طويل، خليها وقت ثاني.

طب عاوز أشوفك، هنتقابل إزاي؟

على تليفون بقي، إن أنجزت بدري هاعدي عليكم.

أخرج زفيراً بطيئاً من جوفه قبل أن يرد:

-ماشي يا ريس.

لوح "منذر" بيده يودعهما:

-أشوفكم على خير، مع السلامة!

-في حفظ الله!

راقبه "تميم" بعينه حتى توارى عن أنظاره واختفى في الزحام، انتبه لجملة والده حينما استطرده يشكر مجيئه لزيارتها:

فيه الخير ابن "طه".

رد "تميم" يؤيده في مدحه والثناء عليه:

عيلة "حرب" كلها ولاد أصول ويعرفوا في الواجب يا بابا.

-معاك حق.

رفع "تميم" يده ليضعها أعلى رأسه ليفرّكها بحركة دائرية وهو يقول بنبرة عازمة:
- طيب يا بابا، أنا هاروح أقف على إيد العمال، وأشوف الطلبة اتقفلت ولا لسه
أوما برأسه يرد عليه:
- ماشي يا ابني.

مضى - اليوم على كليتها بهدوء ودون أن يعكر صفوه أي شيء، فخالها "خليل" سافر في مأمورية
عمل، وزوجته - الحشرية - غادرت أيضًا لتذهب في زيارة قصيرة لعائلتها بالبلدة، وبالتالي ترك لها
المجال والحرية لمزاولة عملها بعربة الطعام، مع فارق بقاء والدتها "آمنة" بالمنزل لشعورها بالإعياء. لم
تجد الفتاتان أي وقت لإضاعته و عملتا يجدي لإرضاء الزبائن وتحصيل النقود، وضعت "فيروزة"
السندوتش الآخر الذي انتهت من تغليفه في الكيس الورقي، وأضافت معه بعض المناشف الورقية
لتدير رأسها في اتجاه أختها، ثم استطردت تقول بلهجة جادة:

- بأقولك إيه عاوزين تقفل بدري شوية عشان نشوف ماما، شوفتي شكلها عامل إزاي النهاردة،
طول اليوم مأريفة.

لم ترفع "همسة" عينها إليها، بل بقي تركيزها منصبًا على قلبي شطائر اللحم وهي ترد عليها:
- شكلها خدت دور برد.

علت التعب الذي أصاب والدتها قائلة:

- ما ده الموسم بتاعه، وناس كثير تعبانة ...

توقفت للحظة عن الكلام لتسلم الطلب لزبونها وابتسامة عملية تزين وجهها، ثم تابعت بصيغة أمره
ويدها تمسح بمنشفة نظيفة الرخامة الملمخة ببقايا المسطرة:

- المهم خلصي اللي في إيدك عشان أسلمه ونرجع لماما

هزت رأسها وهي تقول:

-ماشي .. على طول.

لم تلاحظ إحداها هذين الشابين المرابطين في نقطة تواجهما مباشرة، وكأنهما يترصان بهما بشكلٍ مريب ويدعو للقلق. نفخة خفيفة لبقايا السيجارة الزهيدة المسوكة بين إصبعيه قام بها "شيكاجو" قبل أن تتحول نظراته نحو "حمص" الذي سأله بتأهب:

-هما دول؟

أجابه وهو يلفظ الدخان من بين شفثيه:

على حسب كلام المعلم "ناجي" ما فيش إلا هما في المنطقة.

سأله من جديد كإجراء احترازي حتى لا يتسببا في إحداث الفوضى دون داع:

-يعني إتأكدت منهم ولا هنعمل فورتينة (مشكلة) على الفاضي؟

قال بنفاذ صبرٍ وهو يلقي بعقب سيجارته ليدعسه تحت قدمه بجذائه القديم:

-يا ابني أنا لفيت الكورنيش كذا مرة وما فيش إلا هما، ده غير إني سألت كام واحد من اللي واقفين بيبيعوا بالمحسوس عن اللي حصل مع الرئيس "تميم"، وقالوا عن اللي شافوه، والكل قال هي البت دي.

توجهت نظراته نحو "فيروزة" التي تناول أحدهم كيسًا مليئًا بالطعام، فرك "حمص" كفيه معًا وقال بنبرة توحى باستعداده:

-مية مية، كده احنا في السليم، جاهز يا بونط؟

تبدلت نظرات "شيكاجو" للشراسة على نحو مخيف قبل أن ينطق:

-جاهز يا برنس، بينا.

.....

وجهٌ قبيحٌ منفر رمقها بنظرة غريبة تعكس شرًا وخبثًا وهو يدنو من العربية حينما حدقت نحوه بتلقائية من النافذة أمامها، كان ممسكًا بعصاه غليظة؛ أو ما يطلق عليها "شومة". راودها شعورًا غير

مريح تجاهه، فله تعابير شيطانية تبعث الاقباض، لم تستطع إبعاد أنظارها عنه، ولكن اكتسى-
وجهاً بتعابيرهِ الجادة حيناً بات في مواجهتها مباشرة، وبرسمية بحتة بادرت "فيروزة" قائلة له:
-معلش احنا قفلنا الأوردرات و...

قاطعها "شيكاغو" بابتسامة وضيعة، وتلك النظرات الملبكة للأبدان تجتاح عينيه:
-احنا مش جاينين في أوردري يا حلوة.

عبست ملاحظها، وقطبت جبينها مرددة في استغرابٍ لا تنكر أنه وثَّرها:
-نعم؟

انتهت "همسة" للكلام المريب الذي شعنت به الأجواء وقد كانت في البداية منهكة في غسل
أدوات الطهي، تحركت حدقتها لتتجول على وجه الرجل الآخر الملاصق لذاك الفظ حينما
استطرد:

-سمعتي عن المثل اللي بيقول اللي مالوش كبير بيشتربلوا كبير؟

نظرت "فيروزة" لكليهما شزراً قبل أن ترد بلهجتها المزعوجة:

-أفندم؟! إنتو جاينين تهزروا هنا؟

تجاهل عبارتها ليضيف بكلمات موحية بشرٍ قادم وهو يرفع عصاه عاليًا ليلوح به:

-وانتو غلطتوا في كبيرنا!

كانت طريقته مستهلكة في بث الخوف، لكنها فعالة في التأثير على النفوس، وبالرغم من تلك الرجة
التي تسللت إليها إلا أنها قاومت شعورها بالخوف ووأدته في محده قبل أن يتمكن منها لترد ببسالة:

-كبيركم مين ده؟ هو احنا نعرفكم أصلاً؟!!!

قست نظراته عندما جاوبها:

-لأ متعرفوناش! بس احنا رجالتة، والي يمسه يمسننا.

استجمع جأشها وتغلبت عن خوفها الذي تضاعف قليلاً لترد بهدوءٍ حذر:

طب امشي من هنا، والله يسهلك، احنا مش عاوزين مشاكل مع حد
أولته ظهرها لتستدير نحو أختها، ثم دمدمت بصوتٍ خفيض، وكأنها بذلك تطرد الخوف قبل أن
يتمكن منها:

هي ناقصة بلاوي على آخر الليل، شكلهم مبلعين حاجة.

على عكسها كانت "همسة" تتطلع إليهما في ارتعابٍ، لعقت شفيتها مرددة بصوتٍ مهتزٍ:
- قلبي مقبوض يا "فيروزة"، حاسة إن ...

لم تكمل جملتها للأخير، فقد لمحت واحدًا منها يرفع عصاه في الهواء ليضرب بها نافذة العربة، فتهشم
زجاجها، وكردة فعل تلقائية مدعورة جذبت أختها نحوها وهي تصرخ منادية إياها في هلع حتى لا
تتناثر القطع الحادة على ظهرها:

- حاسي يا "فيروزة"!

وبأعجوبة شديدة نجت الأخيرة من ضربة قاسية كادت أن تطالها من طرف العصا، استدارت
"فيروزة" تنظر في حلق لذلك الوغد الذي شرع في تدمير حلمها بتحطيم واجهة العربة وتمزيق
الإعلانات الملتصقة بها، انتابتها نوبة من الهياج فصرخت به لتذود بشراسة منقطعة النظير عن
خاصتها:

- إنتو اتجننتوا، إيه اللي بتعملوه ده؟

على الفور ترجلت من العربة لتواجهها بمفردها وصرخات أختها المدعورة التي تتوسلها بالابتعاد عنها
تصدح من خلفها، كانت مغيبة فلم تر سوى تصرفها الشنيع. انهال "حمص" بعصاه على جانب
العربة ليحدث التواءً جسيميًا ببدنها، حاولت إيقافه فاندفعت تلتم ظهره بقبضتها وهي تلعنه، لكنه
دفعها من كتفها بخشونة فارتدت للخلف وسقطت على ظهرها، جثت "همسة" على ركبتيها أمامها
ترجوها باستماتة وهي تجاهد لمنعها من العودة إليه:

- لأ يا "فيروزة"، احنا مش أدهم!

صرخت بهيسترية:

سبيني عليهم.

ردت ببكاء مفزوع وصارخ:

-بلاش عشان خاطري، هياذوكي

تفاجأ المتواجدون بالمكان بما يحدث من تخريب للعربة، حاول بعضهم التدخل لإيقافها لكن تهديد "شيكاجو" شديد العدائية والمقترن بإشهار سلاحه الأبيض ذو النصل الحاد في يده الأخرى أجبر أشجع الرجال على التراجع بعد أن تلاشت بوادر الشجاعة، دار في المكان وهدد صائحًا بصوته الجمهوري:

محدث يتدخل لنجيب كرشه على الأرض!!!!!!

ولكونه ذائع الصيت في تصرفاته الإجرامية، لم يتجرأ أحدهم على إيقافه، وإلا لتحول لجثة هامدة، وتركوه يفعل ما يحلو له، صرخت "فيروزة" مستنجدة بمن حولها عليها تجرد من يتصدى لها:

-الحقونا يا ناس، هاتسيبهم كده؟

ولكن لا حياة لمن تنادي، الكل خذلها في لحظة، انعدمت الشجاعة في نفوسهم، واختفت المروءة فأداروا لها ظهورهم خوفًا على أعمارهم مما سحقها تمامًا، احتضتها "همسة" بكل قوتها وجثمت عليها حتى لا تتحرر منها وتتورط بهورها في تلك اللحظات المصيرية في كارثة قد تودي بحياتها، امتزجت أصوات صرخاتهما مع بكائهما المير، وفي دقائق معدودة كانت النيران تضرع في العربة لتحترق روح "فيروزة" معها. وما إن انتهى "شيكاجو" من عمله حتى استدار نحوها، رفع عصاه الغليظة أمام وجهيها يلوح لها بها وصوته الخشن يجلجل عاليًا لينذرهما:

-ده درسك ليكم عشان لما تتعاملوا مع أسيادكم تعرفوا مقامكم وتلزموا حدودكم!

وضع "حمص" يده على كتف رفيقه وهو يقول بنبرته المزهوة:

-الريس "تميم" مش هافية عشان شوية نسوان كسر- تعلم عليه، لأ وراه رجالة ينسفوا اللي يقرب منه!

كركر "شيكاجو" ضاحكًا قبل أن يبتز ضحكته فجأة ليهينها:

سلام يا بيا عين الكبدة!

رحل كلاهما تاركين السنة النيران تلتهم العربة وتقتلع روح "فيروزة" معها، رأت بأعينها ما سعت لتحقيقه يذهب سدى ويتحول إلى رماد، لم تتحمل قساوة الأمر، كان لزاماً عليها أن تنتقم ممن أحرقها حية، دفعت أختها عنها بقوة مستخدمة كفيها، أسقطتها إلى جوارها ونهضت تركض في اتجاه الطريق، تأوهت "همسة" من الألم، وصرخت تنادياً:

-رايحة فين يا "فيروزة"، استني عشان خاطري!

قاومت الألم الشديد ولحقت بها، اعترضت طريقها لتستوقفها، ورجتها بأنفاس متهدجة:

-وحياة أغلى حاجة عندك تخليكي هنا!

كانت مدركة أن أختها حينما تنال منها عصبيتها العمياء تتحول للجنون، وتطيح بكل شيء خلال غضبها الأهوج، تملصت "فيروزة" منها صارخة بلا وعي، وغضبها يتعاظم في عينيها كحمم البركان الملتببة:

-بعدي عني، والله لأوريه "تميم" ده، قسمًا بالله لأحرق قلبه زي ما حرق عريقتي، مش هاسييه إلا لما أرجعه السجن اللي جه منه!

كالمجنونة، والفاقدة لأهليتها، اندفعت عبر الطريق غير عابئة بحركة السير فيه، قطعته عدواً وبشكل جنوني وسط أبواق السيارات المتدمرة لرعوتها، فشلت "همسة" في إيقافها، فما كان منها إلا اللحاق بها وهي تصيح بها كرجاء أخير بألس حتى يح صوتها:

يا "فيروزة" استني!

.....

ركضت في اتجاه دكان عائلة "سلطان" الذي يطل على ناصيتين؛ إحداهما للزقاق الجانبي، والآخر لطريق فرعي يصل في نهايته للشارع الرئيسي، كانت كامل نظراتها المحتقنة مسلطة على وجه "تميم"، وقتت قبالته وهو جالس أمام المدخل وصدرها ينهج علواً وهبوطاً، مسحت بيدها عبراتها التي

انسابت بلا توقف، حدجته بنظرة مميته خالية من الحياة، ثم نادته عاليًا بنبرة أقرب للصراخ بصوتها المجروح:

-إنت يا رد السجون، يا خريج اللومان!

تفاجأ "تميم" من النداء الأنثوي الفج وقد كان مشغولاً بمراجعة الفواتير مع والده، التفت برأسه نحو صاحبة الصوت ليتطلع لها في استنكارٍ وغضبه قد بدأ في الظهور على ملامحه، عرفها بمجرد التطلع إلى وجهها.. علامات الاستهجان غطت تعابيره.. كذلك ضاقت نظراته وهو يتأمل الحالة الفوضوية المسيطرة عليها، تبادل مع والده نظرات حائرة حينما كررت نداءها:

-إنت أطرش؟ رد عليا يا بلطجي!

كانت الحركة شبه هادئة في المنطقة في ذلك التوقيت الليلي بعد انصراف الأغلب ليعودوا إلى منازلهم، لكن بصوتها المرتفع والجلبة التي أحدثتها بدأ القليل في التجمع ليتابعوا بفضولٍ ما يدور. وبتشنجٍ وغيظٍ نهض "تميم" عن مقعده بعد إهانتها الواحة التي تكررت على مسامعه، استدار متجهًا إليها ليصبح في مواجهتها، حدجها بنظرة شرسة، ثم سألها بشكلٍ مباشر:

-مين ده اللي بلطجي؟ إتي بتكلميني أنا؟

لوحث بيدها مهينة إياه:

-أيوه إنت يا معدوم الرجولة! يا حيوان! بتحرقلي عريبتى ومفكرنى هاسيبك؟

استقام "بدير" في وقفته لينظر إلى تلك الشابة بنظراته الدقيقة المتفحصة، تنشطت ذاكرته وعرفها دون عناء؛ إنها ابنة جارتهم القديمة "آمنة". انزعج من تطاولها على ابنه، ومع هذا سألها بصوته الرخيم وبهدوءٍ حذر حتى لا يقود ذاك الجدل المحتدم غير مفهوم الأسباب لمنحنى آخر:

هو في إيه بالظبط؟

جاوبته بصراخ:

-أسأله الكلب ده!

نعتت "تميم" بما لا يليق فاستشاط غضبًا، ولولا وجود والده لكان له كلام آخر يردع به لسانها المنفلت، تساءل "بدير" بوجوم:

-إيه اللي بيحصل يا "تميم"؟

أجابه بجنني وعروقه تنبض بدمائه التي طالها الهياج:

-مش عارف يا بابا، أهى بلاوي على آخر الليل!

خطوة جسورة تقدمت بها "فيروزة" نحوه شحذت معها قواها الغاضبة بالكامل، ودون سابق إنذارٍ رفعت يدها في الهواء لتهدى به على وجه "تميم" لتصفعه في غفلة منه قبل أن تتهمه علنًا:

-باعتلي شوية بلطجية يجرقوا عربيتي يا جبان، بتردهالي يا حشاش!

باغتته بصفتها المهينة وعبثت برجولته، احمر وجهه واربد بالمزيد من الغضب المحموم .. كما اندفعت الدماء الثائرة تغزي عروقه .. همّ بالانقضاض عليها والإطباق عليها من عنقها ليخنقها وهو يهدر بها في عصبية مبررة:

-إنتي اتهبلتي يا بت!!!!

ولكن وبكل مهابة وقوة ضرب "بدير" بعكازه الأرضية صائحًا في ابنه ليوقفه قبل أن يتهور ويبادلها صفة حتمًا ستؤخذ عليه:

-عندك يا "تميم"!!!!

لم يهتز لـ "فيروزة" جفن، ولم ترتعد أو تندم من فعلتها تلك، بل شعرت أنها شفيت جزءًا من غليلها بإيلامه هكذا بوقاحة تليق به، وبالانتقاص من كرامته بإحراجه وإذلاله بذلك الشكل المهين. هدر "تميم" يقول لوالده بصوته اللاهث من الغضب وقد استبد به جنونه وسيطرت عليه انفعالاته الجارحة:

-دي بتمد إيدها عليا وسط الخلق وعاوزني أسكت؟

أذره "بدير" بصياحه الأمر به ونظراته التي تعكس سطوته:

-ولا كلمة، وقتي مش عجبك؟

كبخ غضبه مرغماً ليرد:

-على دماغي يا حاج، بس آ.....

إشارة أخرى من عيني والده جعلته يصمت مضطراً، وجه حديثه إلى "فيروزة" يعاتبها بلهجة جمعت بين الشدة والحزم:

-ما يصحش اللي عملتيه ده؟ لو ليكي حق عنده تعاليلي، لكن مافيش حُرمة بتمد إيدها على راجل
و...

قاطعته متعمدة احتقار ابنه وإهائته بقساوة أكبر:

-ده لما يكون راجل أصلاً!!!!

استفزته عبارتها تلك وأخرجته عن شعوره، لذا صاح بها بعصبية جمة وهو يهددها بيده التي تكاد تطالها لتفتك بها وتحطم عظامها وعيناه تقدحان بالشرر المستطير:

-أنا راجل غضب عن اللي خلفوكي، ما تلمي نفسك يا بت إنتي وإلا هاقنتك!

ردت بجرأة تتحداه فيها معبرة عن غضبها المندلع وهي تلهث من فرط انفعالاتها الثائرة:

-مش خايفة منك يا قتال القتلة، وأنا والله ما سيباك، وخلي الناس دي كلها تشهد عليا، أنا هاحبسك تاني، ومش هتنازل عن حقي لو فيها موتي يا بلطجي!

ثم حدجته بنظرة نارية قبل أن تتركه يحترق كمدًا في مكانه، ارتبكت "فيروزة" في حقه -وهي في قمة غضبها- خطأً جسيماً لن يغفره، وقبل أن يتصرف برعونة أمسك به والده من ذراعه ليستوقفه قائلاً له بصرامة:

-مكانك يا "تميم"!

هتف بتشنج، وجسده ينتفض من شدة غضبه:

-مش سامع يابا بتغلط فيا إزاي وبترمي بلاها عليا بنت ال..... دي؟! أنا مش هاسيها!

شدد أباه من قبضته عليه وجره رغماً عنه إلى داخل الدكان وهو يقول له:

سيديا دلوقتي

إنت هتصدقها يا بابا وتسيبها تمشي كمان! ومين هاتجيلي حقي منها بعد الجرسة دي؟

رد حاسماً الأمر:

أيوه هاسيبيها...

ثم تابع موضحاً أسبابه:

- ما هو مش طبيعي اللي عملته ده، أكيد في حاجة حصلت وإنت ليك يد فيها!

نظرة استنكارٍ كست وجهه عقب لومه المتواري، أحس بغليان يأكل جسده الذي تصلب وانتفض، ثم هتف مدافعاً عن نفسه بصوته الذي اكتسب نبرة هائجة:

- ده أنا جبك طول اليوم يا حاج متنقلتش من مكاني!

غامت عينا "بدير" وهو يعقب عليه:

- يبقى الحكاية فيها إن! واهدى كده خيلنا افهم إيه أصل الموضوع!

كور "تميم" قبضة يده وضرب بها الحائط في جنونٍ حتى لا ينفجر من شدة غيظه، شعر بأحشائه تحترق، بلهيب ساخن يندفع من عينيه، وبأنفاس هادرة صاح يتوعدها وقد حل الإظلام على قساته:

-وأنا مش هاسيبيها !!!

.....

الفصل الخامس عشر

افتقرت إلى الشجاعة واختبأت خلف أحد الأكشاك المغلقة تراقب في فزع تلك المواجهة المحتدمة بين أختها و"تميم"، لم تكن مثلها جريئة، مندفعة، تناطح من يتحداها الرأس بالرأس، أصابها الجزل الشديد حينما رفعت أختها يدها لتصفعه، ظنت أنها نهايتها المحتومة، ودق قلبها في ارتعابٍ مهلك .. كتمت أنفاسها، وحاولت جمع جأشها وتخفيف حواسها لتذهب إليها وتزيحها من طريقه قبل أن يفتك بها، لكن لم تسعفها قدمها، تجمدت كالصنم، وبقيت أنظارها تراقب في خوفٍ ورجاء .. حبست "همسة" أنفاسها، وبقيت دقات قلبها تنبض بعنفٍ حتى كادت أن تصم أذنيها، تنفست الصعداء بمجرد ابتعادها عنه، انتظرت حتى باتت قريبة منها، فهرعت إليها وألقت بنفسها في حضنها حامدة الله في نفسها أنها ما زالت على قيد الحياة، أفاقت من فزعها وجذبها بعيدًا عن الأنظار لتلومها في تلهفٍ ونظراتها تتحرك بتوترٍ كبير:

ليه كده يا "فيروزة"؟

أجابت أختها بجمودٍ ووجهها القاسي مشدود على الأخير:

-يستاهل!

أمسكت بها من ذراعها تهزها في عنفٍ وهي تواصل لومها المرتعب:

-إنتي كده ضيعتي نفسك، حد يعمل اللي عملتيه ده؟!!!!

نفضت قبضتها عنها، وقالت بآلمٍ وهي تحملق فيها بعينين مشعبتين بجمرةٍ ملتهبة:

-واللي عمله فينا بالبلطجية بتوعه عادي؟ تعبنا راح كله يا "همسة"، سمعاني؟ احنا اتمدنا بسببه!

علقت عليها بأنفاسها المتهدجة:

-أنا خايفة عليكي، هو كده مش هايسيبك، اللي زي ده هياخد حقه منك، ومش بعيد آ...

هربت الكلمات من على طرف لسانها، خشيت أن تبوح لها بما ينبئها حدسها، بأنها فتحت على

نفسها بابًا من الجحيم حينما اعتدت عليه، وقبل أن تكمل تفسيرها سبقتها "فيروزة" قائلة بنبرة

عازمة أظهرت قوة غريبة:

-وأنا مش هاستنى لما يقرب مني، أنا لسه مخدتش حتي أصلاً
تدلى فكها في رعبٍ أكبر، ورمشت بعينها تسألها وقد تشوش ذهنها بالكامل:
-هتعملي إيه تاني؟

نظرة غامضة مليئة بالشر والقسوة احتلت حدقتها، اندفعت للأمام تجيها:
-هاتشوفي

سارت "همسة" خلفها وهي تحاصرها بأسئلتها الخائفة، وجدتها تقف عند ناصية الشارع تراقب بقايا حلمها المحترق بعينين تعكسان ألسنة اللهب المتأجج .. مسحت "فيروزة" دمعاتها المتحسرة ودست يدها في جيب بنطالها الجينز لتخرج منه هاتفها المحمول، كانت شاشته قد أصيبت بالشروخ جراء سقطتها العنيفة قبل قليل، عبثت بالهاتف لتتأكد من عمله، قليل من الارتياح تسرب إلى روحها المتألمة وقد وجدته يستجيب لها، ضغطت على قائمة الأصدقاء لديها، انتقت اسم واحدة من المقربات منها، ثم اتصلت بها ووضعت الهاتف على أذنها، واليد الأخرى انغرست في شعرها الفوضوي، هتفت فجأة بصوتٍ مضطرب لكنه ثابت:

-أيوه يا "علا"، أسفة إني بأتصل بيكي في الوقت ده!

أتاها صوت رفيقتها يقول في تفهم:

-لا ولا ييمك احنا لسه صاحيين.

حررت "فيروزة" أناملها من شعرها ودارت حول نفسها في المكان قائلة لها على عجلة:

-أنا محتاجة مساعدة من أخوكي "ماهر"، ممكن أكلمه؟

وبالرغم من استغراب الأخيرة لطلبها إلا أنها ردت بترحاب:

تحت أمرك يا حبيبتى، هو راجع من براء، ثواني أروحله الأوضة أوديله الموبايل.

-شكرا يا "علا"

قالت لها وهي تعض على أناملها في توترٍ، كانت تحاول جاهدة ترتيب أفكارها في رأسها حتى تسرد له الكارثة التي حلت بها كاملة، انتفضت وشعرت بقليل من التشتت وصوت "ماهر" الهادئ العميق يقول لها:

- مساء النور، إزيك يا "فيروزة"؟

تلبكت وهي تجيبه:

- "ماهر" بيه، أنا أسفة إني بأزعجك، بس حصلت معايا مصيبة وما فيش غيرك اللي هايقدر يساعدني

جاء رده جادًا:

- خير، قوليلي في إيه؟

أجابته على عجلٍ بمقتطفاتٍ مما حدث، حاولت ألا تغفل عن شيء، فيما عدا ذلك الجزء الخاص بمواجهتها مع "تميم"، فقد تعمدت إخفائه حتى تتجنب لومه مثلما فعلت أختها، فالأهم عندها حاليًا التركيز على موضوعها الرئيسي، وليس أي فروع جانبية، هزت رأسها وكأنها تراه أمامها حينما أمرها بصوته ذي اللهجة الرسمية:

- حالاً تروحي عملي محضر إثبات حالة في القسم التابع ليه منطقتك، وأنا هاحصلك على هناك.

لحت إلى صدامها معه فادعت مظهرة القليل من قلقها الذي تقاومه:

- أنا خايفة يتعرضلي يا "ماهر" بيه.

هتف بجدية ليؤكد لها ودون أن ترتفع نبرته:

- البلد فيها قانون، متخافيش، واحنا بنعرف نتعامل مع البلطجية والمجرمين.

تهدت في ارتياح قبل أن ترد عليه:

- كلامك طمني والله.

أكد عليها من جديد حتى لا تتقاعص:

-ماتضيعيش إنتي وقت وروحي على هناك، مفهوم يا "فيروزة".

هزت رأسها قائلة:

-حاضر.

أضاف "ماهر" بصوته الهادئ:

-وهابعثلك رقمي في رسالة عشان تسجليه، وتخليكي معايا على الخط.

كانت ممتنة لوقوفه معها في أزمته، فتنحنحت تشكر جميله:

-أنا مش عارفة أقول لحضرتك ايه؟

رد عليها بنبرته الثابتة:

-متقوليش حاجة، وطمني لي حد ما أجيلك.

شكرته من جديد بامتنان أكبر:

-حاضر، شكرا يا "ماهر" بيه، ربنا يخليك لينا.

أنهت معه الاتصال وابتسامة راضية أضاءت عتمة وجهها، انتاب الفضول "همسة" لتعرف ما دار

بينهما خلال تلك المكالمة، اعترضت طريق أختها تسألها واللهفة تملأوها:

قالك إيه الظابط أخو "علا"؟

جذبتها من ذراعها لتدفعها للسير معها قبل أن تجيبها:

-هاحكيك، بس تعالي معايا الأول.

.....

بصعوبة جمّة ومجهود غير يسير أقنعه بترك الدكان، وإرجاء كافة الأعمال ليعود معه إلى منزله حتى

يضيع عليه فرصة الاشتباك مع تلك الفتاة الطائشة التي خرقت القواعد، وتجاوزت الأعراف

والأصول بتناولها باليد على ابنه. أجبره على الانصياع لأوامره بالرغم من الثورة العارمة المندلعة

بداخله، وليضمن بقائه بعيدًا عنها أصر على الذهاب معه، وقف كلاهما أمام مدخل البناية في حالة تحفز مبررة، استطرد "بدير" يأمره بلهجته غير القابلة للنقاش:

-اطلع البيت حالاً، سامعني؟

سدد "تميم" لوالده نظرة عكست غليانه المتأجج، نفخ بصوتٍ مسموع، وأشاح بوجهه للجانب الآخر وقد بدا كامل جسده متصلبًا من شدة عصبيته المكتومة، هزه والده معاودًا إيماءً أوامره عليه:

- "تميم"، اتحرك! مستني إيه؟

رفض الاستجابة له، فقال بصوته الحانق وتلك الملامح المظلمة تكسو وجهه:

-مش هامشي يا بابا!!

رد عليه "بدير" بجدة طفيفة ضاغطة عليه:

-قولتلك أنا هاتصرف معها.

غامت نظراته أكثر، ورد معارضًا بشدة:

-الموضوع ده بالذات يخصني، ده مس كرامتي و...

قاطعته بحزم:

-لما تهدي الأول اسبيك تتعامل، لكن دلوقتي استحالة! إنت هتولعها حريقة

هي ولعت خلاص يا بابا.

حاول أن يحدثه بعقلانية، فقال له بنبرة أبوية:

طيب، اطلع لمراتك، هي مستنيك من بدري.

وكانه يُجادث الفراغ، انفجر فيه هادرًا بنبرة تعبر عن جزء محدود للغاية مما يستعر بداخله:

-أنا عاوز حقي يا بابا.

علق عليه مشددًا بنبرته الرزينة ودون أن تطرف عيناه:

حقك هانجيبه بالأصول، ماشي؟ بالأصول ومش بحاجة ثانية! ويا ريت مراتك متعرفش حاجة عن اللي حصل.

صاح في غلٍ وعروقه تنبض بقوة:

ده الحتة كلها اتفرجت عليا وبنت ال بترفع ايدها عليا و....

قاطعه مؤكداً:

محدث هيجرو يتكلم بالسوء عنك حتى لو هي غلظت، إنت اتصرفت صح

رد بألم وغضبه يتضح في وجهه:

دمي محروق يا با، حاسس ببركان بيغلي في نافوخي، مش قادر أهدى خالص!

كان "تميم" غير راضٍ بالمرّة عن إذلاله بتلك الصورة المهينة على يد امرأة دون أن ينال لكرامته المبعثرة، ظل ذلك المشهد متجلي في عقله ليزيد من حنقه ويضاعف من غضبه، لاحظ "بدير" قساوة تعابيرهِ، بالإضافة إلى ذلك التقلص المريب الذي أصاب وجهه، حاول أن يخرجهُ من حالته المكبوتة فوعده

أنا هاتصرف وأجيلك حقك، وزى ما وعدتك الموضوع ده هيتجاب أراه النهاردة، اطلع إنت بس لمراتك.

كان عنيداً بشكلي رهيب، رفض الإصغاء له وظل باقياً في مكانه ينفث عن غضبه بإشعال السجائر وتدخينها بشراهة، لازمه والده مضطراً عاقداً النية على المبيت بجواره، وإن بقيا هكذا واقفان في مكانهما حتى يبأس الأخير ويتخلى عن عناده.

.....

صدمة هبطت كالصاعقة المدمرة فوق رأسه حينما تساءل مصادفة عن سبب اندلاع الحريق بعربة الطعام المملوكة للفتاتين، والتي دوى صداها في الأرجاء كما تنتشر النيران في الهشيم، بالطبع تفاجأ من كون أتباعه هم من أضرمو فيها النيران وقاموا بإحراقها، وما زاد الطين بلة تباهمهم المستفز بذلك. صال وجال، وهاج وماج، وانتمضت عروقه وهو لا يستوعب حجم الكارثة التي وقعت

على الجميع. ركل "ناجي" بقدمه صينية الأكواب الزجاجية الموضوعة على طاولة قصيرة الطول بكل عصبيته لتسقط بما فيها على الأرضية، تهشم الزجاج وتبعثر في كل مكان مسيئاً الفوضى، ثم هدر بصوته الغاضب لاعتنا "حمص" وشيكاغو":

-الله يحرقكم إنتو الجوز! عملتوا كده ليه؟

أجابه "شيكاغو" بنوع من التفاخر وبوجهه البادي عليه علامات الإجرام:

-كنا بنوجب مع الريس "تميم" يا كبير.

رد في حنق وعينه تطلقان بالغيظ:

-إنتو وقعتوا الدنيا في بعض، ضربتوا كرسي في الكلوب، والكل هيولع.

علق في برودٍ مستفز:

-متكبرش الحكاية يا كبير، دول تمام صويت ولطم، مافيش أكثر من كده.

هدر به بنبرته المغتظة وهو يدفعه من كتفه في قسوة:

-إنت غبي ولا بتستعبط؟! دي مصيبة يا هباب البرك! ربنا يستر وما يقلبش علينا!

فرك "حمص" طرف ذقنه متسائلاً بسماجة:

-واحنا هنعرف منين إنه مش هايعجبه شغلنا؟

التفت "ناجي" ناحيته يعنفه بجدّة وصراخ:

حد طلب منكم خدمة؟ ولا قولناكم حاجة، إنتو أغبية ومخكم فيه جزمة! بتتصرفوا من دماغكم ليه؟

برر له "شيكاغو" قائلاً بوجهه الممتعض:

-يا معلم فكرنا لما هنعمل كده هيرضنا عننا و آ.....

قاطعته في غلي:

-ده مش بعيد يولع فيكم بعد ما يعرف!

حك "حمص" طرف أنفه وهو يجيبه بلسانٍ شبه ثقيل:

-كله بيعدي ياكبير، روق إنت بس، تحب أفلك سيجارة وصاية؟

نظر له شزرًا، فقد كان يبدو عليه أثر تعاطي تلك المواد المخدرة، بصق عليه ثم قال:

-يخربيت الزيت اللي بتسفوه، أهوو ودانا في داهية!

تبادل كلاً من رفقي السوء نظرات غير مبالية أو حتى نادمة عما اقترفا، وعلى عكسهما كان يدور

"ناجي" حول نفسه في دوائر فارغة يعتصر- عقله ويفكر بعمقٍ عله يجد الحل الملائم لتلك المعضلة

العويصة، تتم مع نفسه متسائلاً وهو يركز على أسنانه:

طب أتصرف إزاي دلوقت؟

.....

استغرق في أفكاره الانتقامية الهوجاء فلم يشعر بمرور الوقت، كانت نظراته قائمة، واحتوت على

قساوة مخيفة خاصة حينما أتت الأخبار السيئة عن احتراق العربة، إذًا الفتاة لم تكن تدعي بالباطل

عليه، وهناك من أشعلها وزج باسمه في الأمر ليبدو متورطاً بشكلٍ مباشر فيه، وكأنه بذلك يخلق

العداوة بينهما، وبالرغم من كم ما علمه إلا أنه لم يعرف بعد هوية المتسببين فيه التخريب، لكن

الأوصاف التي قيلت عن أحدهم تنطبق بصورة كبيرة على واحدٍ ممن يشك فيهم، انتشله والده من

سرحانه الواضح وقد شعر بالإرهاق يتغلغل في عظامه المسنة، فقال له بما يشبه الرجاء:

-مش كفاية كده يا "تيم"، اطلع بيتك خليني أتوكل على الله

-يا بابا قولتلك امشي من بدري، بس إنت اللي رافض

-ما هو ما ينفعش أسيبك وإنت كده

-خلاص أنا هديت

-ربنا يكملك بعقلك، كل حاجة وليها حل، اطمن

ظن بكلماته تلك أنه سيسكن الامه المعنوية، لكنها لم تفعل شيئاً سوى تأجيل رغباته الانتقامية لوقت يكون قادراً فيه على الرد وبشراسة .. بدأت زخات المطر في الهطول بشكل خفيف بعد أن تجمعت السحب الكثيفة وكانذار مبكر عن زيادة حدتها، اعتبرها "بدير" فرصة جيدة لحث ابنه على الصعود، أشار له بعكازه:

-اطلع يا ابني، أديك شايف الجو بقى عامل إزاي، وبعدين مراتك قلقانة عليك ردت في ضيقي:

-ما أنا واقف أهوو تحت البيت، هاروح منها فين، وبعدين أنا مش فايقلها أصلاً. وفجأة صدحت أبواق سيارات الشرطة في المكان فلفتت انتباه كلاهما، تركزت أنظارهما مع رجال الشرطة الذين ترحلوا منها، اقترب أحدهم وهو يرتدي زياً مدنياً ليسألها بصوت مرتفع لكنه رسمي: في واحد اسمه "تميم سلطان" ساكن هنا؟!

نظرة حائرة غامضة تبادلها "تميم" مع والده الذي كان يتطلع إليه في اندهاش، استدار برأسه ليرد على الضابط بتعايره المدهوشة:

-أيوه أنا، خير يا حضرت الظابط؟ رمقه بنظرة دونية عبرت عن ازدرائه له قبل أن يأمر رجاله من خلفه بكلمة واحدة لكنها نافذة وهو يشير لهم بيده مُشعراً إياه أنه يتعامل مع شخصية حقيرة نكرة: هاتوه!

رد محتجاً في حدة:

يجبوني ليه؟ أنا معمלתش حاجة! تجاهله تاركاً لرجالهم مهمة إلقاء القبض عليه، حاول "بدير" اعتراض طريقهم كردة فعلٍ تلقائية لحماية ابنه، وتساءل في جزل:

-عاوزينه ليه يا حضرت الظابط؟ هو عمل إيه؟

أجابه بغموض وتلك النظرة الاحتقارية تغطي ملامحه:

-في القسم هيعرف!

لم يتمكن من الجدل معه حيث انقض العساكر على "تميم" وجذبه بقساوة وقوة نحو سيارة الشرطة، وبالرغم من اعتياده على مثل ذلك الأسلوب الجاف في التعامل إلا أن إهائته بتلك الصورة زادت من توحشه ومقاومته، تبعه "بدير" صائحًا:

-ماتقلقش يا "تميم"، أنا جاي معاك! وهاكلم المحامي ومعارفنا كلهم، اطمئن!

رد عليه بنبرة قائمة:

-كده ولعت على الآخر يابا!

دفعه العساكر دفعًا ليصعد في مؤخرة السيارة وكأنه بهيمة غير مكترئين بالإصابات المؤلمة التي تنال من جسده جراء خبطه عن قصدٍ وبقساوة. أدرك "تميم" من تلك المعاملة الحادة معه أن هناك من يكيد له، ورغم عدم الإعلان عن سبب القبض عليه إلا أن ما يراود عقله من ظنون بشأن تورطها في تلك المسألة كان قويًا.

.....

ضمت كفيها معًا ووضعتهما في حجرها وهي تجول بعينها المتوترتين على تفاصيل مكتب الضابط الذي تجلس أمامه بمفردها، حيث طلبت من أختها العودة إلى المنزل والبقاء مع والدتها ريثما تذهب لقسم الشرطة، استجمعت "فيروزة" جأشها وحافظت على صلابتها خلال إدلائها بأقوالها في البلاغ الرسمي الذي تقدمت به ضد "تميم" محاولة عدم الإغفال عن أي تفصييلة. معاملة جيدة تلقته في الداخل حينما أعلمت أحد الضباط بأنها على صلة بالضابط "ماهر"، والذي على ما يبدو كان الأسبق في إعلامهم بقدمها، لم تجد أي صعوبة في القيام بالإجراءات القانونية، وتم اصطحابها لمكتب أحد الضباط ذوي العلاقات القوية مع "ماهر"، استعلم منها بإيجازٍ عن مشكلتها قبل أن تسرد له الأحداث كاملة، ما دعم أقوالها أيضًا هو ذلك البلاغ الذي قام به أحد المواطنين ليعلن عن نشوب حريق في إحدى عربات الطعام الكائنة بمنطقة الكورنيش جراء الاعتداء السافر لأحد

المجرمين، ولكن لم يجرؤ مقدم البلاغ عن الإفصاح عن هوية المتسبب في الحريق خوفاً على حياته من بطشه.

كانت "فيروزة" في حالة قلقٍ وحيرةٍ مبررة، أخفت بمجهودٍ عظيم تلك الرجفة التي أصابت جسدها بمجرد أن وطأت ذلك المكان، امتدت يدها لتمسك بكوب عصير الليمون، وضعت طرفه على فمها ترتشف منه القليل حتى تبلل حلقها الذي جف كلياً، شعرت بالمذاق اللاذع يؤلم جوفها، ومع ذلك ابتلعتة مجبرة وهي تتقرب سؤال الضابط التالي. عبث "وجدي" بقلمه الحبري ونزع غطاءه ووضعته عليه من جديد في لزمة مملة، وكأنها وسيلته لترتيب أفكاره، نظر إليها نظرة مطولة قبل أن يعاود سؤالها:

-يعني إنتي بتتهمي "تميم" ده بجرق عربيتك؟

أجابت دون تردد:

-أيوه يا باشا.

ترك القلم من يده وسألها:

-وايه الدافع اللي يخليه يعمل كده؟

شعرت بالقلق من سؤاله الروتيني، انتابها الهواجس بأنه لا يصدقها، وربما تفتري عليه، ازدردت ريقها، ثم تنفست بعمق وجاوبته:

-معرفةش يا حضرت الظابط

مط فمه، وسألها مباشرة من جديد:

-في عداوة بينكم؟

صمتت للحظة تحاول قراءة ما يدور في رأسه، ترددت في إطلاعه على تلك الكراهية التي نشبت بينها فجأة دون أسباب حقيقية، ومع ذلك حسمت أمرها وباحت بتفاصيل كل شيء.

.....

اقتادوه للقسم الشرطي، وتعاملوا معه بشكلٍ مهينٍ مبعثرين كرامته الغالية بنعته بشتائمٍ خارجة وألفاظٍ نابية تمس الوالدين، قاومهم "تميم" بخشونةٍ مما زاد من تحاملهم عليه، كان أكثر وقاحة وعدائية وهم يجرونه للداخل، أجبروه على الجلوس على الأرضية في الردهة والأصفاة في معصميه منتظرًا السماح له بالدخول لغرفة الضابط المسئول عن التحقيق معه. لحق به والده ولم يتخل عنه، وقف قبالتة، ولكن على مسافة ما يقول له:

-متقلش يا "تميم"، أنا كلمت حبايبنا كلهم، ودلوقتي هنفهم في إيه.

رد عليه في قتامةٍ وعيناه تبرقان بوهجٍ غاضب:

-مش محتاج أعرف، ما هي باينة زي الشمس!

أضاف في تلهفٍ ليهده:

-كله هيتحل، حبايبنا زمايتهم جايبين.

رد غير مباليٍ وبنبرة جافةٍ ومخيفة:

-وحتى لو متحلش، هو بقي عندي!

لم يعقب عليه، فقد علم في قرارة نفسه إلى الذي يرمي إليه، وحدها فقط من تقف وراء تلك المهزلة المهينة، وحنًا لن يمرر ذلك مرور الكرام بمجرد خروجه من هنا.

لحظاتٍ وامتلاً القسم بعناصرٍ من أفراد الشرطة من ذوي الرتب والمناصب العليا، وكان هناك زارة استثنائية من أحد كبار المسئولين للتفتيش عن فيه، كان المفاجأة الصادمة لمعظم العاملين به أن أغلبهم قد جاء للتوصية بـ "تميم"؛ فصداقات والده الوطيدة مع أمثال اللواء "وفيق" أفادته كثيرًا. تبدلت المعاملة للنقيض، وتم انتزاع الأصفاة الحديدية من معصميه، واصطحابه لغرفة جانبية تستخدم لاستراحة الضباط. وبالرغم من المحاولات الجادة لتعويضه عما قابله من معاملة سيئة في البداية إلا أن ذلك لم يخفف من حدة الغليان المسيطر عليه.

.....

في تلك الأثناء، جاء ضابط ما، مفتول العضلات، عريض المنكبين، ذو طلة مهيبة، وصاحب وجه صارم وتعاير جادة إلى القسم، ألقى عليه من يمرق بجواره التحية العسكرية مظهرين احترامهم له، ولج إلى غرفة مكتب الضابط "وجدي" قائلاً له بلهجته ذات الطابع الرسمي:

- "وجدي" بيه!

نهض الأخير من خلف مكتبه فور أن رآه ليرحب به، مد يده ليصافحه وهو يقول:

- أهلاً "ماهر" بيه، نورت مكنتي المتواضع.

رد مجاملاً:

- شكراً يا باشا.

نظرة خاطفة تحولت نحو تلك الفتاة وهو يهيم بالجلوس قبالتها محاولاً التأكد منها قبل أن يشرع في سؤالها، تأملها بنظراته المتفحصية قبل أن يسألها:

- إنتي "فيروزة"؟

هزت رأسها تُجيبه:

- أيوه أنا.

لم يكن "ماهر" قد رآها إلا في مرات عابرة حينما كان يعرج على أخته في الكلية ليوصلها، لذا بدا وجهها مألوقاً بالرغم من الحالة الفوضوية البادية عليها، وعلى النقيض عرفته "فيروزة" من وجهه الذي رآته في أغلب الصور الفوتوغرافية التي جمعتها مع صديقتها "علا"، ومع هذا لم يُصادف أن يتبادل كلاهما أي حديث ولو مقتضب. نفرس فيها وسألها باهتمام:

- إنتي كويسة؟ عملتي اللي قولتلك عليه؟

أجاب عنها "وجدي" تلك المرة، وتلك الابتسامة المتكلفة مطبوعة على شفثيه:

- اطمن يا "ماهر" بيه، أنا قايم بالواجب كله معاها

رد يشكره بتملتي:

- ده العشم يا باشا...

ثم استأذنه بصوته الجاد:

-تسمحلي أطلع على المحضر؟

قال مرحبًا ودون أن يظهر أي اعتراض:

-تفضل سعادتك.

مد "وجدي" يد نحوه بالأوراق التي دونت فيها أقوال "فيروزة" ليبدأ "ماهر" في قراءتها على عحالة، صمت مريب ساد في المحيط إلا من أصوات لفظ دخان السجائر المشتعلة، قاومت "فيروزة" رغبتها في السعال بسبب الدخان الذي عبق المكان وملاه. دق الباب ليلج بعدها أحد العساكر وعلى وجهه نظرة متوترة قبل أن يتجمد في مكانه مُلقياً التحية العسكرية، ثم أردف بعدها:
-تمام يا فندم.

رفع "وجدي" أنظاره نحوه يسأله:

-خير يا عسكري.

أجاب بلهجته الرسمية ودون أن يرف جفناه:

-سيادة المأمور عاوز سعادتك حالاً

استغرب كثيراً من طلب المأمور غير المعتاد لرؤيته، تنحنح بصوتٍ مرتفع، ثم أشار له بعينه وهو يقول:

-روح إنت يا عسكري، وأنا جاي وراك.

أدى له التحية العسكرية قبل أن يستدير منصرفاً من الغرفة ومغلقاً الباب خلفه، تطلع إليه "ماهر" متسائلاً في اندهاش:

-مش غريبة المأمور يطلبك

رد بوجهٍ مبهم التعبيرات:

-مش عارف، مش بعوايده

ثم نهض من خلف مكتبه متابعًا حديثه:

-هستأذنك يا "ماهر" بيه، خد راحتك، المكتب مكتبك

ابتسم في امتنان وهو يرد:

-شكرا يا "وجدي" بيه.

التقط الأخير ولاعته، وميدالية مفاتيحه، وكذلك علبة سجائره، ثم اتجه إلى الخارج تاركًا الاثنين بمفردهما، كانت الفرصة مناسبة لـ "فيروزة" لتشكو له التصرفات الوقحة والعدائية من قبل ذلك الفظ "تميم" عليها بذلك تسترق قلبه وتحوز على كامل دعمه.

.....

حيرة ما بعدها حيرة أصابت عقله بالتخبط وشوشت ذهنه بعد المقابلة الرسمية مع مأمور القسم، والذي طلب منه فيها بصراحة فض النزاع القائم بين "فيروزة" و"تميم" بشكلٍ ودي، وإنهاء الأمر في التو والحال، تعجب "وجدي" كثيرًا من مدى الصلات الوثيقة التي تربط مجرمًا مثله بأهم المسؤولين ليجبروا رئيسه في العمل على التدخل في تلك المشكلة، وقف في الردهة يفكر مليًا فيما سيفعله، لم يرغب في إغضاب رؤوسائه، اقترب من النافذة المفتوحة، واستند بكفيه على حافتها محملقًا في الطريق أمامه لبعض الوقت، استنشق بعمق الهواء البارد الذي اندفع منها قبل أن يتحرك عائداً إلى مكتبه وفي رأسه فكرة ما توصل إليها، هز رأسه قائلاً وهو يتجه نحو مقعده:

-متأخرتش عليك يا "ماهر" بيه؟

رد نافيًا:

-لا يا باشا.

التفت "وجدي" نحو "فيروزة" يسألها بلهجته الجادة:

-آنسة "فيروزة" إنتي معاكي تراخيص للعربية دي؟

أجابته بنظراتٍ متوترة:

-أيوه.

أكد عليها بنبرة غريبة لم تستساغها:

-يعني كل التراخيص كاملة ولا في حاجة ناقصة؟

بلعت ريقها وردت متسائلة:

-يعني إيه؟ أنا مش فاهمة.

هنا تدخل "ماهر" في الحوار ليسأله:

-في إيه يا "وجدي" به؟

نظر له بغموض جعله يشعر بالاسترابة من مظهره المغاير لما قابله قبل قليل. وحتى لا يضعه في

موقف محرج أمام ضيفته، هب "وجدي" واقفاً ونظراته بالكامل مرتكزة على "ماهر"، ثم قال له

بصوتٍ جافٍ اكتسب رسمية جادة:

- "ماهر" بيه أنا عاوزك برا في كلمتين.

نهض الأخير من جلسته ليرد عليه:

-تفضل.

تطلعت إليهما "فيروزة" وبوادر الفضول مسيطرة عليها، استدار "ماهر" نحوها ليقول:

-اشربي ليمونك وأنا راجع ثاني.

ردت بابتسامة صغيرة لكنها مصطنعة:

-حاضر.

راقبت الاثنان وهما يخرجان من الغرفة، لاحظت ببديهيتهما وفطنتها تغير أحوال الضابط الذي كان

يحتق معها، حيث أصبح وجهه جامد كالصخر، واختفت نظرات التعاطف معها، بدا رسمياً معها

على غير الودية التي قابلها بها. لم تنكر "فيروزة" أنها استشعرت وجود خطب ما، تنفست بعمق

وحاولت التغلب على التقلصات المؤلمة التي أصابت معدتها، لكن ظل ذلك الهاجس يعيث برأسها،
رددت مع نفسها في تهكم:

-يا خير بفلوس !!!

.....

الفصل السادس عشر

سحبته من ذراعه برفق ليوجهه عبر الردهة الطويلة الضيقة حتى ينزويًا عند أحد الأركان وبعيدًا عن الجلبة الروتينية الدائرة من حولها بسبب طبيعة العمل في القسم الشرطي، بدأ "وجدي" حائرًا في كيفية مفاتحة "ماهر" في الأمر، لكن لا مناص من ذلك! وبتعايره الجادة ونظراته الغائمة نسبيًا استطرد يشرح له بإيجاز عما دار خلال لقائه مع المأمور، وكيف ألزمه الأخير بحل النزاع القائم بين "فيروزة" و"تميم" وديًا حتى لا تتخذ الأمور منحًا آخرًا، استطرد يؤكد عليه:

إنت ليك كلام معاه، حاول تقنعها.

هتف بعد صمتٍ قليل:

-حاول، لكن موعدكش بحاجة.

استرسل مضيئًا بنفس نبرته العميقة الثابتة موضحةً خطورة وجدية المسألة:

يا "ماهر" بيه إنت عارف إني مقدرش أتأخر عنك في حاجة، بس الموضوع ده بالذات طلع فوق قدراتي، والمأمور بنفسه متابعه، وأنا مش عاوز لها الأذى.

حملق فيه في صمتٍ فتابع موضحةً:

مش هايسبوها لو ركبت دماغها وعاندت، هايطلعوها الغلطانة في الآخر، إما إن في مشكلة في تصاريح الصحة، أو السجل الضريبي، وحاجات شبه كده

قال معقبًا عليه:

-مفهوم.

وبنبرة ذات مغزى أكمل:

-وزي ما سيادتك عارف، اللي مالوش ظهر في البلد دي بيحصله إيه!!

لم يكن بحاجة للمزيد من التفسيرات ليفهم ما الذي يرمي إليه، قضية "فيروزة" خاسرة من قبل أن تبدأ، ظل يدير الأمر في رأسه من أجل إيجاد الوسيلة المناسبة لإقناعها بالعدول عن رأيها والقبول

بالتنازل. أشعل "وجدي" سيجارة جديدة، سحب دخانها بقوة، ثم لفظه وهو يقول ببسمة بدت متكلفة:

-وأنا تحت أمرك في أي حاجة ثانية.

رد مجاملاً وهو يشير له في خفة بعينه:

-شكراً يا "وجدي" بيه، أنا تابعك معاً.

بادله ابتسامة فاترة، وتابع تدخين سيجارته، تنحنح "ماهر" متسائلاً من جديد:

حطب افرض هي رفضت، هتعمل إيه؟

أجابه بعد تفكيرٍ متأنٍ:

-أقصى حاجة ممكن أعملها إني آجل تقديم البلاغ للنيابة لحد ما تتنازل.

-وده ينفع؟

رد مؤكداً عن ثقة:

-الموضوع في إيدنا، بس المهم هي.

أشعره ذلك بقليلٍ من الارتياح، وقال له:

-أنا هاعمل اللي عليا معاها.

.....

استجمعت جأشها قليلاً واستعادت شجاعتها التي فقدتها في البداية رهبةً من الموقف، كانت حيرتها تزعجها، فقررت أن تستغل فرصة انفرادها بنفسها في غرفة المكتب لتهااتف أختها حتى تتقوى منها عن طبيعة الأجواء في المنزل، خاصة بعد عودة "همسة" بمفردها، عبثت "فيروزة" بلزومةٍ لا إرادية بشعرها وهي تسألها بصوتٍ خفيض :

-كله تمام عندك؟

أجابتها بنبرةٍ عبرت عن قلقها:

هي ماما بتسأل عليكي، وأنا مش عارفة أقولها إيه، وبصراحة خفت أحكيها و...
قاطعتها محذرة:

-لا استني لما أرجع عشان ماتتخضش وتقلب الدنيا، والحكاية مش ناقصة.

سألتها "همسة" بنفس الصوت الخافت:

طب هاقولها إيه؟ ولا هاتصرف إزاي؟

-ثواني كده

سكتت قليلاً لتفكر في حجة مقنعة، طراً ببالها فكرة ساذجة، لكنها كافية للانطلاق على والدتها مؤقتاً، هتفت فجأة وبجدية غطت ملامحها:

قوليلها في مشوار تبع "علا" صاحبتني، ومش هتأخر، هي عارفها وبتثق فيها

سألتها بجذر:

-ماشي، وإيه الأخبار معاكي؟

أجابتها بابتسامه مطمئنة:

لحد دلوقتي كل حاجة ماشية تمام، "ماهر" بيه عامل معايا الواجب وزيادة، ومش بعيد تلاقيهم قبضوا على الحيوان ده، وحابسينه.

سألتها في جزع:

هو إنتي شوفتيه تاني؟

ردت نافية:

-لا، بس طبعي يقبضوا عليه بعد البلاغ اللي قدمته فيه..

ما لبث أن اتسعت ابتسامتها الساخرة وهي تضيف:

-ده مش بعيد يكونوا بيعلقوه دلوقتي.

قالت لها "همسة" بتوجيس:

-أنا خايفة عليكي يا "فيروزة"، حاسة إن الموضوع ده نهايته مش خير أبدًا!

انزعجت من خوفها الزائد، وهتفت في حدّة بعد أن تقلصت تعابيرها بشكل ملحوظ:

-ما هو كله حصل على إيديك، هو اللي ابتدى من الأول، وحاريني في أكل عيشي-، وكل اللي بأعمله معاه إني بأخذ حقي منه.

استطاعت أن تسمع صوت تهديتها وهي تقول لها:

-ربنا يستر، وتعدني على خير.

شعرت "فيروزة" بجلبة تصدر من الخارج وتزداد حدتها، فوضعت يدها على فمها لتغطيه وهي تهبي المكالمة مع أختها:

-الظاهر في حد جاي يا "همسة"، هاكلمك بعدين.

لم تنتظر الرد منها، وأنهات معها المكالمة لترفع بعدها رأسها للأعلى وتحقق في "ماهر" الذي عاد بمفرده للمكتب، بدت تعابيره غير مقروءة، لكن نظراته الغريبة التي تتجنب التطلع إليها توحى بشيء ما، جلس قبالتها مستقيمًا، ثم سألها بصوته الرخيم الجاد:

-كلمتهم في البيت عندك تطمينهم؟

أجابته وهي تهز رأسها بالإيجاب:

-أيوه..

ثم تملقته قائلة:

-وكلهم بيشكروا سعادتك على تعبك معايا ووقوفك جمبي.

أكنفى بإيماءة خفيفة من رأسه لها، شعرت "فيروزة" أنه يريد إخبارها بشيء، لكنه متردد، فبادرت متسائلة:

-هما مسكوا البلطجي ده؟

جاوبها بزفيرٍ بطيء:

أيوه.

ارتسمت ابتسامة ارتياح على محياها وهي تعلق عليه:

طب الحمد لله، أهوو هياخد جزائه!

استغرق "ماهر" في صمته المريب ليشعرها بالمزيد من الاسترابة والشك في أمره، تفرست في

وجهه الغريب متسائلة بنظراتٍ متوترة:

- هو في حاجة حصلت وحضرتك مش عاوز تقولي عليها؟

تخلي عن جلسته المنتصبة ليميل نحوها وهو يقول دون مراوغة:

- "فيروزة"، إنتي لازم تتنازلي عن المحضر!

تطلعت إليه في اندهايش عظيم وبفمٍ مفتوح وهي تكاد لا تصدق ما نطق به للتو، بلعت ريقها

وردت في استنكارٍ ظهرت علاماته على قسماها:

- حضرتك بتقول إيه؟!!

.....

سرد لها بأسلوبه الهادئ والعقلاني الأبعاد القانونية لما سيحدث لاحقًا إن أصرت على تصعيد

مشكلتها مع "تميم" الذي ظهر الجانب الآخر القوي لعائلته، والتي لن تتوانى عن استغلال أي

ثغرات لقلب الطاولة على رأسها، لم تصغ لكلمة واحدة مما قالها، وردت معاندة ورافضة بشكلٍ

قطعي:

- لأ طبعا مش هاعمل كده!

عقب عليها بتمهل:

- افهمي يا "فيروزة"، الناس دي أكبر مني ومنك و...

صاحت مستنكرة وعلى وجهها نظراتٍ متمرة:

-ده بلطجي، خريج اللومان، بتعملوا للي زي ده قيمة؟ ليه يعني؟

أجابه ببساطة ودون تزييف:

-لأنه مسنود.

تملكها الحق لمجرد التفكير في الأمر، كانت كلماتها عنيفة، مليئة بالاتهامات حينما قالت له:

قول إن حضرتك مش عاوز تساعدني

عاتبها بوجهه الذي تحول للصرامة:

عيب الكلام ده يا "فيروزة"، أنا مش كده

لانت نبرتها قليلة، وقالت معذرة دون أن تخبو انفعالات وجهها:

-أنا أسفة، بس ده حقي، وأنا مش هتنازل عنه

رد عليها بعقلانية عليها تنحي عواطفها جانباً وتحكم عقلها:

-وحقك هتاخديه، بس بشكل ودي.

أصرت على رفضها، واستطردت تقول:

-أنا أسفة يا "ماهر" بيه، سامحني، مش هاقدر أسمع كلامك.

سألها بعينين جادتين:

-يعني مصممة على اللي في دماغك؟

هزت رأسها تجيبه بكلمة واحدة:

-أيوه.

لم يحاول أن يستحثها على التنازل، ورد بهدوء:

-تمام.

دقائق ساد الصمت فيها بينهما، تخللته فقط أصوات رسائل ترد على هاتف "ماهر" كان يجيب عنها نصياً. فُتح الباب فجأة، ودخل "وجدي" للمكتب متسائلاً بحماسة، وقد توهم نجاح زميله في إقناعها:

-ها وصلتوا ليه؟

أجابه "ماهر" على مضض وهو يهز رأسه بالنفي:

-للأسف رابطة دماغها يا "وجدي" بيه، ومصممة على المحضر.

اختفت الحماسة من تعابير "وجدي"، ورد عليه بوجوم وهو يسحب مقعده للخلف ليجلس خلف مكتبه:

-براحتها، خرينا نكمل المحضر بتاعنا...

ثم تركزت أنظاره على "فيروزة" وهو يكمل بلهجة مفايرة للود الذي استقبلها به:

-ونستدعي المدعو "تميم".

سألته في صدمة وقد اتسعت عيناه على الأخير:

-هو حضرتك هاتجيبه هنا المكتب؟

رد ببرودٍ وتعالٍ:

-أكيد طبعا، مش محضر ولازم يتقبل!

ازدردت ريقها في اضطرابٍ، وشعرت برجفة مقلقة تصيب بدنها، فبكلماته الجامدة تلك نزع

الطمأنينة من قلبها، تطلعت إلى "ماهر" بنظراتها المتوترة، وكأنها تستنجد به، نظر إليها بغموض

قبل أن ينطق بنبرته ذات الطابع الرسمي:

-تسمحلي أحضر معاك يا "وجدي" بيه؟

أجاب مرحباً به:

-ما فيش مشكلة.

.....

مواجهة محتومة بينهما كانت مليئة بالحنق، بالكراهية، بالغضب، وبكل المشاعر العدائية. تطلع الاثنان إلى بعضهما البعض بعد أن جلسا متقابلين بنظرات متحفزة ونارية، وكأن بينهما صراع خفي بدأ منذ زمنٍ بعيد، كذلك امتلأت الغرفة بأحد أبرز محامين الدفاع ليتولى واحد منهم مهمة الحديث حينما يستلزم الأمر، وأيضًا حرص الضابط "ماهر" على التواجد، ناهيك عن توصيات اللواء "وفيق" الذي عرج عليهم بالغرفة ليلقي التحية على "تميم" قبل أن ينصرف، حينها أدركت "فيروزة" أنها باتت في موقفٍ أضعف، لكنها ما زالت تثق في قوة القانون الذي لن يخذلها. بدأ "وجدي" في تدوين أقوال كليهما مستعينًا بأحد معاونيه، نظر إلى "تميم" متسائلًا بروتيئية:

-الآنسة بتتهم حضرتك بإنك ولعت في عريية الأكل بتاعتها، إيه ردك على الكلام ده؟
عمق "تميم" من نظراته العدوانية لها، وأجابه بصوته الأجش:
-كداية، ده محصلش!

هدرت "فيروزة" في عصبية وقبضة يدها المتكورة تضرب على سطح المكتب بانفعال:
-أومال هي ولعت لوحدها؟ إنت بعث البلطجية بتوعك يجرقوها!
كانت نظرة الازدراء الباردة التي تطل من عينيه كفيلة بإغضاها أكثر، استرخى في جلسته، وأضاف نافيًا التهمة عنه:

-ماليش علاقة باللي بتتكلمي عنهم، أنا كنت قاعد في دكاني وكل أهل الحطة شاهدين عليا.
زاد من حنقها، وردت عليه في استهجانٍ ساخط متعمدة إهائته:
طبعًا هتنكر، ما هو اللي زيك الإجرام بيجري في دهم!

تأهب "تميم" في جلسته ونظر لها بشراسة قبل أن يخذرها مهددًا بلهجة تنطق بعدائيته:
-تكلمي كويس بدل ما أعدلك!

طرق "وجدي" بيده في ضيقٍ على سطح مكتبه مستنكرًا أسلوب "تميم" الهجومي، وهتف يخذره:

- ما ينفعش الأسلوب ده هنا!

رد عليه من بين أسنانه المضغوطة، ونظراته المغلولة مسلطة على "فيروزة":

- وحضرتك مش شايف قلة أدبها؟

صاحت تدافع عن نفسها:

- أنا مغلطتش فيه.

التفت "وجدي" ناحيتها، ووجه حديثه لها يأمرها بلهجة أقل حدة:

- واتتي يا آنسة بالراحة من فضلك.

ضغطت على شفيتها في تأفف، وأدارت رأسها في اتجاه "ماهر" حين قال لها:

- اهدي يا "فيروزة"، احنا في تحقيق رسمي.

ردت صاغرة وعلى مضض:

- حاضر يا "ماهر" بيه.

استمع "وجدي" إلى باقي أقوال "تميم" التي تنفي عنه تهمة إحراق العربية مؤكداً بالبراهين الدامغة عدم تورطه في الأمر، ثم أضاف أحد محاميه برسومية وهو يشير نحو "فيروزة" ليسهم بحكمة ودهاء في تصعيد الموقف:

- اسمحلي يا باشا أشتكى على الأنسة في محضر - رسمي واتهمها بالسب والقذف والاعتداء على موكلي في مقر عمله.

هبطت جملته على رأسها كدلو ماءٍ مثلج، انتفضت في جلستها، وهتفت في ذهول:

- نعم؟ إيه الكلام ده؟

قال لها المحامي موضعاً بابتسامةٍ لئيمة استطاعت أن تبصرها مرسومة على وجهه:

- تقدري تنكري إنك اتهجمتي على الأستاذ "تميم" وضربتيه في دكانه؟!!!

شحب وجهها من إجابته التي حتماً ستفسد الخطط المرسوم في رأسها، نظرة مترددة سددها إلى "تميم" الذي بدا على غير العادة قوياً، معتداً بنفسه، أحست بمرارة العلقم في حلقها، بخفقات مذعورة تصيب قلبها. هربت الدماء من عروقها حينما تابع المحامي اتهامه لها:

- ده غير الشتايم والإهانة الفضيعة اللي سببتهاله وسط أهله، وهو في المقابل مقربش منك؟!!!!

أوشكت أن تموت من التوتر والخوف بعد أن تبدلت المواقف، وأصبحت هي في نظر الجميع المتهمة، لاذت بالصمت لعجزها عن إيجاد الكلمات المناسبة التي تدافع بها عن نفسها، طال صمتها مما جعل الشكوك تساور "وجدي"، سألتها مستهفماً:

-الكلام ده حصل؟

أجابت بصوتٍ مهتر محاولة تبرير تصرفها:

أيوه، بس عشان كنت متعصبة، وهو اللي حرق عرييتي و...

هدر بها "تميم" في غيظٍ:

قولتلك محرقتهاش، هو رمي بلى والسلام!

عنفه "وجدي" لتجاوزه في التحقيق قائلاً بشدة:

-اسكت لو سمحت، ماينفعش اللي بتعمله ده.

زفر بصوتٍ مسموعٍ ورد بتعابير مسمتزة:

-ماشي يا باشا.

هتف المحامي بقوة مستغلاً الموقف ليقلب الموازين ويجرز النصر لصالح موكله:

-سجل عندك يا باشا في المحضر- اعترافها ده، وتقدر كمان نجيب لسعادتك تسجيل الكاميرات اللي في الدكان، ونشوف بقى مين اللي اتهم على مين!

كم بدت تلك اللحظة قاسية على "فيروزة"! شعرت بالحزي من نفسها وبالندم على سوء تصرفها، فلو لم تنساق وراء عصبيتها لكانت في مركز قوة، نظرة لائمة حانت من "وجدي" لـ "فيروزة" وهو يقول لها صراحة:

-كده الموضوع هياخد سكة ثانية.

استأذنه "ماهر" أن ينفرد بها للحظات بعد أن تفاجأ هو الآخر بتصرفها الخاطيء، أمسك بـ "فيروزة" من ذراعها، وسحبها لركن منزوٍ بالغرفة حتى يتحدث معها، انسأقت معه دون اعتراض أو مقاومة، رمقها بنظرة تحمل الإدانة، وعاتبها هامسًا:

-كده تخرجيني يا "فيروزة"؟ إنتي مكوتيش صريحة معايا من الأول!

بررت له بصوتها المضطرب:

-والله كان غصب عني، مكوتش في وعيي بعد اللي حصل، ومجاش في بالي إنه هيعمل كده أصبح فجأة قاسيًا معها وهو يكمل بصوته الخافت:

-دلوقتي موقفك إنتي بقى وحش، واحتمال تتعرضي لمشكلة لو الموضوع كبر.

ردت في استنكار:

-يعني بيتقى حارق عريبتى وأنا اللي اتحاسب؟

قال في بساطة:

-لأنك ضيعتي حقك بتهورك!

كان محققًا في لومه، نكست رأسها للحظة في خزي، ولم تجرؤ على التطلع له وهي تسأله:

حطب والعمل إيه يا "ماهر" بيه؟

أجاب بزفير مزعوج:

-هانشوف هترسى على إيه.

رفعت عينيها إليه ترجوه وقد تسرب الخوف إلى أوصالها:
-أرجوك يا "ماهر" بيه تقف جمبي وتساندني، مش عاوزة حتي يروح.
لم يكن أمامه خيارٌ بديل سوى دعمها، نفخ في ضيقٍ، ورد عليها:
-ربنا يسهل.

لعتت "فيروزة" شفيتها الجافتين والتوتر يزداد بداخلها، نظرة خاطفة وجهتها إلى "تميم" فرأته محدقًا بها في قوة وزهو، وكأنه يظهر لها شباتته، أشاحت بوجهها المنكمش عنه، وهمست لنفسها في رجاءٍ يأس عليها بذلك تستدعي قوتها الهاربة:
-مش أنا اللي أتنازل بسهولة!

.....

ذرعت الغرفة جيئةً وذهابًا وهي تنوح وتلول على زوجها الذي اقتادوه من أسفل المنزل ليزجوا به في سيارة الشرطة، رأته مصادفة من خلف الزجاج الموصود بعد الجلبة التي أحدثتها صافرات الشوطة المميزة، لم تعرف "خلود" كيف تتصرف حينذاك، صرخت منادية إياه باسمه، لكنه لم يسمعها، هرعت للداخل تدور حول نفسها كالمجنونة، فتحت ضلفة الدولاب لتخرج عباءتها، ألقت بها على ثيابها المنزلية، وركضت إلى خارج المنزل لتذهب إلى بيت خالتها، عليها تجد عندها الخبر اليقين، تفاجأت بها الأخيرة، وصدمت لما أصاب ابنها، تشاركت الاثنان في العويل والندب، ثم قامت "ونيسة" بمهاتفة زوج ابنتها لتستدعيه حتى يقف بجوار "تميم"، ولم يتأخر عنها، وبقيت كلاتهما حبيستان في المنزل، تنتظران على أحر من الجمر الأخبار المطمئنة. تلفت أعصاب "خلود" واحترقت أحشائها كلما تذكرت ذلك المشهد المؤلم، التفتت نحو خالتها تنوح لها:

-هتجنن يا خالتي، قلبي بيتقطع عليه، لسه برضوه ما فيش أخبار عنه؟

ردت "ونيسة" بحزنٍ كبير ظاهر عليها:

-أديني كلمت عمك الحاج وقالي كلهم معاه جوا عند الطابط.

سألتها في لوعة:

-يعني هيطلع ولا هيحبسوه؟

زجرتها في ضيقي:

-تفي من بؤك، الشر برا وبعيد.

قالت موضحة:

-أنا عاوزة أطمئن بس.

تهدت معقبة عليها في قنوط:

-محدث عارف حاجة لسه.

لطمت "خلود" على صدرها مكلمة عويلها الموجوع وعيناها تبكيان:

-منهم لله اللي كانوا السبب، ربنا يحرق قلبهم زي ما حارقين قلبي على جوزي، وحارمني منه.

رفعت "ونيسة" كفيها للسماء تناجي المولى:

-يا رب ينجيك منها على خير يا ابني، أنا ماليش غيرك يا رب

.....

استكملت باقي الإجراءات الخاصة بالتحقيق في البلاغات التي نالت طرفيه، وتبقى فقط التوقيعات عليه، فعلت "فيروزة" ما رأته صواباً من وجهة نظرها، وإن تحملت تبعات رعوتها، انتظرت تراقب "تميم" في تحفز على مقعدها، لكن صعدت الدماء بقوة إلى وجهها حينما قال "وجدي" بلهجة عادية:

-تقدر تتفضل يا أستاذ "تميم".

سأله المحامي مستوضحاً:

-يعني موكلي يقدر يمشي؟

أجابه وهو يهز رأسه بالإيجاب:

-أيوه.

صدمت "فيروزة" من قراره الذي خالف توقعاتها، ورددت متسائلة في عصبية والدهشة تكسو كامل ملامحها:

- إنتو هتسيبوه يمشي بالبساطة دي؟

ابتسم لها "تميم" ساخراً:

-أومال فكرك إيه؟ هبات في التخشبية؟

استشاطت نظراتها واربد وجهها بغضبٍ عظيم، وقبل أن تنفوه بكلمة تندم عليها لاحقاً، بادر "وجدي" يحذرها بصرامة:

-اهدي يا آنسة، وسيني أشوف شغلي

قالت في استهجان:

طب إزاي؟ ده بلطجي وسوايق!

لم يقبل "تميم" بإساءتها لشخصه، فحذرها بخشونة ونظراته النارية مرتكزة عليها:

-اغلطي أكثر عشان تتحاسبي أكثر.

قالت في تحدٍ:

-أنا مش خايفة منك!

صاح بهما "وجدي" في نفاذ صبر:

-ماينفعش الأسلوب ده هنا، إنتو في قسم البوليس مش في الشارع..

ثم وجّه باقي حديثه إلى رفيقه "بلهجة منفعلة قليلاً:

-تكلم مع قريبتك يا "ماهر" بيه!

استدار نحوها الأخير يأمرها بجمود:

-لي الدور يا "فيروزة"، واهدي شوية.

خُيل إليها أنها ترى ابتسامة "تميم" المستفزة متشكلة على ثغره ونظراته الحاقدة تنفذ إلى داخلها، لم تستطع أن تمرر إخلاء سبيله بعد ما تكبدته من عناء، لذا مالت على "ماهر" تقول له وهي تجاهد لضبط انفعالاتها حتى لا تستثار مجددًا:

-عاوزني أهدى إزاي يا "ماهر" بيه وأنا شايقة بعيني حتي بيروح
رد عليها بهدوءٍ اكتسبه من طبيعة مهنته التي تتطلب ثباتًا انفعاليًا كبيرًا:
لسه في كلام، الموضوع مخلصش.

وبالرغم من نظراته التي تؤكد لها دعمه إلا أن شعورها بالارتياح يكاد يكون انعدم، تحركت حدقتها
تلقائيًا مع صوت المحامي وهو يقول مبتسمًا في زهو:
-ياللا يا أستاذ "تميم"، احنا موقفنا في السلم.

بقيت نظراتها متجمدة عليه وهو يرحل من الغرفة بصحبة محامينه، وقبل أن يخرج من الباب التفت
"تميم" يودعها وتلك النظرة الغامضة تحتل عيناه:
-سلام يا .. يا أبله!

كزت على أسنانها في غيظٍ وهي تشعر بالدماء تفور في رأسها، ما انتشلها من تحديقها الناري في
طيفه الذي رحل صياح "ماهر" المعنف بها:

-اللي عملتيه ده غباء، وخطيتي نفسك في موضع شبهات.
تطلعت إليه في حيرة، فتابع بنفس الصوت الحانق:

-وطبعا بالمحضر اللي عمله فيكي لو مثبتش فعلا إنه متورط فيه هيطالبك بتعويض.

ردت متسائلة في قلبي، وما زال عنادها مسيطرًا عليها:

-والحل إيه دلوقت؟ أنا عاوزة حتي منه!

هنا تدخل "وجدي" في حوارهما ليقول:

-للأسف إما إنك تتنازلي عن المحضر أو ...

أدارت رأسها نحوه تقاطعه بإصرارٍ شديد:

-مش هتنازل ممها حصل

نصحها بجديّة وهو ينظر لها:

-فكري بالعقل وبلاش استعجال

وقبل أن تنبس بكلمة إضافية، بادر "ماهر" يقول لها مشددًا:

-خدي وقتك واحسبها كويس، وأنا معاكي في القرار الصح اللي هتاخديه

.....

اصطحبها عبر ردهات القسم حتى وصل بها إلى الخارج، وأوصاها "ماهر" خلال سيره المتباطئ معها بالتروي وتحكيم العقل قبل اتخاذ أي قرارٍ مصيري، وعدته "فيروزة" بإعادة التفكير في تلك المسألة دون أن تعطيه ردًا صريحًا بالتراجع، ودعته بعد أن اعتذرت منه بلباقة عن الإزعاج الذي سببته له، كما شكرته على دعمه ووقته الذي خصصه لها، وبدأت في الهبوط على درجات القسم الرخامية. خرجت من محيط ذلك المكان الشرطي لتتفاجأ به يعترض طريقها بجسده المشدود، ونظراته القائمة .. سرت عدوى الارتعاب في كامل جسدها، تراجعت تلقائيًا خطوة للخلف وهي تحاول التظاهر بالتأمسك أمامه، تقدم "تميم" نحوها وهو يقول لها بوجهٍ يفتح غضبًا:

لو مفكرة إني هاسييك تبقي غلطانة، إنتي فتحتي على نفسك طاقة جهنم معايا!

تحلت بالشجاعة، وقالت بصوتٍ شبه متهدج:

إنت تهددني؟

توحشت نظراته بشكلٍ مخيف جعل قلبها يدق في خوفٍ أكبر، دنا أكثر منها غير عابئ أنها تتراجع نحو القسم ليهددها:

-سميه زي ما تسميه، والقلم اللي ضربتهوني قصاد الناس، هتتحاسبي عليه.. بس في وقته!

قاومت خوفها، وردت تتحداه:

-مش هاتقدر تعملي حاجة، وبكرة ترجع اللومان و...

قاطعها بما يشبه السخرية:

-ده لو مدخلتهوش قبلي!

برقت عينها من تهديده الواثق بالفوز، وكان القضية التي لم تبدأ بعد قد حُسمت لصالحه، تركها تتخبط في أفكارها وأولها ظهره لينصرف مبتعدًا عنها بخطواتٍ تميل للعدو .. قابل "ناجي" الذي كان ينتظره بالخارج وعند سيارة والده، وما إن رآه الأخير مقبلًا عليه حتى هرع نحوه يسأله:

- "تميم"، إنت كويس؟ عملوا معاك إيه؟

تطلع إليه في اندهايش قبل أن يرد على سؤاله:

- "ناجي"، إنت عرفت منين إني هنا؟

خرج صوته مهزورًا بشكلٍ ملحوظ وهو يجاوبه:

- "محرز" كلمني، وأنا .. جيتلك على هنا، واطأست وعرفتك إنك جوا، مش كده يا "محرز".

رد عليه مبتسمًا في ساجاة:

-يوه مضبوط، ده متأخرش عنك يا "تميم"!

أحس "تميم" بيد والده تربت على كتفه، التفت برأسه للجانب ناحيته وهو يطلب منه:

-بيننا يا ابني نرجع البيت.

رد معتذرًا بوجه متجهم:

-ثواني يا بابا، عاوز "ناجي" في كلمتين.

ثم استدار نحوه يسأله مباشرة:

-إنت ليك يد في اللي حصل؟

ارتبك وهو يجيبه:

آ.. هو... مش أنا بالضبط وآ....

-تعالى معايا

قالها "تميم" بنبرة عميقة وهو يقبض على ذراع رفيقه يجره منه بعيدًا عن والده والبقية، انزوى به في بقعة معتمة، ثم دفعه بقسوة نحو أحد الأبواب الحديدية لأحد الأكشاك المغلقة ليستفسر - منه عما حدث، أخبره "ناجي" بترددٍ عن محاولة "حمص" و"شيكاجو" الغاشمة من أجل إرضائه، انقض عليه فور أن سمع الحقيقة كاملة مطبقًا على عنقه وضاعظًا بأصابعه على عرقه النابض، تحشر -ج صوت "ناجي" وهو يبرر له مدافعًا عن نفسه:

-اقسم بالله ما كنت أعرف إنهم هيعملوا كده..

كز على أسنانه وهو يصرخ به:

-بتورطني يا "ناجي"؟ من امتي بأخذ تاري من الحریم؟

حاول أن يلتقط أنفاسه ليقول له بصعوبة واضحة عليه:

-غلطة يا "تميم" ..

أرخی أصابعه عنه وهو يدمدم بسبة نابية، سعل "ناجي" بعد أن استنشق دفعة كبيرة من الهواء ليملاً بها صدره المختنق، نظر في توجسٍ لرفيقه الذي تراجع للخلف وهو يلومه بشدة:

-وهتفدني بإيه لما تقولي كده؟

أبدى "ناجي" ندمه الشديد، ووعده بنبرة عازمة:

-أنا محقوقك، واللياة بقت عندي، وأنا عارف هصلحها إزاي، اديني بس يومين تلاتة، وكل حاجة هترجع زي الأول وأحسن.

أشار له "تميم" بسبابته وهو يرد بنبرة تحمل في طياتها التهديد، وقد غامت نظراته بشكلٍ مقلق:

-يا ريت، وإلا هايكون في كلام تاني صدقتي مش هايحبك!

هز برأسه في ارتياحٍ بعد أن منحه الفرصة، وهتف معقبًا عليه:

-أمين يا صاحبي.

تسللت كاللصوص إلى داخل المنزل بعد أن هاتفت أختها لتطلب منها انتظارها بالقرب من الباب حتى تفتحها لها فور وصولها، وبالتالي لا تثير انتباه والدتها أثناء عودتها. وبخطوات خفيفة وحذرة خبطت "فيروزة" نحو غرفتها، ألقت بثقل جسدها المنهك على الفراش، وأغمضت عينيها لوهلة وهي تكاد لا تصدق أنها في البيت، تنفست الصعداء ووضعت يدها على صدرها تتحسس نبضات قلبها بعد مُضي- ذلك اليوم المشحون بكل ما فيه من مآسٍ، جلست "همسة" إلى جوارها، وسألتها في تلهفٍ عن تفاصيل كل شيء، أوجزت الأولى معها في الحوار، وأعطتها لمحة مختصرة عما آلت إليه الأمور، اختتمت حديثها قائلة في امتعاضٍ وهي تسحب الوسادة خلف ظهرها:

-الزفت اللي اسمه "تنين" عمل فيا محضر.

تعجبت "همسة" من ذلك اللقب الغريب الذي أطلقته على خصمها، وتساءلت مستوضحة:

- "تنين"!! تقصدي "تميم"؟

ردت بتأفٍ وقد انفرجت زاوية فمها عن ابتسامة ساخرة:

-أيوه، هو في غيره!

ثم اعتدلت في نومتها وتابعت بتفاخرٍ زائف حتى لا تشعر بقلقها من تطور الأمور:

-بس أنا مسكتش وعرفته مقامه!

لم تنتبه لصوتها الذي كان مرتفعًا بعض الشيء بسبب انفعالها فحاز على انتباه والدتها التي مرت مصادفة بجوار الغرفة، التصقت بالباب لتسترق السمع لحوارها الخطير، انقبض قلبها في فزعٍ وتوترت كليًا بعد أن عرفت تقريبًا ما خبأته ابنتها عنها، وبضيقتها المختلط بارتعابها اقتحمت الغرفة متسائلة بجدّة ونظرات العتاب بائنة في عينيها:

-ليه اللي أنا سمعته ده؟

حاولت "فيروزة" الإنكار، فقالت وهي تتصنع الابتسام:

-ما فيش حاجة يا ماما، ده آ...

قاطعتها بغلظة:

-هتخبي عليا يا "فيروزة"؟

حنت "همسة" أختها على البوح بالحقيقة، فقالت وهي توزع نظراتها المتوترة بين وجهي ككتيها:

قويلها يا "فيرو"، ماما لازم تعرف!

لم تجد بداً من مصارحتها، نهضت عن الفراش، واجتذبت والدتها من ذراعها لتجلسها على طرفه، ثم جثت على ركبتيها أمامها ورفعت رأسها إليها لتتطلع إليها وهي تسرد لها تفاصيل الساعات الأخيرة، اتسعت عينا "آمنة" في دهول، توقعت من والدتها أن تأزرها، وتساندها في أزمته، أحبطت سقف توقعاتها حينما لطمت على خدها ووبختها بقسوة:

-يا نصيبتى! محاضر وأقسام؟ هو احنا كنا ناقصين مشاكل يا بنتي؟ ليه تعملي كده؟

استندت على مرفقيها لتنهض من جلستها غير المريحة، وهتفت معترضة على خذلانها لها:

-هو الكل ليه جاي عليا، الحيوان ده اللي بدأ، وأنا كنت بأخد حقي منه، المفروض تقفي معايا يا ماما وتساعدني

صرخت بها أمها وهي تنتفض واقفة:

-مش في ده يا "فيروزة"!

لم تتمكن قدمها من حملها، فعادت لتجلس وهي تندب سوء الحظ الملازم لعائلتها الصغيرة:

-استرها علينا يا رب، ده احنا ولايا، هنعمل إيه بس..

نظرت لها "همسة" في إشفاق، ومالت عليها تضمها من كتفيها إليها محاولة تهدئتها، بينما رمقت "فيروزة" أمها بنظرة مغتازة، أشاحت بوجهها للجهة الأخرى وظلت تنفخ بصوتٍ مسموع، كادت أن تفقد هدوئها المفعل ووالدتها تضيف بخوفٍ غريزي نابع من طبيعتها المستكينة:

-آه لو خالك عرف!!

نظرة حائرة مسحت بها وجه والدتها قبل أن ترد غير مبالية:

-مش فارقة معايا، اللي حصل حصل، وأنا مش هاسكت عن حقي!

هبت والدتها واقفة على قدميها، تحركت صوبها وأمسكت بها من كتفيها لتديرها إليها، ثم صرخت فيها بتشنج:

-هو احنا كنا ناقصين؟ طول عمرنا في حالنا وماشيين جنب المحيط، هانيجي على آخر الزمن نخش أقسام ونروح نيايات؟ الموضوع ده تفضيه، وكفاية إنه انتهى على كده ردت بتزمت:

-لأ مخلصش، وأخو "علا" الظابط واقف معايا فيه

قالت لها بما يشبه التوسل:

-يا بنتي أنا مش عاوزة مشاكل، محدش هينفعنا في الآخر، إنتي تشوفيلك حل، وبناقص منها العربية، في ستين داهية!

علقت بعند أكبر:

-مش هايحصل

استبد بـ "آمنة" خوفها، فأخذت تنوح بغضب:

-أنا عارفة إن الكلام مش هايجيب فايده معاك، إنتي ما بتسمعيش كلام حد أبدًا!

انسحبت "فيروزة" من الغرفة حتى لا يجتدم جدالها العقيم مع والدتها، استدارت "آمنة" إلى توأمتها ترجوها والدمع قد بدأ في التجمع في مقلتيها:

-كلميها يا "همسة"، جايز تسمعلك.

ردت صاغرة وهي تومئ برأسها:

-حاضر يا ماما، أنا هاعمل اللي عليا معاها، وربنا يهديها.

خرجت والدتها من الغرفة مخرجة ساقها، استطاعت أن تسمع صوتها المناجي وهي تدعو:

-استرها علينا يا رب من اللي جاي.

.....

ارتمت في أحضانه بمجرد أن وطأ منزل أبويه وتعلقت في عنقه كالطفل الصغير رافضة تركه وهي تكاد لا تصدق عودته إليها، لم تبال بمن يتطلع إليها ومن سيلومها على شغفها الزائد به، المهم أنه عاد إليها سالمًا، اضطر "تميم" أن يتحرك بها نحو الصلاة، في حين دفست "خلود" رأسها في صدره، وهتفت بتلهف مبتهج:

حمدلله على سلامتك يا حبيبي، أنا كنت بأموت لما شوفتهم بياخدوك من تحت البيت، الحمدلله إنك رجعتلي

أبعدها عنه في حرج من اندفاعها نحوه بذلك الشكل المخجل، نظر لها بعينين تعكسان انزعاجه قبل أن يرد بأنفاس الضيق:

-أنا كويس أهوو قدامك، ماينفesch كده

رفضت التخلي عنه، وظلت ملتصقة به رغمًا عنه، واستطردت:

-مش هاسيبك يا حبيبي، إنت ماتعرفش غلاوتك عندي عاملة لإزاي.

رد ببسمة متكلفة:

-ما هو باين.

جاءت والدته إليها وأزاحتها من طريقها وهي تقول:

-وسعي يا "خلود" خليني أخذ ابني في حضني.

اضطرت أن تتركه قائلة على مضض وبوجه شبه عابس:

-تفضلي يا خالتي.

فتحت "ونيسة" ذراعها لابنها الذي انحنى عليها ليقبلها من كتفها، ضمته إليها ليشعر بأحضانها الحانية على جسده المرهق، ثم رفعت رأسها إليه لتأمل وجهه، مسحت يديها على صدغيه وسألته في لهفة:

حبيبي يا "تميم"، إنت كويس يا غالي؟ قولي عملوا فيك إيه ولاد الـ دول؟

تهيدة مهمومة خرجت من صدره قبل أن يرد عليها مبتسماً ابتسامة باهتة:

-ولا حاجة يامه، أنا زي الفل..

تحولت أنظار "تميم" نحو والده، وأثنى على مجهوده العظيم قائلاً:

-وأبويا ربنا يبارك في عمره قام بالواجب وزيادة.

هز "بدير" رأسه في استحسان ورضا، بينما أضاف "محرز" من خلفها بابتسامته اللزجة مستخدماً ذراعيه في التلويح:

-الحمد لله ابنكم رجع بالسلامة أهوو، أنا كده عداني العيب، ألحق أروح لـ "هاجر" وأطمئنها

استدار "تميم" نحوه يشكره:

-كثر خيرك يا "محرز"، سهرناك معانا

ضحك في سخافة قبل أن يقول بنفس تلك الابتسامة المستهلكة:

-ولا ييمك يا ابن عمي، سلامو عليكم.

قاموا بتوديعه ليسير بعدها "تميم" نحو أقرب أريكة، استراح عليها وأغمض عينيه للحظات محاولاً تعطيل عقله الذي لم يتوقف عن التفكير مؤقتاً، شعر بيدٍ حنون تفرك جانبي عنقه، فاستسلم للأنامل التي بددت الآلام المكتومة في عظامه، انتهت حواسه فجأة ووالدته تسأله:

-حقه الكلام اللي سمعناه ده صحيح؟ بنت "آمنة" اللي ورا حبسك؟

أجابها بقنوط وهو ينظر لها:

آه هي.

ثم عاد لصمته الإلزامي من جديد رافضاً إشباع فضول والدته المستثار.
بدأت الحيرة واضحة على تعبيرات "خلود"، سلطت أنظارها عليها متسائلة بفضول ويداها ما زالت
تعملان على كتفي زوجها:
-مين دي يا خالتي؟

ردت في أسفٍ وقد اكتست تعبيراتها بلمحة من الحزن:
-واحدة كنت مفكراها جارتني يا "خلود"، مكنش العشم والله!
ضرب "بدير" بعكازه على الأرضية ليقول بعدها في حسم:
-خلاص يا "ونيسة" مالوش لازمة نتكلم، المهم "تميم" رجع لبيته.
أيده الرأي فقال بصوتٍ أجوف:
-مضبوط يا بابا، كفاية رغي فيه.

هزت والدته رأسها في استسلام، ثم اقترحت بنبرة مرحبة والابتهاج يملأ عينيها:
-إنت تبات معانا إنت ومراتك هنا، أوضتك جاهزة وزبي الفل، أنا موضبة كل حاجة.
على الفور ودون منحه الفرصة لاتخاذ القرار هتفت "خلود":
-أنا معنديش مانع يا خالتي، ده بيتنا، و"تميم" محتاج يرتاح، كفاية اللي شافه طول اليوم.
حرك رأسه قائلاً، وقد تمكن التعب منه:
طيب.

وبثقلٍ وتباطؤٍ نهض "تميم" من مكانه واتجه إلى غرفته، وخطوات زوجته تلحق به، صاحت
"ونيسة" من خلفها:
-أنا هاجمزلكم لقمة تاكلوها.
استوقفت كلماتها "خلود"، فأدارت رأسها نحوها لتشكرها:

-تسلمي على تعبك يا خالتي.

أشارت لها بيدها تستحثها بنبرة ذات مغزى:

-روحي ورا جوزك شوفي ناقصه إيه.

حاضر.

قالتها بمرح وهي تسرع الخطى نحو غرفة نوم "تميم"، تلك التي ستيبت فيها الليلة في أحضانها الدافئة بعد أن كانت تطأها خلسة، راقبتها "ونيسة" إلى أن تواریا بالداخل، ثم التفتت نحو زوجها تقول له وقد تبدلت تعبيراتها للتجهم:

-عمل حسابك يا حاج أنا مش هاسكت عن اللي حصل ده.

رد عليها بلهجة جادة:

-ماتكبريش الموضوع يا "ونيسة".

غامت عينها وهي تتطلع إليه، وبدت قسامتها المرهقة مشدودة عن ذي قبل، ثم هتفت بلهجة عبرت عن قساوة لا تظهر إلا في المصائب، لتعلن بصراحة عن تصعيد الخلاف لأقصاه:

-هو كبر لوحده خلاص يا "بدير"! وابني عندي مش أغلى من بنت "آمنة"

!!

.....

الفصل السابع عشر

قضت في أحضانه ليلة مغايرة لتلك الليالي الجوفاء الأولى في حياتها الخاصة معاً، واستمتعت بنوبة حب عنيفة مليئة بكل المشاعر الجامعة التي امتزجت بقوته الذكورية فأحيت فيها عنفوانها وجعلتها تحلق عالياً في سماء الحب، بل وتطلب المزيد من ذلك الشغف العاصف بالوجدان، استطاع أن يصل بها إلى مناطق لم تجربها من قبل، خاضت بجوارحها تجربة أوقظت فيها مشاعرها الكامنة بالكامل. لم تتوقع "خلود" أن يمنحها "تميم" مثل تلك الأحاسيس العميقة، بدا مختلفاً كلياً عن ذي قبل، تأوهت بصوتٍ خفيض وهي تهض يتململ من على الفراش، التفتت برأسها نحو زوجها فوجدته لا يزال مستغرقاً في النوم، تأملته بابتسامة مشرقة ووجهها يشع نضارة لطيفة.. عبثت في خصلات شعرها المتنافرة ومشطتها بيدها لتعيد ترتيبها، ثم عقصتها كهكة دون أن تربطها بمشبكٍ للرأس.. أخفضت نظراتها لتنظر إلى ما اضطرت أن ترتديه في الليلة الماضية؛ إنه واحد من قمصانه، يكاد يغطي نصفها العلوي، توردت قليلاً لمجرد تذكر تأثير رؤيته ترتديه، أعطاهها جاذبية مغرية، ومنحها ليلة حافلة العواطف الجياشة، وعلى غير عاداتها نهضت مليئة بالحيوية والنشاط، كانت متحمسة لإعداد الفطور له وإحضاره بالفراش، مشيت على مهلٍ وبجذرٍ حتى لا توقظه، لكنه انتبه لحركتها، تقلب على جانبه، ونظر لها بنصف عين، بادلتها ابتسامة رقيقة وهي تستطرد بنعومة متمعدة التدلل في وقتها:

صباح الخير يا حبيبي.

فرك "تميم" وجهه بيده، وقال متشاءباً:

صباح الخير.

عضت على شفتها السفلى وهي تسبل عينيها نحوه، ثم تغنجت في وقتها المغرية لتضمن تركيز كامل أنظاره عليها، وما إن نجحت في ذلك حتى تحركت مبتعدة عنه لتجعله يتأمل تفاصيلها الأنثوية عن عمدٍ فتحرك فيه مشاعره، وأضافت وهي تشير بيدها نحو عباها:

أنا هاحضرك الفطار وأجييها هنا يا حبيبي.

أوماً بحاجبه معقباً بنبرة موحية:

طب ما تيجي أصبح عليكى الأول!

التفتت برأسها نصف التفاتة تقول له في دلالي ممتع وقد امتلأت عينها بوميض لامع:

-اللي تؤمرني بيه يا حبيبي.

ثم تهادت في خطواتها المائعة نحوه لتزيد من تأجج الرغبة بداخله، وما إن أصبحت قريبة منه حتى مد يده ناحيتها وقبض على معصمها ليجذبها إليه، سقطت في أحضانه، وأحاطها بذراعيه .. وبخفة ممتزجة بالقوة رفع جسدها وأدارها للناحية الأخرى من الفراش لتغدو أسفل منه، وما هي إلا لحظات وانغمست معه في أنهر الحب اللذيذة.

.....

ركام محترق، بقايا مدمرة، هذا كل ما تبقى لها من العربة حين وقفت تتطلع إليها في الصباح عند الكورنيش، أخفت "فيروزة" عينها الغائرتين خلف نظارة داكنة، لكن دمعاتها أبت الاختباء، انسابت في صمتٍ تحسراً على حلم قريب ضاع قبل أن يكتمل، لم تأبه لمن يتطلع إليها، لم تشعر بمن حولها، فقط مزيج من المشاعر الحارقة، الغاضبة، والمتألمة كان مسيطراً عليها، مسحت بطرف إصبعها دمعاتها التي شقت طريقها عبر صفحة وجهها لتضع بعدها الهاتف على أذنها، هتفت متسائلة بصوتها المائل للبكاء:

-ما فيش لسه جديد يا "علا"؟

أجابتها رفيقتها على مهلي:

-لأ لسه.

عادت لتسألها بعد زفير بطيء:

-و"ماهر" بيه طمنك على وضعي القانوني؟

لحظة صمت سادت بينهما قبل أن تجيبها:

-كله تمام.

مسحت بمنديلها الورقي أنفها المبتل، وأضافت تسألها:

-يعني أنا مش محتاجة أستشير محامي أو حد متخصص

نفت على الفور:

-لالالا، هو قايـم بكل حاجة، معارفه كثير زي ما إنتي فاهمة

أومات برأسها ترد وقد شردت نظراتها في أمواج البحر المتلاطمة والتي نثرت رذاذها على عريتها:

-ماشـي، بس لو عرفتي حاجة بلغيني.

قالت لها:

-أُكيد يا حبيبتـي، وإنتي خلي بالك من نفسك

لـن شاء الله.

أنهت "فيروزة" المكاملة معها لتلقي نظرة أخيرة طويلة على ما كانت عريتها قبل أن تستدير للجانب

لتسير مجررة ساقها بعيدًا عما أصبح يؤلمها.

.....

على الجانب الآخر، كان "ماهر" جالسًا إلى جوار شقيقته واضعًا ساقه فوق الأخرى ويتابع بأنفاس

مكتومة حوارهما الخاص بعد أن أسمعته المكاملة الدائرة بينهما. تعليقاته لها كانت واضحة؛ أن تماطل

قدر المستطاع معها حتى لا تلجأ لمساعدة محام متخصص فيفسد ما يحاول إصلاحه، أغلقت الخط،

والتفت نحوه تسأله في ضيق:

-أنا خايفة "فيروزة" تزعل مني لما تعرف إنني كنت بأكذب عليها، وإن المحضر— اتركـن وما فيش فيه

جديد.

حـدق فيها بنظرة جامدة خالية من العطف وهو يرد:

-ده لمصلحتها يا "علا"، الناس اللي واقعة معاهم ثقـال أوي، ويمكن يضيعوها، واللي أنا عملته ده

هيخدما بعدين.

رددت والتأثر ظاهر في نبرتها:

-بس هي صعبانة عليا أوي.

انتصب في جلسته يقول لها:

-للأسف احنا في غابة، والضعيف مالوش مكان فيها، وصاحبتك بعنادها حطت نفسها في عرين الأسد

سألته في قلقي:

طيب هيحصل إيه بعد كده؟

أجابها بروية، مؤكداً لها أن الأمر مخطط له:

-هنحاول نخليها تتنازل، أنا متفق مع "وجدي" على ده، والصراحة هو عامل اللي عليه وزيادة عشان الموضوع ميوصلش للنيابة.

تمتت في رجاءٍ وهي تستند بطرف ذقنها على كف يدها:

-ربنا معاها

حذرنا "ماهر" بوجه صارمٍ للغاية ونبرة غير قابلة للنقاش:

-إنتي خليكي متابعة معاها على الخط كل حاجة بتعملها، لو جد أي جديد عرفيني، مفهوم؟

أومات برأسها متتهدة في خنوع:

حاضر.

.....

وقف مستندًا بكفيه على حائط الحمام المبتل في منزله تاركًا المياه المتدفقة تهال على رأسه بقوتها عليها تسكت تلك الأصوات الصاخبة في عقله، والتي أصابته بالتخبط والارتباك، تردد مريب جعله يعاود التفكير في أمرها بالرغم من مرور يومين على تحرير المحاضر بينهما، أغمض "تميم" عينيه مستعيدًا المشاهد الشائكة التي حدثت له معها مؤخرًا، وكان هو طرفًا محوريًا فيها، بدا كمن يحلل

الأحداث وينقيها محاولاً استنباط الحقيقة بشفاافية بعيداً عن تحيزه الذكوري الأعمى وهو اجسده الخاطئة، ربما لكون حديث والده وما تردد من فيها خلال نوبة غضبها قد أوقظ إدراكه العقلاني، بالإضافة لرؤيته للأضرار الجسيمة التي قضت على العربة، فبدت بدناً محترقاً لا يصلح لشيء، تساءل مع نفسه بعشرات الأسئلة التي أرهقت عقله كثيراً لإيجاد الإجابات عليها ..

ماذا لو تبدلت الأدوار وكان هو في محلها وعبث أحدهم بلقمة عيشه؟ بالطبع لم يكن ليتهاون في حقه! بل ومن الممكن أن يطيح برأس أحدهم انتقاماً منه .. تلقائياً وجد نفسه يُوجد لها الأعذار المنطقية مبرراً تصرفها معه بعدائيةٍ بحته، كذلك وصل إلى نتيجة مقنعة جعلته يميل لدافعها المفهوم بالتعامل معه بكل ذلك الحنق المشحون؛ قهرها على ضياع مصدر رزقها، لعلها تكون هي المعيلة الوحيدة لأسرتها، ومحدودية تفكيره جعلته يُدينها دون تهمة حقيقة. ردد مع نفسه بصوتٍ خفيض وهو يستدير بجسده:

- ما يمكن أن يكون غلطان!

لم ينكر أنه خلال ممارسته لطقوس الحب الحميمة مع زوجته كانت "فيروزة" ضيفة مميزة في مخيلته، لوهاة ارتبك من اقتحامها لذهنه وحاول مقاومة صورتها الخيالية ليركز انتباهه مع تلك التي تمنحه حبها غير المشروط، تعامل بشكل غير اعتيادي مع زوجته ليتغلب على تلك المتطفلة، لكنها اخترقت أحلامه الجريئة وطغت عليها بحضورها المثير لحواسه لدرجة جعلته يرغب في مطارحتها الغرام، نهض من النوم مذعوراً قبل شروق الشمس وهو يلهث وقد فزع من جموح أحلامه، تطلع إلى "خلود" بنظرات غريبة، ما لبث أن تحولت للندم بعد أن تبين ملامحها على أثر الضوء الخافت، وكأنه اقترب ذتباً في حقها باستدعائها إلى منطقته المحرمة، نفض تدفق تلك الأفكار عن رأسه منذراً نفسه بعواقب التماذي في تخيلها بتلك الطريقة، أكمل استحمامه محاولاً الاسترخاء غير عابئ بالوقت الذي قضاه في الحمام ..

حملق أمامه بعينين متسعيتين وكأن طيف وجهها المحترق شبه متجسد على المرأة المشبعة ببخار الماء يلومه على إحراق عريتها، أحاسيس غريبة بدأت تراوده من جديد نحوها خلال يقظته، لكنها لا تضم مشاعر الغضب من عدوانيتها، إلى حد ما مال للتعاطف معها بعد أن تفهم موقفها وأدركه من أبعاد أخرى لم يكن قد فكر فيها من قبل، شعر وكأن الوحشة التي عشتت في قلبه بسبب تأثير

الحبس عليه قد تضالت قليلاً، لكن ما انتاب جسده من تأثيراتٍ حسية لمجرد احتلالها لذهنه أصابه بالتوتر، توقف فجأة عن التفكير في أمرها وتلك الدقات الخفيفة تطرق على الباب يصحبها صوت "خلود" المنادي:

-عمي "بدير" يتصل عليك.

رد متصنفاً الجدية وهو يكبح هواجسه:

طيب، أنا هاخرج وأكلمه، تسلمي .. يا حبيبتي.

غسل رأسه ودعكها بخشونة وهو يلوم نفسه بشدة على ضعفه غير المسبوق أمام تلك الخيالات المثيرة للشهوات، كيف يعقل ذلك وهو من يصنع إرادته بنفسه؟ كز على أسنانه يعنف نفسه بنبرة لا تتخطى الهمس:

-إنت اتجننت ولا إيه؟ فوق يا "تميم"!! مراتك ما تستهلش ده منك!

عاهد نفسه ألا يخطو مجدداً نحو تلك المنطقة المحرمة بالتفكير فيها، بل وعقد العزم على إنهاء تشاخصها القانوني بجلٍ سريع وودي ليقطع سبل التواصل معها، غمره الارتياح بالوصول لذلك القرار.

.....

اعتقدت بسجيتها أن الأمور تسير على ما يرام إلى أن جاءت إليها في زيارة استثنائية وغير عادية، فتحت "آمنة" باب منزلها لتسفاجاً بأخر من توقعت رؤيته، رمشت بعينها في ذهول وتطلعت للضيقة بقم مفتوح، لعقت شفيتها راسمة على وجهها ابتساماً باهتة قبل أن تبادر مرحة بصوتٍ عبر عن اهتزاز نبرتها:

-حاجة "ونيسة"، يا أهلاً وسه....

لم تكمل جملتها للنهاية، حيث قاطعتها "ونيسة" تعاتبها بصوتٍ متجهم، ووجه عابس للغاية:

-مكنش العشم يا "آمنة".

ازدردت ريقها في حلقها الجاف، حاولت أن تحافظ على ابتسامتها المبتورة، وقالت:

-تفضلي يا حاجة، ما يصحش نتكلم على الباب.

دفعتها بغلظة من كتفها لتمرق للداخل، ثم استدارت لتهاجمها كلاميًا:

-وهو إتي تعرفي اللي يصح واللي ما يصحش؟

ردت "آمنة" على الفور مدافعة عن نفسها حتى لا تسيء الظن بها:

-من قبل ما تتكلمي وتعاتبيني، أنا أقسم بالله ما كنت أعرف أي حاجة.

نظرت لها باحتقار، وكأنها غير مقتنعة بكذبتها الساذجة، ثم سألتها مباشرة:

-ولما عرفتي، اتصرفتي إزاي؟

نكست رأسها تجيبها بلبكة بائنة:

-أنا كلمت بنتي، و.. وضاعطة عليها عشان.. تتنازل عن المحضر

ركزت نظراتها عليها وهي تسألها:

-ويعدين..؟

بلعت ريقها في حلقها الجاف وردت بتلعثم:

هي.. يعني.. آ..

كانت تبحث عن الكلمات المناسبة لتسففها قبل أن تتفوه بما قد يأزم الأمور ويعقدها، لكن

"ونيسة" استطردت موضحة دون مراوغة:

-راكبة دماغها، عاوزة تقولي كده، مضبوط؟

نفت في التو:

-لالالا يا حاجة "ونيسة"، بس الموضوع فيه سوء فهم.

رفعت سبابتها أمام وجهها تحذرهما بلهجة قوية وقد توحشت نظراتها:

-شوفي يا "آمنة"، هي كلمة من الآخر...

انتهت حواسها لما هو قادم، وتابعتها بأذان صاغيةا حينما أكملت:
-بنتك لو أذت ابني فأنا هانسي- الجيرة اللي كانت بينا في يوم، ومش هاعمل حساب لحاجة،
سمعاني؟

أحست بدوار قايس يضرب رأسها، حاولت التماسك أمامها حتى لا تُظهر ضعفها، لكن ملامحها
الباهتة أكدت خوفها، واصلت "ونيسة" تهديدها العلني قائلة:
-قدامك يومين تحلي فيهم كل المشاكل، وقد أعذر من أندر!!
رمقتها بنظرة متعالية متأففة قبل أن توليها ظهرها لتتجه نحو المنزل وهي تغمغم بحنق:
-وما فيش سلامو عليكم.

بحثت "آمنة" عن أقرب مقعد لتستند عليه بيدها قبل أن يختل توازنها، زاغت نظراتها وأحست
بعنف دقات قلبها، اضطربت أنفاسها وهي تولول تحسراً:
-يا دي المصايب اللي نازلة ترف على دماغني من الصبح!
تشوش ذهنها واحتلت الهواجس المذعورة رأسها، تخيلت المخاطر تحقيق بكل فرد من أسرته دون
وجود مدافع عنهم، فزعت أكثر، وما ضاعف من ذلك ارتعابها من ردة فعل شقيقها إن علم بما دار
خلال غيابه، ارتعش بدنها، وهمست في هلع:
-ناوية تخسريني مين تاني بعد كده يا "فيروزة"!!

.....

مرت الساعات كأنها أدهر عليها وهي تلملم ما ظنت أنه حلمها، أخلت "فيروزة" الغرفة التي أعدتها
مخزناً من كل ما تحتويه من أشياء ووضعتهم بالباحة الخلفية تمهيداً لبيعهم، فوجودهم بها ليس له
جدوى، تأزم الموقف حقاً بعد جدالها العقيم مع والدتها التي سعت لإجبارها على التنازل عن حقها
القانوني إرضاء لجارتها القديمة دون أن تأبه بمشاعرها المقهورة، رفضت بشدة وتمسكت بقوة بأخر
حقوقها المشروعة، وافتورٍ وحزنٍ أخر صندوقٍ كان موضوعاً بالزاوية، حملته بيديها
وسارت نحو الكومة الملقاة لتضمه إليها، رأت "همسة" الدمعات النافرة من عينيها، دنت منها وهي

تقاوم رغبتها في مشاطرتها البكاء، ثم ربتت على كتفها محاولة تهوين الأمر عليها قبل أن تستطرد
مواسية إياها:

-متعيطيش يا "فيروزة"، قلبي بيتقطع عشانك.

نظرت نحوها بأسى، وقالت بصوتها المنتحب الذي يعبر عن ألمها وهي تلقي بالملاءة القماشية على
الكومة لتغطيها:

-حلمي ضاع يا "همسة"، كل اللي حلمت بيه راح، ومحدث حاسس بالوجع اللي جوايا.

تماسكت أختها بصعوبة أمامها، وردت بغصة مريرة عالقة في حلقها:

-كله هيتعوض، و...

كانت بلا وعي فلم تصغ لحديث "همسة" الآسف، زادت نهنهاتها وهي تواصل نديها المتحسر:

-ومطلوب مني بعد ده كله أتنازل عن حقي، وأسيب اللي عمل كده من غير حساب؟ ده يرضي
مين بس؟

فشلت "همسة" في مغالبة دموعها المتأثرة، ورددت عفويًا:

-حبيبتى..

ثم مدت يدها لتأخذها في أحضانها من تلقاء نفسها، وضمتهما إليها محاولة تهوين الأمر عليها ليس
بكلماتٍ لا تسمن ولا تغني من جوع وإنما بمشاعرها الصادقة، فهي ما تملكه حاليًا لتخفف من
مصائبها، لم تتمكن كلتاها من الحصول على لحظة سكينه هائلة، فقد أتت من تكدر الصفو وتعكر
السلام الداخلي، صاحت "حمدية" مهللة وهي تتبختر في خطواتها متجهة نحوها:

-هو في إيه اللي بيحصل هنا؟

كزت "فيروزة" على أسنانها في حنقٍ قبل أن تميل نحو أختها لتقول لها بصوتٍ خفيض:

-أنا مش نقصاها السعادي

اندفعت بعصية مبتعدة عنها حتى لا تمنحها الفرصة للتشاجر معها، لكن كان كتفها الأسبق في لكرها بعنف محسوس، نظرت لها "حمديّة" بتعالٍ وغيظ، ثم عادت لتحملق في أختها، مصممت شفيتها متسائلة:

-مالها دي؟ لاوية بوزها علينا كده ليه؟

أجابتها "همسة" على امتعاضٍ وهي تمسح بيدها آثار دموعها:

-معلش يا مرات خالي، ظروف بقي.

ردت ساخرة وهي تومئ بحاجبها:

-ليه نسيتموا الزيت على النار، وانشغلتموا بالهوى والمعى فالأكل باظ؟

عست بتعبيراتها في استنكارٍ من سماحتها الثقيلة، همت بالانصراف، وقالت لها:

-لأ يا مرات خالي، عن إذنك

غمغمت بنبرة ناقمة:

-غوري، جاتك ضربة إنتي الثانية!

أقلت "حمديّة" بحقية يدها على كتفها، واستدارت عائدة من حيث أتت، توقفت عند المدخل لتأمر زوجها ببرود:

طلع الشنط إنت يا "خليل" لأحسن مش قادرة، وبالمرّة هافوت على أختك أسلم عليها، وأشوف طابخة إيه، جايز أريحك من أكل برا النهاردة!

نظر لها شزراً وهو يتناول باقي الأجرة من السائق قبل أن يرد بوجه متجهم:

-يكون أحسن بردك.

كان "خليل" مجهداً للحد الذي يمنعه من الانتباه إلى ثريتها المزعجة أو حتى الاعتراض على أوامرها المملة، انحنى ليرفع الحقائق عن الأرضية مكملاً السير بتريثٍ وهو يعيد ترتيب ما سيفعله لاحقاً في رأسه؛ فأيامه القادمة مشحونة بالكثير من الأعمال الهامة.

.....

ثبتت ساقها اليسرى ووضعتها فوق اليمنى لتجلس القرفصاء على الأريكة، وباستخدام أصابعها قامت "حمديّة" بفرك وتدليك قدميها المتورمتين، أصدرت أنينًا عاليًا من جوفها ونظراتها تجول على وجه "آمنة" الشارد، تفحصتها بعينين فضوليتين، كانت تعلم أن الأخيرة بها خطب ما، فجلوسها صامتة بتلك الملامح الواجمة يؤكد لها إحساسها، مهدت للحديث معها قائلة بنبرة تعمدت أن تظهر فيها تعبها:

-أما كانوا يومين ما يعلم بيهم إلا ربنا، الواحد قال يروح البلد يشم نفسه شوية يبص يلاقي النكد في ديله.

أكتفت بهز رأسها كتعبير عن استماعها لها، بينما تابعت "حمديّة" مسترسلة بأسلوب يشدها للحوار وتلك النظرات اللثيمة تكسو حدقتهاها:

-عارفة يا "آمنة" الولية اللي اسمها "حنان" مرات "رياض خورشيد" اللي كان مات من قريب. ضاقت عينها متسائلة باهتمام:

-أه، مالها؟

التوى ثغرها بابتسامة مأكرة لنجاحها في الاستحواذ على انتباهها، اختفت تلك البسمة سريعًا ليحل الحزن المصطنع على تعابيرها قبل أن تقول موجزة:

-ماتت.

لطمت "آمنة" على صدرها مرددة في صدمة مفاجئة:

-يا ساتر يا رب، امتي ده حصل؟

زمت شفيتها تجاوبها:

-اليومين اللي فاتوا، راحت تزور باين قرايب جوزها، وماتت عندهم.

قالت في أسف:

-إنا لله وإنا إليه راجعون.

أضفت بنبرة خالية من أي تعاطف:

-ولسه مش عارفين هايعملوا إيه مع بنتها، ما إتي عارفة سلو بلدنا في الحاجات دي

ردت عليها بتنهيدة حزينة:

-ربنا يتولاها

وبجبت مكشوف سألتها مباشرة:

-مقولتليش صحيح، إيه اللي حاصل مع بناتك؟

لم تكن "آمنة" في مزاج رائق يسمح لها بالفضفضة العفوية معها، كانت تخشى- من البوح معها بما ألم بعائلتها في الأيام الماضية فتستغل الموقف كعادتها وتزيد من تعقيد الأمور، لذا تهربت من الإجابة عليها، وقالت وهي تهض من على الأريكة لتسير بتؤدة نحو المطبخ:

-زمانت الأكل سخن، هاطفي النار عليه

نظرت لها "حمدية" في غيظٍ مكبوت، وما إن اختفت عن عينيها حتى غمغمت مع نفسها بتبرم:

-بتتلاوعي عليا يا "آمنة"؟! مسيري هاعرف، ده مافيش حاجة بتستخبي عليا!

.....

انتهى من تدخين سيجارته الرابعة أو الخامسة، لم يعر الأمر أي اهتمامٍ زائد، فكامل تركيزه كان منصبًا على أمر آخر، ولكنها كانت وسيلته المؤقتة للتنفيس عن التوتر الغريب الذي اعتراه. راقب "تميم" الطريق بعينين حادتين معنًا النظر في الأوجه التي تمر أمامه، حيث انتقى تلك البقعة تحديدًا، لتمكنه من رؤيتها حينما تعرج من أي اتجاه، تفحص جيبه الممتلئ بلزمة لا إرادية كل بضعة دقائق، انتصب جسده واشتد كنفاه حين أبصرها قادمة من على بعدٍ، ألقى بسيجارته ودعس طرفها بقدمه ليطفتها، ثم تاهب في وقفته. تنحنح "تميم" بخشونة طفيفة ليزيح تلك الحشرة التي تغلف أحباله الصوتية، وبدا إلى حد ما مستعدًا لمواجهة مجددًا معها.

لم تكن "فيروزة" منتبهة لذلك الظل الواقف على مقربة من منزلها وفي تلك البقعة المعتمة، كانت مستغرقة في أفكارها المهمومة محاولة توفيق أوضاعها وفق ما توفر معها من ماديات بعد بيع كل ما يخص عربة الطعام من أدوات ومستلزمات الطهي، تسمرت في مكانها مذعورة حين أقبل عليها أحدهم بهامته الطويلة، في البداية لم تتبين ملامحه، ودق قلبها بخوفٍ طبيعي، وما إن انعكس الضوء الباهت على قسامته حتى اتضحت قسامته المألوفة؛ إنه ذاك الوغد الذي أفسد عليها حياتها! حقًا كان بارعًا في إفزاعها بخروجه المفاجئ من الظلام ليغدو في لحظة أمامها، تداركت خوفها الغريزي وتطلعت إليه بنظرات حائرة قبل أن تصيح فيه بقوة مهاجمة إياه:

-إنت بتراقبني؟

نظر لها بجمودٍ تاركًا لها الفرصة لتفرغ ما في جعبتها من كلماتٍ ناقمة، وكذلك ليتمكن من ضبط تلك المشاعر الحسية التي هاجمته بشكلٍ غير متوقع، واصلت "فيروزة" صياحها الغاضب فقالت:

-فكرك أسلوب المجرمين ده هيفخوني؟ يبقى إنت متعرفينش كويس، أنا ورايا ناس ...

رفع "تميم" كفه أمام وجهها ليخرسها بصيغة شبه آمرة:

-إلعي ريقك شوية، أنا جاي في كلمتين وماشي

ردت معترضة بشراسةٍ على أسلوبه الفظ معها:

-مش إنت اللي هاتقولي أتكلم امتي وأسكت امتي.

نفخ في استياءٍ فاستغلت الفرصة لتضيف بغضبٍ ظاهر على وجهها المتشنج:

-ومش هتنازل عن أي محضرٍ مهمما حصل!

كانت نظراته نحوها غامضة ممتزجة بالقسوة، وبكل ترفعٍ علق عليها:

-محدث قالك اتنازلي.. مش المحضر بتاعك ده اللي هايفرق معايا.

اغتاظت من ازدرائه الملموس في طريقة تحدته معها، وقبل أن تبادر بالكلام مجددًا هتف بهدوء:

-أنا جاي في حاجة تانية خالص.

تبدلت تعبيراتها للاندھاش، ورفعت حاجبها للأعلى متسائلة بنفس النبرة المتعصبة:
-خير؟

لا يعرف لماذا ظلت عيناه مشدودة لوجهها المليء بأمارات الغضب، وكأنه يدرسه، يتمحصه، يفحص كل ذرة فيه على حدا، بات من العسير عليه أن يكبح تلك التأثيرات الحسية التي تجتاحه على نحوٍ مقلق وغير اعتيادي. تنفس بعمق ليكبت ما يعتريه ويؤوده في مهده، ثم استطرد موضحًا بنبرة باردة وكأن أمرها لا يعنيه حقًا:

-أنا جاي أعوضك عن اللي حصل لعريبتك.

رددت في اندھاش مذهول من عرضه المفاجئ وقد تعقد جبينها:

-تعوضني؟

أخرج "تميم" من جيب سترته المغلف الأصفر المطوي إلى نصفين، ومد به يده نحوها قائلاً:
-اتفضلي.

تجمدت يداها ولم تحركها قيد أنملة، وكان جسدها بالكامل قد تحول لتمثال حي، نظرت له بعينين غاضبتين متسائلة بوجهها المقلوب:

-ليه ده؟

لوح بالمغلف وهو يجيبها في بساطة:

-فلوس، بدل عريبتك المحروقة.

ابتسمت في تهكم غير مصدقة عرضه الذي بدا من وجهة نظرها سخيفًا ولا معنى له سوى إذلالها بشكلٍ متعمد، رفعت رأسها للأعلى في كبرياء، ثم سألته بما يشبه السخرية:

-مش سيادتك أنكرت إن ليك صلة بالموضوع من الأساس، جاي تدفعلي تعويض ليه بقي؟!؟

ارتبك لوهلة لسؤالها الصريح، ومع ذلك حافظ على ثبات نبرته وهدوئها وهو يبرر لها:

-لأني مرضاش بخراب البيوت لحد.

التوت شفتها في ابتسامه مستهجنة، ثم علقت بنبرتها الساخرة وهي تطالعه بنظراتٍ احتقارية واضحة:

-عاوز تقولي إنك يا حرام قلبك رق وصعبت عليك بعد اللي حصل فقولت أطلع قرشين للغلبانة دي أتعطف بيهم عليها، وأهي تبقى بجميلة وأعرف أكر عينها كويس!!!

صدمته واقعيته وأفسدت مخططاته العادية بترمتها الحاد، كان يعتصر- عقله ليجد الكلمات المناسبة التي يعلل بها تصرفه، فهي تركيبة نسائية عجيبة لم يقابلها في حياته من قبل، أخرجته من صمته حين هتفت بنبرة اكتسبت قساوة أكبر:

-شكرا يا حضرت، أنا ما بأقبلش العوض ولا الإحسان من حد..

-بس أنا قصدي..

قاطعته بغصة شعرت بألمها في حلقتها:

محصلتش إني أشحت على نفسي!

دافعت بعزة نفس عن كبريائها الذي جرحه بعرضه السخي، تفهم موقفها ولم يعلق بشيء، لكنها أفسدت احترامه لموقفها بقول:

-خلي فلوسك في جيبك، وابقى ادفعهم للمحامي عشان يطلعك من السجن.

احتقنت نظراته من بشاعة لسانها السليط، لم يكن قد تجاوز بعد عن صفتها، وحاول تخطيها مرغمًا لينسى- كل ما يخصها بإنهاء المسائل العالقة بينهما، لكنها تعيده إلى ذروة الخلاف بجاقتها وتهورها، استطاعت برعونتها أن تستثير حميته فعنفها بجدّة وقد توحشت عيناه:

-الواحد غلطان إنه بيعمل معاك أي واجب.

ردت برود:

-مش عاوزة، خليهولك!

نظرة احتقارية له أطلت من عينيها جعلته يستشيط غضبًا، تركته يغلي في مكانه قبل أن يتحول لوحش كاسر ومهاجمًا إما لفظيًا أو بدنيًا، فتجربتها السابقة معه توحى بذلك، خاصة مع عدم وجود من يدافع عنها إن تطلب الأمر تدخلًا سريعًا، بدأت "فيروزة" تسير مبتعدة عنه بخطا متعجلة غير مبالية بنظراته النارية المصوبة نحوها. كان "تميم" على وشك التحرك وهو بالكاد يكبح انفعالاته المستثارة، لكنه أدار رأسه في اتجاهها ليقول لها بنبرة عالية:

عارفة، إنتي عاملة زي الطاووس بالظبط!

استوقفتها جملته الغريبة فالتفتت نحوه تسأله:

نعم..

تابع موضحة بما يشبه التهمك عليها:

أيوه، إنتي مغرورة ومناخيرك لفوق، مالكيش كبير، وما بتسمعيش لحد، ولسانك سابق دماغك، وصدقيني ده هيصيئك.

تفاجأت من تحليله لشخصيتها بتلك الصورة التي تضعها في قالب ترفضه، تماسكت حتى لا تظهر تأثرها بوقاحتها، ونظرت له بتعالٍ وهي تعقب عليه:

حطب يا ريت تخلي نصايحك لنفسك، هتتنفك أكثر مني.

لاح على زاوية فمه ابتسامة ساخرة منها مما استفزها، فاندفعت قائلة بنزق:

أه، وبالمره قول للست الوالدة ماتتعبش نفسها وتيجي تهددنا تاني، أنا هاخذ حقي منك وبالقانون!

بدا تأثير المفاجأة بائنا على تعبيراته التي تحولت للوجوم وهو يردد:

ليه الكلام ده؟

شعرت "فيروزة" أنها كسبت تلك الجولة لصالحها، فارتخت قسمايتها وانعكس عليها القليل من الزهو، ثم قالت ساخرة وتلك النظرة المنتصرة تتراقص في حدقتها:

مش معقول متعرفش بده، غريبة!

اشتد في وقفته، ودنا منها خطوتين ليسألها بصوتٍ قاسٍ:

فهميني هنا، معناه إيه كلامك البايخ ده!

حذرتَه بتهديدٍ صريحٍ وهي تتراجع للخلف:

عندك! متقربش مني وإلا هاعملك محضر تحرش وبدل السنة هتبقى عشرة!

نظر لها بعينين مغلولتين مستنكرًا بجاحتها، أهذا جزاء معروفه معها؟ ردد لنفسه في ضيقٍ، بينما

تابعت "فيروزه" بنبرة تهزأ به:

-وانت ماشاء الله سوابق، وسمعتك سبقتك.

أوصلته بنزقها المستفز إلى درجة جعلت من الصعب عليه السيطرة على غضبته الوشيكة، غالب

"تميم" ما يعتريه من مشاعر حانقة ومستثارة حتى لا يتصرف بطيشٍ .. وبصوتٍ أجش رن صداه

في أذنيها بقوةٍ قال لها متعهدًا:

-بكرة السوابق ده هيكسر مناخيرك ويجيبها الأرض !!!

.....

الفصل الثامن عشر

حالة من الحنق، الغيظ، السخط سيطرت على كامل جوارحه واختلطت بغضبه المكتوم لتتشعب في كل ذرة من جسده بعدما أخبرته "فيروزة" بشأن زيارة والدته غير المستساغة لها، لم يجذب مطلقاً أن يوضع في ذلك الموقف الحرج، وبجهد مضاعف ضبط انفعالاته ليلتعد عن المكان قبل أن يرتكب ما قد يندم عليه لاحقاً بسبب نجاحها في استفزازه بتسلطها الحاد. كور "تميم" قبضة يده ضاغظاً على أصابعه بقساوة، سار بمحاذاة الكورنيش لوقت طويل حتى تخبو تلك النيران المستعرة بداخله فلا يعود لمنزله وهو على وضعه الحالي، استياء عظيم شعر به لفشله في تحقيق ما كان يصبو إليه، قادته قدماه خلال طريق عودته إلى العربة المحترقة، تجمد أمامها وحملق فيها طويلاً بعقلٍ شبيه شارد، ورويداً رويداً بدأت ثورته المتأججة نحوها تخبو لتتحول نحو رفيقه الذي أحدث تلك الكارثة، بدا كمن أصابه البرق فانتصب في وقفته وغير مساره ليتجه نحو منزل "ناجي"، توقع مكوثه بالسطح ليلهو كهادته كل مساء، صعد الدرجات سريعاً، وقف عند أعتاب مدخله وألقى نظرة شاملة على من فيه، وكما صدق حدسه، فقد كان متواجداً بصحبة "حمص"، و"شيكاجو"، صاح عالياً لينتبه ثلاثتهم لوجوده:

سلامو عليكم

على الفور نهض "ناجي" من جلسته المسترخية مهرولاً نحوه وهو يرحب به:
- أهلاً بكبير منطقتنا، نورت المكان كله.

مد يده لمصافحته، وجذبه الأخير نحوه ليحتضنه، ثم دعاه للجلوس قائلاً:
- تعالی، ده الأعدة الحلوة لسه هتبتدي.

نظر له بعينين غائمتين ووجه عابس، لم يكن راغباً في السهر أو المكوث معه، فجيئه فقط كان من أجل مهمة محددة، لذا سار بتثاقلٍ نحو الوسائد المحشوة التي تفترش السجاجيد بزاوية السطح، رحب به التابعان بودٍ زائد، اكتفى بالابتسام المتحفظ لهما، صاح "شيكاجو" عن ثقة وتلك البسمة اللزجة تعلقو ثغره:

- اطمن يا معلم، الحكاية عندنا..

وأضاف عليه "حمص" متخذًا موضعه في الحوار:

-وزي ما ورطناك هنعلمها بطريقتنا.

التفت نحوه يطالعه بنظرات قاسية رافضًا الغموض الذي يغلف كلماته، وهتف ينذره بخشونة:

طريقتكم!! أنا مش عاوز شغل عواً وبلطجة تاني مع الحریم!

أجاب "حمص" نافيًا:

-لأ يا كبير، دي حاجة في السليم، ومضمونة.

اقترب منه "شيكاجو" ليقول بجبث من بين أسنانه المتسخة:

-وبعدين ده احنا تحت طوعك يا معلم "تميم"، ومطرح ما تودينا نروح واحنا مغمضين.

هز "حمص" رأسه مؤكدًا هو الآخر:

-أيوه، رقبنا فداك يا كبير.

نظر لهما بعدم ارتياح، وشدد من جديد بلهجته الجادة:

-ماشى، بس أديني قولتلكم أهو، عشان محدش يلومني لما اتصرف بعد كده.

قال له "شيكاجو" دون تفكير:

فداك يا كبير.

قبض "ناجي" على ذراع "شيكاجو" وسحبه منه لينزوي به بعيدًا عن عيني "تميم" المراقبة له، وبنبرة

أقرب للخفوت سأله:

عرفت هتعمل إيه؟

جاوبه بصوته الخفيض دون أن تفتر ابتسامته السخيفة:

-أيوه، كله زي ما فهمتنا يا ريس "ناجي".

ارتخت أساريره المشدودة، وقال له:

طيب، عاوز البشارة تجيلي قريب.

رد يطمئنه عن ثقة واضحة:

قريب هاتسمع اللي يفرحك، بس ماتنسناش في عرقنا.

علق في سخط:

أما تتنيل تحلها تبقى تتكلم، بلاش تقاطع يا فقري

قال بتملتي، وكأنه بذلك يكسب وده:

-ولو ببلاش يا معلم، مايمكش، اعتبرها عربون محبة وتصالح

هز رأسه في استحسان، ثم اختطف النظرات نحو "تميم" الذي تمرکز جالسًا على الوسائد، تنحنح

بصوته الخفيض وأشار بعينه لـ "شيكاجو" ليبعد عنه، أحضر- نارجيلته ودنا منه وهو يحملها،

افتعل الضحك ملقيًا دعابة خارجة، لكن لم يضحك رفيقه، بل بدا أكثر وجومًا، وسأله مباشرةً

ليشعره بأنه يراقبه عن كئيب:

-مقولتليش هتعمل إيه ؟

تلجلج قليلًا وهو يجيبه:

-كل خير يا صاحبي، اطمئن..

حذره بجديّة واضحة:

يا ريت ماتكونش مصيبة جديدة تحط على دماغني!

هتف نافيًا ليبدد شكوكه:

لا، دي حاجة مضمونة يا "تميم"، متقلقش!

وبالرغم من كلماته الباعثة على الاطمئنان إلا أنه لم يشعر بذلك الإحساس الذي يسعى رفيقه بكل

جهد لثبته فيه، بل انتابه هاجسًا مزعجًا أن الأمور تتجه للتعقيد أكثر، وربما للأسوأ، خاصة بعد

مواجهته الأخيرة مع صاحبة الرأس العنيد؛ "فيروزة".

.....

كارثة بكافة المقاييس حلت على رأسها، وبالكاد ستقتضي- على سند عائلتها إن لم تتنازل عن عجزتها وكبريائها الذي تعتد به لأجل فلذة كبدها، انخلع قلبها خوفاً عليه، وتهدجت أنفاسها فور معرفتها بما آلم به من مصيبة لن يخرج منها بسهولة، استطاعت بصعوبة أن تتمالك نفسها لترتدي ثيابها وتفكر بذهن غير مشوش حتى تصل لحل ينقذه مما بات فيه، هرولت "بثينة" نحو منزل شقيقتها لتستنجد بها بعد أن هاتفها ابنها ليخبرها بإلقاء القبض عليه بالقسم الشرطي في تهمة لم يفصح لها بعد عن فحواها، استقبلتها "ونيسة" بترحابها المعتاد متجاوزة عن أي خلاف حدث من قبل، وتفاجأت بها تبكي بحرقه وهي ترجوها أن تتدخل لإيقاظ ابنها، لم يكن أمامها سوى اللجوء لزوجها ليساعدها، تركتها تجلس بمفردها في الصالون بعد أن أعدت لها عصير الليمون لتشربه وتهدأ، سارت عبر الردهة لتدخل إلى غرفة النوم حيث يستلقي "بدير" في قيلولة قصيرة، توقفت في مكانها مترددة، لم تكن راغبة في إيقاظه خلال لحظاته المقدسة تلك، لكن لا مفر، استجمعت جأشها، وتقدمت نحوه، وبكل رفيق هزته من جانبه هامسة له:

حاج "بدير"! أنت صاحي يا حاج؟

نظر لها الأخير بنصف عين، تقلب على جانبه، وبصوتٍ ثقيلٍ نائمٍ سألها:

-في إيه يا "ونيسة"؟

بصوتٍ متذبذبٍ أجابته:

-معلش ممكن تفوقلي كده شوية، أنا عاوزاك في مسألة مهمة

انتفض في نومته يسألها والقلق قد غطي ملامحه من طريقة حديثها:

- "تميم" جراه حاجة؟ الدكان فيه مصيبة؟ البضاعة باظت؟

ردت بالنفي:

-لأ يا حاج، الشر برا وبعيد عننا، ابننا بخير، والدكان زي ما هو.

نظر لها بغضبٍ وهو يوبخها:

-أومال مصحياي ليه يا ولية السعادي؟

أجابته على استحياء:

-أصل "بثينة" برا، وكانت آ.. عاوزاك.

تقلصت تعابيره وأكنت بأمارات الانزعاج وهو يدمدم بتأفف:

هي الحكاية فيها أختك، خير عاوزة ليه؟

اعتدل "بدير" في نومته، ونظراته المستاءة ما زالت تحتل وجهه، استقامت في وقفها وردت:

-أصل الواد "هيثم" واقع في مشكلة، وآ....

قاطعها بتبرم:

-يا دي الزفت الحرامي ده اللي ما بيجيش من وراه أي خير!!

ربتت على كتفه تستعطفه:

-أنا عارفة يا حاج إن بلاويه كثير، بس إنت كبيرنا، وفي مقام أبوه، ولو موقفناش معاه الواد هيضيع.

علق في سخرية، وقد تقوست زاوية فمه بابتسامة متهمكة:

-تقوليش هو ماشي عدل، ما هو ضايح خلقة!

حاولت استرقاق قلبه، فقالت له بلطف:

-معلش يا حاج، مالوش غيرك بعد ربنا، وأمه مكسورة الجناح

هتف معترضًا على كلماتها الأخيرة:

-دي مكسورة الجناح؟ أختك ومن غير زعل كده يتفتلها بلاد، كتلة شر ماشية على الأرض.

ردت بانكسارٍ ملموسٍ في نبرتها:

هي أختي بردك ومالهاش غيري.

أزاح "بدير" الغطاء عن جسده، وأخفض ساقيه ليهبط عن الفراش قائلاً لها:
عشان خاطر ك يا "ونيسة" هاروح أشوفها، مع إني كنت مقرر ما اتحشر لهاش في حاجة بعد اللي
عمله ابنها.

سارت خلفه تثني على معرفه الكبير:

-ربنا يخليك لنا يا حاج، طول عمر قلبك طيب ويسامح.

.....

أخفض "هيثم" رأسه في خزي أمامه بعد أن تدخل لإخراجه من محبسه ودفع تكاليف الإفراج عنه
منهياً الخلاف القانوني مع ذلك الشخص الذي اعتدى بالضرب عليه خلال نوبة غضب عمياء،
تملكته عزة نفسه وأفرغ في الأخير ما يعتريه من مشاعر عدائية غير مكترث بتبعات جنونه الجامح،
لكن لحنكة المحامي البارع، وأساليبه الجيدة في الإقناع، انتهت الأمور على خير. تطلع إليه "بدير"
بنظرات المتفحصة، بدا وجهه جاداً، متصلباً، خالياً من مظاهر التعاطف، وبصوته الأجرس هتف
قائلاً للمحامي:

-متشكرين يا أستاذ، مدوخينك معانا كل يوم

رد مجاملًا:

-ده شغلي يا حاج، وأنا تحت أمرك في أي حاجة

-تسلم

تنحج مستأذناً:

-طيب يا حاج "بدير"، هاروح أنا أشوف مصالحي، ولو في أي حاجة ضرورية كلمني

صاحفه في ود:

-ماشى يا سي الأستاذ، في رعاية الله

انتظره حتى اختفى من أمام أنظاره ليستدير في اتجاه "هيثم"، رمقه بنظرة احتقارية قبل أن يستطرد:

-أفكر كده إني عملت معاك الواجب وزيادة.

رد عليه على مضض:

-أيوه.

تابع مضيقاً بازدياء محسوس في نبرته:

-حد غيري مكانش سأل فيك بعد قلة أدبك وسرقتك ليا..

برقت عينا "هيثم" من جملته تلك، لكن ما لبث أن غلف نبرة "بدير" قدرًا من العطف وهو يكمل:

-بس أمك مالهاش ذنب يتحرق قلبها عليك، ولا أنا كلاي غلط؟

اعتذر في ندم لم يكن يبدو أنه حقيقي:

-غلطة يا جوز خالتي.

استهزأ به في تهكم:

-أها، لأ وواضح إنك ماشي على الصراط.

لم يعلق عليه وضغط على شفتيه بامتعاض بائن متحملاً سخافاتهن، بينما لانت نبرة "بدير" قليلاً حين قال له:

-أنا نفسي -حالك يتصلح، وتبقى زي باقي الشباب بتراعي لقمة عيشك وبتحوشلك قرشين عشان

تتجوز بيهم، ولا عاجبك التسيب اللي إنت فيه ده؟

أظهر اتفاقه معه وردد قائلاً:

-لا يا جوز خالتي، أنا عقلي مكانش فيا، بس إن شاء الله أتغير.

ابتسم في أمل:

يا ريت.

اضطر "هيثم" أن يجاربه بجاس مصطنع في آماله الواهمة ليغير من مسار حياته الطائشة طوال سيره معه فقط ليخدعه، ودون أن يظهر حقيقة أنه يضم له كل شر وحقد.

.....

مراقبة حثيثة، ونظرات متربصة قاما بها خلال الفترة الماضية ليرصدا كافة تحركاته، باتا يعرفان عنه ما يلزم للقيام بمهمتهما التالية، والتي خططا لها جيدًا حتى لا يقع في الفخ .. كان الأمر بسيطًا بالنسبة لهما، هما اعتادا فعله في أول حياتهما الإجرامية؛ سرقة احترافية لأحد الموظفين ممن يخرجون من البنك حاملين لحقيبة جلدية متخمة بالنقود، وكان "خليل" ينتمي لذلك النوع الروتيني من الأشخاص مما سهل الأمر عليهما كثيرًا، وللمصادفة العجيبة كان اليوم هو الميعاد المخصص لمنح أجور العاملين، انتظراه على مقربة من البنك ريثما ينهي الإجراءات والمعاملات البنكية ليتبعا خطواته المحفوظة خلال انتقاله في السيارة التي تعود به إلى مقر عمله، وبتفاني مسبق تم إبرامه مع السائق وزميله نظير مبلغ مادي معقول دخلت الخطة في حيز التنفيذ.

وقبل أن يصل "خليل" إلى وجهته، وعند ذلك المكان الخاوي المحفوف بالأشجار العالية، قطع "حمص" و"شيكاجو" الطريق عليه. أظهر السائق فزعه ليبدو مقتنعًا، ونظر إلى الاثنين الملمئين اللذين يحملان أسلحة في يديهما بخوف شديد. صاح "حمص" عاليًا وهو يصوب سلاحه الناري نحو رأسه:

-اركن على جيبك وإلا هاطير نافوخك!

لم يكن أمام السائق سوى الانصياع له، ترجل من السيارة بعد أن صفها في تلك البقعة الخالية من المارة وهو يدعو الله ألا يزهق روحه، ضربه بشراسة على مؤخرة عنقه لينكفئ على وجهه وهو فاقدًا للوعي، في حين تحرك "شيكاجو" نحو الموظف الآخر الجالس ملتصقًا بـ "خليل" يصيح به:
-انزل.

رفع الأخير يديه في الهواء يرجوه في مذلة:

-ماتمتوتيش، أنا عندي عيال بأريهم! خدوا فلوسي، ساعتني، موبايلي بس سبوني أعيش!

قال له "شيكاجو" بعينين تقدحان شرًا:

-أنا مش جايلك إنت..

وتركزت عيناه المخيفتان على وجه "خليل" الشاحب، بدت نبرته واضحة وأكثر إرعابًا وهو يضيف بكلماته الموحية:

-حوارنا كله مع الخال!

ثم غمز له بطرف عينه وهو يكمل:

-ولا إيه يا عم "خليل"؟ مش ده اتفاقنا؟

اتقبض قلب "خليل" وهوى بين قدميه من شدة خوفه، لم يفهم ما يحدث حوله أو مقصده من تلك التلميحات الكارثية، لكنه شعر بدمائه تفر هلعًا من عروقه، بينما تطلع الموظف بغرابة إلى زميله مبدئيًا استرابته في أمره، وكأن الشكوك تساوره حول كون تلك السرقة المدبرة، وقبل أن يستوضح الأمر بديهية لتنتلي التمثلية أكثر ففز فرعًا في مكانه حينما صرخ به "شيكاجو" بصوته الأمر الذي زاد من رجفة القلوب:

-انزل وما ترغيش، وإلا إنت الجاني على روحك!

-ح.. حاضر.

قالها الموظف وهو يمسك بيد مرتجة مقبض الباب لينزل من السيارة، أمسك به "خليل" ليجبره على البقاء معه وهو يهمس له بصوته المرتعب:

-ماتسبنيش، خليك معايا.

نفض قبضته المرتعشة عنه، وقال له غير مبالٍ بما سيحدث له:

يا عم سييني، الواحد روحه على كف عفريت!

ترجل من السيارة ووقف في الخلاء رافعًا ذراعيه للأعلى كتعبير عن استسلامه وخنوعه، اقترب من خلفه "حمص" وضربه بقوة على رأسه ليوقعه أرضًا، وانفرد كلاهما بـ "خليل" الذي تشبث

بالحقيبة وضهما إلى صدره بالرغم من الارتعاشة القوية المسيطرة على بدنه. ثبت "شيكاجو" فوهة سلاحه أمام وجهه وهو يطل عليه من نافذة السيارة، وقال له بصيغة أمر:

-سلمني الفلوس اللي معاك يا "خليل".

اندهش مجدداً من ترديده لاسمه وكأنه يألفه، نظر له في حيرة، ومع ذلك تعلق بالحقيبة أكثر وهتف يستعطفه بصوته المرتجف:

-دي مرتبات الموظفين، وهما.. ناس غلابة و...

قاطعته بصوته الخشن:

-ماليش فيه، هاخذها يعني هاخذها.

سلمها له طواعية حتى لا يخسر- حياته وقد أدرك حجم الخطر الكامن فيه، ولكن تصلب جسده في مكانه مصدوماً وهو يقول له بغموض أربكه:

-بس يكون في معلومك، إنت هاتشيل الليلة دي يا "خليل"!

بهتت ملامحه أكثر، وتلعثم متسائلاً:

-أنا...؟

فسر له ببساطة:

-هو إنت مادرتش إن اللي معاك هيشهدوا عليك إنك سرقت الفلوس وعملت الحوار ده كله عشان تطلع بالمصلحة دي

هدر نافيًا عنه تلك التهمة الباطلة:

-كذب، إنتو هجمتوا علينا و...

كركر "حمص" ضاحكًا قبل أن يقاطعه في انتشاء:

-هتروح في داهية يا "خليل"، ومحدث هيصدقك.

تضاعف خوفه من تلك المصيبة المهلكة، استدارت رأسه في اتجاه "شيكاجو" الذي بادر موضحًا له مباشرة:

- وكله بسبب بنت أختك، شوفت بقى!

ردد مدهوشًا وقد برقت عيناه على الأخير:

- بنت أختي؟

قست تعابير "شيكاجو" حين أكمل له:

- ما هو اللي يعادي أسياده لازم يتجاب الأرض!

لعق شفثيه وحاول ابتلاع ريقه الجاف مغمغمًا:

- أنا.. مش فاهم حاجة.

ضربه "شيكاجو" بقساوة في جانب كتفه وهو يهينه:

- هتعمل فيها غبي بروح أمك!

تأوه "خليل" من الألم المباغت، وتحمله مرغمًا ليرد مدافعًا:

- أقسم بالله ما أعرف حاجة، عملت إيه بنت أختي؟

نظر له "شيكاجو" بشراسة وهو يجيبه مهددًا:

- من الآخر كده يا "خليل"، وعشان تقطم الليلة دي، بنت أختك تتنازل عن المحاضر اللي عملاها

في الريس "تميم"، وإلا هتخش إنت مكانه!

ارتعشت شفثاه وهو يرد:

- بنت.. أختي

قال "شيكاجو" في عدائية ساخرة:

- أيوه، بياعة الكبد!

هتف "حمص" من الجانب الآخر للسيارة:

-والفلوس دي رهن، تنفذ كلامك هترجع وكأن مافيش حاجة حصلت.

استأنف "شيكاجو" تهديده العلني قائلاً:

-معاك لبكرة الصبح، وإلا زمايك هيطلعوا على النيابة يشهدوا عليك، ما إنت اللي سرقت
الفلوس، وده حوار فاكس معمول!

أيده "حمص" الرأي:

-بالظبط.

وجد "خليل" صعوبة في استيعاب الموقف والإمساك بأطراف خيوطه، هتف بتلعثم عله يمنحه
المزيد من التفسيرات:

-أنا... بس..

قاطعته "شيكاجو" بغلظة شديدة:

-مات الكلام!

ثم ضربه بمؤخرة سلاحه بعنف في جبينه ليفقده الوعي لتكن آخر ما تلتقطه أذناه قبل أن تغيب
الصورة عن ذهنه:

-سلام يا خال!

.....

في كل غيظ الدنيا وحنقها سار "خليل" مترنحاً بعد أن استعاد وعيه يعبر الطرقات حتى عاد إلى
المنزل، نزع رابطة عنقه عنه وألقاها في الطريق، وفتح أزرار قميصه حتى انكشف صدره، لم يعبأ
بالهواء البارد الذي يضربه، كان غضبه المستمر يحتاج لأطنانٍ من الثلوج ليخمدته، ومع إن وطأ
المدخل حتى اندفع كالثور الهائج يصعد الدرجات بسرعة، توقف أمام أعتاب المنزل، لم يمنح نفسه
الفرصة لالتقاط الأنفاس، بل استند بكفيه على الباب يدق عليه بعنف وهو يصرخ منادياً:

-افتحي الباب يا "آمنة"! أنا عرفت كل حاجة!

كانت صرخاته متواصلة ومرعبة في نفس الآن، حملت فيه أخته في ذهولٍ بعد أن فتحت له، سألته بتوجيس وقد رأت الحالة المزرية التي عليها:

-في إيه يا "خليل"؟ بتزقق ليه؟ ومالك مبهدل كده ليه؟

دفعها بخشونة من كتفها ليلج للداخل فكادت تُطرح أرضًا من دفعته المباغته، حافظت على اتزانها، والتفتت نحوه تسأله:

-إيه اللي حصل بس؟

تجاهلها وجمال بنظراته المكان باحثًا عن ابنتي أخته، لم يجدهما أمام أنظاره، فاستدار نحو "آمنة" يصيح بها:

-بناتك فين يا "آمنة"؟ مخبياهم عني فين؟

سدت له نظرة غريبة مستنكرة ما يتفوه به، ومع ذلك أجابته بتلقائية:

-بناتي جوا، هاخبيهم ليه؟

وقبل أن تتحرك لتعترض طريقه، هرول بكامل عصبيته في اتجاه غرفة الفتاتين، ودون استئذان اقتحمها صارخًا وهو يسبها:

-عملتوا محاضر في مين يا ولاد الكلب؟

انفضت "فيروزة" فزعًا من على الفراش حينما رأت خالها أمامها وقد اتسعت عيناها مذهولة من هيئته المهتاجة، بينما انكشيت "همسة" على نفسها وتراجعت عفويًا للخلف لتحتمي من بطشه، استشاط "خليل" غضبًا وهتف يسألها من جديد:

-انطقوا عملتوا إيه من ورايا؟

فطنت "فيروزة" لمقصده دون الحاجة لاستيضاح الأمور، وقبل أن تبرر له تصرفها القانوني، هتفت "آمنة" في لوعةٍ معتقدة أنها بذلك تخفف من وطأة الأمور:

-بالله عليك يا "خليل" ما تعمل فيهم حاجة، كانت ساعة شيطان، وكل حاجة هتتحل
التفت نحوها بوجهه الحانق والصدمة تكسو قسماته، نظر لها في حقدٍ قبل أن يلومها:

-يعني كنتي عارفة إنهم عاملين مصيبة وسكتي؟

أسهبت موضحة الحقيقة من تلقاء نفسها بصوتها المهتز وقد تملكها الخوف من عدائته التي تلوح في
الأفق:

-ما أنا اتكلمت مع "فيروزة"، وإن شاء الله هتسمع الكلام وتتنازل عن المحضر، هي بس كانت
آ....

لم يمنحها الفرصة لتبرير تصرف ابنتها الجريء، بل هجم على "فيروزة" قابضًا على كومة من شعرها،
لفه حول ذراعه قاصدًا اقتلاعه ليؤلمها أكثر، صرخت من الألم الشديد، وحاولت تخلص نفسها من
قبضته، وقبل أن تتملص منه كانت صفة مدوية تهبط على وجهها، شهقت "همسة" خوفًا، وعجزت
عن الدفاع عن أختها، بينما اندفعت "آمنة" بجسدها البطيء تدود عن ابنتها بطش أخيها الأهوج
وهي ترجوه باستماتة:

-سيبها يا "خليل"، البت هتموت في إيدك!

توسلته "همسة" بكاءٍ يدمي القلوب:

-حرام عليك يا خالي، "فيروزة" معملتش حاجة، خيلنا نفهم اللي حصل
هدر بها بجنون:

-لأ عملت، ومش عاوز أفهم حاجة، كفاية إني هاروح في داهية بسببها

تضاعفت شراسته، ودفع بيده الأخرى "آمنة" عن طريقه لتصبح "فيروزة" في قبضته، ونال وجهها
منه لكمة مباشرة ومؤلمة تركت آثارها الملتببة على بشرتها، صرخت "فيروزة" مدافعة عن حقها
المشروع:

-إنت ظالمني يا خالي، هما ولعوا في عرييتي، وحقى أنا بأخذه بالقانون.

صفعها بعنفٍ على نفس الوجنة المتألّمة رافضاً الإصغاء لها، ليقول بعدها بصوته المهتاج:

-كسر— حثك 100 مرة، إن شاء الله يولعوا فيكي حتى، ملكيش دعوة بيهم، أنا في الآخر اللي بأشيل بلاويكم

بدا المشهد مفزعاً، مؤلماً، وقاصماً للأظهر .. لم تتحمل "همسة" بشاعته وتحركت لتتجد أختها التي نال جسدها من الأذى المزيد من الركلات والضربات، حاوطتها بجسدها وتحملت طيشه الأهوج حتى تكورت إلى جانب "فيروزة" على الأرضية وهي تئن من الوجع الشديد، تخدل ذراعاً "خليل" من عنفه المفرط مع الفتاتين. توقف عن اعتدائه القاسي ليلتقط أنفاسه، توحشت نظراته أكثر وهو ينظر إلى أخته يأمرها بلهجته النافذة وبأنفاسٍ متهدجة وسبابته تلوح في الهواء:

-بنت الكلب دي هاتقوم تلبس وتنزل معايا دلوقت تتنازل عن المحضر...

انحنت "آمنة" على ابنتها تبكيها في مرارة وقهر، كانت مكتوفة الأيدي، لا تملك من القوة ما تحميها به، رفعت رأسها فجأة نحو "خليل" لتحقق فيه بارتعابٍ ميمت وهو يكمل تهديده للنهية:

-والا هادفنها حية، وما هتتعرفيلهاش ثربة !!

.....

الفصل التاسع عشر (الجزء الأول)

ليلة موحشة مؤلمة تحمل كل قساوة الحياة وأوجاعها مضت عليها وهي لم تنبس بكلمة واحدة بالرغم من توسلات والدتها وبكاء أختها، بدت فاقدة للنطق وإن لم تكن كذلك، فقد اختنق كل شيء في صدرها، خبأتها "آمنة" في أحضانها واحتوتها بين ذراعيها عليها تكون الملاذ الآمن لها بعد أن فشلت فشلاً ذريعاً في درء عنف خالها عنها، مسدت على رأسها بحنان كبير، وانحنت تقبل جبينها وهي تُحادثها بالكلمات المواسية التي لا تملك سواها، لكن جروحها أبت الاندمال، انسابت دمعات "فيروزة" في صمت، دمعات العاجز الفاقد لحقه في الاختيار، كانت مغيبة عن حولها، تشرّد بذهنها لتعيش تلك اللحظات العنيفة الصادمة، فتنتفض وهي تن من الألم لتعاود أمها تهدتها بقراءة القرآن تارة، وبالمسح على جسدها برفق تارة أخرى حتى توقف عقلها عن التفكير وغابت عن الوعي من شدة إعيائها.

تركها "آمنة" على الفراش وتفقدت ابنتها الأخرى، كانت مثلها تشكو أوجاعها، طويت خاطرها، واتجهت إلى غرفتها تبكي بداخلها في تعاسة واضحة، تكومت على نفسها على فراشها البارد تنوح وحدتها القاتلة بدون زوج يحميها من قسوة الأقرباء قبل الغرباء، تجمعت هموم الدنيا في قلبها، وكادت تغفو من تعبها المضي، شهقة فرجة انطلقت من أعماق جوفها حينما سمعت الدقات الهادرة على الباب، عفويًا التفتت إلى المنبه الموضوع على الكومود، كان الوقت لا يزال مبكراً، لكن جسدها ينبئها بكارثة قريبة. حركت بدننها المتعب من قلة النوم وإتلاف الأعصاب في اتجاه باب المنزل، وقلبا نظرت من العين السحرية فوجدت أخيها يصيح بها:

-افتحي يا "آمنة"

دب الرعب في قلبها، واهتزت كلياً، لا إرادياً استدارت مستندة بظهرها على الباب، وفاردة لذراعيها على حافتيه، وكأنها بذلك تشكل حاجزاً بشرياً تمنعه من اقتحام المنزل، ثم صرخت بصوتها المبحوح:

-مش هافتحك يا "خليل"، كفاية اللي عملته في بناي.

صاح بها بعصبية ويده تضرب بقوة على الباب:

-يووووه، أنا مش فاضي للهري ده، بأقولك مافيش وقت نضيعه، وأنا واقع في مصيبة بسبب عمایل بناتك، افتحي خيلنا نخلص من الهم ده كله.

ردت عليه بارتعابٍ وقد زاد تمسكها بجافتي الباب الذي يهتز من خلفها:

-أفتحك عشان تمد إيدك عليهم تاني؟

قال بنبرة عبرت عن ثقة واضحة:

-لأ يا "آمنة"، المحروسة بنتك زماتها عقلت بعد الوش الثاني اللي شافته مني.

هتفت معاندة بإصرارٍ رافض:

-لأ مش هافتح!

كالحرباء وقفت أعلى الدرج تتابع صياحها بابتسامة متشفية، وكأن ما فعله زوجها بابنتي أخته قد أثلج صدرها وبرد نيران حنقها نحوها، ارتدت "حمدية" قناع الضيق على وجهها، وهبطت الدرجات وهي تنادي عاليًا لينتبه لها:

-حاسب كده يا "خليل"، بلاش الافتري ده.

نظر لها بجدة من تصرفها غير المفهوم، لكنها غمزت له بعينها ليفطن أنها تشاركه تمثيلية ساذجة لتتمكن من إقناع أخته بالتخلي عن عنادها وفتح الباب، تنح "خليل" يوبخها بتجهم زائف:

-ملكيش دعوة يا "حمدية"، أنا بأتكلم مع أختي.

ردت بصوت عمدت لرفع نبرته:

-هتكلمها وانت متعصب كده؟ بيتي مافيش حاجة هتنفع.

نفخ في وجهها كتعبير عن عدم رضائه، لكنها تابعت بلطفٍ غير معتادٍ منها:

-اطلع إنت فوق بس يا أبو العيال، اشرب الشاي، وأكون أنا خدت وإديت مع "آمنة"، ماشي؟

هز رأسه على مضض:

طيب، أما أشوف

وبغمغمة متبرمة أولاهها ظهره ليمسك بالدرابزون ويصعد للأعلى، التفتت تحديق في الباب مجددًا وهي تطرق عليه برفق منادية إياها:

-افتحي يا "آمنة"!

صاحت بها الأخيرة وهي ما تزال مصرة على رفضها:

-لأ مش هافتح، قولي لجوزك يبعد الأول.

ردت مطمئنها:

-هو طلع خلاص، مافيش إلا أنا.

اشرأبت "آمنة" بعنقها للأعلى بعد أن استدارت بجسدها لتحديق في العين السحرية حتى تتأكد من صدق قولها، شعرت بالارتياح لغيابه، ارتخى جسدها المشدود وامتدت يدها لتدير المقبض، أطلت "حمدية" برأسها وتلك الابتسامة الزائفة تعلو شفيتها، ربتت على كتفها في ود، وسارت نحو الداخل وصوت "آمنة" من خلفها يدعوها:

-تعال يا "حمدية".

مصمصت شفيتها لتظهر إشفاقها وهي تعقب عليها:

قلبي عندك يا حبيبتي

همت "آمنة" بالبكاء مجددًا ليخرج صوتها مضطربًا:

-شوفتي أخوكي عمل فينا إيه؟

أومات برأسها ترد بتنهيدة مطولة، وكأنها تتفق معها في الأمر، لتوحي لها بدعمها الكلي:

-متزعليش يا حبيبتي، أخوكي صعب أوي لما بيتعصب، أنا بس اللي ما بشتكيش!

تهتت "آمنة" في أسى وقد بدا الإرهاق واضحًا عليها، تأملت "حمدية" بتفحص فرأت تلك الكرمشة تحت جفניה، وأثار إحمرار عينيها، شعرت بالنشوة تغمرها وهي تتذكر أصوات الصراخ التي

صدحت بالأمس وملأت جدران المكان، برقت حدقتها بوميض غريب، وتنحنحت متابعة باهتمام مصطنع وهي تجاهد لإخفاء ما يعتيرها من شماتة وانتشاء:
-ها قوليلي فين البنات؟ عاوزة اطمن عليهم.

.....

عاونتها أمها على النهوض من رقتها، وتلك الأنات تخرج من بين شفيتها لتظهر مدى الألم الذي تعانيه، بالطبع لم تسلم "فيروزة" من العبارات الشامتة والتوبيخات المستترة من زوجة خالتها التي واتتها الفرصة على طبق من ذهب لتظهر سعادتها وإن لم تفصح عن ذلك علنًا، لكن كل ما كانت تفعله يشير بقوة إلى فرحتها بالأذى الذي لحق بها. حاولت "آمنة" إقناعها بإخفاء آثار الكدمات باستخدام مساحيق التجميل، لكنها رفضت، وأصرت أن تريه ما اقترفته يدها عليه يشعر بالذنب وتأييب الضمي وإن كانت تشك في ذلك.. ارتدت ثيابها بتمهلٍ محاولة كتم آلامها، ووضعت نظارة داكنة على عينيها، لم تصغ لتوصيات والدتها ولا نصائحها الواهية، اكتفت بما يضره صدرها من كراهية مشبعة لخالها ومن دفعه على إيلاها.

وبتؤدة حذرة سارت إلى جوار "خليل" متخذة مسافة آمنة بينه وبينها بعد أن هبطت السلم وخرجت من المنزل لتجده بانتظارها، لاذت بالصمت بالرغم من تهديده القوي لها:
-كلمة واحدة غير اللي قولتلك عليها مش هارحمك، أنا معنديش اللي أبكي عليه.

انفجرت زاوية فمها بابتسامة حاتقة، وتلك النظرات النارية مركزة على وجهه المشدود، أشار لها بذراعه لتتحرف عن الطريق وتعبه متابعا إملاء أوامره:

-واحنا في القسم، مش عاوز أسمع منك نفس، تمضي واتي ساكتة، أنا هتولى كل حاجة.
كان واثقا من خنوعها له، ومنحته ذلك التأكيد بسكوتهما بعد أن انهزمت معنويا وبدنيا، توقف عن السير ليستدير نحوها، تجمدت في مكانها وحملت فيه بغضبٍ من خلف نظارتها، حذرهما بلهجة صارمة مستخدما سبابته في التلويح:

-ولو الظابط سالك، ما ترديش عليه، مفهوم؟

لم تحرك شفيتها لتتطرق، بل تجاهلته كلياً، ولم يكثرث هو بردها، واصل سيره المتعجل يقول لها بما يشبه الاستهجان:

-مالوش لازمة الكلام من الأساس.

بات الهواء خانقاً على صدرها وهي تدرك أن آخر آمالها لاسترداد حقها المسلوب على وشك أن يضيع سدى، بالطبع سينتصر- ذاك الهمجي وأعوانه من معتادي الإجرام عليها بقوة القانون لتتحقق مقولة الضابط "ماهر": من لا يملك سلطة فهو ضعيف وضائع. تغلغل فيها إحساس الانكسار وبدت محبطة للغاية، انتهت لحديث خالها الأخير حينما أصبح كلاهما على أبواب القسم:

-أدينا وصلنا، يالا خيلنا نخلص من القرف ده كله، والفلوس ترجعلي، كفاية تعب أعصاني طول الليل.

تأوهت من الألم فجأة وقد شعرت بقبضته تعتصر- رسغها، تقلص وجهها واحتدت نظراتها الخبأة، شدد "خليل" من ضغطه عليها وهو يندرها:

-وده يعلمك ماتعصينش تاني، لأن المرة الجاية بموتك يا "فيروزة"، وأهوو نرتاح منك

نفض أصابعها الغليظة عنها فأمسكت بمعصمها تفركه لتخفف من الألم، همست بصوتٍ محبط واليأس بادي عليها:

-معدتش فارقة.

.....

كان مذهولاً وقد هاتفه محاميه منذ الصباح الباكر ليخبره بضرورة الحضور إلى القسم الشرطي لإنهاء المحاضر بعد أن وافقت الخصمة على التنازل عنها، بدا "تميم" مدهوشاً، حائراً، مشتت الذهن وهو يحاول استنباط الأسباب التي دفعتها للمواقفة، فعلى حسب خبرته معها لم تكن سهلة الإقناع، إذًا فكيف ارتضت بقرار التنازل؟ طراً بباله احتمالية كان قد غفل عنها دون قصد، ربما نجح رفيقه في التصرف بمحنة كما أخبره، وتم ترضيتها بشكلٍ أو بآخر بعيداً عن حضوره مما شجعها على الموافقة، لم يدع الأمر ينجيه كثيراً، وهاتف "ناجي" ليتأكد من شكوكه، وطمانته الأخير بنجاح مسعاه، شعر

بالارتياح وتوسم خيراً أن تنتهي الخلافات كلياً ليحني شبحها وما له صلة بها من رأسه للأبد ..
ارتدى ثيابه على عجلة، وتوجه على الفور إلى هناك.

وعلى عكس توقعاته وما رسمه عقله من خيالات في فضائه الوهمية، كانت "فيروزة" جالسة
بوجوم في المقعد المقابل له تخفي وجهها خلف تلك النظارة السوداء المتسعة، لوهلة اعتقد "تميم" أنها
ليست نفس الشخص الذي تجرأ عليه من قبل .. بدت غريبة، ودیعة إن جاز التعبير، ساهمة،
شاردة الذهن، مما أشعره بالتوجس، دار بنظراته على الأوجه المتواجدة؛ محاميه الخير، صديقه
"ناجي"، وقريب الفتاة "خليل"، الكل يتسم في حبورٍ وكأنهم مرتضين بالتسوية، عادت أنظاره
لترتكز عليها، راقبها مراقبة حثيثة محاولاً سبر أغوارها، لم تنطق بكلمة واحدة، وكأن لا روح فيها،
هي جسد متواجد معهم، لكن بلا حياة .. لم يرقه الأمر وزاد تغلغل إحساسه بالانزعاج، ومع هذا
ترك للمحامي إنهاء الإجراءات، واكتفى بالتحديق الصامت فيها، وإن كان يظن أنها تتطلع إليه من
وراء حجابها البلاستيكي.

تنفس "خليل" الصعداء حينما رأى الضابط يضع الأوراق أمام "فيروزة" لتوقع في البقعة التي أشار
لها، تنحنح "وجدي" بصوتٍ عالٍ ثم جال بعينه على وجوه الحاضرين قائلاً:

-أفكر إن مافيش داعي يحصل مشاكل ثاني بينكم، مها كان كلكم أهل وجيران ..

ثم مال بجسده نحو "فيروزة" موجهاً حديثه لها:

-ولا إيه رأيك يا "آنسة"؟

أكتفت بهز رأسها فالأمر لم يعد مجدياً، الكل انتصر — في معركته، وهي وحدها الخاسرة. ذلك
السكوت المثير للدهشة استنفز "تميم"، اعتدل في جلسته، وتطلع إليها متوقفاً أن تنفجر فيه بين
لحظة وأخرى، لكن تحولت عيناه نحو "خليل" حين هلل مؤيداً:

-أيوه مضبوط، احنا أهل في بعض، وجيران وعشرة من زمان، إن شاء الله ما يحصل حاجة ثاني.

زجره "وجدي" بجدّة:

-أنا موجهلها السؤال، ممكن تحط لسانك في بؤك وتسكت.

تحرج "خليل" من فظاظته معه، ووضع يده على كتف "فيروزة" ليضغط بأصابعه على عظام ترقوتها حتى تنتبه لحديثها معه، رفعت الأخيرة رأسها لتنظر نحوه بجمود، رمقها بنظرة ذات مغزى فهمتها في صمت، أخفضت رأسها وحدقت في الضابط لتقول له بصوت أجوف بارد:

- كل حاجة خلصت يا باشا.

تضاعفت الهواجس لدى "تميم" من أسلوبها الغريب، وتأهب في جلسته أكثر، ليست تلك الجلوسة أمامه هي نفس الشابة المندفعة المنفعلة التي ناطحته الرأس بالرأس، وتجرات ذات ليلة وصففته أمام دكانه بكل وقاحة. كانت مستكينة، مستسلمة لأمرها، منقادة لمصيرها وكأنها فتاة ضعيفة لا تملك حق القرار، استراب في أمرها وتضاعفت هواجسه، لذا تقدم نحوها بجذعه وسألها مباشرة دون أن يتم بتبعات قوله الصريح:

- في حد أجبرك تتنازلي عن المحضر؟

تطلعت إليه "فيروزة" بتلك النظرات الميتة، شعرت بالحنق يستعر بداخلها من سؤاله المستفز، أبكل تلك البساطة يدعي براءته وهو من يقف وراء كسرهما؟ يالدائته وخسته! تقلصت تعبيراتها وازدادت وجومًا، حتى بشرتها الشاحبة تشبعت بجمرة غاضبة وكأنها ستشتعل، ارتجف "خليل" من سؤال "تميم" المفاجئ، وخشي- من تهور ابنة أخته، فهي دومًا تفسد الأمور قبل اكتمالها، فعلى الفور تدخل وهتف نافيًا:

- أجبرها إيه بس يا معلم "تميم"، هي لاقت الموضوع آ....

قاطعها "تميم" بخشونة ونظراته القائمة مسلطة عليه:

- ادبها فرصة تتكلم.

هز رأسه مستجيبًا له، لكن ضغطات أصابعه القاسية على عظامها كانت كفيلة بإيقاظ الأمها وتنشيط ذاكرتها بمشهد الأمس الدامي، تأوهت بصوت خفيض، وأجابت وهي تشيح بوجهها:

- لأ ما فيش

أجابة لم يستسغها "تميم" بالمرّة، ما زال إحساسه يخبره بوجود شيء مريب، حلق في وجه "خليل" المتولي دور المصلح الاجتماعي حين قال من جديد:

-بيتهيا لي كده احنا عدانا العيب وزيادة، تقدر نمشي يا حضرت الطالب؟

جاوبه برسمية وهو يشعل سيجارته:

-أيوه، هننقل باقي الإجراءات

أضاف المحامي بابتسامة عملية وهو يمد يده ببضعة أوراق:

-والأستاذ "تميم" هيتنازل برضوه عن المحضر بتاعه.

تناولها منه "وجدي" معلقًا في استحسان:

-تمام.

.....

كان الأمر محيرًا، مزعجًا، مثيرًا للتساؤلات، ورأسه ليس بالمكان الخاوي ليمتلأ بما يخصها، انتظر على أحر من الجمر انتهاء ما يخصه من إجراءات ليهرع ورائها تاركًا "ناجي" والمحامي يكملان الباقي، وراجيًا في نفسه ألا تكون قد ابتعدت كثيرًا، تنفس الصعداء حينما رآها لا تزال واقفة بجوار خالها على مقربة من القسم، والأخير يتحدث معها وهي غير منتبهة له، تردد في التقدم نحوها وسؤالها مباشرة في حضوره، ولحسن الحظ ابتعد "خليل" عنها ليتجه نحو كشك قريب يبتاع منه شيء ما، استغل الفرصة وأسرع في خطاه ليجذبها بقبضته من ذراعها ويسحبها عنوة بالقرب من شجرة عريضة عند الناصية، تفاجأت من جرأته وجره لها بذلك الشكل السافر والمتحكم، نفضت ذراعها بقوة لتتحرر منه، ورمقته بنظرة نارية يكاد يجزم أنها يراها من خلف نظارتها، تراجع خطوة عنها وسألها دون مراوغة:

غيرتي رأيك لي؟

التوت شفتهاها بسمية متهمكة، وهزت رأسها في سخرية قبل أن ترد متسائلة بصوت من أصابه السأم:

-يعني مش عارف؟

تطلع إليها بنظراته المستريية، كانت مستفزة لأبعد الحدود، تستثير إدراكه وحواسه بشكلٍ جنوني وكأنها طاغية تعرف كيف تذبذبه، هتف يسألها من بين أسنانه المضغوطة وهو يبذل قصارى جهده ليضبط انفعالاته:

-فيكي إيه متغير؟

لم تتحمل نكرانه الكاذب فانتزعت عن عينيها نظراتها لتكشف له عن الكدمات التي تحتل وجهها، صاحت به بهياج غير عابئة بنبرتها التي ارتفعت:

-بص وانت تعرف كويس!

اهتز كيانه بشكلٍ لم يتوقعه حين رأى علامات العنف ظاهرة على قسماها، وذاك فقط ما كشفت عنه، لكن الباقي مخبأ أسفل ثيابها، ضاقت حدقتاه في ضيقٍ واستنكار، وسألها:

-إيه ده؟ حصلك من إيه؟

كادت أن تضحك بمرارة من سؤاله السخيف، أهيأها حقًا ويدعي براءته؟ اكتفت بالنظر باحتقارٍ له قبل أن تولية ظهرها وتعود إلى خالها قاصدة تجاهله، لم يفضب منها "تميم"، بل شعر بإحساسٍ متعاطف بالذنب نحوها، وإن لم يعلم تفاصيل الأمور بعد، لكن كلماتها المقتضبة مع نظراتها اللائمة أوحت له بتورطه في إيذائها بذلك الشكل العنيف والسافر، سحب نفسًا عميقًا حبسه في صدره المتأجج ولفظه على مهلٍ، كانت نظراته تتبعها حتى اختفت عند الزاوية، لكنه التفت كالمسوع فجأة وقد صاح "خليل" عاليًا بذلك الأسلوب الرخيص المستجدي العطف والشفقة:

-بالله عليك يا باشا تخليهم يرجعوا فلوسي، أنا عملت كل اللي طلبوه مني بالحرف الواحد، ودلوقتي مافيش محاضر ولا نيابات ولا غيره.

في البداية ارتبك من وجوده، فكامل تركيزه كان مع ابنة أخته، وبالتالي حضوره باغته، تدارك نفسه، ورمقه بنظرة غريبة وهو يسأله مستوضحًا:

-فلوس إيه؟ أنا مش فاهم حاجة منك!!

أجابه بأنفاس لاهثة وهو يحاول استدعاء دموع التاسيح ليبيكي أمامه:
-فلوسي اللي خدوها غصب عني يا معلم، هاروح في داهية وأنا عندي عيال..
لم يستوعب شكواه الغريبة، لكن ما لبث أن اتضحت الأمور أكثر حين أضاف بصوته المتهدج:
-أنا خليتها تحت طوعكم، وقطمت رقبتها وكنت مستعد أموتها عشان ترضى عني!
حدق فيه مدهوشًا بما أملاه على مسامعه، وبدأت ملامحه تقسو تدريجيًا، توتر "خليل" من صمته
وظن أنه سيتراجع عن وعده، لهذا ألح عليه:
-رد عليا يا معلم "تميم"، ماتسبنيش كده!

تفقه ذهنه الآن لما حدث، وإن لم يعرف بالضبط كيف تم إجبار "فيروزة" على التنازل، تركه
يتوسله باستماتة وسار بخطواتٍ أقرب للركض عائدًا إلى رفيقه "ناجي"، لحق به "خليل" صائحًا
باستعطافٍ أشد:

-بالله عليك ترجعلي الفلوس، هاروح في داهية.
كانت صوته عاليًا بالقدر الكافي الذي جعل "ناجي" يسمعه وهو يتسم بسماجةٍ غير منتبه للوجه
الذي اريد بفضبه المحموم والمقبل عليه مندفعًا، توقف عن الهرولة ليتلقت أنفاسه، ثم استأنف
رجائه:

-ده مال ناس يا خوانا، وربنا المعبود ما فلوسي!
انتصب "ناجي" في وقفته، ونظر له بتسلية قبل أن يقول في تفاخرٍ وزهو:
-شكلك اتعلمت درسك كويس يا "خليل".
أوما برأسه قائلًا بتلهف:

-أيوه، اتعلمته، هترجعلي الفلوس؟
نظر "تميم" بجنقٍ إلى "ناجي" الذي بدا في أوجه وهو يحذر:
-وتاني مرة محدش يقول للغولة عينك حمرة.

ضجر من موقفه الأبله وسأله بعصبية بدت ملموسة في صوته:

-في إيه يا "ناجي"، فلوس إيه دي؟

تنحج قائلاً برجفة طفيفة دون أن تخبو بسمته اللزجة:

-أحم.. أنا عارف هو بيتكلم عن إيه..

مال ناحيته ليهمس له:

-وبعدين مش أنا وعدتك هاحل الموضوع على طريقتي، اطمئن، كله تمام!

نظر "خليل" في توتر ممزوج بالخوف إلى الاثنين، خاف من تراجع أحدهما عن إعادة الأموال له، فتساءل الفرع متعمق فيه:

-يا معلمين ريجوني، هترجعوا الفلوس؟

لوح له "ناجي" بكف يده وهو يقول:

-خلاص، اطمئن، ارجع على بيتك والأمانة هتلاقيها هناك.

أحس بقليل من الارتياح يغمره، اندفع كالمغيب نحو "فيروزة" التي راقبت توسلات خالها من على بعد ووجهها يعبر عن سخط غير محدود، جذبها من يدها بقساوة وهو يأمرها:

-ياللا يا بت، تعالي معايا، هنرجع البيت

تلك المرة رفضت الاستجابة له وأزاحت يده عنها وهي تقول بجدّة:

-معلش كده

تقدمت بثبات نحو "تميم" تناديه بصوت يلهث من الانفعال:

-ثانية واحدة يا معلم ...

استدار نحوها من نداءها الذي استرعى انتباهه وقد حلت الدهشة على خلجات وجهه، وقفت قبالة تنظر له بعينين تنطقان بالغضب، وقالت بنبرتها المتهدجة وهي بالكاد تسيطر على ثورتها الهاجّة بداخلها:

-كده إنت خدت حقك وزيادة، بس حقي أنا .. لسه!

ضاقت نظراتها نحوه، كان مشدوهاً بجديتها، مأخوذاً بعينها المليئتين بالشجن، ما زال يحاول جمع قطع الأحجية ليفسر- كيف ومتى تم إنجاز الأمر بسلاسة، نفذ صوتها المنكسر- إلى قلبه كالخنجر الحاد حين همست بألم عميق:

-ومش مسمحك فيه!

أحس بزلزال يعصف به، بانهيارٍ لشيء كان مترسخ به، وكأن كلماتها قد أحدثت الشرخ المطلوب. تنفست "فيروزة" مطولاً لتكبح نوبة البكاء التي تهاجمها الآن، لن تنهار أمامه! استقامت في وقفتها وتوعدته بنبرة لا تعرف الغفران:

-وهايحي يوم وهارد هولك.

نظر لها بضمٍ مفتوح وعيناه تتطلعان إليها في حيرة، لم يلومها أو حتى يبادلها الكراهية، كان مأخوذاً بالتحول السريع في طباعها، لكنه كان واثقاً أن الفتاة المتهورة قد عادت إلى طبيعتها التي يعهد بها. استطاع "تميم" أن يلمح خالها وهو يخطو بعصبية نحوه، تأوهت "فيروزة" من الألم وقد أمسك بها من كتفها بشراسةٍ ليديرها إليه، رفع كفه للأعلى يعنفها وناوياً صفعها علناً:

-إنتي مش هتتلمي أبداً.

وقبل أن تطال يدها وجهها المتألم، كانت قبضة "تميم" تمسك بمعصمه، أبعد ذراعه وهو يهدر به بصوت اخشوشن بقسوة:

-إيدك عنها!

ارتجف من نظراته النارية وهيئته المتحفة التي أندرته بعدم المساس بها دون أن يتفوه بذلك الأمر المنطوق، أخفض "خليل" ذراعه وهز رأسه بخنوع قائلاً:

-خلاص يا معلم، احنا ماشين..

وبجذرٍ واضح أشار لابنة أخته لتسير معه، وبقي يختلس النظرات ناحية "تميم" الذي كان مستعداً للانقضاض عليه في أي لحظة دفاعاً عنها .. نظرة أخيرة حزينة حانت بها "فيروزة" نحوه أوغرت

صدره أكثر، ابتعدت بالفعل لكن بقيت كلماتها ترن في أذنيه لتشعره أن انتصاره في معركتها القصيرة
لم يكن نزيهاً أو حتى بالتراضي !!

.....

الفصل التاسع عشر (الجزء الثاني)

بمجرد أن وطأت قدماه المدخل حتى هروا قفزًا على الدرجات ليصعد إلى منزله، والتلهف يقتله ليتأكد من عودة النقود المسروقة إليه، لم يهتم بـ "فيروزة" التي كانت تطالعه بحقدٍ أكبر، أو حتى أظهر ندمًا زائفًا لما فعله بها، لم يكن يعنيه سوى نفسه فقط، وليحترق البقية. أخرج "خليل" المفتاح من جيبه ودسه في قفله، ففتح الباب على مصراعيه، وبنظرات يملأوها القلق صاح عاليًا: يا "حمدية"، إنتي يا ولية.

أنته الأخيرة تمشي بهملٍ وكسل، نظرت له بعبوسٍ قبل أن ترد:

-في إيه يا "خليل"؟ بتجعر كده ليه على الصبح؟

سألها بأنفاسٍ متلهفة:

-محدث خبط عليكى ولا

قاطعته بوجهها الجامد وهي تشير بيدها نحو مقعدٍ منزوٍ بجوار مرآةٍ طوليةٍ تحتل الركن الأيمن من الصالة:

-أيوه، في واحد شكله مش ولا بد كده سابلك الشنطة دي يا "خليل".

مر ركضًا بجوارها نحو المقعد، والتقط الحقيبة الجلدية بيده، ألقى نظرة سريعة على مافيا، ارتسمت تعابير الارتياح على ملامحه، زفيرٌ بطيءٌ خرج من جوفه قبل أن ينطق:

-الحمد لله، الفلوس رجعت، كنت هاروح في داهية.

رددت مستفهمةٍ وقد دنت منه:

-هي دي فلوس الشغل اللي قولتلي عليها.

هز رأسه بالإيجاب وهو يرد:

-أيوه يا "حمدية"، دي مرتبات الموظفين...

ابتسامة عريضة احتلت وجهه ليكمل بعدها وهو يهم بالتحرك:

-بس خلاص كله تمام، دلوقتي أطير أسلمها وأخلي مسئوليتي.
أوقفته من ذراعه وسألته بضيقٍ ظاهرٍ عليها قبل أن يتركها هكذا بين فضولها المتزايد:
-استنى بس وفهمني جوم إزاي وعملت إيه و...
قاطعها نافضًا قبضته عنه ليرد بنفاذ صبر:
-خلاص يا ولية، حلي عن نافوخي دلوقتي، أنا مش فاضيلك.
أصرت على عدم تركه، وأسرعت في خطاها لتغلق الباب، وقفت قبالة تسد عليه السكة،
وهتفت بعنادٍ أزعجه:
-لأ مش هاسيبك، هو أنا في الحزن مدعية والفرح منسية!!!
نفخ في استياءٍ وهو يعقب عليها:
-يا ولية بأقولك دي فلوس الشغل.
كتفت ساعديها أمام صدرها، ونظرت له غير مبالية لتضيف بعدها بالحاح:
-قولي الحكاية من طأطأ لسلامو عليكم الأول، عملت إيه في القسم، والفلوس دي رجعت إزاي.
تأكد "خليل" أن زوجته لن تتركه يخرج من المنزل دون أن تقف على أساس الموضوع، لذا أوجز
معها وأخبرها بالعناوين العريضة لما دار في الساعات الماضية، هزت رأسها في استحسان حين
سألها:
-ها ارتحتي كده؟
ابتسامة باردة تشكلت على شفيتها وهي ترد:
-ايوه.
نهرها بجدٍ بائنة:
-طب أوعي من سكتي.

اعتزضت طريقه مشيرة بكفها بعد أن حلت مرفقيها:

-اسمع بس، ما جازي ابن المعلم "بدير" يستقصدك ثاني، هو إنت ضامنه

استرعت انتباهه بجملتها المثيرة للقلق، واستطرد يقول:

-مش فاهمك، قصدك إيه يعني؟

أوضحت بروية وقد لمعت عينها بنخبها المعتاد:

-اللي زي ده نابه أزرق، ورد سجون، ومايعرفش يامه ارحميني.

نظر لها بتأفف، وقال:

-يا ولية احنا قفلنا اللي بينا خلاص، معدتش في حاجة، لا مصالح ولا خناقات.

وكانه أضاء عقلها الشيطاني بكلماته الأخيرة، فلمعت فكرة جهنمية في طيات عقلها، تحفزت هاتفة

بنزقٍ وقد زاد اتساع بسمتها الماكرة: ف

-تصدق، احنا ممكن نعمل مصلحتنا من الحكاية دي.

التوت زاوية فمه بابتسامة استجهان، وسألها باستخفافٍ استشعرته في نبرته:

إزاي

تفنجت "حمدية" بكتفيها، وسارت مبتعدة عن الباب لتقول له بأسلوبها البارع الذي تنجح به في

استدراجه إليها:

-بس هتمشي ورا كلاي الأول؟

وقع "خليل" في شباكها بكل سذاجة، والتفت نحوها يرد:

-أوزنه وأشوف إن كان ينفع ولا لأ

قهقهت ضاحكة كنوع من التعبير عن تفاخرها بأفكارها الجهنمية، ثم انتقت أقرب أريكة لتجلس عليها

واضعة ساقها فوق الأخرى، غاصت في مقعدها وصاحت مزهوة بنفسها:

-ده أنا حلولي هتاكلنا الشهد وتطلعنا في العلامي.

أسند زوجها الحقيية في حجره بعد أن جلس إلى جوارها، ركز كامل حواسه معها، وهتف كمن يسيل اللعاب من فمه:

-ها، قولي يا فالحة، أنا سامعك.

.....

سحبه من معصمه بشكلٍ غريبٍ محكمًا أصابعه الغليظة عليه بعد أن ابتعدا عن قسم الشرطة، وكأنه لا يريد إفلاته أبدًا إلى أن وصل به إلى دكانه، هناك دفعه بقساوةٍ وعنفٍ من جسده نحو الأقفاس المهملة بالداخل، استغرب المتواجدون بالمكان من ردة فعله الهائجة، ولكن لم يتدخل أحد. كاد توازن "ناجي" أن يختل من أثر الدفعة القوية لولا أن استند بيده على المكتب الخشبي، اعتدل في وقتته لكنه انتفض مذعورًا وقد أشهر "تميم" مديته التي يقطع بها ثمار الفاكهة في وجهه، أمسكه الأخير من تلايبه بعد أن انقض عليه، ثم دفعه مجددًا نحو الحائط ليحاصر صدره بذراعه، ثم وضع النصل الحاد على عنقه يريد نحره، ارتجف "ناجي" من تصرفه الخطير، وهتف بصوته المهزوز يرجوه:

-إنت.. بتعمل إيه بس؟ اعقل كده يا "تميم".

هدر به بجنونٍ شديدٍ وقد أربد وجهه بغضبٍ لا حصر له:

-ده اللي قولتلي هاتصرف فيه وأعمله؟

توسله برجاءٍ ونبرته ما زالت مرتعشة:

-اهدى بس، ده أنا صاحبك.

لكزه بعنفٍ في صدره قاصدًا لإيلامه، وواصل صراخه المنفعل به:

قولتلك حلها بالعقل، مش بالبلطجة وضرب الحریم!

أنكر تورطه في إيذاء "فيروزة" قائلاً:

-وأنا مجتثش جميعها، ولا حد من رجلي، كان الحوار كله مع خالها.

استفزه بقوله وشعر بدمائه المحترقة تندفع بقوة إلى رأسه المشتعل، وما زاد من وهج غضبه تجسد وجه "فيروزة" المتورم في مخيلته ليفقده عقلانيته، لكزه بقسوة أكبر وضغط على صدره ليزيد من إحساسه بالوجع، ثم هدر به صارخًا والنصل يهتز بين أصابعه:

-أومال اللي خالها عملوا فيها ده تسميه إيه؟

ارتعد "ناجي" من عصبيته البائنة، ازدرد ريقه وردد مستنكرا ومحاولاً في نفس الآن تبرئة ساحته:

-وأنا كنت هاعرف منين إنه هيعجنها؟ قولت هايتكلم كلمتين بالعقل معاها ويقنعها بالهدوء.

حدجه بنظرة مميتة كأنه يريد الفتك به، ورد عليه باستهجانٍ ساخط:

-يا سلام، يا برودة دمك يا أخي! إنت أغبي خلق الله.

لعق "ناجي" شفثيه قبل أن يضيف بحذر:

-أنا غرضي كان أقرص وذن الراجل وبس.

طاقة من الغضب نفذت من عينيه إليه، ثم رد عليه في تهكم صارخ:

-يا شيخ، يأنك تسرق الراجل وتلبسهالي أنا؟!

تدخل "محرز" قبل أن تسوء الأمور، وحاول إبعاد "تميم" من كتفيه ليخلص "ناجي" من برائنه وهو يرجوه:

-خلاص يا "تميم"، كل حاجة هنتحل، هدي أعصابك.

نفذ الأخير كتفيه عنه وتراجع بضعة خطوات للخلف، لكن ظلت مديته في يده .. تنفس "ناجي" الصعداء لتخلصه من عنف وتعسف رفيقه، تحسس بيده عنقه الذي جرح قليلاً، نظر إلى خط الدماء المطبوع على أصابعه بصدمة، كان بالفعل مهدداً منه، انتفض واكتسى وجهه بعلامات الرعب من جديد حين تقدم "هيثم" نحوه يقول بصوتٍ ميت:

-لو عاوزني أدخل يا ابن خالتي فأنا جاهز، خلي الطلعة دي عندي!

استدار "تميم" نحوه، ورمقه بنظرة صارمة من عينيه المحترقتين، لم يجذب مطلقًا اللجوء للغير لفض نزاعته الذكورية، يكفيه محاولة واحدة فاشلة تورط فيها وجرت عليه مصائب أخرى، قست تعابيره وقال له ملوحًا بذراعه:

-لا سيدي، مش عاوز خدمات من حد.

احتدت نظرات "هيثم" من أسلوبه الجاف معه، وتجهمت قسامته وهو يعاود التراجع للخلف، ي حين راقب "بدير" ردادات فعل ابنه بجذري، وبثباتٍ وتؤدة تقدم نحوه ليقف بجسده الشامخ بين الاثنين المتلاحمين، وزع نظراته بينها قبل أن يقول بصوته الأجش:

-اعتبره موضوع وراح لحاله.

نظرة مستنكرة كست عينا "تميم" بعد تلك الجملة، ازداد حنقه، وهتف محتجًا وعروقه النابضة قد اشتدت بشكلٍ أكبر:

-يا بابا لأ، كده حرام، واللي حصل مع البت دي كان بسببي في المرتين، حتى لو مكوتنش أعرف، أنا اللي محتوقلها دلوقتي.

وقبل أن ينطق والده بكلمة بادر "ناجي" مبررًا عله ينجح في ضمه إلى صفه:

-يا حاج "بدير" أنا فكرت رجالي هيحلوها ودي، هما جودوا من عندهم، دي دماغهم وده تفكيرهم.

علق عليه "تميم" وعيناه تقدحان بغضبه الشديد:

-أه طبعًا، ما إنت باعت شبيحة وولاد ليل يتصرفوا، طبيعي حلهم زهم.

هتف "محرز" وهو يشير بيديه لكليهما:

-نهدي بس يا رجالة، وكل حاجة وليها حل.

ثم اتجه نحو "تميم" يدفعه برفقٍ من كتفه ليحثه على المشي - وهو يغمغم في أذنيه بكلماته المستهلكة عله يمتص غضبته الثائرة، سحب الأول مقعدًا وأسنده خارج الدكان دون أن يستمع له، ثم جلس عليه وقد وضع سيجارة بين شفثيه، أخرج "محرز" ولاعته وأشعلها له وتلك الالبتسامة اللزجة

محفورة على وجهه معتقداً في نفسه أنه خير العائلة النفسي - الناجح ذو الخبرات العريضة والتي من خلالها يُطبع الأمور المستعصية. تركزت الأعين كلها فجأة على ذاك المنادي بالصوت الراجي من بعيد:

-يا حاج "بدير"!

هب "تميم" واقفاً حينما رأى "خليل" مقبلاً عليه، بدا متحفزاً للغاية، جسده متصلب، وكتفاه مشدودان، توقف الضيف ليتلقت أنفاسه وصوته ما زال ينادي:
-حاج "بدير"، أنا واقع في عرضك.

تحرك "بدير" في اتجاهه والدهشة تحتل قسماً كبيراً من ملامحه، قطب جبينه مردداً في تعجب:
-"خليل"!

كاد الأخير ينحني على يده يقبلها في توسلٍ قبل أن يسحبها سريعاً ليقف بعدها في خزيٍ وهو يستميل مروءته بكلماته المستعطفة:
-بالله عليك ما تردني مكسور الخاطر.

-استغفر الله العظيم

قالها "بدير" وقد تراجع خطوتين للخلف.. حضوره المفاجئ استثار "ناجي" الذي لم يفق بعد من محاولة اعتداء رفيقه عليه، كانت فرصته ليصب غيظه المكبوت عليه، لذا خطا ناحيته يصيح به بشدة وهو ينعته بالفاظ مهينة:

-في إيه تاني يا ؟ فلوسك مش رجعتك، ولا جاي ترمي بلاك هنا!

رفع "بدير" يده يحدره بلهجته الصارمة:

-متدخلش يا "ناجي"!

هز رأسه بانصياع وقد أرغم على طاعته، لكن بقيت نظراته الحادة مثبتة على وجه "خليل" اللئيم، حتى "تميم" زاد شعوره بالعدائية نحوه، لم يكن مُديئًا له بشيء، بل على العكس كان يكن له غضبًا متعاظمًا، لذا هدر فيه بخشونة:

-إنت جاي تعمل دور هنا ولا إيه؟

اهتز بدن "خليل" من صوته الجمهوري المتعصب، وأدار رأسه لينظر في خوفٍ إلى "بدير"، وكأنه يطلب نجاته، استجاب له الأخير وهتف بلهجته الصارمة الراضية للجدال:

-ما سمعش نفس حد هنا، هو أنا مش مالي عينكم؟!!

قال "تميم" على مضضٍ وهو يكور قبضة يده:

-تفضل يا بابا.

استقام "بدير" في وقفته المهيبية، وتطلع من جديد إلى "خليل" بنظراته المتفرسة قبل أن يسأله بهدوءٍ وروية:

-عاوز إيه؟

اختلس "خليل" النظرات نحو الأوجه الحاققة المتطلعة إليه، وابتلع ريقه قائلاً بصوتٍ خفيضٍ يميل للانكسار:

-حاج "بدير"، أنا.. كنت آ...

عمد إلى اقتطاع جملته ليظهر ارتعابه مما دفع "بدير" للقول بنفس اللهجة النافذة:

-اتكلم متخافش، محدش هيعملك حاجة!

وكانه اكتسب حماية مطلقة بتصريحه العلني، تشجع في وقفته وانتصب كتفاه قليلاً، ثم قال بنبرة تعبر عن تعاسة واضحة متممداً أن ينظر إلى موضع قدميه:

يا حاج، احنا ناس غلابة، جيران من زمان وإنت عارفنا أبا عن جد، وطول عمرنا ماشيين جمب الحيط، ومالناش دعوة بجد

أوماً برأسه يرد عليه ويداه قد ارتكزتا على رأس عكازه:
مضبوط.

ابتلع ريقه بعد أن استجمع جأشه قليلاً ليضي في حديثه قائلاً:
البت مقصوفة الرقبة بنت أختي مكاتش تعرف هي بتعادي مين، وأنا رجعتلها عقلها، وندمت
على هبلها، بس آ...

بتر عبارته من جديد ليستثير فضوله، فهتف "بدير" يسأله:
قول.. في إيه؟

كانت كل الآذان تصغي إلى ما يقوله بالرغم من مشاعر الكراهية والحنق التي تملأ الأجواء، ومع
هذا حافظ "خليل" على قناع الوجه المنكسر - الذي يرتديه مسـتمتعا بترقبهم، حانت فرصته الثمينة
ليغتمها، تلك الفرصة التي لا تأتي في العمر مرتين، أخفض رأسه ليظهر خذلانه، وقال بنبرة أقرب
للتسول واستجداء الإحسان:

هي كانت بتساعد أمها وأختها من القرشين اللي بيطلعولها من العربية، ما هما أصلهم يتامى
ومكسورين الجناح، وأنا زي ما إنت عارف موظف ومرتبى على أدبي، يدوب مكفي بيه الجماعة
بتوعي والعيال اللي مصارينهم ما بتخلصش، وبعد اللي حصل ده، والخراب اللي جه علينا، ف...
فيغني آ...

فطن "تميم" لأسلوبه الملتوي لطلب المساعدة، فقال بنزق:

أنا عرضت عليها تعويض، وهي موافقتش!

تفاجأ الحضور بما فعله في الخفاء ونظروا إليه في حيرة واستغراب، لكن كان "خليل" الأكثر صدمة
بينهم، همس لنفسه في غيظ:

آه يا بنت الكلب، ومقوليتش!

حاول أن يحافظ على انكسار نظراته وذبول صوته وهو يكمل:

-كثر خيرك يا معلم "تميم"، أصل احنا نفسنا عزيزة، وآ.. وماقبلش ناخذ فلوس كده من غير ما نتعب فيها.

زجره "هيثم" قائلاً بنفاد صبر بعد أن مل من ثرثرته الطويلة:

-قول دوغري إنت عاوز إيه، ورانا أشغالنا ومش فاضينلك.

ابتلع "خليل" ريقه وهو ينظر إليه في توتر، عاد ليحدق في وجه "بدير" وردد بتلثم:

-حاضر..

ثم سحب شهيقاً عميقاً لفظه دفعة واحدة قبل أن يتابع بنفس اللججة المفتعلة:

-يعني لو.. تكلمنا يا حاج "بدير" عم "فايد" يأجرنا المحل اللي على ناصية الشارع، وتضمننا عنده بكلمتك اللي زي السيف إنه يصبر بس عليا في العربون والمقدم كام شهر لحد ما أفتحه وأسترزق منه، وبعد كده أسدده الفلوس، ما إنت كبيرنا، والحال واقف معانا، وأكيد ميرضكش قطع الأرزاق!

أسبل عينيه ليراقب ردات الفعل المرسومة على الأوجه، لكن كان جل من يهيمه هو صاحب المال، نكس رأسه في تواضع وهتف يرجوه وهو يشير بيده:

-واللي هتأمر بيه يا حاج فوق راسي.

مط "بدير" فمه يفكر في طلبه الغريب، ثم حسم أمره قائلاً:

-ماشى، معنديش مانع.

ذهل الحاضرون من موافقته، والتي بدت كما لو كانت قد أعدت مسبقاً، ومع هذا لم يجرؤ أحدهم على الاعتراض عليه، هلل "خليل" في سعادة غامرة:

-الله يخليك يا حاج "بدير"، ده احنا مالناش بركة اللي إنت، وأنا هامشي— في الحتة كلها أقول للناس على معروفك معايا.

تابع "محرز" المشهد الهزلي المكشوف بنظراتٍ ثابتة وابتسامة مهترئة، لم يكن ساذجًا لتلك الدرجة لتنطلي عليه تلك الحكايات المستهلكة التي يملها عليهم "خليل"، كان أكثر إحساسًا بلؤمه، حيث قابل عشرات الأشخاص من صنفه المتغذي على الآخرين، وبالتالي لم يتعجب من تسوله السخيف، لوهلة ومض عقله بفكرة مأكرة، ربما ستساعده في تنفيذ شيء لطالما خطط له، لكنه تعثر بسبب مستجدات الأمور .. وبساجدة مصحوبة ببسمة مصطنعة هتف ملوحًا بيده:

تسمحلي يا حاج أقول حاجة كان

التفت "بدير" برأسه نحوه مرددًا:

خير يا "محرز".

تنحج بصوتٍ عالٍ، ووزع نظراته على الجميع قبل أن يستطرد:

أنا عندي اقتراح تاني يا حاج، هيفرق معانا ومع سمعتنا في الحقة بعد اللي حصل يعني

صاح "خليل" من تلقاء نفسه:

قطع لسان اللي يجيب سيرتك بكلام بطل، ده إنتو ولاد أصول!

نظر له "بدير" في امتنانٍ معقبًا:

متشكرين، ها قول يا "محرز".

دار الأخير حول الواقفين بخطواتٍ متريئة يراقب نظراتهم كلاً على حدا، وكأنه أفعى سامة تتلوى

لتنقني ضحيتها التالية، ثم أضاف:

إنت عارف إن الناس ما بتصدق تلاقي حاجة وتعمل منها حكايات وروايات، فاحنا هنسكتهم

باللي ما يخليهمش يتجرأوا يفتحوا بؤهم أبدًا

أثار فضولهم بكلماته ذات الدلالات الغامضة، وتابع بنفس الأسلوب المشوق:

ده غير إن الكل هيتأكد إن مقام الحاج "بدير" ابن الحاج "سلطان" فوق الكل.

رد عليه "خليل" متخذًا نفس الأسلوب المدعم:

-مقام الحاج كبير طول عمره، هو حد يستجري يقول غير كده؟
حدج "تميم" الاثنين بنظراته النارية المتمرمة، وهتف يسأله بضيق واضح:
-ما تقول يا "محرز" اقتراحك إيه! بلاش لف ودوران
هز رأسه بإيماءة إيجابية، ثم أدار رأسه في اتجاه "خليل" ليسأله:
-إنت بنات أختك دول متجوزين يا "خليل"؟
بدا مأخوذاً من سؤاله الغريب، وقال في ترددٍ طفيف:
-هاه .. لأ

برقت عينا "محرز" حين قال له موضحاً:
-خلاص، يبقى محلولة، احنا عندنا عريس لواحدة فيهم.
بهم مفتوح ووجهه مشدوه ردد "خليل" عالياً:
-عريس!!!

.....

على جمرات مشتعلة ظل يدور ويتحرك بطاقة مضاعفة في الدكان مدعيًا انشغاله بمتابعة عماله أثناء تفريفهم للثمار الطازجة وتخزينها بالثلاجة التي تحتل القسم الخلفي من المكان، حاول "تميم" إشغال نفسه وإضاعة الوقت ليلتهى عن التفكير في ذلك الاقتراح الصادم ريثما ينفرد بوالده، لكن عقله أبي الإنصات وألح عليه بهواجسه المعقدة، لم يكن ليتصور أن يحظى ابن خالته الأرعن بـ "فيروزة" إن جاء نصيبها معه وإن كان الخلاف يجمعهما، لوهلة تخيل أنها تخطب إليه ويقترن اسمها به، شعر بمعدته تتقلص وكأن النيران قد اضطرت في أحشائه، رفض استيعاب الفكرة ونبذها عقله بشدة، بل أحس بدمائه تفور لمجرد طرح الفكرة، حاول تهدئة نفسه وإفراغ المشاعر المكبوتة فيه بأداء الأعمال الشاقة بنفسه آملاً أن تخور طاقته المستثارة .. وما إن تحقق مراده وأصبح والده جالساً بمفرده حتى أقبل عليه حاملاً كرسيه الخشبي في يده، أسنده إلى جواره، وسأله بصوته المتجهم:

-إنت عاجبك الكلام اللي "محرز" قاله ده يا حاج؟

بساطة شديدة وهدوء مبالغ فيه رد عليه "بدير":

-والله مش عيب ولا حرام، هو بيتكلم بالعقل.

هتف محتجًا بشدة ونظرات الاستنكار ظاهرة عليه:

-جواز إيه ده، لأ ول "هيثم" كان؟

علق بهدوئه المعتاد:

-محدث يقول للحلال لأ، وبعدين مسيره في يوم هايتجوز، وأكيد لما يلاقي نفسه شايل مسئولية بيت وعيال هيعقل.

قال معترضًا عليه ومستنكرًا استهائته بتلك المسألة المصيرية تحديدًا:

-اللي فيه طبع ما بيتغيرش ياأبا، متصدقش إن ابن خالتي ده حاله هينصلح.

تهد "بدير" ناطقًا:

-أدينا بنديله فرصة.

صاح في عصبية وقد اختلج وجهه حمرة غاضبة:

-ونظلم بنات الناس معاه؟

التفت "تميم" كالمسوع فجأة حينما قال "محرز" بساجمة وقد فرض نفسه عليهما:

-إنتو بتتكلموا عن جواز "هيثم"

هب واقفًا ليرد عليه بنظراتٍ يملأوها الإظلام:

-أيوه، أنا مش موافق على اللي قولته

رد يسأله ببروده السخيف:

ليه بس؟ إنت تكره الخير لابن خالتك؟ ده إنتو لحم ودم!

كان "تميم" سهل الاستفزاز، سريع الغضب، وبذل أقصى - ما يستطيع ليظهر هدوئه، لكن لم تتطاوله رداً فعلة .. استغرب "بدير" من حمية ابنة الزائدة، ومع ذلك قال له معللاً تشجيعه لذلك الاقتراح:

-يا ابني الجواز سترة للبنات في الأول وفي الآخر، ربنا يقدم اللي فيه الخير للجميع.
بينما أضاف عليه "محرز" متشجعاً:

-أحنا مش خسرانين حاجة، مسير "هيثم" كان هايحي للحاج ويقوله عاوز أتجوز، وبعدين هما ناس غلابة وهيرضوا بأي حاجة.

اغتاظ "تميم" من تدخله وكلامه المستفز فنهره بتزمت:

-بلاش تتحشر، وسيني أخذ وأدي مع أبويا!

نظر له في ضيق، وقال معانداً له:

-أنا نيتي خير، والحاج عارف إن يهمني مصلحة الكل.

وقبل أن يثور عليه مجدداً صاح "بدير" فيه منهيًا الجدل بينهما:

-خلاص يا "تميم"، كلام "محرز" موزون، وفيه الصالح.

أصر على احتجاجه قائلاً بوجه متصلب:

-مش مع "هيثم"، أنا عارف طبعه.

وقف "بدير" لتصبح نظراته نافذة له، ثم حذره بلهجته الصارمة

-وأنا الشبية اللي على راسي دي مش من قليلة، ومش هارضى بحاجة فيها أذية لمخلوق.

لامس "محرز" بوادر أزمة وشيكة، فهتف بسماحته وهو يفتعل الضحك:

-يا عم "تميم" ده الحاج "بدير" هايقتي ظهر ليه، هو حد يطول يناسب الجاه والنسب ده.

أدرك "تميم" أنه لن يصل لشيء في نقاشه العقيم، فقال مستسلماً وهو يدير ظهره لل اثنين ليعود للداخل:

-اعملوا اللي يريحكم.

راقبه "محرز" بعينين ثاقبتين تضمران خبثًا خفيًا، أخفض رأسه وقال بعبوس زائف:

-والله يا حاج أنا غرضي مصلحة الكل

زفر "بدير" ببطء قبل أن يرد عليه:

-أنا عارف يا "محرز"، وفاهم قلق ابني، بس عشمي في المولى كبير

عادت البسمة لتشرق على محياه من جديد وهو يعقب عليه:

-إن شاء الله مش هايحصل غير كل خير يا حاج .. ولا إيه!

برقت حدقتا "محرز" بذلك الوميض غير المريح وقد بدأت ملامح خطته المعدلة تدخل في حيز التنفيذ.

.....

صداقة ممتدة وغير معلومة جمعت بين ثلاثتهم حرصوا فيها جيدًا على إخفائها ليبدو أمام العيان كغرباء يجمعهم النسب والمعرفة السطحية لا كرفقاء قدامى دمغوا أحلامهم بسبب فقرهم المدقع .. وفي ذلك المنزل المتهاك حيث يسكن "نوح" جلسوا سويًا بعد أن وضبوا ما يحتاجون إليه لتكتمل جلستهم الترفيهية ..

-إنت بتورطني يا "محرز"؟ هو أنا كنت ناقص بلوى!

تساءل "هيثم" بهذه الكلمات الناقمة وهو ينفث دخان نارجيلته دفعة واحدة في الهواء ليعبق بها الغرفة شبه المعتمة، حانت منه نظرة محتدة نحو "محرز" الذي بدا في أوج هيمنته وهو يستمتع بتدخين سجائره غير البريئة، أخرج سحابة كثيفة من جوفه، واعتدل في جلسته على المقعد الجلدي المتآكل أطرافه ليقول بخبث، وكأنه بذلك يحمسه على القبول:

-ياض افهم، هتطلع بسبوية حلوة من ورا الجوازة دي.

زوى ما بين حاجبيه متسائلًا:

إزاي؟

أجابه بلووم:

-يعني هتعرف تسحب فلوس من جوز خالتك على حس إنك متجوز وفتح بيت ومصاريك كثير ومش مقضية، واللي معرفتش تاخده وانت لوحده، هتاخده دلوقتي براحة راحتك، ومن غير ما حد يحاسبك ولا يذلك.

كركر "نوح" ضاحكاً وهو يرص حجر الفحم على ناريجيلته لتزداد توهجاً، ثم هتف يمدح عقله الداهية:

-يخربيت شيطانك، إبليس قاعد معانا!

التفت "محرز" نحوه ليسأله في تباؤ واضح:

عجبتك يا "نوح"؟

هز رأسه يثني عليه في إعجاب:

-دماغ يا "محرز"، كلنا لازم نتعلم منك، حتى الشيطان

شعر بالانتشاء من مدحه المبالغ فيه، وقال مجاملاً:

شُكر يا حبيبي.

ألقى "هيثم" بخرطوم النارجيلة في عصبية، وانتفض بجسده يقول مقرراً:

-وأنا مش عاوز أتجوز

مال "محرز" نحوه محاولاً إقناعه باللين:

-اسمع بس وبلاش قفش يا عمنا ..

نفخ الأخير في استيائه وأشاح بوجهه للجانب الآخر، لم يبدُ "محرز" من ذاك النوع اليأس المستسلم، كان مثابراً لأقصى الحدود، سحب نفساً عميقاً من سيجارته، ثم استند على مرفقه

ليساعده على تحريك جسده المتراخي ناحيته، وما إن بدا قريباً منه حتى مال عليه، ووسوس في أذنه ليقتعه:

-لازماً تعمل كده، ده لو عاوز ترجع حق أبوك، دي السكة اللي هتدخل منها ليهم، ومن غير سجن ولا بهدلة أقسام، ولا حد يتحكم فيك!

نظر له على بعينه المجهدتين، وسأله مباشرة:

حطب أنا هتنيل أتجوز، إنت بقي هتستفاد إيه؟

أراح "محرز" ظهره المتعب وأرجعه للخلف ليغوص في المقعد أكثر مستمتعاً بمذاق التبغ المطعم بذلك المخدر في جوفه، فرد ساقه وفرك بيده -وفي حركة دائرية متعاقبة- ركبته قبل أن يجيبه بنوع من المراوغة وتلك النظرات الشيطانية الماكرة تملأ حدقتيه:

-بعدين .. كلها مصالح في الآخر.

.....

وأخيراً ابتسم الحظ له، بل فتحت الدنيا أبواب سعادتها على مصراعها بذلك العرض غير المتوقع من "محرز"، كاد "خليل" أن يتخلى عن وقاره الزائف ويرقص طرباً في الشارع كتعبير عن فرحته الغامرة، حتى أنه اعتقد في نفسه بكونه قد بات شريكاً في أموال عائلة "سلطان" الثرية، لا يشكل أي فارق معه إن كان قريبه "هيثم" فقيراً معدماً أم لا، المهم أنه سيصير نسيباً لتلك العائلة ذائعة الصيت والغنى، تبقى أمامه مهمة شاقة؛ ألا وهي إقناع إحدى الفتيات بالارتباط به، بالطبع لم يكن ليجرؤ على مفاتحة أخته أو ابنتيه دون الرجوع أولاً لرأس الأفعى والعقل المدبر؛ "حمدية"! استشارها في تلك المسألة الحيوية، وقالت له بمكرها المعتاد:

-إنت ماتديهومش فرصة يفكروا، اعتبر رأيهم تحصيل حاصل

تطلع إليها متسائلاً:

-أقصدك أجبرهم؟

هزت برأسها مؤكدة:

-أيوه، أومال تسبيهم يقولوا أه يا لأ، وتضيع من إيدينا الفرصة دي؟ كام مرة حد بيناسب عيلة زي دول!

كان مقتنعًا بكل ما ينطق به لسانها لكونه يشجع طمعه المادي، سال لعبه ورد مؤيدًا:

-معاك حق، أنا هالسلهم الوش الخشب، وإياكش يولعوا.

اتسعت ابتسامتها اللثيمة وهي تقول بقلب يشتعل حقدًا وبغضًا:

-الله ينور عليك، دول ما ينفعش معاهم إلا كده.

.....

ظنت أنه قد جاء لرأب الصدع مع ابنتها، وخاصة المكلمة "فيروزة"، حين جلس يبادلها الحديث الودي وينال على أذنيها بكلمات عطوفة حانية مذكرا إياها بصلة الرحم ورابط الدم، توسمت فيه خيرا بسجيتها النقية غير متوقعة الشر - الكامن خلف قناع اللطف الذي ارتداه .. أعدت "آمنة" كوبين من الشاي وأضافت نكهة القرنفل عليه، ثم عادت إلى أخيها، وأسندت الصينية أمامه لتجلس بعدها على مقربة منه، وتتلاذذ واضح على تعابير "خليل" المسترخية بدأ يتناوله رشفة تلو الأخرى محدثًا صوتًا شبه مزعج، رفع عينيه إليها ونظر لها مليًا قبل أن يستهل حديثه قائلاً:

-شوفي يا "آمنة" الموضوع اللي جاي أكلمك فيه النهاردة ده عشان مصلحة البنات قبل أي حاجة، مهما حصل بينا فهما لحمي وعرضي

ابتسمت ترد عليه:

طبعًا ياخويا، والضفر عمره ما يطلع من اللحم.

غاص في الأريكة وقال:

-وبما إني خالهم، والخال والد، فأنا هادور على اللي فيه الفائدة وأعمله.

شعرت بقليل من التوجس ينتابها، ومع ذلك التزمت الصمت ريثما يفرغ ما في جعبته، تنحنح "خليل" متابعا كلامه المرتب:

-دلوقتي في عريس متقدم لواحدة من بناتك، هو محدش مين اللي عاوزها بالضبط، بس يكفيكي
تعرفي إنه ابن الحسب والنسب، وهيعيشها في نعيم وعز ماكنتش تحلم بيه.

ارتفع حاجباها للأعلى في دهشة كبيرة، ورددت بضم مفتوح:

عريس!!

قال بهدوئه المريب:

-أيوه.

ابتلعت ريقها وسألته:

-مين ده؟

أجابها بزهو غامض وهو ينتصب في جلسته:

-قريب الحاج "بدير".

انقبض قلبها في خوفٍ وقد لاحت مشاهد تهديدات "ونيسة" حين أتت لزيارتها في مخيلتها لتصيبها
بالهلع، تشتت تفكيرها، ولطمت على صدرها في استنكارٍ قبل أن تهب واقفة لتبدي اعتراضها
الكلي:

قريبه؟ يا نصيبتي؟ واحنا إيه اللي يشبكنا مع الجماعة دول بالذات، أنا مصدقت بعدنا عنهم،
وكفاية اللي حصل لبناتي!

نظر لها "خليل" في غيظٍ بعد أن أفصحت عن رأيها بصراحة، ومع هذا قال ببرودٍ وقد قست
تعايره:

-بناتك اللي غلطانين من الأول، وبعدين المفروض يحمدوا ربنا إني بأصلح وراهم، مش بدل ما الحنة
كلها تعاديننا بسبب قرفهم؟

ردت عليه محتجة:

-هما خلاص اتعلموا من اللي حصل، وكفوا خيرهم شرهم و...

قاطعها بتزمتٍ وقد أظهر لها تشدده:

أنا اديت للراجل كلمة ومش هارجع فيها!

سألته في لوعةٍ وعلامات الجزع تكسو وجهها:

قصدك إيه يا "خليل"؟

نهض من مقعده ليقول بحسم:

-يعني أنا وافقت على جواز واحدة فيهم لقريبه ده، ومش هارجع في كلايي مهما حصل!

لم يدِرِ "خليل" أن ابنتي أخته كانتا تتلصصان على حوارهما المحتد، سيطر على الاثنتين حالة من الدهشة والصدمة المستنكرة، تبادلنا مع بعضهما البعض نظرات مذعورة متوترة، لكن أبت "فيروزة" البقاء منزوية بالداخل .. فاض بها الكيل من تدخله السافر في شئون حياتها الخاصة، بل وتقرير مصير مستقبلها بكل هذا التعنت، لم تقبل بالخنوع أو الإذلال أكثر من ذلك، خرجت إليه مندفة في عصبيةٍ وقد اختلج وجهها بحمرته الغاضبة، تقدمت نحوه حتى أصبحت على بعد خطوات منه، زجرته قائلة وتلك النظرات النارية تحتل حدقتها:

-من غير ما تاخذ رأينا؟

نظر لها باحتقارٍ قبل أن يرد:

-رأي إيه تاني بعد اللي هببتوته؟ ده كتر خيرني إني عمل كده!

صاحت فيه "آمنة" كأنها تلومه:

-إنت كده بتبيع بناي بالرخيص!

التفت ناحيتها برأسه ليرد ببرودٍ ساخر:

-لأ بالغالِي يا ناصحة، وهما مسيرهم كان للجواز، ولا هيفضلوا كده أعدين عوانس جمبك؟

ارتفع الكدر في عيني "آمنة"، وأصابتها تعاسة لا حصر لها، سارت في تخاذل لتجلس على الأريكة

وقد شعر بثقلٍ في قدميها، تدخلت "همسة" في الحوار المحتدم وقالت بضيقٍ كبير:

-بس مش بالشكل ده يا خالي، ده احنا منعرفش شكله ولا بيعمل إيه ولا معاه شهادات ولا آ...

قاطعها بشبح ابتسامه ماكر لاح على زاوية شفثيه:

-كفاية إنه من طرف الحاج، هتعووزوا إيه تاني؟

وما لبث أن تحولت نبرته للإهانة وهو يكمل:

ده إئتو شوية وهتشحتوا، بوسوا إيدكم وش وضر إن في حد راضي بيكم!

كانت كلماته كالسوط اللاذع تهبط على أجسادهن فتحرقهن بقسوتها ومرارتها، احتجت أخته بشدة وجسدها ينتفض في عصبية:

-يعني عاوزني أرمي بناتي كده في الشارع؟ يرضي مين ده يا ناس؟

أسرعت نحوها "همسة" لتهدئها وجلست على مسند الأريكة لتمسح على كتفها وجانب ذراعها في رفق، بينما نظر "خليل" لأخته بعينين قاسيتين وهو يصحح لها:

-دول جيرانا من زمان، واحنا عارفينهم كويس، دلوقتي بقوا ماينفعوش ومن الشارع، هو حد يطول أصلاً يناسب عيلة "سلطان".

ردت عليه بنبرة أقل حدية لتسترق قلبه:

على عيني وراسي الكلام ده، بس مش ده اللي اتمناه ليهم.

نفخ هاتفاً بنفاذ صبر:

-بأقولكم إيه، أنا خدت قراري خلاص، واحدة فيهم هتتجوز قريب الحاج، ومافيش نقاش في الموضوع ده

هدرت فيه "فيروزه":

ده ظلم، وانت بتجني علينا.

قال لها وهو يتنفس أنفاس الضيق محاولاً ألا يثور حتى ينجح في مسعاه:

ده جواز، مش حكم بالإعدام يا بت.

ردت عليه في تشنج:

-لأ، أسوأ..

هتف بجبث:

-ده إنتو هتستفيدوا، فتحي مخك يا غبية!

توحشت نظراتها من جملته الأخيرة التي تضمنت إيجاءً خاصاً استطاعت أن تستشف المغزى الخفي ورائه، وبكل نزقٍ قالت له وكأنها تفضحه:

-تلاقيك إنت اللي طالع منها بمصلحة!

اتسعت عيناه في حنقٍ من وقاحتها الفظة، وقبل أن يرد عليها لإخراسها بصرايمته وتعسفه -البدني والمؤذي- هتفت "همسة" من الخلف بصوتٍ مرتفعٍ تعمدت أن يصل صدها للجميع:

-أنا موافقة أتجوزه يا خالي !!

.....

الفصل العشرون

سكون مريب وحائر محمل بعشرات الأسئلة ساد في المكان للحظاتٍ معدودة حتى يستوعب الجميع حجم المفاجأة التي حلت على رؤوسهم حين أعلنت موافقتها على الزواج من ذلك العريس المجهول الذي لم تلتقيه بعد، تطلعت "آمنة" إلى ابنتها مذهولة بعينين متحسرتين وكأنها تلومها على قبولها بعرض الزواج، تحاشت "همسة" النظر إليها حتى لا ترى نظراتها المعاتبة، ونكست رأسها، في حين احتقن وجه "فيروزة" على الأخير، وبدت كبركانٍ ثائر ينذر بانفجاره الوشيك، شعرت بدقات قلبها تتسابق لتزيد من حالتها الهائجة، بدا صوت أنفاسها المتهدجة مسموعًا، اقتربت من أختها وأمسكت بها من ذراعها لتجبرها على النظر إليها، ظلت جامدة كالصنم وكأن جسدها تخلى عن روحه .. بالطبع كان "خليل" هو الوحيد الفائز في تلك الجولة المحسومة منذ البداية، وإن جاء انتصاره بمحض الصدفة ودون عناء، هلل بسعادة غامرة وقد انفرجت أساريره:

على بركة الله، هاكلم الجماعة وأظبط معاهم كل حاجة وأعرفكم...

ثم ألقى نظرة سريعة على ثلاثهن تعكس لمعان حدقته قبل أن يتابع:

-وانتو جهزوا نفسكم، خلينا نفرح بقي.

لم يضيف المزيد، وانصرف من المكان صافقًا الباب خلفه، حينها هتفت "آمنة" وهي تلطم على خديها:

-عملي كده ليه يا "همسة"؟ ردي عليا

أخفضت رأسها ولم تجرؤ على النظر نحوها، في حين تابعت نديها المصدوم:

-هو أنا قصرت معاك في حاجة؟ بترمي نفسك في النار ليه يا ضنايا؟ حد طلب منك توافقي؟ ليه توقعينا من خالك، وهو مايرحمش!

غطت "همسة" أذنيها بكفيها حتى لا تسمع المزيد من عباراتها اللائمة، وأطبقت على شفيتها بقوة وهي تجاهد ألا تنظر ناحيتها، نعم اتخذت قرارها في لحظة متهورة ولا تريد من أحد أن يلومها، شعرت بالألم يحتاجها، بصدرها يختنق، بالعبرات تتجمع في مقلتيها، شهقة خافتة انفلتت منها حينما

قبضت "فيروزة" على رسغها وجذبتها عنوة لتسير خلفها، أدخلتها إلى غرفتهما، وأوصدت الباب خلفها، ثم هتفت تسألها بكل ما يعترها من غضب، وحنق:

-إنتي اتجننتي يا "همسة"؟

نظرت لها في حزن، وحافظت على صمتها الاضطرابي حتى لا تفصح عن أسبابها، لم تقبل "فيروزة" بسكوتها، فهزتها بعنف وهي تواصل صراخها بها:

-إزاي توفقي على العريس ده؟ هو إنتي تعرفيه أصلاً؟ اتكلمي يا "همسة"، فهميني!

نفضت قبضتها عنها، وردت بجدّة وهي توليها ظهرها لتتجنب نظراتها المحتدة:

-أهوو اللي حصل.

دارت حولها لتغدو في مواجهتها، وقالت بتهمك:

-أكيد مخك جراه حاجة، ما هو دي مش تصرفات ناس عاقلين.

سحبت "همسة" شهيقاً عميقاً تخفف به الغصة التي تعصف بجلقتها، وردت في مرارة:

-ده أحسن حل يريح الكل.

نهرتها بقسوة:

محدث طلب منك عملي كده، مش أي حاجة خالك يقولها نوافق عليها، ده مستقبلك يا "همسة"!

نظرة حذرة رمقتها بها قبل أن تجلس على طرف الفراش، تحركت "فيروزة" لتقف من جديد أمامها، واستأنفت هجومها الشرس عليها علها تفيق من أوهامها:

-إني بترمي نفسك في النار مع ناس مايرحموش، إنتي شوفتي بنفسك عملوا فيا إيه، وأنا مش هاستناكي تضييعي، مش هاسمح بده لو فيها موتي..

غامت عينا "همسة" وهي تحديق بها، اقتحم مخيلتها المشاهد العنيفة والمؤلمة التي تعرضت ككتاهما لها، لن تسمح بتكرار ذلك الأذى الدامي مهما كلفها الأمر، نفضت ذكراهم عن عقلها وحاولت جمع سعادة غير موجودة لتقول بابتسامه باهتة:

يا ستي أنا مبسوطه، خالك قال إنه عريس كويس، وأهله معروفين في المنطقة، يعني فرصة حلوة ماترفضش

رفت على شفتيها ابتسامه ساخطة مستهزأة قبل أن تتلاشى لتعاود تعنيفها:

-إنتي مستوعبة اللي بتقوليه؟ عاوزة تقنعيني بحاجة إنتي أصلاً مش مصدقاها!!

وفجأة هتف بنبرة عازمة وقد قست تعابرها:

-أنا هاطلع أقول لخالك إني رفضتي.

هبت واقفة لتمسك بها من ذراعها، وتوسلتها:

-لأ يا "فيروزه"، ده قراري ومش هارجع فيه.

هتفت بها بنبرة أقرب للصراخ:

ليه؟ فهميني؟

قالت بآلم وقد ارتخت قبضتها عنها:

-أهوو كده وخلاص.

أمسكت بها "فيروزه" من كتفها، وتطلعت إليها في قوة قائلة لها:

-والله؟ من غير أي سبب، يبقى إنتي مش في وعيك وأنا هاتصرف!

همت بالتحرك لكن اعترضت "همسة" طريقها ورجتها من جديد:

-استني يا "فيروزه"!

قالت معاندة طلبها:

لأ، مش هاستنى، ولو إنتي مش صعبان عليكي نفسك فأنا مش هاسيبك تضحي بنفسك حتى لو عشاننا

هتفت بإصرار:

-ماتضغطيش عليا يا "فيروزة"، أنا مش هارجع في كلاي مهما حصل.

ردت عليها في عندٍ أشد منها:

-إنتي مش واعية للي بتعمليه، محتاجة حد يفوقك و...

لم تكن "همسة" مثلها قوية الشيكمة، بل أضعف ما يكون لتتحمل مثل تلك الضغوطات المعاتبة، لذا انفجرت تبكي في صراخ لتبوح بما يجيش في صدرها:

-وأنا مش هاستحمل أشوف خالك بيمد إيدته تاني عليكي أو عليا، وأمك واقفة بينا مش عارفة تعمل إيه، أيوه أنا وافقت أتجوز عشان ألاقي سند لينا، احنا طول عمرنا لوحدنا، خالك عمره ما هيكون الحماية ولا الأمان، ومع أول مشكلة هيدوس علينا زي الغرب.

تفاجأت بانهارها، وضمتهما إليها بقوة لتحتويها حتى تهدأ، ثم مسحت على ظهرها بلطف وقالت:

-واحنا مش محتاجين حد، احنا جمب بعض وسند لبعض!

ردت عليها بصوتٍ مهتز وهي تحاول السيطرة على نوبة بكائها:

-أنا عارفة.. وبعدين خلينا نفرح، أنا عاوزة أتجوز، ودي فرصة كويسة، وبعدين كلها كام شهر وربنا يكرمني بعيال تبقي إنتي خالتهم.

بدت "فيروزة" غير مقتنعة بالمبررات الواهية التي تملأ بها مسامعها، كانت متأكدة أنها تختلق تلك الأعدار لتخفي معاناتها حتى وإن عاشت حبيسة تعاستها الأبدية.

.....

طرق بخفة على باب غرفته قبل أن يفتحه ويطل برأسه عليه ليتأكد من استيقاظه، ابتسم قليلاً حينما وجد "تميم" جده جالساً على مقعده الوثير بجوار النافذة، والمصحف الشريف بين يديه يقرأ

فيه بصوته الخفيض، دخل بهدوءٍ وأغلق الباب من ورائه، ثم تحرك صوبه وجلس عند قدميه ليستمع إلى ترتيله العذب، شعر بالسكينة تتغلل جوارحه، لحظات من الاطمئنان والدفء غمرت كامل جسده وأوقفت تدفق الأفكار المزعجة في رأسه، بدا في حالة استرخاء وراحة تمنى أن تطول فلا يعود للواقع القاسي. دقائق أخرى قضاها في حالة خشوع وإنصات حتى أنهى "سلطان" القراءة وأغلق المصحف ليقبله وتمسح بجبينه عليه قبل أن يضعه على الطاولة، أخفض نظراته إلى حفيده، وسأله بصوته الهادئ:

-إنت كويس يا "تميم"؟

أجابه بعد تهيدة مطولة مهمومة:

-لأ يا جدي.

سأله بتأن:

-مالك؟

أجابه ببساطةٍ وكأنه بذلك يفرج عن مكونات صدره:

-مخنوق.

دقق النظر فيه، وقال مباشرة:

-مراتك مزعلاك؟

أجابه نافيًا وقد بادر بالثناء عليها:

-لأ بالعكس، دي قايده صوابها العشرة ليا، بتعمل كل حاجة وأي حاجة عشان ترضيني.

رد عليه يدعو لها:

-ربنا يباركك فيها، أومال في إيه؟

جاوبه باختناقٍ ووجهه يعكس حزنًا غريبًا:

-حاسس إني متكتف، مش عارف أتصرف.

تركزت عيناه معه، وسأله مستوضحًا:

-وده من إيه؟ أبوك كان قالي إنك حلیم المشاكل إياها، في حاجة جدت تاني؟

رد بالنفي:

-لا.

طب في إيه؟

أجاب بعد زفيرٍ طويلٍ وبطيءٍ:

- "هيثم" ابن خالتي هيتجوز.

وكانه شعر بصعوبة الكلمات واختناقها وهي تخرج من جوفه، فسأله بتريثٍ عله يفهم ما يدور في رأسه:

-وده يزعلك يا "تميم"؟

لاذ الأخير بالصمت، فتطلع إليه جده بتفريس، رأى أمارات الانزعاج متجسدة على ملامحه، هز رأسه في خفة، ثم استطرد يقول دون مراوغة:

-شكله مضايقتك فعلاً.

تشجع "تميم" ليقول رغم اهتزاز نبرته:

-أصل .. الجواز دي بالذات.. ليها علاقة بالحرمة اللي رفعت إيدها عليا

رد ساخرًا:

-ناوي يتجوزها عشان يربها ولا إيه؟

شعر بتقلص يضرب معدته وكان مصارحته قد ضغطت على جرحه الذي لم يندمل بعد، حلق فيه مدهوشًا قبل أن يرد مؤيدًا جملته وكل ما يظهر في عينيه قلق وتقرب:

-مش بعيد يا جدي!

علق "سلطان" في كلمات ساخرة:

-أ و"هيثم" مش هيتوصى، جايز يدبجها ويرمي جتها للكلاب.

جزع قلبه وأحس بالدماء تهرب من عروقه خوفاً عليها بمجرد اجتياح مشاهد خيالية تجسد ذلك لعقله المشحون، تفحص "سلطان" ملامح حفيده المبهوتة متسائلاً:

-إنت خايف عليها منه؟

ابتلع ريقه وضغط على شفثيه محاولاً تجاوز سؤاله الصريح، بينما تابع جده بلهجة مغايرة لتلك المازحة: شكلك بيقول كده حتى لو معترفتش بده.

قال متهرباً:

-أنا ماجبش الظلم ولا الافترا يا جدي، دي كل الحكاية

لاحت بسمة صغيرة على جانب شفثيه وهو يرى حالة التخبط الواضحة عليه، الأمر أعمق من مجرد ما يبوح به، حتماً هناك شيء خفي يخفيه عنه، وهو لا يريد الاعتراف به، ومع ذلك لم يضغط عليه، سيتركه على راحته إلى أن يفصح له عن أسراره.. فكر "سلطان" قليلاً، ثم رفع يده ووضعها على كتف حفيده ليربت عليه، واستطرد يقول له بصوتٍ رخيم ليحفره:

-إنت موجود عشان تمنع ده، خليك مع الضعيف قصاد القوى في الحق، سامعني اقف مع الحق مهما كان مين الظالم!

تطلع إليه بعينين تتوهجان بشكلٍ غامض، لكن منحتته تلك التوصيات شعوراً مريحاً أسكن مؤقتاً ما يعتريه من هواجس وتوتر.. عندما قام "تميم" منصرفاً شد "سلطان" على يده ليعيد على مسامعه:

-إياك تظلم الغلبان حتى لو جنى عليك في يوم! ماشي يا ابني؟

ابتسم يقول له وكأنه يعده وهو ينحني ليقبل كفه:

-حاضر يا جدي.

بعد مُضي - أسبوع من إعلان موافقة العروس على الارتباط، كان الجميع مشغولاً بالترتيب لزيارة عائلية لإتمام الخطبة رسمياً .. وقفت "خلود" خلف أخيها في غرفة نومه تتأمل انعكاس هيئته المهندمة بمرآة التسيريحة التي تحتل الحائط الأيمن بعد أن ارتدى السترة الرمادية الجديدة، كان مظهره مغايراً لذلك السوقي الفظ، بدا راقياً، ومقبول الملامح. ضبط "هيثم" رابطة عنقه، ومشط شعره ليثبت المتناثر منه، ظهر وميض الإعجاب جلياً في عيني أخته، ابتسمت الأخيرة في سعادةٍ وجابت بحدقتها على كامل شكله المرتب، ثم رددت بتهليلٍ كبير مادحة إياه:

- الصلاة على النبي، الصلاة على النبي، قمر ياخواتي.

التفتت "بثينة" نحوها ترمقها بنظرة باردة قبل أن تنطق:

-ربنا يحميه من العين.

اعترضت عليها دون أن تجبو ابتسامتها المتحمسة:

-هو أنا ها حسد أخويا؟ ده الغالي عليا..

ثم ربتت على كتفه في رفقٍ وهي تدعو له:

-ربنا يتملك على خير يا "هيثم"

رد مجاملاً:

-متشكر يا "خلود".

تابعت مضيفة وهي تخرج علبة حمراء مصنوعة من القטיפه من حقيبة يدها الجلدية اللامعة:

-شوفت جبتك إيه على ذوقى، حاجة تحطها في الصينية تملى بيها عين عروستك.

أمسكت والدتها بالعلبة وفتحتها لتلقي نظرة متأنية على الخاتم العريض المليء بالفصوص البراقة، بدا

الانبهار واضحاً على ملامحها، أدارته بين أصابعها وقالت في ثناء:

-ذوقك تحفة يا بت.

علقت في زهو:

-من بعض ما عندكم يامه.

أعدت "بئينة" العلبة إلى ابنتها والتي دستها في الحقيبة لتتساءل بعدها باهتمام حتى تشبع فضولها:

-أومال إنتي تعرفي العروسة؟ شوفتيها قبل كده؟ يقولوا اسمها "همسة".

أجابتها بوجه خالي من التعبيرات وهي تدير رأسها لتتجه نحو الفراش حتى تجلس على طرفه:

-مش فكرها أوي بصراحة، بس أعرف أمها، أصلها كانت جارة خالتك زمان قبل ما تعزل وتنقل على بيت "سلطان" الجديد.

هتف "هيثم" باستهجان، وتلك النظرة الناقمة تعلو تعبيراته:

-لعلمك أختها كانت عاملة مشاكل مع جوزك وجابتله البوليس.

ارتفع حاجبا "خلود" للأعلى، وحركت عينيها لتنظر في اتجاه والدتها التي استطرقت محتجة:

-وايه اللي يشبكنا معاهم؟

أوجز بغموض دون أن تتغير قسامته المنزعجة:

-تحكمات بقي!

نظرات حائرة تبادلتها "خلود" مع والدتها لاحظت فيها تدمرها، توجست خيفة من إفساد الأمر،

فهتفت بحذر كمحاولة جادة منها لوأد أي خلاف قبل نشوبه:

-خلاص يامه الموضوع اتفض والكل اتصالح، وطلع "تميم" مالوش دعوة، ده سوء تفاهم وراح لحاله.

ردت عليها بنظراتٍ متممة:

-أنا قلبي مقبوض، بناقص منها الشبكة السوداء دي.

اقتربت منها، وقالت مدافعة عن عائلة العروس:

-حرام، ده حمايا يبشكر فيهم.

نفخ "هيثم" بصوتٍ مسموعٍ ليضيف بعدها في سأم:
- بأقولكم إيه أنا دماغى مصدعة، هاطلع أشرب سيجارة في البلكونة تكونوا خلصتوا لبس.
ردت عليه والدته وهي تومئ برأسها:
- ماشي يا ضنايا.
تابعت "خلود" بنظراتها إلى أن اختفى بالشرفة، فأدارت رأسها في اتجاه والدتها وسألتها:
- هو ماله يامه؟ هو مش مبسوط ولا إيه؟
جاوبتها بقليل من الضيق:
- والله ما عارفة، هو على دا الحال أديله كام يوم.
سألتها مستوضحة:
- مش الجوازة دي برضاه بردك؟
ردت دون تفكير:
- أيوه، هو حد يقدر يجبره على حاجة مش عايزاها، بس إنتي عارفة دماغ أخوكي، محدش يفهمه.
اتسعت ابتسامتها العابثة، وقالت بوجهٍ شبه متورد:
- بكرة عروسته تدلعه ويشوف الهنا على إيديها.
تهددت تقول لها في توجيس:
- يا ريت، ولو إني مش مرتاحة.
سرت عدوى القلق إليها، وتساءلت بتعابيرٍ تحولت للوجوم:
- ليه بس يامه؟
أجابتها بامتعاض:
- جوز خالتك مايجيش من وراه الخير

دافعت عنه "خلود"، فقالت:

-هو في زي عمي "بدير"، والله إئتو ظالمينه

نظرت لها بجدّة قبل أن توبخها:

-أيوه ياختي دافعي عن حماكي، ماهو أبو النبي حارسه وصاينه المعدول جوزك!

استاءت من هجوم والديها غير المبرر على كليهما، فجلست إلى جوارها، وحاوطتها من كتفها لتنصحتها بأسلوبها السلس:

-بلاش يامه ندور على العكنة بإيدينا، خلينا نفرح وتبسط، أخويا يستاهل كل خير، وأنا مستبشرة خير بالجوازة دي.

رمقتها بنظرة مستهزأة قبل أن تسألها في مكر:

-أومال ما فيش حاجة كده ولا كده؟

نظرت لها في عدم فهم، انزوى ما بين حاجبها متسائلة:

-حاجة إيه دي يامه؟

منحتها إجابة مباشرة:

-أمارة يا بت إن باطنك شايلة!

تضرح وجهها بجمرة قليلة، ونكست رأسها في حرج قبل أن ترد على استحياء:

-يا دي الكسوف .. إيه الكلام ده بس، هو احنا لحقنا؟

ربتت على فخذها مشددة عليها بلهجة تعبر عن جدتها:

-لأ شيدي حيلك مع جوزك شوية، عاوزين نسمع البشارة قريب، دي الفرحة اللي بجد!

زفيرٌ بطيء أخرجه من بين شفتيها لتعقب بعدها بنبرة جمعت بين قليل من الرجاء والأمل:

-ربنا يسهل، دي حاجة في علم الغيب، ووقت ما ربنا يأذن هنفرح كلنا.

استندت "بثينة" بيديها على الفراش لتجبر جسدها على النهوض، ثم هتفت بزفير مرهق:

-ماشي يا فالحة، خليني أكمل لبس عشان متأخرش، الحكاية مش ناقصة!

تحركت عيناها معها، ورددت بمرح لطيف وهي تمد يدها إلى داخل حقيبتها لتخرج هاتفها المحمول منها:

طيب يامه، وأنا هاكلم "تميم" أشوفه عمل إيه.

.....

وضعت تاجاً رقيقاً أعلى رأسها بعد أن صففته وعقصته كهكة كبيرة فيما عدا بضعة خصلات متناثرة على وجنتيها، مسحة ناعمة من مساحيق التجميل اتخذت مكانها ببشرتها لتزيدها تألقاً وجمالاً، تأملت "همسة" ثوبها الذهبي الذي اختارته لتلك المناسبة بنظراتٍ مبهورة، كان متماشياً مع تفاصيل جسدها المشقوق، زحزحت بيدها أطرافه الطويلة للجانب حتى لا تتعثر فيها حين تقوم من جلستها، انخفضت نظراتها لتجول على عنقها وعظمتي الترقوة اللاتين اختبأتا خلف شالٍ رقيق شفاف يحمل نفس اللون اللامع، أحست بصدرها يعلو ويهبط في توترٍ، لكن تلك اللمسة المطمئنة من أختها على كتفها وهي تنحني عليها هدايتها قليلاً، أمعنت النظر في ثوب توأمها الزيتي المتلألئ، كان يليق بها، ويغطي كامل جسدها فيما عدا مرفقيها، وعلى عكسها تركت "فيروزة" شعرها ينسدل على ظهرها ووضعت مشبكاً رقيقاً يمسك ببعض خصلاتها عند الفارق الذي أحدثته فيه، اقتربت "منها وداعتها بإعجاب:

-زي القمر يا "هموس"، ماشاء الله عليكي.

نظرت إليها من خلال المرآة، وقالت بنبرة مرتبكة:

قلبي بيدق جامد يا "فيرو".

ابتسمت وهي ترد عليها ساخرة:

طبيعي، ما دي أول مرة هنشوف فيها ننوس عين أمه.

اكتسبت ملامح "همسة" تعابير مزعوجة، وردت تلومها وقد استدارت ناحيتها:

إنتي بتتريني؟

حاولت ضبط ضحككتها التي تسعى للافلات من بين شفيتها، وهتفت متصنعة الجدية:
-أكيد، عريس مجهول الهوية، لا شوفناه ولا عرفناه، وجاية إنتي تتخطي لي، لازم أستغل الموقف.
نهضت من على الكرسي الصغير -منزوع الظهر- المستقر أمام المرأة، وقفت قبالتها لترد معاتبة إياها
في خوف محسوس:

-بلاش بالله عليكي توتريني بزيادة، أنا ماسكة أعصابي بالعافية.

علقت عليها أختها بجدية واضحة:

-عشانك مش مقتنعة باللي عملتيه.

تحركت الأولى من أمام المرأة لتوليها ظهرها، وردت في عصبية:

-هزرج تاني للموضوع ده؟ مش قفلنا كلام فيه خلاص..

تطلعت إليها "فيروزة" في اهتمام مراقبة ردادات فعلها المتباينة والتي توحى بتخبطها وحيرتها، بينما
تابعت "همسة" كلامها قائلة:

-وبعدين شوفتي خالك من ساعة ما وافقت على العريس وهو معاملته اتغيرت معنا 180 درجة،
ده ناقص يشيلنا من على الأرض شيل

علقت عليها باستنكار:

-ماهو مش ببلاش كل ده، ده أكيد طالع بمصلحة، خالك مايبعملش حاجة لوجه الله أبدًا!!!

وافقتها الرأي وإن لم تفصح عن ذلك علنًا.. استدارت الاثنتان معًا نحو باب الغرفة المفتوح ووالدتها
تسألها من الخارج:

-ها يا بنات، جهزتوا؟

لم تبادر إحداها بالبرد، فقد وقتت "آمنة" عند أعتاب الغرفة تقول بصوتٍ منبهر وقد انفرد ذراعاها
في الهواء:

- ماشاء الله ولا قوة إلا بالله، زي القمر يا حبيبتى

أسرعت "همسة" في خطواتها لترتمي في أحضان والدتها، أغمضت عينيها مستشعرة الدفء المنبعث من جسدها العطوف، وردت في امتنانٍ شاكر:

- ربنا يخليكي ياماما

أبعدتها عنها لتحتضن وجه ابنتها البشوش بكفيها، تأملت تفاصيلها الجذابة بعينين تلمعان بعبراتٍ فرحة وهي تغمغم بصوتها المنفعل فرحًا:

- ماشاء الله يا بنتي، ربنا يحميكي من العين.

رفرفت "همسة" برموشها في خجلٍ، في حين تابعت أمها تقول وهي تسحب شهيقًا طويلًا لتكبح به عبارتها:

- الجماعة جوم برا، أنا قولت أستعجلكم.

تساءلت "همسة" في اهتمام:

- ومين قاعد معاهم؟

لاحت على شفتي "فيروزة" ابتسامة متهمكة، كانت تعلم الإجابة دون الحاجة لتخمينها، وبكل بساطة ردت على أختها تجيبها وقد كتفت ساعداها أمام صدرها:

- تفتكري هايكون مين غير مرات خالك "حمدية"؟!

في بقعة شبه معزولة عن أعين الآخرين تمتاز بخفوت الإضاءة، وقفت كلتاها تخبئتان خلف الستارة المنسدلة كمحاولة جادة منها لاختلاس النظرات نحو العريس الغامض دون أن يمسك بهما أحد الضيوف، سعت الاثنتان للبحث عنه وسط الأجساد المتراخمة والتي حجت الرؤية بوضوح، امتلأت الغرفة بالحضور، أشخاص يصحبن زوجاتهم، وتبدو أعمارهم متفاوتة، ولكنهم يتشاركون في الضحكات المجلجلة .. وما إن ظهر وجه "هيثم" والإشارة بالترحيب له لكونه الخطيب المقصود حتى شهقت "فيروزة" مصدومة، لطمت برفقٍ على خدها هامسة في جزع:

يا نهار إسود، متقوليش إن هو ده العريس!

تجمدت "همسة" في مكانها، شعرت بقشعريرة تسري في جسدها بمجرد أن أبصرته، ورددت هي الأخرى في ذهول لا يقل في صدمته عن توأمتها:

- "فيروزة"، أنا اتوترت بجد، مش معقول يكون نصيبي مع ده.

تطلعت إليها بفم مفتوح، ثم ازدردت ريقها لتكمل حديثها بأنفاس مضطربة:

- شكله هو..

تخشب جسد "همسة" وأمسكت بيد أختها، وكأنها تتشبث بها، التصقت قدمها في الأرضية لتعجز عن التقدم، حاولت جاهدة استيعاب الصدمة والتعامل معها، لكن تشوش ذهنها وارتبكت أكثر، وزاد توترها؟ خفقة قوية ضربت بصدرها حين سمعت "حمدية" تناديا:

- تعالي يا عروسة، واقفة بعيد ليه كده؟ تعالي سلمي على الضيوف

تعلقت بذراع "فيروزة" وهمست لها ترجوها:

- ماتسبنيش

هزت رأسها في تفهم، وردت عليها:

- متقلقيش أنا جبك..

تحركت الاثنتان سويا في اتجاه غرفة الصالون التي امتلأت بالضيوف، ولكن وحده فقط من ارتكزت عيناه على عدوته القديمة، نسييته الجديدة؛ فيروزة! تطلع إليها "تميم" في اهتمام استغربه وقد بهتت أنفاسه، كانت فاتنة للغاية، خلاصة تسلب العقول، ساحرة تخطف القلوب، حمد الله في نفسه أنها ليست العروس المنشودة، وإلا لا يعلم ما الذي كان أصابه حينئذ، تتبعها طوال سيرها المتهادي وهو يشعر بتلك الأحاسيس غير المفهومة تقتحم كيانه لتضاعف من تلبكه، وتهلك أعصابه.. أجبر حدقيه على عدم النظر نحوها، لكن أبت حواسه الانصياع، بدا مأخوذاً بطلتها البهية، تدارك نفسه وأخفض نظراته ليشنت تفكيره عنها، التفت برأسه نحو زوجته الملتصقة به فوجدها محدة بالعروس، تنفس الصعداء لكونها لم تنتبه إليه، مال نحوها ليمس لها مدعيًا بالكذب:

-هاقوم أعمل تليفون وراجع.

نظرت له في اندهايش مستنكر، وردت عليه بصوتٍ خفيض:

-وده وقته يا "تميم"؟ الكلام هيبداً ولازم تبقى موجود

خشي من انفصاح أمر ارتباكاه، فقال متحججاً:

-معلش يا "خلود" شغل ومش هاينفع يتأجل، هارجع كان شوية.

كان جل ما يبحث عنه حاليًا هو الفرار ولو مؤقتًا من تلك الأجواء التي توتره بشكلٍ غير مسبوق، انسحب في هدوء من الصالون ليتجه إلى خارج المنزل حتى يستنشق بعض الهواء عله بذلك يستعيد هدوئه المفقود.

لفت أنظارها وهو يسير مبتعدًا باحثًا عن المخرج، نظرت له "فيروزة" من طرف عينها متعجبة من ذهابه، لم تدع الأمر يحيرها، تجاهلته وكأنه نكرة لتركز كامل انتباهها مع خالها الذي بادر معرفًا وهو يحاوط توأمتها من خصرها ليقدمها للضيوف:

-دي بقى عروستنا الجميلة "همسة"، متكسفيش يا بنتي، سلمي على عمك الحاج "سلطان" الأول، كبيرنا وبركتنا.

مدت "همسة" يدها المرتعشة إلى الكهل الوقور الجالس على الأريكة المنفردة، رحبت به مرددة بصوتٍ شبه متذبذب:

-مساء الخير.

ربت على يدها وهو يرد:

-مساء النور يا بنتي، تبارك الله..

التفتت كالمسوعة إلى جانبها حين جذبتها تلك الأصابع الناعمة من ذراعها لتسحبها نحوها، حملقت في قلبي لوجه المرأة المبتهج وهي تقول:

-تعالى في حضني يا عروسة ابني.

لم تقاوم شدها القاسي، واستسلمت لحضنها الإجماري، لكن ما لبث أن لربد بوجهها بعلامات الضيق حين شعرت بها تتلمسها بطريقة متجاوزة، وكأنها تتأكد من بروز مفاتها وصلاحتها، تراجعت للخلف رامقة إياها بنظرة حادة متأففة، وردت بوجهٍ مقلوب:

-لزي حضرتك يا طنط؟

زمت "بثينة" شفيتها لتسخر بعدها منها:

طنط.. أنا أبقى خالتك "بثينة" يا روجي...

رمشت بعينها في انزعاج دون أن تنطق حتى لا تشحن الأجواء من لا شيء، ولكن أضافت "بثينة" كما لو كانت تلمي عليها شروطها صراحةً:

-ولما تجوزي ابني هتناديني يا ماما!

ردت ببسمة متكلفة كنوع من الترضية لها:

-أها.. إن شاء الله.

إشارة واضحة من عيني خالها جعلتها تعود إلى مكانها لتجلس في المنتصف ملتصقة بوالدتها وأختها، نحنحة خشنة صدرت من "بدير" قبل أن يقول مستأذناً بكل تهذيب:

-بعد إذنك يا بابا هاتكلم أنا .

أدار "سلطان" رأسه في اتجاه ابنه، وهتف مبتسماً وغير ممانع:

-اتفضل يا "بدير".

ربتة رقيقة ممتنة حانت منه على كتف والده وهو يرد:

-شكرا يا حاج..

جاب "بدير" بنظراته على الأوجه المنتبهة له، تنحج من جديد ليزيح تلك الخشونة العالقة بأوتاره، واستطرد موضحاً:

أحم .. احنا مش محتاجين نتكلم في التفاصيل، الأمور واضحة، طلبات العروسة كلها مجابة، وماتشلس هم حاجة، و...

قاطعته "بثينة" قائلة بلهجة جادة وكامل عيناها مسلطة على وجه "همسة"

اعذرني على مقاطعة كلامك يا حاج "بدير"، بس عشان نبقى على نور من أولها، أنا ابني هايعيش معايا.

هنا ردت عليها "فيروزة" من تلقاء نفسها بذهول والرفض ظاهر على خلعها:

أفندم .. تعيش معاكي؟

تحركت "بثينة" بعينها نحوها لتقول وهي تجلس بخيلاء في مقعدها:

أه، مستغربة ليه؟ أنا أعدة لوحدي في بيت طويل عريض يرمح فيه الخيل، عاوزاه يتملى بأحفاد ولادي، وأنا معنديش إلا "هيثم"، ومش عايزاه يبعد عني، وهو الوحيد اللي بيشفو طلباتي، وبصراحة كده مقدرش أستغنى عنه!

استشعرت "فيروزة" من أسلوب حديثها لمحات من العدوانية المستترة، وربما طباع حادة غير مقبولة، لم تكن لتدع أختها تعاني، ستقف لمن يؤذيها بالمرصاد، لذا انتصبت في جلستها، وردت بنبرة مترفعة مليئة بالتحدي:

حقك .. بس هنسأل العروسة الأول وناخد رأيها، ولو الكلام مش عاجبها يبقى آ...

نظرة قلق تشككت في عيني "خليل" وقد شاركت ابنة أخته المتهورة في الحوار، حتما ستوصل الأمور لطريق مسدود لتفسد الخطبة، وهو لن يسمح لها بذلك، ادعى الضحك ليجبرها على بتر باقي جملتها، وقال مرحبًا بجاس زائد:

ده حمايتها ست كمل ومشهود بيها في كل الحقة، احنا عروستنا موافقة على طلبتها و...

اغتاظت "فيروزة" من فرض رأيه بطريقة سافرة، فقاطعته عن عمدٍ وقد ظهر التشنج عليها:

يا خالي إديها فرصة تتكلم وتقول رأيها.

زجرتها "حمدية" بوجه مكفهر قاصدة إخراجها أمام الضيوف:

عيب يا "فيروزة"، خالك مش مالي عينك ولا إيه؟ ما تقوليلها يا "آمنة"! خليه يقول كلمتين على بعض.

لم تأبه لتسلطها الواضح، وقالت معاندة بإصرار:

-لأ معلش، أنا مابقولش حاجة غلط، ده جواز، مش مصلحة.

رد عليها "بدير" ليمسك بزمام الحوار من جديد:

-واحنا مش هانضرها يا بنتي، كل حاجة هتتعمل وأحسن كمان، ولو هي هتعيش مع الحاجة "أم هيثم" البيت هيتفرش بأحلى عفش

هلل "خليل" مبتهجا:

-أهوو، الحاج جاب من الآخر، يعني كله جديد في جديد!

بدت "فيروزة" متحفزة ومستعدة للمضي - قدما في ذلك النقاش حتى نهايته، لن تتراخي فيما يخص شأن أختها، وإن جعلها ذلك مكروهة من الآخرين .. مصمست "بثينة" شفيتها لتقول بتبرم:

-المفروض دي اتفاقات رجالة، مش عارفة الحریم بيتحشروا ليه؟

استشاطت نظرات "فيروزة" وكادت ترد عليها بغلظة لولا أن نهضت "حمدية" من مكانها لتلكزها في جانب ذراعها قبل فوات الآوان، ثم سددت لها نظرة قاسية وهي تأمرها بصوتها الخفيض:

قومي هاتي الشربات للضيوف، يالا.. عيب نسيهم كده، هايكلوا وشنا، مضبوط يا "آمنة"؟

شعرت "آمنة" بتوتر الأجواء واحتقانها فجدت ابنتها من ذراعها وهي ترجوها:

-تعالى معايا يا بنتي.

ردت "فيروزة" على مضض:

-ماشى.

أذعنت مضطرة لأمرها المستفز فقط حتى تنفرد بوالدتها، تركتها تتحرك أولاً ثم تبعتها في هدوء، لكن نظراتها المحمومة عادت لتلتقط صاحب الوجه الصارم الذي أقبل عليها وقد بدا هو الآخر متفاجئاً لرؤيتها تخرج إليه وهو يتلمس طريق العودة، توقف "تميم" في مكانه مقاوماً حالة التخبط التي تشوش على تفكيره بشأنها، ابتسامة مستخفة صدرت من "فيروزة" قبل أن تهمس له وحنقها نحوه قد تجدد:

خشلهم، أصلها كانت تقصاك إنت كمان!

أوقظت بنبرتها الخافتة مشاعره الغاضبة ناحيتها، تذكر إهانتها .. صفعتها .. تطاولها اللفظي .. إساءتها غير المقبولة .. وكل ما يوقد تلك النيران الحارقة فيه ويولد فيه كراهية لا حدود لها لشخصها المزجج، كظم غضبه، وتنفس بعمق ليحجم من انفعالاته قبل أن تخرج عن طور سكونها. عاود "تميم" أدراجه ليلحق بها، وقبل أن تطأ المطبخ أمسك بها من راسها ليستوقفها، استدارت "فيروزة" نحو ذاك الذي أمسك بها دون استئذان، تفاجأت به قريباً منها بمسافة خطيرة، كان جريئاً للحد الذي جعل تفكيرها يُشل لحظياً، حدجته بنظرة نارية وهي تركز على أسنانها محاولة التملص منه وتحرير يدها، لكنه قابلها بنظرة مميته خالية من الحياة، شدد من قبضته على جلدتها الناعم وقد أخفض صوته للدرجة التي تصل إلى مسامعها ليقول لها عن عمدٍ حتى يستفز أعصابها:

-احمدي ربنا إنك مش مراتي، لأنني ... مكوتتش هارحك !!

.....

الفصل الحادي والعشرون

بالكاد تماسكت وقاومت تلك الرجفة التي اعتلت جسدها بعد تهديده العلني الخالي من أي شفقة، نظرت لعينيه القاسيتين محاولة إخفاء توترها، كانت حدقتاه تعكسان قوة، صرامة، غضبًا متعاطفًا، وكراهية مُعلنة، تلوت "فيروزة" بمعصمها بين أصابعه القابضة على رسغها، لكنه أبي تركها، استمتع "تميم" للحظة برؤيتها محاصرة منه، ومع حركتها الزائدة تناثرت رائحة عطرها لتعقب صدره، هنا أصابه التشتت، وارتخت أصابعه قليلاً عنها، ومع شحذها لكامل قواها انتزعت رسغها من قبضته انتزاعًا، وقالت في استبسالٍ وعيناها تتطلعان إليه:

-تكلم على أدك، وفي اللي يخلصك!

نظر لها بازدراءٍ، وقبل أن يرد عليها صاحت عاليًا:

عجبك اللي بيحصل برا ده يا ماما؟

فهم "تميم" تلميحتها الضمني بالجوء إلى والدتها لحمايتها منه، وكأنها تنذره بعواقب تواجهه معها، استعادت ثقتها وجراتها حين رأت صمته، أشارت له بحاجبها في تحدي، فبادلها نظرات حاققة قبل أن يوليها ظهره وينسحب من أمامها حتى لا تثار المتاعب من لا شيء، زفرة خافتة أشعرتها بالارتياح بمجرد ابتعاده، التفتت بجسدها لتدخل المطبخ، ووقفت إلى جوار والدتها التي هتفت في تضرع وهي تعاود ملء الكؤوس بالعصائر الطازجة:

-ربنا يعدي الليلا دي على خير.

ردت في تهكم:

-وهتعي إزاي وده نفس البني آدم الحيوان اللي وقعك على الأرض؟

حدث ما كانت تخشاه "آمنة"، كانت واهمة حين ظنت أن ابنتها لن تتذكره، ابتلعت ريقها وردت وهي تدعي انها كها في العمل:

-موقف وراح لحاله!

صاحت في استنكارٍ وقد اربد بها الغضب:

-ده أنا كنت هاضريه وأوديه القسم، هو ده اللي عاوزه تجوزيه لبنتك
لمحة خاطفة من عيني "آمنة" لوجه ابنتها المتشنج قبل أن تدير رأسه وتقول:

-خلاص بقى يا "فيروزة"، مايقاش قلبك إسود!

نظرت لها بغیظٍ وردت بنبرتها المتعصبة، وكأنها تلومها:

-بقى أنا اللي قلبي إسود؟ يا ماما بلاش السلبية اللي هتضيعنا دي!

حاولت "فيروزة" أن تضبط انفعالاتها فسحبت شهيقًا عميقًا ولفظته على مهلٍ لتضيف بعدها
متسائلة:

حطب إنتي موافقة إن بنتك تعيش مع حماها في بيت واحد؟

تركت والديها ما في يدها وضربت براحة كفها على السطح الرخامي غير مكترثة بالألم الذي حل
بعظامها المتعبة، ثم هتفت في نفاذ صبر:

-لأ مش عاجبني، بس ما باليد حيلة، الست مش غلطانة برضوه، أنا لو أعدة لوحدي هافكر في
كده، وهيبقى نفسي ولادي وأحفادي يقعدوا معايا يلموا عليا البيت.

ردت بعدم اقتناع:

-ده مش مبرر برضوه!

وقفت قبالتها وتهدت قائلة:

-أنا تعبت والله.. مبقتش عارفة أعمل إيه

عقت ابنتها بنزقٍ، وكان مسألة إقناعها بتنفيذ ذلك أمر مفروغ به:

خلينا نفرض الجواز دي، بناقص منها.

تطلعت إليها في اندهاشٍ، وعلقت عليها تسألها:

-وبعدين؟ تفتكري إيه اللي هيحصل؟ خالك هيسكت؟

وقبل أن تبادر بالرد تابعت "آمنة" باستياء:

-لأ طبعًا، ده مش بعيد يقلبها حريقة ويهد البيت ده على اللي فيه، وأنا أنا مش هاستحمل يعمل فيكم حاجة

سألته من جديد بنظراتٍ تلومها:

-وتضحى بينا؟

أكتسبت ملاحظها قساوة غريبة، واستطردت:

-أختك اللي اختارت.

قالت بأنفاسٍ متهدجة تعبر عن ضيقها:

-غبية وما بتفهمش، جت تنقذ موقف ضيعت نفسها، وأنا مش هاقف أتفرج على الـ....

قاطعتها بنبرة أقرب للتوسل وقد سئمت من جدالها المرهق:

-كفاية يا "فيروزة"، عشان خاطري بلاش تبوظي كل حاجة.

بهتت من كلماتها الأخيرة، شعرت بأنها تلقت قذيفة فوق رأسها، اختنق صوتها وهي تسألها:

-أنا يا ماما؟

لانت نبرة والدتها وغلفها الحزن حين أوضحت لها:

-افهمي، محدش هايقف معانا، وزى ما إنتي خايفة على أختك، فأنا خايفة على بنتي أكثر منك،

بس هاعمل إيه قصاد جبروت خالك والناس القادرة اللي برا؟ إنتي خبرتك قليلة في الدنيا،

ومتعرفهومش زى ما أنا أعرفهم..

رفض عقلها تصديق مبرراتها وإن كانت منطقية، في حين أكلت "آمنة" بنفس الصوت المرير:

-أحنا عيشنا يومين جيم بسبب تهورك، طب تفتكري هيعملوا فينا إيه واحنا بنقولهم معندناش

بنات للجواز؟ مش هيسامحوا في ده، وهانكون فُرجة الحتة كلها.

ردت عليها بهدوءٍ رغم الثورة الدائرة بداخلها:

-بس كده احنا بنشارك في ظلمها، خرينا ففكر من ثاني و..

أدارت ظهرها لها، وانحنت قليلاً لتمسك بطرفي الصينية وهي تقول:

-كل شيء قسمة ونصيب، ونصيبها جه مع الشاب ده!

حزنت "فيروزة" كثيراً لافنتقار والدتها للشجاعة، فقط لو منحتها الدعم لأنتهت تلك الخطبة، لكنها تركتها وحدها تقاتل مع من هم أشد منها قوة، نكست رأسها في خزي وأسف، اتجهت نحو حوض المطبخ لئتملاً كوباً فارغاً بالماء، لم تلتفت للخلف حين سمعت "حمدية" تتساءل بلهفة:

-إيه الرغي ده كله، الناس بتسأل عليكم برا، عاوزين تقرى الفاتحة.

شعرت بنظرات أمها مرتكزة عليها وهي ترد:

-حاضر يا "حمدية"، طالعين وراكي.

دمعة حبيسة تشكلت في مقلتيها حسرة على خذلان والدتها لها، مسحتها بطرف يدها وتنفست بعمق حتى تعود إلى الحشد المجتمع بغرفة الصالون وهي مرفوعة الرأس كما عاهدوها.

.....

استقرت في منتصف الأريكة بجوار والدتها وعلى يسارها جلست أختها التي تشد من أزرها بقوة شخصيتها، أحست "همسة" أنها تُعايش حلمًا غريبًا، اختفى تورد وجهها، وحل الوجوم المتواتر على ملامحها، بقيت أنظارها مثبتة لحظيًا على وجه العريس الذي تذكر وجوههن المألوفة، عرفت ذلك حين تطلع إليهن باندھاش قبل أن تتعد عيناه عنهن ليحملك في ساعة يده لبعض الوقت، ارتخت في جلستها وتفحصت ملامحه بتمهل، لكنه أمسك بها وهي تحدق به بعبوسها، تلبكت وأخفضت عينها وتجنبت النظر نحوه ولو مصادفة ..

لم ينكر "هيثم" أن التردد ظهر على تعابيره في البداية حين ولجت الاثنتان للغرفة، والسبب بديهي، لم يكن يعرف من منها عروسه، تغلله شعور كبير بالارتياح وقد تأكد من كونها تلك الفتاة الخجلة الهادئة؛ النقيض الكلي لأختها المتحفزة دومًا والتي على ما يبدو أنها تستعد للاقتضاض عليه في أي وقت. تأملها بإمعانٍ مستغلًا التهاء الجميع بالحديث نيابة عنه، كانت رقيقة، جميلة، يظهر عليها

الارتباك بشكلٍ فاضحٍ وإن ادعت تمالكها، للحظة ظن أن الحظ لعب معه ومنحه فرصة ذهبية لتعويضه ولو بالقليل عن مآسيه المتعاقبة، بدا ممتثلاً - "محرز" لأنه مهد له الطريق، لكن عاد التوتر ليحتل تفكيره وقد اتناه هاجس مزعج من احتمالية إنهاء الخطبة قبل أن تبدأ لمجرد التطرق للمشكلة الكلامية التي نشبت بينهم حين قام بالسرقة المشؤومة، تصلبت عروقه، وزاد توتره ..

أحس بجفافٍ مريرٍ يضرب جوفه، بغصةٍ علقت في حلقة، انحنى بجذعه للأمام ليمسك بكأس المشروب ويبلل به شفثيه، ارتوى قليلاً، لكن توتره لم يسكن بعد، لذا قرر أن يشعل سيجارة ليُدخنها حتى يخفف من حدة اضطرابه، ظهر الامتعاض على محياه مع استمرار "فيروزة" في المقاطعة والتعليق، بالكاد حافظ على هدوء أعصابه إلى أن انسحبت وراء والدتها، هنا أخرج زفيراً بطيئاً أزاح به الثقل الجاثم على صدره، ورويداً رويداً بدأ يشعر بالثقة والأمل حين تولى "خليل" زمام الأمور من جديد ورحب بالضيوف بكلماته المتملقة ليذيب الجليد ويزيد من جو الألفة والمحبة بين المتواجدين.

عادت "فيروزة" لمقعدها، والتزمت الصمت، ثم بدأت الاتفاقات الاعتيادية بين الطرفين دون أدنى اعتراض ليشرعوا بعدها في قراءة الفاتحة بعد الاستقرار على كافة الأمور، مسح "محرز" على صدغيه فور إنهائه للقراءة قائلاً بصوتٍ مرتفعٍ وابتسامته اللزجة تنير وجهه:

أمين، ألف مبروك يا جماعة، وعقبال الليلة الكبيرة..

هتف "بدير" بصوته الأجلش وهو يشير بيده:

إن شاء الله العروسة تحدد يوم تنزل تنقي فيه شبكتها مع حلماتها، أحلى حاجة في محل الصاغة، وماهمكوش الفلوس، دي هدية مني ومن أبويا الحاج "سلطان".

ردت "آمنة" تجامله بهذيب:

-ربنا يباركلنا فيك يا حاج، احنا هانشوف ظروفنا ونرتب مع الحاجة "بشينة".

نهضت "خلود" من جلستها لتضع علبة الخاتم الحمراء في صينية المشروبات الفارغة، وقالت بحماس قبل أن تعود إلى مكانها:

-حاجة بسيطة ثقاوتي، يا رب تعجب العروسة.

على الفور تحركت "حمدية" لتلتقط اللعبة، فتحتها ونظرت إلى ما فيها بعينين مدهوشتين وفم مفتوح في انبهارٍ، رفعتها نصب عيني زوجها لتقول بنبرة مادحة:

- ماشاء الله، ربنا يزيد ويبارك، الغالي ما يجيش إلا الغالي، بص يا "خليل" على الخاتم القيم ده!
حلق هو الآخر مبهورًا في الخاتم الذي عكس بريقًا جذابًا، سال لعابه قائلاً حين حمله بين أصابعه ليشعر بثقل وزنه:

- اللهم صلي على النبي، حاجة حلوة بصحيح ..

ابتلع ريقه والتفت نحو ابنة أخته يأمرها وهو يتصنع الضحك:

- تعالي يا عروسة، اشكري حماك وعمتك الصغيرة على هديتهم الغالية.

نظرة سريعة من "همسة" إلى والدتها، وكأنها تستشيرها في صمتٍ، وجدتها تستحتمها بعينها لتنفذ طلبه، وعلى مضضٍ نهضت مجبرة من مجلسها، واتجهت إلى الاثنتين لتحنني عليهما وقبلت كل واحدة منها على حدا من وجنتها وهي تتمم:

- ميري سي، ذوقكم جميل.

احتضنتها "خلود" بسعادةٍ قائمة لها:

- العفو يا عروسة، ولسه هتشوفي حاجات حلوة كثير، ده إنتي هتتجوزي أخويا.

ثم استدارت برأسها لتأمر أباها بتسليّةٍ وضحكتها المشرقة تصدح:

- ماتلبس عروستك الخاتم يا "هيثم"، ده إنت العريس والليلة دي كلها عشانك.

أيدها "محرز" الرأي قائلاً:

- مضبوط، ولا هو بيكسف

ثم كركر ضاحكًا باستظرافٍ غير مكترثٍ بمشاعر الآخرين نحوه إن كانوا يتقبلون مزحه وطرفاته أم لا، تشجع "هيثم" ونهض من مكانه ليدنو من عروسه التي لم تنظر نحوه مطلقًا، مد ذراعه أمامها وتحنح قائلاً بصوتٍ خفيض:

-أحم.. هاتي إيدك يا عروسة:

استجابت له "همسة"، وردت بصوتٍ بالكاد سمعه:

-اتفضل.

ارتعشت يدها أسفل قبضته التي لامست جلدتها، وسحبتهما على الفور حين ألبسها الخاتم، نجلتٍ وارتبكت وتصببت عرقًا وهي تفعل بالمثل له، شعرت بأنفاسه قريبة من وجهها وهو يهينها:

-مبروك.

أسبلت عينها نحوه ترد في تلعم مرتبك:

-الله يبارك فيك.

انطلقت الزغاريد عاليًا كتعبير عن فرحة النساء بإتمام الخطبة العائلية، والرغم من الإعياء الظاهر على "هاجر" إلا أنها شاركنهن في ذلك، مالت عليها "ونيسة" تحذرها:

-بالراحة يا بنتي عشان نفسك.

قالت في استحسانٍ وحبور:

-ده أخويا يا ست الكل، ومعزته عندي زي "تميم" بالضبط، ولازم كلنا نفرحله.

ربتت "بثينة" على كتف ابنة أختها تشكرها:

-ربنا يخليكوا لبعض يا حبيبي، احنا كلنا عيلة مهما حصل!

اندفعت "حمديّة" في اتجاه "فيروزة" لتدفعها من كتفها عنوة حتى تجبرها على الوقوف وهي تأمرها بلهجة مزجت بين الجدية والمرح:

-تعال يا "فيروزة" مكان العريس وخليه يقعد جنب عروسته شوية، خليهم يفرحوا ببعض.

زوت الأخيرة ما بين حاجبها مرددة في ضيق:

-أنا؟! !!

أطلقت ضحكة مجلجلة وهي ترد عليها:

-يا لا بقي، ماتبقيش زي العزول كده!

نهضت "فيروزة" مرغمة، وبحثت عن مكان شاغر لتجلس به، فلم يكن هناك سوى ذلك المقعد الملاصق لـ "تميم"، حيث جلس "هيثم" في البداية قبل أن يحتل مكانها، تطلعت إليه في حيرة وضيق، بالطبع كانت الفرصة مناسبة لحصمها لينظر لها بتشفٍ، وكأنه يتحدثها في صمتٍ أن تجلس بجواره، وبترفعٍ وغرورٍ سارت ناحيته، واستقرت قريبة منه، تعمدت أن تبدو كالصنم، متكلفة، متعالية إن دق التعبير، لا يظهر على قسائمتها علامات الرضا، وعلى قدر الإمكان أجبرت عينيها ألا ينظرا إليه، التفاتة بطيئة حانت من رأسها حين هنأتها "خلود" ببسمتها المبتهجة:

-مبروك يا حبيبي، عقبالك.

ردت عليها بنبرة موجزة وهي تشيح بوجهها المتجهم:

-شكرا

في حين علق عليها "تميم" قاصداً الاستهزاء بها:

-اللي زي دي ما بيعجبهموش العجب يا "خلود"، هيفضلوا كده من غير جواز...

-ومش بعيد يعنسوا!

أكمل جملته وهو ينظر لها بجمودٍ وتلك الابتسامة الساخطة تعلو شفثيه، إهانة حقيرة لشخصها في حضور زوجته لم تتقبلها منه، استدارت برأسها نحوه ترمقه بنظرة نارية، وقالت بصوت خفيض وهي تركز على أسنانها:

-يفور الجواز اللي يجي من ناس ماتستهلش!

ردت عليها "خلود" بهرج:

-بس الجواز عن حب جنة.

عقت "فيروزة" بما يشبه السخرية متمعدة الاستهانة بمشاعرها:

-زيك إنتي وال .. الأستاذ! عايشين في جنة، صح؟

قست تعابير "تميم" من كلماتها الدلالية، ورد عليها بصوت أجوف ليخفي غضبه، ولكنه أخرجها:

-ميخصكيش اللي بيدي وبين مراتي، الزمي حدودك!

اختلج وجه "فيروزة" بحمرة ألهمت بشرتها على الفور لإحراجه لها بهذا الشكل السافر، نظرت له بعينين تشعان غيظًا قبل أن تتطلع أمامها وقد ازدادت عبوسًا .. مالت "خلود" على زوجها تعاتبه برقة وبصوت خافت:

-اهدى يا حبيبي، مالوش لازمة الكلام ده معاها، هي شكلها اتضايقت

رد بنفس الصوت الحانق:

-اللي مش عاجبه يشرب من البحر.

اخترقت كلماته الحادة أذني "فيروزة" فأطبقت على شفيتها بكل قوة لتكتم اندفاع لسانها حتى لا تنقلب السهرة لمعركة يتراشق فيها الاثنان سويًا بالألفاظ .. هبت واقفة لتترك مكانها خاويًا واتجهت إلى والدتها وجلست على مسند أريكتها ومالت نحوها لتبدو كأنها تتبادل معها الحديث في شيء ما، مجرد وسيلة هروبية مكشوفة أشعرت "تميم" بالضيق، وضاعفت من انزعاجه، فبالرغم من انصرافها إلا أن أثر عطرها بقي يداعب أنفه ويوتر حواسه.

.....

نشوة عجيبة غمرت أحاسيسه وهو يجلس إلى جوار تلك الفاتنة، أمسك بطرفي سترته يشدها ليظهر مشدود الجسد، ومفتول العضلات فتعجب بقوته الذكورية المستترة، وجد "هيثم" لذة عجيبة في هذا الأمر، لذا نظر إليها بجراءة أكبر، وجاب بعينه على تفاصيلها المشوقة التي تحاول حجبا عن عينيه مما زاده رغبة فيها، حتى أنها حفزت خيالاته الجامحة لتخيلها بشكل أكثر تجاوزًا.. تدارك نفسه وتحنح بخفوت وقد حرك عينيه في الجهة الأخرى ليمررها على أوجه المتواجدين، لم ينتبه إليه أحد فأشعره ذلك بالارتخاء، وتساءل مستنكرًا:

-أنا متوتر ليه، ما كله برضاهم وبموافقتهم.

تعاظمت بداخله الرغبة في الاستمتاع بما فرض عليه، ولما لا الخطبة قد باتت رسمية الآن؟ سدد نظرة متفرسة لـ "همسة"، كانت تبدو كفتاة مطيعة، مرتعبة قليلاً، لكنها ناعمة، ربما ستمنحه بعض السعادة في حياته الرتيبة الفارغة، وستكون أيضاً وسيلته المشروعة لإشباع غرائزه التي تآزر من حين لآخر، ناهيك عن الاستفادة المادية من وراء زيجته. تشجع "هيثم" ومرر يده بتمهّل ليمسك بيد "همسة" التي انتفضت كمن لدغها عقرب بمجرد إحساسها بقبضته عليها، حملت فيه في ذعرٍ وابتلعت ريقها، حاولت سحب يدها من بين أصابعه، لكنه أطبق عليها جيداً، أحنى نفسه عليها ليبدو صوته قريباً منها وهو يهمس لها:

-مش المرادي يا عروسة.

قشعريرة باردة سرت في أوصالها، أحست بمزيدٍ من الخوف والحجل والكل يتطلع إليها، التفتت تنظر إليه بما يشبه الرجاء قبل أن يخرج صوتها المتحشرج الخافت من بين شفثتها ليقول له:
لو سمحت، أنا .. مش بأحب كده.

ابتسم وهو يرد عليها:

-بكرة تتعودي..

ثم مال عليها أكثر ليكمل همسه المداعب:

-وجايز تتخافني معايا عشان مش ماسك إيدك.

استجمعت قوتها الهاربة لتستل يدها من بين أصابعه، وردت عليه بصوتها المرتبك:

-لأ مش هتخانق.

انزعج من عدم تجاوبها وقال بضيقٍ، وكأنه يحذرهما:

على راحتك، بس يا ريت ماتبقيش زي المحروسة أختك.

رفعت رأسها لتحملق فيه مصدومة، لم تكن تعابيره بالمزحة، بل أصبح إلى حد ما قاسياً كاللحجارة الجافة، شعرت "همسة" بقلبيها يضطرم من الخوف، التفتت باحثة عن توأمتها علما تنجدها فوجدتها مشغولة بالحديث في هاتفها، كتمت شهقتها بصعوبة وقد شعرت بيده الخشنة تحتضن كفها من

جديد، أدارت رأسها ناحيته فوجدته يتطلع إليها بتحدٍ وأصابه تزداد شدة عليها، وكأنه يخبرها بشكلٍ غير منطوق أنه بات من تلك اللحظة يمتلك زمام أمرها، أدركت حينئذ أنها جنت على نفسها حين تسرعت بالقبول، وبدأ إحساسها الحقيقي بالندم يتسرب إليها.

.....

وُزعت حلوى الشيكولاته على الجميع، وامتلات الأجواء ببعض الدعابات الفكاهية الجيدة أحياناً، كما ظلت الأحاديث الودية تدور بين الأطراف في كافة المواضيع اليومية وما بالمنطقة من مشكلات تنغص ساكنيها حتى اقترب ميعاد انصراف الضيوف، هنا اقترح "محرز" بحماس وهو يضع باقي الورق الفارغ من الحلوى على الطاولة أمامه:

طب بالمناسبة الحلوة دي المفروض كلنا نطلع نتعشى برا في أحسن مطعم في المنطقة.

رد عليه "بدير" مبتسماً:

- احنا عجزنا يا ابني على السهر!

قال بتملتي:

-عجرت إيه بس يا حاج؟ ده إنت لسه في عزك.

تدخلت "ونيسة" في الحوار، وقالت مازحة:

-خلي العرسان يطلعوا هما اللي يتعشوا برا..

ظنت أن حديثها لن يؤخذ بمحمل الجد، لكنها تفاجأت بـ "محرز" يرحب به ويؤيده، فأضاف بنفس اللهجة المتحمسة:

-والله فكرة، بس لازمًا ناخذ رأي الخال، إيه رأيك يا عم "خليل"؟

فرك "خليل" طرف ذقنه مدعيًا التفكير، ثم أردف قائلاً ببسمة فاترة:

-ولو إني ماجبش السهر ولا التأخير، بس مافيش مانع، خلي "همسة" تتبسط مع عريستها.

ارتبكت "همسة" من ذلك الاقتراح، وظهر توترها على قسماها، نهضت من مكانها واتجهت إلى أختها تهمس لها في خوف:

-سامعة خالك، ماتسبنيش يا "فيروزة" لوحدي معاهم، أنا معرفهومش ردت تطمئنها وقد استقامت واقفة:

-متقلقيش..

تقدمت خطوتين نحو خالها، وقالت بما يشبه الرفض، ولكن بأسلوب لبق:

-سوري يا جماعة، بس أختي ما بتخرجش لوحدها.

رد عليها "محرز" ضاحكاً بسخافة:

-تعالى معاهها، مش معنى إنك مش مخطوبة زينا ماتجيش، ولا إيه؟

طرفة مهيئة نالت منها وأخرجتها على مرأى ومسمع الجميع، بل وكادت تشعرها بالانتقاص لولا أنها حركت شفيتها لتخبره بنفس أسلوبه السمج والمستفز، وقد وضعت يدها أعلى منتصف خصرها:

-لا شكرا، مش محتاجة اتخطب عشان أخرج، أنا أعرف أبسط نفسي كويس.

تهد "خليل" مبدئياً موافقته حتى يكبح غضب ابنة أخته قبل أن يتفاهم:

-أنا معنديش مانع، روجي مع أختك.

نظرت إلى خالها في ضيق، فبدلاً من أن تُخلص أختها تورطت معها، نهض "محرز" من مكانه ليتجه إلى حيث تجلس زوجته، وقف خلفها، وتابع:

-أحنا معندناش أي مشكلة، الدعوة أصلاً للكل، وبالمرّة "تميم" يفسح مراته، ما هما عرسان جداد بردك.

انتصب "تميم" في جلسته المتحفزة، وتلقائياً اتجهت عيناه نحو "فيروزة" التي كانت تطالعه بكرامية بائنة، لمسة ناعمة من "خلود" على كفه جعلته يستدير نحوها ليجدها تقول له بدلالٍ وغنج:

-أيوه يا حبيبي، إيه رأيك؟ أهوو نغير جو، عشان خاطري وافق.

أبعد حدقيه عن زوجته ليعاود تسليطها على وجه "فيروزة" المتشنج وهو يرد غير مبال:
-اللي يعجبك.

قال "خليل" بلطف غير مستساغ منه ليظهر بمظهر الصرامة أمام أنسابه الجدد:
-خلاص يا "فيروزة"، روجي مع أختك، ماتأزميهاش، بس هي ساعة زمن بالكثير، وخليكي معايا
على التلفون، مش عاوز تأخير
نظرت له بجدّة وقد بدا الاستنكار من كذبه السخيف مقروءًا على تعبيراتها .. قالت "هاجر"
بتأويمة متعبة والإجهاد يبدو عليها:

-معلش يا جماعة، اعدورني مش هاقدر أروح معاكو، أنا يدوب "محرز" يوصلني البيت، المحل
تاعبني شويتين
قالت "آمنة" في ود:

-ربنا معاكي ويقومك بالسلامة، ويقر عينك بمولود سليم
ردت مجاملة:
-تسلمي يا خالة..

استند "سلطان" على مسندي الأريكة بيديه المجدتين، حركات حذرة قام بها حتى لا تن عظامه
بالأعما، نهض من مكانه، واستقام قائلاً:
-احنا كده خلصنا مهمتنا.

اعتبر "بدير" كلمات أبيه بمثابة إشارة ضمنية لانقضاء السهرة، فنهض هو الآخر ليقول مؤيداً:
-مضبوط يا حاج "سلطان"، هنستأذنكم يا جماعة، وفرصة طيبة.
هتفت "حمديّة" معترضة بضيق مفتعل:

-ما لسه بدري؟ ده احنا عاملين حلويات شرقي تستاهل بؤم، و...
قاطعها "بدير" بلطف:

-بالهنا والشفاء، ده كده رضا أوي، وبعدين احنا ورانا أشغال ومصالح كثير من الفجرية
رد عليه "خليل":

-كان الله في العون يا حاج.

ردد "محرز" عاليًا وهو يلوح بيده في الهواء حتى ينتبه له الجميع:

-إن شاء الله متجمعين في الخير، احنا هنستنى الشباب تحت، سلامو عليكم

دنت "همسة" من أختها بعد أن تحررت من حصار خطيبها، تعلقت بذراعها كالغريق، ونظرت لها
في توترٍ حائرٍ قبل أن تسألها بخفوتٍ يشير إلى ربكة لا بأس بها تحتل كيانها:

-هنعمل إيه دلوقتي؟

غامت نظرات "فيروزة" وتحولت للقسوة من جديد، أمأت لها بجابها وقد بدت مستغرقة في
أفكارها العميقة، وكأنها تراجع ما ستقوم به في رأسها .. ابتسامة مزهوة لاحت على جانبي شفيتها
للحظة، أعقبها تهيدة هادئة انفلتت من جوفها لتتطرق بعدها بغموضٍ وقد اكتسح نبرتها قوة أنثوية
تليق بشخصها غير الضعيف:

-هنخرج، وهيعرفوا هما ناسبوا مين !!

.....

الفصل الثاني والعشرون

توسّطت في المقعد الخلفي بالسيارة لتجلس بين توأماتها وزوجته، استقامت في جلستها غير المريحة ليبدو انعكاس وجهها واضحًا في مرآة "تميم" الأمامية، عمدت "فيروزة" إلى النظر إليه بكل ما تعكسه عينيها من كراهية وبغضاء لتستفزه أكثر، كانت تبحث عن السبل المشروعة وغير المشروعة لاستثارة أعصابه وإخراجه من طور الجمود المتحجر الذي يجبس نفسه بداخله، وكأنها بذلك تتحين الفرص لإفساد الخطبة، إما عن طريقه أو عن طريق قريبه المشابه له، أبعدت نظراتها حين سألتها "خلود":

تجبا تروحوا مكان معين ولا تسيبوني أختار على ذوقي أنا؟

أجابتها ببرود وهي تهز كتفها:

-مش فارقة.

ابتسمت مضيفة في مرح:

طب نسأل العروسة، إيه رأيك؟

أنابت عنها "فيروزة" في الإجابة:

إن كان على "همسة" فهي مش عاوزة تروح في حته.

تدخل "هيثم" في الحوار معلقًا بامتعاض بائن على وجهه:

-والله محدش طلب رأيك، هي عندها لسان، خليها تتكلم

وقبل أن تبادر بالهجوم عليه، وضعت "همسة" يدها المرتعشة على قبضة أختها تستحثها في رجاءٍ

صامت ألا تختلق أي مشكلة، وحركت شفيتها ليخرج صوتها مهتزًا وهي ترد بجيادية:

أي.. حاجة، كله مناسب عندي.

تبادلت "فيروزة" معها نظرات لائمة، لم تحبذ الظهور بمظهر الضعف والتخاذل مع هؤلاء حتى لا

يقتنصوا الفرصة ويتكالبوا عليها، لتدع الأمر لها لتضعهم في مقامهم الذي يليق بهم .. رنة خافتة

صدرت من هاتف "فيروزة" جعلتها تنتبه له، وتعبث به للحظات، وكأنها وسيلتها المؤقتة للانشغال عن السخافة المحيطة بها، بينما هتفت "خلود" من جديد كمحاولة أخرى ناجحة منها لتقليل الأجواء المشحونة:

- في مطعم على البحر هنا الكل يبشكر فيه، إيه رأيكم نجربه؟
قال "تميم" غير ممانع ونظراته موجهة نحوها من خلال انعكاس المرأة:
طالما عاجبك يا حبيبي نروحه.

امتدت يدها لتلمس كتفه، وقالت في امتنان رقيق:

- حبيبي ربنا يخليك ليا.

لم تستسغ "فيروزة" ما يدور بينهما من مشاعر متكلفة، شعرت وكأن كلاهما يستعرض محبة زائفة فقط لإعاضتها، أبعدت نظراتها في ضيق عن التحديق بالمرأة لتنظر إلى جانبها، كانت أختها تحملق بشرود وتوتر في الطريق، تكاد تشعر بتأثير البرودة على بشرتها بالرغم من اعتدال الطقس، مسحت برفق على كفها فاستدارت "همسة" نحوها، رأتها تبتسم لها في لطف ونظراتها تطمئنتها، أحست بالارتياح لكونها إلى جوارها، وتمنت في قرارة نفسها أن تمضي - الليلة على خير، وإن كانت غير متفائلة بالقادم.

لحظات وتوقفت السيارة على مقربة من ذاك المطعم الشهير، صفها "تميم" بجوار الرصيف، وهلت "خلود" مشيرة بيدها:

- المكان أهوو، إن شاء الله يعجبكم.

ترجل زوجها من السيارة أولاً، ثم ألقى نظرة عابرة على الطريق من طرفيه حتى يفتح الباب المجاور لزوجته، نزلت وهي تبتسم له:

- تسلم يا حبيبي.

أدخل يده في جيب بنطاله القماشي البني الداكن، وانخفضت نظراته لتحملق في "فيروزة" متوقفاً أن تتبع زوجته، خاصة أنه ما زال يقف مستنداً بمرفقه الآخر على الباب، لكنها بادلتها نظرة استخفاف

غريبة، تقوست زاوية شفيتها ببسمة ساخطة، وأدارت ظهرها لتستعد للخروج من الجهة الأخرى؛ حيث ترجلت أختها، استنشأت نظراته، وشعر بالحنق من عدم تقديرها لذوقه وتعاملها الودع معه باحتقارٍ وازدراءٍ بائن، صفق الباب بقوة وهو ينفخ عاليًا، ثم تنفس بعمق ليكبح أي بوادر عصبية تلوح في الأفق بسبب طريقتها المستنفزة، تأبطت "خلود" في ذراعه، رأت علامات الانزعاج مرسومة على وجهه، سألته في اهتمام:

-مالك يا حبيبي؟ في حاجة مضيقاك؟

أجابها على مضض:

-يعني.. إنتي عارفة ماليش في جو الخروجات والسهر برا.

داعبت طرف ذقنه وهي تتدلل عليه بنعومة:

-بس النهاردة غير، خطوبة أخويا وبعدين شكك شيك خالص.

ثم ضببت بيدها طرفي ياقة قميصه الأبيض الذي فضّل ارتدائه بدون رابطة عنق تخنقه، ابتسامته ساخرة غير مقتنعة ظهرت على جانب ثغره، ورد بهدوء:

-جو البدل ده مايلقش عليا

ردت معترضة وقد تقطب جبينها:

-لأ إزاي، ده مش بعيد تلاقي البنات بيحسدوني عليك

ابتسم لها في عنوبة، وربت برفقٍ على كفها المتعلق في ذراعه، واصل كلاهما السير متأخرين خطوتين عن "فيروزة" التي كانت تسير بمفردها بعد أن أصر "هيثم" على الإمساك بيد خطيبته قليلة الحيلة، التفتت "همسة" برأسها نصف التفاتة، وهتفت من بين شفيتها بصوتٍ خافت للغاية:

-ماتسبنيش

ردت تطمئنها بصوت يماثلها:

-أنا جمبيك.

لمسة وحة من "هيثم" على وجه خطيبته ليديرها نحوه جعلتها تنتفض وتتطلع إليه في توترٍ، رأت "فيروزة" ما يفعله بجراءة وقد انعكس حنقها على خلعائها، اضطرت أن تكظم مشاعرها المقيتة مؤقتًا، وتابعت مشيرها بتباطؤٍ وهي تفر أنفاس الضيق.

.....

كعادة الأماكن الراقية كالمطاعم والمناطق الترفيهية يقف بعض الندلاء بالقرب من الأبواب لاستقبال الضيوف بتهديبٍ ولباقة، وفور أن لمح أحدهم الزائرين الجدد حتى بادر بفتح الباب الزجاجي والإشارة لهم بيده الأخرى وهو ينحني قليلاً، تولى آخر يقف على مسافة قريبة مهمة لإصالحهم لطاولة شاغرة، وبنبرة رسمية بحتة، وتلك الابتسامة المدروسة تساءل النادل:

-في حجز قبل كده يا فندم؟

أجاب "هيثم" بصوته الأجلش:

-لأ ما فيش

تابع النادل متسائلاً:

-تمام يا فندم، حضراتكم تحبوا تقعدوا هنا، ولا على البحر؟

نفخ "هيثم" في حيرة والتفت يسأل "همسة":

-إنتي عاوزة إيه؟

ابتلعت ريقها، وأجابته بتردد:

-مممكن.. على البحر

هز رأسه في استحسان وهو يعقب عليها:

-يكون أحسن

ثم أشار بيده للنادل أمراً إياه:

-هنقعد هناك.

هز النادل رأسه ممتثلاً له، وعجل من خطواته ليبحث بشرفة المطعم الواسعة عن واحدة تناسب زبائنه، وجد ضالته المنشودة في إحدى الزوايا، اتجه إليها ورتب مقاعدها بما يتوافق مع العدد المتواجد؛ مقعدين متجاورين في كل جانب، وواحد فقط يترأس المائدة التي اتخذت شكل المستطيل، ثم اعتدل في وقفته وقال مبتسمًا:
-دقيقة وهاتكون المنيو مع حضراتكم.

-ماشي

قالها "هيثم" وهو يشير بيده لخطيبته لتجلس إلى جواره على المائدة، اضطرت أن تستقر في ذلك المقعد، وعيناها تبحثان عن "فيروزة"، شعرت بالارتياح حين جلست بجوارها في المقعد المنفرد دون أن تدري أن "تميم" يجلس على يمينها .. صاحت "خلود" في حبورٍ مادحة ما يقدمه المكان من وجبات شهية:

-المطعم ده بيعمل كباب وكفتة حكاية، جربناه زمان واحنا صغيرين، بس شكله اختلف كثير دلوقتي.

علق عليها "تميم" وهو يجوب على تصميمه الحديث:

-اه فعلاً، اهتموا بيه.

أضافت في حماسٍ موجهة حديثها إلى التوأمتين:

-لأ ، ولسه زي ما هو، طعم الأكل خرافة، لما تدوقوه هتعرفوا إن عندي حق.

ردت "فيروزة" باقتضاب:

-كويس..

تنح "هيثم" مقترحًا بخفوتٍ وجسده يميل نحو "همسة":

-ما تيجي تقف جنب السور نتفرج على المياه

رفعت "همسة" عينيها لتحدق حيث أشار بعينه، وبدت في حيرة، حسم ردها عليه بنهوضه فجأة ليسحبها من كفها ويجبرها على الوقوف قائلاً:

-هنقف أنا وخطيتي نشم هوا جمبكم

قالت "خلود" مبتسمة:

-وماله يا "هيثم"، خدوا راحتكم.

ساد الصمت بين ثلاثتهم بمجرد رحيل الاثنين، وهنا عاد النادل ومعه قوائم الطعام وأسندها بالترتيب على المائدة منتظراً اختيارهم النهائي بالوقوف على بضعة خطوات منهم، انشغلت "فيروزة" بقراءة ما دون فيها من أطعمة مختلفة محاولة اختيار المناسب رغم كونها فاقدة للشهية، بينما هتفت "خلود" مقترحة وحاسمة أمرها وهي تلكز بكتفها ذراع زوجها:

-ما تخليني اختارك على ذوقي؟

نظرت لها "فيروزة" من أعلى طرف القائمة ودهشة مختلطة بالسخرية تعلو ملامحها، رأى "تميم" تلك النظرة المستهزأة وإن كانت أخفت وجهها، ابتسم لزوجته بعد أن أدار رأسه ناحيتها، وقال مجاملاً:

-ماشي، فاجيني

تدللت عليه قائلة في مرج:

-بس لو معجبكش متخرجنيش

مط شفتيه وقال:

-حاضر، هادف الحساب وأنا ساكت.

ضجرت "فيروزة" من سماجة "خلود" وميوعتها الزائدة، وكأنها الوحيدة التي تحظى بحياة زوجية وردية وهانئة، نفخت في يأس من عدم انقضاء وقت تلك السهرة السمجة، انتهت إلى صوتها المزج حين سألتها:

-أطلبك أنا كمان على ذوقى؟

ردت بوجوم قبل أن تبتسم بسخافة:

-لأ.. أنا بأعرف أطلب.

لم يستحسن "تميم" ردها المحرج لزوجته، والذي انسجم مع نظراتها الاحتقارية التي تدور في أرجاء المكان، لذا ابتسم يقول في سخرية:

-ما تسألهاش يا "خلود"، دي بتاعة كبدة، أكيد مش هايعجبها حاجة

احتقت نظرات "فيروزة" وتحفزت في جلساتها، استدارت نحوه وحملت فيه بعينين تقدحان بالغيظ، وردت مدافعة عن حلمها الذي أحرقه:

-لا معلش، احنا مش بايعين كبدة مع احترامي ليك ولأصحاب المهنة دي.. احنا قبل ما تولع في عريتنا كنا بنبيع أكل مودرن.

شعر "تميم" بالضيق من اتهامها الباطل وهجومها الشرس عليه، لكنها نجحت في النيل منه حين تابعت:

-جايز ملكش خبرة في الحاجات دي عشانك كنت مسجون!

غلت الدماء في عروقه وشعر باهتياج يحتاج خلاياه، وعنقها بجدة:

ليه الغلط طيب؟

ردت ببرود وقد كتفت ساعديها أمام صدرها:

-إنت اللي بدأت الأول.

هتفت "خلود" قائلة لتساهم في الدفاع عن زوجها بكل قوة:

-أنا عاوزة أقولك حاجة، جوزي اتسجن عشان خاطر أهله، ماسمحش لحد يهين أبوه ولا يدوس على طرفه، والكل عارف إنه بيعتبر حبسه وسام على صدره، مش عشان حاجة بطالة لا سمح الله.

أدارت "فيروزة" عينها في اتجاهها، وردت بنبرة مهينة حملت بين طياتها الألم وهي تشير بسبابتها:
-والله اللي قولتيه عنه مايفرقش معايا، بس جوزك الشهم ده سَلط البلطجية بتوعه على أكل
عيشي وحرقة، وقصادكم عامل فيها ملاك بريء و...

لم يتحمل "تميم" المزيد من عباراتها اللائمة، وإلقاء التهم جزافًا عليه، بل وتذكيره بما ينغص عليه
هدوئه، فضرب بقبضته المتكورة على المائدة صائحًا بلهجة خشنة ليقاطعها:

-خلاص، فضينها .. قفلوا سيرة في الموضوع ده!

قال كلماته الأخيرة ونظراته المحتدة تتركز على وجه "فيروزة" المتضرج بغضبه، على الفور أحاطت
"خلود" كتفيه المشدودين بذراعها، وتوسلته بجد:

-حبيبي اهدى، احنا جاينين تقضي وقت لطيف هنا، وده سوء تفاهم حاصل بنحاول نشيله و..

قاطعها وهو يستدير برأسه نحوها:

-قولي للي بتجر شكل معانا بلسانها اللي زي المنشار.

ردت "فيروزة" على إهائته، فقالت بوجه متجهم:

-منشار على معدومين الأدب.

وقبل أن يحتدم الجدل بينهما عاد "هيثم" ومعه "همسة"، جلسا من جديد على المائدة، فتساءل
الأول:

-ها طلبتوا حاجة؟

مالت "همسة" على توأمتها تسألها:

-هو في إيه؟

حاولت الابتسام وهي تجيبها:

-مافيش يا حبيتي

رنة أخرى صدحت من هاتف "فيروزة" لتعلن عن وصول رسالة نصية، تفقدتها على الفور، واعتلى
ثغرها ابتسامة انتصار، سألتها أختها بصوتها الخفيض:

- في حاجة؟

أجابتها بغموض وقد عادت ملامحها لتشرق:

- هتعر في دلوقتي.

اشرأبت بعنقها للأعلى وكأنها تبحث عن شخص بعينه، لمعت حدقتها وقد أبصرت صديقتها "علا"
تدخل المطعم وبصحبها أخيها "ماهر" ورفيقه الضابط "وجدي"، غمزت لأختها بطرف عينا قبل
أن تهض لتقول بترفع:

- أنا رايحة أسلم على "علا" صاحبتني..

لم تنتظر الرد منهم، وتحركت صوب رفيقتها التي كانت تلوح لها بيدها، استنكر "هيثم" تصرفها الوقح
وعقب بضيق:

هي أختك مش محترمانا ولا إيه؟

ردت "همسة" في حرج كبير مبررة ذهابها الفظ وهي ترفرف بجفونها:

- معلش.. أصلها صاحبتنا الأنتيم

رد عليها بوجه مقلوب:

- خليها تراعي الناس اللي معاها شوية!

قال له "تميم":

- سيك منها وشوف هنطلب إيه.

وبالرغم من إدعائه الانشغال بالتطلع في مشهد البحر المعتم إلا أنه استطاع أن يلمح بعينه ذاك
الشخص الذي أتى بصحبة الفتاة، ولكنه لم يتبين ملامحه بعد، أحنى "هيثم" رأسه على خطيئته
ليسألها في انزعاج واضح عليه:

هي أختك تعرف رجالة ولا إيه؟

ورغم استنكارها لطريقة سؤاله إلا أنها تحلت بقليلٍ من الشجاعة وأجابته بثباتٍ:

- ده الطابط "ماهر" مش حد غريب عننا، وأظن قريبك يعرفه.

تحولت نظراتها نحو "تميم" الذي هتف متبرماً:

- أه عارفه، ما هي أختك خبرة في الأقسام.

لم ترتضِ "همسة" بذلك التلميح المهين، ودافعت عنها قائلة بصوتٍ شبه مختنق:

على فكرة أنا أختي كانت بتدور على حقها، معملتش حاجة غلط، وأي حد في مكانها في بلد بيحترم القانون هيعمل كده.

قاومت تسلمت العبرات إلى حدقتها، فهي مرهفة الحس، لا تستطيع الصمود كثيراً، تفضحها عبارتها ويخذلها صوتها، خشيت "خلود" من نشوب الخلاف واندلاعه مرة أخرى فقالت متصنعة الضحك:

- حصل خير يا جماعة، وزى المثل ما بيتقول، ما محبة إلا بعد عداوة.

هدأت حمية الجميع نسيباً مع حضور النادل الذي بدأ في تلقي الطلبات وتدوينها، وبقي زوج الأعين يختلس النظرات من حين لآخر لتلك التي تتمايل برشاقة في وقتها مع الغرباء بشكلٍ استثار أعصابه وكدر سكونه.

.....

وفق ترتيب مسبق بينها هاتفياً استجابت "علا" لطلب صديقتها المقربة وقررت الذهاب إلى نفس المطعم ولكن بصحبة أخيها ورفيقه ليس لقضاء سهرة لطيفة بالخارج فقط وإنما ليشدوا من أزر "همسة" ويدعموها بعد أن سردت لها رفيقتها ما حدث مؤخراً، وكيف تم الضغط عليها للقبول بتلك الخطبة غير المتوافقة .. بغنج وابتسامة ناعمة أقبلت "فيروزة" على الثلاثة ترحب بهم:

-نورتوا المكان، فرحت أوي لما "علا" قالتلي إنكم هاتيخوا على هنا.

ردت عليها صديقتها بمحبة صافية وهي تحاوطها من خصرها:

-هو أنا أقدر أتأخر عنك برضوه

استطرد "ماهر" قائلاً بهدوءٍ يعكس جديته:

-ولو أني مش حابب الخطوبة دي، بس مبروك لأختك

تهدت تقول له:

-ولا أنا والله حباها يا "ماهر" بيه، بس ده اختيارها.

علق عليها مؤكداً وهو يشير بعينه:

-عموماً يا "فيروزة" إنتي عارفة إننا جبك وقت ما محتاجينا، دايماً هتلاقينا في ضهرك

شعرت بمزيد من الارتياح يتغللها، وقالت ممتنة:

-الله يخليك لينا يا "ماهر" بيه.

ابتسم "وجدي" مضيئاً:

-وأنا موجود كمان، يعني إنتي في حماية

تضاعف إحساسها بالثقة والأمان، وردت في خجلي:

-مش عارفة أقولكم إيه

هتفت "علا" تقول:

-حبيبتي إنتي ليكي معزة غالية عندي و..

قاطعها "وجدي" مستأذناً:

-معلش يا جماعة لحظة وجاي، هاسلم على واحد صاحبي هناك

ردت عليه "فيروزة" بلباقة:

-خد راحتك يا فندم.

أشعل "ماهر" سجارته، ودس الولاة في جيب بنطاله الجينز مرددًا:

-شوفي أنا هاروح أبارك لأختك ولعريسها عشان يعرفوا إنكم مسنودين، وإنكم مش لوحكم، وبالمرّة
أقرص ودن الواد إياه..

كان يقصد بكلامه الأخير "تميم"، لفظة خافتة حذرة حانت من "فيروزة" نحوه لتزداد عينها توهجًا
وهي تتخيل المشهد في رأسها، اعتدت بنفسها، واكتسبت المزيد من الثقة والغرور، تقدم "ماهر"
في خطواته نحو المائدة، تعلقت العين به وقد وقف أمام المقعد الشاغر ليبدو حضوره مهميًا
وطاغيًا، نثت الدخان من بين شفثيه قبل أن يبادر مرحبًا:

-مساء النور عليكم جميعًا.

نظر له "تميم" شزرًا قبل أن يرد عليه بتعايره التي غلفتها القساوة:
-أهلاً وسهلاً..

حافظ "ماهر" على ثبات تعايره وهو يتابع:

طبعًا أنا مش محتاج أعرفكم على نفسي، بس حبيت أجي وأبارك لعروستنا الجميلة..
واتجهت نظراته نحو "همسة" حين هناها:

-خطوبة سعيدة عليكي.

تورد وجهها ونظرت له في نجلٍ قبل أن تقول بصوتها المرتبك:

-الله يبارك في حضرتك يا "ماهر" بيه.

أضاف محذرًا بلهجةٍ تم عن قوة:

-شوف يا عريس، عروستك ليها غلاوة عند أختي، وأنا اللي أختي تقدره بأعتبره من العيلة، فيا
ريت تاخذ بالك منها وماتزعلهاش وإلا هتلاقيني واقفلك.

فارت دماء "هيثم" من طريقته الاستعراضية في إظهار القوة والسلطة، ورد عليه يسأله بعينين
تقدحان بالشر:

- ده تهديد؟

ابتسم يجيبه في عجرفة:

-أنا بس بأوعيك، عشان تعرف إنت مناسب مين.

وقبل أن ينطق بكلمة زائدة هتف "تميم" يرد عليه:

-خلاص يا "هيثم"، الرسالة وصلت يا باشا

هز "ماهر" رأسه في خفة قبل أن ينهي حديثه بسخاء:

-سهرة سعيدة عليكم، اطلبوا اللي إنتو عاوزينه، طلباتكم كلها على حسابي

اعترض عليه "تميم" بحذرٍ وقد رفع يده ليشير لـ "هيثم" حتى لا يتدخل:

-مالوش لازمة تكلف نفسك يا باشا، رجالتنا إيديهم فرطة مع حريمهم

قال "ماهر" غير مبالي بجملته الأخيرة:

-دي حاجة بسيطة، تحية مني للعrsan

ثم غمز له بطرف عينه، وألقى بسيجارته على الأرضية ليسحق بقاياها تحت قدمه، لوح لهم بيده

مبتعدًا وهو يتنسم في طريقه لـ "فيروزة" التي بدت مبتهجة على الأخير، احتضنت رفيقتها "علا"

التي تابعت بانهارٍ قدرات أخيها وقالت:

-أخويا ظبط الدنيا

ردت تشكرها:

-بجد مافيش زيّه، مش عارفة أقوله إيه

ابتعدت عنها لتنظر إليها، وأضافت مؤكدة عليها:

-دي مش حاجة يا "فيرو"، وماتنسيش إنتي معزومة على عيد ميلادي

أومات برأسها ترد عليها:

- كل سنة واتي طيبة يا قلبي، أنا فأكراه طبعًا، وهاكلمك ثاني وأعرف منك التفاصيل.
ودعتها بحرارة قبل أن تعود للمائدة حيث بدأ النادل في رص الأطباق وتوزيعها عليهم، سحبت
"فيروزة" مقعدها لتتقرب من الطاولة، وقالت في عنجهية وتلك الابتسامة المغترّة تتراقص على
شفتيها:

- ذوق أوي "ماهر" بيه

صاح بها "هيثم" محتجًا على إفساده لليلة:

- مكانش ليه لازمة الحركات القرعة اللي عاملها قصادنا

التفتت ناحيته، وقالت بجدّة وقد اكتسبت نظراتها قساوة شديدة:

- والله هو مش محتاج يتمنظر ولا يعمل حركات، هو راجل بيّفهم وبيقدر اللي يعرفهم.

لم يتقبل "هيثم" ردها وشعر بالإهانة، فانتفض واقفًا وقد ألقى بمنديل المائدة القاشي على طبقه، ثم
نظر إليها بنظراتٍ مغلوطة وهو يبرطم:

- أنا نفسي اتسدت، خلينا نقوم

توقع أن تغضب، لكنها ابتسمت في انتشاءٍ وأشارت له بجأها قائلة:

- أه يا ريت

نفخ هادرًا في غيظ:

- اللهم طولك يا روح.

نهض "تميم" من مقعده، ورمق "فيروزة" بنظرة نارية ثم اقترب من ابن خالته، جذبه بعيدًا عن
المائدة ومال نحو أذنه يهمس له:

- اهدى، ماتخليس البت دي تحرق دمك

رد في حنق وهو يكرز على أسنانه:

- اقسام بالله أنا ممكن أطبق في زمارة رقبتها، دي حقنة، يخريبتها، خميرة عكننة ونكد.

تجمدت نظراته على وجه "فيروزة"، وقال له بنبرة ذات دلالة مستترة:

-معلش، كل واحد وليه يومه!

.....

أغلق صندوق السيارة بقوة بعد أن رص أكياس الطعام البلاستيكية المعبأة بما رفضوا تناوله، سيجارة جديدة أشعلها ليسحب دخانها ويملاً بها صدره، لفظه دفعة واحدة قبل أن يتحرك للأمام ليفتح الباب ويستقر خلف عجلة القيادة، وتلك المرة أعاد "تميم" ضبط المرآة حتى لا يجد وجهها ينظر إليه ويحفز دمائه لتهتاج بتلك الصورة المريبة .. بضعة أحاديث مقتضبة حاولت "خلود" التطرق إليها لتعيد روابط الود قبل أن يعود الجميع إلى منازلهم، للحظة دار في خلدتها أن تنفرد بـ "همسة" وتسميها بشكلٍ أو بآخر حتى تنجح في اكتساب أخيها دون عناء، ولهذا قررت فعل ذلك بمجرد توقف السيارة، ستتحدث معها لبضعة دقائق وتتبادل معها أرقام الهواتف بعيداً عن تسلط أختها، وحين حانت اللحظة، وأوقف "تميم" السيارة أمام مدخل المنزل، هتفت بمرحما:

- "هموسة" عروسة أخويا ممكن أتكلم معاكي في حاجة..

استدارت ناحيتها تسألها في حيرة بادية على نظراتها وقسماتها:

حاجة إيه؟

تنحنحت قائلة بابتسامتها التي لا تفتقر:

أح.. هاقولك.. لوحدنا.

فطنت "فيروزة" بذكايمها للسبب البديهي الذي دفعها لفعل ذلك دون الحاجة للإفصاح عنه، نظرت بنوع من الاستهتار إلى "خلود" التي ترجلت من السيارة، وبلطفٍ مالت عليها تطلب منها بتهذيب:

-معلش ممكن تستنينا هنا خمس دقائق.

على مضضٍ وافقت فقط لتستغل الفرصة وتباشر هي الأخرى بتحذير "هيثم" من الإساءة لتوأمتها، ولما لا تفعل المثل من أجل أختها وقد باتت متأكدة من دعم أسرة رفيقتها "علا" لها؟

انتظرت ابتعاد الاثنتين، وتقدمت بجسدها للأمام قليلاً وهي في حالة تحفز واضحة، ثم هتفت دون مقدماتٍ ولهجتها مصطبغة بالقوة:

-كلمة ليك يا أستاذ إنت!

التفت "تميم" أولاً نحوها، لكنها تجاهلته ونقرت بأصابعها على كتف "هيثم" الذي أدار جسده نصف استدارة لينظر إليها، غامت عيناه وأظلمت ملامحه عندما تابعت:

-بأكلمك إنت..

سألها في استهجان:

-عاوزة إيه؟

جاوبته بمزيد من القوة والجراءة:

-مش معنى إن أختي طيبة ومابتعرفش تتكلم كلمتين على بعض إن مافيش حد في ضهرها، لأ خد بالك هي مش لوحدها ولا عمرها هتتدل!

زوى ما بين حاجبيه متسائلاً في استغراب:

قصدك إيه؟

كانت مندفعة حد الجنون، ودمدمت بوضوح ونظراتها مثبتة عليه:

-يعني مش هاسييك تهنى للحظة لو فكرت في يوم تزعلها

رفض "هيثم" ما تفعله وصاح بتشنج:

إنتي واعية لنفسك؟ إنتي جاية تهدديني؟

كادت يده أن تمتد نحوها لولا أن أمسك به "تميم" من معصمه ليثبتته في مكانه، في حين ردت "فيروزة" عليه بتحدٍ ودون أن يرف لها جفن:

-أيوه، اعتبره تهديد!

توجس "تميم" خيفة من احتمالية تطاول ابن خالته عليها، شعر بتشنج رسغه أسفل قبضته، فهو أرعن لا يعي ما يفعل أو ما يقول، لا يزن الأمور بعقله حين تمس كرامته، وحثماً سيتصرف بجهالة، ولهذا عمد إلى الاستخفاف بكلامها حتى لا يأخذه على محمل الجد ويتعامل بطيشٍ معها وربما يتجاوز لن تقبله، فقال مبتسماً، وكأنه يهزأ بها:

-سيها تبعبع بالبوين الي مضايقتها يا عم! أصل في حريم مسترجلة وعاملة فيها سبع البرومبة!
اغتاظت من جملته التهكمية، والتفتت تحدجه بنظرة محتقنة، ثم هتفت فيه:
-متدخلش، محدش طلب رأيك!

سدد لها نظرة قائمة عبرت عن غضبه الشائر، ورغم هذا قال ببرود يشبه الجليد في قساوته:
-أنا مش مستنيكي تقولي امي اتكلم، وامتي أسكت، بلاش تخربي على أختك عشان حقدك عليها.

تطلعت إليه في فم مفتوح عبر عن استنكارها، وعاجلته محتجة وهي تسأله بعصبية:
-أنا بأحقد على أختي؟

نظر لها شزرًا قبل أن يرد:

-أيوه، وباين إنك مفروسة منها.

-بلاش هبل!

نجح "تميم" ببساطة في توجيه دفة اللوم ناحيته ليتحول الهجوم عليه، بينما استل "هيثم" ذراعه من قبضته، وهتف بصوته المتنمر وهو يفتح باب السيارة ليترجل منها:

-أنا هاروح أجيب سجائر بدل ما أرتكب جناية هنا.

مجرد حجة واهية ليهرب من تلك الشخصية المستفزة حتى لا يفتك بها، ومع ذلك هتفت تغيظه:
-يالا، بالسلامة.

صفق الباب بانفعالٍ فانتفض جسدها من أثر الصوت القوي، ومع ذلك ظلت على وضعيتها المتحفزة تتنفس بصوتٍ أقرب للهاث حتى هدأت مهاجها قليلاً، لكنها أحدث تأثيراً خفياً على "تميم" الذي شدد من قبضتيه على المقود، أدركت "فيروزة" أنها بقيت بمفردها في السيارة، ونظرات "تميم" مسلطة عليها من انعكاس المرآة، اثابتها حالة من النفور والانزعاج، فترجلت من سيارته تقول بتذمرٍ:

- الحمد لله إن الليلا دي خلصت!

وأمسكت بهاتفها المحمول لتتحدث فيه ريثما تنتهي "خلود" من إملاء تعليماتها على أختها، انشغلت في محادثتها ونظراتها بين الحين والآخر تجوب على السيارة لتجد أنظاره ما زالت تصحبها أينما سارت، رمقته بنظرة متعالية وهي تشيح بوجهها بعيداً عنه .. أحس "تميم" بالاختناق وبشعور لا يفقهه يصيبه بمزيد من الضيق والحنق، خاصة وهو يدرك أنها تعامله بازدراءٍ، لماذا هي بالأخص تنجح في قلب أحواله وتكدير سلامه؟ تحسس جبينه فوجده مرتفع الحرارة، ترجل من سيارته ليستنشق الهواء البارد، واستند بمرفقيه على سقفها يراقب الطريق بفتورٍ مقاوماً تلك الرغبة التي تداعبه وتدعوه للالتفاف والنظر إلى "فيروزة" .. أخرج من جيب سترته علبة السجائر وسحب واحدة ووضعها بين شفتيه، أعاد العلبة لمكانها بجيبه وفتش عن ولاعته ليشعلها، تلقائياً تحولت أنظاره نحو تلك التي تبختر في مشيتها البطيئة على الطريق، عاد ديب الرغبة ليناوشه ويستفز مشاعره الحسية بشكلٍ أكبر مع حركاتها العفوية وهي تعبث بخصلاتها المتمردة، وهي تتلمس شفتيها لتتأكد من وجود أحمر الشفاه بها. تصلب جسده واشتد تيبساً مع تلك الضحكة الناعمة التي امتزجت بابتسامتها المتوردة، ببساطة جعلته يحملق بها وهو يتساءل بجيرة جلية عاقداً تلك النوعية من المقارنة الغريبة:

فيكي إيه مختلف عن "خلود"؟! ؟

.....

الفصل الثالث والعشرون (الجزء الأول)

لمسة مداعبة لشعرها المتناثر بفعل النسيمات الباردة حانت منها لتجمع ما تمرد من خصلاته على جانب كتفها الأيسر، تبعتها بضحكة رقيقة ساحرة من شفيتها تصيب عقول الرجال بالفتنة، التفتت "فيروزة" لجانبها بتلقائية فوجدت "تميم" ما زال محققاً بها بجمود، انزعجت من نراته المسالطة عليها، وأنهت مكالمتها لتطالعه بغلظة قبل أن تسأله:

- في حاجة؟

تنحى معتدلاً في وقفته وقد أخفى تلك الريكة التي كادت تظهر على ملامحه، انتصب بكتفيه وأنزل مرفقيه عن سقفية العربة ليجيها بصوته الأجلش وبرود وهو يدس كفيه في جيبي بنطاله:

- مستني مراتي، إتي اللي في حاجة؟

نظرت له باستعلاء، وأبعدت عينيها عنه لتسير بتعجلٍ على الرصيف لتعود إلى مدخل بيتها، لكن لفت ساقها حول الأخرى وتعثرت في مشيتها المتسارعة لتتكئ كالخرقاء على وجهها في لمح البصر، انقلت من جوفها صرخة متألمة وقد أدركت أنها طرحت أرضاً، رفعت رأسها بحذرٍ وهي تستند على كفيها لتعدل جسدها، أخفضت نظراتها وتأملت الخدوش التي نالت من باطن كفيها بأنفاسٍ مضطربة، خرجت "همسة" و"خلود" ركضاً لنجدتها، تسألت توأماتها في قلقٍ:

-إتي كويسة

نفضت "فيروزة" كفيها، وردت وهي تقاوم الألم الذي طال ركبتها أيضاً:

-يعني..

سألته "خلود" في اهتمام:

طب تقدري تقفي؟

أجابته دون أن تنظر نحوها:

-أه.. مش حاجة مهمة

هتفت في مرح محاولة تخفيف الأمر عليها:

-حصل خير، تلاقي بس حد حسدك

رفعت عينها نحوها لتنظر لها باستخفاف، ثم علقت بتهكم:

-أكيد، والصراحة هما كُتار.

لم تفهم "خلود" مقصدها، لكنها أصرت على معاوتها على الوقوف، ومدت لها ذراعها لتستند عليه، وإن كانت لم تنتبه لزوجها الذي تابع المشهد من مسافة قريبة وقد ظهر الدهول عليه .. بدا "تميم" مترددًا في الذهاب وتقديم المساعدة، حسم التخبط الدائر في عقله بعدم التحرك نحو ثلاثهن، خاصة مع رؤيته لـ "هيثم" وهو يعود حاملاً كيسًا بلاستيكيًا في يده، وبالتالي لا يُعرضها للإحراج، نظر له الأخير متعجبًا وقد رأى في حالة من التحفز قبل أن يسأله:

-في إيه؟

أجابته وهو يتنحى بصوتٍ خفيض:

-أخت خطيبتك وقعت على الأرض، خليك واقف شوية!

اعتلى ثغره ابتسامة انتشاء، وقال في سعادة:

-ده خبر عظيم وزى الفل، عقبال ما رقبتهما تتقطم

زجره قائلاً بضيقٍ ونظراته الغائمة تركزت عليه:

-ما يصحش الكلام ده!

لوى جانب فمه معقبًا عليه بنفور:

-يا عم اسمع مني، دي بومة، والجوازة دي لو اتخربت هيبقى بسببها!

قال منهيًا الحوار السخيف:

-قفل، الموضوع مش مستاهل.

رد بنصف ابتسامة:

على رأيك..

ثم رفع يده بالكيس متابعًا جملته:

-هاروح أودي دي لخطيبي وراجع

أوما برأسه قائلاً:

-ماشي..

وبالرغم من حقن "تميم" المبرر ناحية "فيروزة" بسبب فظاظتها ولسانها السليط إلا أنه لا ينكر تلك اللوعة التي أصابت قلبه حين رآها تسقط هكذا، وهو يقف كالعاجز لا يستطيع مساعدتها، زاد ضيقه وانعكس على تصرفاته التي مالت للتشنج قليلاً؛ فركل بقدمه بعض الحصى على الرصيف، ودعس عقب سيجارته حتى أفناه، حتى ولاعتة لم تسلم من عصبيته ظل يعبث بها حتى علقت شعلتها فألقاها وحطمها بقدمه.

.....

بتبخترٍ وابتسامة عريضة سار "هيثم" نحو ثلاثهن ملقياً نظرة شامتة نحو "فيروزة" التي كانت تتأمل حالة ثوبها بعد تمزق جزء بسيط منه عند ركبتيها وعند طرفه بسبب كعبها الحاد، لم يبذل أدنى مجهود ليخفي سعادته بالأذى الذي أصابها، نادى بصوتٍ تعمد أن يكون جافاً:

-يا عروسة!

التفت نحوه "همسة" وهي تبتلع ريقها، أشار لها بيده التي تحمل الكيس متابعًا بصيغة تميل للأمر: تعالي هنا لحظة.

وضعت "خلود" يدها على كتفها تستحثها وهي تهمس بابتسامتها اللطيفة، وكأنها تمزح معها:

-روحيله، متخافيش مش هايعضك.

استدارت نحو "فيروزة" تسألها بعينها، فأجابت الأخيرة بنظراتها معلنة عن موافقتها وقد وقفت منتصبية في وقتها تتابعها بعينين كالصقر، وكأنها تستعد للاقتضاض على أحدهم إن لزم الأمر. تحركت "همسة" نحوه، تحاشت النظر إلى وجهه حين سألته بصوتها المرتبك:

-أيوه، إنت.. عاوز حاجة مني؟

مد يده بالكيس قائلاً:

-خدي دول، أنا جايب واحد ليكي، وواحد لأختك..

ثم أخفض من صوته مكملاً في ازدراءٍ وقد انقلبت تعابيرها للعبوس:

-يا أكش يطمر!

تناولت الكيس منه، وألقت نظرة خاطفة على محتوياته، فوجدت لوحين من الشيكولاته ذات الحجم الكبير، ابتسمت قليلاً وشكرته:

-ميرسي..

رد بنفس الوجه المتجهم:

طب بصيلي وانتي بتقولها!

أسبلت عينيها المتوترتين نحوه، وشعرت بتورّد خفيف يعصف ببشرتها، بادلها ابتسامة عادية، وأشار بيده متابعاً أوامره:

-يالا اطلعي فوق، مش هتقضيها واقفة كده كثير، وأنا مش ناقص كلمتين من خالك

هزت رأسها بإيماءة بسيطة قبل أن تقول:

-حاضر.

في تلك الأثناء، وقفت "خلود" إلى جوار "فيروزة" تتأمل أخيها وخطيبته بعينين لامعتين، مالت نحوها لتقول بتفاخرٍ:

-شكلهم لايق على بعض أوي، ماشاء الله ربنا يحميهم من العين.

نظرت لها من طرف عينها وهي تعلق باستهجان:

-إنتي شايقة كده؟

أجابتها مدافعة عنه بنوع من التحفز الطبيعي:

على فكرة أخويا طيب جدًا، إنتي بس اللي مش عارفاه كويس

ابتسمت "فيروزة" في سخرية قائلة لها وقد استعادت مشهد دفعه لوالدتها في مخيلتها:

-ما هو واضح

فسرت "خلود" أسلوبها المتعالي معها في الحديث بأنه عجرفة وقحة المقصود منها احتقار شقيقها والتقليل من شأنها أيضًا، ولم تكن لتسمح بذلك، فإن كانت لا تتقبل بعض طباع شقيقها الطائشة، لكنه يظل من لحمها ودماغها، لذا قالت بابتسامة متكلفة، وبنبرة ذات مغزى:

-ربنا يهنئهم، وعقبالك.. أصل أنا أعرف إن التوأم بيحبوا يعملوا كل حاجة مع بعض، حتى في الخطوبة، عشان الغيرة!

استشاطت عينها من فظاظتها، والتفتت نحوها ترمقها بنظرة نارية، هتفت في استنكارٍ ووجهها مُريد بحمرة غاضبة:

-نعم؟ غيرة؟ على إيه إن شاء الله؟

ابتسمت في برود وهي تعقب:

-برضوه، الأمر مايسلمش!

توحشت نظراتها حين ردت تنكر ذلك:

-إنتي غلطانة! مش أنا و"همسة" اللي نغير من بعض

ريبت على كتفها ترد:

-ما تخديش الموضوع على أعصابك بس، كله في الأول والآخر قسمة ونصيب!

نجحت "خلود" في إحراقها بكلماتها الناقمة، ولم يكن فقط ينقصها إلا نعتها — (العانس) لتتلاذد أكثر برؤيتها تتلوى من الحق .. ضحكت بتصنع قبل أن ترد عليها وهي تدعي احتضانها لتودعها:
-مش هاعطلك بقي...

وزادت من تلك البسمة السخيفة وهي تكمل بغنج مائع مستخدمة عينها اليمنى في الغمز:
-زمانت جوزي قاعد على نار مستتيني، بيحبنى موت، ولما بأغيب عنه ييقلق، لما تتجوزي هتفهمني .. يالا أشوفك على خير، مع السلامة
أطبقت "فيروزة" على شفيتها تمنع نفسها بصعوبة من شيمتها وتلك السمجة تكرر ضاحكة بصوتٍ مجلجل لتستفزها، وكأن شأنها مع زوجها يعينها حقًا، انتظرتها حتى خطت مبتعدة عنها، وكزت على أسنانها تغمغم في ضيقٍ متعاضم:
يا رب تولعوا إنتو الاتنين.

ثم استدارت رافعة طرفي ثوبها لتسير بتعصبٍ نحو الدرج متحملة الألم الذي يضرب بركبتها حتى لا تنفجر غيظًا أمامها فتظن بذلك أنها فازت في جولتها الكلامية وتزيد من شامتها بها.

.....

جلس القرفصاء على تلك الوسائد العريضة التي تفترش جانب الشرفة المغلقة بنوافذ الألومينيوم ذات الوجهين، وأمسك بخرطوم نرجيلته يده بين شفتيه، سحب بعمق الدخان، وحبسه للحظة في صدره، ثم أخرج سحباً كثيفة منه عبقت المكان من حوله، تجشأ "محرز" وألصق هاتفه المحمول بأذنه ليتابع باقي مكالمته الجادة:

-مافيش مشكلة، بس زدولنا الأصناف دي في التوريد المرادي كمان يا حاج "لطني".

عاد ليدخن النارجيلة وهو يصني للطرف الآخر قبل أن يرد:

-ما هو الطلبات كثيرة عليهم

تحولت تعابيره للقتامة، وزاد احمرار حدقته المتهبتين مسبقًا من كثرة التدخين حين قال له بنبرة تعبر عن شيء غير مريح يخفيه:

-لا مالوش لازمة تعرفه..

لانت نبرته قليلاً عندما ادعى كذباً:

يا حاج هو مشغول مع الجماعة بتوعه، خليه يفرحله يومين ويدلع بعد الهم اللي كان فيه

نفث سحب الدخان مرة أخرى قبل أن يضيف:

-أيوه، على الدكان الثاني.

سعل بصوتٍ متحشرج وهو ينهي مكالمته معه:

-كثر خيرك .. ده العشم بردك .. الله يكرمك.. وعليكم السلام

فرد ساقه بارتياح على وسادة أخرى وقد أغمض عينيه لوهلة ليستغرق في أفكاره الطامعة، تكدر

صفوه الوهمي عندما سمع "هاجر" تسأله مباشرة وكأنها تلاحقه:

-دكان إيه ده اللي بتتكلم عنه؟ شغل تبع أبويا؟ ولا في حاجة تانية أنا معرفهاش؟

انتفض في جلسته المسترخية وسحب ساقه ليثنيها نحو صدره، غامت نظراته نحوها، وحك بإبهامه

كفه متسائلاً بلهجة مستنكرة تحقيقها الحذق معه:

-وانتي من امتي بتسأليني عن شغلي يا "هاجر"؟

كتمت ساعديها أمام بطنها المنتفخ، وأجابته بمسحة من العنجهية في صوتها:

-عادي.. مش مال أهلي اللي إنت شغال فيه؟ مغلطتش لما بأطمئن عليه!

اغتاظ "محرز" من جملتها الأخيرة، وتمتم بصوتٍ خفيض يلغنها:

-أبو.. أهلك!

لم تفهم صوته الخافت، فاقتربت منه لتسأله من جديد:

-بتقول إيه؟

تجشأ بشكلٍ مقزز، ثم استرخى في جلسته، وطالعتها بنظرات باردة ليبتسم بعدها بساجدةٍ وهو يخبرها كذباً:

-يا ستي ده واحد مستقصدي أتوسطله في مصلحة أفضيهاله بس مش معاه يدفع كاش، وشغلنا ده زي ما إنتي بنترط فيه من كلامنا، وأنا وعدته أتدخل وأسهله الأمور، ها في حاجة تانية؟ نظرت له في امتعاضٍ وهي ترد:

-لأ.. بس مكنش في داعي للفرزة دي

هتف بضيقٍ لم يخفه:

-ما إنتي كان ناقص تسرقيني يا "هاجر"، إيش حال مكونتش شايل شغل أهلك على دماغى 7 سنين ومحدش كان بيحاسبني بأعمل إيه!! ردت عليه موضحة:

-يا "محرز" دلوقتي الوضع اتغير، و"تميم" بقى موجود، ومش ناقصة أسمع كلمة بايخة من أبويا لما يقولي ده جوزك مقصر في حاجة

أشاح بوجهه بعيداً عن عينيها المراقبتين له، وقال بتأفّف:

-لا ياختي اطمني، كله تمام!

شعرت "هاجر" بالغثيان يضرب معدتها من الدخان الذي لوث رثتها، وضعت يدها على أنفها لتكتم الرائحة الكريهة التي تستنشقتها، وسألته:

-هتنام ولا هتعمل إيه؟

لم ينظر نحوها حين أجابها:

-هاخلص الحجريين دول وأحصلك

هزت رأسها تحذره قبل أن توليه ظهرها:

طيب، بس ابقى اتأكد إنك طفيت الفحم بدل ما تقوم حريقة

رد بتبرم:

-ربك يسترها.

ظلت نظراته الساخطة مرتكزة على أثرها بالرغم من رحيلها، وهمس يقول لنفسه وخرطوم النارجيلة يتراقص بين شفثيه:

-هانت، كل واحد هياخذ حقه .. قريب!

.....

مسحت بظهر كفها دمعاتها الحارقة التي اغرورقت بها مقلتيها حين رأت العلامات بارزة في ثيابها القطنية، أدركت "خلود" أنه لا أمل ذلك الشهر في حدوث الحمل، سستنتظر على أعصاب متوترة ما سيحدث الشهر القادم، بالإضافة لبعض الجمل التويخية من والدتها، وكأنها المسئولة عن عدم حدوثه .. أكملت ارتداء ملابسها، ووقفت أمام مرآة الحمام تتطلع إلى وجهها الذابل، فتحت الصنبور وبللت أصابعها بالماء لتغسل به وجنتيها حتى تمحو آثار البكاء من عليهما، ثم قرصت خديها لتظهر توردهما بعد تنشيفهما، وابتسمت رغم حزنها حتى لا تشعره بالقهر الذي انتابها لمجرد تأكدها من زيارة ضيفتها الشهرية. خرجت من الحمام وتساءلت بمرح زائف:

-حبيبي، إيه رأيك في عروسة أخويا؟ تنفع؟

أجابها "تميم" ساخراً وهو ينظر لها:

-هو أنا هتجوزها؟

ضحكت قائلة وهي تقف أمام التسريحة لتمشط شعرها وتعقصه:

-بطل هزار، لأ بجد، رأيك فيها إيه؟ بنت كويسة؟ حلوة؟ شبهنا كده؟

لم يجذب أبداً التطرق لذلك الموضوع بعد الحالة المرعبة التي انتابته تلك الليلة، لذا شوش على ما يناوش عقله مردداً على مضمّن ليظهر لها عدم أكرانه:

-معرفش، اسألني أخوكي.

تهدت معلقة عليه وهي تضع المشط في مكانه:

-هو شكله مبسوط، والبنت عجباني.. بس أختها لأ!

تقلص وجهه واشتدت تعايره قليلاً حين نظقت بما لا يرغب، استلقى على الفراش، وضغط على شفثيه محاولاً ألا يشاركها الحوار، لكنها استمرت في ازعاجه وتشويش أفكاره قائلة:

-أنا مش بأقول عنها حاجة وحشة لا سمح الله، بالعكس هي جميلة، بس تحسها مش مريحة كده، أخدة الدنيا على صدرها، مش هامها حد، وبينني وبينك شكلها غيرانة من أختها، والحدق يفهم!

أخفت ضحكة عبثية تشككت على شفثيها بيدها، وكأنها بذلك قد نجحت في تحليل شخصيتها المعقدة باعتبارها خيرة محنكة في أنواع النساء، أولاهها ظهره ليتقلب على جانبه، وقال بفتور:

-هما أحرار في بعض، احنا عملنا الواجب وخلصنا

استلقت "خلود" بجوار زوجها بعد أن نزعت روبا عنها، مالت نحوه لتحتضن كتفيه، ثم قبلت صدره، وتهدت بجملة على جلده ليشر بلهيب أنفاسها، داعبت طرف أذنه بأناملها، وقالت له معتذرة:

-معلش يا حبيبي، إنت هتاخذ كام يوم أجازة مني، يعني.. إنت فاهم بقي

فطن "تميم" إلى ما ترمي إليه، لم ينكر أنه شعر بالارتياح من تلك النجدة الإلهية لافتقاده الرغبة في ممارسة أي من طقوس الحب حتى وإن قام بواجبه على أكمل وجه، ابتسم وقال بنبرة تميل للنعاس:

-ما فيش مشكلة.

تابعت بمرارة:

-كان نفسي أبشر باللي يفرحك، بس ربنا ماردش

تنفس ببطء ورد عليها وجفناه مطبوقان:

-أنا مش مستعجل، لسه قدامنا العمر كله

قبلت جبينه، وتمددت على ظهرها لتحقق بعينين تستدعيان الدمع وهي تتابع:

-يعني.. أنا عارفة إن أهالينا نفسهم يفرحوا بالأخبار دي و...

قاطعها بجديّة وقد جفاه النوم فجأة:

- "خلود"!

ثم استدار نحوها ليقول:

محدثش ليه الحق لا يتدخل ولا يتكلم في الموضوع ده غيرنا، والوقت المناسب هيحصل، متحطيش إنتي في بالك.

التفتت ناحيته برأسها فرأت نظراته تجوب على وجهها المنكسر، مد يده ومسح تلك العبرات المتسللة من طرفيها، فاندفعت تقبله كالعمياء من شفّتيه، احتضنها وبادلها قبلة مطولة، ثم حاول إبعادها لكنها أصرت على الالتصاق بجسده ليشعر بما يختلج صدرها، مسح على ظهرها بود، وقال مبتسمًا عليه يخفف من حزنها:

-سبها على الله، وخلينا في فرحة أخوي.

تطلعت إليه بعينين تلمعان بقوة، ولاحت تلك البسمة المنتقصة على شفّتيها، وردت في يأس:

-نفسى أقدملك كل حاجة عشان تكون جمبي على طول، خايفة تبعد عني!

تقلصت عضلاته فجأة، شعر لوهلة بالقلق وكأنها ترتاب لأمره، ورد بانزعاج ونظراته تلوّحها:

-هابعد أروح فين بس؟

-يعني ممكن تسافر، أو تتجوز..

-لأ ماليش في السفر..

حاول مداعبتها فمزحها بتلقائية دون أن يدرك أنه يحرر أفكاره التي تراود رأسه في لا وعيه:

-ولو يا ستي فكرت أتجوز هابقي أجيبها تعيش معاكي

نظرت له بجدة وقد قست ملامحها، فابتسم ليخفي حالة التوتر التي عصفت بكيانه لتلك الذلة المميّنة، لم يقصد ذلك أبدًا، كانت مجرد طرفة عابرة، لكن ظهر تأثيرها المقلق على قسامات زوجته،

أحنى رأسه عليها ليلتقط شفيتها بشفتيه، وطبع قبلة أشد عمقًا وأقوى تأثيرًا عليها عليها تتأكد من مشاعره نحوها وتنسى- ما باح به العقل، وكأنها نالت المسكن المؤقت لأحزانها الحالية بإشباع توقها لحبها الشغوف به، بقيت مستقرة في أحضانه وإن لم تغمض جفניה. انتظمت أنفاس "تميم" وغرق في نومه، بينما ظلت "خلود" ساهدة، ساهمة حتى الساعات الأولى من اليوم الجديد، حينها خرج من جوفها تهيدة بأئسة محملة بالآمال والأحلام، تمتت فيها بكل أعماقها وعيناها معلقتان بالسما قبل أن تغمضها أن يحدث ما ترجوه عما قريب لتبشره وتنال الخطوة الكبرى لديه أولاً ولدى كامل عائلته، فتتربع على عرش عائلة "سلطان" بحفيدهم.. والوريث المنتظر

!!

.....

الفصل الثالث والعشرون (الجزء الثاني)

أنهت جزءاً كبيراً من المقرمشات والتسالي التي كانت تحتفظ بها شقيقة زوجها في المنزل وهي تتابع بنهم الأحاديث الجانبية التي تلت الخطبة حتى تستأثر بكامل الأخبار، لم تصعد إلى منزلها وأخبرت زوجها بقضائها لباقي السهرة في منزل "آمنة" التي لم تمنع من وجودها وتعاملت معها بكل ودٍ ومحبة. افترشت "حمديّة" الأريكة العريضة بجسدها تاركة أطفالها يلهون حتى أصابهم النعاس وغفلوا على السجاد غير مكترثة بحالتهم المحزنة، فضولها كان يدفعها لمعرفة المزيد، كانت نظراتها كالأفعى تترص بالتوأمين وتتابع ما يصدر منها من كلمات أو تلميحات، حتى عندما غابت الاثنتان بالداخل ليبدلا ثيابهما بعد عودتهما من الخارج لوقت لا بأس به على أمل أن ترحل، كانت في انتظارهما بأعصاب جليدية. لم تمنحها "فيروزة" أي معلوماتٍ وتركها تتخبط في حيرتها، و"همسة" لم تملك سوى القليل من الحديث لتقوله، وذلك لم يكن كافياً لإرضائها ..

تشاءت "فيروزة" بصوتٍ مسموع وهي تنظر إلى ساعة الحائط التي تخطى عقربها الثانية والنصف بعد منتصف الليل عل الضيفة السمجة ترحل، لكنها كانت مُصرّة على البقاء، أفرغت زوجة خالها ما في يدها من قشرٍ وقالت وهي تنفض راحتها:

قومي يا "هموس" هاتيلي بؤمياه، لأحسن اللب الأبيض نشف ريتي

ردت عليها "همسة" بنبرة مرهقة وهي تحاول تحريك جسدها المتعب لتنهض:

-مش كفاية كده يا مرات خالي؟ الفجر قرب يأذن.

استرخت "حمديّة" أكثر في الأريكة، وقالت وهي تسحب الوسادة الصغيرة خلف ظهرها:

-ياختي وراانا إيه، أدينا سهرانين.

هتفت فيها "فيروزة" بامتعاظٍ ونظراتها المزعوجة مسلطة عليها:

-بس احنا تعبانين وعاوزين ننام، دماغنا مصدعة.

نهرتها والدتها لانعدام ذوقها معها فأردفت قائلة:

عيب كده يا "فيروزة"، ما يصحش!

ردت عليها "حمدية" وذلك العبوس يحتاج ملاحظتها:

قوليلها يا "آمنة"، هو أنا غريبة؟

ثم وجهت حديثها لها مهاجمة إياها بوقاحة:

-أهي طولة لسانك دي اللي هاتطفش العرسان منك، وتخليكي زي البيت الواقف محدش راضي
يصلك، ما تخليكي كده زي أختك حلوة وفي حالها.

هبت واقفة، وزجرتها بعصبية:

-أنا مبسوفة كده، ومش عاوزة أتجوز

مطت "حمدية" شفيتها لتهمس بنمير:

-يا ساتر على تقل دمك، ابقى تفي على وشي لو جالك حد أصلاً!

نظرت لها شزراً، والتفتت تقول لوالدها:

-أنا داخلة أنام، تصبحي على خير يا ماما.

ردت "آمنة" مبتسمة:

-وانتي من أهله يا حبيبي، اقلبي الإزاز كويس عشان الهوا جامد برا.

هزت رأسها قائلة بتشاوب:

-حاضر.. على الله الناس اللي عندها دم تحس!

كزت "حمدية" على أسنانها في غيظٍ وهي تدرك أنها المقصودة من ذلك التلميح الفظ، حاولت إخفاء حنقها الذي انعكس سريعاً على تعبيراتها ونظراتها، وضحكت مستطرده بسماجة:

-لما تروحو تنقوا الشبكة ابقني قوليلي يا "آمنة"، أنا خبرة عنك في الحاجات دي، وعشان محدش

يضحك على بنتك، ويجبولها حاجة أي كلام، برضوه حمايتها مش سهلة، واسم الله عليها "همسة"

تتاقل بالذهب، وانتي عارفاني في الحق زي السيف.

تهدت معلقة عليها:

-ربنا يسهل

احتقنت نظرات "فيروزة" من تدخلها المستفز في شئون العائلة وفرض سطوتها بطريقة مبالغ فيها،
فالت على أختها لتقول لها بتدمر:

-شايفة الفشر؟

ردت عليها "همسة" مبدية انزعاجها:

-أنا معرفش هي حاشرة نفسها ليه؟ الموضوع ميخصهاش من الأساس.

عقت عليها بنبرة اكتسبت العصبية:

-لإزاي، ده مش بعيد تذلنا طول عمرنا، وأمك مش هاتقولها لأ طبعا، رجلها هتسبق رجلنا،
ومرات خالك والكلام اللي لا يودي ولا يجيب

أمسكت "همسة" بها من ذراعها ودفعتها برفق نحو الردهة وهي تتابع:

خلينا نبعده عن وشها، أنا مش هاجيبها حاجة، على الله تحس على دمها وتمشي

ردت باستنكار:

-دي لازقة بغرا، مش هاتمشي بالساهل!

ظلت الاثنتان تتهامسان حتى دخلتا الغرفة، توقفت "همسة" عن السير لتغلق الباب من ورائها،
بينما تقدمت "فيروزة" نحو الدولاب لتفتح ضلفته، أخرجت منامتها المريحة من على الرف العلوي،
وبدأت في خلع ثيابها، لمحت الأولى تلك التحزرات الحمراء التي أصابت الندبة الموجودة على كتف
توأمتها الأيمن لارتدائها حمالة الصدر الجديدة ذات الأربطة الحادة لفترة طويلة، فقالت على الفور
لتشير انتباهها:

-العلامة اللي عند كتفك شكلها ملتهب خالص.

تحركت الأخيرة نحو التسيريحة مديرة كتفها للجانب حتى تتمكن من رؤيته تاركة منامتها على الرف، نظرت إلى الالتهاب الذي أصاب الندبة الباقية لها من آثار حريق الماضي، وقالت على مضض وهي تتحسس جلدتها بجذري:

-منها لله "حمدية"، هو أنا كنت ناقصة!

وقفت توأمتها خلفها، وعرضت عليها بود:

-خليني أدهنالك، أنا عندي كريم ملطف.

هزت رأسها موافقة:

-ماشي يا "هموس".

قامت "همسة" بفتح الدرج الجانبي للتسيريحة لتخرج منه علبة كريم مرطب تستخدمها كل فترة، نزع الغطاء، ووضعت كمية معقولة بين أناملها، ثم لامست بحرص جلدتها المشتعل بجمرته الملتهبة لتدنه حتى تسكن آلامه، ومع كل لمسة عليه كانت "فيروزة" تتصلب وتتوتر، ما زالت آثار تلك الليلة المحزنة مختومة على جسدها ومحفورة في ذاكرتها، يتنشط عقلها بين الحين والآخر بلمحات منه ليزداد هلعها وانباض قلبها، لكنها تناضل لإغراق ما يطفو على السطح في ظلمات عقلها عليها تنسى ما رآته آنذاك، اقشعر بدنها وهتفت فجأة وهي تزيح يدها:

-كفاية يا "همسة"، أنا بقيت كويسة.

لم تترك لها الفرصة للاعتراض عليها، تحركت من أمامها وعادت إلى الدولاب لتسحب منامتها وترتديها، تأملتها شقيقتها في حزن وإشفاق، كانت تعلم مدى قساوة تلك التجربة عليها وإن لم تفصح عن ذلك.

.....

استلقت على ظهرها على الفراش عاقدة يديها خلف رأسها، حملت في سقفية الغرفة بعينين متسعيتين بالرغم من الظلام الذي احتل الغرفة مستعيدة تفاصيل خطبتها وما دار فيها من شد وجذب، ومحاولات التودد وخلق العلاقات الأسرية الطيبة، أدارت رأسها للجانب لتتأمل

"فيروزة"، كانت تعلم أنها لم تتم بعد؛ بسبب تقلباتها المتعاقبة على الفراش، تهدت ببطءٍ، وهتفت تسألها:

-إنتي لسه صاحية؟

أجابتها بصوتٍ شبه متحشرح:

-بأحاول أنا

عضت على شفتها السفلى في ترددٍ واضح، ثم سألتها بركةٍ محسوسة:

-عاوزة اسألك في حاجة؟

لم تتطلع إليها أو تتحرك من مكانها وهي ترد:

-خير؟

سحبت شهيقًا عميقًا طردته من صدرها على مهلٍ قبل أن تتابع:

-إيه رأيك في "هيثم"؟

أجابتها دون تفكير:

-مش مستريحاله لا هو، ولا أخته، ولا جوزها!

ابتسمت "همسة" في تهكم، كان ردها واضحًا ومفهوم الأسباب، اعتدلت "فيروزة" في نومتها بعد أن استدارت نحوه شقيقتها، مدت يدها لتضيء المصباح الجانبي الصغير الموضوع على الكومود إلى جوارها، وسألته دون مراوغة ونظراتها مثبتة على وجهها:

-إنتي عاوزه تكلمي الخطوبة دي ولا لأ؟

جاوبتها "همسة" في حيرة وهي تفرك أصابعها لتخفي حرجها:

-مش عارفة لسه؟

قالت بلمحة تعبر عن السخرية:

- ما أكيد ملحقتيش تحبي عريس الغفلة

ردت مستنكرة:

-لأ طبعًا

أضافت "فيروزة" بجدية وهي تشير بيدها:

-بصي- يا "همسة"، ساعات الواحد في لحظة تسرع بياخذ قرارات غلط، مش عيب إننا نرجع فيها طالما ...

لم تكن توأمها راغبة في إنهاء الخطبة أو التراجع عن ذلك الارتباط غير المتوافق، فقاطعتها دون ربكة:

-أنا مش ندمانة على فكرة، وعازية أقولك إن "هيثم" اعتذرلي عن الموقف البايخ اللي عمله مع ماما!

رفعت "فيروزة" حاجبها للأعلى في اندهاش:

-بجد؟ حصل امتي ده؟ ولا ده دفاع منك عنه

هزت رأسها بالنفي:

-أه والله، واحنا واقفين لوحدنا، اعتذرلي..

قالت في استحسان:

-كويس!

أضافت "همسة" بابتسامة صغيرة وهي تلمح للحلوى التي اشتراها لكتليهما:

-وبعدين إنتي شوفتيه جابلنا إيه قبل ما نطلع البيت

علقت ساخرة منها وقد أولتها ظهرها:

-أه .. والظاهر إنه هياكل بعقلك شيكولاته.

التفتت "همسة" بجسدها للجانب الآخر من الفراش لتولي ظهرها لشقيقتها، وتابعت هامسة
بتنهيده:

-مظنش.. بس بأحاول استبشر خير.

ثم أغضت عينها لتستعيد في مخيلتها مشهد بقاءها مع خطيبها بمفردها على الشرفة المتسعة بالمطعم،
حينها كانت في حالة لا تُحسد عليها من الخجل، والارتباك، والتلعثم، والارتجاف. مد "هيثم" يده
ليمسك بكفها المستند على الحافة، لكنها سحبته في سرعة وقلبها يدق بعنف، استاء مما ظنه نفورها،
وعاتبها بضيق:

-لعلمك أنا بأتفرز من اللي يطنشني.

اعتذرت منه باستحياءٍ وكامل نظراتها مرتكز على الأمواج المتلاطمة:

-أنا أسفة.. بس مش متعودة حد غريب يقرب مني.

نفخ بصوتٍ مسموعٍ كتعبير عن ضجره من حذرهما قبل أن يستأنف قائلاً:

-ماشي، هاسيبك لحد ما تتعودي عليا، بس كنت عاوز أقولك حاجة؟

ابتلعت ريقها وردت:

-تفضل.

تنحج بخشونة، وتابع بترددٍ بائن في صوته، وكأنه يحاول استدعاء الكلمات لتتصفه:

فأكرة اليوم إياه.. ساعة لما وقعت أمك على وشها

ورغم استيائها من ألفاظه الفظة في محاولته للإشارة للموقف السابق -والذي دفع فيه والدتها بعنفٍ

وطرحها أرضاً خلال فرح أخته- إلا أنها ردت بهدوء:

-أها، ماله؟

اخشوشنت نبرته وبدت خافتة حين بادر معتذراً:

-أنا محتوقلها، مكنش قصدي.

هزت رأسها مبتسمة في رضا:

-تمام.

أكل مفسراً بتشنج طفيف:

أصلي يوماً كنت مضايق شوية من كام حاجة حصلت، ويعني دخلت فيكم زي القطر، ومكنش ليكم ذنب

اتسعت بسمتها أكثر، والتفتت ناظرة نحوه وهي تقول:

-كويس إنك بتعترف بغلطك، دي حاجة بأحترما.

تأمل ابتسامتها بعينين تعبران عن اهتمامه بها، للمرة الأولى تمتدحه فيها، لم ينكر أن تصرفه ذلك - وإن كان متأخراً- قد أتى بنتائج طيبة معها، ورأى ذلك يظهر بوضوح في تعبيرات وجهها لوح بيده مكملاً حديثه معها:

-يعني مش عايز نبدأ مع بعض وكل واحد فينا شايل من الثاني.

لعت شفتيها، وقالت:

-أها، كده أحسن

استرسل "هيم" مضيئاً بابتسامة متسعة معبراً بصراحة مطلقة عن مكونات صدره:

-تعرفي، أنا حمدت ربنا إنك طلعتي من بختي، مش أختك!

قست نظراتها وحل الوجوم على ملاحظتها عقب جملته تلك، ووبخته بانزعاج بائن:

لو سمحت ممكن ماتكلمش عنها، أنا بأزعل من الأسلوب ده

برر لها مقصده بوصفها بتلقائية:

يا ستي هو أنا قولت حاجة وحشة، بس هي عاملة فيها فتوة الحتة، وإنتي شكلك غيرها.

استاءت من طريقته غير المستساغة في اكتساب ودها بتلك الصورة الفظة، وهتفت محتجة:

بـرضوه هتغلط فيها؟

قال ملطفاً وهو يغازلها:

خلاص فكك منها، وقوليلي إتي حلوة كده إزاي؟ الصراحة قمر واقف قدامي.

تورد وجهها في نخيل، أخفضت نظراتها الساهمة، وردت تشكره:

ميرسي

تأمل تلك الحمرة التي اكتسحت بشرتها وزادت من إشراقة ملامحها، فواصل تغزله بشكلٍ أكثر جراءة:

إتني بتكسفي، يا لهوي يا جدعان، طب أوعى الجاز ليولع في الغاز!

أبعدت وجهها عن نظراته التي تخترقها وهي تخفي ضحكة عابثة تسخر فيها من كلماته التي تعبر عن فطرته الشعبية البحتة.. عادت "همسة" لواقعها المحيط وتلك الابتسامة لا تزال مرسومة على محياها، ربما فشل بشكلٍ ذريع في التعبير عن إعجابه بها واستمالتها نحوه، لكنه بطريقة ما استحوذ على قدر بسيط من تفكيرها.

.....

برقت حدقتها واتسعتا في نشوة حين وضع الحقيبة الجلدية على الطاولة الرخامية أمامها وفتحها لتظهر رزم النقود بوجهها المحفز للنفوس، أحست "بثينة" بعنف نبضاتها المتحمسة، فلم ترَ مثل ذلك المبلغ الضخم في حياتها مطلقاً، سال لعابها، وظهرت بوادر الطمع على محياها، ادعت جمودها وتساءلت بعدم أكثر:

إيه ده يا حاج "بدير"؟

أجابها بهدوئه وهو يجوب بنظراته على وجهها ذي الملامح الزائفة:

ده عشان جوازة ابنك يا "بثينة".

ازدردت ريقها وتساءلت بحماسة جاهدت لإخفائها:

-مش فهالك؟

عبث برأس عكازه براحة يده، وقال موضحًا:

-زي ما اتفقنا قصاد نسايبك الجداد، فلوس تجهيز البيت وعفش جديد والشبكة للعروسة.

ابتسمت في رضا، وردت بامتنان:

-الصراحة عداك العيب يا حاج، كده ابني يقدر يخش وما فيش حاجة نقصاه.

هز رأسه يؤيدها:

-مضبوط

ولكن تحولت نبرته للجدية حين تابع منذرًا إياها:

-وخدي بالك يا "بثينة" لو عاوزة ابنك يفلح!

زوت ما بين حاجيها متسائلة بقسماتٍ متجهمة:

-قصدك إيه؟

أوضح ببساطة وتلك النظرة المحذرة تنطلق من حدقتيه:

-ماتفحيش في ودانه زي تملي وتشقبي كيانه.

اريد وجهها بالحنق، وصاحت تنفي ما قاله:

-هو أنا بأحرضه ضدك لا سمح الله؟ مش حق أبوه اللي راح وآ....

قاطعها رافعًا يده أمام وجهها لتصمت:

-أحنا قفلنا على السيرة دي خلاص، وكل واحد خد حقه من زمان، وأنا رميت ورا ضهري اللي

عمله "هيثم"، قومي بدورك إنتي كأم معاه، وخليه يستقر عشان حاله يتصلح، وإياكي تظلمي بنات

الناس

مصممت شفيتها قائلة بتذمر:

-أنا زي البلمس يا حاج، بأتحط على الجرح يطيب
رد عليها وهو يستعد للنهوض:
هنشوف.

نهضت بتكاسلٍ من مقعدها، وقالت مجاملة:

-ما تقعد شوية يا حاج، ده إنت منورني

نظر لها بجمودٍ من طرف عينه قبل أن يرد:

-ورايا مصالح، سلامو عليكم

سار متجهًا نحو باب المنزل، وتبعته في سكونٍ حتى خرج وأغلقت الباب، التفتت لتلصق ظهرها
به، وحملت بعينين تتوهجان بجبثٍ مآكر على حقيبة النقود محدثة نفسها:

-أنا اللي هاخريها على ابني، يا حسرة عليه من يوم ما أبوه مات واحنا متلطمين، ده أقل من
حقه بكتير!

.....

-اعدل الرصة يا ابني، ده مال ناس!

هتف "محرز" بتلك العبارة عاليًا محذرًا إياه بلهجة صارمة وهو يلوح بيده لأحد العمال الواقفين أعلى
تلك الشاحنة، تابعه بنظراته أثناء رصه للأقفاص البلاستيكية التي تم ملؤها بثمار الفاكهة الطازجة
بعد وزنها ليتأكد من أداء عمله على أكمل وجه، التفت برأسه يمينًا ويسارًا ليتابع حركة المارة، لمح
"هيثم" وهو يركن سيارة الربيع نقل عند ناصية الشارع، ابتسم في مكرٍ وهو يمسح على صدره
بحركة دائرية متكررة، تحرك صوبه قاصدًا الحديث معه، ترجل الأخير من سيارته ليتفاجئ به أمام
ناظره، سأله بوجهٍ جاد التعبيرات:

خير يا صاحبي؟

غمز له قائلاً بلؤم وهو يلكزه بخنفةٍ في كتفه:

هنيالك يا عريس، أنا شايف الحاج من صباحية ربنا فاتح الخزنة الكبيرة وبيعني الشنطة فلوس
بالأكوام، زمانته راح عند الست الوالدة

سأله بنبرة ساخطة وقد توحشت نظراته:

-وانت عاوز نصيبك من الفلوس دي ولا حاجة؟

رد نافيًا ووجهه يكسوه مسحة من الغموض المخيف:

-لا، دول حلال عليك، وبعدين مش أنا اللي يملى عيني شوية الملامي دي، أنا عاوزك في حاجة
أكبر.

تطلع إليه في استغراب وهو يسأله:

-حاجة إيه دي؟

جاوبه "محرز" بمزيد من الغموض:

-بعدين هاقولك لما أظبط كل حاجة..

وزاد من ابتسامته اللزجة وهو يتابع ليتوه عن تلك المسألة المثيرة للريبة:

-ركز إنت في الجواز اللي جاية على كفوف الراحة دي

منحه نظرة ناقمة قبل أن يعقب عليه بامتعاظ:

-ما هي شورتك يا أبو نسب.

افتعل الضحك وتساءل بعدها:

-أومال فين "تميم"؟ مش شايفه يعني

حك "هيثم" أذنه وهو يجيبه:

-أبوه بعته مشوار، أنا طالع على القهوة شوية، جاي ولا؟

رحب باقتراحه قائلاً ببسمة غير مريحة:

-معاك.. هو احنا لينا إلا بعض!

.....

ألزمه "بدير" بالذهاب في المرة الأولى مع ذلك العامل ليده على منزل العروس الجديد باعتباره حديث العهد بالعمل في تلك المنطقة التي تعد جديدة عليه، وعلى مضض اضطر أن يوافق حتى لا يرد أمر والده، وبضغطة بسيطة على المكابح أوقف "تميم" السيارة بجوار الرصيف الملاصق لمدخل البيت. سدد نظرة متأملة متأنية لنوافذه الموصدة عله يلمحها واقفة، لا يعرف لماذا تبحث عيناه عنها تحديدًا؟ لم يكن ليهم هكذا برؤية زوجته التي تغدق عليه بالمشاعر الشغوفة، ناوشته تلك الأحاسيس الحماسية العجيبة واجتاحت وجدانه، أحس بديب قلبه يرتفع، تنحج بخشونة مقاومًا ما يعتريه من أوهام استنكرها ونفضها عن عقله، ثم ترجل وساعد العامل في إنزال الأقفاص المليئة بالفواكه من المقعد الخلفي، اعتدل في وقفته، ومسح بيده العرق الذي تجمع عند جبينه متسائلًا:

عرفت الدور ولا هتبوظ الدنيا؟

لم يكن العامل ممن يفهون سريعًا، قدراته الاستيعابية إلى حد ما محدودة، فأجابه بتردد:

-هاشوف يا معلم.

توتر "تميم" من إفساده للأمر، وقال مرغمًا:

-أنا جاي معاك، إياكش تفهم.

ثم انحنى ليحمل واحدًا من تلك الأقفاص الثقيلة، وتقدم في خطواته المتعجلة نسيبًا ليسبقه في الصعود على الدرج، يكاد يجزم في نفسه أنه لم يكن متحمسًا هكذا في بادئ الأمر، ولكن حين بات على مقربة من منزلها نشبت بداخله رغبة ملحة للتحجج بأي سبب ورؤيتها وإن كان ذلك على سبيل المصادفة، أيعقل أن يصل به الأمر ليتصرف كالمراهقين؟ لام نفسه بشدة على سذاجته وتصرفاته الطفولية، وردد بصوتٍ خفيض وهو يزفر:

-مش هاتحصل تاني! أنا هاسيب الحاجة وأمشي.

أنزل القفص على أعتاب باب المنزل، وانتظر صعود العامل حتى يملي عليه أوامره. همّ بالتحرك نحو الدرايزون لينظر إليه من خلاله، ولكن صوت صرير فتح الباب جمد قدميه، التفت عفوياً برأسه نحو من أطلت عليه من الداخل، ببساطة مريكة فسدت ما خطط له حين رأى "فيروزة" تتطلع إليه بنظراتها المدهوشة ورائحة عطرها الأنثوي قد فاحت في المكان واقتحمت أنفه لثملأ صدره بها، جف حلقه كلياً، وشعر بتلك الخفقة العنيفة تضرب أوتار قلبه وهو كالأبله ينظر لها مصدوماً، بدا وكأنه قد فقد القدرة على النطق أو التحرك، تخشب في مكانه لحظياً وصوتها الناعم يردد بابتسامة لا يعرف إن كانت ساخرة أم مرحبة:

ليه المفاجأة دي؟!

.....

الفصل الرابع والعشرون

تعلقت عيناه بعينيها المتطلعتين إليه وكأنها نفذت إليه فاخرقت كيانه، ربكة أخرى أشد وطأة عصفت بداخله، وذبذبت ما ظن أنه يملك زمام أمره؛ قلبه .. تدارك نفسه سريعاً، وأبعد حدقتيه عن تأمل تفاصيلها القريبة منه ليتنفس ببطءٍ شديدٍ حتى يضبط ما أصاب عقله من تخبط غير مفهوم، وفي أقل من لحظاتٍ كان وجهه قد اكتسب طابعاً مهنيًا جادًا، تراجع "تميم" خطوة للخلف ليفسح المجال للعامل لوضع باقي الأقفاس، وتجنب النظر إليها ليبدو كمن جاء لأداء مهمة محددة حين هتف أمرًا:

-حطهم عندك

رد العامل بامثالٍ:

-حاضر يا معلم.

لكن صوت "فيروزة" الرنان اقتحم أذنيه عندما قالت بنفس النبرة الساخرة:
-بنفسك يا معلم، احنا مش واخدين على كده.

عقب عليها بتجهيمٍ طفيفٍ وقد خالف عهد نفسه ونظر ناحيتها:

-كان عندي أمانة من الحاج بأوصلها.

تساءلت بتهمك ونظراتها تتفحص أقفاص الفاكهة التي احتلت عتبة المنزل:

-أها، وعريس الغفلة فين؟ مش هو المفروض يجي بدالك!

انزعج من تطاولها، ورد بجدةٍ، وكأنه يلومها:

-مش فاضي وراه شغل.

قالت مبتسمة في استخفافٍ محسوس:

-وانت بقى اللي باعتك بتقوم بدوره، غريبة!

زفر "تميم" عاليًا، وضرب كفه بالآخر في ضيقٍ قبل أن يرد عليها بوجهه الممتنع:

-لا إله إلا الله، هي مش ضارية معايا نرفزة على الصبح، أنا عملت اللي عليا وخلص..

ثم التفت نحو العامل يأمره من جديد بلهجة منفعة:

-يا لا يا ابني.

سبقه العامل في خطواته، وقبل أن يمضي "تميم" في طريقه استمع إلى صوت "آمنة" المتسائل:

-مين يا "فيروزة"؟

وما إن أبصرته حتى نادته عليه بلهجة لترحب به:

-أهلاً يا ابني، اتفضل شوية.

استوقفته عبارتها، فاستدار نحوها يشكرها:

-كثر خيرك يا حاجة.

ردت "فيروزة" على والدتها، فقالت بما يشبه التهكم:

-رحبي بنسايينا المعلمين.

ارتفع حاجبا والدتها للأعلى في استنكارٍ من فظاظتها الزائدة، ونهرنها بعبوس:

عيب يا بنتي، الراجل في بيتنا.

رد "تميم" ينصح أمها بلهجة جافة:

-شكرا يا ست الكل، بس يا ريت تعلمي الأبله الذوق مع الناس بدل ما لسانها فيه حته زائدة.

احتقنت بشرتها بجمرة مغتظة من تطاوله الفج، وتطلعت إليه بنظرة احتقارية شملتته من رأسه

لأنخص قدميه قبل أن تنطق مهاجمة إياه:

-ما في أشكال ما ينفعش معاها إلا قلة الأدب!

هدرت "آمنة" تعنفها لتجاوزها غير المحتمل:

- "فيروزة"!

اشتعل وجه "تميم" بغضبه، ورد بزجر بائنة في صوته يهددها بها وهو يلوح بسبابته أمام وجهها:
للمرة الثانية بأحذرك وإنتي بتتكلمي معايا، يا تخرسي وتحطي لسانك في بؤك، يا إما هاوقفك عن
حدك!

أهانتها بان دفاع، معتقدة في نفسها أنه لن يجرؤ على المساس بها في حضرة والدتها:
- ما إنت بلطجي و....

بترت باقي جملتها، وتأوهت من الألم المفاجئ الذي أصاب جانب ذراعها، وكأن شيئًا حادًا قد اخترق
ثيابها وغرز في لحمها، التفتت إلى الجانب لتجد والدتها تقبض بأصابعها عليها وكامل نظراتها مشتتة
غيظًا منها، ثم وبختها بلهجة قوية قاصدة إخراجها:

- ما تتلمي شوية! هو أنا معرفتش أرييكي ولا إيه؟ عيب أسلوبك ده مع ضيفنا، ولا عوزاني أمد
إيدي عليك قصاده!!!

أطبقت على شفيتها في حنق وهي تكاد لا تصدق ما تفوهت به من تهديد عدواني بحت، وأمامه
تحديدًا لتنصفه وتتخذ موقفًا معاديًا لها.. غالبت بصعوبة دموعها التي كانت تقاتل للتسلل إلى
مقلتها ومشاهد الإيذاء البدني واللفظي تتراقص في مخيلتها، راقب "تميم" ما يحدث بعدم رضا،
وهتف معترضًا بوجوم:

- عموما يا حاجة أنا كنت بأوصل أمانة.. ما فيش داعي للمشاكل..

تركزت عيناه على وجه "فيروزة" المتعصب، تبين من نظراتها الكارهة نحوه مدى ازدرائها له، ولم
يشعره ذلك سوى بالانزعاج وعدم الراحة، تابع بمسحة من الضيق في صوته:
- ومش هتشوفوا خلقتي تاني.

أدركت "آمنة" أن ابنتها قد تسببت في إحزانه، فاعتذرت منه على الفور:

- حقك عليا يا معلم، بنتي متقصدهش.

حنقٌ مُضاعف غطى قسّات "فيروزة" عقب جملتها تلك، لم تتحمل وداعة والدتها مع من تسبب في إيذائها، استلت ذراعها من يدها، وكبتت مضطرة غضبها في نفسها، ثم قالت بصوتٍ مختنق لتتفر من المكان:

- مع السلامة يا ماما، أنا رايحة مشواري.

ودون أن تنتظر الرد منها اندفعت كالطلقة هابطة الدرجات ركضًا وأنفاسها تلهج، يكاد يُجزم "تميم" أنها ستبكي قهزًا، اصطحبت نظرته تلقائيًا إلى أن اختفت، لكن شعوره بالانزعاج ما زال متعاطمًا، وكأنه ازداد قوة بابتعادها وهي في تلك الحالة الناقمة، تصنعت "آمنة" الابتسام وقالت ملطفة حين لاحظت شروده:

- والله بنتي طيبة، بس هي ساعات مابتقاش واعية للي بتقوله، فمتزلش منها.

تهد قائلاً لها بأسف:

- حصل خير يا حاجة، أنا عاوز أفهمك إني حاولت أراضيا وأعوضها عن اللي حصل، بس هي مرضتش

علقت عليه بنبرة متهمة، وقد ظهرت التعاسة على محياها:

- نفسها عزيزة عليها، وأنا بتأسفك تاني.

هز رأسه مرددًا:

- ولا ييمك يا حاجة، سلامو عليكم.

ألقت عليه التحية، فأولاها ظهره وتحرك هابطًا الدرج بخطواتٍ ثقيلة، ووجه "فيروزة" المحتقن لا يزال عالقًا في ذهنه.

.....

تناقلت ثمرة التفاح غير المأكولة بين يديه بلزمة متكررة وكأنها كرة تتأرجح في سلاسة دون أن يفقدها أو تسقط من راحته وهو جالس أمام دكانه غارقًا في أفكاره العميقة، شرد عن حوله، وكأنه في عالم خاص به، ما زال طيف وجهها العابس يحتل جزءًا من تفكيره، حز في قلبه أن يراها مجروحة

الكبرياء أمامه وإن كانت سليطة اللسان، أوشك عقله على الانفجار من كثرة ما يعتريه من صحبٍ يخصها وحدها، لم ينشغل هكذا بالتفكير بأحدهم منذ حبسه، حتى "خلود" لم تستحوذ على مقدار بسيط من اهتمامه طوال تلك الفترة المشؤومة، نفخ كمن أصابه السأم وتوقف عن العبث بالتفاحة .. حلق فيه والده مطولاً وقد جلس إلى جواره، لم ينبس بكلمة أو يعلق بشيء، كان صامتاً لدرجة أثارَت فيه الريبة، فسأله "بدير" مستوضحاً:

-إنت كويس يا "تميم"؟

ظل صامتاً ولم يجبه، فأعاد على مسامعه السؤال بنبرة أعلى:

يا "تميم" أنا بأكلمك، إنت كويس يا ابني؟

اتبته لصوته وقبض على الثمرة بيده، وكأنه يعتصرها، ثم استدار نحوه، وقال بوجه غير مقروء:
-أنا بخير يا با.

سأله في اهتمام وقد تقطب جبينه:

-عملت اللي طلبته منك؟ وصلت الحاجة للجماعة نسايب ابن خالتك؟

رد على مضيض وأمارات الضيق بادية عليه:

-أيوه.. كله تمام.

حرك رأسه في استحسان، وتابع:

-كويس، مش عاوزين تقصر معاهم، هما بردك محسويين علينا

قال غير مبالي وهو ينهض عن كرسيه الخشبي:

-اللي يريحك.

أوقفه "بدير" قبل أن يتركه بالإمساك به من ذراعه، وسأله وهو يتفرس في ملامحه الغريبة:

-مالك يا ابني؟ في إيه مضايقتك

رد ضاغظاً على شففته، وكأنه يتنسم، وهتف بزفيرٍ بطيء:

- ما فيش حاجة

أرخی قبضته عنه، وأضاف بجديّة:

طب اعمل حسابك هتتغدى عندنا إنت ومراتك النهاردة

نفخ في تدمر:

- مالوش لازمة يا بابا، ده احنا تقريبا يوم بعد يوم عندهم، يا إما عند أمها.

قال بإصرار:

يا سيدي أمك عاوزة تشوفك، وليها حق عليك، هتكسفها

لم يكن يمتلك طاقة للجدال أو التفسير، فأوما برأسه مستسلماً:

حاضر.

ابتسم له والده في حبور، ودعا له قائلاً:

- ربنا يهديك راحة البال.

وكان تلك الدعوة تحديداً هي ما كانت يحتاج إليها عل الطبول التي تفرع في رأسه تكف عن

ضجيجها، فدمدم برجاء صادق:

يا رب.

أقبل عليه "محرز" بسماحته المعهودة، وتساءل بظرفه اللزج:

إيه يا عم "تميم"، شكلك مكلمض ليه كده؟ الجماعة مزعلينك ولا إيه؟ ما هي أيام العسل معدودة،

وأيام البصل متعدش.

نظر له بعينين ممتزتين، ورد نافيًا:

- لا يا سيدي، ربنا ما يجيب بصل!

لكزه في جانب كتفه مازحًا:

-الجواز كله كده، مهما دوقت من العسل.

لم يستلذ أسلوبه الثقيل في المزاح، وأشاح بوجهه بعيدًا عنه ليشرع في التحرك نحو داخل الدكان، فهتف والده عاليًا ليستوقفه:

-ده المعلم "لظفي" جاي من بعيد أهوو

ارتسمت علامات الفزع على وجه "محرز" بمجرد التفوه باسمه، اتسعت حدقتاه بشكلٍ مريب، وتوترت أنفاسه .. أدار كالمسوع رأسه في كافة الاتجاهات وهو يردد بذهوله المرتعد:

-هاه، مين؟

أشار "بدير" بيده يأمر ابنه:

-روح يا ابني ناديله، ما يصحش نشوفه وما نسلمش عليه.

كان من الأدب ألا يتجاهل الضيف حين يراه، فرحب بوجوه:

-ماشي يا بابا

انقض "محرز" بعنفوانٍ يدعو للشك على ذراع "تميم" يشده منه وهو يقول بصوتٍ مرتبك:

-استنى يا "تميم"، أنا رايح بدالك ماتتعبش نفسك.

نظر له الأخير بغرابة، وانتزع معصمه من قبضته، ثم قال بإصرارٍ وتلك النظرة المستهجنة تكسو حدقتيه:

-لأ يا عم "محرز".

حبس الأول أنفاسه في ذعرٍ، خشي - من افتضاح ما يدبر له، بهتت تعابيره، وبدا كما لو كان قد قابل شبحًا للتو، ما أنقذه حقًا من تلك الكارثة الوشيكة هي تلك الأصوات التي صدحت فجأة لتعلن عن مشادة كلامية حادة بين العمال بداخل الدكان، استدار "تميم" برأسه نحوهم، وصاح متسائلًا بصوته الأجهش:

-في إيه يا رجالة؟

احتدمت المشاجرة فتدخل سريعًا قبل أن تتطور للتشابك بالأيدي، في حين تنفس "محرز" الصعداء لحدوث ذلك، وكأنها طوق النجاة له، وقبل أن يفكر مرتين، ردد حاسمًا أمره وابتسامته المهزوزة مرسومة على شفثيه:

-هاروح أنا.. للمعلم يا حاج.

علق عليه "بدير" وكامل انتباهه مع العمال المتلاحمين:

طيب يا "محرز".

تعجل في خطواته ليتجه إليه ودقات قلبه المتلاحقة تكاد تصم أذنيه، اعتصر - عقله ليختلق الحجج المناسبة ليستغلها ويقنعه بالذهاب قبل أن تنتهي المشاجرة، نجح بلوؤم في استدراجه بعيدًا عن محط أنظار عائلة "سلطان"، سأله بصوتٍ شبه لاهث من فرط التوتر:

-خير يا معلم "لظفي"، في حاجة حصلت؟

أجابه بعفوية:

-أنا كنت جاي أراجع معاك الطلبية الأخيرة، في حاجات ناقصة، وطلبتك في الدكان مكوتش موجود.

رد في عصبية ظاهرة على محياه:

-يا معلم ما إنت معاك موبايل، كنت اتصل عليا و..

قاطعه ليبرر سبب حضوره:

-فصل شحن يا "محرز"، وأنا كنت قريب منكم هنا، فقولت أشوفك وتكلم..

ثم تحولت نبرته للشك حين سأله:

-وبعدين مش كله بعلم الحاج ولا ...

رد "محرز" مقاطعًا بارتباك:

-لأ ما هو عارف وباعتني ليك.

أشار له بيده وهو يتابع حديثه:

طب بينا على الدكان

هتف فجأة كالمذعور:

-لأ!!!

اندهش "لظفي" من ردة فعله الغريبة، وسأله في استغرابٍ حائر:

-نعم؟ ليه؟

ابتلع ريقه وحاول أن يبدو هادئًا وهو يخبره:

-قصدي احنا هنقعد على القهوة، أصل.. في خناقة للركب هناك، العمال ولاد الهرمة ماسكين في بعض، وانت مش ناقص وجع دماغ.

تساءل الأخير مهمتًا:

-يا ساتر يا رب، طب والحاج "بدير"، و"تميم"

أجابه مبتسمًا وقد استعاد ثباته الاتعالي:

-بيحاولوا يهدوا الدنيا قبل ما توصل للأقسام، بينا يا معلم، أما الدنيا تروق هنروح عندهم.

تهد معقبًا عليه، وقد ارتضى باقتراحه:

طيب.

وبضعة جمل منمقة، وكلمات مقتضبة تأكد "محرز" من انطلاء كذبتة عليه، واستطاع أن يتحدث معه بأريحية عن كافة الأمور المتعلقة بشأن تجارته السرية، ونجا ببدنه من فضيحة وشيكة، وكُتب لخطته المدروسة بعناية النجاة أيضًا.

.....

انقضت بضعة أيامٍ وحان موعد اللقاء المرتقب بين العائلتين في وقت الظهر لشراء المشغولات الذهبية للعروس، رفضت "فيروزة" الذهاب مع توأمتها لانتقاء ما يعجبها حتى لا تتلقى بضعة

عبارات غير لطيفة من زوجة خالها أو ظرافة غير مقبولة من شقيقة خطيبها، كانت في غنى عن تلك السخافات غير المرغوبة، فلن تستطيع كبح نفسها من الرد، لذا فضلت البقاء في المنزل والالتفاء بترتيب دولابها حتى يمر اليوم بسلام ..

وأمام تلك الواجحة الزجاجية انعكس الوهج البراق والمخاطف للأنظار لتلك السلاسل الذهبية، انفرجت شفها "حمدية" عن انبهار واضح ونظراتها تجول على كل واحدة من المعروض أمامها بتفريس طامع، سال لعابها وتهدجت أنفاسها مع رؤيتها لواحدة كبيرة حتما ستتكلف الكثير، امتلأت عينها بصورتها الوهاجة، خُيل إليها أنها تفتننها ويتزين بها عنقها، تلمست ياقة بلوزتها بجرعة لا إرادية، بدأت الخيالات تراودها وهي تظن أنها ملكتها، وهتفت بحماسة مضاعفة:

-اختاري دي، حلوة أوي.

على عكسها لم تكن "همسة" منجذبة لبريق الذهب المغربي، كانت تنظر بفتور لكل قطعة على حدا، بحثت عن البسيط غير المتكلف، أشارت بيدها نحو واحدة رقيقة تحتل الركن السفلي من الواجحة، وتساءلت بتردد:

-ليه رأيك يا مرات خالي؟ دي شكلها أحلى و...

نظرت باستنكار لما اختارته، ولكزتها في جانبها بغيط، فتأهت من الوجد المباغت، رفعت عينها لتتطلع إليها في عتاب، وقبل أن تعترض على تصرفها العنيف معها، كزت "حمدية" على أسنانها لتهمس لها، وكأنها تحذرها:

-إنتي عبيطة يا بت؟

حملت فيها مصدومة، في حين واصلت زوجة خالها القول بنفس اللهجة الساخطة:

-عاوزه تختاري حته بتاعة مائسواش ثلاثة مليم؟ إنتي مناسبة عيلة ليها شنة ورنه، يعني لازم اللي تختاريه يكون قيم وغالي

ردت محتجة بصوت أقرب للبكاء:

-بس أنا مش عاوزه.

لحت "حمدية" حماها وهي تخرج من محل المشغولات، فهمست محذرة:

-اتكتي دلوقتي وما تفتحيش بؤك بكلمة!

تبخترت "بشينة" في خطواتها، وارتسمت على شفيتها ابتسامة مغترة، وكأنها حقًا تمتلك ذلك المال، ألفت نظرة متأنية على وجه العروس المتجهم، وسألته في فضول:

-في إيه يا عروسة ابني؟ مبوزة كده ليه؟

وقبل أن تبادر بالرد عليها، تدخلت "حمدية" بشكلٍ سافرٍ في الحوار، وادعت كذبًا:

-زعلانة إن أختها مش معاها، بس هنعمل إيه يا ست "أم هيثم".

زمت شفيتها مُبرطمة، وقد ارتفع حاجبها للأعلى لتبدي اعتراضها:

-هو كل الموجودين دول مش كفاية؟!

وقامت بالتعداد لها مستخدمة يدها في الإشارة:

-ده أنا، وأمها، وخطيبها، وأخته، ده غيرك طبعا يا ست "حمدية".

ضحكت "حمدية" بسخافة، وردت عليها مُعللة:

-أصلهم توأم، متعودين يعملوا كل حاجة مع بعض!

لوح يدها تقول بصراحة:

-إلا في الجواز يا إدلعي، كل واحدة لصاحب نصيبها، وأنا ابني ربنا بختها!

هزت رأسها تؤيدها:

-مضبوط

أطبقت "همسة" على شفيتها في ضيقٍ، لم تحبذ ذلك الأسلوب الرخيص المتبدل في إدارة الحوار، أبعدت وجهها عنها، وعادت لتحقق بجمرة في المشغولات التي تحتل الواجحة وهي عاقدة لساعديها أمام صدرها، رعشة مُربكة اتتاها حين أمسك "هيثم" بذراعها فجأة ليسحب يدها نحوه ويمسك بها، التفتت ناظرة نحوه في توترٍ، ابتسم لها متسائلاً باهتمام:

ها يا عروسة في حاجة عجبتك هنا؟

بخفة استلت كفها من بين أصابعه، وأوشكت على أن تجيبه لكن دفعة عنيفة نسيًا من "حمدية" أزاحتها قليلاً من مكانها، نظرت لها شزراً وقد وقفت في المنتصف بينهما، ثم ضحكت ممللة بجمايس مائع أصابها بالنفور:

طبعًا يا عريس الهنا.

وضع "هيثم" يده على مؤخرة عنقه يفركه وهو ينفخ بانزعاج من أسلوبها المستفز، وتساءل باقتضاب:

ليه هي؟

تصنعت "حمدية" الخجل، وأخفضت من نبرتها لتقول وهي تضع إصبعها على طرف ذقنها:

-بس هي خايفة متعجبكش

تساءل في فضولٍ ونظراته تدور بجيرة على المعروض:

-وريني كده، فين بالظبط؟

تعلقت "همسة" بذراعها لتمنعها، لكنها نفضت يدها وأشارت بسبابتها نحو تلك القلادة البراقة التي أعجبتها، وتلك النظرة الخبيثة تكسو عينيها، بدا وجه "هيثم" غريبًا، بالطبع لم يكن راضيًا عن اختيارها الذي أوحى بجشعها، ومع ذلك زفر بصوتٍ مسموع، وقال على مضض:

-ماشي.. طالما عجباها هنشترها.

تفاجأت "حمدية" من موافقته دون جدالٍ، واجتاحها نشوة عارمة، اعتقدت في نفسها أنه من النوع المغفل الذي يمكن استغلاله واستنزافه بسهولة، اتسعت بسمتها اللثيمة بشكل كبير وهي تمتدحه:

-ابن أكبر بصحيح!

بينما حملت فيه "همسة" بذهولٍ صادم، لم تشعر بالفرحة لشرائها، تأملت تعابيرهِ الممتعضة، وحركة جسده المتعصبة قليلاً، حينها اثناها هاجس مقلق بأن ما حدث الآن لن يأتي عليها بالخير، انقبض قلبها واختفت ملامح السرور من محياها، وتضرع راجية في نفسها:

-استرها من اللي جاي يا رب.

رمقت "بئينة" الاثنتين بنظرات نارية مغلوطة، أدركت من التمثيلية الهزلية المكشوفة أمامها معدن تلك العروس وطينة أهلها، كزت على أسنانها تلعنها في سرها:

-آه يا بنت الطماعة! لأ وعملاي فيها غلبانة وزعلانة على أختك، وحركات قرعة، وإنتي عينك هتطلع على المشاءلله دي..

توحشت نظراتها أكثر وهتفت تتوعدها بحنقٍ كاره بدأ يتكون ضدها:

-بكرة أطلعه على جتتك، هتروحي مني فين !!

.....

الفصل الخامس والعشرون

أرهفت أذنيها محاولة التلصص على تلك الأحاديث الهامسة بين خطيبة ابنها وزوجة خالها، لم تكن "بثينة" راضية عما يحدث من همهمات مُثيرة للشك، وما أوغر صدرها هو الطمع البائن عند انتقائها لتلك القلادة اللافتة للأنظار وإصرارها عليها، شعرت بالندم لعدم إظهار اعتراضها، وأدركت أن نظرتها لتلك الفتاة منذ البداية كانت خاطئة، وبنظراتٍ ممتعضة ووجه شبه حانق تحركت عائدة للداخل لتجلس بجوار "آمنة" وهي تبرطم بكلماتٍ ساخطة غير مفهومة، نظرت الأخيرة لحماة ابنتها بتمعن، ولاحظت مدى العبوس الظاهر على تعابيرها، فسألته بسجيتها:

-مالك يا حاجة "بثينة"؟

نظرت لها باستعلاءٍ من طرف عينها قبل أن تجيبها بنبرة موجزة:
-مافيش.

أحست "آمنة" بوجود خطب ما، وتوجست خيفة من احتمالية تصرف ابنتها بثورة غير لائقة مع تلك المرأة مما أزعجها.. تساءلت "خلود" باهتمام:

-ما وقفنيش تتفرجي معاهم على الشبكة ليه يا ماما؟

أدارت رأسها في اتجاهها، وجاوبتها بوجوم:

-ماليش مزاج.

استشعرت تبدل أحوالها، فالت عليها تلاحقها بأسئلتها، ولكن بصوتٍ خفيض:

هي خطيبة "هيثم" عملت حاجة مش عجباكي؟ قالتلك كلمة ضايقتك؟

أجابتها بصوتها المترمت وهي تلكزها في جانب فخذها:

-بعدين هاقولك، مش وقته!

تفهمت "خلود" رغبة والدتها في عدم الحديث علنًا، وتغيرت نظراتها الودودة نحو تلك العائلة ليظهر الضيق عليها، توترت "آمنة" من الصمت الغريب الذي حل بين ثلاثتهن فجأة، أحست باختفاء

البهجة من حولها، وتضرعت خفية ألا يحدث الأسوأ.. ولجت "حمدية" للداخل أولاً وأساريرها منفرجة، وتلك الضحكة العالية لا تبارح شفيتها، انطلقت منها زغرودة فرحة جلجلت في المكان، ثم هتفت صائحة بغبطةٍ عجيبة:

-ماشاء الله حاجة تشرف بصحيح..

جلست إلى جوار "آمنة" في المقعد الجلدي الشاغر، وقالت بنبرة ذات مغزى تعمدت أن تكون مسموعة للبقية:

-عملت يا "آمنة" زي ما وصيتني مع "هموسة"، مخلتش في نفسها حاجة وماجبتهاش، وخطيها اسم الله عليه ماتوصاش، ربنا يحميه لشبابه.

ردت تجاملها بحسن نية:

-كثر خيرك

احتقنت عينا "بثينة" ونظرت بغلي إلى كليتها، الآن أكتمل المشهد السخيف بتلك الجملة المفهومة، ظنت أن "آمنة" خدعتها بإدعاء عدم تدخلها في مسألة شراء الشبكة للعروس، واكتفت بالجلوس لتبدو كالحمل الوديع أمامها، وفي الخفاء هي داهية خططت بمكر لتستحوذ على الأعلى سعراً والأثقل وزناً، رمقتها بنظرة احتقارية مهينة، كتمت حقدتها عليها في نفسها وكزت على أسنانها تقول في غيظٍ لنفسها:

-ده إتنو طلعتوا عقربتين، وحرباية!

لكنها توعدتها بكراهيةٍ تضاعفت فيها:

-بس أنا قادرة عليكم بأمر الله!

.....

حانت من حدقتيه نظرة حائرة على باقي المشغولات المعروضة في الواجحة، كانت تضاهي بعضها البعض في بريقها اللامع وأشكالها الجذابة، لكن بقيت تلك القلادة الوحيدة المتفوقة على الجميع، زفيرٌ

بطيء خرج من صدره، وقبل أن يعاود أدراجه للداخل، وتحديداً عند أعتاب الباب أوقفته
"همسة" باعتراض طريقه لتقول بتردد:

-ممكن أطلب منك طلب صغير؟

تجمد في مكانه وجمال بعينه عليها، كانت تعبيراتها مختلفة، تظهر الحيرة عليها، تعقدت ملامحه، ثم
سألها بنبرة اكتسب إيقاعاً خشناً، وما زال ضيقه معكوساً عليه:

-أيوه، في حاجة ثانية عوزاها؟

ردت بصوتٍ خفيض وهي تتطلع من فوق كتفه للجالسين بالداخل، وكأنها تحاول استباق الأحداث
قبل أن يقع الأسوأ:

لو ينفع تتكلم برا المحل.

ازدردت ريقها، وانتظرت بقلبي رده، لوهلة حدق فيها "هيثم" بنظرة مترددة قبل أن يضع قبضته
على ذراعها، دفعها منه للأمام وهو يرد مستجيباً لرغبتها:

-تعالى.

وقف كلاهما أمام الواجحة، وظلت نظرات "هيثم" مثبتة على وجه "همسة" التي استجمعت جأشها
لتقول دفعة واحدة وهي تفرك أصابعها في توتر، وكأنها بذلك تتخلص من الثقل الجاثم عليها حتى لا
يُساء فهمها:

-أنا عارفة إني اللي هاقوله غريب شوية، بس.. ممكن ترجع السلسلة دي، أنا مش عاوزاها!

تفاجأ من طلبها الصادم، وردد بتلك التعابير المندهشة:

-ليه؟ أرجعها؟

أوضحت له بتهذيبٍ رقيق وهي تعلق شفيتها محاولة السيطرة على تلك الريكة التي انتابها:

-بص هو ده اختيار مرات خالي، وأنا مردتش أخرجها قصاد مامتك، بس أنا مش كده والله،
أصلاً مايجبش لبس الذهب، ومش عاوزة حاجة أوفر، فهستأذنيك ترجعها.

ضاقت عيناه في تعجبٍ لم ينكره، وسألها بلمحة سخرية:

-بصراحة أنا مستغربك!

تابعت موضحة وقد نكست رأسها في خجل:

-هو أنا بس بتلخبط وما بعرفش اتصرف وقت ما بتحط في الموقف، بس ما فيش داعي تشتريها، أرجوك.

كان تصرفها مخالفاً للمعهود في مثل تلك المواقف التي تكشف عن طمع بعض العرائس، أصيب بالدهشة في البداية، لكن تحول ذلك لشعور متعاضم بالسرور، تنحنح بعدها متسائلاً بفضول وهو يتطلع إليها بنظرات متشوقة:

-يعني ما فيش حاجة عجبتك نهائي هنا؟

عفوياً انخفضت عينها على تلك السلسلة الرقيقة التي تزين بزهرة اللوتس، وأشارت نحوها بيدها قبل أن تجيبه:

-دي كانت عجبتني في الأول.

عمق من نظراته نحو اختيارها البسيط، ثم عاد ليحدق بها وهو لا يزال مندهشاً، ثم ابتسم متسائلاً:

-بس؟

أومات برأسها بالإيجاب، وقد لاح على شفيتها بسمه ناعمة:
-أه.

فرك رأسه بيده، وتابع باقتضاب:

-ماشي يا ستي

امتدت يدها تلقائياً لتمسك به، وسألته بتلهف:

-هترجع السلسلة؟

أخفض نظراته ليتأمل يدها الموضوعة عليه، لم تكن كعادتها ترتعش حين يلامسها، أو حتى تنفر منه، بل بدت أكثر ألفة معه، تخرجت من جراتها غير المقصودة، وسحبت يدها على الفور، بقيت أنظاره عليها، وابتسم يُجاوبها بغموض:

-ربنا يسهل.

عضت على شفقتها السفلى في استحياءٍ، وهمت بالتحرك لولا أن سمعت الصوت الرجولي المنادي عاليًا بفضافة:

-أبو عمو!

التفتت لجانبها لتجد أحدهم يعبر الطريق ركضًا وهو يشير بيده لقائدي السيارات حتى يبطئوا من سرعتهم، بدت علامات الدهشة واضحة على "هيثم"، وردد وهو يسير ناحيته:

- "نوح"

احتضنه الأخير وصاحه بجرارة، لم يكن قد التقاه منذ السهرة الأخيرة قبل إعلان خطبته، سأله بنبرة متهمة وعيناه تتطلعان إلى "همسة"، وكأنها تتفحصها تحت المجهر لتقومها:

-إيه يا عمنا، فينك؟ مش باين ليه؟

رأى "هيثم" نظراته الجريئة نحوها، فجذبه بعيدًا عنها، وسأله بما يشبه الانزعاج:

-بتعمل إيه هنا؟

أجابته مبتسمًا بطريقة لا تبعث على الارتياح:

-ورايا كام حاجة بأخلصها هنا، إنت اللي فينك؟

رد بضيق:

-مشغول شوية.

غمز له متسائلًا بعبثية:

-أها.. مع نسايبك الجداد؟

تصاعد ضيقه وهو يرد:

-أيوه.

أخفض رأسه ل يبدو قريبًا من أذنه حين سأله في لؤم:

-دي العروسة؟

رد عليه بصعوبة، وكان الكلمات تأتي الخروج من جوفه:

-أه.. هي.

نظرة جريئة نفذت منه إلى "همسة" تبعها بقوله الوخ:

-تصدق.. مكنة بصحيح!

لم يقبل بأي شكلٍ جملته المتجاوزة في وصف خطيبته، هاجت دمائه، واندفع غضبه مجتاحًا وجدانه، فاقض عليه، ودفعه خطوتين للخلف، ثم جذبته من ياقته وتوحشت نظراته نحوه وهو يوبخه بقسوة:

-ما تحترم نفسك، دي هتبقى مراتي!!

تصنع الابتسام، وقال مُطلقًا حتى لا يصب جام غضبه عليه أو ينفجر فيه بفعل حميته الذكورية:

-لا مؤاخذة، هنيالك يا سيدي، وعقبالنا.

رمقه بنظرة نارية قبل أن يسأله بتجهم مُضاعف:

-عاوز حاجة تاني؟

رد متسائلًا ببرود:

-مش هاشوفك ولا إيه؟

علق باقتضاب:

-أما أشوف ظروفِي.

أصر عليه قائلاً بنبرة مُلحة:

يا عم تعالي عندي بالليل كده نشوف مزاجنا، ونرجع ليا لي زمان قبل ما تدخل الققص برجليك..

ثم أخفض نبرته ليتابع مازحاً:

-بعد كده هتتنشق على سهرة من دول.

نفخ مردداً في سأم:

-ريك يسهلها، يالا من هنا.

غمز له بطرف عينه وهو يكمل:

-ماشى يا عم.. وماتنسائيش في الليلة الكبيرة.

إن شاء الله.

قالها وهو يدفعه عنوة من كتفه ليزحزحه من مكانه حتى يتعد ويتمكن من الانفراد بخطيبته وتبادل الحديث اللطيف معها بأريحية، لكن لظرافة "نوح" الزائدة ونظرته غير البريئة التي تجوب عليها بشكل جعل بدنها يقشر..، تخرجت "همسة" من الوقوف بلا حول أو قوة، انسحبت في صمت لتعود إلى الداخل وتتخذ مكانها بجوار والدتها وزوجة خالها. لعن "هيثم" مجيء رفيقه الذي أفسد عليه الفرصة، أطلق بعض اللعنات والسباب الخافت وهو يدور حول نفسه ليجعل دمائه الهاججة تحط، بقي للحظة بجوار الواجحة، لكنه استغل وقته وألقى من جديد نظرة متأنية على السلسلة، دار في خلده أن تكون تلك هديته الخاصة لها، لهذا عقد النية على شرائها لها من ماله الخاص الذي كسبه بكده، وليس من النقود التي منحها له زوج خالته "بدير"، أشعرته تلك الفكرة بالرضا، وشرع في تنفيذها دون أدنى ذرة ندم.

.....

كانت شرارات الغضب تنطلق من عينيها وإن كانت صامتة، فابنها بغبائه الواضح قد ابتاع لتلك الجشعة قطعة أخرى من الذهب بالإضافة للقلادة وخواتم الخطبة وأيضا سوار عريض، بذلت

"بئينة" مجهودًا مُضنيًا حتى لا يظهر حقدًا المختلط بحنقها أمامهم، انتظرت انصراف الثلاثة،
وأمسكت بتلابيب ابنها توبخه في الشارع بنبرتها المنفعلة:

- كل ده ذهب جايوه للمعدولة؟ إيبه؟ هو مال سايب؟

هتف "هيثم" معترضًا على ما تتفوه به وقد انتزع قبضتها عنه:

- في إيه يامه، ده بدل ما تقوليلي مبروك؟

تفشت فيها حمى الغضب، وصاحت في تهكم وهي تشيح بيدها لتضعها على جبينها في تعبير
مستهجن:

- مبروك على إيه يا إدلعيدي؟ ده القرشين اللي جوز خالتك ادهوملنا طاروا في لحظة!

حاولت "خلود" تهدئة والدتها المتعصبة، وقالت بحذر:

- فلوس ومتشالة لوقت عوزة، ماضعوش يعني.

استدارت نحوها محتجة عليها:

-إنتي هيخيل عليك الحركات دي؟ ده كهن بنات! الفلوس راحت واللي كان كان

ثم عادت لتتظر إلى ابنها، وزجرته بجدة:

-البت وأمها فضلوا يدحلبوا عليك ونفضوك في تكة

تدخل "هيثم" ليدافع عنها، فاستطرد محاولاً توضيح الحقيقة لها:

-لأ يامه إنتي غلطانة، "همسة" مكاتنش موافقة، و....

قاطعته بصوتٍ أقرب للصراخ وقد اختلج وجهها حمرة غاضبة للغاية:

-إنت هتدافع عنها كمان؟! عشنا وشوفنا، بنت امبارح بقي ليها قيمة عن أمك.

نظر "هيثم" في يأس لوجه والدته الغائم قبل أن يسير مبتعدًا وهو يلوح بيده لأحد سائقي الأجرة،

صاحت من خلفه "بئينة" تناديه بصوتها المحموم:

-إنت رايج فين؟ استنى هنا أنا بأكلمك

أجايها وهو يستقل السيارة:

-مش طالبة معايا عكننة، خليني أشوف شغلي، سلام يامه.

ضربت على جانبها بيدها في عصبية، وتمتت قائلة بنبرتها المليئة بالغل:

-ماشى يا ابن "غريب"، مسيرك ترجعلي وأفوك.

وضعت "خلود" يدها على كتف أمها، وتوسلتها:

-اهدي يامه، أعصابك، إنتي ضغطك كده هيعلى.

ردت بأنفاس غاضبة:

-حرقت دمي، لأ والولية مرات خالها واقفة تنشرط وتتنى وتتفرد تقولش شبكتها، عيلة جعانة

مشافتش ذهب قبل كده!

تفلتت ابنتها حولها في حرج وقد رأت أنظار المارة تتركز عليها، أحاطت والدتها من كنفها، ورجتها

بشدة:

طب بينا على البيت، الناس بتتفرج علينا.

نفضت يدها عنها وهي ترد بعصبية تزداد حدة كل لحظة:

-اوعي بس ماتسكينيش!

ردت بهدوء وهي تستدرجها نحو الشارع لتوقف إحدى سيارات الأجرة لكليهما:

-حاضر، بس تعالي معايا.

.....

سرى تأثير ذلك المشروب المُسكر في أوصاله، منحه دفئًا عجيبًا وحرارة لا بأس بها جعلته يخلع

سترته الثقيلة ويغوص بجسده المتعرق في الأريكة، بدأ عقله الواعي في الانسحاب لتحل تلك

الهلاوس اللحظية وتملاً فراغات مخيلته، وليبدو التأثير الوهمي بسعادة تفوق الخيال أكثر فاعلية عليه

أعطاه رفيق السوء مخدر الحشيش، اكتمل إحساس النشوة المزيف، وتضاعفت الخيالات الجامحة، أسلم "هيثم" نفسه لصديقه وترك له عقله يفسده كيفما يشاء، وأبدع الأخير في سهرته الماجنة تاركًا الخمر يعبث برأسه، فبدأ في حالة ما بين الوعي والذهيان، وباح بسهولة بعلاقته بخطيبته الخجولة.. تساءل "نوح" مستوضحًا بلسانٍ ثقيل:

-وجبتلها السلسلة يا مغفل من غير ما تاخذ منها حاجة؟

هز رأسه يجيبه:

أه، عملت حركة جدعنة، وأمي كانت هتطق مني.

ضحك "نوح" مستهزئًا به:

-وانت فييس الصراحة!

انطلقت من "هيثم" ضحكة غير طبيعية، ورد ساخرًا هو الآخر:

هي كانت فلوس أبويا.

ثم انطفأت ضحكته وساد الوجوم على تعايره عندما واصل القول:

-إياكش تحن عليا بدل ما هي منشفاها معايا.

رد "نوح" مستنكرًا بنفس النبرة المتلعثمة لتظهر صعوبته في الكلام:

-كان.. منشفاها؟

قال بعبوس:

-شوفت يا سيدي.

مال نحوه ليلكزه في ساقه بقدمه ليهتز جسده المتهاك، وأضاف مستخفًا به:

-ولا تلاقيك مش عارف تجيب معاها سكة، شكلك هتطلع بؤ في الآخر وتفضحننا

هتف محتجًا وهو يعتدل في رقدته:

-لا أنا راجل غصب عن عين الكل!

استحته بنخبث يُشبهه فحيح الأفعى:

-بو.. وربها هي مش أنا! عرفها إنك راجل!

عبث في رأسه بكلماته الموحية مُزيّنًا له سوء عمله، وبغباءٍ محكم انساق "هيثم" وراء ضلالاته الخداعة، فنهض وهو يترنح بجسده ليقول:

-هاتشوف هاعمل إيه.

شجعه بسمته الشيطانية:

-وربها يا أبو المعلمين!

انحنى "هيثم" ليجمع سترته التي ألقاها أسفل قدميه حين تمدد على الأريكة، وضعها على كتفه بإهمالٍ، وسار بغير ائزانٍ قاصدًا الذهاب لبيتها في تلك الساعة المتأخرة من الليل وتلك الرغبة الغريزية تتأجج بداخله وتستعر بشدة كأنها تريد التهامه.

.....

فردت السلسلة الرقيقة على كفها ورفعته أمام عينيها لتتأملها عن قربٍ وهي تستلقي على الفراش، فتلاّأت بوجهها البراق في انعكاس حدقتها، سعادة غريبة تخللت إليها وهي تتذكر موقفه معها ملييًا لرغبتها، ظلت "همسة" تبتسم طوال اليوم كتعبير عن فرحتها بهديته التي فاقت في قيمتها ثمن القلادة الأخرى، تعجبت "فيروزة" من حالة الولّهِ البائنة على خلجات توأمتها، تشاءبت وهي تتقلب على جانبها قبل أن تقول لها:

-يا بنتي ماشبعتيش بص عليها!؟

ردت بتنهيدة بطيئة وهي تستعيد في ذاكرتها مشهد شرائه لها ووضعها في علبة منفصلة:

-أصلي مبسوفة بيها يا "فيرو".

رفعت "فيروزة" رأسها قليلاً وأدارتها في اتجاهها نصف استدارة، وجدتها ساهمة، تعيش في حالة من الهيام الغريب، هزت رأسها بعدم تصديقي، ثم قالت بلهجة أمرية:

طب اطفئ النور، عاوزه أنا، الفجر قرب يأذن

نفخت في استياءٍ منها، وقالت بتذمر:

-يا بابي عليكي، بتبوظي الجو الشاعري اللي أنا فيه

ردت وهي تلقي الغطاء على رأسها لتغطيه:

-معلش، أنا ماليش في حركات الحبيبة دي

نهضت "همسة" عن الفراش وهي لا تزال ممسكة بالسلسلة في يدها، وضعتها في جيب منامتها، وقالت بصوتٍ تبدل للجدية:

-أنا رايحة أتوضي للفجر.

هتفت لها من أسفل الغطاء:

-ادعيلي

تركبتها في الغرفة وتوجهت للحمام لتستعد لصلاة الفجر، لكن وصل إلى مسامعها أثناء سيرها المتباطئ في الردهة -وخلال ذلك الهدوء المترامن مع توقيت الليل المتأخر- تلك الجلبة الخفيفة، ارتعش بدنها، وخفق قلبها خوفاً، تلفتت "همسة" حولها في ذعرٍ، في البداية اعتقدت أنها حركة سخيفة من توأمتها لإرعابها، عادت إليها فوجدتها نائمة على الفراش، سألتها بصوتٍ متلعثم:

- "فيروزة" هو إنتي صاحية؟

لم تجيبها، دنت منها لتريح الغطاء عن رأسها الخبأ، فوجدتها تعنفها:

-يا بنتي إنتي متسلطة عليا، خليني أنا

همست لها بارتعابٍ:

-أصل في دوشة برا وأنا خايفة

ردت غير مبالية وهي تدفن رأسها في الوسادة:

-تلاقي في فار في المنور ولا حاجة.

أضافت عليها:

-ما جازي يكون حرامي.

قالت ساخرة وهي تبتسم قليلاً:

-هيسرق مننا إيه؟ ده احنا ممكن نصعب عليه

ولكي تبدد الخوف من قلبها، تابعت بثقة وبسالة منقطعة النظير:

-اجمدي إتني بس شوية، ولو في حاجة ناديني، وأنا هاطبق في زومارة رقبتة الحرامي ده اللي أمه

داعية عليه يوقع في سكتي.

بدا ما قالته منطقياً وبعثاً على الراحة، نفضت عن رأسها مخاوفها الوهمية، وتحركت نحو باب الغرفة،

وقبل أن تطأ خارجها، نطقت توصيها:

حطب ماتناميش

أغمضت "فيروزة" عينيها قائلة بنبرتها التي مالت للنعاس:

حاضر.

تحركت "همسة" بتمهلٍ حذر تلك المرة نحو الخارج، أرهفت السمع من جديد وخفقات قلبها تتصاعد

رهبةً، ما زالت الجلبة تصدر بقوة، بدت وكأنها تقترب من باب المنزل، انتفضت كلياً فجأة وكتمت

شهقة صارخة بيديها حين سمعت النقرات عليه، تجمدت في مكانها عاجزة عن الحركة، حتى صوتها

انحسر في جوفها، لكن النبذة المألوفة المنادية باسمها خفت قليلاً من حدة خوفها، رجفة أخرى قوية

نالت من جسدها وقد تكرر النداء بشكلٍ مريب:

-افتحي يا عروسة، افتحي يا "همسة"!

اقتربت بقدمين مرتعشتين من الباب، ودون أن تنظر من العين السحرية تساءلت بتلقائية:

-مين؟

تداركت نفسها، وشبت على قدميها لتتظر من خلالها، تفاجأت بوجود "هيثم" أمام أعتاب منزلها، شحبت بشرتها، وشُل تفكيرها لحظياً، حاولت أن تتغلب على خوفها، وتساءلت بصوتها المرتجف:

-إنت جاي ليه السعادي يا "هيثم"

رد عليها يأمرها بصوتٍ خشنٍ ثقيل، وغير طبيعي وهو يطرق بعنفٍ على الباب:

-افتحيلي، أنا مش هامشي قبل ما تسمعيني الأول

خشيت "همسة" من تسببه في فضيحة دون داع، تصرفت بغباءٍ وفتحت الباب له لتسأله بوجهٍ

متوترٍ:

-في إيه

أجابها بأنفاسٍ كرهية وهو يترنح في وقفته أمامها:

-عاوزك يا حلوة.

وصلت رائحة أنفاسه المنفرة إلى أنفها فأصابها بالغثيان، وضعت يدها على فمها، وسألته باشمئزازٍ:

-إنت شارب؟

لم تكن بحاجة لسماع الإجابة منه، فمظهره يؤكد لها ذلك؛ عينان مشبعتان بحمرة غريبة، وقفة غير

متزنة، وحركات متشنجة لا تبشر- بخير .. تصلبت في فرعٍ وقد أمسك بها من ذراعيها بقبضتيه

ليجذبها نحوه وهو يقول:

-إنتي مش بتحبيني؟ ده أنا هابقي جوزك.

ألقي "هيثم" بثقل جسده عليها محاولاً الالتصاق بها واحتضانها بالإجبار، قاومته رغم حالة الذعر

المسيطرة عليه لتتحرر منه، وأبعدت رأسها عن رأسه الذي يدنو منها بشكلٍ مقرر، وكأنه يريد

تقبيلها بالإكراه، ثم هتفت فيه بصوتٍ خفيض لكنه صارم ومهدد:

-إبعد عني! بدل ما أصوت وأفضحك!

ضاعف رفضها لتودده المقيت من رغبته الحيوانية الجائعة في النيل منها، جذبها بكامل قوته إلى خارج المنزل وهو يكتم فيها ليشعر بحرارة أنفاسها المكتومة على يده مما استثارة أكثر، ألصق ظهرها بالحائط وحاصرها، نظر لها بعينين دمويتين وبشكلٍ أروعها، ودون إنذارٍ أبعد يده عن فمها وهجم عليها مطبقًا بشفتيه على خاصتها ليحصل منها على قبلة عنيفة أصابتها بمزيد من التقزز والغثيان، تراجع ليتلقت أنفاسه وحالته قد ازدادت سوءًا، سيطرت عليه لوسة عجيبة تطالبه بالمزيد من الأفعال المشينة، تلمس جسدها بقوة جعلتها تقشعر وتصرخ، صفعته بألم على وجهه عله يفيق، ترخ "هيثم" من أثر الصفعة، نجحت "همسة" رغم صدمتها من بشاعة تصرفه الدنيء في دفعه بعيدًا عنها من صدره، وقبل أن يتصرف بهورٍ ويستريح لنفسه الأمانة بالسوء المزيد من دناءة أخلاقه كانت "فيروزة" تندفع نحوه بكل غضبها المشحون لتبعده عن توأمتها صارخة فيه:

-ابعد عنها يا واطي!

نجدها من برائته، واستخدمت عصا المقشدة في ضربه على ظهره ودفعه نحو الدرج، تدحرج الأخير عليه متألمًا وقد تفاجأ بقساوة الضربات، طُرح أرضًا شبه فاقد للوعي وهو يهذي بكلماتٍ غير مفهومة، لم تتوقف عند ذلك الحد، هاجمته بشراسةٍ وضربته في أجزاءٍ متفرقة من جسده بالعصا مفرغة فيه ما يعترها من مشاعر عداوية نحو تلك النوعية من أقدار البشر، رفعت رأسها وبصقت عليه وهي تلعنه بصوتها اللاهث من فرط انفعالها:

-بتتهجم علينا في نص الليل، أنا هوديك في داهية!

تحول صوت صراخها إلى بوقٍ أوقظ جميع من في البيت، اندفع خالها على الدرج بثياب نومه لينظر إلى ما حدث، وهتف مصعوقًا:

-في إيه اللي بيحصل هنا؟

في حين وقفت "حمديّة" في مكانها تشرأب بعنقتها محاولة رؤية ما يدور دون أن تتدخل، بينما خرجت "آمنة" من منزلها على صوت الصراخ والسباب، شهقت حين رأت ابنتها ترتجف وتبكي في حرقة، احتضنتها ومسحت على وجهها بيدها متسائلة في لوعة:

-مالك يا "همسة"؟ جراك إيه؟

لم تستطع تبين ما حدث، بالكاد حاولت إمساك ابنتها التي خارت قواها .. ألقّت "فيروزة" بالعصا وأشارت بإصبعها نحو "هيثم" تسرد ما حدث:

-الكلب ده جايلنا شارب وبيتهجم على أختي

نظر "خليل" مصدومًا إليه، وتحولت عيناه إلى ابنة أخته المنهارة، وقال مذهولاً:

-إيه؟ اتجنن ده في عقله ولا إيه؟

ردت عليه "فيروزة" تتوعده بكره بغيض:

-وأنا مش هاسييه، وهاجيبه البوليس!

التقطت أنفاسها وتابعت:

-اللي زي ده مايتأمنش عليه معها!

رد عليها "هيثم" بصوته الثقيل غير الواضح، وخيوط الدماء تنزف من رأسه:

-أنا عاوز "همسة"، دي.. هتبقى مراتي..

صرخت فيه مهددة ومنهية لأحلام يقظته:

-في المشمش، الخطوبة اتفركشت، واستعد للسجن!

ثم التفتت نحو خالها لتخبره:

-أنا هاطلب البوليس، و....

حلق فيها "خليل" بعينين متسعيتين في صدمة، انقض عليها ليمسكها من ذراعها، وسحبها بعيدًا عن

الدرج وهو يقاطعها بتوتر:

-اهدي بس خيلنا نفكر، مش عاوزين فضايح.

عاجلته صائحة باستنكار:

-الفضايح ليه هو مش احنا!

ازدرد ريقه وحاول أن يمتص غضبها بتعقلٍ حتى لا تنفذ ما تريده، وقال بلهجة مغايرة للهِجة العداوية المفترض أن يكون عليها:

-أنا هاتصرف، خلينا بس نهدي الأول.

هتفت "فيروزة" بتشنج ونظراتها تلوم خالها الذي اتخذ موقفًا غير مفهوم:

-نهدي؟ بأقولك كان بيتهجم عليها!

أعملت "حمدية" عقلها الداهية سريعًا، وبدأت في احتساب توابع إنهاء الخطبة بتلك الصورة المهينة، حتمًا لن تكون النتيجة مرضية لأي طرفٍ، ليس بالتسبب في الفضائح فقط، ولكن بتحطيم أحلام زوجها في امتلاك المحل الجديد، وتدمير أطباعها في شراء الثمين من الذهب، توهجت نظراتها بوميض مرتعد، واعتصرت عقلها لتفكر في حجة تنجها من تلك الخسارة الحتمية. وكالشيطان الخبيث وجدت السبيل لإثارة الشكوك، فهتفت بنزقٍ محاولة تشويش عقل زوجها، وتلك النظرة الغريبة تطل من عينيها:

-وهي فتحتله ليه السعادي؟ مش جايز متفقة معاه واحنا منعرفش ونايمين على ودنا؟

تعمدت طعنها مباشرة في شرفها لتتحول بين لحظة وأخرى إلى مُدانة لا مجني عليها، هتفت "همسة" تنفي تلك التهمة الباطلة عنها وهي تبكي في حرقة:

-محصلش والله، أنا كنت مع "فيروزة".

زمت شفيتها مرددة ببرودٍ مريب:

-واحنا المفروض نصدقك كده؟!!

هدرت بها "آمنة" تحذرها:

-قصدك إيه يا "حمدية"؟ أنا بنتي مصرية كويس، الدور والباقي على السكران ده.

علقت عليها بنبرة جافة لتزع منها ثقها:

-أنا عارفة، بس لسان الناس محدش يبسلم منه! والله أعلم بالنوايا!

نظر "خليل" إلى الاثنتين بنظرات غامضة غير مفهومة، وقال وهو ييلع ريقه:
-أنا هاتصرف، خشوا جوا دلوقتي.

حدقت فيه "فيروزة" بفم مفتوح، وقد باتت شبه متأكدة أنه سينساق كالأعمى خلف زوجته التي على ما يبدو نجحت في إرباكه بالإدعاء كذبًا على توأماتها، وقبل أن تهاجم معترضة صرخ بها "خليل" يأمرها من جديد بلهجة متصلبة:

-خشي يا "فيروزة" واقفلي الباب، يالا!

جاهرت بنيتها المحسومة مسبقًا، وردت عليه تتعهد له بعينين تقدحان بالغضب الشديد:

-ماشي، بس لو إنت سكت، فأنا لأ!

تطلع إليها في صمتٍ وهو لا يزال في حيرة من أمره، تركته في مكانه ولحقت بتوأماتها ووالدتها صافقة الباب بعنف، في حين ثبت "خليل" نظراته على "هيثم" الذي قال بوهن:

-أنا .. هاتجوزها .. دي .. خطيبي

نظر له باشمئزازٍ قبل أن يقول:

-اتنيل، فضحتنا، مستعجل على إيه؟!

لم يعرف "خليل" كيف يتصرف معه وهو في تلك الحالة من الإعياء الشديد، واللاوعي .. كان يقف مكتوف الأيدي عاجزًا عن حسم أمره؛ فأحلامه الطامعة في كفة، وحق ابنة شقيقته في الكفة الأخرى، لكنه لا يدرك أي كفة سترجح في النهاية! رفع رأسه للأعلى ليجد زوجته تشير له بعينيها، وكأنها تُريد إطلاعه على شيء ما، همست له:

-اطلع عاوزاك حالاً، أنا عندي الحل.

لم تترك له المجال للجدال معها، كان أمرها نافذًا، وربما كان يبحث عن فرصة للتفكير بتروي حتى لا يضحى بكل شيء في لحظة طيش..

لم يعلم بمراقبة "فيروزة" له من العين السحرية للباب، ومع انسحابه أدركت أنه سيخذلها كعادته ولن يتخذ أي موقف سوى ما تمليه عليه زوجته الأفعى، أحست بوخز يضرب كامل جسدها من شدة غيظها، وهتفت تقول لنفسها:

-ماشي يا خالي، مش هاسكت المرادي حتى لو فيها موتي.

كالسهم المارق اتخذت مع سطوع شمس النهار طريقها للدكان، لم تنس أن تأتي معها بما أحضره ذلك الوخ من هدايا غالية وزهيدة، وبوجه حانق وعينان لم تتذوقا طعم النوم بحثت عن الحاج "بدير"، لن تتحدث مع أحد سواه، لتتهي معه الأمر خاصة بعد أن رأت خالها يتسلل خلسة بصحبة "هيثم" وهو يسنده ليبعده عن المنزل ليعلن بذلك ولو ضمناً عن اغتيال حقها في معاقبته، توقفت في مكانها لتلتقط أنفاسها، وجالت بنظراتها على المتواجدين بالمكان الذي بدا مزدحماً رغم تلك الساعة المبكرة، وجدته جالساً أمام دكانه يرتشف قهوته، انتصبت هامتها، وهدرت عالياً بصدرٍ متهدج وهي تندفع صوبه:

-يا حاج "بدير"!

اتتبه لها وترك فنجانته ليدير رأسه ناحيتها بتوجيس، حلق فيها باستغرابٍ وسألها:
-خير يا بنتي؟

وبعصبية مفرطة وضعت متعلقات "هيثم" على طاولته الصغيرة وهي تقول بتشنج:
-قول لقريبك المحشش معندناش بنات للجواز.

حلق فيها مصدوماً لوهلة، حاول أن يستوضح الأمر، وسألها بتريث:
-فهميني في إيه بس؟

نظرت له شزراً قبل أن تجيبه بوجه مشدودٍ أظهر نفورها:

-أسأله الكلب الجبان ده! ناقص تربية صحيح!

استشعر "بدير" خطورة الموقف، وهتف متسائلاً في قلبي:

-عمل إيه؟ كلميني دوغري

ردت بغموض لاعنة "هيثم" وتلك النظرة المشمئة تعلو محياها:

-هو عارف.. ابقى اسأله ال.... ده لما يفوق من اللي بلبعه!

لعبت الهواجس برأس "بدير"، وتطلع إليها في حيرة، لكنها لم ترحه وتابعت محذرة وهي تشير بيدها:

-بس يا ريت تقوله لو فكر يقرب من أختي أو يلمسها هاقتله!

لم تلاحظ "فيروزة" في ذروة غضبها زوج الأعين الحانق الذي لمحها منذ أن اقتحمت المكان، اندهش من وجودها، بالطبع ليست من النوع الاجتماعي لتقوم بزيارة ودية، تخلى "تميم" عن عمله ليدينو بجزرٍ منها، لم يقصد التلصص عليها، لكن صوتها الجمهوري الغاضب كان كفيلاً باستدعاء المارة من ناصية الشارع، راقب وسمع كل كلمة أخبرت بها والده، صعد الدم إلى رأسه كالبركان الثائر وقد خمن ما ترمي إليه من كلمات موحية استطاع ببساطة أن يفسرها، هاجت عروقه بما اعتراها من ثورة محمومة، كور قبضته ضاغظاً بعنفٍ على أصابعه حتى ابيضت مفاصله من شدة غضبه، انتظرها على أعصاب محترقة حتى انصرفت ليقول بصوتٍ غائم لا ييم عن خير:

-أنا رايج مشوار يا بابا وجاي!

.....

-يا ساتر يا رب، هو في إيه؟

تساءلت "بثينة" بتلك العبارة في جزع وهي تسرع من خطواتها لتفتح باب المنزل الذي كاد أن ينهار من عنف الدقات المتتالية عليه، فركت جفניה بيديها وهي تسد المدخل بجسدها الممتلئ، نظرة استنكار غطت وجهها وقد رأت "تميم" أمامها، عنفته بشفاه مقلوبة ونظرات استهجان:

-إيه الهبد ده على الصبح؟ ما تخبط زي الناس العاقلة؟

الترم الصمت ورمقها بنظرة مليئة بالشر- قبل أن يُنحيا عنوة للجانب من كتفها ليمرق إلى الداخل،
لاحقته بخطوات متعجلة وهي تلح عليه:

-في إيه يا "تميم"؟ إنت جاي تهد البيت علينا، ما تعبر خالتك وتقولي في إيه!

اقتحم دون مقدمات غرفة "هيثم" ليجده مسجى على الفراش ورائحة كريهة نفاذة تعبق المكان،
نظرت له في ضيق، واستطردت توضح له من تلقاء نفسها:

لو جاي له عشان تصحيه يروح الشغل فاعتبره النهاردة أجازة، أديك شايف رجعلي وش الفجر
في الحالة دي مع خال خطيبته، أنا عارفة كان بيعمل إيه معاه!

بسذاجتها وفرت عليه الكثير، حيث تأكد من صحة ما قالته "فيروزة" دون الحاجة لسؤاله،
استثيرت حميته أكثر، ورد عليها بصوتٍ قائم أرجف بدنها:

-لا معلش، أنا هافوقه بمعرفتي

ثم طردها بوقاحة من الغرفة دافعًا إياها نحو الخارج غير مكترث بتساؤلاتها الفضولية ليوصد الباب
خلفه، دقت عليه تناديه في لوعةٍ لكنه تجاهلها.. وبكل ما يعتريه من مشاعر عدائية وعنف لا مثيل
له انقض "تميم" على "هيثم" يسحبه من على الفراش ليسقطه أرضًا، تأوه الأخير من الألم المفاجئ
الذي انتشر- في كامل جسده وهو لم يشف بعد من آثار اعتداء الليلة الماضية، تساءل بنصف
وعمي:

-في إيه "تميم"؟

رد عليه بصوتٍ مخيف نابع من أعماقه المهتاجة:

لو فاكّر إن اللي عملته كده هيعدي من غير ما تتحاسب تبقى غلطان

زحف "هيثم" بظهره للخلف ونظراته المتوترة مسلطة على ابن خالته، ازدرد ريقه وسأله بصوتٍ
مرتبك:

-إنت بتكلم عن.. إيه؟

أجابه بسباب ناوي ودون مراوغة:

عن ليلة امبارح.. يا !!!

اتسعت عيناه الحمراوتان في خوفٍ وقد فطن إلى ما يقصده، وقبل أن يبرر

ونجأة هجم عليه بشراسة ليفتك به، جثا فوقه وشل حركته دون مجهود أو مقاومة تذكر، نال "هيثم" ما يستحقه من لكمات عنيفة عرفت الطريق إلى وجهه فأكسبت بشرته لوناً دموياً، وحصل باقي جسده على ضربات موجعة جعلته يصرخ معتذراً ومستغيثاً، لم ينجده أحد من بين يديه، أذاقه ألواناً مختلفة من الألم ليعي الدرس جيداً، انتهى منه "تميم"، ونهض عنه لينفض دمائه التي علقت في أصابعه بتقرزٍ، اعتدل في وقفته وبصق عليه، ثم هدر به منذراً إياه مباشرة:

-دي قرصة وذن ليك، سامعني؟

بكي "هيثم" من الألم المبرح وهز رأسه في إذعانٍ عله يرحمه، بينما تابع "تميم" تهديده القاسي بصوته الجمهوري المرعب دون أن يرتد له طرف ليصبح كلامه نافذاً كالخنجر المسنون على عنقه فقط إن تجرأ وخالفه:

-لو اتكرر تاني اللي عملته .. هنسى القراية اللي بينا !!

.....

الفصل السادس والعشرون (الجزء الأول)

خُيل إليه أنه سمع صوت تكسر- عظامه مع كل ضربة عنيفة تلقاها منه، وكان يستحقها بالفعل لأنه ارتكب فعلاً مشيناً في حق تلك المسكينة، وربما فعل الأسوأ بسبب حالة الهذيان المزرية التي سيطرت عليه، عاد إلى وعيه وانتحب وهو يزحف للخلف ليستند بظهره على الكومود، تطلع إليه "تميم" بنظرات احتقارية، وحذره من جديد بصوته القاتم:

-إياك تفكر تتعرضلها، سامعني!

هز رأسه وقال بندم واضح عليه وهو يمسح بظهر كفه الدماء التي أغرقت فكه:

-ماشي.. دي ساعة شيطان، مش هيحصل تاني!

سد له نظرة مهينة والتفت ليفتح الباب الذي أوصده من الداخل لتدفعه "بثينة" وهي تصرخ به في جنون:

-عملت إيه في ابني يا "تميم"؟

بحث بعينين مرتاعتين عن ابنها فوجدته ملقى على الأرض في حالة يرثى لها، شهقت لاطمة على صدرها، ونحته للجانب لتجثو على ركبتيها إلى جواره وهي تنوح عليه:

-حبيبي يا "هيثم"؟ إيه اللي جرالك

ثم رفعت عينيها المحتقتين وصرخت في "تميم":

-كنت هتموت ابني ليه؟

أجابها بجمود:

-بأريه!

ارتفعت نبرة صراخها قائلة:

-حرام عليك يا مفتري، هو بقى فيه حيل

رد عليها "هيثم" بصوته الواهن وهو يحاول النهوض:

- خلاص يامه.

نظرت له باندھاش وشكوكها تتصاعد، أخبرها حدسها الأثوي بوجود شيء ما خطير يُخفيه عنها، فسألته مباشرة:

- إيه اللي حصل عشان يهدلك كده؟

تطلع إليها في صمتٍ قبل أن يتدلى رأسه على عنقه كتعبير عن شعوره بالخجل، هزته من كتفه مُعاودة تكرار سؤالها:

- يا ابني انطق، متخافش منه!

ابتسم "تميم" في سخرية، وكأنها أَلقت دعابة طريفة عليه، استطاعت أذناه أن تلتقط قرع الجرس، فاتجه إلى الخارج وصوت خالته يلعنه من الخلف، لكنه لم يكثر بها، فتح الباب فتفاجأ بوجود أبيه، نظر له مليًا وقد أردف موضحًا:

- اطمن يابا، أنا عملت الواجب وزيادة

هز رأسه في استحسانٍ، وعقب عليه:

- كويس.. بس أنا ليا لي كلمتين معاه.

قال في سخرية:

- ده لو قدر يقف على حيله!

اصطحب "تميم" والده إلى غرفة "هيثم" حيث نهض الأخير بصعوبة ليقف على قدميه، نظرت له "بشينة" باستغراب حائر، والفضول يتضاعف بداخلها، باتت متأكدة كليًا من حدوث كارثة، وإلا لما اجتمع أفراد عائلة "سلطان" في منزلها في تلك الساعة المبكرة، التفتت ناظرة إلى "بدير" وهي تسأله:

- عاوز من ابني إيه يا حاج؟

تركزت نظراته على وجه "هيثم" المتورم، وقال بنبرة جافة وهو يشير بعكازه نحوه:

-أنا جاي أعرف ال ده إن خطوبته اتفركشت

تلاشت كافة الآلام، واختفت الأوجاع مع تلك الكلمات الصادمة، هتف غير مصدق:

-نعم.. إيه؟

أخبره بنفس الصوت الأجوف المزعوج:

-والجماعة بعتولي الذهب على الدكان من شوية.

لطمت "بثينة" على صدرها مولولة:

-يا نصيبتى! ليه كل ده؟

بينما ردد مصدومًا والدموع تُحتبس في عينيه قهراً على ما حدث ورافضاً استيعاب حقيقة الأمر:

-مش ممكن، أكيد.. في حاجة غلط!

تابع "بدير" مضيئاً بلهجة متأففة:

-أنا مش هاسيبك الذهب، هارجعه للبنت كاعتذار على اللي عملته فيها، إياكش تحس على دمك.

لم يأبه بأمره بتاتاً، وهتف يرجوه في هلع وقلبه قد انخلع في صدره:

-أنا مش عاوزه، ارميه في الشارع أنا عاوزاها هي..

أظهر عدم اهتمامه بمشاعره النادمة، ونظر له باحتقارٍ قبل أن يسبه:

نجس

وضع "تميم" يده على كتف والده، وقال له:

-بيننا يا حاج، هو خد كفايته.

أوماً برأسه موافقاً، وقبل أن ينصرف استطرد موجحاً "بثينة":

-وابقي ربي ابنك كويس، كفاينا فضايح.

كتمثالٍ من الشمع وقفت لوهلة عاجزة عن التفكير، تحاول استجماع نفسها وربط أطراف الخيوط معًا عليها تفهم طبيعة الكارثة التي تسبب بها ابنها، التفتت لتمسك به من كتفيه، وهزته في عصبية وهي تسأله:

- ما تفهمني إنت عملت إيه؟

توسلها وهو يبكي بطريقة استغريتها:

- كلميه ياما، قوليله يرجعلي "همسة" .. أنا هتجوزها!

صرخت به بتشجج حتى يتوقف عن التصرف كالأطفال الذين أفسدوا لعبتهم:

- مش أفهم إنت هببت إيه الأول!

.....

يُمكن أن توصف بأنها ليلة كابوسية مُزعجة تُضاف إلى قائمة الليالي الطويلة الموجهة الخاصة بثلاثتهن .. انتهت "فيروزة" من إعداد عصير الليمون الطازج وأتت به إلى غرفة والدتها حيث تنام توأماتها وهي تحتضن والدتها بشكلٍ يدعو للشفقة، قلبت محتويات الكوب بالملعقة جيدًا، ومدت به يدها نحوها وهي شبه تأمرها:

- اشربي ده يا "همسة" ..

ويبدأ مرتعشة تناولته منها وبدأت في ارتشافه، سعلت في البداية لدخول بعض قطرات السائل المنعش لقصبتها الهوائية، قبلت "آمنة" رأسها وقالت لها:

- على مهلك يا بنتي.

رفعت "همسة" وجهها الباكي نحو أختها تسألها:

- عملي إيه يا "فيروزة"؟

أجابتها مبتسمة وهي تجلس إلى جوارها على الطرف الآخر من الفراش:

- اطمني، أنا قولت لقرينه على قذارته، ونهيت كل حاجة معاه، معدتش في حاجة تربطه بينا.

ردت "آمنة" في رضا:

-كده أحسن، خليه يتصرف معاه، كفاية الرعب اللي عمله لبنتي.

سألته "همسة" بصوتها المدعور:

طب وخالك؟

جاوبتها بنبرة ساخطة:

-يشرب من البحر

وعلى ذكر سيرته غير المستحبة، انتبه ثلاثهن إلى طرقاته المصحوبة بصوته على باب المنزل، أنزلت

"فيروزة" قدميها عن الفراش، وقالت بشموخ:

-أنا رايحة افتحله.

تمتت والدتها في قلقٍ طبيعي ويداها تحاوطان ابنتها:

-ربنا يستر ويعدي الأيام دي على خير.

بكل سخافة وبرود، وابتساماتٍ مستهلكة ولج "خليل" إلى غرفة النوم ملقيًا نظرة حزينة على ابنة

أخته، عاد إلى ذهنه الليلة السابقة بكامل تفاصيلها، حيث صعد إلى زوجته التي طلبت منه إخماد

تلك الفضيحة قبل أن يعلم بها أحد بحجة أن الشاب يطمح في الزواج بأسرع وقت، وما فعله كان

مجرد لحظة طيش عابرة لن يكررها ولا داعي لتكبير الأمر، أما إن فعل العكس واتخذ موقفًا مغايرًا

لخسر - كلاهما مكاسب المستقبل المادية التي ستؤمن حياتهما لسنوات قادمة، ولهذا أعاد التفكير

بتأني ورتب حساباته وفق أولوياته هو غير عابئ بمصلحة ابنة شقيقته، وهدوء تام نزل ليصطحب

"هيثم" وعاد به لمنزله في حالة الإعياء الواضحة، وتعلل لوالدته بأنه أُنقذه من حادث سير أرعن وراه

بالصدفة وأصر على إيصاله ليطمئن عليه.. أفاق "خليل" من شروده السريع، وهتف مدعيًا اهتمامه:

عاملة إيه دلوقتي يا بنتي؟

ردت عليه "فيروزة" بوجهٍ مقلوب:

-زي ما إنت شايف يا خالي، أكيد مش عاملة فرح!

نظر لها بضيقٍ وانزعاج قبل أن يبعدها من كتفها ليتجه نحو الفراش وهو يقول:

طب وسعي بس كده عشان النفس.

كتمت غيظها منه في نفسها، وظلت تتابعه بعينها المشتعلتين وهو يدنو من "همسة"، مسح على

رأسها وقبلها من جبينها وهو يسألها:

إن شاء الله شدة وتعدي.

احتجت "فيروزة" على عبارته غير اللائقة، وصححت له:

هي كانت عيانة لا سمح الله، ده واحد ماترباش حاول يعتدي عليها

قال مدافعاً عنه:

-مكانش في وعيه يا "فيروزة"، متكبريش الموضوع

أدركت أنه لن ينصف أختها مهما حدث، فالأفعى الخبيثة قد بنحت سمها، والدليل ما رأته بحدث

خلسة من تهريب وطمس للحقائق، لذا قررت إفساد انتصاره الزائف، وقالت مبتسمة بزهو:

-عموماً يا خالي الموضوع خلص.

لم يستوعب مقصدها، وسألها:

-يعني إيه؟

استرسلت بابتسامة أكثر اتساعاً:

-يعني أنا اتصرفت، وقولت لقريبه الحاج "بدير" على اللي عمله، وفركشت الخطوبة!

بدا كمن ألقى عليه دلو ماء مثلج، حلق فيها بعينين شاخصتين، وردد في ذهولٍ صادم:

إنتي.. عملي.. إيه؟

ابتسمت في انتشاء، وتابعت:

-تصرفت زي ما المفروض كنت تعمل، ارتاح إنت يا خالي، أنا قومت بالواجب وزيادة.
تكاد تُجزم في نفسها حين تطلعت إليه في تلك اللحظة بأن دخانًا كثيفًا كان ينبعث من شدة غضبه
أو غيظه، لا تعرف تحديدًا، لكنها أصابته بما فعلته في مقتل، ودمرت كل مخططاته التي بنيت على
حساب عائلتها، خرج "خليل" عن شعوره، وصرخ بها بجنون غير اعتيادي:

-إنتي عملي إيه؟

نظرت له نظرة ذات مغزى، وأجابت بإيجاز:

-الصح.. يا خالي!

تدخلت "آمنة" في الحوار، وقالت مدعمة ابنتها:

-اللي حصل امبارح ده مايتسكتش عليه، وده أنسب حاجة تتعمل مع قليل الرباية ده

صرخ بتشنج وهو يضع يديه على رأسه:

-إنتو ضيعتوا كل حاجة بغباءكم.

ردت عليه "فيروزة" برود:

-معلش يا خالي، مافيش أغلى من أختي عندنا

ثم تلوت شفتاها بابتسامة مستفزة وهي تسأله:

تحب أعملك لمون تروق به دمك؟ وشك مصفر ومش عاجبني

هدر بها وهو يشيح بيده:

-امشي من قدامي السعادي.

حركت رأسها متابعة بنبرتها الباردة:

-ماشي يا خالي.

كتمت ضحكها الشامتة بصعوبة وهي توليه ظهرها، لا تنكر أن رؤيته يغلي كدًا أثلج صدرها وأشعرها بقليلٍ من الارتياح، تمت فقط لو عاد لصوابها وتصرف كما يجب أن يكون الخال الحقيقي الذي يعد بمثابة أب ثانٍ للعائلة.

.....
-مش هاتطلع معايا يا "تميم"؟

تساءل "بدير" بتلك الجملة وهو ينظر إلى ابنه الذي أوقف السيارة أمام مدخل بيت خطيبة "هيثم" السابقة، في البداية ظل صامتًا، وكأنه يفكر مليًا في الأمر، وظهر التردد على محياه، أمسك بكلتا يديه على المقود، والتفت ينظر لأبيه قائلاً:

-لا يا حاج، أنا هستناك في العربية

ابتلع ريقه بصعوبة، فما زال ذلك التوتر المريب يحتاج كامل حواسه كلما دنا من منزلها، أو أتى شيء ما على ذكرها، وكأنها تملك عصا سحرية قادرة على تبديل أحواله في لحظة ليصبح فاقداً للسيطرة على مشاعره، بل ويصبح لا حول له ولا قوة حين تعتريه تلك الأحاسيس الغريبة، تبدو كما لو كانت تتكاتف جميعها وتتعاون في حضرتها بشكل قوي لتجذبه نحوها بصورة غامضة فتزيد من توتره وتضاعف من ريكته .. تنحج والده بصوتٍ خشن، وقال مستعينًا بالمولى وهو يترجل من السيارة: -توكلنا على الله، وربنا يقضي المشوار ده على خير.

ورغم معرفة "تميم" المحدودة بـ "فيروزة" إلا أنه كان واثقًا بأنه لا رجعة لها في قرار تتخذه بشأن أسرتها إلا بجد السيف، لاح على ثغره ابتسامة ساخرة حين حدث نفسه: -إنت وقعت مع غولة يا "هيثم"!

كان يقصد "فيروزة" بذلك الوصف الذي وجده ملائمًا لشخصها القوي في تلك النوعية من المواقف المصيرية، اقتحم ذهنه صورتها المستبسلة ونظراتها التي لا ترتدع بسهولة، كانت بها هالة غريبة تحته على استمرار التفكير بها دون مللٍ أو ضجر، اتسعت ابتسامته التي امتزجت مع ضحكة عذبة وهو يستعيد وصفه السابق:

-بس معايا طاووس!

ضحك في مرحٍ وقد ملاً طيف وجهها صفحة خياله، تناقصت وبدأت تجبو بعد لحظة مع رنين هاتفه المحمول، تطلع إلى شاشته فوجد اسم "خلود" يُثير عليه، نفخ في ضيقٍ، وقال لنفسه بامتعايض:

-عاوزة إيه دلوقتي؟

لم يكن بحاجة لتخمين الإجابة المناسبة، فتابع قائلاً لنفسه بصوته المنزعج:

-أكيد أمك بلغتك باللي عملته في أخوكي، وأنا مش ناقص صداع على الصبح!

ترك الهاتف يرن على تابلوه السيارة غير مكترث بضجيجه المؤذي، وحملق في المنزل بنظراتٍ كانت تبدو في المنتصف ما بين ساهمة وحالمة.

.....

استقبله "خليل" في منزل أخته بحفاوةٍ تناقض طبيعة الموقف المرح الذي يمس طرفي العائلة، كان من حسن حظه وجوده في ذلك التوقيت، وإلامات بحسرتته على خسارة بئر نقوده بسبب عناد ابنة أخته المميت .. وتهذيبٍ وأسفٍ سعى "بدير" لرأب الصدع في العلاقات الودية بين الأُسرتين، استأذن يقول له بلطافةٍ بعد أن ارتشف القليل من فنجان القهوة الموضوع أمامه:

لو مافياش تعب هاطلب منك يا "خليل" تناديلي الحاجة وبنتها.

رد عليه متصنعاً الابتسام:

-ده إنت جيتك على راسنا يا حاج، بس إنت فاهم نفسية البت و..

قاطعه وهو يرد بخزيٍ ملموسٍ في نبرته:

-مفهوم.. مفهوم، مافيش داعي تبرر، حقها تنهي الخطوبة.

عاجله مردداً بتلهف:

-أنا والله اتكلمت معاهم.

تهد "بدير" معقباً عليه دون أن يفقد رزائنه:

يا "خليل" أنا مقدر ده كله، بس عاوز البنت في كلمتين مهمين، جاي أقدر أعوضها عن اللي حصل.

وقبل أن يختلق له الأعذار أتت "فيروزة" ومعها "همسة" تسحبها بتمهل من يدها، وقفت كلتاهما على مقربة منه، واستطردت الأولى تقول بجسارة:

هي جت بنفسها تقول إنها مش عاوزة تكمل الخطوبة دي، ده لو مش مصدقني يا حاج نهض "بدير" واقفًا، ودارت عيناه على وجه "همسة" الذابل وعينها المنتفختين من البكاء المتواصل، تقدم نحوها واعتذر منها:

حقك عليا يا بنتي، امسحي اللي عمله فيا، مافيش حاجة تعوضك عن اللي حصل من الجبان ده، أنا ربيته ولسه هاربيه من ثاني

ثم امتدت يده بعلبة من القطيفة الحمراء موضوع بها المشغولات الذهبية التي تخص الشبكة، لوح بها أمامها وهو يقول بكلام شبه نافذ:

ده حقك، ومش هترجع.

تدلى فكها السفلي في استغرابٍ مما يفعله، ونظرت إلى أختها بجيرة، علقت عليه "فيروزة" رافضة عرضه السخي:

- احنا نهينا الخطوبة، يعني الشبكة ماتخصناش.

أصر عليها قائلاً:

- بعد اللي حصل، مالوش الواد ده حاجة عندي، خديها، بعيا، اتصرفي فيها، محدش هيلومك

شكرته "آمنة" قائلة من الخلف:

تسلم يا حاج "بدير" على تقديرك، دي صفحة وقفلناها

سال لعاب "خليل" وقد رأى مدى سخاء ضيفه الذي يستثير أطعاه بشكلٍ جنوني، ارتعب من تزمّت "فيروزة" وعنادها المهلك، لذا دون تفكيرٍ اختطف العلبة من بين أصابعه، وضمها إلى صدره، وكأنه يخشى ضياعها، وبادر يمتدحه ونظراته الطامعة تغطي حدقتيه:

-بصراحة عداك العيب يا حاج "بدير"، أبو الأصول كلها.

استشاطت عينا "فيروزة" من وقاحتها، وهبت تعترض بنبرة مختنقة:

لو سمحت يا خالي رجع الحاجة، احنا مش ناقصنا ذهب.

نظر لها بغلي وقال متحدياً:

-إنتي عاوزة تكسفي عمك الحاج وتخرجيه؟ مايصحش وهو في بيتنا وجاي لحد عندنا...

والتفت إلى أخته يجرها بعتاب:

-ما تعرفي بنتك الأصول يا "آمنة"!

ردت عليه "فيروزة" بتشج غير مبالية به وقد لربد وجهها بحمرته المنفعلة:

-أنا مقبلش إن أختي تاخذ آ...

اخشوشنت نبرته وهو يقاطعها بعبارته النافذة:

- "فيروزة" خلاص، أنا قولت كلمة..

ثم أشاح بيده لها يأمرها:

-روحي اعلمي قهوة ثانية لعمك بدل اللي بردت دي.

بلباقةٍ اعتذر منه "بدير" وهو يهم بالتحرك نحو الخارج:

-مالوش لزوم، يدوب أرجع الدكان.

وضع يده على كتفه كنوعٍ من إظهار الود، وقال مبتسماً في نشوة:

-استنى يا حاج أنا جاي معاك أوصلك

لاحقه في خطواته ليهرب والعلبة لا تزال في يده، اهتز جسد "فيروزة" في عصبية جلية، التفتت إلى والدتها التي كانت تتابع الموقف بصمتٍ غريب، وهتفت بجني:

-شوفتي يا ماما خالي وعمايه؟

ضربت كفها بالآخر، وردت بتنهيدة حائرة:

-والله ما عارفة أقول إيه، أخويا الفلوس لحست عقله

نما إلى مسامع ثلاثهن صوته المنادي:

يا "آمنة" تعالي لحظة

أدارت ظهرها لابنتها وهي ترد بسأم:

-هاروح أشوفه، عديها على خير يا رب.

سارت بتباطؤٍ فوجدت "خليل" يقف أمام باب المنزل والتلف يملأ محياه، أعطاها علبة الذهب، وشدد عليها بعدم التفريط فيها ريثما تتضح توابع الأمور، أخذ وعدًا منها بالاحتفاظ بها في دولابها دون أن تُطلع ابنتها معللاً لها:

لو "حمدية" شمت خبر إنهم معايا هتاخدم، وتشبط فيهم وجايز تعمل شوشرة ومترداش تفرط فيهم، سديهم معاكي يومين كده وأنا بنفسي - هارجعهم للحاج "بدير" لما الدنيا تهدي، مش عاوزين نزل الراجل مننا، مها كان دي كبيرة عليه إنه يتأسف بنفسه عن غلطة غيره، ماشي ياختي؟
-معاك حق.

كان صادق النية في النصف الأول من جملته، فأطماع زوجته لا حدود لها، وربما ستحتفظ بهم كأنه حقها المكتسب، في حين أنه دس السم في العسل في باقي عبارته، فما تفوه به كان مجرد أكذوبة مخادعة ودَّ أن تنطلي على شقيقته لتوافق دون تدميرٍ على رغبته، واستجابت له بسجيتها غير المشككة فيه معتقدة أنه يفعل الصالح لابنتها.

.....

مضت بضعة أيام حُصرت فيهم ما بين رجاوات وتوسلات ابنها، وبين عصبية وانفعالات هائجة لا حدود لها، في النهاية اضطرت أن تتخلى عن كرامتها من أجله، وتذهب في زيارة استثنائية بدون ميعاد مسبق لـ "همسة" على أمل أن تُصلح ما أفسده "هيثم"، عليها تنجح في مسعاها. لم تتواجد "بثينة" بمفردها، استعانت بابنتها لتكون داعماً لها، وبالرغم من امتعاضها إلا أنها احتفظت بتلك البسمة اللطيفة على محياها، استقبلتها "آمنة" بترحيب لائق كما اعتادت مع كل زائر يطلأ منزلها، وجلست مع ضيفتها تتجاذب أطراف الحديث العام بعيداً عن الموضوع الرئيسي - إلى أن قالت "بثينة" في الأخير لتظهر ندم ابنها:

-أنا عارفة إن ابني اتصرف بقلة أدب، بس طيش شباب والله، ده هايتجن على "همسة"، وقلبه محروق عليها من بعد اللي حصل.

سألته "آمنة" في عتابٍ وتعبيرات توحى بعدم تساهلها أو لينها:

طب يرضيكي اللي عمله!؟

فت على الفور مستخدمة أسبابها للتبرير حتى تسترق قلبها:

-لأ طبعاً، ولو كان لا سمح الله حصل لـ "خلود" كنت قلبت الدنيا، وجبت حقها، بس هو اتربى وخذ جزاته، ومش هاقولك الحاج "بدير" عمل فيه إيه، ولا "تميم"، يا لهوي، ده الكل اتكتر عليه لحد ما رقد يا حبة عيني في السرير من القهرة

تخرجت منها "آمنة"، وبدت مذبذبة نوعاً ما لتجارها بنفس الأسلوب الجاف في الحديث بعد الذي أفصحت عنه، تجنبت النظر نحوها وردت مبتلعة ريقها:

-مش عارفة أقولك إيه، بس كل شيء قسمة ونصيب.

هتفت ترجوها بقلبٍ ملتاغ:

-ده هايموت عليها، مش شايف إلا هي يا "آمنة"، وإنتي أم زبي، والله ما يرضي حد اللي بيحصل ده!

حاولت الضغط على مشاعرها الحنون ربما تنجح في إقناعها، لكنها ما زالت محافظة على صلابتها، وقالت مبتسمة:

-ربنا يرزقه بالأحسن.

احتقت نظرات "بثينة" من صدها لها وردودها الجافة معها، بذلت مجهودًا عنيقًا لتبدو مستكينة بالرغم من رفضها القيام بذلك الأمر المذل من وجهة نظرها، تدخلت "خلود" حين رأت أمارات الضيق تتصاعد على وجه والدتها، واقترحت بلطف:

حطب ما تناديلنا يا خالتي "همسة" نسألها، يمكن رأيها غيرك.

تطلعت نحوها "آمنة"، وقالت بجديّة:

-كلامها مش هيفتلف عني!!

ورغم إحراجها عن عمدٍ إلا أنها ألت بنفس الأسلوب السمج:

-معلش أهوو نسمع منها بردك، عشان خاطري يا خالتي

تهدت قائلة في استسلام وهي تهم بالنهوض من على الأريكة:

-حاضر.

وقبل أن تخرج من الغرفة كانت "همسة" تقف على أعتابها بقامة منتصبّة ووجه حزين، منذ لحظة وصولها وهي متواجدة بالخارج مع توأمتها، لكنها لم ترغب في الاشتراك بالحوار، استتمعت إلى كل كلمة قيلت عنه، وبالرغم من ألمها إلا أنها شعرت بالتعاطف نحوه، وكأن قلبها أبت الانصياع لتعسفها، قاومت ذلك الإحساس الخائن باللين حتى لا يطغى عليها وتراجع، منحتها "فيروزة" إحساس القوة والثبات إلى أن أصرت "بثينة" على حضورها، شعرت بالخوف يتسلل إليها، استدعت كامل مشهده المؤسف معها حتى لا تظهر بمظهر الضعف واللين أمام تلك المرأة، لا مجال للتراجع في موقف أوضح لها معدن ذلك الرجل كما قالت لها أختها، تحلت بالشجاعة، وغالبت خوفها لتبدو قوية الشكيمة، وبثباتٍ تحركت خطوة للأمام .. وزعت نظراتها بين الضيفتين، وقالت:

-أنا موجودة يا ماما، خليكي مرتاحة.

ربت "آمنة" على جانب ذراعها لتشجعها على الدخول، وأشارت بعينها إلى "فيروزة" لتظل باقية بالخارج حتى لا تتدخل في الحوار وتشعل الأجواء بعباراتها المهاجمة .. دنت منها "همسة"، مدت يدها لمصافحة الاثنتين أولاً قبل أن تتبادل معهما القبلات والأحضان دون ودٍ ظاهر عليها وهي ترحب بهما:

أهلاً وسهلاً بكم.

جذبها "بثينة" من رسخها لتجبرها على الجلوس إلى جوارها على الأريكة العريضة قائلة لها بابتسامة متشوقة:

-تعالى يا بنتى جمبي كده، ده إتني وحشاني أوي.

ابتسمت لها بابتسامة متكلفة، وقالت مجاملة:

-تشريف حضراتكم ليا على عيني وراسي..

استطردت تقول لها:

-بصي- يا حبيبتى، أنا عاوز أفهمك إن اللي حصل ده كان في لحظة شيطان، مش هاتكرر تاني، وأنا أوعدك بده.

ردت عليها بجمودٍ مصطنع:

صعب أكل معاه!

سألته "خلود" بنبرة متأثرة:

يا "همسة" هو إتني لحقتي تعرفيه؟ حرام والله تظلميه!

التفتت نحوها لترد بحرقه ظاهرة في نبرتها:

-ما اللي عمله فيا كفاية إنه يخوفني منه، ده كان شارب، والله أعلم لو أختي ملحقتنيش.. كان...

وجدت صعوبة في إتمام جملتها، ومع ذلك تسلحت بالشجاعة لتقول بحسم:

-أنا مش هآمن لنفسى معاه، مقدرش، أنا أسفة.

استعطفها "خلود" بصوتٍ شبه مبحوح ودموع التماسيح التي حاولت جاهدة استدعائها لتبدو مقنعة:

-اديله فرصة ثانية، ده ربنا بيسامح، وهو هيتجنن من ساعة اللي حصل.

أضفت عليها "بئينة" لتزيح الصورة السيئة المتشكلة في ذهنها عنه:

-والله ما بياكل ولا يشرب، وشغله سايبه يضرب يقلب، مافيش على لسانه إلا إنتي، ده ربنا هداه على إيدك وساب الزفت اللي كان لاحس مخه.

لم يكن الأمر بتلك البساطة لتمحوه من عقلها أو لتتأقلم معه وكأنه شيء مُعتاد منه، طفرت دموعها في عينيها، ومسحتها بيدها قبل أن تهض لتقول بغصة مؤلمة في حلقها:

-معلش يا طنط مضطرية أقوم، ورايا حاجات لازم أعملها، فرصة سعيدة إني شوفتكم

نظرت لها "بئينة" في يأس وهي تفر من أمها، استدارت نحو ابنتها لتأمرها والحزن يغطي تعبيراتها:

-بيننا يا "خلود"، الظاهر مافيش فايده!

.....

ركضت هاربة وقلبا يُعتصر - آلماً دون أن تعرف إن كانت عشقته حقاً، أم لأنها تكره تلك الذكرى المؤسفة التي لوثت تفكيرها عنه، هربت والدموع تنساب بغزارة من حدقتها، ارتمت في أحضان توأمتها التي واستها وهونت عليها من الأمر، امتدحت تماسكها قائلة:

-برافو عليك، أنا عارفة إنه صعب عليك، بس إنتي أدها

ابتعدت عنها لتنظر إليها بعينين تفيضان بالدمع، وسألتها بنهنهة:

-تفتكري.. أنا ظلمته؟

أجابها "فيروزة" برد قاطع مظهرة عدم تعاطفها مع موقفه الناد:

-هو اللي عمل كده في نفسه.

أشارت برأسها للخلف وهي تتابع بنبرة متقطعة بسبب بكائها:

-بس على حسب.. كلام مامته.. شكله لسه.. متمسك بيا.

وضعت كلتا يديها على ذراعيها، هزتها منها برفقٍ وهي تحذرهما بلهجة قوية حتى لا تتراجع:

-اجمدي يا "همسة"، اللي زي ده مايتبكيش عليه.

نكست رأسها في حزنٍ وقالت وهي تتنفس بعمقٍ لتخفف من نوبة بكائها:

-حاضر

ابتسمت لها "فيروزة" في حبٍ، وأضافت بثباتٍ لتشد من أزرها:

-أحنا مالناش إلا بعض يا "هموس"، وبكرة هاييجي اللي أحسن منه، إنتي متستعجليش، ولا

شكلك هتحنى ليه؟

حملت بعينين تعيستين في وجهها قبل أن تنطق بمرارة:

-لا يا "فيروزة"، ده موضوع وانتقل!

.....

أبلغته والدته برفضها القطعي للعودة إليه وإتمام الخطبة، وكأنها بذلك نزعت فتيل قبلة جنونه الموقوتة ليهتاج أكثر ويحطم ما تطاله يده، كانت محقة حين وصفته بالأرعن الأهوج الذي انساق وراء نزواته، ولهذا عليه ألا يلوم أحدًا إلا نفسه، ثارت ثائرتة، وفقد عقلانيتها ليخرج من المنزل قاصدًا الذهاب إلى رفيق السوء "نوح"؛ ذاك الذي نصحه في غيابات الخمر باستباحة عرضها، لم يكن الأخير متواجدًا في منزله، دق الباب بعنفٍ عليه، أوشك أن يخلع الكتلة الخشبية التي تمنعه من اقتحام المكان، ونجح بعد عدة ضربات قوية من كتفه في إزاحة الباب، وحين تواجد بالداخل، انهال على ذاكرته تفاصيل تلك الليلة المنحوسة، هاج على الأخير وأطاح بالزجاجات الفارغة وهشمها، وركل النارجيلات المتراسة عند الزاوية بكل عصبية لتتحطم وتتبعثر محتوياتها على الأرضية، عاث في المكان الخراب وهو بالكاد يلتقط أنفاسه اللاهثة من فرط انفعالاته، لكن قلبه الموجوع لم يهدأ بعد.

جلس "هيثم" على الركام المحطم وهو يشبك يديه أمام ركبتيه يتطلع أمامه بنظرات غائمة، عاد "نوح" من الخارج ليتفاجئ بالدمار الذي لحق بمسكنه، وخاصة عدة السهر الخاصة، نظر في صدمة إلى ما افترش الأرض من بقايا زجاجية مختلطة بأحجار الفحم، تساءل في بلاهة:

هي الحرب قامت هنا ولا إيه؟

في البداية تجمدت عينا "هيثم" عليه، وكأنه يستوعب مجيئه، شحذ قواه الغاضبة ليصيح عليه، أرخى كفيه واستند عليها لينهض، ثم انقض عليه ليمسك به من تلايبه وهو يصرخ به في عصبية: -إنت السبب، إنت اللي خربتني على دماغي!

حاول "نوح" انتزاع قبضتيه من عليه وهو يسأله مصدوماً:

-في إيه يا عم؟ بالراحة عليا، واحدة واحدة خليني أفهم!

واصل صراخه المهتاج قائلاً دون أن يفلته من بين أصابعه:

-كانت شورة محبة منك، الله يحرقك البت راحت مني

سأله مستفهماً:

هو إنت عملت إيه بالضبط؟

في وسط نوبة انفعاله المتأججة أخبره باقتضابٍ عن تصرفه المتجاوز، ابتسم "نوح"، وعلق بما يشبه التهم:

-إنت اللي غلطان، أنا مقولتكش روح اغتصابها، دماغك كانت من الأول شمال معاها!

هتف مدافعاً عن نفسه في حرقة:

-مش حقيقي! أنا.. مكونتش دريان بسبب الهباب اللي بلعته

نجح رفيقه في تخليص نفسه من قبضتيه، نفذ ياقته وعدلها، ثم قال ببرود:

طيب، إنت حمار وعملت فيها كده، أنا مالي بقى بغباك ده؟!!

نظر له "هيثم" بنظراتٍ مغلولة وهو يكاد يطبق على عنقه من جديد ليخنقه، لكنه كان محققًا، هو من تصرف بوقاحةٍ، وأفسد بيده خطبته مع تلك الفتاة، كز على أسنانه وهو يلعنه:

-منك لله يا شيخ، كانت معرفتي بيك معرفة سودة!

أطلق سبة نابية وهو يوليه ظهره قبل أن يخرج من منزله، لحق به "نوح" ليستوقفه، شده من معصمه مُعَاتِبًا بجبته الشيطاني:

-أوام كده هتنسى— الليالي الحلوة؟ عامةً مش هاخذ على خاطري منك يا "هيثم"، أنا عارف إنك مضايق شوية، يومين هتفك وترجعلي.

استل يده من أصابعه المسككة به بتشنج، ورمقه بنظرة مطولة من عينيه المحتقتين بغضبٍ وألم، ثم رد بعدها بغصةٍ متحسرة وهو يهبط الدرجات وإحساس الهزيمة يحتل كامل كيانه:

-ولا تاخذ، كله ضاع خلاص، و"همسة" راحت مني !!

.....

الفصل السادس والعشرون (الجزء الثاني)

كالطريد العاجز سار بغير هدى يجوب الشوارع والطرقات دون أن يحدد وجهته، انتهى به المطاف على الكورنيش، توقف لبرهة ليلتقط أنفاسه، لم يعرف ماذا يفعل تحديداً، لكنه واصل سيره عليه وعقله المشحون لا يتوقف عن التفكير، تقلصت عضلات وجهه بشكلٍ مريب وكأنه تذكر ما يؤلمه، للحظة انسلت على مخيلته ذكريات قديمة راحت تسطع وتختفي كومضاتٍ من ظلمة الماضي البعيد، عاد بالزمن للوراء حين كان صبيًا صغيرًا، تجسد في عقله دكان والده بكل تفاصيله، رائحة الطلاء ومشتقاته زكمت أنفه، ما زال يذكر براعة أبيه في إعداد القهوة على (السيرتاية) لتبدو ذات مذاقٍ خاص، آنذاك وقف متدمرًا أمامه يلح عليه بعناد الصبية الذين نبت لهم خط رفيع ليشكل شاربًا أعلى أفواههم:

-يعني مش هاتيحي معايا؟

نظر له "غريب" في صمتٍ قبل أن يلتهي بخلط تلك المواد العجيبة في علبة الطلاء التي فتحها، ظل "هيثم" ساكنًا وهو يراقبه آملًا أن يدعن لرغبته ويستعطف معلمه الذي تشاجر معه ليضمه إلى مجموعة التقوية التي سبق وطُرد منها، ضجر من عدم مبالاته فهتف بتشنج:

-إنت وعدتني تكلم الأستاذ تاني.

نفخ والده في سأم، ورد بفتور:

-مالوش لازمة يا "هيثم"، اللي اتعلموا خدوا إيه

حك جانب عنقه في إحباطٍ، بالطبع لم يكن من أصحاب العقول النابغة أو متفوقًا بين أقرانه ليهرع الأول لدعمه، كان ببساطة متعثرًا في دراسته، بالكاد ينجح بالمحسوبة والواسطة، تجمدت نظراته عليه وسأله بعبوس:

حطب عاوز أروح سيمًا مع أصحابي، اديني فلوس تبقى معايا

ترك "غريب" ما في يده وأشار له بسبابته معترضًا:

-مصروفك كله رايح على القرف ده، خليك واقف معايا واتعلم صنعة تنفعك، ده أنا هودكك على أصول الشغل كله وأساراه وهخليك تكسف بدل الجنية ألف، مايقاش مخك ضلم في التعليم وأكل العيش...

بتر عبارته حين لمح "بدير" وولده يمران بجوار دكانه فأردف بتفاخرٍ انعكس في نظراته نحوهما:
-شوف ابن خالتك فهلوي إزاي وأبوه بيتباهى بيه في كل حته، خليك كده زيه ناصح والناس عملاك قيمة.

أدار "هيثم" رأسه للأمام لينظر إلى الاثنين بجنونٍ، ثم علق عليه بتمنرٍ:
-هو أنا مايعملش حاجة تعجبك خالص؟ مش لازم أبقي زيه عشان أملى دماغك، أنا ماشي.
ظهر الانزعاج على تعابيره وهو يوليه ظهره مبتعدًا، لحق به والده ليوقفه قائلاً بجنونٍ:
-يا واد استنى.. ما تقفش كده، خد وادي معايا!

نظر نحوه مُتسائلاً:

طيب، هتعمل إيه دلوقتي؟

وقبل أن يجيبه كان أحدهم يقف على أعتاب الدكان يلوح بيده مرحبًا، وييده الأخرى يمسك بطفلة صغيرة:

-سلامو عليكم.

أرخی قبضته عنه ليرحب بالضيف قائلاً:

-وعليكم السلام اتفضل يا عم "علي".

تقدم خطوتين منه، استأذن منه بجرحٍ دون أن تفتقر ابتسامته الودودة:

-مممكن يا "غريب" البت تخش الحمام عندك.

أبدى موافقته هاتقًا:

-أه وماله، على إيدك اليمين

رد "علي" يشكره:

-تسلم يا حبيبي.

استدار "غريب" نحو ابنه يأمره:

-وري الكتكوتة مكان الحمام يا "هيثم".

ألقي نظرة شاملة جالت عليها من رأسها لأخصص قدميها.. كانت ملاحظها الطفولية حادة، ونظراتها قوية تخترق من تتطلع إليه، حتى ثوبها الصيفي الذي كانت ترتديه يعلوه رسمة طاووس مزركش، وبامتعاض لم يخفه قال:

-ماشي

سارت معه الصغيرة نحو الركن الخلفي من الدكان حيث يتواجد حمام صغير الحجم، في حين مسح "غريب" يده بخرقة قديمة ليزيح بقايا الزيت العالقة بأصابعه وهو يسأل ضيفه الي بدا على معرفة جيدة به في اهتمام:

قاعدين أد ايه المرادي؟

أجابه مسترسلاً في الحديث:

-أسبوع وبعد كده الجماعة هوديهم البلد لحد ما أرجع من رحلتي

-ربنا يوسع الرزق على عبيده

-يا رب.

أوصل "هيثم" الطفلة إلى الحمام وتجول في الركن الخلفي دون هدفٍ محدد إلى أن لمح درج النقود الموجود أسفل المكتب الخشبي العريض مفتوحًا، خفق قلبه وومض عقله بفكرة عبثية جامحة، لما لا يستغل فرصة انشغال والده بالحديث مع صديقه ويأخذ بعض النقود على سبيل الاقتراض؟ أليس من المفترض أن يعطيه مصروفًا ينفقه كيفما يشاء؟ برر لنفسه أسباب السرقة، وتسلسل بحذر تام ليسحب بضعة أوراقٍ نقدية من فئة بسيطة ودسها في جيبه، استدار فجأة ليجد الطفلة محدقة به بعبوس وهي تكثف ساعديها أمام صدرها، وكأنها تؤكد له أنها رأت ما فعله، توتر ودفع السبرتاية

الموضوعة أعلى السطح الخشبي بتوترٍ قبل أن يهرب من نظراتها المراقبة التي حتماً كشفت سرقة، اندفع نحو الخارج دون أن يتفوه بكلمة مما استرعى انتباه والده الذي صاح يناديه:

-واد يا "هيثم" رايح فين؟

أجاب دون أن يلتفت نحوه:

-راجع كمان شوية يا بابا.

بعدها ببضعة ساعاتٍ نما إلى مسامعه الحريق المروع الذي اشتعل في الدكان وأودى بحياة والده حرقاً، بكى لوعةً على فراقه وإحساسه بالذنب يقتله، تمنى فقط لو أخذه في أحضانه، واعترف له بما اقترفه مبدئياً ندمه على فعلته النكراء، آنذاك أقحمت والدته في رأسه فكرة واحدة لتسيطر عليه، فقدان والده كان نتيجة سعيه الدؤوب للإلتحاق على أسرته ليعيشوا في حياة كريمة، وأن المال وحده قد يعوض حرمانه من حنان الأب واشتياقه، نعم وحدها النقود تشتري السعادة أيًا كانت ماهيتها، ومع مرور الوقت تناقص اهتمامه بأي شيء مُجدي في الحياة سوى البحث عن الفرص لاصطياد المال السهل.

لم يعول "هيثم" على مستواه العلمي المتوسط ولا على شخصيته لاجتذاب النساء حين بلغ سن الشباب، ظل هاجس المال يتحكم في أفعاله، إلى أن دخلت "همسة" في حياته، اعتقد أنها مجرد صفقة مادية رابحة إلى أن تعرف إليها، كانت تذكره باللحظات التي سبقت وفاة والده، حين كان لا يزال صبيًا يرتكب الحماقات الصغيرة معتقداً أنه سينجو من عقاب والده، بات مهتماً لأمرها، خاصة مع يقينه الداخلي إن أفسد الخطبة بأنه لن يحصل على فرصة مثلها، فمن سترضي به وهو متسكع، شبه عاطل عن العمل، يضيع أغلب وقته بالجلوس مع رفاق السوء، لكن بسبب جموحه أضعافها في لحظة طيش .. عاد إلى واقعه الأليم وقد انسابت دموعه دون أن يدري، فقد كل السبل في استعادتها، هتف يقول لنفسه بإصرارٍ:

-لازم تسمعني، أنا مش هاسيديها.

.....

أحنت رأسها قليلاً لتبحث عن مشبك الرأس الجديد الذي ابتاعته في درج التسريحة، كان مُصمماً على رسمة طاووس ومزيناً بالفصوص اللامعة، اعتدلت "فيروزة" في وقتها، ومشطت خصلات شعرها بعناية، ثم أحدثت فرقاً عند الجانب وثبتت فيه المشبك، ضبطت ياقة سترتها البيضاء، وعقدت شرائط بلوزتها البيضاء المتدلّة لتصبح أنشودة، أطبقت على شفيتها معاً لثماً أحمر الشفاه بهما، تبقى لها ارتداء حذاءها على بنطالها الجينز لتبدو مستعدة للذهاب إلى حفل عيد ميلاد رفيقتها "علا"، التفتت نحو توأماتها تسألها وهي تنثر عطرها على جانبي عنقها وثيابها:

-برضوه مش هاتيحي معايا؟

أجابتها "همسة" بفتورٍ وهي تمد يدها بالهدية المغلفة إليها:

-ماليش مزاج.

كانت متفهمة لرغبتها في الانعزال اجتماعياً عن حولها، لم تضغط عليها، وقالت مبتسمة وهي تأخذها منها:

-أنا مش هتأخر، هاعمل الواجب وأديها الهدية وهارجع تاني

هزت كتفها قائلة:

-تبسطي يا "فيرو".

وعدت توأماتها بحماسٍ طغى على وجهها الناعم:

-وأوعدك بكرة هنخرج مع بعض نتفسح ونروق دماغنا على الآخر

قالت بخفوتٍ:

-إن شاء الله.

ولجت "آمنة" إلى غرفتها وهي تحمل كومة من الملابس المطوية، وضعتها على طرف الفراش، وألقت نظرة خاطفة على هيئة ابنتها الأنيقة، ثم أوصتها بصوتٍ جاد:

-خدي بالك من نفسك يا "فيروزة"، امشي في شوارع واسعة ونور، وكلمينا كل شوية.

ردت دون اعتراض:

-حاضر.

حذرتها بلهجة أشد جدية:

-وبلاش تأخير، مش عاوزين حد يتكلم.

ابتسمت قائلة في زهو، وكأنها تمتدح ميزة خاصة بشخصها:

-إنتي عرفاني كفيلا أقطع لسان أي حد يتناول عليا.

أكدت عليها بشدة:

-طبعا، بس الحرص واجب!!

لم تجادل كثيرا، وقالت وهي تعلق حقيبتها الفضية الصغيرة ذات السلسلة الرفيعة على كتفها:

-حاضر يا ماما، يالا سلام.

اصطحبتها للخارج لتودعها قائلة:

-في رعاية الله يا حبيبتى

.....

أقسم على نفسه بيمين غليظٍ ألا يعاقر الخمر من جديد، وإن كان في ذلك نجاته، كان يعتبرها النقاء الوحيد الذي أتى إلى حياته المدنسة مصادفة، وصل بعد مجهود عضلي زائد إلى منزلها، انعطف عند الزاوية ليدخل البناية، لكن صوت "فيروزة" المرتفع جمد قدميه وأصابه بالقلق، خشي- "هيثم" أن تفسد محاولته الأخيرة في الانفراد بـ "همسة" ومصارحتها بأخطائه وإعلان توبته إن رأته توأمتها المترمة، على الفور تراجع عن الصعود على الدرك، واختبأ في ركنٍ معتم حابسًا أنفاسه حتى انصرفت، تنفس الصعداء وألقى نظرة للأعلى راجيا بشدة ألا يخفق تلك المرة، تهيأ بدنياً وذهنياً لرؤيتها، استجمع نفسه واتجه للدرج ليصعد عليه من جديد، قرع الجرس مترقبا بشغف أن تطل عليه وليست والدتها.

في تلك الأثناء، ظنت "همسة" أن شقيقتها قد نست شيئاً وعادت لإحضاره، فلم يمض على غيابها سوى بضعة دقائق، ودون احترازٍ فتحت الباب لتتفاجأ به مرابطاً أمامها، حلت الصدمة على تعبيراتها، شخصت أبصارها في ذهولٍ مصدوم، رجفة مرتعبة اجتاحت كل أوصالها، تراجعت تلقائياً للخلف وهي تغلق الباب في وجهه، لكن قدمه امتدت لتحول دون ذلك، توصلها بصوتٍ مختنق:
-استني يا "همسة" ماتقفليش الباب.

صرخت مستغيثة وهي تبذل أقصى طاقاتها لدفع الباب لغلقة حتى لا يقتحم المنزل:
-الحقيني يا ماما.

صاح بها بأصواتٍ لاهثة:

-اسمعي يا "همسة"، اديني فرصة.

أتت "آمنة" على صوتها المستنجد، استطاعت أن تلمح "هيثم" وهو يقاتل لإزاحة الكتلة الخشبية حتى يلج للداخل، وكاد يفعل ذلك، شهقت في ارتعاب:
-يا لهوي، إنت بتعمل إيه؟

اندفعت دون تفكير لتزيد من الثقل عليه وهي ترجوه:

-يا ابني امشي بالذوق ما يصحش اللي بتعمله ده!

هدر بعنادٍ مقاومًا الاثنتين:

-لأ مش هامشي غير لما "همسة" تسمعي.

ردت عليه بصوتها المرتجف:

-أحنا ما فيش بيننا حاجة، كل واحد راح لحاله.

أبدى "هيثم" ندمه الشديد فقال دون تمهيد:

-أنا غلطان، وابن ستين، وماليش أي عذر على قلة أدبي معاكي، أنا مكوتتش في وعيي ساعتها، بس اقسام بالله ما كنت أقصد أذيك، اديني فرصة أصلح اللي فات.

وبالرغم من تبريراته التي امتزجت بنحنة مسموعة إلا أنها قالت مهددة:

-امشي بدل ما أطلبك البوليس!

لم يرغب في إخافتها فسحب قدمه لتتمكن من غلق الباب، تحمل الألم الشديد الذي أصابه، لكنه لا يقارن بألم قلبه، استطاع أن يسمع صوت غلق القفل من الداخل، استند بكفه على سطحه وهتف بصوته الباكي:

-والله مكوتنش في وعيي

ردت عليه "آمنة" بصوت مشفق ترجوه أن يتخلى عن عناده ويتعد قبل أن يحدث ما تخشاه:

-الي حصل حصل يا ابني، روح لحال سبيلك.

لوهلة دارت الهواجس في رأسه، وظن أن موقف "همسة" المعادي له راجع فقط لرغبة أختها، كور قبضته بتشنج، ثم صاح بنزق وهو يدق على الباب بعنف:

-أكيد أختك اللي مقوياكي عليا، أنا عارف، إتي غيرها!

استنكرت اتهامه الصريح، وردت بقوة:

-ملكش دعوة بـ "فيروزة"، ده قراري ومش هارجع فيه

هتف معاندًا برغبة أشد إصرارًا وهو يفترش الدرج بجسده:

-وأنا مش هاسبيك!

اشرأبت "همسة" لتنظر من العين السحرية له، لم تتبينه وسط تلك الإنارة الخافتة، تحسست صدرها المتهدج بيدها، وسألت والدتها بصوت خفيض لكنه خائف:

-هنعمل إيه دلوقتي يا ماما؟

.....

احتضنتها مطولاً بعد أن انتهت من تقبيل خديها، ثم ابتعدت عنها لتنظر إليها في إعجاب وقد كانت فاتنة الحفل، ولما لا؟ وهي صاحبة ذلك العيد ميلاد المميز والذي أقيم بالنادي الشهير، تأملت

"فيروزة" بإعجابٍ رفيقتها "علا" التي ارتدت ثوبًا براقًا من اللون القرمزي يغطي كامل جسدها بدءًا من عنقها وكتفها لينتهي عند قدميها بذيل قصير، ابتسمت لها في رقة، وهنأتها قائلة:

- كل سنة وإنتي طيبة يا "لولو"

ردت مجاملة:

حبيبي يا "فيروزة"، وإنتي طيبة يا قلبي..

ثم تساءلت في اهتمام:

-أومال فين "همسة" مجائش معاكي ليه؟

مدت يدها بالهدية الصغيرة، وتحججت قائلة:

-تعبانة شوية، اتفضلي يا "لولو".

تناولت منها الهدية، وسألته بدلال:

-ولا خطيبها مرضاش؟

أكتسى وجهها بتعابير واجمة، وضغطت على شفيتها للحظة قبل أن تخبرها:

-لأ مش كده خالص، بس الموضوع آ....

ابتلعت باقي جملتها حين حضر "ماهر" ليقول بمرح:

طبعًا أختي الحلوة مستنية هديتها مني.

ردت عليه "علا" بحمايس:

أكيد.

التفت إلى الجانب ليجد "فيروزة" بجوارها، رحب بها بود:

-إزيك يا "فيروزة"؟ عاملة إيه؟

أجابته مبتسمة بلباقة:

-تمام الحمد لله، وحضرتك أخبارك إيه؟

رد بتنهيده مرهقة:

-يعني.. ماشي الحال

أضافت بتفهم:

-الله يكون في العون، مشاغل حضرتك كتير.

هز رأسه معتبًا وهو يسحب سيجارة من علبتها ليضعها بين شفتيه:

طبعا، المشاكل ما بتخلصش في شغلنا.

استدار برأسه نحو الجانب المعاكس حين سمع صوتًا رجوليًا يناديه:

- "ماهر" بيه

لوح لرفيقه بيده بعد إشعاله لسيجارته:

- "آسر"، جايلك..

ثم وزع نظراته بين الشابتين وقال:

عن إذنكم لحظة.

انسحب في هدوء ليلاقي صديقه "آسر" الذي صاحفه بجرارة، وقف الاثنان مبتعدين عن الزحام ليتدثا بأريحية، ارتكزت أنظار الأخير على "فيروزه"، ظهرت علامات الاهتمام بها جلية على قسماته، لفتت أنظاره منذ أن أطلقت على الحفل بوجهها الناعم ومظهرها الجذاب رغم عدم تكلفها، كانت ملاحظها مألوفة بالنسبة له، تذكر أنه رآها من قبل، اعتصر ذهنه عصرًا ليتذكر أين تحديداً، لم يحتر كثيرا، تنشط عقله بوجهها وضحكتها الفاتنة؛ إنها نفس الفتاة التي تواجدت بالمطعم البحري حين جاء للقاء رفاقه به، كانت تبدو غير منسجمة آنذاك مع رفاقها، لم ينكر أنها أثارت انتباهه حينها بثوبها البراق، واليوم حركت فيه نزعة غريبة كانت تزداد توهجا مع متابعتة الكثيفة لها، مال برأسه نحو "ماهر" وسأله بفضول:

-مين دي يا "ماهر"؟

بدا الأخير غير منتبه، فأضاف:

-اللي واقفة جمب "علا".

أجال "ماهر" بنظراته على المتواجدين حول شقيقته قبل أن يجيبه متسائلاً في حيرة واضحة:

-قصدك مين؟

أجاب موضحاً أكثر:

-البنت اللي لابسة جاكيت أبيض وفاردة شعرها دي.

أدرك أنه يقصد "فيروزة" بحديثه، ابتسم له متسائلاً بعبثية:

-دي صاحبة "علا"، مالك بيها؟

أجاب مراوفاً:

-أنا كنت شوفتها معاكم قبل كده، يوم المطعم.

رفع حاجبه الأيسر مؤكداً صحة ما تفوه به:

-أيوه.

فرك "آسر" طرف ذقنه، وتساءل:

-إنت تعرفها كويس؟

لم يرد بإجابة مباشرة، وقال كأنه يحقق معه:

ليه في حاجة؟

تنحج معلقاً عليه ببسمة سخيفة:

-لا عادي..

بدا رده منقوصاً، وافتضح أمره حين تابع من تلقاء نفسه:

-أنا مش شايف دبلة في إيدها.

نظر له في ضيقي وهو يكمل محذراً:

-على طول لحقت تفحصها، بأقولك إيه ملكش دعوة بأصحاب أختي، وخصوصاً "فيروزة"!!!

قال مبتهجاً وقد انفجرت أساريره:

-ده اسمها؟

على مضض رد:

-أيوه.

لكزه في جانبه مماًزحاً:

حطب ما تخليك جدع معايا وتعرفني بيها.

غامت نظراته مردداً في ضيقي، وكأنه لا يستسيغ تلك النوعية من التصرفات:

-إنت ما بتضيعش وقت؟!!

أجابه بابتسامة غامضة وهو يغمز له:

-مش جايز ربنا يهديني والآقي بنت الحلال هنا.

أنذره "ماهر" بلهجة اكتسبت جدية مريبة:

-ماشني يا "آسر"، بس إياك تعلمي مشكلة، أنا بأحذرك تاني.

قال في حبور، وذلك الإحساس المتحمس يتخلله:

-اطمن .. ده أنا حبيبك.

أعمل "ماهر" عقله حتى يبادر معرفاً به دون أن يشير الشكوك أو يبدو في موقف حرج، دنا من

شقيقته وقد تأكد من تواجد "فيروزة" بقرنها ليقول بابتسامة عريضة متعمداً لفت أنظارها:

-يا "علا"! "آسر" وفي بوعده وجه عيد ميلادك مخصوص.

بهجة غير عادية طفت على تعبيراتها وهي ترد:

- مش مصدقة، ده احنا لازم نعمله تمثال!

ادعى "آسر" شعوره بالإحراج وقد وقف في مواجهة "فيروزة" لتصبح شبه قريبة منه:

- يا جماعة مش للدرجادي، إنتو كده بتخرجوني!

ردت عليه "علا" بقليل من المرح:

- مش بعوايدك تلتزم بأي ميعاد.

ثبت عيناه المتفحصان على وجه "فيروزة" وهو يجيبها:

- ده بس عشان أنا لسه موجود ومسافرتش.

توردت بشرتها معقبة عليه:

- ده من حظي بقي

اتخذت "فيروزة" موقف المشاهد الصامت الذي لا داعي من وجوده معظم الحوار إلى أن استطرد

"ماهر" يقدمها له:

- دي بقلا يا سيدي صاحبة أختي الأتيم "فيروزة".

نظرة مشرقة ظهرت في عينيه وهو يرحب بها بود زائد:

- تشرفت بيكي، ماشاء الله اسمك حلو ومختلف

قالت "فيروزة" باقتضاب وقد سطع على وجهها تعبير مهني بحت:

- ميرسي.

تساءل "آسر" باهتمام وهو يخطو نحوها خطوة محسوبة ليجبرها على التحرك معه ويوجهها وفق

خطواته:

طالما إنتي صاحبة "علا" يبقى خلصتي دراسة زيه، صح؟

شعرت بعدم الارتياح لأريحيته الزائدة في الحديث معها، وكأنه يعرفها منذ زمن، لهذا ردت بإيماءة مؤكدة من رأسها دون أن تنطق، ومع ذلك تابع متسائلاً بفضول أكبر:

-بتشغلي يا آنسة "فيروزة"؟ ولا أعدة في البيت؟

لم تجذب تلك النوعية من الأسئلة التحقيقية التي يفرضها الآخرون عليها ليتدخلوا في شئونها دون مراعاة لعدم رغبتها في الاندماج اجتماعياً مع الغرباء، أدركت أنها ابتعدت عن رفيقتها بمسافة شبيهة كبيرة مما وترها قليلاً، لذا أجابته بنوع من الغموض وهي تحاول عدم إحراجه حتى لا تفسد بهجة الحفل بغلظتها:

-كنت.. وسبت الشغل.

سألها كأنه يلاحقها:

-مشاكل ولا محبتيش الشغل؟

تطلعت إليه وقد امتنع وجهها، ثم أجابته باقتضابٍ قبل أن تتركه لتعود لرفيقتها:

-يعني، عن إذنك.

لم يرغب "آسر" أن يصبح ثقيلاً معها، فأشار لها بيده قائلاً تهذيباً:

-تفضلي، وسوري إن كنت ضايقتك

لم تلتفت نحوه حين ردت:

-ما فيش مشكلة.

نفخت في ضيقٍ من أسلوبه وعادت لتقف بجوار رفيقتها، ولكن وسط بقية الفتيات حتى لا يتكرر الأمر إن كان مقصوداً منه، حانت منها نظرة سريعة لتتأكد أنه لا يتطلع إليها، أصيبت بالذهول والارتباك وقد كان محققاً بها بابتسامة هادئة، أخفضت نظراتها وادعت انشغالها بالحديث مع من حولها، لكن أخبرها حدسها بأنه ما زال يخترقها بنظراته النافذة.. تزينت الكعكة الكبيرة بالشموع التي ملأت أطرافها، قام "ماهر" بإشعالهم ليلتفت حولها الضيوف، ثم بدأوا في ترديد أغاني العيد

ميلاد الشهيرة، أطفأتهم "علا" جميعًا على دفعتين من الهواء، وتلقت التهئات من صديقاتها الجميلات، جاء دور "فيروزة" فقالت مودعة إياها:

- كل سنة وإنتي طيبة يا "لولو"، مضطربة أمشي عشان وعدت ماما متأخرش.

انزعجت من انصرافها مبكرًا، وقالت بتذمر:

هو إنتي لحقتي؟

بررت لها بابتسامة صغيرة ظهرت على شفيتها:

- معلش يا "لولو"، هابقي أعوضالك، وخليكي إنتي مع ضيوفك.

تفهمت موقفها، وقالت:

- ماشي يا ستي، بس عاوزة أشوفك تاني

أكيد

رددت تلك الكلمة قبل أن تنحني عليها لتحتضنها لمرّة أخيرة، ثم انسلت من بين الحضور معلقة

حقيبتها على كتفها، استوقفها "آسر" فجأة وقد ظهر لها فجأة ليعترض طريقها:

إنتي ماشية يا آنسة "فيروزة".

انزعجت من تطفله عليها، وردت بتجهم شديد:

أيوه

همت بالتحرك لكنه أوقفها بفرد ذراعه أمامها، رمقته بنظرة حادة وذلك التعبير الساخط منتشر على

محياتها، تساءل "آسر" بلطافة مهدبة:

تحبي أوصلك؟ أنا معايا عربية، يعني بدل بهدلة المواصلات وكده

ارتدت قناع الجمود، وسددت له نظرات قوية نافرة لتقول بنبرة جافة:

- لا شكرا، بيتي قريب

ألح عليها مبتسماً:

-على فكرة دي حاجة عادية خالص، و...

قاطعته بنظرات صارمة:

-مش هاينفع، وعن إذنك.

خطت للجانب حتى تتمكن من السير، لكنه لحق بها، وسألها بعفوية وعيناها تدرسان قسماتها التي تتباين في ردادات فعلها في وقت قياسي:

-طب هاشوفك تاني؟

هتفت توجّه بنظراتها دون أن تتوقف:

-أفندم؟ تشوفني؟

ابتلع ريقه حين قرأ بوضوح تعابيرها المزعوجة، ثم برر بلطف حتى لا تنفر منه:

-قصدي يعني أتمنى أشوفك مع "علا" مرة ثانية قبل ما أسافر.

اختلج وجهها بحمرة متوترة، رن صوتها الرسمي في أذنيه حين ردت وحاجباها معقودان في ضيق:

-إن شاء الله.

.....

كان الطقس لطيفاً بالرغم من التجمعات الكثيفة للسحب منذ وقت الظهيرة، اعتقد "تميم" أنها لن تمطر، سيظل الجو غائماً فقط، ولكن بدأت زخات المطر في الهطول ليضطر أسفاً أن ينهي أعماله في الميناء مبكراً بعد تعبئة السفن بأطنان من الفواكه والخضراوات، استقل سيارته، وتحرك ببطء في الشوارع الرئيسية عائداً إلى منزله، ولكنه توقف عند أحد محال البقالة ليبتاع ما ينقص بيته تفيئاً لأوامر زوجته، وكالعادة أزعمته "خلود" باتصالاتها المتعاقبة على مدار ساعات اليوم الطويلة، أجاها لينتهي من ذلك الكابوس المستمر قائلاً بتبرم:

-يا ستي أنا جبت كل حاجة، ارتاحي شوية.

سألته بدلالٍ لا يستلطفه:

طب هترجع امتي؟ أنا مستنيك عشان ناكل سوا، يومي ما بيكملش من غيرك!

رد على مضض:

-شوية كده..

-موحشتكش

-أكيد وحشتيني

طب قولي النهاردة كان آ...

وقبل أن تستأنف باقي أسئلتها كتحقيقٍ متبع خلال يومه الممل هتف منيّا المكالمة:

-ياللا سلام دلوقتي يا "خلود" عشان في لجنة قصادي.

رأى "تميم" بضعة أفراد من الشرطة يقفون على مسافة منه يفحصون كل المركبات السائرة على الطريق ليتأكدوا من صلاحية رخصة قائديها، لم يلقِ بالأمر لالتزامه بمعايير القيادة الآمنة، لكن رنين اتصالات "خلود" الزائد كان مرهقاً بالنسبة له بعد عناءٍ يومٍ شاق، ردد مع نفسه في تدمر:

-إيه .. طلباتك ما بتخلص!!!

التفت على يساره ليلقي نظرة خاطفة على المتجمعين أسفل تندة تخص أحد محال الثياب، خفقة مباغتة ذات تأثير قوي داعبت قلبه حين رآها تحتمي بينهم من المطر، تطلع بإمعانٍ ليتأكد منها، لم يكذب الفؤاد، بالفعل كانت متواجدة بشحمها ولحمها تضع حقيبتها أعلى رأسها حتى لا يبتل شعرها، توترت أنفاسه وردد مذهولاً وهو يرمش بعينه:

-مش معقول، دي هي!

وكانه أصيب بحمي عجيبة تسببت في ارتفاع حرارة جسده، بل وأصابت عقله بلوسة غريبة، تنفس بعمقٍ ليهدي من انفعلاته التي اهتمت فجأة، أوقف السيارة على الجانب المقابل من الطريق وتلك الرجفة تسري فيه، أدار رأسه مرة أخرى لينظر نحوها، كانت تجذب عينيه ليتأملها ملياً دون مللٍ،

بدأت فائقة الإغراء وقد ابتلت أطراف شعرها، انقبض قلبه من جديد بقوة حين نفضته لتريح العالق من مياه الأمطار، ضحكة رجولية عالية غير مريحة لفتت انتباهه وانتشلته من تحديق الواله بها لتتبدل بعدها تعابيره الساهمة لوجوم غاضب، حرك رأسه بسرعة ليجد بعض الشباب يمرحون فيما بينهم، هاجت دماثة من احتمالية تفكير أحدهم في مضايقتها، خاصة أنها كانت بمفردها، لذا دون إعادة تفكير ترجل من سيارته مقنعا نفسه أنه سيتعامل معها بدافع الشهامة.

وبخطى متعجلة كان يقطع الطريق أشواطاً ليصل إليها، وقف قبالتها، كانت ذات رونق مثير وجذاب بشكل لا يُحتمل جعلت أنفاسه تضطرب، دارت عيناه على ثيابها الأنيقة لتحفر وصفها في مخيلته، بدأت بيضاء للغاية، تنفس ببطء ليستعيد ثباته، وبالرغم من كفاحه المسميت إلا أنه حين استطرد يناديها خرج صوته مغلقاً بلعنة طفيفة:

- آ.. يا .. يا أبله

تدلى فك "فيروزة" السفلي في اندهاش مستهجن حين رآته أمامها، الآن أكتملت ليلتها برويته، غامت نظراتها مرددة بضيق بائن عليها:

- إنت؟!!

نظرة واحدة منها كانت كفيلا بإرباكه، توتر أكثر وفقد تركيزه وهو يحاول إيجاد المقدمة المناسبة ليستهل بها حديثه معها، خاصة أنها من النوع المتهور المندفع الذي يتحين الفرص للانقضاض عليه، مرر يده على رأسه وتنحج قائلاً بتمهل:

-أنا مش جاي أضايك، بس الجو وحش زي ما إنتي شايقة، وما فيش مواصلات كثير.

نظرت له متسائلة:

-والمطلوب؟

ضغط على شفثيه للحظة قبل أن يجيبها بحذر:

-ما ينفعش وقفك كده.

على الفور حدث ما يخشاه، بدأت فاصلاً من الهجوم عليه، فقالت تهكم أزججه:

-وحضرتك مالك؟ أخصك في حاجة وأنا معرفش؟ قريبتك مثلاً؟...

توقفت للحظة عن عمدٍ لتصيبه بالضيق أكثر قبل أن تواصل بنفس الأسلوب الساخر:

-يمكن خطيبتك، أه ولا جاز مرارك؟

راقب عصبيتها بنظراتٍ غريبة، وكأنه يدرسها، ما زالت تثير كلاً من دهشته وتحفظه بالرغم من الحق المتبادل بينهما، لكنها كانت محقة في كلامها الأخير، لا توجد صلة بينهما، ومع هذا قال بخشونة حتى لا تتماذى في هجوما القاسي عليه:

-في إيه لكل ده؟ أنا كنت عاوز أوصلك، باعتبار إن سكتنا واحدة، حاجة إنسانية يعني.

تفوست شفتها بضحكة مستهجنة قبل أن تغمغم بوقاحة:

-لما أعوز أركب سفلة (مجاناً) هاقولك!

صدمه ردها الفظ، وردد بعينين متسعيتين:

-نعم!

هتفت باستعلاء، وكأنها تحقره:

-اللي سمعته!

سد لها نظرة نارية حارقة، ورد عليها بغلظة:

-يا ستي أنا غلطان، إن شاء الله ما ركبتى..

لكن لانت نبرته بمقدار بسيط حين تابع:

-بس الوقفة وسط الرجالة ماتصحش، مافيش آمان يا أبلة لحد!

نع خوفه الصادق عليها من قلبه، استشعرت ما ينتابه من قلق، وبعفوية التفتت للجانب لتجد ذلك التجمع الرجولي الزائد، تلبكت من وجودهم الكثيف، أحست بالخطر مُحاوِطاً بها وإن كانت تدعي شجاعتها، بعض المواقف تحتاج للتقييم جيداً قبل اتخاذ القرار الحاسم، انتصبت بكتفها، وعلقت حقيبتها التي تهدلت سلسلتها على كتفها من جديد، ثم قالت بنبرة عازمة دون أن تنتظر الرد منه:

خلاص هامشيها، والمشي رياضة!

وبخطوات جمعت بين الثقة والخيلاء بدأت بالسير على الرصيف متجاوزة إياه لتبتعد عنه وهو يكاد لا يصدق أنها فعلت الأسوأ وسارت تحت المطر لتبتل كلياً، ضرب كفاً بالآخر متعجباً من عنادها وهو يردد لنفسه:

-رهيبية، بالله ما شوفت كده!

أزاحت "فيروزة" بيدها خصلاتها التي التصقت بجبينها، ولم تدرك أنها أسقطت مشبك رأسها بحركتها المتعصبة، لمح "تميم" ذاك الشيء الذي وقع منها وأحدث ارتطامه بالرصيف تناثراً للمياه، سار خلفها باحثاً عنه، كان بريقه واضحاً ليتمكن من العثور عليه، انحنى ليلتقطه، تأمله في استمتاع وقال مداعباً وتلك النظرة الدافئة تلتصق بطيفها المبتعد:

طاووس فعلاً.

ترأى له بوضوح ما يجب أن يفعله معها دون أن يثير الجلبة، سيتبعها كظلها بسيارته إلى أن تصل إلى منزلها في سلام .. بالفعل منح نفسه الوصاية عليها، ونصب نفسه حارساً عليها وإن لم تعلم ذلك

!!

.....

الفصل السابع والعشرون

شبت منذ نعومة أظافرها على فكرة أن تكون له وحده، لم تر سواه .. ولم تعرف غيره! هيأتها والدتها لتكون رفيقة دربه دون أن تمنحها حق الاختيار، بل وتأتي منه بالورث الوحيد لثروة تلك العائلة ليستريح والدها في قبره، ورضخت بكامل قواها العقلية لإرادتها لكون الأمر على هواها، فأصبح شاغلها الوحيد، وطوال أعوام عاشت بخيالها داخل ما أسمته حبها الأفلاطوني، وإن كان من طرفها فقط وبدون وجوده ليشاركها في تفاصيل حياتها، تأصل بداخلها رغبة أنانية في امتلاك كل ما يخصه؛ قلبه، مشاعره، جوارحه، وحتى أنفاسه التي يتلفظها .. لم تتدرك "خلود" أنها حولت أحلامها الوردية إلى هوس خاص بها ازداد عمقًا بمرور الأيام، وحين أصبح شريكها عجزت عن امتلاكه مثلما طمعت، كان يأبى استحوادها غير المقبول عليه، تحكمتها الزائد فيما يخص أمور حياته حتى التافه منه، ولم تمنحه الفرصة لاستيعاب حبها بغير شروط، بل لجأت لحيلة سهلة التنفيذ كما أوصتها والدتها، وحاصرت المشاعر المتبادلة بينهما في الفراش فقط، فأصبحت تجره جراً إليه لتستنزف قواه أولاً بأول معتقدة بذلك أنها إن نجحت في إشباع رغباته امتلكته.

تفقدت ألبوم الصور الفوتوغرافية الذي جمعت فيه صور حفل الزفاف بعينين حائرتين وهي تستلقي على الأريكة، تأملت وجه "تميم" بدقة، لم يبتسم بسعادة، لم تظهر علامات البهجة على قسماته، كان في أغلب اللقطات إن لم تكن جميعها بلا تعبيرٍ مقروء، رددت بتنهيدة وكأنها تخلق المبررات لنفسها لتتفجع عقلها بتقبل جفائه:

-حتى لو مكوتنش بتحبني أد كده، فإنت هتفضل ليا!

اعتلى شفتها ابتسامة واثقة حين أضافت:

-ويكرة لما أجيبك ابنك وحفيد العيلة اللي من صلبك الضحكة هترجع لوشك، ومش هاتقدر تبعد عني!

استغرقت في أفكارها الحاملة لبعض الوقت إلى أن رن هاتفها المحمول، أخرجت زفيرًا بطيئًا من جوفها وهي تمد يدها بتثاقلٍ لتأتي به من على الطاولة، نظرت إلى اسم والدتها، وأجابت بتكاسلٍ ملحوظ:

-أيوه يامه.

صاحت فيها الأخيرة بضيق انعكس جليًا على نبرتها:

-ما بتريش ليه على طول؟ وراكي الديوان وأنا معرفش؟

استغربت من عصبيتها، وتساءلت:

-مالك داخلة فياكده؟ إيه اللي مضايقتك يامه؟ "هيثم" عمل حاجة ثاني

ردت بتبرم:

-هو عامل حاجة غير إنه قرفني بالمعدولة "همسة"، تقولش ما فيش إلا هي اللي خرطها خراط البنات!

علقت "خلود" في ضجرٍ وهي تغلق ألبوم الصور لتطرحه جانبًا:

-بكرة ينساها، يومين وهيرجع زي ما كان.

استطاعت أن تسمع صوت زفيرها قبل أن تضيف:

-مش باين، قوليلي جوزك رجع ولا لسه برا؟

أجابتها بزفيرٍ بطيء:

-في الطريق.

أكلت متسائلة باهتمام:

طب كويس، ها طمني، في أخبار الشهر ده تفرح؟

عادت "خلود" لتتذكر تحليل الحمل المنزلي الذي أتت به بالأمس لتختبر سرًا إن كانت تحمل في أحشائها جنينًا أم لا حين تأخرت عليها زائرتها الشهرية يومين، كانت النتيجة لا شيء، واليوم حلت ضيقها بالأمها لتقلب مزاجها وتنغص أحلامها.. وبنفس الوجوم جاوبتها مبتلعة تلك الغصة المريرة في حلقها:

-لأ، ما فيش نصيب

شعرت بنبرتها الحاققة تخترق أذنها وهي تلومها:
إزاي يا بت؟ طب عملي اللي قولتلك عليه؟

شردت متذكرة شريط الأقراص الدوائي الأزرق الموصوف لأصحاب الحالات المرضية التي تعاني من ضعف في العلاقات الزوجية، والذي أحضرته لها والدتها بعد بضعة أيام من زواجها، وأمرتها دون نقاش معاها بدسه لزوجها وسط الطعام يومًا بعد يوم لتنشط خلاياه وتعزز من نزاعه الذكورية حتى تزداد رغبته في ابنتها إن كان يبنذها وفي نفس الوقت تتمكن سريعًا من الحمل، تقلصت تعبيراتها وأطلعتها بالتفصيل على ما قامت به، وقالت:

-أيوه، طحنت الأقراص وحطيتهم في الأكل بتاعه، مخلتس في نفسه حاجة إلا وعملتها عشان أضمن إنه ياخده.

خالفت ما أوصاها به "تميم" من عدم إطلاع أي فرد من عائلتها على أسرار غرفة النوم، بأن تكون علاقتها الحميمة منحصرة بينهما لا وسيلة للتداول على الألسن، فعلت النقيض والأسوأ بكثير دون علمه أو مراعاة مدى التأثير الجانبي السلبي عليه لإفراطه في تناول تلك المواد المنشطة معتقدة أنها بذلك تزيد من استحواذها عليه .. سألتها والدتها بتلهف:

-وياكل ولا بيحصل إيه فهميني؟

أجابتها مؤكدة على مسامعها:

-أيوه، مافيش وجبة فوتها، وبعدها بيحصل المراد يامه.

تساءلت "بثينة" في حيرة:

-أومال في إيه؟ ده المفروض يجيب جيش قرود بعد الطفح ده كله واللي بتعمله فيه!!

عقبت على مضيض:

-هو مقصرش معايا، بيه أو من غيره "تميم" بيقوم بدوره.

قالت لها بنوعٍ من المواساة:

-مش عارفة أقولك إيه بس ، لسه الوقت مأزفش..

-أيوه..

استأنفت "بشينة" نصائحها الماكرة، فأوصتها مشددة:

-المهم ابلفيه تحت جناحك بالدلع والشخلة مرة، بالبرشام والذي منه مرة، ما تخلهوش على بعضه، مش عايزاه يشوف إلا إنتي، اسمعي مني يا "خلود" الرجالة مالهاش أمان، واللي زي جوزك كنز، سهل واحدة تجره ليه لو مكاتتش عينه مليانة منك، املي مزاجه وسيطري عليه.

توهجت حدقتهاها بوميض غريب، وردت بثقة:

-حاضر، إنتي مش محتاجة توصيني عليه، أنا ممها عمل "تميم" فهو بتاعي، مش هايكون لحد غيري!

.....

فسد حذاءها الأبيض بفعل مياه الأمطار التي اخترقت جلده وتشبعت به فأصبح فعليًا وعاء تغوص فيه قدميها، سارت بتدمر وهي تلوم نفسها على تسرعها تلك المرة في اتخاذ القرار، لما لم تُعاند نفسها وتستقل سيارة أجرة، فالشوارع لا تصلح للسير، ولا الأرصفة ممهدة بشكلٍ جيد يقبها من العثرات المفاجئة، بعد عناءٍ وصلت "فيروزة" إلى الطريق الرئيسي- المؤدي إلى بيتها، التفتت لتنظر إلى جانبه قبل أن تعبره، ذهلت حين رآته يسير بسيارته بهوادة لبدو قريبًا منها، تجهمت تعبيراتها، وصاحت فيه:

-إنت بتراقبني؟

رد "تميم" ببرود، ومرفقه مستندًا على حافة النافذة المنخفضة:

-لأ

سألته بضيقٍ وهي تلوح بيدها:

-أومال بتسمي اللي بتعمله ده إيه؟

أوقف محرك السيارة، وترجل منها وهو يجيها مازحًا بابتسامة صغيرة تعبر عن هدوئه:

-ولا حاجة، وأكيد مش شغال في المخبرات عشان أراقبك!

تقدمت نحوه ورمقته بنظرة قوية قبل أن تخبره:

يا حضرت إنت ماشي ورايا ليه لحد بيتي.

فرد ذراعيه في الهواء موضحاً لها بثقة ونظراته المغترّة تتراقص في حدقتيه:

-أنا ماشي في شارع الحكومة، أسفلت زي أي أسفلت..

ثم وضع يده أسفل ذقنه مدعيًا التفكير قبل أن يتابع متسائلاً بنبرة ساخرة:

-ولا يكوئش من أملاكك وأنا معرفش ومعلقين يافطة كاتبين فيها بالبونط العريض ممنوع الدخول لـ

"تميم" عشان الأبلّة ماتضايقش؟!

انزعجت من جملته التهمكية، وقالت بعصبية وهي توليه ظهرها:

-أنا غلطانة إني واقفة هنا أصلاً.

شبك ساعديه أمام صدره، ورد عليها:

-وأنا مش ماسكك، اتفضلي خليني أرجع بيتي.

أدرك على الفور زلة لسانه التي انفلتت دون قصدٍ منه فتوقفت "فيروزة" عن السير وقد سمعتها

بالفعل لتستدير نحوه، فأشار بسبابته مبتسماً ببلاهة::

-الدنيا أصلها زحمة ومطر وحاجة صعب الصراحة، الواحد المفروض يخليه في البيت

هزت رأسها في عدم تصديقٍ، وتابعت السير بخطواتٍ متعجلة قاصدة مدخل منزلها، تنفس

الصعداء وهو يوبخ نفسه على ذلك الخطأ، أرخى ذراعيه وتحسس جيب بنطاله ليبحث عن

ولاعته، لكنه تذكر مشبك الرأس الذي وجدته، أخرجه من جيبه ليتطلع إليه في حيرة، تردد في

إعادته لها وقبض عليه براحته، خشي— أن تظن أنه يتأدى معها، قرر الاحتفاظ به لكن عادت

ذكرى حادثة منديل الرأس لتنشط عقله، وقال لنفسه بنوعٍ من التحذير:

-كده هعمل مشكلة تاني مع "خلود"، وماينفعلش أكذب عليها! المرة اللي فاتت عدت على خير، مالوش لازمة أجيب وجع الدماغ لنفسي!

عقد النية على قيادة السيارة والالتفاف حول منزلها ليتمكن من اللحاق بها، ومن ثم إعطائها إياه تجنبًا للمشاكل.

.....

في تلك الأثناء، جمعت "فيروزة" يديها شعرها المبتل وكأنه تمشطه حتى لا يلتصق بوجهها، ولجت إلى مدخل المنزل وهي غير منتبهة لذلك الشخص القابع في العتمة، وعلى ما يبدو لم يتوقع هو الآخر رؤيتها، شهقة مباغتة خرجت من جوفها حين لمحتة جالسًا على الدرج وهو يحني رأسه على صدره، في البداية ظنت أنه لص قد جاء لسرقة المنزل، ولكن لماذا يجلس هكذا؟ تساءل عقلها بمنطقية قبل أن ينبذ تلك الفكرة، دنت منه بجذيرٍ وقد استجمعت شجاعته، دقت النظر فيه لتبين ملامحه وهي تتساءل بصوتٍ حاولت أن يبدو ثابتًا حتى لا يظهر خوفها الغريزي:

-إنت مين؟ وقاعد كده ليه؟

رفع "هيثم" رأسه ليجدها أمامه، وكأن كراهية الدنيا كلها قد تجمعت في عينيه بمجرد رؤيتها تحديداً، تفاجأت هي الأخرى بوجوده، وبادلته مشاعر العدا، استند على مرفقيه لينهض من جلسته المتعبة، هبط الدرج نحوها يلومها بنبرة حانقة للغاية:

-إنتي السبب!

لم تتخل عن جأشها، وصاحت فيه دون رهبة:

-إنت بتعمل إيه هنا؟

بدا "هيثم" في حالة غريبة، منذرة بطوفان من الغضب المكتوم، شعرت بذلك في صوته عندما أخبرها:

-إنتي اللي مخلياها ترفض ترجعلي.

تراجعت على درجات السلم بظهرها لتمنح نفسها مسافة آمنة قبل أن يفكر في الهجوم عليها، وتتمهل
حذر ردت عليه:

-روح لحالك .. ما فيش نصيب

صرخ بها:

-من الأول وإنتي حطاني في دماغك، بتكرهيني من غير سبب

ابتلعت ريقها وعلقت عليه:

-وأنا في إيه بيني وبينك؟

هدر بها بصوته الغاضب وقد واصل هبوطه متجهًا نحوها:

-وأنا عملتك إيه؟ مكانتش غلطة حصلت وأنا مكونتش في وعي ساعتها!

استنكرت استخفافه بتأثير خسته على حالة توأمتها النفسية، وانتفضت تصرخ فيه:

-بتسمي اللي عملته فيها غلطة؟ بتتهجم عليها والله أعلم كان إيه ممكن يحصل لو ملحقتهاش إنه

غلطة، المفروض بعد ده تتكسف على دمننا ونسكت ونرضى بيك!!!

رد بألم وتلك الدمعة المقهورة تفر من عينه:

-وخذت جزاتي خلاص، ليه عاوزه تحرميني منها؟

قالت بقساوة وقد هبطت الدرجات بالكامل لتصبح أمام المدخل:

-أختي مش هاتجوزك مهما حصل

توسلها بنبرة تميل للبكاء عليها تمنحه الأمل:

-خليني اتكلم معاها، أشرح لها موقفي

رفضت طلبه دون تفكير:

-مش هايحصل!

يئس من إقناعها بالعكس لتزداد قناعاته بأنها متسلطة ومتحكمة فيما يخص شؤون خطيبته السابقة،
باح بما ينتاب عقله من هواجس في تلك اللحظة، واتهمها:

-إنتي ضاغطة عليها عشان ماترجعيليش، من وقت ما اتقدمت لأختك وإنتي مش راضية بيا، زي
الشوكة في الزور!

نظرت له باستحقارٍ قبل أن تقول منهية الحوار معه:

هي مش عاوزاك، وخلص ده باب واتقفل في وشك، روح لحال سييلك، ملكش نصيب،
اتفضل.

وقف "هيثم" قبالتها ينظر لها بكل ما يعتريه من غيظٍ وغل، احتقت عروقه من شدة حقه
المتعاضم، رفع يده يهددها بلا وعي:

-وأنا مش هاسييك تمنعيني عنها .. إنتي السبب!

تحده بجرأةٍ وهي تتعد عنه لتقترب من الرصيف:

لو ما خرجتش بالذوق هاجيبك البوليس

لحق بها قبل أن تخرج من المدخل وأمسك بها من رسغها ليوقفها، ثم جذبها بقسوة للداخل وهو
يأمرها بصوته المحتد:

-استني هنا!

استخدمت "فيروزة" حقيبتها كوسيلة دفاعية لتقاومه بكل شراسة، رفعتها أمام وجهه وضربته
بأقصى طاقتها على صدغه لتؤلمه وهي تصيح به:

-بعد عني!

أحدث قفلها المعدني خدشًا واضحًا في صدغه، استشاطت حدقتاه على الأخير، وتطلع لها بشرٍ-
مبين، وقبل أن يفكر في الرد عليها كان "تميم" يقف حائلًا بينها بجسده وهو يناديه بصوته الأجهش
القاسي:

- "هيثم"!

شلت المفاجأة تفكيره ووترته لحظياً، لم يتوقع ظهوره في ذلك التوقيت، جف حلقه، ونظر له بترقب، في حين استل "تميم" معصمها من قبضته، ورمقه بنظرة قائمة منذرة جعلته يتراجع على الفور للخلف، ثم سأله بغلظة:

- أنت بتعمل إيه هنا؟

لم يجبه، ونكس رأسه خزيًا، بينما ردت "فيروزة" من خلفه تتوعده:

- أنا هاطلبه البوليس عشان يترى....

التفت "تميم" نحوها يقاطعها بصيغة امرأة:

- اهدي يا أبله، وخليني أفهم الأول منه!

نظرت له بجنقٍ قبل أن ترد بما يشبه التهم:

- أه طبعًا، ما هو قريك لازم تحاميله!

وفجأة سمع كلاهما صوت بكاءٍ حارق جعلها يتطلعان للأمام ويتشاركان في نفس الصدمة، حيث انفجر "هيثم" باكيًا وهو يبحث على ركبتيه متوسلاً:

- ليه محدش عايز يسمعني أو حتى يصدقني؟ للدرجادي مستحقش فرصة ثانية أثبت لـ "همسة" بيها إني اتغيرت؟

حملت فيه بازدراءٍ قبل أن تغمغم:

- قالوا للحرامي احلف!

صرخ باهتياج وهو يتطلع لها بعينه الملتهبتين:

طب اعمل إيه عشان تصدقوا إني ندمان وفعلاً بأحبها!!؟

هتفت فيه "فيروزة" تلوح بذراعها وقد ظهر الاستنكار في صوتها ونظراتها إليه:

- حب؟ دي معرفتها بيك مكملتش كام يوم!

رد بحرقه وذاك الوخر يحز في قلبه:

- أقسم بالله حبيتها من أول نظرة.

قالت بقسوة وبوجه جليدي صارم:

- والمفروض أنا عبيطة وهصدق ده؟

انفلتت أعصابه وفقد القدرة على التحكم في انفعالاته، نهض بمشاعره المحتقنة من على الأرض وتلفت حوله بنظراتٍ غائمة، ثم اقترب من الحائط واستند عليه بكفيه وبدأ بضرب رأسه به بشكلٍ جنوني عنيف ودون توقف وهو يصرخ في إحباطٍ متألم:

قوليلي أعمل إيه طيب؟ ردي عليا

توترت "فيروزة" من هيئته الهائجة، وانفض جسدها مع ضرباته المرعبة التي كادت تهشم رأسه، نظر له "تميم" مذهولاً، وأسرع نحوه ليعده عن الحائط، مرر ذراعيه أسفل إبطيه وسحبه للخلف محاولاً تحجيم نوبة جنونه المخيفة، قيد حركته قائلاً له بما يقارب الرجاء:

- اهدى يا "هيثم"، إنت هتموت نفسك؟!!

انسابت خيوط الدماء بغزارة من جبينه لتصبغ كامل وجهه باللون الأحمر القاني، ومع ذلك تابع بصوته المتألم لكن بوهن:

أنا زبالة وابن، وكل يوم بأضرب نفسي بالجزمة عشان كنت نجس معاها!

وبهم مفتوح ونظرات غير مصدقة للمشهد الدموي المقشعر للأبدان رددت "فيروزة" لنفسها:

ده اتجنن ولا إيه؟

ركز "تميم" عينيه نحوها يأمرها:

- اطلعي فوق دلوقتي

همت بالاعتراض لكن صوته الصارم واصل القول:

عجبك حالته دي؟

بالطبع لا، هكذا قالت في نفسها دون أن تنطق، هي ليست بتلك القساوة لتعلن عن غببتها لرؤيته أحدهم يأذي نفسه بتلك الصورة البشعة، وكأنه يدفع حياته للهلاك، ضغطت على شفيتها بقوة وانسحبت مرغمة لتصعد على الدرج، لكنها توقفت عند المنتصف لتلقي نظرة متابعة للمشهد، رأت "تميم" يلف ذراعه حول كتفي "هيثم" ليرفع جسده عن الأرضية مما يسهل عليه اقتياده نحو الخارج، وظهر الأخير في حالة وهنٍ شديدة، ناهيك عن بقع الدماء التي لوثت ثيابه والأرضية، وللمرة الأولى تشعر نحوه بالأسف والإشفاق.

.....

لوعة أم ارتعاب أم كلاهما معًا هو كل ما شعرت به في تلك اللحظة حين أطل عليها زوجها وهو يجر أخيها جراً للداخل.. كانت رأسه مضمدة بالشاش الأبيض، ووجهه في حالة ذبول وإرهاق، انهالت عليهما بالأسئلة المتواترة وكأنهما في تحقيق رسمي، التزم "تميم" الصمت ونظر لها بعينين تقدحان حنقًا، اضطرت "خلود" أن تبتلع لسانها مؤقتًا وتبعت الاثنتين بقلبٍ واجف مرتعد إلى غرفة النوم الفرعية -والخاصة بالأطفال- ليتمدد "هيثم" على الفراش الفردي وقد كان شبه فاقد للوعي، لكن أينته الخافت لم يتوقف، سحب "تميم" الغطاء على جسده ملقيًا نظرة أخيرة مهتمة عليه قبل أن يدير رأسه في اتجاه زوجته ليأمرها بصوتٍ خفيض:

-كلمي أمك وقوليلها أخوكي هيبات عندنا الليلة من غير ما ترغي معاها كثير في أي تفاصيل!
سألته في تلهف، ونظراتها القلقة ترتكز على أخيها:

-حصله إيه؟ وإيه اللي في وشه ده؟ إنتو كنتوا بتتخانقوا؟
رد نافيًا بصوته الهامس:

-لأ.

نظرة شمولية جابت بها على جسد زوجها، لم يكن مصابًا، أو بوجهه كدمات، سألته لتتأكد:

-إنت كويس؟ حصلك حاجة؟

هز رأسه بالنفي، لكنها تابعت تساؤلاتها المتوجسة:

-أومال إيه اللي حصل؟ "هيثم" عمل مصيبة جديدة؟ فهمني يا "تميم"! ماتفضلش ساكت كده!
أمسك بها من ذراعها ودفعها برفق بعيدًا عن الفراش حتى لا توقظه بضجيج صوتها المرتفع، خرج
بها من الغرفة وأغلق الباب بهدوء لينظر لها بعدها بجدة وهو يعاتبها:
-سيبي أخوكي يرتاح الأول.

وضعت يدها على ذراعه وسألته في قلتي:

-مين عمل فيه كده؟

أجابها باقتضابٍ وهو يسير في الردهة متجهًا إلى غرفة نومه:
-محدث.

تبعته بخطى متعجلة ثلج عليه:

-ماتسبنيش كده على ناري، احكي لي بالضبط إيه اللي حصله!

لم يكن "تميم" في حالة مزاجية رائعة ليسرد لها بالتفصيل ما فعله خلال الساعة الماضية التي تضمنت
تهور أخيها في منزل "همسة"، واضطراره للتدخل وإسعافه على الفور، ثم نقله من المشفى إلى منزله
وابقائه تحت ناظره بناءً على تعليمات الطبيب المعالج له حتى لا يكرر تصرفه الطائش ويتسبب في
إلحاق الضرر الجسيم بنفسه، وحينها ربما لن يتمكن من إنقاذه.. خلع سترته الجلدية ناخًا في ضيق
من ملاحظتها له بالرغم من صمته المشحون، واستدار يقول لها بتعجب:

-بعدين يا "خلود"، روعي اعلمي اللي قولتلك عليه، والصبح هاحكيك كل حاجة

قالت بنظراتٍ معاندة وهي تمسك به من ياقة قميصه لتديره نحوها:

-لأ دلوقتي.

فاض به الكيل من إصرارها المزعج، لذا أزاح يدها عنه وزفر عاليًا بضيقٍ جم، ثم اتجه للفراش
ليجلس على طرفه نازعًا قميصه المتسخ عنه وهو يهدر بها بنفاذ صبر:

-يووه، أنا تعبان يا "خلود"، قدرني ده شوية

ردت على مضض وهي تنحني لتلتقط قميصه الذي ألقاه بعصبية أسفل قدميه:

-حاضر، بس لما أخلص معاها هتقولي على كل حاجة تخصه

-ربنا يسهل

قالها وهو يعاود النهوض ليتجه إلى الحمام ليغتسل، ظلت أنظارها ممسكة به إلى أن وجز للداخل وأغلق الباب خلفه، خرجت من الغرفة واستلت هاتفها المتصل بالشاحن لتخبر والدتها دون إسهابٍ أو توضيح عن مبيت "هيثم" في منزلها، وبالرغم من تدمير "بشينة" من جملها الغامضة إلا أنها التزمت بما أملاه عليها وأوجزت معها، تركت هاتفها في مكانه وعادت إلى زوجها لتجده مستلقيًا على الفراش وقد أغمض جفنيه، وذراعه معقودان خلف رأسه، نظرت له بجدّة والغيط يمتلكها لاستغراقه في النوم وهي تحترق فضولاً أمامه، تقدمت نحوه وسألته:

-إنت نمت؟

أجابها دون أن يفتح عينيه:

-بأحاول.

كزت على أسنانها مدممة في تبرم:

-ماشي يا "تميم"، اهرب مني دلوقتي، بس مش هاسيب الموضوع ده يعدي كده من غير ما أفهم إيه اللي حصل لـ "هيثم".

رد باقتضاب:

-ماشي.

انحنت لتجمع باقي ثيابه التي تركها بإهمالٍ على المقعد التابع للتسريحة، ألقت نظرة متأنية على بنطاله وقد اتسخ بآثار الدماء، رددت مع نفسها:

طبعا كل هدومك محتاجة تتغسل.

تفقدت محتويات جيوبه كتقليد متبع تقوم به الزوجات حين تشرعن في غسل ثياب أزواجهن،
أخرجت محفظته من جيب بنطاله الخلفي، وكذلك ميدالية مفاتيحه من الجيب الجانبي، ثم
تحسست الجانب الآخر لتشعر بتلك الكتلة المعدنية الصغيرة التي تستقر في قعره، دست يدها فيه
وأخرجتها منه لتنظر بعينين متسعيتين في اندهاش لمشبك الرأس الأنثوي المميز، انقباضة مصحوبة
برجفة عظيمة ومقلقة سرت في ضلوع قلبها، ناهيك عن الهواجس المرعبة التي نخرت في رأسها وقد
تلبك بدنها، استدارت كالمسوعة نحوه تسأله بصوتٍ مغاير لذلك المتدلل حين تُحادثه بنعومة وهي
ترفع المشبك للأعلى ليصبح نصب عينيه المغمضتين:

-بتاع مين ده يا "تميم"؟!

.....

الفصل الثامن والعشرون

كان على فراشه الوثير مستلقيًا وفي حالة شبه مسترخية محاولاً استدعاء النوم الذي بات عزيزًا عليه حين اخترقت رنة صوتها الحادة أذنيه لتسأله مباشرة وبعضية جلية عن ذاك المشبك الذي تناسى أمره كليًا في خضم ما مر به، فتح "تميم" عينيه ليحملك فيها مصدومًا لبرهة، وكأنه يتأكد مما يراه، اعتدل من رقدته ليتطلع إليها بصمتٍ، رمش بجفنيه وبريق ذلك المشبك ما زال ينعكس في حدقتيه، ودون بادرة كذب قرر أن يجاوبها بتعابير هادئة:

-بتاع الأبله .. "فيروزة"!

لم يدرك أنها المرة الأولى التي يتلفظ بها باسمها، وكأنه يختبر وقعه على مسامعه وبين شفثيه، كان حين نطق به بعفوية مُريكا، موترًا، وخافقًا لقلبه، ولكن لسوء حظه كان أمام زوجته التي انفجرت غضبًا وغيظًا، أغيرها تنادي شفثاه؟ تنشطت ذاكرتها بذكرى منديل الرأس والمشبك القديم حين اكتشفته مصادفة وظنت والدته أنها لها، عُقدت المقارنة في رأسها حين تكرر الأمر من جديد، وليست النهاية مرضية كما أخبرها من قبل بأنها متعلقة تخص لأخته لتنتهي القصة على خير، بل لأخرى غريبة عنه متلونة بشكلٍ أخافها، بالطبع تلك الشابة رأتها وأملت نظراتها منه في غيابها، وتبادل هو معها الحديث وإن كان مقتضبًا، ثم أعطته أشياءها ليحتفظ بها وتحترق هي بنيران غيرتها عندما تكتشف الأمر، كان لذلك التفكير المؤلم آثاره عليها؛ حيث غطى الوجوم والحرق كامل وجهها، غلت الدماء في عروقها واندفعت بجممها الملتهبة لتغزي كامل جسدها، تشعبت بشرتها بجمرة ساخنة وظهر ذلك جليًا عليها، احتدت نظراتها وصرخت تسأله وهي تدنو منه:

-بتقول مين؟!!!!

لم تتغير نبرته حين أوضح لها بنفس الثبات الانفعالي، وكأنها لم تتعرف إلى هويتها:

-البنت إياها أخت "همسة" خطيبة أخوكي.. أقصد يعني اللي كانت خطيبته

تحولت تلك الرقيقة الناعمة معه -والتي تُباري قريناتها في الاستحواذ على زوجها بأساليب الحب المشروعة والملتوية- إلى امرأة شرسة غاضبة تكاد تفتك به بنظراتها المظلمة، اندفعت نحوه لتمسك

به من ياقته، هزته في عصبية مفرطة وهي تعلق عليه بنفزة أشد، وكأنها تستجوبه بطريقة غير لطيفة على الإطلاق:

- ما أنا عارفة هي مين، إنت مش محتاج توصفها لي البت دي، والزفت بتاعها ده بيعمل إيه في جيبك؟! ما تنطق!

أزاح - رغم ضيقه البادي عليه من أسلوبها اللفظي في التعامل معه - قبضتها بعيدًا عن ياقته، كان إلى حد ما متفهمًا لانزعاجها بشأن ذلك المشبك، من البديهي أن تساورها الشكوك حول شيءٍ أنثوي يخص غيرها، لكنه لم يتوقع أبدًا أن تثور هكذا، نهض عن الفراش وهو يدفعها برفقٍ للجانب ليتمكن من المرور، لم يستدر نحوها وأجاب مسترسلًا ببرودٍ زائف:

- نسيت أدهولها لما وقع منها في الشارع.

دارت حوله لتغدو في مواجهة وجهه الجليدي، سددت له نظرات نارية قاتلة وهي تواصل الصراخ المنفعل:

- نعم .. نسيت؟!!!!

تنفس "تيم" بعمقٍ ليثبط تلك المشاعر المنزعجة التي بدأت تتصاعد بداخله، وقال على مهلٍ وبأنفاسٍ شبه ثقيلة موضحًا لها طبيعة الموقف منذ البداية حتى لا يبدو كمن يخدعها:

- بصي أخوكي كان بيتخايق معاها وهيرتكب جناية وأنا لحقته ساعة لما شوفتها و....

لم تتحمل "خلود" أي تبرير، فقدت عقلانيتها وتمكن منها غضبها الأعمى، فقدت بغيظٍ بالمشبك في وجهه ليخدشه عند جانب صدغه، وصرخت فيه لتقاطعته بتهديدٍ عدائي:

- أنا اللي هارتكب جناية لو مفهمتش حالاً إيه علاقتك بالبت دي!!

نظر لها بقوةٍ رافضًا ذلك الإتهام الباطل، وحذرها بلهجةٍ شديدة غير متسامحة بعد أن تغيرت معالم وجهه للحق:

- خدي بالك من كلامك ده، مافيش بيني وبينها أي علاقة!

رمقته بنظرة جارحة من عينيها الغاضبتين، وقالت في استهجانٍ متعاضم:

هو أنا هبلة عشان أصدقك؟ إنت كداب يا "تميم"...

اتسعت حدقاته مذهولاً من إهانتها القاسية، بينما تابعت بنفس الأسلوب الهجومي المحتد:

-تلاقيك جايبه ليها وعامل الفيلم ده عليا عشان أصدقك!

زجرها بخشونة وقد شخصت أنظاره:

- "خلود"!

دفعته بعصبية من صدره مواصلة إلقاء التهم عليه:

طبعا العانس دي مصدقت لاقت أختها اتخطبت وهي زي البيت الوقف، حبت ترمي شباكها عليك جايز الصنارة تغمز، وملاقتش إلا جوزي تجرب معاه، وانت ادبتها وش فسقت فيها.

نظر لها في استياء ثم أولاهها ظهره وتحرك في اتجاه النافذة ليفتحها حتى يستنشق الهواء قبل أن يخنق بحنقه المندلع بداخله، فلم يكن أيًا مما تلفظت به حقيقي بالمرّة، بل على العكس كان مزيجًا من الإهانة والتجريح، ردد في عتابٍ عليها تتوقف عن استفزازة:

-والله ما عارف أقولك إيه.. أكيد ما فيش واحدة طبيعية هاتفكر بالشكل ده!

كانت في ذروة عصبيتها الهوجاء، اليوم اختبرت مشاعر الغيرة لديها أقصى درجات احتمالها، وفشلت في السيطرة عليها، انحنت "خلود" لتلتقط المشبك من على الأرضية، وكالمجنونة لحقت به لتمسك يده، وضعتة عنوة في راحته وأضافت:

-خدنيه يا حبيبي، خليها تشبع بيه.

تحولت نظرات العتاب لديه للوم واستنكار، ثم قال لها محذرًا بنبرة أشد بأسًا:

هي ضربت معاكي جنان على آخر الليل، ولو فضلتني على كده أنا هاسيب البيت وأمشي!

أمسكت به من ياقتيه تهزه بجنونٍ وهي تهدر بصوتها المرتفع الغاضب:

عشان تروح لها؟! وأنا مش هاسيب واحدة زي دي تخطفك مني، ده على جثتي!

أشفق عليها وقال:

إنتي مش في وعيك، مافيش حاجة من أساسه!

واصلت هزه بعصبيّة وهي ترد بعقلٍ مغيب، وكأنها تُعايش بكامل جوارحها ما رسمه خيالها من
أوهام مخادعة لتعزز من تلك الأكذوبة:

-وأنا مش هاستنى أما يحصل بينكم حاجة، هاروح لها البيت وأوقفها عند حدها الصايعة خراب
البيوت!

وضع "تميم" كلتا يديه على قبضتها المتشنجتين، أبعدهما عن ياقته وحذرها بنبرته الخشنة، ودون
أن يرف له جفن:

فوقى يا "خلود"، مش هاتبقي إنتي وأخوكي هتشبكوا معاهم

اشتعلت الحمرة الحارقة في عينيها، وصرخت به تسأل:

إنت بتحبني صح؟ رد عليا!

لم يجد من الكلمات ما يجيب به عليها ليعبر لها عن مشاعره الحالية نحوها بعد إساءتها غير المقبولة،
تركها واتجه إلى الدولاب ليفتح الضلفة ويخرج منها سترة ثقيلة يرتديها على زيه الرياضي، في حين
أكلت صياحها بنبرة بدت غريبة وكأنها تتسول عواطفه:

إنت اتجوزتني عشان بتحبني أنا لوحدي، ومافيش واحدة غيري تملى عينك، أنا وبس اللي في
حياتك، صح؟ قولى كده، إنت بتحبني؟

تهد قائلاً في يأس من حالها البائس:

تصبحي على خير يا "خلود".

اعترضت طريقه ووضعت يديها على صدره تدفعه في عنفٍ للخلف، ركزت نظراته عليه متسائلة
بجنق:

إنت رايح فين؟ عندها صح؟

فاض به الكيل من اتهاماتها، وصاح رافضاً ما تقوله:

-إنتي مجنونة؟ سامعة نفسك؟

لكرتة في كتفه وهي تتابع صراخها المهتاج:

-رد عليا، إنت رايحها السعادي، إنت سايبني ورايح عندها!!؟

قال بجمودٍ وهو يزيحها عن طريقه حتى لا يفرغ بها شحنة غضبه التي يعجز عن مقاومتها حاليًا بعد أن بلغت أقصاها:

-ريجي نفسك، أنا هبات في الشارع!

عاجلته في خطواته السريعة لتلحق به متابعة صياحها الأمر:

-ماتمشيش يا "تميم"، استنى هنا.

توقف عن التحرك ليستدير نحوها، ثم رفع سبابته أمام وجهها قائلاً بتحذير:

-أما تحطي منحك في راسك وتوزني الأمور بالعقل نبقي تتكلم، لكن مش هاخذ وأدي معاكي في حالتك دي!

اندفعت نحوه لتلتصق به، طوقت عنقه بذراعها وتعلقت به، ثم هتفت تتوسله:

-ماتسبنيش يا "تميم"، خليك هنا، أنا بأحبك، متروحش عندها وتبعد عني!

أحكم قبضتيه على رسيها وأبعدهما عنه ليقول كمن يبدو عليه النفور:

-سلام.

وبضيق غير قابل للوصف خرج "تميم" من المنزل صافقًا الباب خلفه، وذلك الإحساس المؤلم القابض للصدر يكاد يفتك بقلبه، لا يعلم إن كانت مشاعره تتضمن إشفاقًا على حال زوجته، أم تحمل أيضًا في طياتها تعاطفًا مع تلك التي نالت دون ذنب نصيبها من الكراهية العمياء.

ارتمت "خلود" على الباب الخشبي تضربه بقبضتها في حرقه، بكت كما لم تبك من قبل قهرًا على رحيله المفاجئ، شعرت وكأن هناك حاجزًا قد ظهر من العدم فجأة ليفصل بينها وبين زوجها، لامت نفسها بألمٍ وحسرة:

-أنا هببت إليه بس؟! -

لطمت على خديها في لوعة لعدة مرات حتى التهبت بشرتها من فرط عصبيتها، شل تفكيرها فلم تعد ترى أي منطقية فيما تفعله، بل وحجبت غيرتها أي بادرة للتفكير المترن، ببساطة أحالت حياتها إلى الجحيم، ودون وعي منها لجأت إلى مساعدة والدتها، أمسكت بهاتفها المحمول، وضغطت بعينين تكاد لا ترى بها شيئاً من سحب الدموع الكثيفة التي ملأتهما على زر الاتصال بها، هتفت بصوتٍ مبجوح لاهت لكنه هادر، وكأنه يأتي بصراخه الناري من قعر جهنم:

-ألو! أبوه يامه، الحقيني .. أنا في مصيبة!

.....

أربكها تلاحق الأحداث في الساعات الماضية وشوش تفكيرها عنه، تصارعت أفكارها وتخبطت، كان يُقاتل من أجل كلمة واحدة يعبر فيها لها عن ندمه، ومع ذلك رفضت الإصغاء إليه، وجلست تنتظر عودة توأمتها لتخبرها بمجيء "هيثم" غير المتوقع، لكنها تفاجأت بها تُعلمها ببقائه بالأسفل ليستعطفها أولاً قبل أن يخرج عن شعوره ويؤدي نفسه بشكلٍ بشع، استغرقت "هسة" في أفكارها محاولة الوصول لقرار محايد يريح ضميرها بشأنه، وكان الاقتراح المناسب الذي انتهى إليه عقلها هو لقاء خارجي معه في مكان عام بحضور طرفي العائلة كفرصة أخيرة للاستماع إليه .. سألتها "فيروزة" بجدية بعد أن أطلعتها على رغبتها:

-إنتي متأكدة؟

جاوبتها موضحة أسبابها بهدوء:

-أبوه، مش عاوزة أظلمه، جايز ندم فعلاً، وأنا هاتكلم معاه وبس، هاشوف عاوز مني إليه، وإيه اللي ممكن عمله عشان يثبتلي إنه اتغير.

أكدت عليها شقيقتها:

- "هسة" عاوزاكي تفهمي إنه مها عمل فده مش مبرر يخليكي ترجعيه تاني.

ردت عن اقتناع، وتلك البسمة الباهتة تُزين ثغرها:

-أنا عارفة ده كويس، أنا حابة ضميري يكون مرتاح من ناحيته.
وبالرغم من امتعاض "فيروزة" من قرارها إلا أنها علقت عليها مظهرة دعمها لها:
-تمام، هاكلّم الحاج قريه بجيث يكون معانا، لأن خالك الصراحة ما يضمنش.
مسحة من الرقة احتلت تعبيراتها وشفقتها وهي تقول مُرحبة:
-المناسب اعمله.

تهدت "آمنة" في حيرة وهي تتابع النقاش العقلاني بين ابنتيها، انسالت على صفحة وجهها مشاهد
توسلات "هيثم" المقطعة لنياط القلوب، وإلى حد ما تعاطفت معه بسبب طبيعتها المتأصلة فيها،
ولهذا لم تعترض على رغبة ابنتها .. أجالت بنظراتها للسماء وتمتمت في تضرع:
-ربنا يهدلكم العاصي يا بناتي ويحفظكم ليا.

.....

نظرة شاردة مليئة بالهموم والحزن دارت على تفاصيل المشبك الصغير وهو يتلاعب به بأصابعه
في حركة متأنية حتى لا يسقطه قبل أن يضمه إلى راحته، ثم إذ به يفتح الدرج العلوي للكومود
ويضعه في داخله إلى جوار منديل الرأس والمشبك الآخر اللذين وجدتهما من قبل، ألقى نظرة
أخيرة على ثلاثتهم قبل أن يعاود غلقه، استدار "تميم" برأسه للجانب حين سمع والدته تقول
بابتسامتها المشرقة وهي تقلب بالمعلقة الكوب الذي تحمله في يدها:
-اشرب العناب ده يروق دمك.

تناوله منها قائلاً بامتنان:

-شكراً يامه.

جلس على طرف الفراش يرتشفه جرعة وراء الأخرى، وكأنه كان بحاجة ماسة إليه، أمعنت
"ونيسة" النظر إليه، بدت ملامحه تعيسة بشكلٍ مقلق، لذا سألته بفضولها المهتم عله يفصح عما
يجول في صدره:

-مقولتيش بردك إيه اللي حصل وخلاك تسيب فرشتك وحضن مراتك السعادي؟

ابتسم لها ليخفي ضيقه، وقال نافيًا:

-ولا حاجة، إتي جيتي على بالي فقولت أعدي أطمئن عليكي

كان فاشلاً في الكذب عليها، وظهر ذلك في طريقة هروبه من نظراتها الفاحصة له، وكأنه يخشى أن تكتشف ذلك، ومع هذا ألحت عليها بغريزتها التي تؤكد لها وجود ما يؤلمه:

-شكلك مخبي عليا حاجة، قولي يا ابني عشان ترتاح.

وضع الكوب على فمه ليتجرع ما فيه، كانت وسيلته المؤقتة للسكوت، ثم رد عليها متسائلاً باهتمام مفتعل، قاصداً بذلك التغطية على ما لا يريد الإفصاح عنه بمحدث آخر:

-صحيح أخبار "هاجر" إيه؟ قربت تولد ولا لسه؟

تفقه ذهنها إلى ما يفعله، وردت تصارحه:

-بتحور عليا عشان ما تكلمش!! ماشي يا "تميم" هاعديالك، أختك بخير، ولسه هانشوف الزيارة الجاية الضاكتورة هتقولنا إيه.

تهد معتباً عليه وهو يسند الكوب الذي فرغ من شرب محتوياته على الكومود:

-ربنا يقومها بالسلامة، ويكرهما..

ثم نهض من جلسته متابعا:

-يدوب ألحق أرجع البيت.

هبت واقفة من مكانها وتطلعت إليه في استغرابٍ قبل أن تسأله بصوتها المدهوش:

-إنت لحتت تيجي في إيه وتمشي في إيه؟!!!

لم يخلو وجهه من ابتسامته الفاترة حين أجابها:

-ما أنا قولتلك أنا جاي أشوفك يا ست الكل..

غلف نبرته قليل من الألم المعاتب جاهد لإخفائه وهو يواصل القول:
-وبعدين ما ينفعش أتأخر على "خلود"، ما بترضاش تتعشى من غيري.
تأملته بعينين تتحركان في قلبي، ونطقت عما يراودها من أحاسيس:
-والله قلبي يقولني في حاجة حصلت، وانت مداري عليا.
انحنى "تميم" ليقبل رأس والدته، ثم ربت على كتفها برفقٍ موصيًا إياها:
-خدي بالك من صحتك، سلام يامه

تبعته في حيرة إلى أن أوصلته للخارج وقلبا قلق على أحواله، ودعته بأدعيتها التي لا يتوقف لسانها
اللاهج عن الدعاء له بها، ثم عادت إلى غرفتها ووضعت يدها على أسفل فكها تُحدث نفسها بنبرة
عازمة:

-بكرة أكلم البت "خلود" أفهم منها في إيه!

.....

جأب مطولاً بسيارته الشوارع الخالية والمزدحمة آملاً أن تخف وطأة ذلك الحزن الغامض الذي
ملاً قلبه، في النهاية لم يكن هناك مقرّ من العودة إليها .. وإن كانت غاضبة منه فلها أسبابه التي
وجب عليه أن يتفهمها، هي تعشقه بجنونٍ وإخلاص، لم ينتقص شغفها أبداً بالرغم من جفاء
مشاعره، انتظرت له لسنوات كما لم تفعل غيرها ممن يتخلين في أول فرصة تتاح لهن عن أزواجهن إن
وضعوا بالحسب، تفعل كل ما في وسعها لإسعاده، تتلهف لتزيح آلامه، لما لا يعفوا لها إساءتها وهي
ضحية حبيها المقيم به؟ أعاد ما اتهمته به في عقله مراراً وتكراراً ليدرك أنه الوحيد المخطئ في الأمر،
حين منح جزءاً من تفكيره لغيرها وانتهى عنها، وكأنه بذلك يخونها ضمناً، زوجته بكل ما تبذله من
جهد لنيل محبة متبادلة بينهما تروي بها عطشها إليه لا تستحق تجاهله.. لن يكون من الإنصاف أو
العدل ازدراء عواطفها الوالهة!

قرر "تميم" أن يتغاضى عما بدر منها الليلة من تجاوزات وإساءات تقديراً لمشاعرها المخلصة له،
سيحتوي غضبها ويعوضها عن ألم قلبها وإن كان ذلك على حساب نفسه، أو شكت تلك الرسائل

المزجة والاتصالات المتكررة من والدتها أن تفسد ما خطط له، أرغم نفسه ألا يلتفت إليها حتى لا يزداد شعوره بالكدر، دس المفتاح في قفله وفتح الباب ليجد "خلود" متكورة على نفسها على أقرب أريكة للمدخل، تضم ركبتيها إلى صدرها وتحاوطها بذراعيها، نظر لها مليًا قبل أن يبادر قائلاً:
بتنبيذة بطيئة:

-سلامو عليكم.

لم تصدق أذنيها حين سمعت صوته يجلجل بالمنزل، رفعت عينيها المتورمتين إليه تنظر له بصدمة، وكأنها استبعدت أمر عودته، قالت بنبرة أقرب للبكاء، وبقلب خافق وصدر متهدج:

-حبيبي إنت رجعت، حقك عليا.

احتضنته وشدت من ضمها له لتلتصق أكثر به، ثم استكانت في أحضانه ومرغت رأسها في صدره لتتابع بندم:

-أنا غلطانة، متزعلش مني.

جرفها طوفان الغيرة الحارق إلى مناطق مظلمة أجبرتها على استباحة أي شيء من أجل الإبقاء عليه، حاولت أن تستميل قلبه نحوها، واعتذرت:

-أنا أسفة يا حبيبي، بس صدقني ده كان غضب عني، لما شوفت الدبوس ده في جيبيك مخي طار وما بقتش في وعيي.

رد بهدوء متفهم:

-أنا مقدر ده.

شبت على قدميها لتلتقم شفثيه ومنحته قبلة طويلة حبست فيها أنفاسها قبل أن تبتعد عنه وتهمس:
لاهثة:

-أنا بأحبك أوي.

رسم بسمة صغيرة على وجهه، وقال بصوته الهادئ وهو يمسك بيدها:

-تعالى معايا يا "خلود"، هاتكلم فى أوضتنا، مش عاوزين نعمل دوشة، ماتنسيش أخوكي نائم هنا ردت وهي تهز رأسها بخنوع:

-حاضر يا حبيبي، كل اللي إنت عاوزه هاعمله.

خللت أناملها بين أصابعه لتشبك يديها معًا، وأحنت رأسها على جانب ذراعه لتنام على كتفه، وتعلقت بيدها الأخرى فى ذراعه ليظن من يتطلع إليها أنها عاشقين ..

ولج الاثنان إلى الغرفة، وشرارات الحب تنطلق من عيني "خلود"، لم تترك زوجها وهو يغلِق الباب، ظلت متشبثة به تأبى الابتعاد عنه، وكأنها ترتعد من فكرة رحيله، بصعوبة جعلها تتخلى عن الالتصاق به لتمكن من الجلوس بجواره على حافة الفراش .. أمسك بكلتا راحتيها بيديه، وداعب جلدهما بإبهاميه، ثم نظر لها مليًا وبصمتٍ للحظات قبل أن يقطع حاجز السكون متسائلًا:

-فأكرة أول كلام قولتهولك إيه؟

هزت رأسها تجيبه بتنهيذة لاهثة:

-أيوه.

سألها بغموض ليبدو كمن يمتحن ذاكرتها:

-كان إيه؟

تخبطت لوهلة فى أفكارها وقد عقدت حاجبها معًا، ابتلعت ريقها وأجابته بتلعثم محاولة خلق جملة مفيدة:

-إننا .. نكون الأمان لبعض وإنك وعدتني هتراعي ربنا فيا وتعاملني كويس و...

حرك رأسه متقبلًا إجابتها وهو يعقب عليها:

-ده مضبوط...

لكن نبرته كانت متشنجة نسيبًا رغم هدوئها عندما تابع:

-بس مكانش أول حاجة طلبتها منك!

أصابها التجهّم المصحوب بالتوترِ وشعرت بتقلصات مزعجة تعتصر- معدتها، لعقت شفيتها وسألته في عصبية وهي تحاول سحب كفيها:

-إنت بتختبر حي ليك يا "تميم" ولا إيه؟

ظلت قابضًا عليهما وهو يرد بالنفي:

-لأ يا "خلود"، ما فيش امتحان ولا غيره!

نظرت له في حيرة، فأكل بما يشبه العتاب، وذلك الألم يحاول التسلل إلى عينيه:

-بس أنا طلبت منك لو في بينا مشاكل أو حتى خلاف صغير محدش يعرفه، مضبوط؟

ارتبكت وعلقت عليه:

-أيوه..

ترك يديها، وأخرج من جيبه هاتفه المحمول، ثم رفعه أمام وجهها لتنظر إلى شاشته التي امتلأت بعشرات المكالمات الفائتة من والدتها، لم تكن بحاجة لتفسير ما يلمح إليه، وهتفت مبررة كذبًا وقد انتفضت واقفة:

-دي أمي اتصلت بالصدفة تسأل على "هيثم" وعرفت من صوتي إني كنت بأعيط وفضلت ورايا لحد ما قولتلها.

وضع يده على ذراعها وجذبها منه برفق لتجلس إلى جواره مجددًا وهو يرد باقتضاب:

-تمام..

جمدت نظراتها عليه، وسألته بصوتٍ قاتلت ليبدو مختلفًا بآيا:

-إنت زعلان من اللي عملته صح؟ صدقني ده كان غصب عني؟ دي أول مرة أصلاً أقولها حاجة، وبعدين أنا كنت هاتجنن لما لاقيت الدبوس ده ومعرفتش أتصرف إزاي!

رد بتنهيذة بطيئة دون أن يظهر ضيقه من كذبها الواضح كالشمس في كبد السماء:

-ماشي يا "خلود"، حصل خير، وعرفي أمك إن المشكلة اتحلت.

ضاقت نظراتها متسائلة بتوجيس:

-يعني عاوز تفهمني إنك مش مضايقتك مني؟!

أجابها ببساطة:

-هايفرق في إيه؟ ما إنتي خلاص حكيتها...

شعرت بالندم لتسرّعها في اللجوء لوالدتها، لكن ماذا كانت تفعل وغيرها تأكلها؟ أخرج "تميم" زفيرًا بطيئًا من صدره، وطلب منها بما يحمل الرجاء:

-بس مش عاوز الموضوع يكبر، خليه بينا..

تلك الغصة المؤلمة التي تكونت في حلقها ضاعفت من إحساسها بالذنب وهي التي أساءت له في غيابه وتحاملت عليه مع والدتها لتظهر بمظهر الضحية، وتضعه في قالب الزوج اللعوب، لم تتحمل ذلك الشعور المهلك، فبادرت تهاجمه لتقتل ما يراودها من أحاسيس معاتبة:

-يا "تميم" إنت مش مقدر حيي ليك، أنا استنيتك كثير أوي، مش يوم ولا اتنين، دول 7 سنين .. حلمت بحياتي اللي جاية كلها معاك، ده.. أنا مافيش راجل دخل في حياتي بعد أخويا إلا إنت، محبتش غيرك، قدر مشاعري ناحيتك!

تلمس جانب عنقها بكفه وداعب جلده بإصبعه ليخفف من غضبها، ورد مبتسمًا:

-أنا مقدر ده كله، وعارف إنك ضحيتي عشاني، ويعلم ربنا إني بأحاول أرضيكي.

اقشعر بدنها من لمساته الحنون، وهمست بصوتٍ مضطرب نجل كانت واثقة أنه سيؤثر به:

-أنا مش عاوزة رضا منك، أنا عاوزاك تحبني زي وأكثر، عاوزاك تبقى ليا لوحدي ويس..

أغمض عينيه للحظة مقاومًا ما يتخلل وجدانه من ضيق وتخبط، ثم فتحها ليرد راجيًا:

لو تديني وقتي عشان افهمك ه.....

قاطعته وهي ترتقي في أحضانه:

-أنا بأحبك ومش شايفة حد ثاني غيرك، هاموت لو بعدت عني.

لم يكن لدى "تميم" أي اختيار أمام اعترافات قلبها المخضب بوجهه إلا ضمها إليه، أراد منها فقط أن تستوعب تفكيره، أن تعطيه الفرصة لمبادلتها نفس المشاعر الصادقة دون مبالغة أو خداع، أن يمنحها ما يمليه عليه قلبه ووجدانه دون استجداءٍ منها قبل عقله وإرادته، كان يشعر بالضيق الشديد حين يدعي عكس ما يشعر به نحوها، ما زال يقف عند منطقة المشاعر المهمة ناحيتها، ومع ذلك قرر أن يفعل المستحيل للشعور بها، تنفس بعمق مرة أخرى قبل أن يستطرد بمزاحًا بلطافة:

-كفاية كده جرعة نكد، أنا خدت كفايتي النهاردة، ممكن تكمل بكرة؟

رفعت رأسها لتتطلع إليه بعينين ناعستين وهي تلح عليه:

-اوعدني إنك مش هاتسيبني أبدًا.

أسبل عينيه مداعبًا إياها بكلماته الطريفة:

-وأنا هاروح منك فين إلا لو ربنا خدني!

رددت مستعيذة بقلب منقبض:

-بعد الشر عنك يا حبيبي، إن شاء الله اللي يكرهوك.

سألها بوجه لا يعلم إن كانت لاحظت تعاسته الخفية أم لا:

طيب ممكن نتعشى ولا هنام خفيف؟

عضت على شفتيها السفلى، واشرابت بعنقها نحو أذنه لتهمس له بتنهيذة أرادت أن تصل فيها حرارة أنفاسها إلى جلده:

عشا بس.. حاجة تانية لأ، يومين كده ونستأنف!

هز رأسه مبتسمًا وقد فطن لتلميحتها المتواري، منحها قبلة صغيرة على شفتيها، وتابعها وهي تبتعد بنظراتٍ مهتمة إلى أن خرجت من الغرفة، أراح ظهره على الفراش وأسند يده خلف رأسه ليقول لنفسه بتناؤب وذلك الإنهاك يسري في عضلاته:

-يكون أحسن برضوه، أنا حيلي محدود !!

.....

الفصل التاسع والعشرون

فُرض عليها دون تكليف أن تكون الراعي -الذكوري- لأسرتها في غياب الأب المنوط بتلك
المسئوليات الشاقة، تولت خلفًا للراحل هذا الثقل القاسم للأظهر دون شكوى أو كلل، كانت

كدرع الحماية لأمها وتوأماتها، فكلتاها تتشاركان في سمة ترفض أن تتصف هي بها؛ الخوف من المواجهة، تنفست "فيروزة" بعمقٍ وأعدت ترتيب أفكارها في رأسها لعشرات المرات حتى لا تنسى- ما اتفقت عليه مع أختها قبل بضعة أيام، أرادت أن تكون الأمور واضحة منذ البداية حتى لا يُساء فهمها، أو يظن الطرف الآخر أنها تنازلت عن حقها وفرطت في كرامتها، جابت بنظراتٍ متفحصة الواقفين عند الدكان، لم تجد بينهم الحاج "بدير"، وقفت حائرة تفكر فيما ستفعله، رغبت في الحديث معه هو فقط أولاً ليكون شاهداً على ما سيحدث لاحقاً، تشجعت وقررت السؤال عنه، وبخطى ثابتة تقدمت نحو مدخل الدكان متسائلة بصوتٍ تعمدت أن يكون قوياً:
-سلامو عليكم.

تصلب جسده، وإن كان لا ينظر نحوها، بمجرد أن رنت نبرتها المميزة في أذنيه، لا يعرف ما الذي ينتاب كيانه حين تطل عليه بغتة، وكأن تياراً كهربياً قوي الشحنة يسري في أوصاله، تشبث "تميم" بكلتا يديه بالقص الذي يحمله رافضاً الاستدارة ناحيتها، بينما دنت هي منه لتناديه:

-يا معلم.. "تميم" .. صح؟

لعبت على أعصابه بتلفظ اسمه لا إرادياً، شعر بتلك الرعشة تجتاحه، أليس من الغريب أن يكون لوقع صوتها فقط كل هذا التأثير المهلك عليه؟ وبمجهودٍ ذهنيٍ خارق التفت برأسه نحوها مقاوماً رغبة عينيه في تأمل وجهها، بلع ريقه وتساءل بصوتٍ مال للخشونة:

-خير.. في حاجة؟

سألته بوجهٍ شبه عابس، ونظرات ضيقة:

-الحاج "بدير" فين؟

أجابها وهو ينظر في أي شيء إلا عينها:

-في مشوار وجاي.

ضغطت على شفيتها وكأنها تبتسم بصعوبة لتضيف بعدها:

حطب أنا هستناه.

أحس بخففة موترة تداعب قلبه وتغازل مشاعره غير المفهومة نحوها، حبس أنفاسه وقد خائته عيناه وتركزتا مع ملاحظها الحادة، تنفس الصعداء حين استدارت وبحثت عن مقعد شاغر لتجلس عليه حتى لا ترى تلك الريكة الظاهرة على محياه، اتجه إلى الخلف وهو لا يزال حاملاً القفص بيديه، ثم نادى على أحد عماله ليأمره بصوت خفيض لكنه صارم:

-هات حاجة ساقعة للأبلة، دي مستنية الحاج "بدير"، وخليك قريب منها عشان لو عازت حاجة.

رد وهو يومئ برأسه:

-حاضر يا معلم.

نظرة أخيرة من الخلف ألقاها "تميم" عليها، عاد هاجسه المعاتب ليؤنب ضميره من جديد، كيف يولي الاهتمام لغير زوجته؟ لم يطقه مطلقاً، ولهذا ترك عمله هارباً من الدكان حتى لا يظل محاصراً في ذلك التخبط المربك والذي على ما يبدو بات غير محتملٍ بالنسبة له.

.....

معاملة جيدة تلقتها "فيروزة" من قبل الحاج "بدير" الذي لم يدخر وسعه لإرضائها بغض النظر عن سبب زيارتها له بمجرد أن عاد إلى الدكان ووجدها به، أصر على تناولها للحلوى الطازجة المحبوزة في الفرن القريب مع كوبٍ من الشاي الساخن قبل أن يتطرقا إلى أي موضوع، شكرته على حسن ضيافته، واسترسلت قائلةً بجدية:

-شوف يا حاج "بدير"، أنا جيتلك بعيد عن خالي عشان نتكلم بصراحة.

حرك براحته عكازه دون أن يزيحه من مكانه، ثم رد مبتسماً وقد استقام في جلسته على كرسيه الخشبي:

-وأنا جاهز أسمعك يا بنتي.

تشجعت وقالت بتمهلٍ حتى لا تنسى ما تدربت عليه جيداً:

- دلوقتي أختي معندهاش مانع تسمع لقريبك، هي مش هترجعله، بس هتديله فرصة تشوف إن كان اتغير فعلاً ولا لا، وبعدها هتقرر إن كانت تكمل أوتسييه.

هز رأسه في استحسانٍ معقبا عليها:

- عين العقل.

تابعت بنفس اللهجة المتشجعة:

- كل المطلوب منك يا حاج إنك تكون أمين معانا وتراقبه، اعتبر "همسة" زي بنتك و...

قاطعها "بدير" مشيراً بيده:

- من غير ما توصيني، لو الكلب ده ماتظبطش أنا مش هاقولك هاعمل فيه إيه، كفاية كسفة المرة اللي فاتت

ابتسمت تقول له في امتنان:

- ده العشم برضوه.

واصل القول مؤكداً:

- متقلقيش من حاجة، طالما أنا محشور في الموضوع فاطمني.

شعرت بالارتياح يغمرها من دعمه وتحفرت للمضي - قدماً في حديثها، لم تفتربا بتسامتها الرقيقة وهي تستطرد بتهذيب:

- وهستأذنك تبلغه إننا هنتقابل بكرة في مطعم "....." هو عارفه!

رد ببساطة:

- حاضر، وأنا هاكون معاه عشان يعرف إن ليكم سند من طرفنا بردك ويعملي مليون حساب

زاد إحساسها بالطمأنينة، وشكرته بتهنئة حملت في خباياها آلاماً عميقاً:

- شكراً على ذوقك يا حاج، يا ريت كان في حياتنا ناس زيك، كان هيفرق كثير معانا.

وكانه استشعر ما يختلج صدرها من أحزان فتقوست شفتاه ببسمة ودودة وهو يخبرها بصدق:
دي إتني بنتي، سواء بنسب أو من غيره.

أكتفت بتبادل الابتسام معه، ونهضت من على مقعدها مستأذنة، لم يُصر - عليها وودعها بنفس الأسلوب المرحب المليء بالألفة .. لمحتها "خلود" وهي تنحرف عند الناصية فاتسعت حدقتها في ارتعاب، تسمرت في مكانها للحظات لتتأكد أنها هي، شعرت بالحرقه تضرب أحشائها، كزت على أسنانها بقوة وهي تحاول السيطرة على التشوش الذي أصابها، كانت قد قررت الذهاب إلى الدكان لتفاجئ زوجها بعد خبزت له فطائر شهية لم تنس أن تدس له فيها مسحة ضئيلة من مسحوق الدواء لتشعل به الرغبة، لكن صدمتها لرؤيتها أفسدت نهارها وأصابتها بالكدر، اضطرت الغيرة الحاقدة في قلبها فأعمت بصيرتها، واندفعت بغضبٍ محمود تصاعد في رأسها إلى مدخله، ثم تساءلت بأنفاس شبه لاهثة تعبر عن انفعالٍ واضح وهي تشير بيدها نحو الناصية التي اختفت عندها "فيروزة":

-البت أخت "همسة" كانت بتعمل إيه هنا يا عمي؟ هي متعودة تيجي على طول ولا إيه؟
ثم اشرابت بعنقها للأعلى لتجول كالمذعورة بين أوجه المتواجدين داخل الدكان وهي تتابع في عجالة:
و"تميم" فين؟ كان معاها ولا آ...؟!!

قاطعها "بدير" بانزعاج مستخدمًا يده المسكة بالعكاز في التلويح لها:
-بلعي ريقك يا "خلود"، مالك داخلة على الحامي كده ليه؟!
تنفست بعمق لتحجم من أعصابها التي اهتزت وثارَت وتوشك على فقدان السيطرة عليها، ضغطت على شفتيها قائلة له بصوتٍ بدا مضطربًا:

-مقصدش، بس غريبة إنها تيجي هنا؟ وبعدين فين "تميم"؟ أنا مش شيفاه!!!
أجابها بزفيرٍ مطول:

عنده شغل بيخلصه من بدري برا الدكان.
وضعت "خلود" يدها على صدرها الناهج لتتحسس نبضات قلبها المتلاحقة قبل أن تنطق بتضرع:

الحمد لله.

حاولت أن تستعيد هدوئها، لكن ظل وسواسها الهوسي ينخر في عقلها ويزرع الشكوك في قلبها نحو "فيروزة"، لذا رسمت تلك الابتسامة الزائفة على وجهها وهي تتساءل بنجيب ونظراتها يغلفها ذلك الوميض الغامض عليها تستدرجه فيخبرها بما يؤكد أو ينفي ما يدور بداخلها:

على كده يا عمي البت دي كانت جاية في إيه؟

ودون وعي منها أجابت مباشرة وعيناها تحتدان بشكلٍ مريب:

لـ "تميم"؟ مضبوط؟

رد "بدير" في استنكارٍ، وتلك النظرة المستهجنة تكسو وجهه:

-وهي مالها وماله؟! دي كانت جياي أنا عشان موضوع أختها وأخوي المفضوح.

عادت لتتنفس بأريحية بعد أن بددت هواجسها المزعومة، وقالت بتبرم:

-مكانتش غلطة يا عمي، هو اتعلم خلاص الدرس من اللي حصل، مافيش داعي نكبره!

نظر لها بضيق، وكأن ما فعله "هيثم" من تجاوزات لا أخلاقية يرضيها، لم يتوقع ردة الفعل الباردة منها، وأضاف على مضضٍ وبتعابيرٍ بدت منزعة:

طيب.. قوليله يعمل حسابه يـ... آ..

بتر عبارته عن قصدٍ لينهي الحوار معها مرددًا:

-ولا أقولك أنا اللي هاكلمه بنفسي، مالهش لازمة نحشر الحريم!

نظرت له باستغرابٍ مستشعرةً تبدل معاملته قليلاً، أدركت أنها أخطأت في التصرف بتبليدٍ أمامه، وحاولت تلطيف الأجواء معه، وقالت برقة:

-ماشي يا عمي، الصح اعمله، ده إنت كبيرنا.

لم يكثر بتملقها الزائف، وتركها ليلج إلى الدكان، وقبل أن يلتمهي بالأعمال سألها بعينين تنفذان إليها:

لإنتي كنتي جاية ليه؟

ارتبكت وأجابته وهي تشير للعبة البلاستيكية التي تحملها في يدها:

-كنت.. جاية لـ "تميم" فطير أنا عملاه بإيدي و...

عاد إليها ليأخذ اللعبة منها قائلاً بابتسامة متحمسة:

-رزق الرجالة اللي شقيانين من الصبح

انقبض قلبها بتوتر رهيب، وحاولت منعه مرددة باعتراض:

-استنى يا عمي، ده أنا عملاه مخصوص لـ "تميم" وآ....

هتف مقاطعاً بإصرار:

-مالوش نصيب المرادي، ابقى اعلمي غيره، اتوكلي على الله ولما جوزك يرجع هبلغك

فغرت ثغرها في ذهولٍ وذاك القلق الكبير يعترها، حتماً ستحدث كارثة غير أخلاقية بين صفوف الرجال إن تناولوه، تابعتة "خلود" بنظراتٍ مترقبة آملة ألا ينادي عليهم، لحسن حظها رن هاتفه المحمول فترك اللعبة على مكتبه، استغلت فرصة انشغاله بالمكالمة وابتعاده عن المكتب الخشبي لتدلف للمكان خلسةً وعن عمدٍ أسقطت اللعبة بعد أن نزعت غطاءها ليتبعثر ما فيها ويتمخض بالتراب والأوساخ، انسحبت متسللة كما جاءت وهي تبتسم لنفسها في انتشاءٍ بعد أن أُنقذت الجميع من تأثير ذلك الدواء المنشط، كتمت ضحكاتها الهستيرية بصعوبة إلى أن سارت في اتجاه الناصية، حينئذ اقتحمت صورة "فيروزة" رأسها ومعها عشرات الأسئلة المتواترة، ماذا لو كان زوجها يلتقي بها في غفلة منها؟ أليس من المحتمل أنها تحاول استمالة لتوقعه في شباكها فيغرم بها؟ غامت نظراتها وغطى تعبيراتها وجوماً ممتعضاً، ثم قالت لنفسها بنبرة لا تبشر بخير:

-شكل رجلك خدت على المكان وأنا نائمة على وداني في البيت! من هنا ورايح هحطك في دماغني، ما هو اللي يقرب من جوزي أنا أكله بسناني!

استغرقت في أفكارها السوداوية وقررت ألا تسأل زوجها عنها حتى لا يستريب في أمرها إلى أن تتأكد مما يدور في رأسها، لن تدعها لشأنها أبداً، ستزيحها عن طريقه مهما كلفها الأمر، وإن تطلب

ذلك استغلال ظروف أخيها لصالحها غير عابئة بتبعات تهورها، فليحترق مَنْ دونها من يحترق،
وليت كمداً من يمس عشقها الأول والأخير.

.....

تناولت القرص المسكن ليقتل تلك الآلام التي بدأت في مهاجمتها منذ ليلة أمس، ظنت أنها تعاني
من مغصٍ ما، لكن حدة الوخزات لم تكن مُحتملة، ومع هذا تحاملت على نفسها لتخرج إلى تلك
المقابلة الهامة التي سيتحدد عليها مصير علاقتها القادمة بـ "هيثم"، لم تتكلف "همسة" في ثيابها،
وارتدت ثوباً مزركشاً أغلب ألوانه داكنة، ووضعت عليه سترة من خامة الجينز الثقيلة لتمنحها
الدفء، حتى أنها وضعت القليل من مساحيق التجميل لتعطيها لمحة هادئة .. اقتربت منها "فيروزة"
وسألتها:

-ها جهزتي يا "هموس"؟

أجابتها وهي تخفي إحساسها بالألم:

-مش ناقص غير أتسرح، وأعمل شعري ديل حضان وأبقى تمام.

حركت رأسها تثني على جمالها الطبيعي:

-من غير حاجة إنتي زي القمر.

اكتفت بالابتسام لها، وتحسست جانبها الأيمن وهي بالكاد تفتح عينيها، تأملتها "فيروزة" في اندهاش
وسألتها:

-إنت كويسة؟

فتحت جفنيها، وأجابت مدعية الابتسام:

-يعني جمبي واجعني شوية، بس دلوقتي يروق

بادرت توأمتها مقترحة عليها:

لو حاسة إنك تعبانة مش مهم نروح، هاكلّم الحاج "بدير" وأعتذرله وآ....

ردت مقاطعة بعناد:

-أنا أنا تمام، احنا أصلاً مش هنطول، هاقول الكلمتين اللي عندي وأمشي

نفخت معقبة عليها على مضض:

-اللي يريحك

أبعدت "همسة" يدها عن جانبها وبحثت عن العطر لتنتثر القليل منه على ثيابها، جاهدت لتبدو طبيعية حتى لا تُشعر أسرتها بالقلق، خاصة "فيروزة" التي تبحث عن أي حجة لإلغاء اللقاء.

.....

بوجدٍ وشغفٍ لا يستطيع وصفهما كان "هيثم" جالساً في المقعد المقابل لها على المائدة الثنائية التي جمعتها، لم يبعد أنظاره عن تأمل وجهها المتقلص قليلاً أو عن عينيها الخجلتان، غمرته حماسة عظيمة أعادت له بسمته المفقودة، كما أنها انتشلتته من قاع بؤسه لترفعه إلى عنان السماء حين أخبر بموافقته على الالتقاء به، كان كمن بُعث من الموت.. تلبك، واضطرب، وضلت الكلمات الطريق على شفثيه، استجمع نفسه وبادر يقول بريقة عظيمة:

-أنا مش عارف أقولك إيه، أنا أصلاً مش على بعضي، ومش مصدق إنك قصادي.

عضت "همسة" على شفثها السفلى محاولة كتم تأويهة متألمة تريد الخروج لتصرخ بألمها الذي تضاعف، سحبت نفساً عميقاً وقالت:

-يا ريت تكون اتغيرت فعلاً.

هتف يوعدها دون تردد:

-اقسم بالله ما هيحصل تاني، المدعوق ده أنا توبت عنه، وربك شاهد عليا!

قالت في رضا وهي تومئ برأسها:

-تمام، عشان صحتك مش عشاني

نظر في عينيها مباشرة، وسألها بابتسامة متسعة:

-إنتي خايفة عليا؟

تورد وجهها من جملته الصريحة، وأجابت بجدادية وهي تتحاشى النظر نحوه:

-أم.. يعني طبيعي الواحد يحافظ على نفسه.

قال عن اقتناع مزح فيه بين الجدية والدعابة:

-معاكى حق، وخصوصًا لما نكون داخلين على جواز.

شعرت بالحرص من تلميحاته المتوارية، وصححت له:

-على فكرة أنا موافقتش أرجعلك لسه، كل الحكاية إني هاديك فرصة ثانية!

رفع كفيه معلقًا عليها بجور:

-وماله، أي حاجة منك ترضيني.

ثم دس يده في جيبه ليخرج ميدالية صغيرة مطلية باللون الفضي، قدمها إليها قائلاً بتهذيب:

-تفضلي

قطبت جبينها متسائلة دون أن تلمسها:

-ايه ده؟

أجاب ببساطة:

-ميدالية بحرف ال H

التوت زاوية فمها بابتسامة متعجبة، وأضافت:

-ما أنا عارفة، ودي بمناسبة إليه؟

وضعها على الطاولة أمامها ثم دفعها برفق للأمام لتغدو قريبة من يدها المسنودة على الطرف الآخر،

وتابع من تلقاء نفسه:

-أصل أنا خدت بالي إنا عندنا نفس الحرف، فقولت أجييب حاجة ليكي تنفعك، وفي نفس الوقت تفكرك بيا.

نظرت له في اندهاش، لم يأتِ بيالها أنه سيدرك تشابه الحرف الأول لاسميهما، بدا الأمر مستبعدًا عن تفكيرها لسبب وجيه، معظم الشباب واقعي غير حالم كالفتيات .. لاحظ "هيثم" ترددها، فقال برجاءٍ يحمل قدرًا من المزاح حتى لا ترفض هديته المتواضعة:

-بالله ما ترفضها، دي مش غالية، بـ 10 جنية بس!

علقت ساخرة:

-أدفعهو ملك يعني؟

اتسعت ابتسامته الطريفة حتى ظهرت نواجذه، وقال في حبور:

-لأ.. اعتبريني محوشهم معاكي.

.....

على الجانب الآخر من المطعم، ضمت طاولة كبيرة أفراد العائلتين .. لم يكن ليحدث ذلك اللقاء دون حضور قطبيه "بدير"، و"خليل"، وبالطبع جاءت "حمديّة" مع زوجها لتشبع فضولها الجائع وتقف على رؤوس الأشهاد، وكذلك آتت "بثينة" مع ابنتها "خلود" ليكونا في قلب تطورات الأحداث، وإن كانت الأخيرة تحتفظ لنفسها بمخططاتٍ أخرى شريرة لم تفضح عنها بعد، حتمًا إن نفذتها ستنهى خطبة أخيها قبل أن تبدأ، لكنها ستضمن سطوتها المطلقة على من أسلمت له قلبها، أما عن "تميم" فلم يجذب التواجد بأي حال في مكانٍ يجمعه مع "فيروزة" حتى لا يخلق المشاكل من العدم بناءً على ما اختبره من وساوس زوجته في تلك الليلة العصبية، اختفى عن الساحة نأيًا بنفسه عن أي التزامات قد تضعه في مواجهة غير محمودة مع كليتها إن حدث ما يخشاه، وأخيرًا وليس آخرًا استقرت في مقعدٍ شبه منزوٍ "آمنة" وإلى جوارها ابنتها الأخرى.

لم تتوقف "خلود" عن التطلع إلى من نصبته عدوتها، ارتكزت عينها عليها منذ أن وطأت المطعم، رمقتها بنظراتٍ حائرة كارهة لها، كذلك نمت لديها مشاعر الحقد نحوها بشكل مبالغ فيه، فكرت في احتقارها لتروي رغبتها الانتقامية التي تتعطش للفتك بها، وفي نفس التوقيت تحصل على ما يلزمها

من معلومات تخص طبيعة علاقتها بزوجها، لذا قالت كتمهيدٍ مدروسٍ بما يشبه فحيح الأفعى بعد أن انتقلت من مقعدها لتجلس إلى جوارها:

-أقولك على حاجة وما تزعليش مني.

ردت "فيروزة" ببرودٍ وقد انتهت لها:

-إنتي بتكلميني؟

علقت بنوعٍ من الاحتقار، وتلك النظرة الدونية تعلق عينها:

محدث عمره هيبصلك وإنتي كده!

رفعت "فيروزة" حاجبها للأعلى بعد أن اعتدلت في جلستها، وقالت بتحفيظٍ ظاهرٍ عليها:

-مش فهماكي؟!

تصنعت الدلال، وقالت بغنجٍ هامس:

-الرجالة بتحب البنات المدلعين، اللي زيي كده، أو حتى أختك، لكن المسترجلة اللي عاملة فيها دكر لاً!

اعتبرتها "فيروزة" إهانة مباشرة موجّهة لشخصها، خاصة وضحكات "خلود" الكتومة توحى بأنها المنشودة، لذا بكرامةٍ واستعلاءٍ ردت تهاجمها:

-أفندم؟ الكلام ده ليا؟

هزت رأسها مؤكدة:

-أيوه.

هتفت "فيروزة" في تهكم:

-ده باعتبار إنك شايفة الشنب طائر على وشي مثلاً؟

وبتأفف منفر منعكس عليها، أضافت "خلود":

-أنا عن نفسي بأحاول أبلعك بس بصراحة إتني مش نزلالي من زور
ردت ساخرة منها:

-بقي اشربي بيبيسي جايز أهضم معاكي!

عمدت إلى اللعب بالنيران لتستفزها، فاستطردت مجدداً بقسوة:

-أنا بأقولك الحقيقة ومن غير زعل، يمكن أنا حاولت أتقبلك.

احتقت دمائها من تطاولها الصريح، وردت بوقاحة:

-وأنا المفروض أضايق وكده؟

أرادت "خلود" استيضاح نواياها المخبأة، فلجأت للتلميح الكاذب على لسان زوجها عليها تكشف أمرها، لذا مالت نحوها لتقول بهمس وقلبا يدق في توتر:

-أصل جوزي كان من الآخر مايططكيش خالص، ومرضاش يجي النهاردة بسببك مع إني استرجيته وعمي الحاج غلب يضغط عليه، بس هو كان مصمم، يعني ما تأخذنيش في صراحتي معاكي، بس عشان ما تضايقيش لما يشوفك ومايعبركيش!

ثم تراجعت برأسها للخلف لتتأمل بعين مترب لردة فعلها، شعرت بنشوة كبيرة تنتابها وقد رأت علامات الغيظ جلية على قسماها، أصبحت شبه متأكدة من نجاحها في إيجاد ذلك العداء الوهمي بينهما، ابتسمت بانتشاء لتزيد من استفزازها لها، وبكل حقدٍ علقت "فيروزة عليها:

-ده الحال من بعضه يا مرات المعلم الكبير!

ردت جملتها الأخيرة وقد انتفضت واقفة، رأت تلك النظرة المتغترسة تتراقص في حدقتها، شعرت بالغل وقررت أن تناطحها في الرد لاستحقاقها ذلك، لذا رمقتها بنظرات احتقارية تليق بها قبل أن تقول بوجهٍ ممتنع وبما يشبه التهمك المحترق قاصدة التلكؤ في كل كلمة تتلفظ بها لتشعرها بمدى دونيتها ووضاعتها بالمقارنة بها:

-تعرفي! يا زين ما .. فتوة الحتة تقى واختار عشان يتجوز! ده مش حسد على فكرة!

تطلعت إليها "خلود" بضم مفتوح والبلاهة تظهر على تعبيراتها وهي تحاول فهم مغزى كلماتها، فتابعت "فيروزة" بابتسامة مزهومة وهي تشير بسبابتها إليها، وكأنها بذلك تحتفل مقدماً بانتصارها عليها في تلك الجولة الكلامية:

-بس فعلاً إنتو Couple (ثنائي) غريب، ورغم كده لا يقين على بعض! بصراحة صعب حد يجمع التوليفة دي سوا؛ زوجة غلاوية دهما سخيف ويلطش، وزوج منفسن من واحدة ما يعرفهاش، بس إنتو أبهرتونا! وده مستواكم !!

.....

الفصل الثلاثون

استطاع أن يلمح من زاوية الرؤية الخاصة به ذلك التوتر الدائر من خلفها، انقبض قلبه خيفةً وارتعد من احتمالية نشوبِ عراك قريب، خاصة أن شقيقته لم تكن في حالتها الطبيعية، بدت مغايرة لتلك المستكينة المسالمة التي عاهدها أثناء خطبته، وكأنها قد جاءت متحفزة للتشاجر مع "فيروزة"، لذا اعتصر "هيثم" عقله باحثًا عن المهرب المناسب قبل أن تنتبه هي الأخرى لما يدور من حولها، وببسمة مرتبكة ونظرات تائهة استطرد مقترحًا:

- ما تيجي نبص على البحر من هناك، المياه تحفة الصراحة.

تهتدت قائلة بتعبٍ ملحوظٍ في صوتها بذلت أقصى طاقاتها لإخفائه:

- أنا حابة أفضل هنا.

رد مستنكرًا:

- وتضيعي عليكي فرصة زي دي؟

علت "همسة" رفضها بمرحٍ:

- بس أصل آ....

قاطعها بإصرارٍ عليها توافق على طلبه:

- ده احنا بالنهار، والمنظر بيفرق، صدقيني، تعالي معايا مش هتخسري حاجة، ..

التقط أنفاسه وواصل القول بأسلوبٍ دعائيٍ بحت وهو يشير بيده لظهره:

- ده أنا حاسس إنه هيطلعي أتب من كتر القعدة، مش واخدة بالك ولا إيه

كتمت تلك الضحكة المرححة على طرفته، وظلت شفاتها تتقوسان ببسمة مهذبة، ثم ردت مستسلمة:

طيب.

حافظت على ابتسامته المرسومة وهو ينسحب بـ "همسة" نحو الشرفة المطلة على البحر في تلك البقعة المعزولة نسيبًا عن الصخب الدائر بالمكان، لكن ظل قلبه قلقًا من توابع الأزمة التي على ما يبدو لن تمضي على خير، ردد لنفسه في رجاء:
-هاتها معايا جمائل يا رب.

اعتقدت بتفكيرها الأرعن والخاطئ أنها تحمي زوجها من صائدة الرجال بتلك الطريقة المتهمكة المسيئة، فزيفت الحقائق وادعت الأقاويل الباطلة مستمتعة برؤيتها تزداد كمدًا، لكنها في المقابل استهانت بمن منحها لقب عدوتها، وتلقت إهانة وحقبة نالت منها بأسلوب لا يمكن السكوت عنه، استشاطت عينا "خلود" وتطايرت شرارات الغضب منها، ثم انتفضت واقفة لتصبح فجأة بصوت مرتفع يحمل الحقد قاصدة إهاتها:

-إنتي واحدة قليلة الأدب ومش متريية.

ردت عليها "فيروزة" بنبرة جليدية دون أن تتأثر ملامحها الجامدة:
-مع أمثالك ببقى كده!

التفت الجميع نحو الاثنتين اللاتين وفتتا في مواجهة بعضهما البعض، ظهرت علامات الكراهية بينهما جلية، وإن كانت الأسباب غير معلومة للبقية، تساءلت "بثينة" في استغراب:

-في إيه يا "خلود"؟ إيه اللي حصل؟!

صرخت وهي تجاوب والدتها مستخدمة سبابتها في الإشارة نحو "فيروزة":

-البنني آدمة دي غلظت فيا وفي جوزي، وأنا مش هاسكتلها!

تعقدت ملامح والدتها، وسألتها بنفس الوجه المدهوش:

-نعم؟ ليه إن شاء الله؟!

تطلعت إليهما "فيروزة" بنظرات مستهجنة، ثم ردت عليهما متسائلة بابتسامة ساخطة وهي ترى تلك الحرباء تتلون أمامها لتظهر بمظهر البراءة:

-لوحدي كده؟ يعني هفت على دماغي فجأة إني أهزأك، وأجيب من الأرض وأحط على دماغك؟! مش معقولة بصراحة، للدرجادي أنا مش خبيثة زيك!

وقفت "آمنة" إلى جوار ابنتها ترجوها:

-بالراحة يا "فيروزة" مش كده!

احتقت نظرات "خلود" أكثر من تطاولها المتواري، وهتفت مستشهادة بزوج خالتها:

-شايف يا عمي طولة لسانها معايا؟

هتفت "فيروزة" مدافعة عن نفسها قبل أن تدور الدائرة عليها، وينساق الجميع وراء أكاذيبها البغيضة:

-أنا مطولتش لساني على فكرة، أنا حطيتك في مكانك الصح، وقبل ما حد يقولي كلمة، أنا كنت قاعدة في حالي، وهي اللي جت لحد عندي تمشخر وتمنظر، فمتجيش تزعل لما أرد عليها بنفس أسلوبها.

هتف "خليل" قائلاً بنبرة مضطربة، وقد توتر من بوادر الجدل المحتدم بينهما:

-اسكتي شوية يا "فيروزة"، خلينا نفهم في إيه!

التفتت ناظرة نحوه بعينين ناريتين، في حين نظرت لها "خلود" بحقد، وعلقت بنبرة تميل للاختناق:

-بلقيهم بالشويتين دول، آل وأنا اللي مفكرة إننا هناسب ناس محترمين وولاد أصول، لكن آ...

بترت جملتها الأخيرة عن عمد لتجز على أسنانها قائلة:

طلعتي بنت آ....

وقبل أن تكمل عبارتها قاطعتها "فيروزة" محذرة بلهجة شديدة ألجمت لسانها، وقد تقدمت نحوها خطوة لتنذرها بهجوم بدني وشيك:

-لأ عندك، لو هتغلطي فأنا لوحدي كفيلا أخرسك إنتي واللي يتشددلك!
كان "خليل" مدرگا أن ابنة أخته لن تصمت إن دعس أحدهم على طرفها، لذا اقترب منها وأمسك
بها من ذراعها يشدها للخلف وهو يحذرهما:
-احترمي وجود كبار العيلة يا "فيروزة".
تدخلت "بثينة" معلقة عليه بكلمات ذات دلالات قوية:
هي أصلاً فارق معاها حد، ده مافيش احترام خالص، والعينة بينة!!
ردت عليها "آمنة" ونظراتها تحمل العتاب نحوها:
-مايصحش الكلام ده يا حاجة! احنا قبل ما نكون نسايب بينا جيرة وعشرة!
بينما صاح "بدير" بنبرته الخشنة ليلزم الجميع عند حده:
-احنا جايبين نتفق على جواز ولا خناق، الكل يسكت خالص.
تحركت "حمديّة" من مكانها لتستل ذراع "فيروزة" من زوجها، وقالت بصوت مرتبك وهي تغمز له
بطرف عينها حتى لا يمنعها من سحبها إليها:
-ما تصلوا على النبي يا جماعة، في إيه بس؟ ده شيطان ودخل بينا.
صاحت "خلود" قائلة بعنادٍ ووجهها يكسوه تعابيرًا منزعجة:
-الجوازة دي ما تلزمناش و...
هدر بها "بدير" بنبرته الصارمة وقد قست نظراته على الأخير:
-"خلود" اقطمي، مش إنتي اللي هتحددي إيه اللي يلزم وما يلزمش.
تخرجت من أسلوبه الجارح، واضطربت نبرتها معترضة بتلعثم:
يا عمي آ..
قبضت "بثينة" على ذراعها وشدتها إليها، ثم همست لها بنبرة ذات مغزى:

-اهدي، لينا بيت نتكلم فيه، احنا جاين عشان أخوكي.

علقت عليها بوقاحة وبنبرة أسمعت المتواجدين:

-والله لو أختها آخر واحدة في الدنيا و"هيثم" هيموت عليها، دي تتساب عشان أختها، اللي زي

دي استحالة تتعاشر!

ردت "فيروزة" بقوة وقد اشتعلت نظراتها بغضبها:

-تقولش احنا ماسكين فيكو، اتفضلوا بالسلامة.

صاح "بدير" عاليًا من جديد بصوتٍ أظهر انزعاجًا شديدًا:

-أنا قولت إيه؟ الكل يحط لسانه في بؤه ويسكت نهائي!

مالت "بثينة" على ابنتها تهمس لها بمكر:

-اهدي دلوقتي يا "خلود"، جوز خالتك متضايق

بينما قال خليل معتذرًا:

-عندي دي يا جماعة، امسحوها فيا، أكيد مش مقصودة..

ثم التفت إلى ابنة أخته يوبخها:

-بلاش أمور الجنان إياها يا "فيروزة"، خلي اليوم يعدي، احنا بنقول شكل للبيع؟

نظرت له شزرًا قبل أن ترد بغیظٍ مدافعة عن نفسها:

-يا خالي هو إنت فهمت في إيه؟ ولا المدام دي عملت إيه؟!

هتف غير مكترث:

-مش عاوز أعرف، طالما الحاج "بدير" قال كلمة، كلنا نسمعه!

اضطرت مرغمة أن تبتلع لسانها في جوفها احترامًا لذلك الرجل الوقور الذي تقدر مواقفه الجيدة، لكن ظلت نظراتها الحاققة تتركز على وجه "خلود"، في حين حذر "بدير" زوجة ابنه بصراحة ودون أن تطرف عيناه:

-وانتي يا "خلود" يا تلزمي أدبك مع ضيوفنا، يا إما هيبقالي صرفة مع جوزك، ولا الأفضل اتصل بيه يجي يلمك!؟

ارتجفت أوصالها من كلماته الأخيرة، ونظرت في قلبي إلى "فيروزة"، كانت تسعى لخلق العدواة بين الاثنين من لا شيء على أمل قطع السبل بينهما، ولكن بطيشها غير المدروس كانت تمهد الطريق لمقابلة جديدة، لذا بما يعترها من ذعرٍ ردت عليه بنزقٍ:

-خلاص يا عمي، مالوش لازمة تكلمه، عشان خاطرك بس عندي، أنا هتأسفلها كمان

ادعت الابتسام وهتفت بلطفٍ غريب للغاية:

-متزعليش مني يا "فيروزة"، احنا هنبقى عيلة!

تطلعت إليها الأخيرة باندهاشٍ وفكها شبه منفرج، ثم قالت على مضض:

-كويس إنك عرفتي غلطتك.

سألتها "خلود" بنظراتٍ مأكرة:

-مش هتتأسفيلي إنتي كمان؟

قالت بنبرة مستخفة:

-أنا مغلطتش فيكي أصلاً!

وقبل أن تأخذ جملتها على محمل شخصي جاد تخلق به مشكلة أخرى جديدة تنحج "خليل" مقترحًا:

-خدي بنتك يا "آمنة" واقعدوا على تربيذة ثانية، خلوا اليوم يعدي

احتدت نظرات "فيروزة" نحو خالها الذي يضعها دومًا قالب الجانية، وغمغمت في يائس:

-إن شاء الله ما عدى، هنخسر إيه يعني

تحركت "آمنة" من مكانها، وتأبطت ذراع ابنتها لتجبرها على التحرك بعيدًا عن الطاولة الكبيرة، انتقلت كلتاها للجلوس على طاولة أخرى ثنائية، ففخت "فيروزة" من الضيق الشديد، وسألت والدتها:

حطب ده ينفع؟ احنا متمسكين بالناس دي على إيه؟

ردت عليها والدتها بجيادية:

-القرار في إيد أختك دلوقتي، اللي هاتقوله هانعمله!

ضغطت على شفيتها في عدم رضا، وعلقت:

-ماشى.. أتمنى إنها ترفضه!

.....

أشاحت بوجهها المتقلص بعيدًا عن تلك النظرات الناقمة المراقبة لها، تعمق بداخلها إحساسًا قويًا بأن تلك المرأة لا تضم لها سوى الشر، وإن تمت تلك الزيجة غير المتكافئة ستعاني توأمتها من مشاكل جمة بسببها، وضعت "آمنة" يدها على ذراع ابنتها الشاردة، ابتسمت لها قائلة بنبرتها العطوفة:

-مترعيلش يا "فيرو" من اللي حصل، كلها شوية ونخلص من الأعدة دي ونرجع بيتنا.

ردت بقليل من الحنق:

-يا ماما إنتي عارفة إن مافيش حاجة تأثر فيا، بس فعلاً أنا بقيت خايفة على "همسة" من العيلة دي، لا هما ينفعوننا، ولا طريقتهم مناسبة لينا

علقت عليها بنبرة متوسمة خيرًا:

-ربنا يهدي أختك.

وبحركة تلقائية درات بأنظارها في أرجاء المطعم تتأمل دون هدف معين من متواجد فيه، ارتفع حاجب "فيروزة" للأعلى قليلاً حين رأت صاحب الوجه المألوف يدنو منها وعلى وجهه ابتسامة

لطيفة، تحفزت في جلستها وانعكست بوادر الارتباك على محياها، خاصة أنها رأته عزمه على القدوم إليها تحديداً، نظرة متوترة حانت منها إلى والدتها التي كانت تنظر إلى داخل حقيبة يدها، ازدردت ريقها وتطلعت إلى "آسر" الذي هتف مرحباً بألفه زائدة:

-يا محاسن الصدف، قلبي كان حاسس إني هاشوفك ثاني.

ثم مد يده لمصافحتها، تخرجت للغاية من جرائته، ثم نهضت لترحب به دون أن تبادلها المصافحة، وقالت بلهجة تميل للرسمية:

- "آسر" بيه، أهلاً بحضرتك.

صدفة أم مشيئة القدر، لم يقرر تحديداً لكن تلك الغبطة التي اكتسحته لرؤيتها كانت تستحق ذلك، لذا هتف بمزيد من المرح الممتزج بضحكاته الحماسية:

-لا وكان فاكهة اسمي، ده أنا كده ممكن أتغر.

نظرت "فيروزة" مجدداً إلى والدتها العابسة، حتماً لم تكن الأخيرة راضية عما يحدث أمام أنظارها، أبعدت عينيها عنها، وتساءلت بنفس اللهجة الرسمية وبتعابيرها الجادة:

-أحم.. هو حضرتك هنا مع "ماهر" بيه وباقي العيلة وكده؟

أجابها نافياً:

-لا أنا جاي في شغل بأخلصه..

ثم توقف عن الكلام للحظة ليحوز على كامل انتباهها قبل أن يستأنف سؤاله:

-إنتي بقي بتعملي إيه هنا؟

التفتت إلى "آمنة" تجيبه بريقة طفيفة:

-أنا مع والدتي وآ.....

قاطعها "آسر" ممرًا يده إلى أمها وهو يرحب بالأخيرة بهتديب:

-إزي حضرتك يا فندم؟

صاحته متسائلة بفضولٍ واستغراب:

-أهلاً بيك يا ابني، إنت مين؟

تولت ابنتها الإجابة عنه، فقدمته بسمّةٍ متكلفة:

-ده يا ماما "آسر" بيه، ظابط صاحب "ماهر" بيه أخو "علا" صاحبتني

وقبل أن تستشف منها المزيد من المعلومات كان "خليل" يقف على رأس الطاولة متسائلاً بصوتٍ أجش وعينه محددتان:

-في حاجة يا حضرت؟

وكالعادة لحقت به زوجته لتشبع فضولها النهم، وتساءلت بابتسامةٍ خبيثة:

-إنتي تعرفي الأستاذ ده يا "فيروزة"؟

استطرد "آسر" موضحاً، ونظراته تدور على جميع الأوجه المحدقة به:

-سوري يا جماعة إن كنت اقتحمت عليكم الأعدة، بس حابب أعرفكم بنفسي.. وبالمرّة أوضح سوء الفهم اللي حاصل.

.....

-مين ده يامه؟ اللي واقف مع المزرغودة دي؟

قبل لحظات، تساءلت "خلود" في اهتمامٍ مبالغٍ وعيناها مثبتتان على وجه عدوتها، نظرت "بثينة" إلى حيث أشارت ابنتها ودققت النظر إلى ذلك الشخص الذي يرتدي بدلة أنيقة ويتبادل الحديث الحميمي نسبياً مع "فيروزة"، مالت عليها وقالت بحيرة:

-ولا أعرف، أنا مشفتوش قبل كده

كزت "خلود" على أسنانها هامسة، وتلك النظرة المشمّزة تكسو حدقتيها:

-بت صايعة بتاعة رجالة، مش ملاحقة تشاغل مين ولا مين! مرة جوزي، ومرة واحد تاني!

للحظة طراً في بالها فكرة وضيفة كنفكيرها الذي تحول مؤخرًا ليصبح كارثياً على من حولها، تصنعت البراءة، وقالت بنبرة مرتفعة قدر الإمكان لتضمن سماع الجميع لما تنطق عنه:

-وعلى فكرة يامه دي مش أول مرة أشوف "فيروزة" بتكلم رجالة غرب، كويس إن ده بيحصل قصادنا، عشان محدش يقول إننا بنظلمها.

استثيرت حمية "خليل" وهتف محتجاً:

-مايصحش الكلام ده يا بنتي، احنا بناتنا متريين! مايفيش حد غريب عننا!

هزت كتفيها بجرعة مستهزأة، ولوت ثغرها قائلة:

-ما هو واضح إنك مش عارف هما مين، وإلا لكان اللي واقف معاها جه وسلم عليك.

أوغرت ببساطة صدره ناحيتها فانقلبت ملامحه ونهض بأمارات غيظه المتراقصة على صفحة وجهه نحو ابنة أخته قاصداً إحراجها علناً، شعرت "خلود" بالنشوة تغمرها من جديد، الآن نالت انتقامها الجزئي منها، وما زال في جعبتها الكثير لأجلها.

.....

ظلت ملامحه هادئة رغم تباين ردات الفعل المنعكسة على الأوجه الناضرة إليه، كان الأمر بديهيًا أحدهم يقتحم جلسة عائلية ليرحب بابنة العائلة دون إظهار احترامه لمن معها، تحتم عليه إصلاح خطئه، وإن تطلب الأمر أكثر من اعتذار، لذا حافظ "آسر" على ابتسامته العملية، وأشار بيده للجميع مُعرفًا بنفسه:

-أنا أسف يا جماعة إني معرفتكوش بيا، دي غلطتي، بس مش مقصودة، أنا "آسر وهبة" مدير فرع الشؤون القانونية للمجموعة العربية للملاحة الدولية في دول الخليج

ومد يده لمصافحة "خليل" الذي بقي حائرًا لثانية قبل أن يصافحه، في حين نظرت له "فيروزة" باندهاش، وتساءلت وكأنها تفكر بصوتٍ مسموع:

-هو إنت مش ظابط؟!!

هز رأسه نافياً قبل أن يجيبها وهو يدير رأسه لينظر ناحيتها:

-لأ يا آنسة "فيروزة".

لعت شفتيها وعلقت عليه في حيرة:

-بس إنت كنت مع "ماهر" بيه، والطابط "وجدي"!

أوضح لها ببساطة:

-هما أصحابي فعلاً، ومن زمان من أيام ابتدائي، لكن هما دخلوا شرطة، وأنا دخلت حقوق.

ادعت الابتسام لتخفي حرجها من الموقف برمته، وقالت:

-تمام.. كده فهمت.

حاوطت "حمدي" بذراعها كتفي "فيروزة" لتبدو وكأنها تكن لها مشاعرًا دافئة، ثم تساءلت بفضول
ماكر:

-وعلى كده إنت متجوز يا أستاذ؟

انزعجت "فيروزة" من وقاحة سؤالها ونظرت لها بجدة، في حين ابتسم "أسر" حين جاوبها بنبرة
ذات مغزى:

-لأ لسه.. ومش خاطب كمان!

اتسعت بسمتها اللئيمة وغمزت لـ "فيروزة" بطرف عينا قبل أن تدمدم:

-ربنا يرزقك بنت الحلال.

سددت لها الأخيرة نظرة نارية مشتعلة، وتنحنحت قائلة بوجه شبه عابس:

-دي فرصة كويسة إننا شوفناك، بس مش حاين نعطلك!

ظلت ملاحظه مرتخية وهو يعلق عليها بنوع من الاهتمام البائن عليه:

-مافيش أي عطلة، بالعكس أنا قلبي كان حاسس إنني هاشوفك. قصدي إنني محظوظ إنني اتقابلت
مع العيلة الكريمة.

هتفت "حمديّة" معبرة بشكلٍ مبالغ فيه وبجنكة مأكرة لتستدرجه:
- ده احنا الأسعد يا أستاذ آ... متأخذنيش أنا ذاكرتي ضعيفة في الأسماء شوية.
نظر نحوها قائلاً بلباقةٍ ليعرف بشخصه مجدداً حتى يتسنى للجميع تذكره:
- اسمي "آسر" يا هانم، "آسر وهبة".

.....
حملت في زرقة المياه المغربية بنظرات مطولة شبه ساهمة، كانت تهرب من إحساسها المتزايد بالألم
بإمعان النظر في تلك الأمواج المتلاحقة، وامتزج صوته الأجنش مع أصوات حركة المياه الثائرة
ليحضر ذلك لمشهد بجميع مؤثراته في مخيلتها، باتت "همسة" على وشك الصراخ طلباً للنجدة، لكنها
قاومت قدر استطاعتها معتقدة في نفسها أنها ستتغلب عليه. دنا "هيثم" منها، وبقلبٍ يقفز طرباً
سألها، وكأنه لا يجد ما يحاورها فيه:

-مبسوطة؟

التفتت ناحيته تطالعه بغرابةٍ، وردت متسائلة:

-من إيه بالطبط؟

ازدرد ريقه وتابع بارتباكٍ أبله مستخدماً يده في التلويح:

-من المكان، من الجو.. أي حاجة يعني.

هزت رأسها قائلةً وذلك الوخر المमित ينخر في جانبها:

-كله تمام.

لاحظ "هيثم" تلك التقلصات الظاهرة على تعبيرات وجهها، دقق النظر فيها وسألها مهتماً:

-إنتي كويسة؟

ضغطت على شفيتها معترفة له بصوتٍ بطيء مكتوم يعبر عن مدى تألمها، وقد انحنى قليلاً
للأسفل وواضعة ليدها على جانبها الأيمن:

-لأ.. حاسة إني.. بأموت.

تبدلت تعابيرها المتهيجة للخوف، وسألها وهو يفحصها عن كذب:

-مالك يا "همسة"؟ في إيه؟

أطلقت صرخة عميقة من جوفها قبل أن تتكوم على نفسها على الشرفة وهي تبكي بحرقة من شدة الألم الذي يفتك بجانبها. جثا "هيثم" على ركبته أمامها، تفقدها بنظراته، والتفت برأسه منادياً في لوعة:

-يا جماعة حد يلحقنا بسرعة!

وعلى إثر صراخها المرعب تجمع المتواجدين بالمطعم، ومن ضمنهم أفراد العائلتين حولها، كانت "فيروزة" الأسبق في الوصول لتوأمتها بعد أن دفعت من يسد الطريق عليها لتبلغها، وضعت يدها على ظهرها وجثت على ركبتيها تسألها في جزع:

-حصلك إيه يا "همسة"؟

رفعت الأخيرة نظراتها الباكية إليها، وأجابتها بصعوبة:

-مش قادرة، بأموت.

اخترقت "آمنة" صفوف المحاطين لصغيرتها، وهتفت بقلب أم خائف للغاية:

-بنتي، جراك إيه؟ إنتي كنتي كويسة و..

هتف "هيثم" فجأة وقد حسم أمره:

-أنا هوديتها لأقرب مستشفى، مش هاسيها كده.

لم ينتظر الرد من أحدهم، حيث أزاح "فيروزة" من طريقه بالرغم من تدمرها، وأخنى نفسه عليها ليرر ذراعيه أسفل ركبتيها وحول جسدها ليتمكن من حملها، ألقت "همسة" برأسها على صدره وجفناها مطبوقان من شدة الألم، لم تتوقف عن البكاء وقالت له بصوتٍ بالكاد سمعه:

-الحقني.

نظر لها بعينين مرتاعيتين، وهتف يعدها بصوتٍ لاهث من فرط خوفه عليها:
أنا معاك، مش ها يحصلك حاجة!

.....

لحظات عصيبة مليئة بالخوف والترقب مرت على ككثاهما وهما ينتظران في ردهة المشفى ما سيخبرهما به الطبيب بعد الكشف الأولي على حالتها، احتضنت "فيروزة" والدتها، وحاولت تهدئتها بكلماتٍ متفائلة بالرغم من الخوف الذي يسري في أوصالها، لكن عليها أن تبدو قوية الشيكمة أمامها، ألا تتهار مع مصائب الدهر، لتكن هي الحائط المتين الذي تستند عليه، تهتت قائلة لتشد من أزرها:

إن شاء الله الدكتور هيطلع ويطمنا عليها، "همسة" هتبقى كويسة وما فيهاش حاجة.
ردت بجزنٍ وهي تمسح دمعاتها المنسابة على وجنتيها:
يا رب

بالطبع لم يتخل "بدير" عن دوره الشهم في مد يد العون لتلك الأسرة، وتواجد بنفسه مع "خليل" و"حمدية" ليطمئن بنفسه على الفتاة المريضة، عرض عليها بجديّة:
متشلوش هم أي حاجة، المهم نطمن عليها
رد "خليل" مجاملًا:

-كثر خيرك يا حاج "بدير"، والله ما عارف أقولك إيه، أنا حاسس إنني إيدي متكتفة، ومش عارف أعمل حاجة
ريت على كتفه مھونًا عليه:
متخافش، كلنا أهل وجيران

أخفت "حمديّة" ابتسامة مسـتمتعة بالعرض الهزلي الذي يقدمه زوجها، وكأنه يستجدي بذلك عطفه، وإحسانه، والأهم بالطبع تقوده الطائفة، فلا يضطر لإفناق أي شيء من جيبه بسبب تلك القرابة، تنحنحت تشكره هي الأخرى بوجوم زائف:

-أنا غلابة أوي يا حاج، ربنا بعثك لينا في الوقت المناسب

بينما وقف "هيثم" بجوار الباب المعلق أعلاه لافتة (طوارئ) ونظراته مرتكزة عليها، ظل يغمغم بكلمات غير مفهومة، حانت منه نظرة تائهة إلى والدته التي جلست على المقعد المعدني والتصقت بأخته، كلتاهما لم تتوقفان عن الهمس الغامض، استطردت "بشينة" تقول بتذمر:

-مش عارفة لازمتها إيه أعدتنا دي

ردت عليها "خلود" على مضض:

-البركة في "هيثم"، هو اللي مجرنا ورا الهام بتاعته لحد هنا

أخفضت والدتها نبرتها وهي تضيف:

-أنا اتشأمت من الجوازة دي، مش جاي من وراها إلا المصايب

همست تؤيدها، وقد شردت تفكر في مخاوفها غير الحقيقية من "فيروزة":

-ومين سمعك!

أوحت ملامح الاثنتان بأنهما غير راضيتان عن تصرف "هيثم" المليء بالمروءة، تجاهلها الأخير مرغماً ليبقى في مكانه منتظراً من يخرج إليه ليطمئنه، انتصب واقفاً حين لمح إحدى المرضيات تسير عائدة من الداخل، أسرع نحوها ليسألها متلهفاً:

-أخبار "همسة" إيه؟

أجابته بنظرة جامدة وهي تتفحص وجهه:

-مين دي؟

صاح منفعلًا:

-البنت اللي لسه جايها من شوية، ودخلناها عندهم.

هزت رأسها وقد تذكرت شأنها، ثم سألته بسماجة:

-إنت قريها؟

أجاب بنفاذ صبر وهو يشير بيده:

-أيوه، أنا خطيها، وأهلها كلهم هنا.

ألقت نظرة عابرة على الأشخاص الذين انتفضوا في أماكنهم، وتحركوا نحوها لبدو قريين منها،

وعلقت بنبرة روتينية بحتة:

-دلوقتي الدكتور هيخرج من عندها ويطمنكم.

كان "هيثم" على وشك سبها لبرودها الذي لا يُطاق، لكنه أمسك أعصابه وكظم غيظه داخله،

فمن المعروف عن تلك الفئة التي تصادف يوميًا عشرات الأنواع من أنماط البشر- الثبات الاتفعالي

والهدوء التام لاعتيادهم الواضح على ردات فعلهم المختلفة ..

لاحقًا خرج طبيب ما من ذلك الرواق الممتد متسائلًا بصوت مرتفع:

فين قرايب المريضة "همسة"؟

صاحت "فيروزة" عاليًا لتلفت انتباهه وهي تركض نحوه:

-أنا أختها.

بينما تدخل "هيثم" فارضًا ومعرفةً بنفسه:

-وأنا خطيها.

رمقته "فيروزة" بنظرة حادة قبل أن توجه سؤالها المباشر للطبيب:

-أختي مالها؟

أجابها بلهجة عملية وبجمل مرتبة موضحة طبيعة حالتها:

عندها اشتباه في الزيادة، واحنا دلوقتي بنعمل معاها الفحوصات اللازمة قبل ما نجهزها للعمليات.
تفاجأت مما أصابها، وردت في صدمة:

ليه؟ أنا أختي مكانتش بتشتكي من حاجة!

عيني عليكي يا بنتي، كان مستخيلك اهم ده فين؟!!!

صرخت "آمنة" بتلك العبارة وهي تلطم على صدغيها في ارتعادٍ وحسرة، رمقها الطبيب بنظرة عادية قبل أن يكمل بهدوء اعتاد التعامل به مع عائلة المريض:

-الأعراض واضحة عليها، وزى ما فهمتك احنا بنعمل الفحوصات اللازمة..

ثم وزع نظراته بين "فيروزة" و"هيثم"، وتابع بلهجته الرسمية:

-من فضلكم حد يعدي على الحسابات ويكمل باقي الإجراءات هناك قبل ما نودبها للعمليات.

ردت عليه "فيروزة" دون تفكير:

-الفلوس مش فارقة معانا، المهم هي تبقى كويسة.

قال مبتسمًا:

-تمام.. متقلقيش، دي حاجة بسيطة، وكل يوم بنعملها، والمرضى بيقيموا منها بخير.

أحست بالارتياح لعباراته المطمئنة، وقبل أن تفكر في خطوتها التالية هتف "هيثم" بجديّة:

-خليكي هنا مع أختك وأنا هاتصرف وأشوف عاوزين كام في الحسابات، ماتشليش هم حاجة.

نظرت له بجدّة قبل أن تعترض طريقه لتستوقفه بالإجبار، ورغم صفاء نيته إلا أنها شعرت أنه يمس كرامة عائلتها ويخص شأنهم، لذا رفضت عرضه السخي قائلة بكبرياء:

-شكرا، الحمد لله مستورة معانا، أختي ملزمة مني، مش من الغريب!

نطق مستنكرا تزمتمها الفارغ:

-حتى لو أنا غريب دلوقتي، فاحنا جيران ومن حنة واحدة، وماتريناش على كده.

أصرت على موقفها الراض:

برضوه متشكرين، وكفاية تعبكم لحد كده..

ثم نظرت إلى والدته وأخته المحدثين بها، وتابعت بما يشبه التهم:

-ويا ريت تشكرلنا العيلة الكريمة، قاموا بالواجب وزيادة!

رد عليها معاندًا:

-أنا بأعمل بالأصول.

ابتعدت عنه "فيروزة" وهي عاقدة العزم على ألا تقبل المساعدة المادية منه أو من غيره، ستتكفل بمصاريف المشفى وإن كان ذلك يعني الاستغناء عن الأموال المدخرة لشراء ما قد يلزم لتجهيزها مستقبلاً، الأهم نجاحها من ذاك الألم المميت، لذا طلبت من والدتها الانتظار بجوار أختها ريثما تحضر- المبلغ المطلوب .. في حين أرهفت "بثينة" السمع للكلمات الأخيرة التي تلفظ بها ابنها، ثم التفتت إلى "خلود" تشكوها في غيظ:

-شايقة أخوكي واللي بيعمله؟

علقت عليها ساخرة منه ونظراتها الحقودة مثبتة على "فيروزة":

-أه يامه، الحبيب بيتكلم! عاوز يكسب بونط معاهم!

تقدم "هيثم" مندفعًا ناحية والدته، ودفعها برفق من ظهرها للجانب، ثم سألها بصوتٍ خفيض:

-يامه معاكي قرشين كده سلف أحطهم تحت حساب المستشفى للبت "همسة"، وآ....

قاطعته معذرة ومدعية الفقر:

-منين يا ابني؟ أنا على الحميد المجيد، يدوب اللي معايا يكفي مصروف البيت لآخر الشهر، لو كان معايا بزيادة كنت ادبتك.

غامت عيناه في ضيق، وردد حائرًا، وكأنه يستشيرها وهو يفتش عن الأنسب بين خياراته المتاحة:

طب أجيب فلوس منين دلوقتي؟!

قالت ببرودٍ يعكس تهكمها:

-دي مش مسئوليتنا، هي معاها أهلها، هما أكيد عاملين حسابهم ومدكين قرشين تحت البلاطة لزوم الظروف اللي زي دي، اسمع مني!

نظر لها في عتابٍ والتزم الصمت غير مجذّبٍ للتعليق عليها، خاب رجائها فيها، وشرذ مستغرقًا في أفكاره باحثًا عن حل سريع، اقترحت عليه والدته ببسمة مأكرة:

حطب أقولك روح خد من جوز خالتك، هو مش هايقولك حاجة، ده ياما بيعمل خير وآ...

ودّ "هيثم" لو تمكن من مساعدتها دون اللجوء لزوج خالته ليثبت لها أنه قادر على تحمل المسؤولية في أشد الأزمات، شعر بالعجز وبقلة الحيلة وهو لا يملك في جيبه ما يكفي لإظهار شهامته، ومرة أخرى يندم بشدة لإنفاقه أمواله هباءً.. ضاقت نظراته بشكلٍ منفر، ولم يتحمل كلام والدته غير المقبول، وقاطعها بتبرم:

-خلاص يامه أنا هاتصرف.

نظرت له بغرابةٍ قبل أن تهتف متسائلة:

-هتعمل إيه؟

تجاهل الرد عليها ليهرع في خطواته متجهًا نحو مخرج المشفى، اضطربت أنفاسه وغص صدره بالبكاء، لكن عاد الأمل ليرفرف فوق رأسه وقد تذكره، ودون ترددٍ أخرج من جيبه هاتفه المحمول، وضع الهاتف على أذنه وقد تطرق إلى ذهنه ذلك الحل الذي وجدته مناسبًا له، دار حول نفسه في توترٍ وهو يحاول جاهدًا ترتيب أفكاره قبل أن ييوح بها إليه، ثم هتف دون مقدماتٍ حين أجاب عليه الطرف الآخر:

- "تميم"، أنا عاوزك في خدمة مش هنسالك طول العمر !!

.....

الفصل الحادي والثلاثون (الجزء الأول)

حزمة من المشاعر اليائسة غزت وجدانه بعد أن أحصى عقليًا وبجسبة سريعة ما يدخره من مال، لم يملك من كده اليومي حين التزم طريق الحلال سوى القليل الضئيل الذي لا يذكر أو حتى يصلح لشراء باقة من الورد لمعايذتها بعد تماثلها للشفاء، فماذا عن دفع تكاليف العلاج بالمشفى؟ لعن "هيثم" استهتاره الدائم الذي أوصله لتلك الحالة من العوز والاحتياج، عبث بشعر رأسه، وتابع مكالمته مع "تميم" قائلاً له على عجالة:

-أنا محتاج منك قرشين ضروري، وهردهوملك أما ربنا يفرجها معايا

بدا على صوت "تميم" الضيق حين سأله مستفهمًا:

-خير يا "هيثم"؟ عملت مصيبة إيه المرادي؟

أجابه بأنفاس غير منتظمة وهو يتحرك في حركة شبه دائرية خارج المشفى:

-حول مش ليا.

استطاع أن يسمع صوت أنفاسه البطيئة عندما تساءل مجددًا بما يشبه الاستنكار:

-قول إنك رجعت تاني للسكة الشمال، والحكاية فيها عوا (مشكلة) مع حد؟!!

هتف نافيًا بصوتٍ مختنق:

-اقسم بالله أبدًا، أنا وعدتك ووعدتها.. ولحد النهاردة ملتزم بكلمتي...

انقطع صوته للحظة قبل أن يتابع بتوسلٍ:

-بس البت هتموت لو ملحتهاش

على الفور سأله "تميم" وقد تبدلت نبرته:

-بت مين؟

أجابه بتلعثم وتلك النهبة تختلط بصوته:

- "همسة" .. خطيبتني!

رد عليه "تميم" يستحبه على تمالك نفسه:

-أهدى كده، وفهمني في إيه، ومستشفى إيه اللي بتحكي عنها، ومتقلقش هاجيبلك كل اللي إنت عاوزة، وبزيادة.

تنفس "هيثم" الصعداء لدعمه الذي هبط عليه كنجدة من السماء، ومسح بيده الدمعات التي فرت من طرفيه، ثم قال وهو يسحب نفسًا عميقًا:

-حاضر، بس بالله عليك ما تتأخر.

اخترقت نبرته أذنيه وهو يريد عليه:

-أنا جايلك في الطريق.

تهيدة ثقيلة خرجت من جوف "هيثم" أزاحت معها هماً قابضاً للأرواح جثم على أنفاسه طوال تلك الدقائق الماضية، بدأ يستعيد انضباطه، وسرد له تفاصيل ما حدث في المطعم منذ لحظة انهيار "همسة" وذهابه بها إلى المشفى بصحبة أفراد العائلتين.

.....

لم تهمل نفسها الفرصة لالتقاط الأنفاس، بمجرد أن دست المفتاح في قفل الباب ووطأت داخل منزلها، ركضت "فيروزة" نحو غرفة نوم والدتها، اتجهت إلى دولااب الملابس حيث تحتفظ والدتها في الرف الأوسط بصندوق صغير تضع فيه مدخرات الفتاتين من أجل تجهيزهما حين تحين لحظة زواجهما، كانت تعرف هدفها جيدًا، فلم تضع الوقت في البحث والتفتيش، أزاحت الثياب التي يختبئ الصندوق أسفلها، وفتح الصندوق بالمفتاح الصغير المعلق به، أخرجت جميع النقود الموجودة به، وطوتهم بإحكام قبل أن تحشرهم في جيب حقيبتها، كانت على وشك غلق الدولااب حين لمحت علبة القטיפئة الحمراء، رددت لنفسها:

-إيه دي؟

مدت يدها للرف العلوي لتسحبها نحوها، ثم فتحتها لتعلو الدهشة المستنكرة كامل ملاحظها، كزت على أسنانها متسائلة في ضيق:

-الذهب ده بيععمل هنا إيه؟ المفروض يكون رجع لأصحابه!

أعادت العلبة في مكانها بالرف العلوي، وتابعت حديث نفسها:

-عمومًا ده مش وقته، هتكلم مع ماما في حكايته بعدين، المهم دلوقتي "همسة" وبس.

أوصدت الدولاب وتحركت بخطوات متعجلة إلى خارج الغرفة، أغلقت الباب خلفها، ومنه تابعت سيرها السريع نحو باب المنزل، وهي تأمل في نفسها ألا تكون قد تأخرت على توأمتها.

.....

كل ما شغل حيز تفكيره في تلك الأثناء هو كيفية إحضار النقود المطلوبة دون إضاعة المزيد من الوقت، فالدقائق تكلف كثيرًا في حالة مريض تتوقف حياته على الثمن الذي يدفعه لتلقي العلاج الفعال، كان "تميم" متواجدًا بالدكان أثناء تلقيه للمكالمة الهاتفية، لهذا اتجه إلى الخزانة القديمة الضخمة الموضوعة عند الزاوية ليسحب منها ما يريد من أموال، ركض نحو سيارته، وقادها بتعجل نحو المشفى الذي لم يكن بعيد عنه، وظل على تواصل مع "هيثم" ليعرف منه آخر المستجدات، وعندما بات أمام مدخل المشفى قال له بصيغة أمر: **وعندما بات أمام مدخل المشفى قال له بصيغة أمر:**

-اطلع استناني عند الحسابات، أنا هاركن العربية في الجراج وجاي

رد بتعجل:

-ماشي.

وفي المكان المخصص لركن السيارات، صف "تميم" خاصته به، ثم ترجل منها وهول نحو الدرجات يصعدها دفعات، التقط أنفاسه عند الاستقبال وهو يجوب بعينه القلقتين على الأوجه المتواجدة، أوقف إحدى المرضات يسألها:

-الحسابات هنا فين؟

أرشدته وهي تشير بيدها:

-هتطلع من السلم اللي هناك ده، الدور الأول، آخر الطرقة يمين.

متشكر

قالها وقد شرع يهرول في اتجاه السلم ليكمل صعوده الراكض عليه، وقبل أن يصل إلى الغرفة المنشودة كان "هيثم" ينتظره في الردهة، هلل الأخير فور أن رآه:

- "تميم"! أنا أهوو..

ثم ركض نحوه متسائلاً بتوتر:

جبت الفلوس؟

أجابهُ وهو يخرج من جيبه مظروفاً أبيض اللون وضع به النقود:

أيوه، شوف دول يكفوا ولا محتاج بزيادة

تناول منه المظروف وألقى نظرة خاطفة على المبلغ الكبير قبل أن يغلقه لينظر إليه قائلاً بامتنان:

-كده تمام أوي، الله يكرمك يا "تميم"، مش عارف أقولك إيه، إنت أنقذتني وآ....

لم يكمل جملته الشاكرة له بسبب صوت "فيروزة" المقاطع بحسم:

محدث يتدخل!

التفت كلاهما نحوها لينظرا باندهاش لتلك التي تركض وعرقها الغزير ينساب على جبينها، حتى

خصلاتها تنافرت وتبعثرت بشكلٍ فوضوي، بالطبع ظهر تأثير رؤيتها المفاجئ على "تميم"، إنها نفس

الحففة العجيبة التي تضرب فؤاده وتصيبه بريكة موترة، حَجم من مشاعره التي تضاربت في حضرتها

ليسألها بلهجته الصارمة وهو ينظر إلى عينيها المنزعجتين:

-مندخلش في إيه بالظبط؟ الموضوع عندنا!

رمقته بنظرة حادة، ثم انخفضت نظراتها نحو المظروف، خمنت دون سؤال عما يحتويه، وردت

بشموخ وهي تتطلع إليهما رافضة لإقام أيهما في شئون عائلتها سواء المادية أو المعنوية:

-لأ معلش دي أختي أنا، مالهاش لازمة تتحشروا في أي حاجة تخصنا

هدر بها "هيثم" وقد استفدت طاقته على الاحتمال:

-باقولك إيه أنا آ.....

قاطعته "تميم" بصوته القوي، ومشيراً بيده دون أن تبتعد نظراته المتأملّة عن وجه "فيروزة":

-خلاص، اهدى يا "هيثم"!

رد عليه بنفزة واضحة:

-إنت مش شايفها يا "تميم"؟ كلاهما يفور الدم!

أدار رأسه نحوه يأمره بصوته الأمر دون أن تجبو صرامته:

-روح يا "هيثم" اعمل المطلوب وخلص الإجراءات!

هز رأسه ممتثلاً له، فصرخت به "فيروزة" محتجة:

-استنى عندك!

وكانها تُحادث الفراغ حيث تابع "تميم" إلقاء أوامره عليه:

-نفذ الكلام، ماتقفش!

تراقصت في عينيه نظرة انتصار وهو يرد:

-حاضر.

أوشكت "فيروزة" على اللحاق به وإيقافه، لكن اعترض "تميم" طريقها بجسده، توقفت عنوة حتى

لا ترطم بصدرة بسبب اندفاعها المتعجل، نظرت له شزراً ثم تحركت في الاتجاه الآخر لتتجاوزه،

لكنه سده عليها وقد فرد ذراعيه في الهواء، منحته نظرة نارية من عينيها قبل أن تصرخ به بعصبية:

-ممكن أفهم إنت بتتحرش ليه؟

رد مبتسماً، وكأنه يستفزها بهدوئه:

-مش في رجالة موجودين؟ هما اللي بيخلصوا الحاجات دي، فماتتعبيش نفسك.

غمغمت مع نفسها في حنق، وقد شردت تفكر في جملته الأخيرة ذات الدلالة الواضحة:

-الله يسامحك يا خالي، إنت السبب، المفروض تكون بتجري مكاني!

تأمل "تميم" سكونها اللحظي بنظرات متفحصة، كانت كشمعة من النار الملتهبة ألسنتها، والتي يزداد أوجها بشكلٍ مثير حين تغضب، ورغم هذا كانت تجعل كامل حواسه في حالة استنفارٍ عجيبة، وكأنها تحته بكل ما تملكه من وسائل هجومية على عدم الاستسلام والخوض معها في معركة طويلة الأجل، طالعتة بنظرة غريبة حين رأت نظراته الساهمة نحوها، ثم هتفت بتنهيدة محبطة وذلك التقوس المستنكر يعلو زاوية شفيتها:

-يعني مش معقول، كده كثير بجد.

حافظ على ثبات نبرته وهو يرد:

-معلش استحمليني.

ابتسمت في سخريّة وقد عاد إلى ذهنها مشهدًا ليس ببعيدٍ عنها، حين أخبرتها زوجته بأنه لا يتقبلها مطلقًا، ويكن لها كراهية مفهومة، لم تتحمل سخافة الموقف، وسألته بما يشبه الإهانة:

-للدراجدي إنت منافق كمان!؟

صدمه وصفها الأخير له والمرفوض كليًا، وقال محذرًا وقد اشتدت تعابيره عبوسًا:

-منافق! حاسبي على كلامك.

استرسلت موضحة بكبرياءٍ وقد تصلبت عروقها:

-ما هو مالوش تفسير اللي بتعمله غير كده، أكيد واحد مش طابق يبص في خلقتي، ولا أنا أصلًا بأقبلهن فجأة بقدره قادر جاي يعمل معروف معايا، لأ شكرا مش عاوزين حاجة من حد، الحمد لله ربنا ساترها معانا، وموصلش الأمر إننا نشحت على أختي، لأ ومنك!

تطلع إليها في اندهاشٍ متعجب من الأقاويل التي تملي بها أذنيه، وسيطر على غضبه الذي اندلع كردة فعل طبيعية بداخله، سحب شهيقًا عميقًا لفظه دفعة واحدة، ثم قال بتمهل:

طيب .. أنا مش هسألك على اللي قولتيه ده دلوقتي، أنا مقدر الظروف!

صاحت بنفس النبرة المنفصلة وهي تشيح بيدها أمام وجهه:

-وتسألني ليه أصلاً؟ بصفتك مين؟ ما كفاية مراتك قايمه بالواجب وزيادة

تساءل مندهشاً:

-مراي؟ وهي مالها بيكي؟!!!

نظرت له باحتقار وهي معتقدة أنه يتلاعب بها، ثم قالت بما يشبه السخرية:

-إنت تهزر صح؟ قالوك عني غبية وبرمي بلايا، إنتو الكلام معاكو خسارة

حاولت تخطيه لكنه احتل الطريق بجسده ومنعها من المرور فلم تجد إلا صدره العريض أمامها، وكأنه بذلك يتحداها، رفعت عينيها إليه فوجدت نظراته المحترقة مسلطة عليها، وبصوتٍ بدا مشدوداً سألتها:

-أنا مش فاهم منك حاجة، قصدك إيه بكلامك ده؟

ضجرت من لغوه الفارغ معها، ومن تلاعبه المستهك بعقلها، وكأنه بذلك يضيع الوقت عليها، إذًا لتوقفه عند حده إن كان لا يفهم إلا بلغة العنف، ودون أن يتوقع ردة فعلها شجذت "فيروزة" قواها المنفصلة ودفعته من صدره بكلتا قبضتيها لتمكن من تحريكه من مكانه خطوة للخلف وهي تصرخ به:

-بعدوا عننا بقي، شيلونا من دماغكم!

تفاجأ من قساوتها العنيفة التي حفزته، أصبحت تعابيره متقلصة للغاية، كانت على وشك تكرار نفس الفعلة الجنونية، لكن امتدت يدها لتمسك برسغيها، ثبتها للأسفل مستخدمًا قوته الذكورية الكامنة فيه، وشدَّ بأصابعه وعيناه تنظران مباشرة في حدقتيها المحتدتين، استجمع هدوئه، وضبط غضبه، ثم قال لها بصوته الخفيض:

-لو قصدك على خطوية "هيثم" بأختك، فده اختيارهم، أنا ماليش فيه.

حاولت تحرير يديها من قبضتيه الجامدتين، وهتفت بحنقتها:

-واحنا مش عايزين نرتبط بيكم، افهموا بقي!

أرخی أصابعه عنها فسحبت على الفور يديها للخلف، وبدأت تفركهما، تهد من جديد ثم رفع كفيه أمام وجهها متابعا كلامه:

- ده مش موضوعنا، المهم دلوقتي نطمئن على أختك، مشاكلك مع "هيثم" أو غيره تحلها بعدين. فتحت "فيروزة" شفيتها لترد عليه بلهجة قاسية شديدة لتلزمه بحدوده معها فلا يتجاوز مطلقا تحت أي مسمى، لكن الصوت المألوف المنادي باسمها جعلها تدير رأسها للخلف في اتجاه مصدره غير متوقعة ما أبصرته عيناها !!

.....

الفصل الحادي والثلاثون (الجزء الثاني)

رمشت بعينها عدة مرات لتتأكد من هويته، انفرجت شفتها عن دهشة مصدومة، كان أمر حضوره إلى هنا بالتحديد مستبعدًا عن ذهنها، لم تتصور مطلقًا أنه سيتبعها إلى المشفى بعد لقاءها الحرج معه في المطعم، انطفأت شعلة اللهب الغاضبة الظاهرة على صفحة وجهها ليحل بدلاً منها الارتباك والتوتر، التفتت "فيروزة" كليًا نحوه متناسية وجود "تميم" معها، ورددت بعفوية دون أن تنتقص صدمتها:

إنت ..؟!!

تقدم "آسر" بابتسامته الممقة نحوها، وقال معندراً:

أنا أسف إن كنت مجتث معاكي من الأول..

تأهبت في وقفها وظلت تتطالعه بغرابة وهو يكمل بسمته المرسومة بعناية:

-بصراحة مكوتث متأكد إن كانت المستشفى هنا بتقبل الدفع بالفيزا ولا لآ، فروحت البنك أسحب فلوس كاش..

تفاجأت مما فعله، ورأت تلك الحقيبة الجلدية الصغيرة معلقة في يده، وقبل أن يتم جملة له للنهاية قاطعته بتلعثم خفيف وقد لانت ملامحها نسيًا:

-شكرا يا.. أستاذ "آسر" .. مكانش ليها لازمة تتعب نفسك.

رد معندراً من جديد بهذيب واضح:

تعب إيه بس؟ ده أنا مقصر — خالص، كان المفروض أتحرك بسرعة عن كده وأقف جمبك من البداية.

لم يستسغ "تميم" تلك اللطافة الزائدة منه، كانت مصطنعة للغاية، شعر وهو يتابع حوار الكلامي بسماجة فائضة غير مستحبة زادته نفورًا من ناحية شخصه اللزج، ابتسمت له "فيروزة" مجاملة، ورققت من نبرتها حين قالت:

-كتر خيرك، كلك ذوق.

تصاعدت الدماء بقوة في رأس "تميم" وهو يصغي إلى ردها الناعم معه، هي ليست من النوع المتساهل مع الرجال، بل القسوة عنوان صوتها، وتلك النبرة الأثوية الهادئة استثارت مشاعره بدرجة أكبر، فأصبح في حالة لا يحسد عليها، تنفس بعمق ليضبط انفعالاته التي بدت في حالة ما بين الجنون والغضب الأعمى، كبحها قدر المستطاع علها تحط في أعماقه، نظر لها مليًا بضيق، شعر وكأنها تتعمد استفزازه برقتها الغريبة مع غيره، لذا تنحنح بصوت مرتفع نسبيًا ليلفت انتباهها إلى وجوده فتكف عن إيذائه بذلك الشكل السافر قبل أن يستطرد قائلاً بنبرة جافة مالت للخشونة: -متشكرين يا حضرت، الرجالة عملوا الواجب وزيادة.

استدارت "فيروزة" ناحيته، حدقت فيه بقسوة، اخفت الرقة من تعبيراتها عندما ردت عليه بعبوس:

-لا معلش، أنا مش عاوزة حد من طرفكم يساعدني.

استقام في وقفته الرجولية فبدأ أكثر مهابة وقوة، ثم رد معانداً إياها:

-ودي مش مساعدة يا أبله، ده واجب علينا.

قالت بتبرم، وتلك النظرة الحادة تعلقو حدقتيها:

-وأنا مش محتاجاه.

ثم التفتت ناحية "آسر" تعتذر منه:

-وبرضوه بأشكرك يا أستاذ "آسر" على ذوقك، لكن مستورة والحمدلله.

هتف الأخير بإصرار:

-يا آنسة "فيروزة"، طبعي كلنا نقف مع بعض وقت الأزمات، ماتتكتسفيش مني..

وبجراءة غير مقبولة مد "آسر" ذراعه نحوها، وأمسك بيدها ووضع النقود في كفها بالإجبار، دُعرت من حركته المباغتة ونفرت منه، شعرت بالغضب يجتاحها لمحاولته فرض الأمر عليها، احتقن تورده بشرتها، وردت بجدة وهي تحاول إعادة النقود له دون أن تمسه:

-لا مش هاينفع كده.

شخصت أبصار "تميم" من تجاوزه الوق، ودون تفكير انتشل النقود من يد "فيروزة"، ثم خطى للأمام خطوتين نحو ذلك اللزج ليقطع عليه طريق الود المانع معها بجسده المشدود، حجب عنها الرؤية عن قصد، ووجه نظراته المنذرة إليه، ثم قبض على معصمه، ودس النقود بعنف في راحته قاصداً إيلاومه .. سدد له نظرة نارية أخرى أشد حدة قبل أن يقول بصوت أجوف مهدد يعكس قساوة غريبة:

-هما الرجالة اللي واقفين قصادك دول مش ماليين عينك؟ عين فلوسك في جيبيك

استنكر "آسر" تصرفه الفظ، وقال بوجه ممتنع:

-افندم..؟

زجره "تميم" بنبرته التي اخشوشنت أكثر:

-سمعتني كويس، ولا تحب أعيد؟!

احتجت "فيروزة" على تدخل "تميم" في شئونها، وإن كانت رافضة لذلك التصرف الجريء من "آسر" لإقناعها بقبول مساعدته، ومع ذلك صبت جام غضبها على الأول، ونهرته بتشنج:

-حد كلمك أصلاً؟ ولا طلب منك تدخل؟ ده شيء يخصني أنا

نظر ناحيتها بعينين غائمتين، ورد بجمود:

-أنا بأعمل الأصول يا أبله لو كنتي نسييتي...

ثم تركزت كامل نظراته على وجه "آسر" وهو يستأنف تهديده الصريح له:

-في حاجات ماينفعش أشوفها وأعديها، ويحمد ربنا الأخ إنه حوالينا ناس، وإلا كنت خليته يججز بالفلوس دي سرير في عنبر 6 فوق!

قست تعابير "آسر" وقد فطن إلى كونه يحاول جعل الأمر يبدو استعراضاً للقوة الذكورية، فسأله ببرود متعمداً تحديه:

- ده تهديد يا أخ إنت؟

تقوست شفتا "تميم" عن ابتسامه مغتره وهو يرد:

-أيوه..

أشار "آسر" بسبابته نحوه موجهاً حديثه لـ "فيروزه" ليسألها مباشرة، وبقيت نظراته الساخطة مسلطة عليه:

قبل ما أغلط فيك، قريك ده يا آنسة "فيروزه"؟ أصل أنا ماينفesch حد يهددني بالشكل ده وأسكتله!

ابتسامه استخفاف احتلت شفيتها قبل أن ترد:

-ولا أعرفه!

تحفز "آسر" للاشتباك معه بعد أن أعاد النقود إلى داخل الحقيبة الجلدية الصغيرة، وقال متسائلاً بنبرة تحمل الإهانة:

طب حضرتك بتدخل بصفتك إيه؟! إذا كان الآنسة نفسها متعرفكش! رزالة يعني؟ ولا شو قصادنا؟ يا ريت تفهمنا

اريد وجه "تميم" بغضبه المحموم رافضاً أسلوبه التهكمي المستهون بشخصه وبما يمكن أن يفعله إن فقد أعصابه، وخرجت الأمور عن السيطرة، ثم حدجه بنظرة مخيفة من عينيه اللاتين التهبتا بشدة، ورد بجمودٍ وهو يلكره في كتفه بعنف:

-دي حاجات أكبر من اللي زيك، صعب تعرفها لوحك.

اغتاظ "آسر" من تجريحه الواضح لشخصه وتقليله من شأنه، فلجأ لاستحقاره قائلاً بنظرة متعالية: خلاص أنا كده فهمت النوع بتاعك، إنت من اللي واخدينها بلوي الدراع.

لم يتحمل استهزاء ذلك الغريب به، فحرك "تميم" ذراعه نحوه ليمسك به من طرف سترته باهظة الثمن، جذبته بقوة نحوه، وكأنه خرقة لا يزن شيئاً، عجز "آسر" عن مقاومته أو الابتعاد عنه، كان غليظاً للغاية في تعامله، ثم حذره الأول بلهجة قائمة وعيناه تنظران له بشراسة:

حطب كويس إنك عرفت نوعي، عشان لما بأزعل بيتقى غبي!

على الفور تدخلت "فيروزة" لتمنعه من الاعتداء عليه، وصاحت فيه بنبرة غلفها الصراخ المهدد:

-بعد عنه، إنت ما بتفهمش غير في البلطجة وبس.

هتف "آسر" يتوعده، وهو يحاول تخليصه نفسه من برائنه، وكأنه بذلك يحاول لم كرامته التي بعثرها بسهولة أمامها:

-خذ بالك أنا محامي مهم، أقدر ألبسك تهمة وأنا واقف هنا في مكاني، ده غير إن معارفي كثير، فبلاش اللي زيي يأذيك أحسن.

ضحك "تميم" مستخفاً بجملة المتباهية، وتركه متعمداً المسح على كتف بدلته كما لو كان ينظفها قبل أن يعلق عليه:

-الصراحة خوفت، وهاجيب ورا.. بس مش عشانك، عشان أخت الأبله!

ضاقت نظرات "فيروزة" من عبارته المهمة، في حين عاد "هيثم" من الداخل وقد انتهى من الإجراءات المادية الخاصة بحالة "همسة"، نظر بغرابة إلى الثلاثة المتشاحنين، وتساءل في فضول ليثير انتباههم:

-خلاص يا ابن خالتي، هو في إيه؟!!

وضع "تميم" يده على كتفه وهو يهز رأسه في تفهم، ثم قال ببرود، وعيناه تحدقان في وجه "آسر" بتوعدٍ مريب:

-بيننا يا "هيثم"، وقفنا هنا مالهاش لازمة.

تحركت "فيروزة" لتعترض طريقه، ثم هتفت فيه بصوتها الغاضب:

-استنى إنت رايح فين؟

أخرجت النقود من حقيبتها ورفعتها أمام وجهه متابعة بشراسة:

-خذ فلوسك اللي دفتها، أنا ما بشحتش .. !

ثم سحبت شهيقًا سريعًا لتكمل به هجومها عليه:

-ولا دي حركة متفق بيها مع مراتك عليا عشان تعايرونا بيها بعدين؟!

رمقتها "تميم" بنظرة مستنكرة، مزعوجة، غريبة، نافذة، ومليئة بالغموض، لم تفهم طريقة تحديقه بها،

واغتاضت أكثر عندما دفع ابن خالته للجانب ليبتعدا عن طريقها وهو يأمره:

-يالآ..

صاحت من خلفه بصوتها المرتفع:

-فلوسك هترجعلك، سامعني.

تجاهلها مرغمًا ليتابع سيره، بينما حملت "فيروزة" في ظهره وهو يبتعد بنظراتٍ مغتاضة، ودمدمت

قائلة لنفسها:

-أنا مشوفتش في حياتي كده!!

ظلت نظراتها تتبعه إلى أن هبط الدرجات واختفى، في حين هندم "آسر" من سترته التي فسد

مظهرها مرددًا بعض العبارات المنزعجة، فاستدارت "فيروزة" ناحيته لتقول معذرة عن وقاحة ذلك

البلطجي معه:

-أنا أسفة يا أستاذ "آسر"، إنت اتخطيت في الموقف البايخ ده بسببي، مش عارفة أقولك إيه!

رد مبتسمًا وهو يحرك رأسه للجانبين:

-ولا يهملك، أنا غرضي أساعد و...

ودون أن تسمع باقي جملته قاطعته في امتنان:

-أنا مقدره ده.. وبأشكرك على اهتمامك.

سألها في جدية:

طيب أختك فين دلوقتي؟

خرجت تهيدة بطيئة من جوفها قبل أن ترد:

-هاروح لماما أشوف الوضع إيه.

استأذن منها بأسلوبه اللبق:

طب تسمحي لي أكون معاك؟ يعني عشان لو عوزتي حاجة، ماتبقيش لوحداك وكده.

تخرجت من وجوده والذي لن يكون مقبولاً بالمرّة بالنسبة لعائلتها، ناهيك عن ظرافة "حمدية" اللا متناهية، والتي ستسعى لاستدراجه واستخراج المعلومات منه، كما لو كانت تعمل (خاطبة) بما سيزيدها حرجاً، لذا حاولت التملص من عرضه، وقالت بجدية:

-أهلي كلهم هنا، اطمئن.

لم يجد بداً من الإصرار أمام رفضها الواضح، فرد في استسلام:

-أوكي يا آنسة "فيروزة"، مش هاضغط عليك، لكن لو عوزتي حاجة، فأنا في الخدمة.

رانت على شفيتها ابتسامة لطيفة وهي تشكره:

-ميرسي ليك يا أستاذ "آسر".

بادلها ابتسامة ودودة قبل أن يطلب منها راجياً:

-أتمنى نشيل التكليف بينا، يعني أنا باعتبار نفسي دلوقتي صديق ليكي .. وآ.. وللعيالة.

ضغطت على شفيتها في تردد، وقالت بحسم:

-أفكر إن كده أحسن، يعني منعا للمشاكل، وحضرتك شوفت النوعية الناس اللي عايشين معاهم إيه

قال بما يشبه التغزل بها:

-بس إتي غير أي حد، مختلفة، ومستقلة، وشخصيتك حلوة.

لم تعرف بماذا تعقب عليه، فقالت وهي تحاول الابتسام:

-شكرا، هستأذنك هاشوف أختي.

-تفضلي، وإن شاء الله تبقى كويسة.

لم يمد تلك المرة يده لمصافحتها حتى لا تخرجه، واكتفى بتوديعها بعباراته المهذبة ليبدو حينما تستحضر- صورته في ذهنها المحامي المحترم، لوحته له بيدها وظلت متمسرة في مكانها لبعض الوقت، وكأنها قد عادت لتستغرق في أفكارها المهمومة من جديد .. لم تعلم "فيروزة" بوجود من يراقبها من على السلم، أصر "تميم" على البقاء تاركا "هيثم" يعود بمفرده، ووقف في بقعة تمكنه من متابعتها دون أن تلتقطه عينها، توجهت غرائز الفتك والعنف بداخله وكأنه في معركة البقاء للأقوى، كبح ما يعتريه بمجهود عنيف، أنبئه حدسه بعد ملاحظة ما يدور من تلميحات وحركات مفتعلة بأن وراء تلك التعابير الوديعه لذلك الرجل ثعلبًا مأكرا، ولم يخطئ إحساسه -بشأن أحدهم- يوما.

.....

اتجه عائداً إلى منطقة الجلوس الخاصة بأهالي المرضى في الردهة الواسعة، جاب بعينه على أوجه المتواجدين باحثاً عن عائلته، كانت "بثينة" تتخذ المقعد الخلفي وإلى جوارها ابنتها، سار "هيثم" صوبها وجلس على يسارها ليلتقط أنفاسه، سألته الأولى بفضولٍ وبنبرة أقرب للهمس وهي تتفرس في قسامته المرتخية بشكل ملحوظ:

-كنت فين كل ده؟

أجابها بزفير مرهق:

-موجود يامه هاروح فين.

سألته بنجبت وذاك الوجه يحتل عينها:

-ها عرفت تتصرف في فلوس؟!!

هز رأسه يجيبها بغموض:

-أه الحمد لله

لم تتقبل مراوغته في الكلام، فألحت عليه بنظرتها المتشككة:

-منين يعني؟

رد بعفوية ودون أن يفصح عن مصدر مساعدته:

-من باب الله.

ابتسامة غير مريحة داعبت شفيتها وهي تحاصره بأسئلتها:

-قولي، استلفت من جوز خالتك؟ مضبوط؟ إنت روحت كلمته؟

نفخ يجاوبها في سأم:

-يامه متركيزيش في الحاجات دي، وادعي ربنا يقوم "همسة" بالسلامة.

زمت شفيتها محتجة بقنوط:

-وأدعيلها ليه؟ ما أمها موجودة! هي عدمتها؟

نظر لها بعينين تلومان قساوة مشاعرها، وعاتبها بضيقٍ ظاهر في نبرته وملامحه:

-الله يامه، لله! ادعي لله!

ضجرت "خلود" من مكوثها غير المجدي، فنفضت من مكانها وعلقت حقيبتها على كتفها لتقول بنبرة

عازمة مستخدمة يدها في التلويح:

-بأقولك إيه يامه، أنا هاروح البيت ألحق أعمل لقمة لـ "تميم"، أعدتي هنا زي قلتها.

رد عليها "هيثم" من تلقاء نفسه ودون أن ينتبه:

-لأ متتعبيش نفسك، جوزك موجود هنا.

وكان يدها لامست سلكًا مكشوفًا يسري فيه التيار الكهربائي فأصابعها بصاعقة مميتة، حدث ما لم

يخطر على بالها، أو تضعه في الحسبان .. انتفض كامل جسدها وتخشبته في مكانها ساهمة للحظة

قبل أن تفيق من دهشتها الكبيرة، حدثت فيه بعينين جاحظتين، ثم عاجلته متسائلة بوجه شاحب وأغلب مخاوفها تقطم رأسها حالياً:

- أنت بتقول إيه؟ جوزي بيعمل إيه هنا؟

أدرك "هيثم" أنه بغائه وتسرعته تلفظ بجماقة ربما تكشف فأمره فبادر يصلح خطأه بالإدعاء كذباً:

- اقصد.. أنا شوفته مع جوز خالتي، والبت أخت "همسة"، كانوا بيتكلموا سوا.

هتفت "خلود" بصوت مرتجف وقد أصبح الهواء ثقيلاً عليها:

- هاه! بيتكلموا سوا؟

أكتفى بهز رأسه فتضاعفت مخاوفها، هربت الدماء من عروقها وقد تحقق ما خشيت منه وحدث اللقاء بينهما، فماذا إن تهورت تلك الحقودة وأخبرته بإساءتها إليها؟ أو ما نطقت به لها على لسانه؟ حتماً ستقع في مأزق كبير، ازدحم رأسها بهواجسها المدعورة، ولم تعد قادرة على تمالك نفسها، تشوشت الرؤية لديها وشعرت بظلام غريب يغلف عقلها، وما هي إلا لحظة ومادت بها الأرض لتسقط فاقدة لوعيتها.

.....

كانت الغرفة غارقة في الهدوء إلا من صوت أنفاسها المنزعجة، ألقى "بثينة" نظرة متحسرة على ابنتها التي ما زالت نائمة على الفراش في حالة سكون عجيبه وإن كانت لا تشكو من شيء جدي، مجرد توتر زائد أثلف أعصابها، تأهبت في جلستها حين سمعت صوت أنينها الخفيض، مالت نحوها ومدت يدها لتمسك بكفها المسنود إلى جوار جسدها المسترخي، واستطردت تنوح في سخط:

- كان مالك بالهم ده يا بنتي؟

مسحت بيدها الأخرى على جبينها حين أدارت رأسها نحوها، ابتسمت في حاس و قد رأتها تحاول فتح جفنيها، نادى عليها بتلهف:

- يا "خلود"! سمعاني يا بنتي؟

ردت بوهن:

-أيوه يامه.. أنا فين؟

جاوتها بجنوي:

إنتي يا حبة عيني وقعتي فجأة من طولك قصادنا، وتقلناكي على الأوضة دي عشان نشوف جراللك إيه.

ابتلعت ريقها في حلقتها المرير، وتساءلت بصوتها الضعيف:

- "ت.. تميم" يامه..

أجابت بتبرم وكأنها غير راضية عنه:

مع الضاكتور به ييطمن منه عليك.

سألته في خوارٍ وقد وضعت يدها على رأسها ال:

عرف حاجة عن خناقة النهاردة؟

قالت وهي تهز كتفها بالنفي:

-مافتكرش، وبعدين هو احنا في إيه ولا إيه! ما كفاية المصايب اللي نازلة على دماغنا من الصبح.

دقة خفيفة على باب الغرفة جعلت الاثنتان تتوقفان عن الحديث الخافت، وابتسامته متفائلة ولجت

ممرضة رشيقة إلى الحجره، نظرت في عدم تصديقٍ حين أمعنت النظر في وجهيها المألوف، وهتفت

ترحب بهما:

-مش معقول خالتي "بثينة"، والله ما أعرف إنكم اللي هنا، ألف سلامة على "خلود".

نهضت "بثينة" من مكانها لتحتضن الممرضة "عائشة" والتي تربطها معرفة جيدة بوالدتها الخياطة،

حيث كانت تأتي إلى منزلها ومعها الأقمشة المزركشة لتقوم بجياكتها لها، ابتهجت الأولى، وقالت في

حبور:

-الدنيا صغيرة بصحيح يا بت يا "عيشة"، مجاش في بالي إنك شغالة هنا.

أخبرتها عن أحوالها باستفاضة:

-أنا لسه منقولة بمقاليش شهرين للمستشفى دي، حبوا يكرموني فجابوني هنا، والحمد لله أنا مبسوطة.

ربتت على ظهرها تدعو لها:

-ربنا يكرمك بالأحسن.

عادت "عائشة" لتطمئنها بثقة:

-متقلقيش يا خالتي على "خلود"، دي حاجة عادية، خليها ترتاح وماتضغطش على نفسها، مافيش حاجة مستاهلة

زمت شفيتها وعلقت:

-قوليلها، دي واخدة كل حاجة على أعصابها ومغلباني معاها

أضافت تؤكد لها:

-عمومًا الدكتور هيجي يشوفها تاني وهيكتبلها على خروج.

تهدت تدعو لها مرة أخرى:

-ربنا يصلح حالك وفرح بيكي قريب.

تصنعت العبوس وعقبت عليها:

-أه والنبي ادعيلي، لأحسن حاسة إني هافضل كده من غير جواز.

لكزيتها بخفة في جانب ذراعها وهي تضيف بهكم:

-ياختي اللي اتجوزوا خدوا إيه غير المهم والنكد

أخفضت نبرتها لتقول في دلال وتلك اللمعة تكسو نظراتها المرحة:

-بردك يا خالتي.. حد يقول للجواز لأ.

ابتسمت "بثينة" وهي ترد:

- ماشي يا "عيشة" ..

اقتربت الأخيرة من "خلود" لتتابع سريان المحلول في الإبرة الطبية الموصولة برسغها، وألقت نظرة عابرة على "هيثم" الذي دخل الغرفة متسائلاً باهتمام:

- عاملة إيه دلوقتي يا "خلود"؟

ردت بوهن:

- الحمد لله، فين "تميم"؟

جاوبها مازحاً حتى يخفف من توتر الأجواء:

-يجيب أكل وجاي، ما هو احنا ماشاء الله علينا، معسكرين كلنا هنا، اخدين المستشفى مقولة لينا.

سألته "بثينة" على مضض:

-وانت طبعا كنت لازق للمحروسة وأهلها

قال بشفاه مقلوبة:

-أيوه يامه، والحمد لله خرجت بالسلامة من العمليات

أضافت بنبرتها الساخطة:

هي يعني كانت أول واحدة تعمل الزايدة؟ إنت بس اللي مدلوق عليهم.

هتف محتجاً وقد ارتفع الكدر في عينيه:

-مش خطيبي يامه، ده الواجب!

انتهت "عائشة" من مهمتها الروتينية، وقالت بابتسامتها وهي تضع يدها على كتف "بثينة":

حبيب يا خالتي أستأذن أنا.

رمقتها بنظرة ذات مغزى قبل أن تأمرها:

-استني يا بت.

أرادت الأخيرة أن تظهر بمظهرها السخي معها، لذا تحركت صوب "هيثم" وأمسكت به من ذراعه، سحبته نحو الزاوية وهمست له:

-شوفلي معاك عشرين جنية كده.

تقلصت تعايره، وسألها مندهشًا:

ليه يامه؟

قالت بلهجة صارمة، لكنها خافتة، وهي تكز على أسنانها:

-هاتهم بس.

دس "هيثم" يده في جيب بنطاله الخلفي وأخرج من حافظته ورقة بفتة العشرون جنية، ثم ناولها إياها، طوتها "بثينة" في راحتها، ورسمت تلك البسمة المستهلكة على شفيتها وهي تدنو من "عائشة"، ثم تأبطت في ذراعها لتدفعها للسير معها، وما إن وصلت أعتاب الغرفة حتى وضعت في راحتها المغلقة النقود، واستطردت قائلة بالحاح:

-خدي دول يا حبيبتي

تصنعت الحرج منها، وردت:

-مالوش لازمة، خيرك مغرقني يا خالتي.

أصرت عليها بتجهم زائف كتعبير عن عدم تقبلها للرفض:

يا بت ينفعوا في مواصلاتك، هما دول حاجة

أخذت "عائشة" النقود منها ووضعتها داخل جيب معطفها الأبيض وهي تشكرها:

-تسلميلي يا رب.

علق "هيثم" متبرمًا بعد أن رحلت المريضة:

-مش لازم الفنجرة الكدابة دي يامه!

نظرت له بتنمرٍ قبل أن توجه:

-ملكش دعوة.. أنا بأعملنا قيمة.

أخفض صوته وقال متهمًا:

-من جيبي!

تنفس بعدها بعمقٍ، وأضاف:

-بأقولك إيه يامه أنا هاروح أشوف "همسة" فاقت ولا لسه.

وبخته بنفس أسلوبها الذي يكيل بمكيالين:

-ياخويا اتنيل اقعد جنب أختك اطمن عليها الأول، مسريع على إيه!

رد في انزعاج، وقد ظهر على تعابيره علامات الاستياء:

-ما جوزها معاها، أنا هاعملها إيه

صاحت مستنكرة:

-هو فينه ادلعي ده؟ محدش شاف طلته البهية.

أولاها ظهره وقد بدأ يتحرك نحو الخارج:

-زمانته جاي.

ارتفعت نبرتها القانطة لتلاحقه حين خرج من الغرفة:

طبعًا يجيب طفح للي ما يتسموا.

أدار رأسه للخلف لينظر نحو باب الغرفة بنظرات مستهجنة، ثم هتف لنفسه ساخرًا، وكأنه يهزأ

بقولها:

-أل يعني هيطنفحوا لواحدهم، ما إئتو قبلهم!

.....

-دي اللي عملناها للست إياها من يومين يا دكتور؟

تساءل أحد الأطباء بتلك العبارة وهو يضع نظارته على أنفه قبل أن يغوص في مقعده ليتابع باهتمام تفاصيل إحدى العمليات الجراحية التي قام بها لإحدى السيدات اللاتي بلغت من العمر أربعين سنة، رد عليه زميله بجديّة، وقد كان مكلفًا بمتابعة وضعها الصحي:

-أيوه، للأسف سنها كبير، مع الجراحة دي كمان فرصها للإنجاب هتقل.

قال في أسف:

-ربنا يتولاها.

في تلك الأثناء، أتت المريضة "عائشة" لتستدعي أحدهما لمخاطبة مدير المشفى لأمر عاجل، ودون قصدٍ منها أرهفت السمع لحديثها الغامض منتظرة أن ينتهيا منه، لفت انتباهها حين أضاف الأول متعجبًا:

-مع إن عملية الزائدة تعتبر حاجة بسيطة اليومين دول، لكن مكوناش هنشوف ده ونعرف، أكيد ربنا ليه حكمة محدش عارفها.

علق عليه زميله موضحةً:

-التكيسات عندها على المبايض عالية، وحتى بالعلاج المكثف برضوه مش هاتخلف، فرصتها ضعيفة أوي.

رددت في نفسها باستغراب:

-يا ترى بيتكلموا عن مين؟

وقبل أن تشرّد في أفكارها الحائرة رفع الطبيب الأول أنظاره نحوها متسائلًا:

-خير؟ في حاجة يا "عائشة"؟

أجابته بركة طفيفة:

-سيادة المدير ايزك يا دكتور.

أشار لها بيده قبل أن يرد:

طيب أنا جاي وراكي.

لم تكن "عائشة" لتلقي بالألتك الحالة المهمة أو تعباً بتفاصيلها لولا أن رأت "هيثم" يستوقف نفس الطبيب الذي يسير معها ليستعلم منه عن حالة أجرت الزائدة الدودية اليوم مما استرعى فضولها، انقبض قلبها فجأة وقد حُيل إليها أنه يتحدث عن الحالة الميؤوس من إنجائها، بهتت ملاحظها وقالت لنفسها في جزع وعيناها ترتكزان عليه:

-يا نصيبي لو طلعت خطيبته!

.....

دموعها الحارقة كانت سلاحها الفعال الذي ينجح دومًا في استرقاق قلبه واستماتته نحوها، بكت "خلود" في لوعة تشكو له انعدام الأخلاق لدى "فيروزة" لتبادر باتهامها بإفساد الخطبة قبل أن تكتمل متمنية التعاسة لشقيقتها الوحيد، فما كان منها إلا محاولة منعها في فرض سطوتها على أختها قليلة الحيلة، حقًا كانت بارعة في إعادة سرد المواقف وتطويعها لتضعها في قالب الضحية المتجني عليها، وضعت يديها في حجرها بعد أن أسندت الوسادة خلف ظهرها، وقالت مجازفة وهي تسبل عينيها نحوه:

-أنا حتى خوفتها بيك، بس ولا همها حد.

أرادت بتلك الجملة الضمنية أن تتبين مدى معرفته بتفاصيل المشاجرة التي دارت بينهما في المطعم، لكنه نطق بغموض لم يشعرها بالارتياح وهو يفرك أصابعه معًا:

-ماشي يا "خلود"، هنتكلم بعدين.

لم تعرف ما الذي يشغل تفكيره ل يبدو بذلك الوجوم المثير للريبة، كانت عضلات وجهه مشدودة، نظراته غائمة، حتى صوته كان مغلقًا بالقتامة، بلعت ريقها وسألته بحذر:

-إنت كويس؟ في حاجة مضيقاك يا حبيبي؟ أنا بخير متقلقش..

لم ينظر نحوها "تميم"، وأكتفى بالتحديق أمامه، لكن تقلصت تعايره حين أجابها بسؤالٍ مبالغت:

-إنتي قولتيها إيه بالضبط؟

اصفر وجهها وهي ترد بصوت مهتز:

قولت لمن إيه؟

أدار رأسه ناحيتها، ثم ثبت عينيه المغلفتين بظلمة مُقلقة عليها وهو يوضح:

-للأبلة .. "فيروزة"!

عادت الدماء الهاربة لتغزو عروقها باندفاع غاضب حين رددت شفاته اسمها من جديد، شعرت بتلك الحرقه تجتاح أحشائها عندما تطرق لسيرتها، استشاطت غيظًا وكدًا، وبلا وعي صرخت تهاجمه بعصبية:

-إنت بتنطق باسمها تاني قصادي؟ إنت عاوز تجنني؟ في إيه بينك وبينها؟ ولا الموضوع جاي على هواك؟

هب واقفًا من جلسته ليطالعه بنظراتٍ قوية نفذت إليها وأرعبتها، ثم أشار لها بسبابته وهو ينذرها بنبرة اكتسبت صرامة شديدة متعمدًا تكرار ترديد اسمها مجردًا دون ألقاب:

-لآخر مرة بسألك، قولتي لـ "فيروزة" إيه؟!

.....

الفصل الثاني والثلاثون (الجزء الأول)

ما عادت تعلم سوى أن نارا اسمها "فيروزة" قد اشتعلت في عروقها وحفزت جميع مشاعرها الثائرة لتبدو أكثر غضبا، جموحا، وعدائية .. انترعت "خلود" الإبرة الطبية الموصولة في رسغها لتنهض عن الفراش، تقدمت نحو زوجها ووقفت تتحداه بعينين تجبسان دموعا حارقة، ثم هدرت تعنفه بكل غضبها المستعر في كيانها:

-إنت بتنطق اسمها ثاني؟

سحب نفسا مطولا يثبط به أي بادرة غضب تلوح في الأفق، كان مدرگا لخطورة غضبه الذي بات على المحك، زفر ببطء، ونظر لها مليا قبل أن يرد ممتعضا:

-خيروي الموضوع، وامسكي في الهايف!

وضعت يديها على صدره، رفعتها بتمهل لتطوق عنقه، وتطلعت إليه بنظراتها الملتهبة، ثم صرخت فيه وقد امتزج صوتها الحاد مع نحنة بكائها:

-إنت ليه مش حاسس بيا؟ عارف إني بأحبك وبأغير عليك من الهوا الطاير، ليه بتختبرني بيها كل شوية؟ ليه بتعذبني معاك؟ ده أنا بأموت فيك يا "تميم"

أراحت رأسها على صدره، وحاولت احتضانه لتؤثر عليه بمشاعرها المضطهدة، لكنه أمسك بمعصمها قبل أن يلتفتا حوله، أبعدهما بالإكراه لتنظر له مصدومة، ثم تركها وتحرك مبتعدا عنها ليتابع سؤالها بوجهه المتهجم:

-برضوه مجاوبتيش عليا، قولتلها إيه؟

أدركت أن سلاح دموعها الحزينة لن يجدي معه تلك المرة، لتنتقل إذا لشيء آخر يُحدث أثره عليه، تهدل كتفها وارتدت قناع التعاسة لتجيبه بصوت خفيض مهموم وهي تمسح دموعها:

لو ده هيريجك فأنا اتكلمت معاها يا حبيبي، قولتلها تبعد عنك.. أظن ده من حقي...

لكن غلف صوتها قساوة مخيفة وهي تكمل:

-بس باللغة اللي تفهمها أمثالها!

كاد يسير كل شيء على ما يرام لولا جملتها الاعتراضية الأخيرة، كانت السبيل لكشف الجانب المعتم من شخصها الذي لم يعهده، لم تكن بالزوجة الطيعة المحبة الودودة التي تفيض مشاعرها حبًا وحنانًا، بل بدت لأول مرة غريبة عما اعتاد عليه، وكأنه يتعرف عليها من جديد؛ شخصية مناقضة لما عاشرها تتسم بالشراسة والأنانية، صراع رهيب مليء بالتخبط والحيرة دار في رأسه تلك اللحظة، أليست تلك الصفات العدائية ما تزججه وتثير جنونه إن صدرت من "فيروزة"؟ إذا لماذا لا يتقبلها من زوجته وهي تمتلك كافة الحق لتدافع عن زواجها إن شعرت أنه مهدد من قبل أحدهم؟ أرجأ ما ينتاب عقله مؤقتًا لحين صفاء ذهنه، وصاح معترضًا على ما قامت به، وإن كان بنية حسنة:

-إنتي عملتيلي مشاكل معاها يا "خلود".

ردت غير مبالية، وتلك النظرة الحاقدة تكسو حدقتها البراقتين:

-المهم إنها تبعد عنك ومقربش منك، إنت جوزي أنا وبس.

احتج بضيقٍ على تسلطها المبالغ فيه:

-أنا ما فيش بيني وبينها حاجة عشان تتصرفي كده، وبطلي أوهام في خيالك التعبان ده.

عاد الحنق ليندفع فيها وصاحت تهاجمه باستنكار:

-دلوقتي خيالي بقى تعبان ومش عاجبك؟ طبعا لازم تدور على العيوب اللي فيا عشان تدافع عنها، وتطلعها ملاك، لكن أنا مراتك حبيبتك فيا العبر كلها!

ضجر "تميم" من قلبها المستمر للحقائق، وهتف يندرها وقد ضاق ذرعًا بتبئيس عقلها:

- "خلود" بلاش تسوئي فيها أحسنك.. أنا لحد دلوقتي بأتكلم بالعقل! بلاش تخرجيني عن شعوري.

ارتفعت نبرتها أكثر لتبدو أكثر حدة وهي تسأله:

قول هتعمل إيه أكثر من كده؟!!!

طالعتها بنظرات غائمة غير مفهومة، أحبط قليلاً مجيء "بشينة" شجاره المحتدم معها، حيث التفت ناحيتها وهي تتساءل في قلق:

-في إيه يا "خلود"؟ صوتكم واصل لبرا ليه؟!

جلست ابنتها على طرف الفراش واضعة قبضتها المتكورة على خدها، لتبدو وكأنها مغلوبة على أمرها، زفيرٌ ثقيلٌ خرج من بين شفثيها وهي ترد باقتضابٍ مكفهر:
-مافيش يامه.

وقفت "بثينة" قبالة زوج ابنتها ترمقه بنظرات عدوانية، وسألته مباشرة دون أن يطرف لها جفن:
-هو "تميم" زعلك تاني؟

نفخ الأخير بصوتٍ مسموعٍ كتعبير عن استيائه من تدخلها غير المستساغ في حياته الزوجية، ثم تحرك في اتجاه النافذة ليستنشق بعض الهواء المتجدد حتى لا ينفجر بكبته، تابعته "خلود" بنظراتها المراقبة، تنفست بعمقٍ لتعود إلى طبيعتها المسالمة المستكينة، وأجابت ببسمة رقيقة منمقة:
-أ.. ده بالعكس بيحبني جدًا ويتمنالي الرضا

أدار "تميم" رأسه نصف استدارة ناحيتها ليرمقها بنظرة استنكارٍ، ثم حلق في مشهد الطريق الذي تطل عليه النافذة، بينما تساءلت والدتها في عدم اقتناع وعيناها تتفرسان وجهه:
-أومال مش باين كده؟

ظلت ابتسامتها كما هي عندما استرسلت تجربها:

-أصل أنا كنت عاوزة أمشي من المستشفى وهو مصمم أفضل هنا، إتني عارفاني مش برتاح إلا في بيتي ومع جوزي حبيبي.

هز "تميم" رأسه في استهجان وهو يصغي إلى أكاذيبها، لو لم يكن طرفًا في ذلك المشهد الهزلي لصدق بسهولة كذبتها، رفت ابتسامة مستهزأة على زاوية شفثيه، بدا مدهوشًا بقدرتها على الالتفاف حول الأمور، ومزعوجًا من مهارتها الخفية في تزييف الحقائق، حقًا كانت تُجيد فعل ذلك وبوسائل إقناع فعالة فتتطلي خدعها ببساطة على المستمع إليها، وبالطبع ستكسب عطف وشفقة الآخرين، في نظره تحول ذلك الحب المستفيض الذي تعبر لأمها عنه إلى مسخ منفر، وحاول أن يرغم نفسه على عدم الإنصات لها حتى لا يتصرف بجهالة، أراد أن يحكم عقله أولاً، نظرة عابرة ألقاها

للممرضة "عائشة" التي هرعت تُنادي في تعجلٍ من على أعتاب الغرفة وهي تجوب بعينها باحثة عن أحدهم تحديداً:

-يا خالتي.. فاضية شوية، عاوزاكي في كلمة على السريع.

استدارت "بثينة" نحوها، وسألها بنبرة مهتمة:

-خير يا "عائشة"؟ في حاجة؟

سحبته إلى خارج الغرفة لتتمكن من الاقتراب بها، ثم سردت عليها ما سمعته بخذافيره سواء داخل غرفة الأطباء أو خارجها حين تبادل ابنا الحديث مع ذلك الطبيب، لطمت "بثينة" على صدرها وقد وجف قلبها، وحملت فيها بعينين متسعيتين وهي تردد في جزع:

-داهية لا تكون هي!

علقت عليها "عائشة":

-أنا قولتلك اللي أنا سمعته، بس الله أعلم إن كانت هي ولا لأ، وحاولت أطأس وأعرف وطلع مافيش حد عمليات النهاردة للزايده غيرها، شوفوا هتعملوا إيه.

كانت ابتسامتها مبتورة وهي تشكرها:

-كثر خيرك، معروفك ده معايا مش هنسهولك أبداً.

برزت أسنانها الفاقدة للبياض الناصع من خلف ابتسامتها الخبيثة قبل أن ترد مجاملة:

-أنا في الخدمة يا خالتي.

تسمرت "بثينة" لدقائق في مكانها ونظراتها شاردة، كانت تعيد تكرار ما سمعته في عقلها وكأنها تمحصه وتختبر صحته، نفضت ما يزدحم به عقلها من أفكارٍ متداخلة حين وصلت إلى تفسير يُرضيها، وقالت لنفسها في ازدراءٍ واضح:

-يعني أختها بومة ومطلعة عينيا، وهي أرض بور مها تزرع فيها مش هتطرح.. لأ وبينتنطوا علينا كمان! ..

توحشت نظراتها، وأضفت بنبرة عازمة:

أنا ليا لي كلام مع "هيثم"، الجوازة دي مش هاتكمل!

.....

أنا مش هاقبل بالفلوس دي يا حاج، ممكن ترجعهم لابنك.

قالتها "فيروزة" بإصرارٍ وقد امتدت يدها برزمة نقود مطوية نحو "بدير" الذي وقف معها خارج غرفة أختها المسجاة على الفراش ليتبادلا الحديث الجاد، نظر لها مطولاً في حيرة، فأخبرته موضحة بخرج:

- هو راح الحسابات يدفعهم مع قريكم الثاني.

ابتسم في لطافة، ورد ببساطة حاسماً الأمر من جانبه:

طالما هو اللي دفعهم فأنا مش هاينفع أخدم منك، ابني مسئول عن تصرفاته!

تجهمت تعبيراتها عندما عقبته عليه:

- وهو مش راضي!

أضف بهدوءٍ ليشير لمروءته:

- بصراحة وماتزعلش يا بنتي، هو معاه حق، في الأصول "تميم" محدش يقدر يراجعه!

هتفت معترضة ودون أن يعلو صوتها:

- وهو يصح واحد غريب عننا ي....

قاطعها بتروٍ محاولاً إقناعها بالتراجع عما تفكر فيه وهو يبعد يدها الممسكة بالنقود للخلف لتضعها في حقيبتها:

- ماتأزميش نفسك، الموضوع مش مستاهل، دي حاجة بسيطة بنعملها مع أي حد نعرفه.

أصرت على موقفها موضحة له:

-دي مسألة مبدأ عندي يا حاج "بدير"، احنا متكفلين بنفسنا.
كان من البادي عليها عنادها غير المستسلم، لذا هتف منهيًا حوارهما:
-عامة يا بنتي ده لا مكانه ولا وقته، نظمن على أختك الأول.
ضغطت على شفيتها في حرج من دعمه الأبوي الكبير الذي تفتقده في حياتها، وابتسمت تشكره
في امتنان:

-أنا أسفة إن كنت تعبتك معانا وشغلناك طول اليوم
رد برزاة تليق بشخصه:

-ده واجبي.

تلفتت "فيروزة" حولها متسائلة في حيرة:

-أنا بأدور على خالي مش شيفاه.

أجابها "بدير" وهو يجول بنظراته على الردهة:

-كان هنا من شوية، تقريبًا خد مراته وأمك ومشيووا.

أخرجت هاتفها المحمول واتصلت بوالديها لتستعلم منها عن مكانها فأخبرتها في تعب:

-معلش يا بنتي، أنا مشيت مع خالك من غير ما أقولك، بس عشان قالي أجهز هدموم لأختك تغير
فيهم، وأنا شوية وراجعة.

وضعت "فيروزة" يدها أمام فمها لتخفي شفيتها وهي تقول لها:

-ماشي يا ماما، المهم إنك كويسة

ردت بنبرة مرهقة:

-الحمد لله، خليكي جمبك أختك ماتسيديهاش.

تنحنحت مؤكدة لها:

-اطمني.. أنا معها.

أنهت المكالمة واستدارت برأسها لتحدق في وجه الحاج "بدير"، ثم عللت بسذاجة حتى لا تُظهر حنقها من فرار خالها الاعتيادي بأي حجة تناسبه:

-ماما تعبت من مجهود اليوم، وكان عايذة تجيب هدموم لـ "همسة"، فخالي خدها يوصلها.

هز رأسه في تفهم وهو يرد:

-الله يكون في العون.

لم تنكر "فيروزة" أنها شعرت بضيق مقيت يجتاحها بسبب اختفاء خالها المفاجئ -والمعتاد في نفس الوقت- حين يكون الأمر مرتبطًا بالمسائل المادية، لم تكن مرته الأولى التي يختفي فيها من الوسط المحيط حتى لا يتورط في دفع أي أموال. عاودت وضع النقود في حقيبتها بعد أن يُست من مساعدة الحاج "بدير" في مسألة إعادتها إلى ابنه، ثم ادعت الابتسام لتقول له:

-أشكرك من تاني على وقفك معانا، تقدر تمشي— يا حاج "بدير"، احنا مش محتاجين حاجة دلوقتي، "همسة" بقت كويسة وأنا موجودة معها.

رد بجرح طفيف مستخدمًا عكازه في الإشارة:

طيب يا بنتي، وأنا بردك مش هاسييك، هتابع معاكي كل شوية.

ابتسم تودعه في امتنان:

تسلم يا رب.

استندت "فيروزة" على الحائط بظهرها وشعورها بالإحباط يتغلغل فيها، فقد أظهرت لها المواقف التي تمر بها معادن الرجال المتباينة، وبالطبع خالها يحتل المرتبة الأخيرة في قائمة الأكثر رجولة إن لم يكن خارج التصنيف.

.....

بوخزٍ وتأويها خافتة تملت "همسة" في الفراش وقد انسحب كامل تأثير المخدر من جسدها لتعاود فتح عينيها في تعبٍ، تطلعت أمامها فلم تجد أحدهم بغرفتها المتسعة، أنة موجوعة انطلقت من بين شفيتها وهي تحاول التحرك، رفعت يدها لتضعها على جبينها، اعتصرت ذهنها محاولة استعادة المشهد الأخير، كان آخر ما تتذكره هي تلك الآلام المبرحة التي فتكت بجانبها وهي تستلقي على الطاولة المعدنية بغرفة العمليات، أدارت رأسها لجانبها الأيمن وقد سمعت الصوت الناعم يناديها:

- "هموسة" حمدلله على السلامة، كده تخضينا عليكي؟

أبصرت توأماتها وهي تسحب المقعد لتجلس إلى جوارها بعد أن قبلت أعلى رأسها، واصلت الأخيرة القول بجمايس:

-الدكتور طمنا، كلها يومين وتخرجي وترجعي زي الأول وأحسن

تساءلت "همسة" بصوتٍ واهن:

-ماما عاملة إيه؟

جاوبتها بما يشبه المبالغة وهي تحاول كتم ضحكها:

قلبتها مناحة، وعملت أفلام وحوارات، وهاتك يا عياط، ومسكت في الدكتور.

نظرت لها في غرابة، فلاحقتها مصححة قبل أن تصدق ثريتها الزائفة:

-متقلقيش ماما كويسة، هي بس رجعت البيت عشان تجييلك هدم، وأنا يا ستي هاتكفل وأبات معاكي النهاردة.

فوقتي عشان أعرف أتكلم معاكي، ولا لسه مسهوكة على نفسك؟!!!

استدارت "فيروزة" برأسها للخلف ناحية باب الغرفة حين سمعت تلك العبارة الغاضبة تنطق بها "بثينة"، غامت نظراتها نحوها واحتدت بشكلٍ قاسٍ، ثم هبت واقفة لتهاجمها بصوتٍ يعكس ضيقها الشديد:

-في حد يدخل على واحدة مريضة بالشكل ده؟ ولا حتى يقول كده؟!!

تحركت نحوها بحنقها الذي استعر وهي تتابع بنرفزة:

-في حاجة اسمها استئذان وذوق، هي مش مفتوحة على البحري!!

دفعتها "بئينة" من كتفها في غضبٍ بائن لتريحها عن طريقها مواصلة تقدمها نحو "همسة"، وقفت مجاورة لفراشها، وركزت أنظارها الغامضة عليها قبل أن تستأنف بوقاحةٍ منقطعة النظر:

-مش إنتي طلعتي مابتخلفيش؟

تدلى فك "همسة" السفلي في صدمة مرتاعة من جملتها التي فاقت أي تصور منطقي يمكن أن يطرأ على بال أحد، أحست بانقباضة مخيفة تعتمر- قلبها من شدة صدمتها، بينما انقضت "فيروزة" عليها وأبعدتها من كتفها عن توأمتها لتهاجمها كلامياً بشراسةٍ وقد فارت دمائها:

-ليه كلام الجنان ده؟ إنتي بتقولي لإزاي كده عن أختي؟

استحقرت نظراتها نحوها، وقالت بجمودٍ وتلك التعابير الساخطة تغطيتها:

-ده مش كلامي، الدكاترة اللي عملوا العملية بيقولوا إن المحروسة ما بتخلفش، وأنا جيت أعرفها

صرخت بها "فيروزة" رافضة مجاراتها في افتراءاتها:

-أنا مش هاسمحك تنطقي بحرف زيادة عن أختي يمسهأ..

ثم دفعتها بعنفٍ من جانبها نحو باب الغرفة لتطردها منها وهي تهدر في انفعالٍ جم:

-يالاً من هنا

نجحت في إخراجها وصفقت الباب خلفها بقوةٍ هزت أركان الغرفة، التفتت ناظرة إلى "همسة" فوجدتها قد انخرطت في بكاءٍ حارق، هرولت نحوها، ثم أحنت جسدها عليها لتضمها بين ذراعيها وفي حضنها محاولة تهدئتها:

-ماتعيطيش يا حبييتي، دي ست كدابة، مافيش حاجة من دي حقيقية..

ظلام حالك حاوط ببؤبؤيها المتشجنين، كما تبدلت نبرتها المتعاطفة لأخرى قاسية مخيفة حين أكملت بلهجة متوعدة بإحراق الأرض ومن عليها:

وأنا مش هاسكت عن اللي حصل ده، هاجيبك حق من اللي اتبلى عليكى بكده يا "همسة"
!!!

.....

الفصل الثاني والثلاثون (الجزء الثاني)

سرت حمى الغضب أم الجنون أم كلاهما معًا في كامل جسدها، اندفعت نحو الاستقبال تنتوي الثأر فورًا لمن تسبب في إيذاء توأمها بذلك الشكل السافر بعد أن تركتها بصحبة المريضة .. وإن كان ما بها حقيقيًا، فلا يجب تحت أي وضع أن تعلم هكذا، ومن تلك المرأة الوحيدة منعدمة الذوق تحديداً، تلفتت "فيروزة" حولها تبحث عن تفرغ فيه غضبها الثائر، لمحت الحاجز الرخامي -لا يتعدى طوله المتر ونصف- والذي تقف خلفه بضعة ممرضات يتبادلن معًا الأحاديث الجانبية، اتجهت صوبهن، وبراحتي يديها طرقت بعنفٍ عليه صارخة فيهن:

-واحدة فيكم تقولي مكان الدكتور المسئول عن حالة أختي.

نظرن إليها الممرضات في تأفف قبل أن تبادر إحداهن بالرد:

-في إيه يا أستاذة، ماينفعلش الزعيق ده هنا

صرخت بها بهياجٍ مبرر مستخدمة يدها في التلويح:

-محدث يقولي أسكت بعد اللي حصل من استهتار وقلة أدب.

علقت عليها أخرى مستنكرة أسلوبها الهمجي في التعامل:

-حضرتك في مرضى وآ.....

قاطعتها وهي تضرب بيدها على الحاجز الرخامي في عصبية:

-وأنا عاوزة الدكتور اللي عملها العملية، قوليلي فين مكانه!!?

نظرت المريضة بحيرة إلى زميلاتها، وأدركت أنها لن ترحل إن لم تطلعها على مكانه، فقالت على

مضضٍ ريثما تستعين أخرى برجال الأمن ليتعاملوا معها:

-هو بيكشف على حالة هنا في غرفة 504 ، ثواني وهانبلغه.

نظرت لها بعينين ناريتين قبل أن ترد:

-ماتتعيش نفسك، أنا ربحاله!

تركهن في مكانهن وبحث بعينها عن رقم الغرفة المنشودة، واحترامًا منها لخصوصية المريض كتمت غضبها مؤقتًا وانتظرت بجوار باب الحجرة المتواجد بداخلها حتى خرج الطبيب منها غير متوقع لتلك الشابة الشائرة التي تنتظره على جمراتٍ متقدة، تطلع إليها يسألها بهدوئه المعتاد:

- في حاجة يا أستاذة؟

اندفعت تمسك به من ياقتي معطفه الطبي وهي تهمه بصوتها الصارخ:

- إنت إزاي تطلع على أختي الكلام ده؟

تفاجأ من اعتدائه الشرس عليه، وحاول إزاحة يديها عنه مستفهمًا:

- كلام إيه؟ أنا مش فاهم حاجة!!

ردت مهددة إياه بصياح مجلجل جذب الأنظار إليهما:

- ده أنا هوديك في داهية إنت وكل اللي معاك، هارتكب جناية هنا

قال في اندهاش وهو يحاول إبعادها عنه:

- ما يصحش اللي بتعملية ده، احنا هنا في مستشفى محترم

هدرت فيه بانفعالها الشديد:

- بس يصح تطلعوا أسرار المرضى؟ هي دي الأمانة اللي بين إيديكم!!!

هتف الطبيب مستغيثًا بمن حوله:

- يا جماعة حد يشوف في إيه، مش هاينفع كده؟

تشبثت أكثر بياقتيه، وردت بنظرات تتوهج حنقًا:

- وأنا مش هاسبيك النهاردة، حق أختي هيرجع غضب عن عين أي حد.

.....

في تلك الأثناء، تلكأت "خلود" وتعمدت أن تتباطئ في استعدادها للرحيل ريثما تنتهي والدتها من أمر أصرت على إنجازه قبل عودتها للمنزل، لم تعلم ما الذي يدور في جعبتها، لكنها كانت واثقة أنها ستفعل ما في صالح ابنها، أرادت "بثينة" أن تسكب الزيت على النيران، أن تلهب الوسط، أن تحرق الأعصاب وتدمرها بما لم تتحرر صحته، أتمت فعلتها السوداء وعادت إلى ابنتها وتلك البسمة الشيطانية تداعب شفيتها، دنت منها الأخيرة وسألته في فضول:

-إنتي كنتي فين يامه؟

أجابته "بثينة" بصوتها الهامس:

-بعدين هاقولك..

ثم ركزت أنظارها على "تميم" الذي كان ملتئماً بالحديث في هاتفه المحمول، وتابعت بنبرة خفيضة:

-بدل ما جوزك ياخذ باله.

التقت نظراتها اللثيمة مع نظراته الثاقبة، لاحظ ريكتها وحركتها المتوترة، أنهى مكالمة دون أن يبعد عينيه متسائلاً:

-في حاجة؟

ردت عليه خالته نافية:

-لا مافيش.

وجه نظراته نحو زوجته يسألها بصيغة الجمع، حتى لا يظهر انزعاجه من والدتها الفضولية:

-خلصتوا عشان نمشي؟

أجابت "خلود" بركة:

-أه يا حبيبي.

ثم سارت في اتجاهه لتتأبط ذراعه وهي تبتسم له، وبالرغم من عبوسه إلا أنه لم يبعد يدها المتعلقة به، تحرك الثلاثة خارج الغرفة في اتجاه الممر نحو المصعد، لكن تلك الجلبة الصارخة بجوار

الاستقبال لفتت أنظارهم، كان "تميم" أول من تعرف إلى صوت "فيروزة" الغاضب وفتن لكونها تتشاجر مع أحدهم، ولكن من يا ثرى؟ اشرب بعنقه محاولاً رؤية المشهد بوضوح وسط التجمع الذي يجبه عنه، استطاع أن يبصرها وهي تقاوم بضعة ممرضات يحاولن منعها من الفتك بالطبيب الذي يصرخ هو الآخر مهدداً بتحرير شكوى ضدها، أثار الأمر استغرابه ناهيك عن ضيقه من تعامل الأخريات معها، حثته رغبة عارمة للتدخل حتى يعرف ما الذي تجابهه الآن، وبتلقائية بحتة أزاح قبضة "خلود" التي جزعت من ابتعاده المفاجئ عنها، لحقت به بخطوات مهرولة، ثم أمسكت بذراعه لتوقفه عنوة وهي تسأله في قلبي:

-إنت سايني ورايح فين؟

بخشونة طفيفة تحرر من قبضتها، وقال دون أن ينظر إليها:

-هاشوف في إيه.. خليكي مكانك.

لحقت بها "بثينة" وأجبرتها على البقاء قائلة لها:

-استني يا "خلود"، خرينا نفهم في إيه

ردت بحرقه، ويران الغيرة تنبعث من عينيها وكامل حواسها:

-يامه ده رايحلها، إنتي مش شايفة ولا إيه؟

قفز قلب "بثينة" رعباً في قدميها، خشيت من افتضاح أمرها إن كان الشجار القائم بسبب ما قالته، لم يخطر على بالها أن تكون "فيروزة" بتلك الرعونة والجراءة، ظنت أنها كسرت شوكتها، أحرقت كبدها، لكن طالتها نيران حقدتها سريعاً، انكشت في جلدتها، ورددت لنفسها:

-استر يا رب.

وبلا ترددٍ أو تفكير حائر عقد "تميم" النية على مساعدتها، الأخرى أن يقال أنه كان كمن ألقى عليه تعويذة قوية المفعول فانساق كالمغيب يدفع عن طريقه من يعوقه ليصل إليها، وبصوته الأجرس تساءل عالياً:

-إيه اللي يحصل هنا يا أبله؟

نظرت له أولاً بعينها المشتعلتين غضبًا، ثم تركزت عيناها على الطبيب وأجابت بكلام لم يفهمه:
- هوديه في داهية طالما مش مراعي حق ربنا في أختي.

ودون أن يلم بأبعاد الموقف، انقض على الطبيب ممسكًا به من تلايبه، سأله بصوت عكس زجاجة
متشجعة وهو يهزه في عنف:

- أنت عملت فيها إيه؟

حاول الأخير المناص منه راجيًا:

- يا أستاذ افهم، بلاش شغل الفتوة دي هنا، الموضوع فيه سوء تفاهم.

ثم صاح عاليًا طالبًا النجدة:

- فين الأمن اللي هنا؟

رد "تميم" غير مبالي وبجسارة عجيبة دون أن يفلته من قبضتيه المحكمتين حوله:

- حتى لو جتلي الداخلية كلها، حق الأبله وأختها هيرجع!

لم تنكر "فيروزة" أنها تفاجأت بردة فعله المستبعدة عن ذهنها، وتطلعت إليه في اندهاش مصدوم
للحظة، بينما عمد الطبيب إلى تهدئة ثورته، فاستجدها بدبلوماسية واضحة عله يلين:

- لو ليكم حق هنرجعه، بس نفهم الأول في إيه، بالشكل ده مافيش حاجة هتتحل!

كان منطقيًا في تعامله مما اضطر "تميم" أن ينزع قبضتيه عنه ليفهم الحقيقة كاملة، استجمع نفسه،
وقال:

- ماشي يا ضاكتور.. فهمنا بقى!

رد ساخرًا:

- مش أما أعرف أنا الأول!

هدرت فيه "فيروزة" من الخلف وهي تقاقل للتححرر من الممرضات المتكالبات عليها:

-أختي جاية تعمل الزايدة عنكم تطلعوها عقيمة؟!!

هتف الطيب في استنكارٍ عظيم:

-إيه التخاريف دي؟!!

أدار "تميم" رأسه في اتجاهها وقد ارتسمت علامات الدهشة على قسماته، بينما تابعت "فيروزة" بنفس النبرة المتشنجة وقد أريد وجهها بمزيد من الغضب:

-أنا مش جيباه من عندي، الكلام وصل لقريبة الأستاذ، وجاية تعابر أختي بقلب ميت وهي لسه يدوب بتفوق.

رد الطيب نافيًا:

-محصلش مني حاجة زي كده أبدًا

قالت في تهكمٍ ونظراتها الاحتقارية تملو حدقتها:

-والمفروض أنا أصدقك؟!!

شرد "تميم" للحظة مسترجعًا في ذاكرته لحظة اختفاء خالته من الغرفة لبعض الوقت قبل أن تعود وتلك التعابير الشاممة تغطيها، بدأ ذهنه يتفقه للأمر بعد أن أزيلت تلك الغمامة التي تحجب عنه تحليل الأحداث بصورة أكثر وضوحًا، أيعقل أن تكون أخلاقها قد انحدرت لتلك الدرجة لتقوم بذلك الأمر المشين؟ عكست تعابيره الحالية تحفزًا مبررًا، التفت برأسه باحثًا عن "بشينة" بالخلف، رمقها بنظرة نافذة ذات مغزى، وشعرت هي بغضبه المتواري، ابتلعت ريقها وجذبت ابنتها من ذراعها لتقول لها متحججة:

-خلينا نمشي أنا مش قادرة أقف على حيلي.

ردت "خلود" بعنادٍ وعيناها لا تفارقان وجه "فيروزة":

-لأ يامه، مش هتتحرك من غير جوزي.

كزت على أسنانها تقول في غيظٍ حانق:

جوزك هيوديني في داهية لو فضلت واقفة!
تعقدت تعبيراتها، وضافت نظراتها نحوها قبل أن تسألها:
-قصدك إيه؟!!!!

.....

لمحت "عائشة" الجدل الدائر في الردهة المتسعة، جحظت بعينيها حين رأت أخت المريضة تتشاجر مع الطيب، وبالطبع التقطت أذناها بعض الكلمات المهمة للغير لكنها مفهومة بالنسبة لها، مرت نظراتها المتوجسة بين الأوجه المتراخمة إلى أن رأت "بثينة" في الخلف، اتجهت إليها وسألتها:

-خالتي إنتي عملتي إيه؟

ردت بتلعم وهي تجاهد لتمالك نفسها:

-ولا حاجة يا "عيشة"!

أحنت رأسها عليها لتهمس في أذنها بارتعاب:

-ده لوحد شم خبر إننا اللي ورا الحكاية دي هتجازي فيها!!

حاولت طمأنتها فقالت بثقة مشكوك فيها:

-مافيش حاجة، دلوقتي الخناقة تنفض

ألقت نظرة متأنية على الجدل المحتدم، وعلقت بقلبي أكبر:

-ماظنش يا خالتي.

لعت "بثينة" شفيتها، وتعهدت لها:

-لو الموضوع كبر وحصلك حاجة، فأنا هاعوضك، وهراضيك.

ردت بتبرم:

-ربنا يعديها بس على خير، وبعد كده نتكلم.

وبنظرات محتقنة وغيظٍ مكبوت حملت "خلود" في "فيروزة" التي نجحت في الإفلات من الممرضات وهجمت بشراسة على الطبيب تود الاعتداء عليه، منعها "تميم" من الوصول إليه بظهره الذي كان كالحاجز المتحرك يجارها في حركتها المتعصبة، استفزها بتصرفه فصاحت فيه بنرفزة:

-اوعى من سكتي، أنا مش هاسيه النهاردة، هاصور قتيل في المستشفى دي!

استدار ناحيتها يشير لها بيديه مكرراً نفس حديث الطبيب:

-هنعمل اللي إتني عاوزاه، بس نسمعه الأول.

توعده مستخدمة سبابتها في الإشارة:

-كل واحد اتجرأ على أختي وعاب فيها هيتحاسب.

هز رأسه في تفهمٍ قبل أن يرد:

-حقك.. وأنا بنفسي هتأكد من ده.

توقعت ألا يقف في صفها، لكنها صدمها للمرة الثانية بدعمه المطلق وغير المشروط مما هدأ من انفعالاتها الغاضبة، كتفت ساعديها أمام صدرها وأضافت بتزمت:

-أنا عاوزة يتعمل تحقيق رسمي.

-ده اللي هايحصل.

ردد مدير المشفى تلك العبارة بنبرة واثقة فور أن وطأ الردهة ليستدير الجميع نحوه، جاب بنظراته العميقة على الوجوه الغاضبة، وتابع بصوته الثابت:

طبعاً ده لو ليكي حق.

صاحت فيه "فيروزة" بجدة، ونظراتها الناقمة تسلطت عليه:

-أنا هنا عشان أختي، مش جاية أعمل قلق على الفاضي.

أكد عليها مدير المشفى بما لا يدع مجالاً للشك:

-تمام.. وهحاسب اللي غلط.

.....
أوشكت "عائشة" أن تتوارى عن الأنظار بعد أن أنهت حديثها السري مع "بثينة" لولا أن لمحها الطبيب المتورط في تلك المشاجرة الغريبة، فصاح يناديها بعد أن ضاق خلقه من كم الإهانات التي تلقاها دون داع:

يا "عيشة"، تعالي هنا لو سمحتي.

ازدردت ريقها، وسارت في تباطؤ نحوه، أخفضت نظراتها وتساءلت بربكة عظيمة:
أيوه يا دكتور.

التفت يُخبر مدير المشفى:

-أنا عاوز أستدعيها للتحقيق معانا، لأني شاكك في حاجة معينة

انخلع قلبها من جملته الأخيرة، الآن تأكدت من إقامها في ذلك التحقيق الرسمي، استدارت برأسها للجانب لتحقق في توتر نحو "بثينة" التي أرسلت لها إشارة ضمنية برأسها حتى لا تجفل قبل أن تفر هاربة من المشفى.

.....
ارتخت أصابعه عن الكيس البلاستيكي المليء بالعصائر ليسقط من يده على الأرضية حين رآها تتلوى من البكاء والألم، اقتحم الغرفة ونظراته المرتاعة مرتكزة على شخصها فقط، تجمد "هيثم" في مكانه مدهوشًا وحائرًا، لا يعرف كيف يُطيب من خاطرها، أو حتى يهون من أوجاعها، نظرة جانبية حانت منه للممرضة التي كانت ترعاها قبل أن يسألها بصوته الخائف:

-حصلها إيه؟

جاء في ذهنه أنها تعاني من آثار انسحاب المسكن من جسدها، ولم يتصور الأسوأ، بينما ردت عليه الممرضة متصنعة الابتسام حتى لا توتره:

-متقلتش، هي هتبقى كويسة..

انخفضت نظراته على "همسة" ليتفحصها وهي في حالة الانهيار المريبة، وسألها مباشرة:

إنتي حاسة بإيه يا "همسة"، أروح أشوفك أي ضاكتور هنا لا آ....

قاطعته بمرارة وقهر، وبأنفاسٍ متقطعة:

-اشمعي أنا؟! ليه ما سبتونيش على عمايا؟ ليه تعمل فيا كده؟

أفزعته جملها المتلاحقة، وهدر متسائلاً بعصبية لا يعرف من أين انفجرت فيه وانتشرت في كامل كيانه:

إنتو عملتوا فيها إيه!؟

نظرت له المريضة بوجهٍ مال للعبوس، وطلبت منه في جدية:

لو سمحت ماينفعلش الانفعال اللي إنت فيه ده! ده مش كويس على حالة المريضة، وأكد هي مستحيلة حد يوترها

صرخ بها:

-ما أنا مش هابقي واقف زي الأطرش في الزفة

تركت المريضة مريضتها لتتجه إليه، وقامت بدفع "هيثم" من ذراعه في رفقٍ وهي ترجوه:

-من فضل حضرتك تفضل برا، خليني أعرف أتعامل مع المريضة

أجبرته على الخروج من الغرفة، وقبل أن يصل أعتابها أثاره صوت "همسة" التعيس، وكأنه يلومه:

-مش مسمحاها على أذيتها ليا، قولها ده، أنا مش مسمحاها!

استدار نحوها في غرابة، ووجهه يعلوه تلك النظرة المستريية، ابتلع ريقه وشعر أن الأمر له علاقة به بشكلٍ مباشر، اضطر أن يستخدم القليل من العنف ليبعد المريضة عن طريقه، فلكرها في

ذراعها وطرحها نحو الحائط، ثم عاد إلى "همسة" وسألها دون مراوغة:

-قصدك مين بكلامك ده؟

حاولت جمع قوة غير موجودة فيها، ونظرت في عينيه مباشرة بعينين تفيضان الدمع، وأجابته بنحيب:

-اسأل مامتك!

لا تعرف كيف انصاعت لرغبتها وانسحبت من الردهة صاغرة لتقف خارج المشفى وهي تحترق بنيران غيظها وغيرتها الواضحة، استطاعت أن تسمع صوت زفير والدتها المتكرر ليعبر عن سأمها من الانتظار كالمشردين على جناب الطريق، لكنها تجاهلتها لتنظر كل ثانية نحو بوابة الدخول، هتفت "بشينة" توبخها بضجر:

-ما كفاية وقفة في الطل، خلينا تتنيل نرجع بيتنا، أنا تعبت وزهقت

حدجتها بنظرة قاسية قبل أن ترد وهي تتنفس بأنفاس الضيق:

-وأنا المفروض أكون فوق مع جوزي مش قاعدة تحت هنا!

تصنعت والدتها البراءة، وعاتبها بلوم:

-يعني عاوزة رجلي تيجي في الحاية؟ ترضي لأمك الهدلة من اللي يسوى وما يسواش! ده كويس إني نقدت منها.

علقت تسألها في حنق:

-ومين قالك تتصرفي كده يامه؟ أهو وجه على دماغنا في الآخر، و"تميم" بقى لوحده معاها!

زمت "بشينة" شفيتها وغمغمت في تهكم، وتلك النظرة الساخطة تكسو تعبيراتها:

-تقولش قافلين عليهم باب الشقة، ياختي ده البت زي ضربة الدم قلبتها حريقة وجابت عاليها واطيها!!!

ضغطت "خلود" على أصابع يدها حتى ابيضت مفاصلها، ثم أضافت ونظراتها معلقة بالأعلى:

-يا عالم دلوقتي بيعملوا إيه سوا!

غلت الدماء في رأسها وكادت أن تذييها، التفتت ناظرة إلى والدتها وهتفت وهي تندفع كالثور الهائج نحو درجات المشفى:

-أنا مش هاستنى أكثر من كده، إياكش الدنيا تولع، أنا مش هاسيوهلهما!
صاحت فيها "بئينة":

-يا بت استني، ماتبقيش غبية!

لم تصغ لها وواصلت اندفاعها الأهوج للداخل وغيرها تعميمها بالكامل عن التصرف بتعقلٍ وروية، لم يظهر الندم على تعابير أمها التي قالت بتبرم، وكأنها تتحدث مع نفسها:

-يعني عاوزاني أعرف إن البت مافيش منها رجا وأسكت؟ كان لازم أعمل كده عشان تلم الدور وتعرف إن مافيش حد هيبصلها، أنا مش عايزة واحدة زي دي لابني، ليه أتحم من أحفاد يملوا عليا البيت؟!

جابت الممر الطويل جيئةً وذهاباً بخطواتٍ متشنجة، منفعة، متعصبة، أي شيء سوى أن تكون هادئة، دمدمت بتوعيدات غير واضحة، وكزت على أسنانها لاعة بكلمات لم يسمعها جيداً، لكنها كانت فرصة جيدة له لتأملها عن قرب دون مقاطعة أو تردد، وضع "تميم" يده على شفثيه ليخفي تلك الابتسامة المستمتعة بمراقبتها، وييده الأخرى فرك رأسه في توتر، بذل أقصى ما يستطيع محاولاً السيطرة على عينيه الناعستين اللاتين تواصلان تأملها وكأنها تسجل ما يخصها في ذاكرته، انتصاب في وقفته حين وجهت له الحديث لتندره:

لو اتأكدت إن الدكتور ده مطلع الكلام القدر إياه عن أختي هاخنقه بإيدي، وكمان الست قريبتك، مش هاسيبيها، ومحدث هيجوشني، ماشي؟

رفع كفيه في الهواء كتعبير عن إذعانه لها، فتابعت "فيروزة" مفرغة فيه عصبيتها:

إزاي جالها قلب أصلاً تعمل كده؟ افرض حصل ده مع بنتها!

وكانها تداركت زلة لسانها بعد لحظة من نطقها، فمن تتحدث عنها هي زوجته، تنفست بعمق، ولفظت الهواء دفعة واحدة، ثم رمقته بنظرة حرجة قبل أن تقول على مضضٍ وبنبرة أقل حدية:

-أنا مقصدش، بس مافيش حاجة بعيدة عن رينا، المفروض نراعي بعض

لم يكثر "تميم" للأمر مطلقاً، لتفصح بأريحية عما يجثم على صدرها ويزعجها، كان للمرة الأولى مسيئتمًا للغاية وتسيطر عليه نشوة عارمة لاسترسالها في الحديث معه دون أن تتجاهه شخصيًا، وبشكلٍ لا إرادي وجد نفسه يسبل عينيه ناحيتها ل يبدو أكثر تأملًا لتعبيراتها المشوقة وهو يسألها بنزق:

هو إنتي إزاي كده؟!

.....

الفصل الثالث والثلاثون

تجمعت هموم الدنيا وأحزانها على ملامحه التعيسة، فكلمها حاول بجهدٍ فتح بابًا للسعادة انغلق بقوة في وجهه ليحاصره أكثر داخل تلك الدائرة السوداء، وكأن الحياة تأبى منحه فرصة أخرى للنجاة من حياة العبث التي كان يعيشها. بعينين تجلسان الدموع الحارقة خرج "هيثم" من المشفى وكلام "همسة" الأخير الذي يلوم والدته يتردد صدها في رأسه، وقف في مكانه كالعاجز يفكر فيما سيفعله، مسح يده ما يشوش رؤيته من عبرات ليهم بالتحرك، نظرة خاطفة للجانب جعلت قدماه تتسمران، رأى والدته تجلس على الرصيف القريب في غرابةٍ، لم يكثرث أبدًا بما تفعله بمفردها، اتجه ناحيتها قاصدًا سؤالها عما اقترفت، وبكل عنفوانه هتف عاليًا ليخرج صوته غاضبًا مشحونًا:

-عملي في "همسة" إيه يامه؟

لم يظهر عليها المفاجأة، بدت متوقعة لثورته الهائجة، طالعت "بثينة" بروودٍ، وردت:

-اللي المفروض أي أم تعمله لو عايزة مصلحة ابنها

وقف قبالتها مواصلاً صراخه بها:

-إنتي قولتيلها إيه بالضبط؟

نهضت بتكاسلٍ من جلستها غير المريحة مستندة على ذراعه حتى تعتدل، رمقته بنظرة قاسية قبل أن تجيبه بقلبٍ متحجر:

عرفتها الحقيقة، المحروسة ما بتخلفش!

انقباضة عنيفة لوت قلبه واعتصرته بعد جملتها الصادمة تلك، انفرج فمه في ارتعابٍ، وسألها غير مصدقٍ:

-إنتي بتقولي إيه؟

تابعت بنفس المشاعر الجليدية:

-اللي سمعته يا ضنايا، الضاكتور اللي عملها العملية قال إنها ما بتخلفش، وأنا الصراحة مكذبتش
خبر، ما هو أنا معنديش غيرك إنت وأختك، مش هاجوزك لواحدة أرض بور مافيش فيها أمل
مهما زرعت فيها من تقاوي!

لم يتحمل سموها التي تبثها، وكأنها حقيقة مطلقة، فصاح مستنكرا تقريرها لمصيره معها:
-حرام عليكي يامه، هو إنتي دخلتي في علم الغيب؟ محدش عارف إيه اللي هيحصل بكرة.
قالت بتعاير أشد قسوة:

-ربنا قال ناخذ بالأسباب، وده اللي عملته!

اختنق صوته وهو يرد:

-افرضي ده كان فيا؟!!!!

هتفت في جزع:

-بعد الشر، إن شاء الله هي!

نظر لها في استهجانٍ وعيناه تحتقان بشكلٍ كبير، ثم ردد في يأس:

-ها أقولك إيه غير حسبي الله ونعم الوكيل

لطمت على صدرها متمرة على جملته تلك:

-يا نصيبي؟ بتحسبن على أمك، وفي وشي كان!

نظرة أخرى مصدومة مليئة بالقهر سددها لها قبل أن يتركها ليمشي— في كامل إحباطه الممتزج
بجسوته، تهدل كتفاه، واسودت تعايره، نظرت له "بثينة" في تعجبٍ، ثم هتفت تناديه عله يقف:
-خد هنا يا واد..

وكانها تُحدث الفراغ اجتاز الطريق دون أن يكلف نفسه عناء النظر إليها، مصممت شفيتها،
وقالت في تأفف:

-ده اتجنن ده ولا إيه؟!

عادت لتجلس على الرصيف متابعة بجمود قانس:

-بكرة يعرف إن كان عندي حق!

رأى علامات الإرهاق، التعب، والغضب مجمعة سوياً مع لمحة جمال خفية لا يبصرها إلا المراقب لها باهتمامٍ وكلها تنعكس على خلجاتها الناعمة، استغرق في تأمله الملي لها وهو لا يدرك أنه يبوح بما يفكر فيه عقله علناً، تقلصت تعابير وجه "فيروزة" لترمقه بجدّة حين لاحظت نظراته الساهمة نحوها، وزاد انزعاجها مع جملته الأخيرة، عبست تسأله بلهجة رسمية:

-أفندم؟!

كانت تبدو خلافة من بعيد، وأخذة للعقول من قريب، سرح "تميم" يتأملها بعينين مضيئتين بلمعة غريبة، وبفم شبه مفتوح، كان مبهوئاً بها، أحس بالضياح وهو شاردٌ في ملاحظها، صاحت فيه بصوتٍ ظهر مُتشنجاً حين لازم الصمت بهذا الشكل العجيب:

-أنا بأكلمك، أنا فيا إيه؟! مش فهأك!

استعاد وعيه، وأفاق من شروده ليرد بربكةٍ طفيفة وهو يحك مؤخرة عنقه:

قصدي يعني جريئة، ومابتخافيش من حد.

رفت ابتسامة مغترة على شفيتها عندما ردت:

صاحب الحق مايبخافش يا معلم "تميم".

قال مندفعاً وقد راقه تلفظها باسمه:

طالعة حلوة منك..

صاقت نظراتها بشكلٍ حاد فهتف متصنفاً الجديدة:

-يعني إتي معاك حق.

أومات برأسها في استحسانٍ قبل أن تستدير لتدور في نفس الحلقة المفرغة وعينا "تميم" تتبعها باهتمامٍ مبالغ فيه، وكلما عادت لتتطلع إليه ادعى انشغاله بالتحديق في سقاية الممر حتى لا تمسك به وهو يُملي عينيه برؤيتها، توقفت "فيروزة" عن الحركة حين سمعت صوت "خلود" يتساءل في ضيقٍ واتهامٍ مستتر:

-إيه اللي بيحصل هنا؟!

حل الوجوم على قسما "تميم" فور أن رآها، تحفز في وقفته، وزجرها بخشونةٍ قبل أن تبادل بالقاء التهم جزاقاً عليها:

-في إيه يا "خلود"؟

سألته دون أن تبعد عينها المتشككتين عن عدوتها:

هي بتعمل إيه معاك؟

رمقتها "فيروزة" بنظرة نارية وهي تجيبها بأسلوبٍ وخب:

مستنية أتأكد من اللي أمك قالته عن أختي.

تقدمت بثباتٍ نحوها، وسددت لها نظرة احتقارية ثم علقت عليها بفضاظةٍ غير مقبولة:

-أمي مغلطتش، من حقها تتطمئن على مرات ابنها، وأنا معاها في ده!

اغتاظت "فيروزة" من طريقتها المستفزة في تبرير سوء تصرفها فناطحها الند بالند، وردت بانفعال:

-دي لو مراته أصلاً، احنا ما يربطناش بيكم أي حاجة!

وعلى عكس ما كان يظن، اكتشف "تميم" مصادفة تورط زوجته في تلك المسألة الخسيسية، انتقل

من مكانه ليغدو قبالتها، قبض على ذراعها بيده القوية، جذبها منه بعيداً عن "فيروزة"، وضغط

عليها بقساوة حتى تأوهت من الألم، ثم هزها بخشونة وهو يسألها:

-يعني كنتي عارفة يا "خلود"؟

تخرجت من انكشاف أمرها بسبب رعوتها، فحاولت الابتسام لتخفي تلبكها، وقالت بركة وصوتها مضطرب:

- "تميم" حبيبي، هنتكلم بعدين و...

قاطعها بصوته الأمر وقد احمر وجهه غضبًا:

- لا دلوقتي!

استجمعت نفسها، ونظرت في تردد له، ثم حانت منها نظرة سريعة جانبية لوجه "فيروزة" المشدود، تجددت غيرتها القاتلة وتصاعد الدم في عروقها، وبكل برود نطقت:

-المرضة سمعت الدكتور وهو يقول إن أختها عندها مشاكل ومش هتخلف، وحابت توجب معانا!

استنكار عظيم سيطر على نظراته نحوها، وبغيط مفهوم هدر في عصبية:

-بتقولي إيه؟ وإزاي أصلاً تجي تقولك الكلام ده؟!!

لوت ثغرها في تهكم وهي تعلق عليه:

-عادي يعني.

كانت "فيروزة" تغلي في الخلف وأذناها تلتقطان حديثها الأرعن، إريد وجهها بمزيد من الحنق، وهدرت تعنفها بشراسة:

-لا مش عادي اللي عملتوه! دي جريمة هحاسبكم عليها.

لم يختلف حال "تميم" كثيرًا عنها، كان مغلولاً من برود زوجته ومشاركها في تلك الجريمة الأخلاقية، فصاح يؤيدها وموبخًا زوجته:

-هي معاها حق تقلب الدنيا فوق دماغكم..

قست نظراته بشدة وهو يتابع بزجرة مججلة:

-لأنه لو اتقال عليكى مكوتنش هاقبله، وهانفخ اللي قاله! محدش يلوم على الأبهة لما تهد الدنيا!

أحست بالخوف من عدائته الصارخة، ابتلعت ريقها ورققت من نبرتها وهي تحاول خلق التبرير لوالدتها:

هي غرضها آ....

قاطعها بصرامة جعلتها ترتجف خوفاً منه:

-ولا كلمة! اتكلمي!

التفتت "خلود" برأسها للجانب لتلقي اللوم على "فيروزة"، فاتهمتها بوقاحة:

هي اللي عاملة الشبورة دي عشان تلبسنا في أختها المعيوبة!

لم يجد "تميم" بداً من الكلام المجدي معها، كانت وقحة بشكلٍ سافر لم يتخيل أبداً أن يصدر منها، تختط كل الحدود والأعراف، وتجاوزت آداب الحوار المنطقي، كان آخر حديثها كالكششة التي قسمت ظهر البعير، فأصبح رده المناسب لإخراس لسانها الدنيء صفة مؤلمة على صدغها، تفاجأت "خلود" بفعلته، وحملت فيه مصدومة، تهدج صدرها واغرورقت عينها بالعبرات سريعاً، لقد فعلها حقاً وصفعها أمام تلك اللعينة التي أفسدت حبها الأفلاطوني له، زادت كراهيتها العدائية لها، أحست بنيران تنبعث من رأسها، وقبل أن تلوم زوجها وتبدأ في نوبة بكائها المقهور تركها الأخير تحترق كمدًا في مكانها واتجه إلى "فيروزة" يعتذر منها:

-أنا أسف يا أبله على اللي حصل.

وبالرغم من محاولته لرأب الصدع فيما حدث إلا أن "فيروزة" قالت بحسب:

-أحنا معرفتنا بيكم انتهت، لا خطوبة ولا دياوله...

تركزت نظراتها على "خلود" حين أكملت باقي جملتها:

-بلغ قريبك و.. أخو المدام بده.

غامت عيناه، وقال يرجوها:

بس آ....

ولكنها هتفت تقاطعه بصلاية وقد توحشت نظراتها:

خلاص!

شعر "تميم" بكآبة تنقل صدره بعد كلمتها تلك، اكتست تعابيره بجزني غريب، نكس رأسه في خزي، وتسمر مكلومًا في مكانه، ابتعدت عنه "فيروزة" لتتجه إلى زوجته التي ما زالت تضع يدها على وجنتها الملتهبة، رمتها الأولى بنظرة نارية مستحقة، وبادلتها الأخيرة نفس النظرات الناقمة ثم دست يدها في حقيبتها وأخرجت النقود المطوية، أمسكت بيدها عنوة ووضعتهن بها قائلة لها:

-وقبل ما أنسى، ادي لجوزك فلوسه، مايقبلش الشفقة من حد!

صدمة هبطت على رأسها لتفقد صوابها، شخصت أبصارها هاتفة:

ليه؟ هو..!

تركها تغمغم بكلماتها المتقطعة دون أن تكثرث بها، اتجهت إلى باب مدير المشفى الذي انفتح ليناديها:

يا أستاذة

تطلعت إليه وهي تنفس بعمق لتكتم نوبتها الانفعالية التي طفت على السطح، سألته بأنفاس متهدجة:

أيوه

أجاب الطبيب مشيرًا بيده:

-ممكن تتفضلي جوا عشان نفهمك سوء التفاهم اللي حصل في حالة أختك.

هزت رأسها مرددة:

طيب

ولم تلتفت للوراء لتخلف ورائها الاثني وهما على وشك الانفجار ما بين غضبٍ شديد، وهياج أكبر، انغلق الباب فهولت "خلود" نحو زوجها تسأله بجنون:

ليه ده يا "تميم"؟!

سحب النقود منها ودسها في جيبه دون أن يمنحها المبرر المناسب، بلغت ذروة غضبه منها أقصاها، فتحت شفتيها لتسأله لكن الكلمات تحولت لتأويها وأنات حين انفرست أصابعه في ذراعها ليشدها منه، نظر لها بعينين خاليتين من العطف وهو يأمرها بصوت أجوف، كأنه قادم من عمق سحيق:

- تعالي معايا على البيت، مش هانتكلم هنا!

.....

قادته قدماه إلى منزله، كان كبرقة الأمل الأخيرة المتبقية ليلجأ إليه قبل أن يسقط في بئر آثامه دون رجعة، استقبلته خالته في اندهاش، أصر "هيثم" على الجلوس مع الحاج "سلطان" فقط، اعتبره كجده الذي افتقده، عل كلماته الموسمية تطيب من أوجاع قلبه، وبكل ترحاب وود دعاه الكهل العجوز للجلوس معه على سجادة الصلاة، أمسك بسبخته يفرك حباتها بحركة ثابتة مصغيا له ليفرح عن همومه، فاستفاض ببكاء صادق:

يا جدي أنا تعبت، معنتش قادر .. طريق الحلال صعب أوي، أنا كل ما حاول أمشي — فيه المصايب تكتر عليا والدنيا بتثقل في وشي.

ربت على كتفه مهنونا:

- هتدوق حلاوته في النهاية، اصبر إنت بس.

تساءل في يأس:

لحد امتي؟ وإزاي؟

زادت نحيبه وهو يتابع بأسى:

- ده أنا مصدقت إنها واقفت ترجعلي بعد الهباب اللي عملته فيها، وقولت خلاص أهي اتحلت وهنبتى لبعض.

ردت عليه "سلطان" متسائلاً:

قصدك على البنت إياها اللي روحنا كلنا خطبناك؟

هز رأسه يجاوبه مسهبا في الحوار:

-أيوه يا جدي، جت أمي وعملت الفورتينة، وبدل ما تكحلها عميتها، راحت قالتلها إنها ما بتخلفش،
والله أعلم إن كان ده صح ولا لا!

بدا الامتعاض المنزعج على وجه "سلطان"، لم يتقبل تصرفها غير المحمود، وقال:

-ما يصحش اللي عملته ده.. فين عقلها؟

أخفض نظراته ليتأمل "هيثم" الذي كان غارقا في أحزانه، فحاول إعادة الثقة إليه فأضاف بتفاؤل
ورضا:

-ربنا وحده اللي عالم بالغيب، عارف إيه اللي ينفع فلان، وإيه اللي يضر— غيره، منه (إحسانه)
عطاء، وأخذه عطاء، ما ينفعش احنا ندخل في مشيئته.

رد بتنهيدة مهمومة:

-ونعم بالله.

أكد عليه متسائلا بصوته الجاد:

-سيبك من اللي أمك عاملته، وقولي إنت عاوز إيه؟

أجابه دون ترددٍ أو تفكير:

-أنا عاوزها هي.

ابتسم "سلطان" في حبور، وحثه بتشجيع واضح في نبرته ونظراته إليه:

-خلاص توكل على الله، وماتسيهاش.

لم تتغير ملامحه العابسة، واستطرد مهموماً:

-بس مين هايقف معايا بعد ما الليلة باظت!؟

قال بابتسامة واثقة:

-متملقش، الحبايب كتار، وبعدين ربنا كرمه واسع، خليك واثق في فرجه القريب.
أعاد إلى روحه الملتاعة السكينة بجديته المفرح للهموم، مال عليه ليحتضنه، ثم أحنى رأسه على
كفه الذي التقطه بين راحتيه ورفعته إلى فمه قبل أن يشكره:
-ربنا يخليك ليا يا جدي.

.....

نقل والدتها أولاً إلى منزلها دون أن ينبس بكلمة، ولم تحاول "بثينة" الحديث معه، لقد نالت
غرضها، والحديث لن يجدي فيما مضى - وانقضى -، نظرة مليئة بالغيظ منحها لها حين ترجلت من
سيارته، كان غاضباً بما فيه الكافية لينزع فتيل حنقه فينفجر إما في وجهها أو وجه ابنتها، راقبت
"خلود" جفاء معاملته وقساوته البادية على تعبيراته، لذا أطبقت على شفيتها مرغمة، ونظرت إليه
بطرف عينها وهي تعتصر - ذهنها اعتصاراً لتستدرجه من جديد إلى منطقة مشاعرها المستفيضة،
ضغط "تيم" على المكابح فجأة ليأمرها دون أن يكلف نفسه عناء النظر إليها:

-انزلي

همست بتلعثم وكأنها تتسول عطفه:

-أنا أسفة .. مكوتشش آ....

لم يرغب في سماع هرائها اللزج فهتف مقاطعاً بنفاذ صبر:

-مش عاوز أتكلم، يالا انزلي!

ارتجفت من صراخه العالي، وسألته بجدري، وذلك الهاجس المستعر بشأن عودته لمقابلتها يشتعل
بقوة في رأسها:

حطب إنت رايج فين؟

أجابها بصوته الأجوف وهو لا يزال محددًا أمامه:

-أنا مش ملزم أدكي تقرير بخطواتي.

اختنق صوتها وبكت وهي تصيح فيه:

-بس أنا مراتك، مش واحدة من الشارع، يعني من حقي أعرف إنت رايح فين وجاي منين.

استدار برأسه ليرمقها بنظرات غريبة مليئة بالقسوة والإظلام، ثم قال بغموض أجفل قلبها:

هنتكلم في ده لما أرجع.

أحست بثقلٍ مرعبٍ يجثم من جديد على صدرها وقد حملت كلماته دلالات مقلقة، أجبرت نفسها على عدم الضغط عليه ريثما تعيد ترتيب أفكارها حتى تجذبه إليها، ويبدأ مرتعشة فتحت باب السيارة وترجلت منها، أحست بانسحاب روحها مع ابتعاده السريع، وقالت وهي تجز على أسنانها، وكأنها تجدد بهذا الوعد القسم الذي قطعه على نفسها:

-مش هاسيبك يا "تميم" تضيع مني، أنا مراتك، وإنت من حقي أنا وبس!

.....

علمت الحقيقة كاملة من الطبيب نفسه الذي أجرى العملية الجراحية لأختها، لم يكن الحديث الدائر في مكتبه يخصها، بل عن واحدة أخرى أجرت نفس العملية قبل يومين وتعاني من مشاكل أخرى، وتسببت الممرضة المتواجدة أثناء ذلك النقاش في إحداث سوء التفاهم والإضرار بتوأمها، اقترح مدير المشفى ليبدد أي شكوك تساورها، وكذلك كتعويض عن الإساءة التي جرت:

-أحنا مستعدين نعمل تحليل هرمونات دقيق لأختك، ده غير السونار والأشعة على الرحم عشان نتطمئن.

بدا اقتراحه مناسبًا لردع من يتجرأ على المساس بها، فوافقت دون تفكير:

-وماله، أنا معنديش مانع

رد عليه مدير المشفى مشددًا:

-المهم موافقة أختك، ده غير إننا هنعمل تخفيض 20% من تكاليف العمليات والإقامة، ونرد الفرق ليكي، كتعويض مننا كإدارة عن تقصيرنا في حماية أسرار المرضى شعرت بالرضا من سعيه الدؤوب لإصلاح الخطأ، وقالت بهدوء:

-كده يبقى عداكم العيب

طلب منها برجاء:

-وأتمنى مايقاش في تصعيد للأمور، لأن الغلط من الأساس مكانش مننا

قالت على مضض:

-ده مفهوم، بس أنا أختي اللي اتأذت وسمعت كلام جرح مكانش ينفع يتقال

رد مؤكدا:

-وعشان مايتقالش إن في تغاضي مننا عن التجاوز ده، فالمرضة خدت جزا كمان

هزت رأسها في خفة، وعلقت باقتضاب:

-تمام..

أضاف مدير المشفى أخيراً:

-عامه يا أستاذة احنا منتظرين موافقة أختك وهنقوم باللازم على طول.

ردت تشكره وقد عادت البسمة لتحتل شفيتها:

-شكراً على تفهمكم وتقديركم لي حصل.

قال بلهجة رسمية قبل أن ينهي اجتماعه بها:

-ده دورنا.. وربنا يقومها بالسلامة

.....

قبلت أعلى جبينها وهي تمسح بكلتا يديها على وجهها الباكي لتريح دمعاتها التي بللته، أغدقت عليها بحنانها الأمومي الغزيز، ثم جلست على طرف الفراش ملتصقة بها، اعتذرت "آمنة" لابنتها عن تركها لها ورحيلها، فقالت بنبرة آسفة يختلط بها بكائها:

-حقك عليا يا ضنايا، أنا لو مكوثتس سبتك مكانش ده حصل، منهم لله الظلمة، هيروحوا من ربنا فين؟!!

تجربة قاسية من كافة الجوانب انخرطت فيها بجوارحها فانعكست آثارها بالسلب عليها، ولم تكن حالتها النفسية تسمح بتخطي الأمر، ما زالت تلك الرجفة تنتابها كلما تذكرت وقع كلامها المؤلم عليها، امتدت يد "همسة" لتتشبث بكف والدتها، وردت تستعطفها بصوتها المبحوح:

-ماتسبنيش يا ماما.

احتضنت كفها بين راحتيها وقالت بصوتها الدافئ وهي ترمقها بنظرها الحانية:

-أنا جمبك يا حبيبتى، مش هاتنقل من هنا.

ولجت "فيروزة" إلى داخل الغرفة وهامتها مرفوعة للأعلى، ابتسمت متسائلة وقد حققت انتصارها:

-عاملة دلوقتي إيه يا "همسة"؟

أجابت بقهر لم تخفه:

-زي ما إنتي شايفة، قلبي وجعني أوي.

احتلت "فيروزة" الجانب الآخر من الفراش، لكن جلست عند قدمي أختها، وبرفق مسدت على جسدها وهي تقول لتخفف من أحزانها:

-الحمد لله ربنا قدرني وعرفت أرجع حقك، وكان المستشفى هنا مستعدين يعوضوكي عن اللي حصل.

نظرت إليها من بين دمعاتها الحارقة، ونظقت في انهزام:

صعب يا "فيروزة"، أنا جوايا حاجة اتكسرت و...

قاطعتها بحزم لتمنع شكوكها من التدفق في عقلها وغزو تفكيرها:
-الدكاترة أكدولي إنهم يقدروا يثبتوا بالتحاليل إنك كويسة، ومحدث هيقدر يفتح بؤه معاك.
غلف صوتها شجن محسوس حين سألتها مباشرة لتبوح بمخاوفها:
-وافرضوا طلغوا عندهم حق؟

هتفت مستنكرة محدودية تفكيرها وانسياقها وراء تلك الأكاذيب المضللة:
-إنتي هتصدقني الست المجنونة دي؟ كلنا فاهمين هي عملت كده ليه؟ هي مش عايزاكي لابنها، واحنا
من الأساس رافضينهم!
انفجرت في نوبة بكاء جديدة وهي تعقب عليها:

-وأنا مش عاوزة أعمل أي تحاليل، خرجوني من هنا، أنا مش عاوزة أفضل في المستشفى دي،
رجعوني البيت
أشفقت والدتها على حالتها البائسة، فقامت من جلستها واحتضنتها بذراعيها لترقي ابنتها على
صدرها، ثم حاولت تهدئتها قائلة:

-حاضر يا "همسة"، هنعمل كل اللي إنتي عايزاه، بس بلاش تقطعي قلبي بكلامك ده.
شاركتها البكاء ولكن بنهيات أقل، لم تتحمل "فيروزه" ضغط المشاعر المستنزف لأحاسيسها،
وقالت بجمود زائف:
-ماشي اللي يريحك.

خرجت من الغرفة ودموعها تسبقها، انتقت أول مقعد شاغر بعيد عن الغرفة لتلقي بجسدها المثقل
بالهموم عليه، ورمت حقيبتها بإهمال إلى جوارها، بكت بمعزل عنها، أحست كم هي متعبة ومستنزفة
القوى! دفنت وجهها بين كفيها حتى لا يلمح حزنها أحدهم، فقط وحده من رأى لحظة ضعفها
واستسلامها المتوقع بعدما خاضته. كان "تميم" في طريقه مصادفة إلى غرفة أختها ليعتذر منها مجددًا
وبندم واضح عما بدر من زوجته، لكن قلبه كان الأسبق في التنبؤ بوجودها، دار بعينيه في المكان
ليتأكد مما يراوده من شعورٍ موتر، ووجدتها هكذا في تلك الحالة اليائسة، مزيج من الغضب

والضيق سيطر عليه، تجمد في مكانه يراقبه من زاوية خلفية منزوية لا تستطيع الإمساك به إن رفعت رأسها وتطلعت أمامها، تردد في الحديث إليها، كان يعلم أن حالتها المزاجية المتقلبة لن تسمح بأي تعاطف أو مسامحة، لذا انسحب مضطراً ليرم الشرخ مع أختها ووالدتها ربما تكون قد هدأت حينها.

.....

لم تكن توأمتها صعبة الإقناع، بل كانت شابة لينة، طيبة، خلوقة، رقيقة، ومرهفة المشاعر، أشبه بوالدتها عن أختها شعلة النار المتقدة دوماً، ارتضت "همسة" بجملة القليلة المعتذرة وتفاضت عن الإساءة مُسلمة أمرها للمولى، لذا بمجرد أن فرغ "تيم" من حديثه اللبق معها عاود أدراجه ليكمل باقي مهمته الصعبة مع نصفها الآخر، وجدها لا تزال جالسة في مقعدها، ولكنها أراحت ظهرها للخلف، وأغمضت عينيها وقد استندت برأسها على الحائط، اقترب منها ليتأملها عن كثب متسائلاً في توجيس شبه خائف:

هي مالها؟! !!

استطاع أن يرى خطين رفيعين من الدموع لم يجف بعد، بل بدا وكأنهما يتجددان باستمرارٍ، أحقاً تبكي في صمت؟ حز ذلك في قلبه بشدة، غصة مريرة اجتاحت حلقه مردداً لنفسه، وكأنه يلوها: احنا السبب.

كور قبضة يده المرتجفة غيظاً وتنفس بعمقٍ حتي يثبط مشاعره الغاضبة حيث اهتمجت من جديد راغبة في الثأر لها، بالطبع ما مرت به واختبرته لتعيد حق أختها ليس بالهين، بينما ما اقترفته خالته أو زوجته لا يمكن المسامحة فيه أو الغفران.

تقدم نحوها وهو يراجع أفكاره في رأسه، لا يعرف لماذا ينشغل كثيراً بأمرها، وهي التي لا تطيقه أو تمنحه لحظة لطف عابرة، لكنه كان مهتماً بشأنها، وقف قبالتها في ارتباكٍ، ثم قال مبادراً:

-سلامو عليكم.

وعلى ما يبدو لم تشعر به، كانت لا تزال على وضعيتها الساكنة، ظن أنها غفت قليلاً فتشجع للجلوس إلى جوارها، وهنا استطاع أن يرى حزنها عن قربٍ فألمه ذلك الإحساس العاجز، هو

أيضاً متورط في إيدائها معنوياً، ودَّ لو استطاع تعويضها ومحو أحداث اليوم الكئيبة من ذاكرتها، زفر ببطء وقد زادت تعابير تكدرًا، أخفض نظراته ليجد حقيبتها إلى جوارها، راود عقله فكرة متهورة، نفذها دون ترددٍ، حيث استلها بحرصٍ شديد دون أن تشعر به، وتمكن من فتح سماها وأعاد وضع نقودها بها، وبنفس الحذر أعادها إلى جوارها، تنفس بزفيرٍ مسموعٍ نسيًا ليلفت انتباهها إلى وجوده، لكنها ما زالت في غفلتها المتعبة والقصيرة، فجازف منادياً باسمها بصوت هامس يميل للعدوية تسلل إلى وعيها فأوقفها:

- "فيروزة" !!!

.....

الفصل الرابع والثلاثون

ثالث طبقٍ ينزلق من أصابعها المبتلة في الحوض ليتشمس إلى قطعٍ صغيرة وهي تحاول غسله لثلهي عقلها عن التفكير في زوجها الذي اختفى ليتركها تتأكل بنيران غيرتها، أليس من المفترض أن يعوضها عن إساءته المهينة لها أمام الغرباء حين همّ للدفاع عن تلك الحقود؟ ما زالت آثار أصابعه محفورة على خدها الذي تلقى صفعته القاسية، ولم تحاول إخفاءها بكريم مرطب، أرادت "خلود" أن تتركها عن عمدٍ لتشعره بالذنب وتأنيب الضمير حين يتطلع إليها، ولتكن أيضًا سلاحها للولوج إلى مشاعره العميقة واستنزافها لصالحها، فمن المفترض أن يدعم زوجته، لا أن يتناول عليها بذلك الشكل المهين، وأمام من؟ تلك الوقعة الحقيرة! كم تمت لو أطبقت على عنقها حينئذ وخنقتها حتى أزهقت روحها! شعورٌ استلذته بشدة ورغبت في تنفيذه لترتاح منها نهائيًا.

حسنًا ليدرك زوجها أنه المخطئ في تلك القضية الخاسرة، لكن كيف سيتم الأمر؟ عاد عقلها ليعمل بكامل طاقته، اقترح عليها أن تعاتبه على طريقته المتدلة -وربما المغرية والمثيرة للشهوات- حتى يلين، بالطبع سيستجيب أمام المغريات الفاتنة، وبين متعة الحب ومذاقه سيذوب في عشقها، وبالتالي سيتملك كامل قلبه من جديد.. وربما قليل من العتاب واللوم خلال طقوس علاقتها الحميمة سيحز في نفسه ويتدارك خطأه، فلا يكرر فعلته الهوجاء مرة أخرى، ارتضت "خلود" لتلك الفكرة الهوسية، ثم مسحت برسغها دموعها الحارقة المتجمعة عند طرفيها، وقالت لنفسها بتوعدٍ ميمت ووجه "فيروزة" المقيت يتجلى في خيالها:

-القلم ده هردهولها، بس في وقته!

لم تتمكن من غسل باقي الصحون، وتحركت مبتعدة عن الحوض المبتل وجسدها يرتجف من شدة عصبيتها، أمسكت بمنشفة المطبخ القطنية وجففت بها يديها، خرجت منه وأنفاسها تتسارع، وكأنها تعدو في سباقٍ طويل الأجل، عضت على أناملها بتوترٍ مغتاض وتابعت معبرة عما يستعر في نفسها:

- "تميم" ده جوزي، ومن حقي أنا بس!

هكذا رددت لنفسها عشرات المرات حتى باتت مقتنعة بسطوتها المطلقة عليه وأحقيتها في الحجر على مشاعره واستئثارها بالكامل لأجلها فقط، كركرت ضاحكة بطريقة هيسترية وقد توهمت نجاحها في فعل ذلك.

.....

استيقظت في حالة شنيعة على الصوت الذكوري الذي اقتحم إدراكها وأطلق شارات الإنذار في عقلها لتستفيق من غفوتها وتتنبه له، لم تتبين ما الذي قاله، لكن انتفض جسدها بالكامل وقد رآته قريباً منها مركزاً نظراته المهمة عليها، لم تستسغ ذلك الأسلوب الغريب منه، لذا رمقته بجدوة وذلك الوجوم يحتل كافة خلجاتها، لم يتسم "تيم"، وتنحج متسائلاً في اهتمام:

-إنتي كويسة يا أبله؟

هبت "فيروزة" واقفة، وهدرت فيه بعصبية:

-إنت بتعمل هنا إيه؟ ورجعت تاني ليه أصلاً؟!

وقف هو الآخر قبالتها، وسألها باهتمام مبالغ فيه من وجهة نظرها:

لو حاسة إنك تعبانة أشوفلك ضاكتور هنا ولا هنا.

كانت رافضة لأي دعم منه أو من غيره، ودون ترددٍ صاحت بنرفزة وهي تشيح بيدها في وجهه:

-أنا مش عايزة منك ولا من غيرك أي مساعدة، ماتسبوننا في حالنا!

ورغم إخراجها له إلا أنه رد بهذيب عليها تلين وتغير الفكرة السيئة التي تتصورها عنه:

-حاضر.. بس عاوز أقولك حاجة.. يعني لو ده هيريحك شوية...

نظر بعمق في عينيها أولاً قبل أن يتابع في ربكةٍ طفيفة:

-فأنا أسف ..

استغرقت للغاية من اعتذاره غير المتوقع، والذي بدا غير اعتيادي بالنسبة لها، أتبع ذلك ببسمة صغيرة يشوبها القليل من الحزن، جعلته نظراتها الحائرة يزداد ربكةً وتخبّطاً، لماذا وحدها القادرة على

قلب كيانه بشكل يجعله فاقداً للسيطرة عليه؟ أطبقت على شفيتها ونظرت له بنظرات تتفرس فيه، أسبل عينيه ولم ينتظر ردها، وإنما استدار ليشرح في السير، ظلت مدهوشة للحظات محاولة استيعاب ما فعله للتو، أحقاً اعتذر منها؟ بررت لنفسها الأمر:

-على الأقل حد عنده دم في العيلة الغريبة دي!

هزت رأسها لتنفض تلك المسألة المحيرة عن ذهنها، ثم أحنت جسدها لتلتقط حقيبة يدها، أرادت عدت النقود التي بجوزتها لتستخدمهم في تأجير سيارة أجرة لتثقل توأمتها ووالدها إلى المنزل، تفاجأت حين عبثت بحافظتها بالكومة الموضوعة بداخلها، أخرجتها لتنظر للرزمة المطوية وتأملتها بفم مفتوح، احتدت عينها وتساءلت في ذهول:

-إيه اللي جايبهم هنا؟

على الفور فطنت لتلك المحاولة الذكية من "تميم" لإعادة النقود لها، بالطبع استغل غفوتها المؤقتة وأعادهم، فمن غيره سيتجرأ على فعل ذلك؟ لم ترتضي - بفعلته واستنكرتها بشدة، هرولت راكضة بطول الممر لتلحقه قبل أن يختفي، استوقفته عند منتصف الدرج وهي تهبط عليه بتعجلٍ منادية إياه بصوتها المنزعج:

-ثواني يا معلم.

اعتاد على تمييز رنة صوتها وسط أي جلبة، وكان حواسه السمعية قد تم إعادة برمجتها لتتعرف عليها بسهولة، استدار بجسده نحوه، ويده لا تزال ممسكة بالدرابزون، كانت وسيلته لكبح تلك العواصف الشعورية التي تطيح بثوابته، هبطت باقي الدرجات حتى أصبحت في مواجهته، وبنظرة غاضبة سألته وهي ترفع النقود نصب عينيه:

-ممكن تقولي إيه دول؟ بيعملوا إيه هنا في شنطتي؟

أخفض نظراته نحو يدها الموجهة إليه، وبجمود يكسو تعابيره أجابها ناكراً:

-معرفش!

قالت مباشرة غير مصدقة نكرانه المكشوف لشكها الختمي فيه:

-إنت رجعت لي الفلوس تاني، مضبوط؟

تلك النظرات المحملة بالغضب والجرأة، بالإقدام والشجاعة أصابته في مقتل، وتلقائيا لاحت بسمة عذبة على شفثيه حين استطرد قائلاً عن ثقة ليزيدها حيرة:

-أنا خدت حقي خلاص، معرفش حاجة عن دول.

رفعت حاجبها للأعلى، وعلقت في تهكم:

-والله، أومال هما رجعوا لواحدهم؟! زهقوا من أعدتهم في جييك فنطوا في شنطتي!

كانت تمتلك حساً فكاهياً يثير إعجابه بشكل كبير، وبصورة لا يتخيلها وحدها كانت قادرة على إزاحة أي هموم تحتل قلبه وإن كانت لا تدرك ذلك .. ظل "تيم" محافظاً على تعابيره الهادئة قبل أن يهز كتفيه معقّباً بنفس الابتسامة التي أشرفت أكثر على وجهه:

-جايز.. ما هو المال الحلال ما يبيضش.

قطبت جبينها بانزعاج وهي ترد بابتسامة شبه ساخرة:

-يا سلام!

خفقة مداعبة للفؤاد هزته حين لانت نبرتها وارتخى جفنيها، كانت رغم ما تمر به من ظروف قاسية متماسكة، ذات شموخ يليق بها، وبصدقٍ استطرد يمتدحها:

-وعلى فكرة إنتي بنت جدعة أوي.

حملت فيه في اندهاش، فأكل بتنهيدة بطيئة:

-دي الحقيقة..

ثم أملى عينيه بنظرة أخيرة ساهمة لوجهها المتجهم، آه لو راه بيتسم مجددًا مثل ليلة خطبة أختها، فنتته آنذاك بنعومتها غير المتكلفة، ضحكاتها احتلت فراغات الهواء وبقيت آثارها ترن في أذنيه كلما غاص في أحلامه المحرمة، استحوذت تلك الذكرى الجميلة على مخيلته وهو يتأملها عن كثب، أفاق

من تفكيره الحالم سريعًا ليستنكر بشدة شروده غير الجائز فيها، فجأة تبدلت تعابيره للوجوم، وقال
منهيا الحوار:

-أشوفك على خير.

ابتلع غصة مريرة في حلقه وهبط الدرجات بخطواتٍ متلاحقة، كأنه يفر منها قبل أن تكتشف
الارتباك البائن الذي يعاينه في وجودها، لكن بقيت شفثاه ترددان في ألم يوخز صدره ويحز بشدة
في قلبه:

-يا ريتني قابلتك من زمان!

.....

عادت على السير بضعة خطوات حتى وصلت إلى أعتاب الغرفة، لكنها لم تتحمل المزيد، فقدت
"همسة" كامل قواها وتضاعف إحساسها بالألم، لذا لجأت "فيروزة" للاستعانة بكرسي مدولب
لتنقلها به إلى الخارج، وبحرص واضح أجلستها عليه، وقامت بدفعها بتمهل نحو المصعد، ومنه هبطت
بها إلى الطابق السفلي حيث انتظرتها "آمنة"، وما إن رأت ابنتها حتى أقبلت عليها، ثم هتفت
تقول في حيرة:

-أنا كلمت خالك كذا مرة بس ما بيردش، هنعمل إيه دلوقتي؟

ردت "فيروزة" بسخط:

-ده الطبيعي بتاعه، مش مستغربة بصراحة.

حاولت الابتسام لتخفي ضيقها، وقالت:

-ما تقلقش يا ماما، أنا هاطلع أوقف تاكسي- من على ناصية الشارع وأجيبه لحد هنا، هي كام
خطوة بس هتمشيها "هموس" لحد ما نطلع برا.

ثم مالت على توأمها تستأذنها:

-معلش يا قلبي هتعبك.

ردت "همسة" بوهن:

المهم أرجع البيت!

قبلتها والدتها من رأسها، وأضافت مؤكدة:

-هانت يا حبيبتى، فات الكثير، كلها شوية ونبقى في بيتنا.

تركتهما "فيروزة" على مقربة من الاستقبال لتخرج بخطوات شبه متعجلة من المشفى متجهة إلى الطريق الرئيسي- باحثة عن سيارة أجرة مناسبة، لم تنتبه بسبب تركيزها الشديد في هذا الأمر إلى السيارة المرابطة عند الباب الرئيسي-، حيث كان "تميم" ينتظر بداخلها، فقد علم من توأمتها مسبقاً بمسألة خروجها، وحثته سهامته على البقاء لتقديم المساعدة لثلاثتهن حتى النهاية، لمحا وهي تعدو نحو ناصية الشارع فترجل من السيارة ليناديهما، لكنه انزعج من مناداتها باسمها علناً، انحنى نحو المقود لينزع مفاتيحه من مكانها، ثم اعتدل في وقفته وبدأ يسير في اتجاهها لكن اعترض طريقه مصادفة "هيثم"، كان الأخير في حالة يائسة، عضلات وجهه متقلصة، نظراته غائمة، أوقفه عنوة ممسكاً به من كتفيه ليسأله بنبرته الجادة:

- "هيثم"، جاي ليه دلوقتي؟

أجابه بصوته الأجوف ونظراته مثبتة على باب المشفى:

عاوز أطمئن على "همسة" يا "تميم".

ظل متشبثاً به حتى لا يتحرك، وقال:

-مش هاينفع.

هتف بحرقه ونظراته تزداد إظلاماً:

ليه بس؟ أنا معملتش فيها حاجة؟ ليه أتأخذ بذنب غيري؟

رد بعقلانية حتى لا يزيد الطين بلة بالضغط عليها في ذلك التوقيت الحرج:

-أنا عارف كل ده، بس صدقني الوضع مش مناسب للكلام.

استطاعت عيناه أن تبصرها وهي تجلس متألمة بالقرب من المدخل، هتف بلوعة وقد احتبست العبرات في مقلتيه:

هي هناك أهى، سيبنى أروحها.

أمسك بمعصمه ليحثه على التماسك وعدم الاندفاع قائلاً له بما يشبه الرجاء:

-معلش، اهدى، إنت كده هتبوظ فرصتك معاها!

دفعه بعصبية لينادياها:

- "همسة"!

وكان قدماه ركبت الريح فركض في اتجاهها، قطع الطريق في لمح البصر، ووقف عند كرسيها يلتقط أنفاسه، تطلعت إليه في صدمة، لكنه جثا أمامها يرجوها بصوته الباكي:

- اسمعيني يا "همسة"، اديني فرصة أشرحك اللي حصل!

ردت وهي تحاول لملمة كرامتها التي تبعثرت على يد والدته:

-معدتش في بينا حاجة

صرخ بهيسترية:

-أنا ماليش ذنب اقسم بالله، ومش فارق معايا حاجة، كل اللي عاوزه إنتي وبس!

أمسك به "تميم" من ذراعيه ليبعده عنها، وقال مبرراً:

-متأخذوناش يا جماعة، هو في حالة مش طبيعية.

هتفت فيه "آمنة" تتوسله:

-خده من هنا يا ابني، احنا مش ناقصين مشاكل، كفاية كده

عادت "فيروزة" لتتفاجئ بوجودها فصاحت منفعة في "هيثم" لتطرده:

-إنت بتعمل إيه هنا؟ ابعدي بقى عن أختي!

التفت "تميم" يقول مبادراً ليطمئنها:

-متقلقيش يا أبله، أنا هامشييه، صدقيني معرفش إنه جاي ثاني.

نظرت له شزرًا وبغل، ظنت أنه يقف وراء تلك المحاولة الرخيصة لاستجداء مشاعر أختها والتأثير عليها، وذلك ما ترفضه قطعياً، تجمع غضبها على وجهها وهتفت تتهمة قاصدة كشف تضليله لها:
-إنت كداب!

رد "تميم" مدافعاً عن نفسه بصوت قوي:

-إنتي غلطانة يا أبله! موصلتش لكده!

دمدم "هيثم" بصوته المختنق مستعظماً للجميع، ومبرئاً لساحته:

-أنا ماليش ذنب اقسم بالله، والله ما أعرف أي حاجة.

اتجهت "فيروزة" خلف توأمتها، ووضعت يدها على مسند الكرسي ثم قامت بدفعه وهي تأمرهما:
-وسعوا إتنو الاتنين..

ثم تابعت بحزم:

-دي صفحة اتقطعت من حياتنا.

لم يشعر "هيثم" بالخلج من نفسه وهو يستجديها، ليبدل أقصى ما يستطيع حتى تقتنع بمشاعره الصادقة، لذا اعترض طريق سيرها، وانحنى بغتة على الكرسي ليوقفه بقوته المتشنجة من مسنديه، شهقت "همسة" في قلقٍ من اقترابه الشديد منها، وحدقت فيه بعينين تائهتين، بينما نظر مباشرة في عينيها معترفاً لها بأنفاس مضطربة:

-أنا عاوزك إنتي، ومش فارق معايا حد غيرك إنتي وبس.

التفتت ناظرة إلى والدتها في خوفٍ، واستنجدت بها:

-ماما خليني أمشي من هنا.

وضعت "آمنة" قبضتها على ذراعه محاولة انتزاعه، وهتفت بصلاية

-وسع يا ابني لو سمحت.

اقترح "هيثم" بصوته اللاهث محاولاً معها حتى الرمق الأخير:

حطب تعالي هنوصلك بدل بهدلة المواصلات..

والتفت برأسه نحو "تميم" متابعاً باقي جملته:

- "تميم" ابن خالتي هنا، والعربية آ....

قاطعته "فيروزة" بصرامة وعيناها تطلقان شرارات الغضب:

-مش هايجصل، ابعدوا عننا!

قالتها ونظراتها ارتكزت على "تميم" الذي لم ينقصه إلا وجود ذاك السمج ليكتمل غيظ يومه، حيث كان "آسر" في تلك الأثناء يخترق البوابة حاملاً باقة من الورد بين ذراعيه، لفت أنظاره التجمع القريب منه، لكن وحدها كانت محط اهتمامها، هندم نفسه، وصاح منادياً وهو يدنو مبتسماً منها:

-آنسة "فيروزة".

سدد له "تميم" نظرة نارية محتدة، وتقلص وجهه بشكلٍ عظيم وهو يمر بجواره.. تفاجأت "فيروزة" بحضوره كالبقية، رفر جفناها بشكلٍ لا إرادي غير مرحب به، واحتفظت ملامحها بتأففها، لعقت شفيتها ورددت:

-أستاذ "آسر".

مرر نظراته على المتواجدين، وبلطفٍ لزج أزج "تميم" تحديداً استطرد يقول:

-الحمد لله إني لحقكم، حمد الله على سلامة أختك يا آنسة "فيروزة".

ثم انحنى على أختها ليناولها باقة الورد وتلك الابتسامة الصغيرة مرسومة على محياها، وضعتها "همسة" في حجرها ونظرت في حيرة إلى توأمها قبل أن ترد الأخيرة عنها:

-الله يسلمك.

أشار "آسر" بيده للخلف متابعاً بودٍ غريب قاصداً به "آمنة":

-أنا معايا العربية، اتفضلي يا أمي أوصلك.

اعترضت "فيروزة" فورًا:

-شكرا، مش محتاجين عربية، أنا جبت واحدة خلاص.

أصر عليها وقد أسبل نظراته عليها:

-والله ما ينفع يا آنسة "فيروزة"، مش هاقبل بالرفض، دي حاجة بسيطة خالص...

وقبل أن تعارضه تابع موجها حديثه إلى والدتها حتى يقنعها فتضغط على البقية بالقبول:

-وبعدين حضرتك يا حاجة بتفكريني بوالدتي الله يرحمها، يعني مقدرش أسيب أمي في موقف زي ده، أنا كده مش هاكون مبسوط، العربية موجودة، وأنا مش هاتعب في أي حاجة.

ظهرت علامات التردد على "آمنة"، ونظرت في حيرة إلى ابنتها التي رمقتها بنظرة تخبرها فيها بإعلامه برفضها، لكن الحالة المؤلمة التي كانت عليها "همسة" أجبرتها على الاختيار، فقالت مستجيبة لاقتراحه:

-خلاص يا "فيروزة"، مش هيجري حاجة، خلي الأستاذ يوصلنا.

انفرجت أسارير "آسر" وهتف في سعادة:

-اتفضلوا..

ثم بلباقة واضحة عليه استأذن من "فيروزة":

عن إذنك، أنا هازوئها، كفاية إتني تعبانة طول اليوم معها.

لم يمهلهما الفرصة للاعتراض عليه، أزاحما برفق بوضع يديه على مقبضي الكرسي مما اضطرها لسحب كفيها والابتعاد عنه.. تابع كلاً من "هيثم" و"تميم" العرض الرخيص الذي قام به ذلك الشخص الغريب، تصاعدت الدماء في وجه الأول واحمر غضبًا، بينما شعر الثاني باحتقانٍ يسري في كامل أوصاله، وقبل أن يهيم ابن خالته باللحاق بهم شد على معصمه ليثبتته وهو يأمره بصوتٍ غلفه الضيق:

خليك مكانك!

رد "هيثم" يسأله بغضبٍ مضاعف:

-هي رايحة فين؟ ومين اللطخ ده؟!

تنفس بصعوبة وببطء حتى لا يفقد أعصابه، ثم أردف قائلاً بخشونةٍ ونظراته تتبع "فيروزة":

-سيدهم يا "هيثم"، مش هنعمل مشكلة على الفاضي!

غمغم الأخير لاعتنا ذلك الغريب بكلمات غاضبة وقد اندلع غضبه، لكنه لم يشعر بتلك النيران التي

استعرت في صدر "تميم" وانتشر لهيبها الحارق في خلاياه، وكان ذلك التبدل الذي صاحبه طوال

الفترة الماضية قبل أن يتعرف أكثر لـ "فيروزة" - قد تحول لنوع مغاير من المشاعر الغريبة، لكنها

حتمًا ستلازمه كثيرًا !!

.....

الفصل الخامس والثلاثون

أوصله إلى منزله ليضمن ابتعاده ولو بشكلٍ مؤقتٍ عن اختلاق المشاكل، ثم تابع القيادة إلى بيته، فهناك معركة مؤجلة بينه وبين "خلود" حتماً ستشعلها فور عودته .. كانت زوجته تلتني لهذا النوع من الناس الذي لا يلوم نفسه أبداً، المبررات متواجدة لأي كارثة ترتكبها، من وجهة نظره المحدودة كان رده في هذا الموقف العسير إلزامياً لإيقاف سموم كلماتها القاتلة، دس المفتاح في قفله وهو يتوقع انتظارها له، صدقت توقعاته وكانت بالفعل جالسة على الأريكة في حالة تحفز واضحة .. وما إن أغلق الباب خلفه حتى انتفضت واقفة، نظرت نحوه مطولاً بنظرات يملأها الغل، ثم سألته بغضبها المشحون لساعاتٍ في صدرها:

-خلصت اللي وراك؟ فضيت دلوقتي عشان نتكلم؟ ولا هتطنشي- زي ما رمتني في الشارع ولا كأي كلبة تعرفها مش مراتك اللي ليها حق عليك؟!

نفخ مطولاً وهو يهمس لنفسه:

-اللهم طولك يا روح.

انفجرت تلومه على الفور لتنشط ذاكرته بما ارتكبه في حقها:

طبعاً عمرك ما هتطلع نفسك غطان مها عملت!

لم ينكر أنه شعر بالخجل من نفسه، لكنها كانت كفيلاً باستفزازه وتبديد أي إحساسٍ بالندم، ألقى "تميم" بميدالية مفاتيحه على الطاولة، وتابع السير عبر الردهة متجاهلاً إياها، لكنها لحقت به ولسانها الصارخ يسبقه في إلقاء التهم عليه بصورة تهكمية:

-كنت عندها صح؟ واطمنت عليها يا معلم؟ ما هي الأبله بتاعتك أهم من مراتك اللي بهدلتها وضربتها وأهانتها عشان ترضيها!!!

لم ينقصه سوى صراحتها الفجة لتوقظ مشاعره الحاققة، رد يحذرهما بخشونة وقد نفذت قواه على الصبر:

-بلاش تحوري وتهلفطي في الكلام، والأحسن خلينا نتكلم بعدين، لما نهدي احنا الاتنين.

أسرعت "خلود" في خطاها لتتجاوزته وهي في قمة غيظها، ثم وقفت أمامه ترمقه بعينين تقدحان بالغضب، امتدت قبضتها لتمسك به من ذراعه، ثم أدارت وجهها للجانب وهي تصرخ فيه:

-أحور؟ ده إنت إيديك لسه معلمة على وشي، شايف؟!!!!

أطبق شفتيه مانعاً نفسه من الرد عليها، كان رده عنيفاً معها، ولكنه كان الخيار المناسب -من وجهة نظره- لإخراس لسانها الطائش، هدرت تلومه بصوت مال للاختناق لتشعره بفداحة جريرته:

-وطبعاً مش ندمان! ما إنت راجل! محدش هيلومك إن عملت فيا ما بدالك..

انفجرت في نوبة بكاء لتبدو سهلة الإقناع وهي تكمل تعنيفها له:

-واحدة غيري كانت قلبت الدنيا على ضربك ليها، بس أنا طبعاً لأني غبية وبأجبك استحملت الإهانة ومافتحتش بؤي، اضربت وسكت عشان خاطرک.

علقت غصة مؤلمة في حلقه بتذكيرها لتهوره، وقال مبرراً على مضيض وهو يتحاشى النظر نحوها:

-إنتي اللي خلّيتني أوصل معاكى لكده.

تحركت لتقف أمام عينيه، وهتفت بنبرة ناقمة:

-أيوه إنت الملاك البريء وأنا الشيطان الرجيم!!!!

رمقها بنظرة حادة قبل أن يسألها:

-إنتي مش شايفة إنك غلطانة؟

ردت نافية بوجه مكفهري:

-لأ طبعاً، أنا بأعمل زي أي واحدة مكاني تهمها مصلحة أخوها

هتف مستنكراً تبرير وقاحتها الفجة:

-وده كلام يتقال؟ بتعايري البت بأختها اللي أصلاً متعرفش حاجة

نظرت له بقساوة وهي تعقب عليه بنبرة أشد تشنجاً مستخدمة يدها في التلويح:

-وانت الصراحة كنت ذوق على الآخر معايا، ده إنت ضربتني قصادها؟
الترم "تميم" الصمت وهو يراها تشير إلى صدغها الملتف، عمدت "خلود" إلى خفض نبرتها حين
تابعت بصوت يكسوه القهر:

-إنت وجعتني، وكسر قلبي اللي بيحبك.

أغمض عينيه لوهلة تاركا إحساسه بالذنب يتغلغل فيه، واستغلت تلك النقطة ببراعة فأضافت
ضاغطة عليه ليعترف بخطئه:

-إنت ليه ساكت؟ قول إنك ندمان على اللي عملته فيا؟ قول إنت البت دي تستاهل تهزق، مش
أنا مراتك حبيبك اللي اتعامل كده.

حقًا كان تبدد أي شعور يراوده بإعادة التفكير في تصرفه العنيف بكلماتها الحاقدة التي تم عن جانب
بشع مناقض كليًا لشخصيتها المستكينة، نظر لها شرًا وبوجه مقلوب، اغتاضت من سكوته
فأمسكت به من ياقته تهزه بعنف وهي تصرخ لائمه:

-رد عليا يا "تميم"؟ إنت مبسوط لما بتشوفني كده؟ ليه بتبعدني عنك؟ ليه بتعاملني زي الغريبة؟
ده أنا مراتك مش واحد صاحبك، ياخي ده إنت أصحابك عارفين كل حاجة عنك أكثر مني.

لم يجد بدءًا من ذلك النقاش العقيم معها، لن تعترف بخطئها، ولن يظهر لها ندمه إن كان يشعر به
بالفعل، وضع قبضتيه على معصمها، وأزاح يديها بعيدًا عنه ليتمكن من السير، تبعته بصوتها المنفعل
تلومه بجرقة:

-حرام اللي بتعمله فيا، حس بقى بيا، ده أنا بأموت قدامك، وإنت مش همك..

أكتسى صوتها بقساوة وتحدٍ سافر حين استأنفت التلميح عن قصد:

-أنا لو كنت مكانك، وبأكلم واحد غيرك ومن وراك، تفتكر كنت هتسمح بـ آ....

لم يطق كلماتها النارية التي أشعلت حميته الذكورية فاستدار هادرًا بها:

-متكلميش!

نظرت له باستهجانٍ قبل أن تسأله بنفس أسلوبها المتسلط:

-الغيرة وجعتك صح؟ ولا كرامتك نأحت عليك؟

أظلمت نظراته، واخشوشنت نبرته وهو يندرها:

-إنتي متجوزة راجل مش شرابة خُرج!

علقت بتلميح ماكر وهي تومئ بحاجبها:

-أديك مش قابل الفكرة، بس حلال ليك وحرام عليا

ثارت أعصابه بعد أن فشل في كبجها، فنهرا بلهجته القاسية:

-عارف إني غلطت، واتهورت، وخالفت عهدي معاكي، وضربت بالقلم.. بس إنتي كنتي الله ينور

قالها حريقة، لسانك زي المنشار عمال يحف في رقاب الناس، كنتي متوقعة مني إيه؟! أفضل

سأكت وساييك تسويي فيها؟!

توترت نظراتها مع ارتفاع نبرته واحمرار وجهه، وتشجعت قائلة ببحود:

-لكن تضربني عشان ترضي الصايعة دي، ومراتك اللي ضحيت بعمرك واستنتك سنين مش مهم

تموت بغيظها! رد عليا أنا كلامي صح؟!

توحشت نظرات "تميم" وهتف معبرًا عن تفكيره نحوها بصورة مُشككة فيها:

-مش دي "خلود" اللي أنا اتجوزتها، مش دي البني آدمة اللي بتحبني، أنا شايف قدامي واحدة

تانية، نسخة من خالتي، ده لو مكوتنش أسوأ منها!

خفق قلبها ارتعابًا من طريقته الغريبة في الحديث معها، وكأنه يظهر لها ندمه على ارتباطه بها، تنفس

بعمق وأضاف:

-ولما جيت اتجوزتك كان برضايا، قدرت فيكي انتظارك ليا بعد سنين الغيرة دي كلها، فبلاش كل

شوية تحسسيني إنك عملي معايا جميلة، وضحيتي وشبابك ضاع عشاني، يا ستي كنتي سيبيني

يوم ما اتحبست، والله ما كنت هالومك زي دلوقتي، على الأقل ساعتها كنا ريجنا بعض، وجايز
مكوناش وصلنا لكده النهاردة، إنك تعايري غيرك باللي بتعمليه.

امتلات مقلتها بالعبرات سريعًا، لم تقاوم انسيائها، تركتها تغرق وجهها وسألته بصوتٍ ما زال
يلومه:

-بقي دي جزاتي في النهاية؟ هو ده مقابل حبي ليك؟

رد بجفاء:

-الجواز مش كله حب يا "خلود"، في مشاكل كل يوم هاتقابلنا، واللي بيحب بجد مش هياذي
حبيبه!

ارتمت في أحضانه ومرغت رأسها في صدره وهي تبكي، لفت ذراعها حول خصره وحاولت ضمه
إليها، لكنه كان كالصخر جامدًا لا يظهر عليه التأثير بدموعها المذروفة، خرج صوتها متقطعًا وهي
تتسول مشاعره المفقودة:

-أنا بأحبك، ومستعدة أسامحك بس تفضل ليا، أنا معرفتش في حياتي إلا إنت.

لم يشعر بدفء جسدها المغربي، بدا كالشوك بالنسبة له، وهدوءٍ أخفى خلفه كومة من المشاعر
الحاقة انسل من بين أحضانها، وأبعد ذراعها عنه كأنه ينبذها، ثم تحرك مبتعدًا وقال بنبرة مليئة
بالجفاء:

- "خلود" أنا تعبان.

لم يذهب إلى غرفة نومها، بل غير وجهته لغرفة النوم الأخرى موصدًا الباب خلفه، أراد الانعزال
عنها لبضعة أيام، ليهدأ كلاهما، لكنها لم تتحمل جفائه، شعرت بدمائها تغلي للفظه المتعمد لتيار حبا
المتدفق، لحقت به وقبضت على المقبض محاولة فتح الباب، لكنها فشلت، فكورت قبضتها وطرقت
عليه بعنفٍ مواصلة صراخها اللائم:

-ماشي يا "تميم"، بس خليك فاكر إنت بتظلمني لإزاي.

أثاها صوته من الداخل يقول ببرود استنثار أعصابها التالفة:

-تصباحي على خير.

ضربت من جديد على الكتلة الخشبية وهي تغمغم بسببة خافتة، لكنها لم ولن تياس أبداً من تكرار المحاولة، فزوجها من حقها هي فقط.

.....

-أنا جمبك، فتمحليلش هم أي حاجة، أنا السند ليكي يا حبيبي.

رددت "فيروزة" تلك الكلمات المطمئنة لتبعث إحساس الأمان المفقود لتوأمها التي تكومت على نفسها في فراشها مستسلمة لأحزانها المتكالبة عليها، مسدت برفقٍ على شعرها المنسدل، وظلت تدلك عنقها في لطفٍ حتى بدأت تشعر بالنعاس، انحنت عليها تقبلها من جبينها وهمست لها:

-إنتي وماما أعلى ناس في حياتي، ربنا يخليكوا ليا.

وما إن تأكدت من سقوطها أسيرة لسلطان النوم حتى نهضت من جوارها، وبجرصٍ واضح في خطواتها أغلقت الباب بهدوء خلفها، أنهت "همسة" ادعائها الزائف باستغراقها في النوم عندما تأكدت من خروجها، فتحت عينيها وأعدت تجسيد المشاهد المؤلمة التي مرت بها دون أن تزيج الغطاء عنها، اختبأت أسفله وتلك الرجفة تسري في جسدها، كانت أجبن من أن توافق على إجراء تحليل الهرمونات لتتأكد من شكوكها، ارتعبت من فكرة احتمالية إصابتها بالعمق، سيطر على تفكيرها ذلك الهاجس المخيف، وقالت لنفسها:

-طب افرض طلع الكلام ده حقيقة، هاعمل إيه ساعتها؟

بدأت الأفكار السوداوية تهاجمها بقوة، استرسلت مع نفسها في جزع:

-ساعتها مين هايقبل يتجوز واحدة زي؟ ما فيش راجل هيرضى يعيش من غير عيال وخلقة يتباهى بيها؟ طب وأنا؟

بكت رغماً عنها تاركة لإحساسها بالقهر الانتشار فيها، ارتجفت شفتها حين اعترفت لنفسها بصوتها الخافت:

-مش هابقي أم!

انسابت دماغها أكثر مع تغلغل ذلك الشعور المؤلم بداخلها، كتمت أصوات شهقاتها بطرف الغطاء، وودت لو أعيدت عقارب الساعة للوراء فلم تسمع ما أذاها نفسيًا ودمرها معنويًا.

.....

تماثلت للشفاء تقريبًا وباتت قادرة على الحركة دون ألم موخز كالسابق بعد مرور بضعة أيام على عودتها للمنزل، والحق يقال أن والدتها لم تتوان عن رعايتها بشكلٍ مكثف لتفريق من أوجاعها وهي في صحة جيدة، سمعت "همسة" صوت الدقات المتكررة على باب المنزل وهي تجلس بالصالة تشاهد التلفاز، فقالت من تلقاء نفسها:

-هافتح أنا يا ماما.

وتمهلٍ خطت نحو الباب لتدير مقبضه، نظرت مدهوشة إلى الرجلين اللذين احتلا الفراغ أمامها، بدت مبهوتة بحضورهما غير المتوقع، تداركت نفسها وردت مرحبة ومشيرة بيدها حين ألقى عليها الحاج "سلطان" التحية:

-وعليكم السلام، اتفضلوا.

زيارة مفاجئة قرر أن يقوم بها الجد الكبير ومعه ابنه "بدير" لتلك العائلة لوضع بنود اتفاقية جديدة من أجل إتمام تلك الزيجة المعقدة فقط إن ارتضت "همسة" بها أو أضافت عليها بشروطها، أجلستهما في الصالون، واستأذنت بتهذيب:

-هأبلغ ماما إنكم هنا.

رد "بدير" بصوته الهادئ:

-وماله، وخالك شوية وهيحصلنا

تبادل مع والده نظرة مفهومة قبل أن يتابع:

-أنا مبلغه قبل ما أجي.

شعرت بالتوتر الحائر يصيبها، كانت متأكدة أن للأمر علاقة بـ "هيثم"، ذاك المثار الذي لم تتوقف عن التفكير فيه ليلة واحدة، ورغم قلقها من تلك الزيارة الجادة إلا نوعاً من المشاعر الفرحة الصافية سرت فيها .. تساءلت "فيروزة" في فضول:

-هو مين جه برا؟

أجابتها وهي تعض على شفتها السفلى:

-ده.. الحاج "بدير" وأبوه

تغيرت تعابيرها المرتخية حين تساءلت على مضض:

-ودول جاين ليه؟ مش خلاص فضينا الموضوع

هزت كتفها قائلة:

-معرفش

قالت "فيروزة" بنبرة عازمة:

-وأنا داخلة عندهم.

أمسكت بها "همسة" من ذراعها لتعلمها:

-وعشان تبقي عارفة خالك جاي كمان.

امتعض منزع تشكّل على محياها بعد أن سمعت ما قالته، زفرت معلقة عليها وقد فطنت نسيباً لأسباب ذلك التجمع الذكوري:

-أنا كده فهمت هما جاين ليه.

مسحت "فيروزة" بيدها على مقدمة رأسها لتسوي من خصلاتها المتنافرة، وبسمة متكلفة هتفت ترحب بهما:

-شرفت بيتنا يا حاج "بدير" ..

اقتربت منه لتصافحه، ثم التفتت نحو "سلطان" ترحب به بنفس ذات الابتسامة:

لـزي حضرتك يا حاج؟

أجاب الأخير في هدوء:

الحمد لله يا بنتي، احنا في نعمة ورضا من ربنا.

جلست موزعة نظراتها بينهما وهي تقول:

منورين، خير في حاجة مهمة؟

أجابها "بدير" بغموض:

دلوقتي هتعرفي، ماتستعجيليش يا بنتي.

هتفت بنزقٍ مستخدمة يدها في الإشارة للخلف:

أنا مجهزة الشبكة بتاعتكم، اعذرونا إن كنا تأخرنا عشان نرجعها، و...

قاطعها في ضيق:

دي خرجت من ذمتنا من زمان.

وقبل أن تسألها كان "خليل" يقف على أعتاب الغرفة مهلاً:

يا مرحاب بالناس الكمل.

بالطبع حضوره سيفسد أي محاولة منها لإنهاء ما يحاول إعادته، انضمت إليهم "آمنة" وقد أعدت صينية مليئة بأكواب الشاي، أسندتها على الطاولة وقامت بتوزيعها وهي تستقبلهم بوجهها الدائم، اتخذت مكانها بجوار ابنتها، وقبل أن يتطرق "بدير" للموضوع الهام الذي جاء من أجله استأذن قائلاً:

يا ريت بنتنا "همسة" تكون موجودة، لأن الكلام يخصها.

صح تخمين "فيروزة" وعبست ملامحها كلياً، تحفزت في جلستها، وكأنها تريد القتال، لكن بضغطة لطيفة من والدتها على فخذيها حثتها في صمت على البقاء ساكنة ريثما يُعرف بالضبط سبب الزيارة.

.....

اتضح الأمور بعد نقاش طويل مفصل، وعُرضت الشروط عليها لتفكر فيها مليًا قبل أن تمنحهم قرارها النهائي؛ حيث تقرر أن تقيم "همسة" في منزل صغير بعيد عن "بثينة" ومقره بالطابق العلوي ببنائة الحاج "سلطان" سيتم استئجاره باسمها لمدة خمس سنوات دون أن تدفع مليًا فيه لتكون تحت رعاية عائلة "بدير"، وبعدها يغدو ملكها، وسيتم فرشها بالأثاث الحديث، كذلك المحل الذي رغب خالها في تأجيره لأجل الإنفاق عليه وعلى أسرته سيتم شرائه ويصبح ملكًا بالمناسبة لكليهما، كما ستمنح مؤخر صدق لا بأس به إن فكرت في الانفصال لاحقًا ليغنيها عن الحاجة للآخرين، أما عن "هيثم" فإن تجرباً يومًا ومسها بسوء فالعواقب ستكون وخيمة عليه، لم تقبل "فيروزة" بكل تلك الضمانات، وهتفت محتجة:

- احنا مش في سوق عشان تبيعوا وتشترىوا في أختي، للدرجادي مافيش إلهي، ما تدورا على واحدة تانية غيرها

رد "خليل" معترضًا وفي صوته هجوم بائن على شخصها وقد بات وشيكًا من تحقيق أحلامه:

- ومين قالك إننا بنعمل كده؟ ده جواز على سنة الله ورسوله، بنوفق راسين في الحلال، والحاج "بدير" وأبوه الله يكرمهم قايمين بالواجب وزيادة، نرفض احنا ليه؟

قالت بنبرتها الساخرة وهي ترمقه بنظرة احتقارية يستحقها:

- ده لما تكون "همسة" شبه قريهم ومنسجمين مع بعض، لكن ده لا فكر ولا حتى تعليم، يعني من الآخر ما ينفعوش بعض أبدًا، وما تأخذنيش يا خالي، احنا كده بزميها عشان الفلوس.

قبض على ذراعها يشدها منه في غيظ:

- إنتي اتهبلي يا بت، بزميها إزاي يعني؟ خطيبها شاربها وعاييزها بشنطة هدومها، محدش غصبه على ده!

انتزعت ذراعها من يده انتزاعًا والتفتت موجهة حديثها إلى توأمها لتفتح بصيرتها:

- إنتي رأيك إيه يا "همسة" في ده؟ شايفة إن "هيثم" يناسبك؟ ده أمه وأخته قاموا معاك بالواجب من غير أي حاجة، هتستحملي تعيشي - مع ناس مش طايقينك، ليه تعرضي نفسك للمهانة من تاني معاهم؟ وعشان مين؟

ثم حركت رأسها نحو والدتها متابعة حديثها حتى تدعمها:

-وانتي موافقة يا ماما ترمي بنتك لواحد الله أعلم هيعمل فيها إيه لو أمه قلبته عليها؟

صاح "خليل" عاليًا ليوقف ما اعتبره هراءاتها:

-يا شيخة الناس جاينين بتقلهم و متمسكين بيها، وأكدوا ما فيش حد هيمسها بسوء

هتفت في سخطٍ ونظراتها الحادة مرتكزة عليه:

-والمفروض أنا أصدق، "همسة" مش مروحة ولا تلاجة عشان أخط في بطني بطيخة صيفي وأطنش لأن معايا الضمان، أسفة يا خالي بس أنا مش موافقة.

كز على أسنانه بقوة وعينان تطقان حنقًا منها، لم تعبأ بتهديده البائن في نظراته وملامحه، الأهم أن تطمئن على أختها، لكنها تخشبت مصعوقة في مكانها عندما نطقت "همسة" بصوت أجوف نهائي:

-أنا موافقة اتجوز "هيثم"!

للمرة الثانية خذلتها وأجبرتها على أن تحني رأسها في انهزام، رمتها "فيروزة" بنظرة مقهورة مستجدية ترجوها فيها بالتراجع، لكنها أكدت من جديد بوجه جليدي، وصوت ثابت، وكأن واحدة أخرى هي من تتحدث:

-أنا مش هلاقي أحسن منه ليا.

.....

سبع سنوات عجاف مرت عليه بصعوبة شديدة خلال فترة حبسه، كان مذاق أيامه فيها كالزقوم في جوفه، لم يهنا لليلة واحدة طوال تلك المدة التي ظن أنها لن تمضي أبدًا لطولها المستهلك للأعصاب، كانت الدقائق كالساعات، والساعات كالأيام، بصعوبة استطاع أن ينجو وسط تلك البيئة الإجرامية التي تخشبت فيها أخلاقيات البشر بأسوأ وأخطر السلوكيات المنحرفة والمهلكة للإنسانية، كانت تحميه غريزة البقاء وإن كانت على حساب الآخرين، المهم أن يُبقى على حياته .. وتلك الليلة كانت مجرد البداية لدوامة من التعاسة، عانى "تميم" من نفس ذلك الشعور العميق بالخوف من المجهول، حين كان يغفو بنصف عين حتى لا يقتل غدرا، تملكه نفس الإحساس المستنزف لأعصابه

وساد لأيام متتالية قرر فيها مجافاة زوجته عليها تتعلم درسها، لكنه بقي معظم ساعات الليل ساهما ومحبطًا، تمحص في مشاعره المتخبطة حتى وصل لנקطة أدرك فيها أنه لم يجب "خلود" يومًا، بل لم يبادلها أي نوع من المشاعر سوى تلك التلقائية الناجمة عن القرابة بينهما، لم يجذب أن يعود لتلك الذكريات.

تقلب على جانبيه في الفراش الضيق، والذي عزز من تذكيره لحياته البائسة في السجن، ألقى "تميم" بالغطاء على الأرضية بركله بقدمه، أحس بارتفاع حرارة جسده، تضاعف توتره وانزعاجه، أطبق على جفنيه ليجبرهما على النوم، أبي كلاهما الانصياع له وظل باقيا لوقت لا بأس به حتى تمكن منه الإرهاق وسقط في غفوة قصيرة، حينها داهمت أحلامه بوقتها المتعالية وأنها المرفوع للأعلى في إباءٍ تُجيد التعبير عنه، كانت كالطاووس في زهوها، سموخها، ورغبة الغير في امتلاكها، اقترب ليتفحصها عن قربٍ وهي ترتدي ذلك الثوب الحريري الأبيض الذي تحركه نسائم الهواء بانسيابية عجيبة، برزت ساقها اليسرى في إغراء مستفز فتجمدت نظراته على بشرتها الناعمة.

كان مدهوشًا بكل ما يخصها، رفع نظره ببطءٍ ليجوب على فائقته، معذبة أحلامه ودقات قلبه تعدو بسرعة أكبر، فتلك المرة جاءتته وفي عينيها تحدٍ مغرٍ، حفزت مشاعره العميقة واستدعتها ليغدو مهددًا بالسقوط صريع إغرائها الفتاك، ألحت عليه رغبة شديدة بالتمتع بها، باختراق أنسجتها، بالفوص معها في متعة لا حصر لها، بلع ريقه وتودد إليها بشكل لم يستطع السيطرة فيه على نفسه، وكأن كل حواسه ورغباته اتحدت معًا لتدفعه دفعا لإشباع تلك النزوة المحرمة، مد يده خلف عنقه ليجذبها إليه، والتقم شفيتها الشهيتين بشفتيه، أحس باحتباس أنفاسه، باختناق رهيب يجثم على صدره، حينئذ استفاق من أحلامه الجاحمة وشفتي "خلود" تطبقان على خاصته بقوة لتحصل على قبلات مطولة عميقة، نفض جسدها المسجي عليه كالمذعور وهو يسألها بأنفاس لاهثة من فرط الانفعال:

إنتي بتعملي إيه؟

همست بصوت بطيء ينهج:

أنا بأحبك.. مقدرش أبعد عنك

هبط عن الفراش وهو يكاد لا يصدق محاولتها لنيل متعتها خلال غفوته، ألقى نظرة منزعجة عليها فوجدها قد تأقت في ثوب حريري شفاف من اللون الأصفر يظهر أكثر مما يخفي، ابتلع ريقه بصعوبة، وحاول ضبط انفعالاته غير المنتظمة ليستعيد هدوئه، زحفت "خلود" على الفراش لتنزل ساقها من عليه، وقفت قبالة بصرها المتهدج وتلمست ذقنه بأناملها في حركة ناعمة مغرية، أسبلت عينيها نحوه لتطالعه بنظرات مليئة برغبة جائعة، خبت نبرتها قائلة له:
-أنا عايزاك ليا وبس.

أمسك بأناملها بيده التي بدت جافة في تعامله معها، ورد متسائلاً بتجهم:

-إنتي دخلتي إزاي؟

أجابت ببساطة:

-كل مفاتيح الأوض واحدة بتفتح أي باب، إنت نسيت ولا إيه؟ مش كفاية خصام؟

نفخ في ضيق واضح عليه، وقال وهو يجرر أصابعها من قبضته:

-ماشي يا "خلود".

التصقت به ليشعر بنعومة جسدها عليه فتوقظ الرغبة فيه، وقالت بدلال:

-أنا نفسي فيك أوي يا حبيبي، إنت وحشتني.

بالطبع لم يكن في حالة مزاجية رائعة ليتقبل منها ذلك النوع المستهلك من المشاعر المحفزة للرغبات

وجذبه باستماتة إلى الفراش، تنفس بعمق، واستطرد دون أن يجرحها:

-بعدين يا "خلود"، أنا تعبان ومش قادر.

تحولت نبرتها للصراخ فجأة وقد تبدلت تعابيرها الهادئة لعواصف وشيكة:

-إنت بترفضني؟ ده أنا مراتك، ومن حقي أتمتع بجوازي منك، ياخي ده أنا جاية على نفسي—

وبأصالحك، ولا خلاص ما بقتش أنفع وآ.....

قاطعها بخشونة:

-إنت بتفسري المواضيع على مزاجك، قولتلك أعصابي تعبانة، مش قادر أعدي اللي حصل سواء منك أو مني كده عادي، أنا بشر وبأحس.. خيلنا ناخد وقتنا.

قالت في صوت هامس وناغم لتغريه وهي تقترب منه لتمسك بيده وتجبره على تلمس مفاتها حتى يذوب الجليد بينها:

-وأنا عاوزة أنسيك اللي حصل ده كله.. ونبدأ من جديد

وجد "تميم" نفسه عاجزًا عن مبادلتها أي مشاعر ولو بالإكراه، كان ناقمًا على تصرفاتها السيئة، ولم يتجاوز ما فعلته بعد، أما هي فقد كانت عاقدة العزم على ألا تتركه يهرب من محالها بسهولة، ستطوقه بجيلها التي تتفنن فيها لتهلك أعصابه، وتجعله خاضعًا لها ليشبع تلك النشوة الوقتية، المهم أن يكون بين يديها الليلة، لذا تدلت عليه أكثر، وشرعت في تقبيله بشغف محوم، كانت متأكدة من تأثيرها عليه، حاول الهروب من حصارها فقال وهو يداعب طرف ذقنها:

طب هاعمل لنفسي قهوة الأول، خيلني أفوق كده معاك.

كان اقتراحًا جيدًا للفرار بهدوء حتى يفكر في طريقة يتخلص بها منها، هتفت "خلود" من ورائه بصوتها المغربي وبأنفاس حارة:

-ماشى يا حبيبي، وأنا هستنك في الأوضة الثانية، متأخرش عليا، أنا على نارى لحد ما تيجي.

اللا تعبير كان الأبلغ في الرد، لذا لم يعلق عليها واتجه إلى المطبخ وباله مشغول بالبحث عن حل سريع لينجيه من ليلة غرامية ليست في وقتها، وقف في المنتصف حائرًا، لا يعرف أين تضع لوازم إعداد القهوة، فتح الأدراج يفتش بتلك عما يحتاجه، وكأنه بذلك يكتسب المزيد من الوقت حتى يصفو ذهنه المشوش ويصل لما يرضيه ولا يجرهما.. أحضر الكنكة، والمعلقة، وتبقى له إحضار البن وكذلك السكر، وجد ضالته في الدرج العلوي، لكن لفت أنظاره تلك الزجاجاة الداكنة الغريبة والخبأة في الخلف، مده ليلتقطها وتفحصها عن كذب بعينين مدققتين، تساءل في استغراب حين لم يجد أي بيانات توضح ماهية الموجود فيها:

-إيه العلبة دي؟!!

نزع الغطاء البلاستيكي الأبيض عنها ودلق ما فيها في راحته، اعتلته دهشة مستريية وقد تناثرت حبات دواء زرقاء على باطن كفه، انتقى واحدة وتفحصها في اهتمام متسائلاً مع نفسه، وكأنه يفكر بصوتٍ مسموع:

غريب أوي البرشام ده! ده بتاع إيه بالضبط؟

ساورته الشكوك حول طبيعته، وبنظرة ذكية تابع حديث نفسه:

ده لا عليه بيانات ولا اسم ولا أي حاجة!

استراب أكثر في طبيعته، لكنه لم يضع في باله أدنى احتمال بأن يكون ذاك النوع المعروف بالمنشطات الجنسية، وإن كان لونه المميز يدعو للشك، أعاد حبات الدواء للزجاجة فيما عدا واحدة احتفظ بها في راحته ليربها لها، وخرج من المطبخ وعقله يردد:

طب هي حطاه هنا ليه؟!

احتفظ بالعبلة في جيبه حتى يتحرى عنها، وسار ومعه الحبة عائداً إلى غرفة النوم، احتضن القرص بين سبابته وإبهامه ليتمكن من رفعه أمام عينيها متسائلاً:

- "خلود"، البرشام ده بتاع إيه؟

وكان عقرباً ساماً لدغها في جلدها، انتفضت من رقدتها المغربية لتتطلع إليه بنظرات مرتاعة، هربت الدماء من وجهها، وقالت بتلعثم:

ده.. ده.. بتاعي.

سألها وهو يراقب ردات فعلها المثيرة للشك:

- ويعمل إيه في المطبخ؟!

حاولت أن تستجمع نفسها لتبدو هادئة، لكن تمكن منها خوفها من اكتشاف حقيقة الدواء، ازدردت ريقها وواصلت القول كذباً:

دي فيتامينات عشان لما آ.. بتيجلي الظروف كل شهر.

تعقدت تعابيره وانعقد حاجباه، لم يكن مقتنعًا بما تقوله لكونه المسئول عن إحضار ما يخصها من لوازم نسائية، فتحرى أكثر منها بملاحظتها بأسئلته:

-إنتي مقولتليش عليه مع إني بأجيبك كل حاجة من الصيدلية، ده عبارة عن إيه يعني؟
أعملت عقلها بقوة لتخرج كذبتها مرتبة مقنعة وهي تجيبه:
-ده كان من أمي، كنت بأخده من وأنا بنت.

سألها بنظرة متشككة:

-وليه مافيش عليه بيانات؟ وبعدين ما تحطيه مع باقي الدوا طالما مهم!
ارتبكت أنفاسها من أسئلته التي لا تنتهي، وأجابت بتوتر:
-عشان مانسهوش، ويبقى قريب مني..

ثم تصنعت الالبتسام وسألته دون أن تختفي نظرات القلق من عينيها:
-وبعدين إنت شاغل بالك بيه ليه؟

دنت منه وألقت بذراعها على كتفه متسائلة في خبث، ونظراتها إليه غير مريحة:
-مش إنت سايب العلبة في المطبخ؟
أجاب نافيًا:

-لأ.. دي في جيبِي.

ارتجفت وقفز قلبها في قدميها رعبًا بعد جملته التي هددت بالإطاحة بكل أحلامها إن أكتشف أمر الدواء، جاهدت لتحافظ على ثباتها، ولكن اهتزت بسمتها وبدت مبهوتة مما أثار ريبته، حاولت التغطية على رجفتها وتغنجت في وقفتها لتبدو أكثر إغراءً وهي تطلب منه:
-طب هات العلبة، وأنا هاعينها مع باقي الدواء!

استشعر رنة قلق خفيفة في صوتها بالرغم من ميوعتها، وقال معاندًا:

-أخليه معايا، ماهو مش أي حاجة تتأخذ كده وخلاص! مش جايز مُضرة، حتى لو كانت من أمك.

سيطر عليها خوفها وأصرت عليه بصوت متعصب:

-يا "تميم" دي فيتامينات، وأمي متعودة تجيها لي.. ما فيش فيها حاجة.

قال بنظرات غريبة تتفحص تباين ردات فعلها القلقة:

-وأنا روح فين؟ خليه معايا لحد ما أجيبك أنا زيه.

تدلى فكها السفى في ارتعابٍ أشد، حتماً سينكشف أمره وتصبح في خبر كان، اختفى الوجع

المسيطر على نظراتها ليحل الخوف كبديل عنه بشكلٍ مبالغ فيه، ووبرود لم يرحمها أضاف "تميم":

-أنا هاعمل القهوة، وراجع.

ردت بصوتٍ مضطرب وقلها يخفق بتوتر:

-خذ راحتك، أنا أصلاً حاسة إني دايفة ومش قادرة، الظاهر إن معاك حق، أنا هنام

هز رأسه في تفهم وهو يقول لنفسه بارتياح:

-الحمد لله جت منك.

انتظرتة حتى اختفى عن أنظارها ودارت في الغرفة بعصية متواترة، فركت كفيها المتعرقين بذلك

العرق البارد معاً، ورددت بصوتها المذعور:

-لازم أخذ منه العلبة دي، واتخلص من اللي فيها النهاردة قبل بكرة، وإلا لو عرف ده إيه هاروح

في داهية!

.....

لم يغمض لها جفن وبقيت ساكنة وهي تستلقي إلى جواره على الفراش تعد اللحظات عدًا حتى

تتمكن من إتمام مهمتها الطارئة، أرهفت "خلود" السمع إلى أنفاسه التي بدأت تنتظم لتعلن عن

استغراقه في النوم، حينها أزاحت الغطاء عن جسدها المتلبك ونهضت بتباطؤ حريص من عليه

الأعمال السابقة للكاتبة منال سالم:

الأعمال الإلكترونية:

- دعني أحطم غرورك
- رهان ربحه الأسد
- الفريسة والصيد - الجزء الأول
- خطأ لا يمكن إصلاحه (رفقاً بالقوارير)
- فريسة غلبت الصيد - الجزء الثاني
- فراشة أعلى الفرقاطة - الجزء الأول
- دمية لعنها الحب (نوفيلاً قصيرة)
- كتاب الحب (وفيلاً قصيرة)
- سيدرا (نوفيلاً)
- وجه لا يصدأ أبداً (نوفيلاً قصيرة)
- اليوميات الرمضانية (نعمل إيه في أماني، حتى مطلع الفجر، في بيتنا بطة، خير يعودك شر يرجعك)
- أربعة شكلوا حياتها (رواية شرقية)
- شهد الأفاعي (رواية شرقية)

- كبرياء رجل شرقي (نوفيلاً قصيرة)
- راسين في الحلال
- ذئاب لا تعرف الحب (الجزء الأول)
- ذئاب لا تغفر (الجزء الثاني)
- وانحنت لأجلها الذئاب (الجزء الثالث)
- فتاة الكومبو (نوفيلاً قصيرة)
- ميري يتحدى ملكي (يوميات رمضان مشتركة مع ياسمين عادل)
- وبقي منها حطام أنثى (عمل روائي مشترك مع ياسمين عادل)
- دواعي أمنية .. مشددة
- الدكان
- ذو الوشم (قصة قصيرة)
- أطياف عابثة (قصة قصيرة)
- قبضة من أثرها (قصة قصيرة)
- المكتوب الأخير (قصة قصيرة)
- وسقطت ورقة التوت (قصة قصيرة)
- ديلارا (قصة قصيرة)
- هي والربان (الجزء الثاني من فراشة أعلى الفرقاطة)
- خطوات نحو الهاوية (قصة قصيرة)
- المحترم البربري

- الحب.. أوس (ملحق ثلاثية الذئاب-جزء رابع)
- أوتار الفؤاد.. أوس (ملحق ثلاثية الذئاب-جزء خامس)

الروايات الورقية:

- كلارا (عمل مشترك مع حنين الحسيني) عن دار إبداع
- ذئاب لا تعرف الحب (الجزء الأول) عن دار إبداع
- ذئاب لا تغفر (الجزء الثاني) عن دار إبداع
- وانحنت لأجلها الذئاب (الجزء الثالث) عن دار إبداع
- للحب شعائر خاصة عن دار إبداع
- رفقا بالتقارير (الجزء الأول) عن دار إبداع
- مريم ابنة عمران - لم أك بغيا عن دار إبداع

